تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م

كان التاريخية

Dawriyyat Kān al-Tārīẖiyyat

تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر

Kan Foundation for Studies Translation and Publishing

HTTPS://KAN.JOURNALS.EKB.EG

سبتمبر ٢٠٢٣ – صفر ١٤٤٥

السنة السادسة عشرة

61

@kanhistorique /historicalkan

Kan Historique périodique

Historical Kan

رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء

ISSN: 2090 - 0449





دورية كان التاريخية.- س١٦، ع٦١ (سبتمبر ٢٠٢٣/ صفر ١٤٤٥)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīḫiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 16, no. 61 [Sep. 2023]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢٣.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوى ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2023.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.



ISSN: 2090 – 0449 Online

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

https://kan.journals.ekb.eg



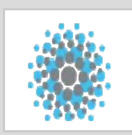
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de

المشرف العام

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

الهيئة الاستشارية

الهيئة العلمية

هيئة التحرير

" حسب الترتيب الأبجدي

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات التّي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

جميع حقوق الطبع والنشر الورقي والرقمي والترجمة محفوظة لدورية كان التاريخية، وبموجب الاعتماد والتسجيل الممنوح للدورية يحق لرئيس التحرير اتخاذ الإجراءات القانونية تجاه أي فرد أو مؤسسة أو موقع على شبكة الإنترنت يعيد استخدام محتويات الدورية بدون اتفاقية قانونية.

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المّحَكَّمة.

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى (Q3) في **معامل التأثير أرسيف**.

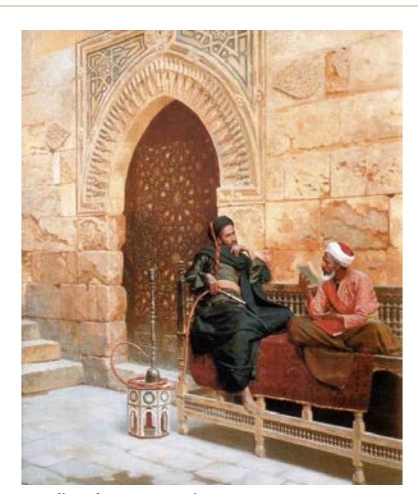
عضو في **الجمعية الدولية للمجلات العلمية** الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



Reading the Letter, Cairo, 1899
Ludwig Deutsch
French 1855 – 1935

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

historicalkan
groups/kanhistorique
kanhistorique
kanhistorique.blogspot.com
goodreads.com/kanhistorique
www.kan.nashiri.net



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان التَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلاّت العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللاّزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التَّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨. كان التَّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحررين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية. يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

COPE

دَّورية كـان التَّاريْخية هـي دورية علميـة عالميـة مُحَكَمـة تعتمـد سياســة المراجعــة المزدوجــة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمـة والنشرـ. إن الهــدف الـرئيس مـن الدورية هـو دعـم الدراسـات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعـة أعـداد في السـنة وتقبـل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربيـة والإنجليزيـة. كـما تنشرـ الدوريـة مقـالات أصليـة وعاليـة الجــودة في مجــالات العلــوم المساعدة ذات العلاقـة، ويشـمل ذلـك كـل العلـوم نظـرًا لطبيعـة التـاريْخ كعلـم يتنـاول النشـاط الإنسـاني كافـة. ويشـمل ذلـك مجموعـة واسـعة مـن مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيــف كبــير مــن القــراء ذوي التخصصات المتعددة.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أجور المحكمين

- لا تعتمد دورية كان التاريخية أية رسوم مقابل المراجعة العلمية والتحكيم والمراجعة اللغوية والتنسيق والنشر والأرشفة وفهرسة المقالات والدراسات.
- يتعاون مع دورية كان التاريخية بصفة تطوعية هيئة من المراجعين والمحكمين من ذوي الخبرة البحثية والمكانة العلمية المتميزة. ولا تدفع الدورية أية مكافآت مالية مقابل عملية المراجعة والتحكيم وتقييم المقالات والدراسات المقدمة للنشر.

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرِفوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

أ.د.	إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د.	إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د.	أحمد عبد الله الحَسُّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د.	أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق
أ.د.	إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د.	أمين محمد علي الجبر	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر
أ.د.	بديع العابد	جامعة الإسراء	الأردن
أ.د.	بشار محمد خليف	مركز حضارات المشرق العربي	سوريا
أ.د.	بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د.	الحسن تاوشيخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د.	حسين صالح حسين العنسي	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليابس	الجزائر
أ.د.	خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د.	ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د.	سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د.	سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د.	شعيب مقنونيف	جامعة " أبوبكر بلقايد " تلمسان	الجزائر
أ.د.	صالح محمد زكي اللهيبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د.	عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د.	عبد الرحيم مراشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د.	عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د.	عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د.	عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د.	عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د.	كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د.	كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر
أ.د.	لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د.	مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د.	محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د.	مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د.	وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

رسوم النشر

تلتزم دورية كان التاريخية بمجّانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلّفين من جميع رسوم النشر والمراجعة والتحكيم.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشْر

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفة الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَرِ

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

مكافآت الباحثين

لا تدفع دورية كان التاريخية أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما يُنشر في الدورية إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي عامة ومجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّوريةُ كَان التَّارِيْخِية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية
  https://www.facebook.com/historicalkan
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
  mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَيَاتُ الْعَدَدِ

كُتَّاب الْعَدَدِ



ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

مندوبو الملك المصري في بلاد كنعان
خلال عصر العمارنة



أ.د. فاروق عباس إسماعيل
أستاذ اللغات السامية وحضارات الشرق القديم
جامعة حلب "سابقًا"
الجمهورية العربية السورية

مُلَخّصْ

تعود نصوص المراسلات المكتشفة في موقع تل العمارنة (أخت أتون) قرب مدينة المنيا في جنوبي مصر إلى فترة معينة من القرن الرابع عشر ق.م، وهي مكتوبة بالكتابة المسمارية واللغة الأكّدية (البابلية الوسيطة). وهي تُعدّ المصدر الرئيس للبحث في تاريخ بلاد كنعان وبلاد الشام عامة، إبّان مرحلة تاريخية مهمة شهدت كثيرًا من الأحداث الداخلية والخارجية. استقر النفوذ المصري في بلاد كنعان منذ عهد تحتمس الرابع (١٤٠١-١٣٩١ ق.م) الذي تحالف مع الملك الميتاني أرتتما الأول، ونظم الحدود المشتركة بينهما في سورية، وباتا يشكلان معًا قوة تمنع الحثيين في الشمال من التفكير بغزو الممالك المتعددة الصغيرة القائمة في مناطق سورية (الحالية) الداخلية والساحلية. كانت مصر قوة كبرى، فرضت نفوذها على مناطق بلاد كنعان الساحلية، وأوفدت إلى عدد من مدنها الكبرى مندوبين يقيمون فيها؛ إلى جانب الحكام المحليين، ويتابعون أعمالهم، ويوجهونهم، ويراقبون الأوضاع العامة، ويكونون صلةَ الوصل بين القصر الملكي المصري وبينهم. يهدف البحث إلى التعريف بأولئك المندوبين، وتوضيح علاقتهم بالحكام المحليين، ودورهم في إدارة شؤون بلاد كنعان.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٨	يوليو	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	٢٨	أغسطس	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

تاريخ الشرق القديم؛ النصوص الأكّدية؛ العمارنة؛ بلاد كنعان؛ المملكة المصرية الحديثة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.339154 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فاروق عباس إسماعيل. "مندوبو الملك المصري في بلاد كنعان خلال عصر العمارنة".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ١٤ – ٢٦.

Corresponding author: faroukism@hotmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

إن المصدر الرئيس لموضوع البحث هو النصوص المدونة بالكتابة المسمارية، واللغة الأكّدية (البابلية الوسيطة)، المكتشفة في تل العمارنة جنوبي مدينة المنيا المصرية، الذي يضم في طياته آثار مدينة آخِت آتون التي أمر ببنائها الملك أمنحتب الرابع/ أخناتون (١٣٥٢-١٣٣٦ ق.م).[١] وتعود الأحداث الموصوفة فيها إلى مرحلة من القرن الرابع عشر ق.م (١٣٦٠-١٣٣٦ ق.م)، ولذلك عُرفت تلك الفترة في الدراسات بـ "عصر/ حقبة/ فترة العمارنة".

هي نصوص رسائل تبادلها ملوك مصريون من الأسرة الثامنة عشرة مع ملوك كبرى ممالك الشرق القديم (ميتاني، خَتّي، بابل) وملوك آشور وأرزاوا وألاشيا، وملوك أو حكام كانوا يحكمون مدنًا في بلاد الشام (سورية، لبنان، فلسطين، الأردن). وهي تصور طبيعة علاقات مصر مع الكيانات السياسية الكبرى والصغرى التي ذكرناها، كما تضيء جوانب من العلاقات فيما بين تلك الكيانات، والأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فيها.[٢]

تتميز ضمنها مجموعة الرسائل المرسلة من حكام بلاد كنعان الخاضعة للنفوذ المصري، تصور المشكلات الداخلية، والصراعات بين المدن المتجاورة، وطلب التدخل المصري، وتأكيد الولاء لمصر. وكان مفهوم تسمية "بلاد كنعان" يشمل آنذاك جميع مناطق الساحل الشرقي للبحر المتوسط، بدءًا من خليج اسكندرون (بلاد دانونا) في الشمال، حتى غزة في الجنوب، وما يتصل بها في المناطق الجبلية شرقًا لمسافة قصيرة.[٣] نشأت في هذا الإطار الجغرافي كيانات سياسية عديدة صغيرة؛ هي أوجاريت وسيّانو في أقصى الشمال، وكانتا منعزلتين عن الأحداث الجارية خلال عصر العمارنة، ثم جزيرة أرواد، وأمورو في الشمال. وفي وسط البلاد كان أهمها جُبْلا (جُبيل)، ثم بيروتا (بيروت) وصيدون (صيدا) وصورّي (صور). أما في الجزءِ الجنوبي فقد كان الوضع مختلفًا إلى حدّ ما، من حيث كثرة الكيانات الصغيرة التي كانت تقتصر غالبًا على مدينة أساسية والريف القريب منها.

إشكالية البحث

ينطلق البحث من تساؤلات عديدة تتصل بالعلاقة بين مندوبي الملك المصري وحكام مدن بلاد كنعان، وذلك في محاولة للإجابة على عدد من التساؤلات؛ مثل: ما طبيعة السيادة المصرية في بلاد كنعان؟ كيف كانت مصر تدير وجودها؟ هل كان وجودها عسكريًا محضًا؟ ما دور المندوب الذي كان القصر الملكي يرسله للاستقرار في مدينة معينة؟ وما طبيعة علاقته مع الحكام المحليين؟ من هم المندوبون الذين تتحدث عنهم نصوص مراسلات العمارنة؟ هذه هي الإشكالات والتساؤلات الرئيسة التي استهدف البحث توضيحها، واستخلاص نتائج منها، وفق منهج استقرائي تحليلي للنصوص الأكّدية. وهو موضوع مهم، لم يُكتب فيه بالعربية وغيرها من قبل.

أهمية البحث وأهدافه

نعتقد أن البحث أصيل مفيد، وهو يطمح إلى توضيح جوانب من طبيعة الإدارة المصرية في بلاد كنعان، والعلاقات الداخلية بين حكام المدن، خلال حقبة تاريخية مهمة. وتكمن أهميته في أنه يعتمد على مصادر كتابية من المرحلة الزمنية نفسها، بل إنها تشكل المصدر الأساسي لكتابة تاريخ بلاد الشام القديم كلها.

حدود البحث ومنهجه

يقوم البحث على نصوص مراسلات العمارنة، وهو مقيد بإطارها الزماني والمكاني (١٣٦٠-١٣٣٦ ق.م). وسوف يتم وفق منهج استقرائي تحليلي للشواهد النصّية، لاستخلاص معلومات متفرقة، يمكن أن تسهم في تشكيل صورة عامة عن مهام المندوب الملكي المصري في بلاد كنعان، وحقيقة أفعاله وعلاقاته مع حكام المنطقة.

أولاً: مفهوم المندوب الملكي

المندوب اسم في صيغة اسم المفعول، مشتق من الفعل "ندب" بمعنى "دعا، بعث ووجّه".[٤] ونقصد بالمندوب الملكي المصري الشخص الذي بعثه ملك مصر إلى مدينة أو منطقة معينة خاضعة لنفوذه لرعاية المصالح المصرية، والإشراف على الشؤون العامة فيها، ومراقبة قرارات الحاكم المحلي (في الأكّدية LU_2 ḫa-za-ni) وسلوك حاشيته. وقد وردت تسمية المندوب في نصوص العمارنة

بصيغ متنوعة: في السومرية MAŠKÍM وفي الأكّدية rābiṣu، وفي الكنعانية القديمة sú-ki-na؛ وكذلك في المصرية القديمةpamaḫu مرتين.[٥] وقد جاءت في الأكّدية بمعنى الفعل العربي (ربص) الدال على انتظار الخير أو الشر يحلّ بالمرء،[٦] كما إنها تشبه الفعل العربي (ربض) بمعنى "أقام"، مع مراعاة الإبدال بين الصاد والضاد، وانتقال الدلالة من الحيوان إلى الإنسان.[٧]

وهي تختلف عن التسمية الدالة على مبعوث أو رسول مُرسَل بمهمة محددة آنية، الواردة في الأكّدية بصيغة سومرية-أكّدية مركّبة DUMU ši-ip-ri؛ كما يتضح في عدة مواضع ضمن رسالة من بورّا بورياش ملك بلاد بابل (كردونياش) إلى أمنحتب الرابع (نبخوروريا) ملك مصر (EA 7: 8, 9, 11...)، حيث يعتذر فيها للملك المصري عن عدم الالتقاء برسوله الخاص مطوّلاً، بسبب المرض. ويذكر أنه غضب لعدم اهتمام الملك بأمر مرضه، ولكن الرسول برّر له ذلك ببعد المسافة بين البلدين، وعدم وصول الخبر إلى ملكه، فزال غضبه. كما يعاتب على تأخر رسوله هو في مصر، ويذكّره بأن قافلة رسوله نُهبت مرتين في مناطق من بلاد الشام خاضعة لنفوذ مصر، ويرجوه أن يحلّ المشكلة، ويعوّض الخسائر.

وأبرز الرُّسل المصريين هم الذين تحركوا بين مصر وميتاني، أو مصر وبابل، ومنهم: ماني الرسول إلى البلاط الميتاني، خلال عهد الملكين أمنحتب الثالث والرابع (EA 19-21, 24, 26-29)، وخاني خلال عهد أمنحتب الثالث والرابع (EA 21, 47, 142, 161, 162, 301, 367)، وشُتّي (EA 5) وكاسي (EA 3) رسولا أمنحتب الثالث إلى كدشمان إنليل ملك بابل، وخامَشّي رسول أمنحتب الرابع في أواخر عهده إلى بورا بورياش ملك بابل (EA 11, 27, 29)، ويرد اسمه مختصرًا بصيغة خايا في عدد من الرسائل (EA 11, 71, 255, 268).

ثانيًا: مندوبو الملك المصري في بلاد كنعان

تذكر الرسائل أسماء عدد من الشخصيات التي انتدبها البلاط الملكي المصري إلى إحدى المدن المتميزة في بلاد كنعان، في عهد الملك أمنحتب الثالث، أو أمنحتب الرابع، أو استمرت في منصبها خلال العهدين، وهي الآتية:

٢/١-بَخَمْنَاتَ في صُمُر

كانت صُمُر التي يرجّح -حتى الآن- أنّها تل الكَزل الواقع على نهر الأبرش جنوبي طرطوس،[٨] مركزًا أو عاصمة لبلاد أمورو التي امتدت في المنطقة الساحلية الممتدة بين جنوبي طرابلس في لبنان ومدينة طرطوس في سورية؛ أي معظم مناطق سهل عكار، وإلى الداخل حتى المناطق الجبلية شرقي صافيتا وتلكلخ حتى القصير جنوبًا.[٩] يوصف بَخَمْنَاتَ عدة مرات بأنه المندوب الملكي المصري في صُمُر، وكان ذلك خلال حكم عبدي أشيرة والاسم بَخَمْنَاتَ مصري مركّب، أصله (p3->m-n,r)؛ أي "خادم الإله".[١٠] اختلط لفظه في أذهان الكتّاب بالأكّدية فكتبوه بعدة صيغ: بَخَمْنَاتَ، بَخَمناتا، بَخَنَاتي.

ورد ذكره في رسالة وحيدة من عهد الملك المصري أمنحتب الثالث؛ مرسلة إليه من عبدي أشيرة (EA 60) يعبّر فيها عن إخلاصه، ويؤكد مواجهته حلفاء الملك الحوري في المنطقة، ولذلك هو بحاجة إلى قوات نجدة؛ كما قال لبَخَنَاتي (بَخَمْنَاتَ) "المندوب الملكي لديّ" مرارًا. ويبدو أن بَخَمْنَاتَ كان آنذاك في زيارة للبلاط المصري، لذلك يطلب عبدي أشيرة من الملك أن يتحقق منه، فيقول:

[m.pa]-ḫa-na-⌜*te* LU$_2$⌝.[MAŠKIM$_2$-*ia*]/*yi-iš-al-* *šu* LUGAL $^{(d)}$⌜*UTU$_x$*(ERIM)⌝/*šum-ma la a-na-ṣa-ar* / URU *ṣu-mu-ri* URU *ul-la-sa$_3$* / *i-nu-ma* LU$_2$.MAŠKIM$_2$-*ia* / *i-na ši-pir$_6$-ti* LUGAL $^{(d)}$*UTU$_x$*(ERIM)

"ها هو بَخَنَاتي المندوب الملكي. ليت الملك، الشمس، يسأله فيما إذا كنت لا أحمي مدينة صُمُر ومدينة أُلاّزا،[١١] عندما يكون المندوب الملكي في سفارة للملك، الشمس!" (EA 60: 20-25).

كما يطلب أن يعترف الملك به، ويثق بإمكاناته، فيقول:

u$_3$ LUGAL EN-⌜*ia*⌝ *lu-u$_2$ yi-da-an-ni*/*u$_3$ yi-ip-*⌜*qi$_2$*⌝*-id-ni i-na* ŠU/$^{(m)}$*pa-ḫa-na*
te LU$_2$.MAŠKIM$_2$-*ia*

"ليت الملك سيدي يعرفني حقًا، ويأتمنني في تولّي مهام بَخَنَاتي المندوب الملكي لدي" (EA 60: 30-32).

وثمة رسالة مرسلة من عبدي أشيرة إلى بَخَمّنات/بَخَناتي شخصيًا، عندما كان الأخير في زيارته إلى مصر، أرسلها بعد أن علم بغضب بَخَمّنات عليه، لأن شخصًا يُدعى ياممايا[١٢] وشى له بأن عبدي أشيرة استغل غيابه، واعتدى على الحامية المصرية في صُمُر (EA 62)، فيؤكد له كذبه، ويبين أن قوات من مدينة شِخْلالي[١٣] هي التي اعتدت، وكان هو آنذاك في مدينة إرْقاتا،[١٤] يقول:

⌜u$_3$⌝ [in]-⌜ni⌝-ri-ir a-⌜na⌝-ku iš-tu URU ir-[qat$_3$].⌜KI⌝/u$_3$ [aš$^{(?)}$-ba$_2$$^{(?)}$]-⌜at$^{(?)}$⌝ a-na-ku URU ⌜ṣu⌝-mu-ri.KI/u$_3$ aš-UŠ [E$_2$]-ka ⌜iš-tu⌝ UZU ŠU-ti/ERIN$_2$.MEŠ URU še-⌜eḫ⌝-la-⌜li.KI ....

"فأسرعت أنا شخصيًا من مدينة إرْقاتا لنجدتها، ووصلت إلى مدينة صُمُر، وحرّرتُ قصرك من قبضة قوات مدينة شِخْلالي" (EA 62: 13-16).

كانت أمورو على علاقة حسنة مع مصر في عهد أمنحتب الثالث، ولكنها ليست على وفاق مع حكام مدن مجاورة لها، مثل حاكم شِخْلالي وغيره. ثم تنامت قوة أمورو، وراح عبدي أشيرة يتوسع في مناطق الجوار، مستعينًا بجماعات من العفيرين (الخبيرو) المرتزقة، ومدعومًا من ملك ميتّاني؛ كما يتضح من إشارات إلى زيارات متبادلة بينهما (EA 90, 95). كان ذلك يثير مخاوف حاكم جُبْلا الذي كتب إلى الملك المصري مرارًا؛ من دون جدوى. كان ذلك بسبب سياسة عبدي أشيرة الذي "لم يكن تابعًا وفيًا لسادته في مصر، بل مراوغًا يتصرّف بأسلوبين متناقضين في الوقت نفسه، حيث يمارس سياسةً عدوانيةً ضدّ عدد من المدن الواقعة في محيط بلاده، ويقوم باغتصاب أجزاء منها، كما يؤكّد لسادته في مصر حرصه على حمايتها وصون مصالحها".[١٥]

ولكن العلاقات تغيرت في عهد أمنحتب الرابع، وتجاوبًا مع الشكاوى المتكررة؛ احتل الجيش المصري صُمُر، ولكن هذا "لم يُعِدْ إليها استقرارها وأمنها، ولم يؤدِّ إلى وقف اعتداءاتها على المدن الواقعة في محيطها، بل أصبحت الأمور أكثر تعقيدًا، لأنّ أبناء عبدي أَشْرِت (أشيرة) لم يرضخوا للسّيادة المصرية، وتمرّدوا ضدّها، وباتوا يحاولون استعادة عرش أبيهم في صُمُر بشتّى الوسائل".[١٦] وفي أثناء ذلك مات عبدي أشيرة في ظروف غامضة،[١٧] وظلت المنطقة تعاني من الأعمال العدوانية لأبنائه، ولاسيما جبلا. فقد تمردوا، واستعانوا بالعفيرين المرتزقة، ولم يدّخروا وسيلة من أجل استرجاع عرش أبيهم. وانتشرت الفوضى، وساد القلق بين السكان والحكام، ولم يعد أحدٌ يهتم بالمندوب الملكي؛ كما يبين رِب هدّا في رسالة إلى أمنحتب الرابع، حيث يقول:

LU$_2$.MEŠ.MAŠKIM$_2$ ša-a / URU ṣu-mu-[ra] / [tu]-pa-ri-šu be-ri-nu u$_3$ an-nu-[u$_2$] / ⌜la⌝-a yi-iš$_3$-⌜mu⌝ ḫa-za-nu a-na ša-[šu]

"كان المندوب الملكي في مدينة صُمُر يفصل بيننا سابقًا، ولكن الآن ليس هناك حاكم يصغي إليه. (EA 118: 51-54).

وبعد فترة نجح أبناؤه في استعادة عرش الحكم؛ إثر مفاوضات مع الجانب المصري، وتسلم الحكم ابنه عزيرو الذي أرسل اثنين من أبنائه إلى مصر، ومعهما رسالة يرجو فيها أن ينال الاعتراف به حاكمًا على أمورو،[١٨] ويبدو أن ابنيه كانا بمنزلة رهائن للاطمئنان على ولائه. يقول:

a-nu-um-ma mi-ri-iš-tum / ša e-te-er-ri-iš / $^{(d)}$UTU$_x$(ERIM) EN-ia a-na-ku IR$_3$-⌜ka⌝ / a-di da$_2$-ri-i-ti / u$_3$ DUMU.MEŠ-ia IR$_3$-⌜ka⌝ / a-nu-um- ma 2 LU$_2$.⌜IR$_3$$^{(?)}$⌝.[MEŠ$^{(?)}$] / at-ta-din DUMU.MEŠ-[ia$^{(?)}$] / u$_3$ li-ip-pu-⌜šu$^{(?)}$⌝-[nim$^{(?)}$ gab$_2$$^{(?)}$-bi$^{(?)}$] / ša i-qab$_2$-bi ⌜LUGAL$^{(?)}$⌝ [EN$^{(?)}$-ia] / u$_3$ li-wa-aš-šar-[an$^{(?)}$-ni$^{(?)}$ LUGAL$^{(?)}$] / i-na KUR a-mur-⌜ri⌝

"هأنذا - فيما يتعلق بالأمنية التي عبّر عنها "الشمس"، سيدي - (أقول) أنا خادمك إلى الأبد، وأبنائي هم خدمك أيضًا. هأنذا الآن أقدم لك غلامين هما ابناي، وليفعلا [جميع] ما يأمر به الملك [سيدي]. ولكن ليت الملك يدعني أبقى (حاكمًا/ملكًا؟) في بلاد أمورّو" (EA 156: 4-14).

ذُكر بَخَمّناتَ في رسالتين من عهد أمنحتب الرابع، أرسلهما إليه رِب هدّا حاكم جُبْلا، حيث يصف المعاناة الاقتصادية لسكان مدينته بسبب الحرب التي تشنّها قوات العفيرين المرتزقة عليه، ويقرّ بفضل بَخَمّناتَ في تخفيف ذلك، إذ يبدو أنه وجّه من مقره في صُمُر حكامًا في بلاد يَريموتا[١٩] لمساعدة أهالي جُبْلا. يقول:

i-na LU₂.MAŠKIM₂ LUGAL-*ri* / *ša i-šu-u₂ i-na* URU *ṣu-mu-ur* / *ba-al-ṭa₂-at* URU *gub-la* / *a-nu-um-ma* (m)*pa-ḫa-am-*⸢*na*⸣*-ta* / LU₂.MAŠKIM₂ LUGAL *ša i-*⸢*na*⸣ / URU *ṣu-mu-ur*(ki) *i-de-mi₃* / *pu-uš-qam₂* :" *ma-gal*(!) / *ša* UGU URU *gub-la* / *iš-tu* KUR *ia-ri-im-mu-ta* / *nu-bal-li-iṭ*

"بفضل مندوب الملك الموجود في مدينة صُمُر؛ مازالت مدينة جُبْلا حيّةً. ها هو بَخَمْنات مندوبَ الملك، الذي في مدينة صُمُر، إنه يعلم الصعوبات التي تعانيها مدينة جُبْلا. إننا نعيش من (معونات) بلاد يَريموتا" (EA 68: 19-28).

ويتابع ذلك في رسالة أخرى، ويخشى أن يقتله الأعداء، كما قتلوا المندوب الملكي بوورو، ويبدي استياءه من صمت بَخَمْنات إزاء الوضع الخطير (EA 131). من المرجّح أنّ بَخَمْنات بقي هناك حتى حوالي منتصف حكم أمنحتب الرابع، ولا تشير النصوص إلى دور فاعل متميز له في الأحداث. كما يُرجّح أن المدعو "خائب" كان ابنًا له (EA 132: 40-41)، وكانت علاقته سيئة مع رب هدّا (EA 117: 64-65).

٢/٢–خاتب في صُمُر

يبدو أن خاتب حلّ في صُمُر مندوبًا من الملك أمنحتب الرابع؛ بعد استقرار حكم عزيرو فيها. اسمه مصري (Ḥtp) بمعنى "لطيف، رحيم".(٢٠) يُذكر في ست رسائل أرسل عزيرو خمسًا منها إلى الملك (EA 161, 165-168)، وواحدة إلى توتو (EA 164). وهي تدور حول موضوعين، هما:

- علاقة عزيرو الحاكم مع خاتب المندوب التي يبدو أنها مرت بمرحلة سيئة، حيث يشكو عزيرو من أن خاتب يتغاضى عن حرب حكام بلاد نُخَشّي(٢١) عليه (EA 161: 38-40)، وهو يسلب منه نصف الأشياء التي خصصها له الملك، من الجزية، بل "يأخذ لنفسه جميع الذهب والفضة التي خصّصها الملك سيدي لي" (EA 161: 41-46)، ثم تحسنت العلاقة، واتفقا على زيارة الملك معًا.
- رغبة عزيرو بالسفر مع خاتب إلى مصر "لرؤية وجه الملك سيدي" ولقائه (EA 168: 6-7)، ولكن برزت معوّقات خطيرة تسببت في تأجيل السفر، فهو في حالة حرب مع حكام بلاد نُخَشّي القريبة، والملك الحثي، ولعلّه شوبيلوليوما الأول (١٣٤٣–١٣٢٣ ق.م)، وصل إلى هناك (EA 164: 21-22; 167: 11-12).

وثمة رسالة تبين أن عزيرو سافر مرة إلى مصر، إذ يقول في إحدى رسائله إلى أمنحتب الرابع:

EN-*ia a-na-ku* LU₂.IR₃-*ka u₃ i-na ka₃-ša-di₃-ia* / *a-na pa-ni* LUGAL EN-*ia u₃ aq-ta-bi* / *gab₂-bi a-ma-te*.MEŠ-*ia a-*⸢*na*⸣ *pa-ni* EN-*ia*

"يا سيدي! أنا خادمك. لدى وصولي إلى أمام الملك سيدي قلتُ جميع كلماتي أمام سيدي" (EA 161: 4-6).

ولكن هذه كانت على الأرجح زيارة سابقة، فالحديث عن الموضوع يتجدد، ويتكرر، لأن الملك كان يتلقى أخبارًا سيئة عن موقف عزيرو، ويكتب له بقسوة معبّرًا عن ضعف الثقة به، وبات الأمر يحتاج إلى لقاء مباشر، وعزيرو يخشى الغياب عن بلاده. ثم اتضحت ملامح الحل في رسالة من الملك إليه، يقول فيها:

u₃ ki-i taš₃-pur um-ma-a lu-ma-šir₉-an-ni LUGAL EN-*ia* / MU.KAM *ša-at-ta₂ an-ni-ta₂ u₃ lu-ul-li-*[*ik*] / *i-na ša-at-ti ša-ni-ti a-na ma-ḫar* LUGAL ⸢EN⸣-[*ia*] / *ia-nu-um-ma* DUMU-*ia ma-ri-ia a-*[*na*] ⸢LUGAL⸣ [*li-il-lik*] / *u₃ a-nu-ma* ⸢LUGAL⸣ EN-*ka i-te-ez-ba₂-ak-ku* [*i-na*] / MU.KAM-*ti ša-at-ti an-ni-ti ki-i ša taq₂-bu-u₂* / ⸢*al*⸣*-ka₃ at-ta₂ šum-ma* DUMU-*ka šu-pur* / *u₃ ta₂-mar* LUGAL *ša gab₂-bi* KUR.KUR.ḪI.[A *i*]*-bal-lu-ṭu₃* / *a-na a-ma-ri-šu u₃ la-a ta₂-qab₂-*⸢*bi*⸣ *um-ma-a* / *lu-ma-šir₉* MU.KAM *ša-at-ta₂ an-ni-ta₂ ap-pu-na-na* / *a-na a-la-ki a-na ma-ḫar* LUGAL EN-*ka i-ia-nu-um-ma* / DUMU-*ka uš-še-er a-na* LUGAL EN-*ka ki-i-mu-u-ka*

"وعندما كتبتَ قائلاً: ليت الملك، سيدي يدعني هذه السنة، وسوف آتينّ في السنة المقبلة للمثول أمام الملك، سيدي. وإلاّ فسأرسل ابني بدلاً مني. فها هو الملك، سيدك قد تركك هذه السنة، كما طلبتَ. تعالَ أنت بنفسك، وإلا فأرسل ابنك، فترى الملك الذي بفضل رؤيته تحيا البلدان كلها. ولا تقل: ليته يدعني هذه السنة أيضًا.

لو كان الذهاب للمثول أمام الملك، سيدي غير ممكن لك، فأرسل ابنك إلى الملك، سيدك، بدلاً منك" (EA 162: 42-53).

وتوضح الرسالة (EA 156) أن عزيرو أرسل اثنين من أبنائه إلى مصر نيابةً عنه، وقد يكون ذلك "لتنفيذ طلب الملك المصري. فقد كان ثمّة تقليد متّبع؛ هو أن يرسل الحكام التابعون أبناءهم إلى البلاط المصري للتمرّس في شؤون الحكم والإدارة، ويكونون – في الوقت ذاته – بمنزلة رهائن يمنع وجودُهم هناك آباؤَهم من التصرّف ضدّ المصالح المصرية".[٢٢] ثم تحققت زيارة عزيرو أخيرًا، كما صحّت توقّعاته عن التحرك الحثي، فأرسل له أخوه "بعلويا"، وابنه "بتي إيلو" رسالة مهمة يعلمانه بوصول القوات الحثية إلى بلاد عمق (سهل البقاع في لبنان)، ويؤكدان ضرورة أن يقابل الملك بسرعة، ويعود إلى بلاده (EA 170)، ولا يتضح ما حصل بعد ذلك.

٣/٢–بوورو في جُبّلا

جُبّلا هو الاسم القديم لمدينة جُبيل الساحلية اللبنانية، الواقعة على بعد نحو ٤٠ كم شمالي العاصمة بيروت. لا تشير رسائل العمارنة إليها بصفة "بلاد"، بل "مدينة". ويبدو أنها كانت تسيطر على مناطق ريفية في الجهات الثلاث المحيطة. وهي مدينة عريقة، كانت مزدهرة منذ الألف الثالث ق.م، بفضل الحركة التجارية النشطة في مينائها.

كان مندوب الملك أمنحتب الرابع في جُبّلا يُدعى بوورو، خلال حكم رِب هَدّا فيها. اسمه مصري مركّب من اسم الإشارة (الدال على التعريف) والصفة "العظيم"؛ أي "هذا العظيم".[٢٣] جاء ذكره في مجموعة من الرسائل المرسلة إلى أمنحتب الرابع؛ ست من رِب هدّا (EA 117, 124, 129, 131, 132, 362)، واثنتين من عبدي خِبا حاكم أُوروسليم (EA 287, 289)، وواحدة من حاكم مجهول (EA 263). تشير رسالة من عبدي خِبا حاكم أُوروسليم (القدس) إلى أنه كان من المتوقع أن "يأتي بوورو مندوب الملك إلى بلاد مدينة أوروسليم" (EA 287: 45-46)، ولكن يبدو أن ذلك لم يحصل. وفي رسالة أخرى يُعلم الملك المصري بتجاوزات حكام المدن، وخروجهم على الطاعة لمصر، وتعاونهم مع العفيرين (الخبيرو)، بينما هو الوفي المخلص له محاصرٌ، و"بوورو مندوبه حاد من أمامي، وهو موجود في مدينة خَزّة" (EA 289: 38-40).

يبدو أنه لم يكن فاعلاً في ضبط الأوضاع، ومنع المؤامرات والخلافات في المنطقة التي كان يشرف عليها، فلم يُفد توسّطه لدى الملك لحل مشكلة وقعت مع أحد الحكام خلال غيابه عن مدينته في زيارة إلى مصر (EA 263)، ولم يساعد حاكم جُبلا في قمع حرب حاكم بلاد أمورّو عليه. ولكن وصفه حاكم جُبّلا بأنه كان رجلاً حكيمًا ومحترمًا جدًا (EA 129: 15-16)، عايش الاضطرابات التي أحدثها أبناء عبدي أشيرة في بلاد أمورو، وانتقال تأثيراتها إلى جُبّلا، كما يظهر مما كرره رِب هدّا كثيرًا في رسائله طالبًا قوات تنقذ مدينته وأهلها، بل تنقذه شخصيًا، حتى بلغ به اليأس إلى درجة قال فيها:

…DUMU.MEŠ $^{(m)}$IR$_3$-*a-ši*-⸢*ir*⸣-[*ta*]/[*ti*]-*da*$^{(!)}$-*lu-na* LU$_2$.MEŠ KUR *mi-iṣ*-⸢*ri*⸣ [*ki-ma*]/ [UR].KU.MEŠ *da-mi-iq mu-tu a-*[*na ia*]-*ši*

"أبناء عبدي أشيرة يجعلون رجال بلاد مصر يتنقّلون خلسةً كالكلاب. الموت لي أفضل (ممّا أرى)" (EA 109: 47-49).

كما كتب عدة رسائل إلى آمون أبّا أحد الموظفين الكبار في البلاط المصري، أملاً في أن يشجع الملك على التدخل، يقول له في إحداها:

… *a-na mi-nim* / *qa-la-ta u*$_3$ *la-a taq*$_2$*-bu* / *a-na* LUGAL-*ri* EN-*li-ka* / *u*$_3$ *tu-ṣa-na qa-du* ERIN$_2$.MEŠ / *pi*$_2$*-ṭa*$_2$*-ti u*$_3$ *ti-ma-qu*$_2$*-tu* / UGU KUR *a-mur-ri šum-ma* / *ti-iš*$_3$*-mu-na a-ṣe*$_2$*-mi* ERIN$_2$.MEŠ / *pi*$_2$*-ṭa*$_2$*-ti u*$_3$ *i-zi-bu* URU.MEŠ-*šu-nu*

"لماذا أنت ساكتٌ، ولا تقول للملك، سيدك. فتأتي في مقدمة القوات المحاربة، وتنقضّ على بلاد أمورّو؟ إنْ يسمعوا بمجيء القوات المحاربة فإنهم سيغادرون" (EA 73: 6-13).

وضمن هذه الأوضاع يبدو أن بوورو قُتل (EA 129: 96; 131: 22)، بل مُثّل بجثّته، ولم يُدفن بشكل يليق بمكانته، وكان ذلك بيد أبناء عبدي أشيرة، كما يوضح رِب هدّا ويصرّح:

...mi-ia šu-nu / i-nu-ma i-pu-šu ar-na u₃ da-a-ku LU₂.MAŠKIM₂ / su₂-ki-na (m)pi₂-wu-⸢ri⸣

"من هم، حتى يرتكبوا الجريمة، ويقتلوا المندوب الملكي بِوورو؟" (EA 362: 68-70).

يبدو أن بُوورو كان ضحية الصراع بين أبناء عبدي أشيرة وجُبيل. ولكن الحادثة شكّلت من ناحية ثانية نهاية مرحلة من الاضطرابات، إذ اتفق خائب مع عزيرو أحد أبناء عبدي أشيرة على استعادة عرش أبيه، لقاء التبعية والوفاء لمصر.

٤/٢–بِخورا في كومد

كومد هو الاسم القديم لموقع كامد اللوز في سهل البقاع، شرقي بلدة جب جنين.[٢٤] نقبت فيه بعثة أثرية ألمانية بين ١٩٦٤– ١٩٨١، ثم استأنفت أعمالها في ١٩٩٧، وقد كشفت عن آثار عمرانية ومادية كثيرة، ومنها بضعة رُقُم طينية عليها نصوص ذات صلة وثيقة بمراسلات العمارنة، من حيث الأسلوب التعبيري والمضمون، بل يمكن عدّها جزءًا من أرشيف تلك المراسلات.[٢٥]

ورد ذكر بِخورا، بُخورو في مجموعة من رسائل العمارنة (EA 57, 117, 122, 123, 132, 189, 190, 207, 208). اسمه مصري مركب من اسم الإشارة (الدال على التعريف) والاسم خورو "الحوري" الذي كان في الوثائق المصرية تسمية جغرافية عامة دالة على بلاد الشام؛ أي "هذا الحوري". وكان هذا الاسم شائعًا آنذاك في مصر، وربما كان يدل على أصل حامليه.[٢٦]

لا يتضح دور متميز له، بل ثمّة إشارة عابرة إلى ارتباطه بمدينة كومد؛ جاءت على لسان رِب هدّا في رسالتين (EA 117;132). ويتضح من الأولى أن بِخورا كان يتمتع بالأهمية، ويرتبط به عدد من حكام المدن الصغيرة، يقول رِب هدّا لأمنحتب الرابع:

šum-ma lib₃-bi LUGAL *ba-li uš-ša-[ar]* / ERIN₂.MEŠ *pi₂-ṭa₂-ti ia-aš-pu-ur a-na* / (m)*ia-an-ḫa-mi₃ u₃ a-na* (m)*pi₂-ḫu-ra* / *al-ku-mi qa-du* LU₂.MEŠ *ḫa-za-ni-ku-nu* / *le-qu₂-na* KUR *a-mur-ri i-na* UD.KAM / *ti-il₃-qu₂-na-še*

"وإن لم يرد الملك أن يرسل قوات محاربةً، فليكتب إلى يَنْخَمُ وإلى بِخورا (قائلاً:) سيرا ًأمام حكام المدن التابعين لكما، واحتلا بلاد أمورّو. وسوف يحتلونها في يوم واحد" (EA 117: 59-64).

٥/٢–شوتا في عكّا

شوتا هو المندوب الملكي في عكّا المدينة الكنعانية التي ما تزال تحتفظ بالاسم نفسه. اسمه مصري (س ت ي) ذو صلة باسم الإله ست.[٢٧] يشرح حاكمها سَتَتْنا في رسالة إلى أمنحتب الرابع حصول خلاف بينهما، لعدم استجابته لطلبه تسليم شخص هارب من حاكم دمشق إليه، ويبرر له رفضه، ويطلب من الملك إرسال شخصٍ ينقل الشخص إليه؛ إلى مصر (EA 234). كما وردت الإشارة إليه في رسالة من عبدي خِبا حاكم أوروسليم إلى أمنحتب الرابع، يقول فيها:

(m)*šu-u₂-ta* LU₂ MAŠKIM₂ LUGAL-*ri ka-*⸢*ša*⸣-[*ad*]/[*a*]-*na mu-ḫi-ia* 21 MUNUS DUMU.MUNUS.MEŠ / 80⸣ LU₂.MEŠ *a-ši₂-ri na-ad-na-ti* / [*a*]-*na qa-ti* (m)*šu-u₂-ta* NIG₂.BA LUGAL EN-*ia*

"شوتا المندوب الملكي وصل إليّ. سلّمتُ إلى يد شوتا إحدى وعشرين فتاةً وثمانين أسيرًا؛ هدية الملك سيدي" (EA 288: 19-22).

٦/٢–تَخْمايا في يورصا؟

ثمّة شاهد وحيد يذكر تَخْمايا موصوفًا بـ "مندوب الملك"، واسمه مصري مختصر من (Ptḥ-ms) بمعنى "الإله بتاح أنجبـ(ـه)".[٢٨] ورد في رسالة من بو بعلُ حاكم مدينة يورصا إلى أمنحتب الرابع، يقول فيها:

[*a*]-⸢*na* INIM.GAR.RA(?) LUGAL⸣ *a-nu-ma* / ⸢*iš*⸣-[*te*]-*mu a-wa-te* / [*m*].⸢*taḫ-ma-ia* LU₂ MAŠKIM⸣ *ša* ⸢LUGAL⸣

"ها قد أصغيت إلى أوامر تَخْمايا مندوب الملك" (EA 316: 13-15).

كما يُذكر في سياق يلمّح إلى أنه كان رسولاً ملكيًا؛ ضمن رسالة من تاجي حاكم مدينة جينتي كرمل إلى أمنحتب الرابع، يعلمه فيها باستلامه الهدية التي أرسلها له، يقول:

[*u₃*] ⸢*uš*⸣-*ši-ir* (m)LUGAL-*ru* / EN-*ia šu-lu-uḫ-ta* / *i-na qa-at* (m)*ta-aḫ-ma-ia* / *a-na ia-ši u₃ na-da-*⸢*an*⸣ / [*m*].⸢*ta*⸣-*aḫ-ma-ya* /

GAL 1-*en* KU$_3$.SIG$_{17}$ /*u*$_3$ 10+[2] ⸢*ta*⸣-*pal* TUG$_2$.GADA.⸢MEŠ⸣

"وأرسل إليّ الملك، سيدي هديّةً بيد تَخْمايا، وأعطاني تَخْمايا كأسًا كبيرة من الذهب، واثني عشر زوجًا من الأثواب الكتّانية" (EA 265: 7-13).

والجمع بين المهمّتين ممكن، لولا البعد بين المدينتين الذي يثير الشك في أن يتحرك مندوب ملكي من يورصا،[٢٩] ليحمل هدية إلى جينتي كرمل.[٣٠] لا تفيد أخبار يورصا بأهمية متميزة، لتكون مركز مندوب ملكي، ولم يرسل حاكمها سوى رسالتين إلى أمنحتب الرابع (EA 314, 315) يؤكد فيهما ولاءه له. لذلك نرجح أن كاتب الرسائل لم يكن دقيقًا في تعبيره، وأن تَخْمايا كان رسولاً يقوم بمهمّة مؤقتة محددة في البلاد.

٢/٧–رياناب في جَزْر

تبرز في رسالة حاكم يورصا الثانية إشكالية أخرى تتمثل في أنه يصف شخصًا آخر لديه بالمندوب، يقول:

(m)⸢*ri*⸣-*a-na-pa* LU$_2$.MAŠKIM *ša* / ⸢LUGAL⸣ EN *ša qa-ba* LUGAL EN-*ia* / [SIG$_5$]-*qa*$_2$ *ki-ma* (d)UTU *i-na* AN *ša*$_{10}$-*me*

"إن رياناب مندوب الملك، سيدي، الذي حدّده الملك، سيّدي، قويّ مثل الشمس في السماء" (EA 315: 13-15).

ويتكرر ذكر رياناب في رسالة من أدّا (أو: بعلُ) دانو حاكم جَزْر،[٣١] يصفه بـ "المندوب لديّ" (EA 292: 36-37)، كما أن يِدْيا حاكم أشقلونا (عسقلان) يعبّر لأمنحتب الرابع عن رضاه عن رياناب المندوب الملكي الجديد (EA 326).

اسمه مصري مركب (ر ع – ن ف ر) بمعنى "الإله رع جيد أو جميل".[٣٢] نعتقد أنه كان مندوبًا ملكيًا مستقرًا في جَزْر، ويشرف منها على مناطق الساحل الجنوبي من فلسطين، تشمل المدن الثلاث (جزر، يورصا، أشقلونا). وربما لم يدم في منصبه مدة طويلة.

٢/٨–مايا في لاكيشا

كان مايا مندوبًا ملكيًا في عهد أمنحتب الرابع. اسمه مصري مختصر من الاسم تَخْمايا الذي مرّ بنا أعلاه،[٣٣] ورد في مجموعة من الرسائل (EA 216-218, 292, 300, 328, 337)، ووصفه الحكام في معظم رسائلهم إلى الملك بأنه "مندوب الملك"، وأكدوا له أنهم يصغون إلى كلام مايا باهتمام. أربعة من الأمكنة التي أُرسلت الرسائل منها مجهولة (EA 216-218, 337)، أما الرسائل الأخرى فثتان مرسلتان من حاكمين (أدّا (أو: بعلُ) دانو، يَبْخي) حكما في مدينة جَزْر. ويذكر الأول أن مايا اعتدى عليه، فلجأ إلى رياناب المندوب الملكي لديه، حيث يقول:

… ⸢*ba-ni-ti*⸣ / E$_2$ 1-*en* URU *ma-an-ḫa-ti*$_7$ *šum-ši* / *a-na šu-ši-ri a-na pa-ni* / ERIN$_2$.MEŠ *pi*$_2$-*ṭa*$_2$-*at* LUGAL EN-*ia* / *u*$_3$ *al-lu-u*$_2$ *il*$_5$-*qe*$_2$-*ši* (m)*ma*(!)-*a-ia* / *iš-tu qa-ti*$_7$-*ia u*$_3$ *ša-kan*$_2$ / LU$_2$.MAŠKIM$_2$-*šu i-na lib*$_3$-*bi-ši*(!) / *u*$_3$ NU-*id*(!) *a-na* (m)*re-a-na-ap* / LU$_2$.MAŠKIM$_2$-*ia u*$_3$ *yu-šu-ti*$_7$-*ir* / URU(ki) *i-na qa-ti*$_7$-*ia u*$_3$

"وقد بنيتُ بيتًا (في مكان) اسمه مدينة مَنْخاتي للاستعداد لاستقبال القوات المحاربة التابعة للملك، سيدي. ولكن مايا أخذها من يدي، وعيّن فيها مندوبًا عنه. فكلّفت رياناب المندوب لدي بأن يعيد المدينة إلى يدي" (EA 292: 29-38).

بينما يشير الثاني إلى مايا إشارةً عابرةً (EA 300: 23-28). أما يَبْني إيلو حاكم مدينة لاكيشا[٣٤] صاحب الرسالة الثالثة إلى أمنحتب الرابع، فيحدد علاقته بالمندوب مايا أكثر؛ إذ يقول:

[*u*$_3$] LU$_2$ [*ra*]-*bi-iṣ* / [*ša*] LUGAL ⸢EN⸣-*ia* / ⸢*ša*⸣ *iš*-⸢*pu*⸣-*ra-am* / ⸢LUGAL⸣ EN-⸢*ia*⸣ *a-na* ⸢*ia*⸣-[*ši*] / *a-nu-ma iš-te*$_9$-*me* / *gab*$_2$-*bi a-wa-te*.⸢MEŠ⸣ / *ša yi-iq-bi* / (m)*ma-ia* LU$_2$ MAŠKIM$_2$(!) ⸢LUGAL⸣ / *a-na ia-ši a-nu-ma* / *i-pu-šu gab*$_2$-*ba*

"(فيما يتعلق بـ) مندوب الملك، سيدي الذي أرسله الملك، سيدي إليّ. هأنذا قد أصغيتُ إلى جميع الكلمات التي قالها مايا مندوب الملك لي. هأنذا أنفّذ جميعها" (EA 328: 17-25).

ولذلك نرجّح أنه كان مستقرًا في لاكيشا.

٢/٩–يَنْخَم في بلاد يَريموتا

يشكل يَنْخَم حالة خاصة، فهو يُذكر في الرسائل كثيرًا (EA 83, 85, 86, 98, 102, 105, 106, 109, 116-118, 127, 131, 132, 171, 215, 256, 270,

(271, 283-286, 289, 296, 330, 336)، ولكنه لا يوصف بلقب المندوب الملكي في غير ثلاث منها (EA 256, 283, 296)، بل يوصف غالبًا بأنه خادم وفيّ للملك؛ كما عبّر رِب هدّا عن ذلك بوضوح قائلاً:

⌜*ia*⌝-*nu* IR₃ *ki-ma* [(m)]*ia-an-ḫa-mi* / *a-na* ⌜LUGAL⌝ IR₃ *ki-ti*

"ليس هناك خادم مثل يَنْخَمُ لدى الملك، إنه خادم وفيّ" (EA 118: 55-56).

وكما جاء في رسالة من شِبْطي بعلُ حاكم مدينة لاكيشا إلى أمنحتب الرابع:

[(m)]*ia-an-ḫa-ma* IR₃ *ki-ti* / LUGAL-*ri u₃ ip-ri* / *ša* GIR₃ LUGAL-*ri*

"إن يَنْخَمُ هو خادم وفيّ للملك، وهو غبار قدم الملك" (EA 330: 14-16).

تسلّم ثلاث رسائل، هي:

- رسالة من يَفَخ هدّا حاكم بيروت (EA 98) يبدي فيها استياءه من سكوته على ما يحدث في صُمُر، بعد أن سيطر عليها عزيرو، بل استمال جميع البلدان "من مدينة جُبْلا حتى مدينة أوجاريت[٣٥]" "مدينة شيجاتا،[٣٦] ومدينة أمبي[٣٧]"، وفرض حصارًا بحريًا لمنع دخول الغرباء إلى بلاده. ثم يتساءل باستغراب: ماذا نفعل؟ ويطلب منه أن يكتب إلى القصر.
- رسالة من موت بَخْلُم حاكم بيخيلي[٣٨] (EA 256) يؤكد فيها له أنه لا يخبّأ أيّاب الذي كان يعتدي على المدن الموالية لمصر، وأنه سيلقي القبض عليه قريبًا. ويبدي استغرابه من الشك فيه، فيقول:

… *ki-i qa-bi-mi₃* / *i-na pa-ni-ka* [(m)]*mu-ut-d*.IŠKUR-*mi₃* / *in-ne₂-bi-it* [(m)]*a-ia-ab* / :" *ḫi-iḫ-be₂-e* …

"كيف يُقال أمامك أنّ موت بَخْلُم هرب، وهو يخبّئ أيّاب؟" (EA 256: 4-7).

- رسالة من رب هدّا حاكم جُبْلا، اختفى فيها اسم المرسل إليه، يُرجّح أنه يَنْخَم (EA 102) يعلمه معاتبًا متحسرًا بأنه تأخر في إرسال قوات النجدة إلى صُمُر، فسيطر أبناء عبدي أشيرة عليها.

ارتبط ذكره ببلاد يريموتا (مناطق الجزء الجنوبي من الساحل اللبناني)، التي اشتُهرت بوفرة الحبوب فيها (EA 83, 85, 86, 116)، وتشير الرسائل إلى أنه كان يقود قوات لها دور مؤثر، ويُطلب منه التدخّل العسكري مرارًا، أو للتحكيم في مشكلات خلافية (EA 105)، وكان يمتلك السلطة والقدرة على وضع حدّ للمتمردين أو المخربين (EA 215)، أو منع السفر إلى الملك في مصر، كما يتضح في رسالة عزيرو التي أرسلها رغبة في فتح صفحة جديدة من العلاقات مع مصر، و"الدخول في خدمة الملك، الشمس"، والتأكيد على ولاء بلاد أمورو لها (EA 171). ويبدو أنه كان يزور الملك المصري بين حينٍ وآخر (EA 127, 132, 283).

كان يَنْخَمُ موضع ثقة لدى الملك؛ لذلك كثيرًا ما كان الحكام يرجون الملك أن يسأله ويتحقق منه من صحة الأمر (EA 127: 23-25;131: 62; 132: 29-30; 271: 22-27).

ما يجعلنا نتردد في تصنيفه مع سائر المندوبين الملكيين عدة أمور:

- اسمه ليس مصريًا، بل هو اسم سامي غربي، جاء في صيغة الفعل المضارع، بمعنى "يُنعِمُ".[٣٩]
- لا تشير الرسائل إلى مقر أو مدينة محددة له؛ كما هي الحال لدى المندوبين الملكيين الآخرين، بل نلحظ أنه كان يتحرك في نطاق جغرافي واسع، شمل: أمورو، جُبْلا، بلاد يَريموتا، بيخيلي، قِلتو،[٤٠] جَزْر، أُوروسليم.[٤١]
- تكثر الرسائل من الإشارة إلى دوره العسكري.

لم يكن كالمندوبين الملكيين، لذلك نجد أن رب هدّا رأى أن يصير مندوبًا منقذًا للوضع الخطير في صُمُر، إذ اقترح: "ليته يكون مصيبًا في نظر سيدي؛ فيرسل يَنْخَمُ ليكون المندوب الملكي الحاكم فيها، (أقصد) يَنْخَمُ حامل مظلّة[٤٢] الملك، سيدي. لقد سمعت من أفواه الناس أنه رجل حكيم، وجميع الناس يحبّونه" (EA 106: 35-40).

يدفعنا هذا كله إلى اقتراح أنه كان شخصًا كنعانيًا، من وجهاء بلاد يَريموتا، قدّره الملك المصري ومنحه صلاحيات خاصة لرعاية المصالح المصرية، فبدا كالمندوبٍ الملكي؛ بل أكثر نفوذًا لجمعه بين سلطة محلية وتفويضٍ ملكي مصري. وبمرور الزمن تشكلت لديه قوة

عسكرية، وارتبط به عدد من الحكام؛ كما يبين رِب هدًّا في رسالة إلى أمنحتب الرابع، يقول فيها: "وإن لم يرد الملك أن يرسل قوات محاربةً، فليكتب إلى يَنْخَمُ وإلى بِخورا (قائلاً:) سيرا أمام حكام المدن التابعين لكما، واحتلا بلاد أمورّو. وسوف يحتلونها في يوم واحد" (EA 117: 59-63).

خَاتِمَةٌ

كان الملك المصري، وربما كبار الشخصيات في القصر الملكي، يختار مندوبًا ملكيًا، يُكلّف بمهام في إحدى مناطق بلاد كنعان الخاضعة للنفوذ المصري آنذاك، لزمن غير محدد، ويكون مشرفًا يراقب الأوضاع العامة، ومسؤولاً عن تصرفات أحد الحكام المحليين، أو أكثر. أما الاعتبارات التي تمت مراعاتها، والإمكانات التي كانت تتوافر في المندوب المختار فهي غير واضحة في النصوص، ولكن لا شك أنه كان يتمتع بأهمية خاصة.

لقد استندنا من قبل إلى بحث موسع عن الإدارة المصرية في ساحل بلاد الشام، خلال عصر العمارنة يعود إلى مطلع ثمانينيات القرن الماضي،(٤٣) في القول بأن مناطق بلاد الشام الخاضعة للسيادة المصرية، في صيغة نظام " الانتداب "، كانت مقسمة إلى ثلاث مناطق أو ولايات، هي: ولاية خَزّة (غزّة) في الجنوب، وولاية كومِد (كامد اللوز) في الوسط، وولاية أمورّو (صُمُر) في الشمال.(٤٤) ولكن التدقيق في النصوص أظهر أن الوضع كان مختلفًا، فقد كان هناك مندوب في جُبْلا أيضًا، وأن المندوب في جنوبي البلاد لم يكن في خَزّة (غزّة)، بل تشير النصوص إلى أكثر من مندوبٍ هناك؛ في عكّا، وجَزْرِ ولاكيشا، وربّما يورصا؟ كما أن شخصًا كنعانيًا، من وجهاء بلاد يَريموتا الغنية بثروتها الزراعية تمتع بصلاحيات خاصة لرعاية المصالح المصرية.

ويبدو أن اختيار مكان المندوب الملكي كان يرتبط بأهمية موقعه الاستراتيجي، وبقوة الحاكم فيه، وموقفه من السيادة المصرية، فقد كان اختيار صُمُر لوقوعها على الطرف الذي يجاور قوى كبرى إقليمية يمكن من خلالها أن تتغلغل فجأة؛ كالمملكة الحثية، أو لدى احتمال تغير طبيعة العلاقة لسببٍ ما؛ كمملكة ميتاني الحورية؛ إضافة إلى وجود شك لدى الملك المصري في إخلاص حكامها. وكانت جُبْلا ذات أهمية اقتصادية خاصة، حيث تنطلق من مينائها معظم الثروات التي تمت جبايتها لمصلحة المملكة المصرية. وكانت كومد تتوسط مناطق سهل البقاع، وكان في عكّا ميناء مهم أيضًا. أما الوضع في الجنوب فقد كان مختلفًا متبدلاً؛ حيث نشأت ضمن بقعة جغرافية محدودة المساحة عدة كيانات سياسية، كما يظهر في المصور الجغرافي المرافق، حيث وُضعت بجانب كلّ منها نقطة حمراء. وهي لم تكن متحالفة، بل تظهر بينها خلافات، ولذلك وُجد فيها أكثر من مندوب في مدنٍ متقاربة؛ مثل: جَزْرِ ولاكيشا، وربّما يورصا؟

لم تسفر نتائج التنقيب الأثري بعد عن كشف مبنى يمكن أن يكون مقر إقامة المندوب الملكي في أيّ من تلك المدن. ويبدو أن المندوب كان يعيش في عزلة عن المجتمع المحلي، لا يشارك الشعب في المناسبات العامة، واقتصرت علاقاته على حاكم المدينة، ينقل إليه التوجيهات القادمة من البلاط الملكي، ويراقب مدى تنفيذها، كما يتلقى منه رغباته وطلباته.

ولم يكن المندوب يتدخل في المشكلات الحاصلة من دون موافقة القصر الملكي وتعليماته؛ وكان ذلك يُعدّ حالة طارئة لا تحدث إلا إذا لامست المصلحة المصرية مباشرة. ومن المستغرب عدم حصول ذلك في وضع مدينة جُبلا وحاكمها الذي كان يسير في منحى يمكن أن يؤدي إلى تحولات خطيرة إثر هجوم أبناء عبدي أشيرة عليها، ولم تُجدِ نداءات حاكمها رِب هدّا، ودعوته إلى التدخل والدعم المصري له، حتى بعد أن أعلمه بأن بوورو المندوب الملكي لديه قد قُتل (EA 129: 96; 131: 22)، ومُثّل بجثّته، ولم يُدفن بشكل لائق.

ولعل التدخّل الوحيد كان في صُمُر مركز مملكة أمورو التي أشرنا إلى أهمية موقعها الاستراتيجي، فقد تأثرت في البداية بالصراع المصري-الميتاني-الحثّي على سورية، ثم ترددت في ولائها للطرفين من خلال التواصل مع كليهما معًا. وفي مرحلة تالية اتضح موقف عبدي أشيرة من مصر، فكان الهجوم المصري على صُمُر، وموت عبدي أشيرة، وهروب أبنائه، ثم استمرارهم في نشر الفوضى والاضطراب، ومعاداة رِب هدّا حاكم جُبْلا،

ومن المرجح أن ذلك كان انتقامًا منه لموقفه المؤيد لمصر، والمعارض لأفعال أبيهم.

وقد استمرت المشكلة، بل تصاعدت بحدّة في عهد عزيرو ملك أمورو التالي، ولذلك أرسل رِب هدّا ملك جبلا رسائل كثيرة إلى الملك المصري أمنحتب الرابع ينبّه فيها إلى الازدواجية في موقف عزيرو ملك أمورو من البلاطين المصري والحثي، ويصف أعماله العدوانية تجاه حكام بلاد كنعان، ولكنه لم يلق تجاوبًا، ولا دعمًا مصريًا في صراعه معه. وقد اتضحت صحة موقفه، إذ أعلن عزيرو ارتباطه بالحثيين وعقد معاهدة تبعية مع ملكهم شوبيلوليوما سنة ١٣٣٦ ق.م.[٤٥]

الملاحق



أبرز المُدن في بلاد كنعان إبّان عصر العمارنة

Roaf, Michael (1990) Cultural Atlas of Mesopotamia and the Ancient Near East. Facts on File, Inc., Andromeda Oxford, p. 135

الاحالات المرجعية:

(١) سوف نعتمد على النشر الأساسي الأول لها باللغة الألمانية، والترجمة الإنكليزية الكاملة، والنشر العربي الشامل الذي سبق أن نشرناه. ونحيل إلى النصوص بأرقامها الموحدة في المنشورات جميعها، وبالرمز المختصر (EA). راجع:

Knudtzon, J. A (1907-1915) Die El-Amarna-Tafeln. J. C. Hinrichssche Buchhandlung, Leipzig.

Moran, W.L. (1992) The Amarna Letters. The Johns Hopkins Uni. Press, Baltimore and London.

إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) **مراسلات العمارنة الدولية "وثائق مسمارية من القرن ١٤ ق. م"**. دار إنانا، دمشق.

(٢) إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) **مراسلات العمارنة الدولية**، ١٥، ١٧.

(٣) المرجع نفسه، ٤٦.

(٤) مجمع اللغة العربية بالقاهرة (٢٠٠٤) **المعجم الوسيط**. ط ٥، مكتبة الشروق الدولية، جمهورية مصر العربية، ٩١٠، (ندب).

(٥) وردت الصيغة المصرية القديمة في EA 7: 76; 162: 74.

(6) von Soden, W. (1959-1981) Akkadisches Handwörterbuch. Otto Harrassowitz, Wiesbaden. P. 935

(٧) **المعجم الوسيط** ٣٢٢-٣٢٣ (ربص، ربض).

(8) Badre, Leila (1996) Tell Kazel – Ancient Simyra? in: F. Ismail (ed.) Proceedings of the International Symposium on Syria and the Ancient Near East (3000-300 B.C). Aleppo University, p. 81 ff.

(9) Singer, Itamar (1991) A Concise History of Amurru, S. Izre'el, Shlomo: Amurru Akkadian: A Linguistic Study, vol. II, Sholars Press Atlanta, Georgia; Stieglitz, Robert R. (1991) The City of Amurru. Journal of Near Eastern Studies, Vol. 50, No. 1, pp. 45-48; Goren, Yuval – Israel Finkelstein – Nadav Na'aman (2003) The Expansion of the Kingdom of Amurru According to the Petrographic Investigation of the Amarna Tablets. BASOR 329, pp. 1-11; Pfälzner, Peter (2012) Levantine Kingdoms of the Late Bronze Age. In: Potts, D. T. (Ed.) A Companion to the Archaeology of the Ancient near East, Blackwell Publishing Ltd. Pp. 777.

(10) Hess, Richard S. (1993) Amarna Personal Names. Dissertation Series 9, American Schools of Oriental Research. Eisenbrauns. Winona Lake, Indiana. P. 121; Albright, W. F. (1946) Cuneiform Material for Egyptian Prosopography 1500-1200 B. C., Journal of Near Eastern Studies, Vol. 5, No. 1, p.17.()

(١١) أُلاّزا مدينة ساحلية، يرد ذكرها في مراسلات العمارنة مرارًا، وفي الوثائق المصرية أيضًا. يفترض وجودها في موقع قريب من مدينة طرابلس اللبنانية، ويقترح الباحثون مطابقتها مع أحد الموقعين: تل الحانا، تل كستينا. راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien im 2. Jt. v. Chr, RGTC 12/2, Wiesbaden, 320.

(١٢) لا يرد ذكر يامايا في نصوص أخرى. يرجح أن اسمه مصري مختصر من (msy) الدال على الولادة. راجع:

(12) Hess, Richard S. (1993) Amarna Personal Names, 81.

(١٣) ذكر الباحثون آراء متباعدة في مطابقة موقع شِخْلالي (شلاّلا شرقي البترون، أو غير بعيدة عن صُمُر، أو أحد التلال القريبة من شَخْلي جنوب شرقي حماة، أو غربي نيّا) راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 268.

(١٤) تطابق تل عرقه، قبالة خليج عكار، شمال شرق مدينة طرابلس اللبنانية. ويُشار إليها في نصين بصفة البلاد "ملك بلاد إرقاتا" (EA 139, 140). راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 145.

(١٥) محمد، جهان عزت (٢٠١١) **مملكة أمورو في النصوص الأكّدية**. منشورات وزارة الثقافة، دمشق. ١٠٢.

(١٦) محمد، جهان عزت (٢٠١١) **مملكة أمورو في النصوص الأكّدية**، ٩٧.

(١٧) محمد، جهان عزت (٢٠١١) **مملكة أمورو في النصوص الأكّدية**، ٩٧. ويعتمد كلنجل على ما جاء في الرسالة (EA 95: 41): "إن عبدي أشيرة مريض جدًا. مَن يعلم متى سيموت؟" في أنه مات موتًا طبيعيًا. بينما ذهب موران إلى أن أناسًا من مدينته صُمُر قتلوه خلال غزو الجيش المصري للمدينة. راجع:

Klengel, Horst (1969) Geschichte Syriens II, Akademie Verlag, Berlin. p. 261 (33); Moran, W. L. (1969) The Dathe of 'Abdi-aširta. Eretz Israel 9, pp. 94-99.

(١٨) تجدر الإشارة إلى أنه لم يُشر في الرسائل إلى عبدي أشيرة بلقب "ملك"، أما عزيرو فقد خاطبه أمنحتب الرابع بلقب "حاكم" (EA 162)، وخاطبه ابناه في رسالة وحيدة بلقب "ملك" (EA 170).

(١٩) أُطلق الاسم يَريموتا على مناطق الجزء الجنوبي من الساحل اللبناني. راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 342.

(20) Hess, Richard S. (1993) Amarna Personal Names, 74; Albright, W. F. (1946) Cuneiform Material for Egyptian Prosopography, p. 12.

(٢١) امتدت أراضي بلاد نُخَشّي في المناطق السهلية والبادية المتصلة بها شرقًا، بين أطراف مدينتي حلب وحماة، وبين نهري الفرات والعاصي. ولذلك فهي تعد أوسع ممالك بلاد الشام خلال عصر العمارنة. راجع: إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) **مراسلات العمارنة الدولية**، ٥٣. وكذلك: إسماعيل، فاروق (٢٠١١) **مملكة نُخَشّي في المصادر الأكدية والمصرية القديمة**. مجلة "دراسات تاريخية"، دمشق، العدد ١١٥ / ١١٦، ٢٩-٨٦.

(٢٢) إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) **مراسلات العمارنة الدولية**، ٤٢٤.

(23) Hess, Richard S. (1993) Amarna Personal Names, 125; Albright, W. F. (1946) Cuneiform Material for Egyptian Prosopography, p. 19.

(24) Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 266.

(25)Dietz O. Edzard, Rolf Hachmann, Paul Maiberger, Günter Mansfeld: Kāmid el-Lōz – Kumidi. Saarbrücker Beiträge zur Altertumskunde 7. Habelt, Bonn 1970.

(26) Hess, Richard S. (1993) Amarna Personal Names, 125; Albright, W. F. (1946) Cuneiform Material for Egyptian Prosopography, p. 18.

(27) Hess, Richard S. (1993) Amarna Personal Names, 148; Albright, W. F. (1946) Cuneiform Material for Egyptian Prosopography, p. 21.

(28) Albright, W. F. (1946) Cuneiform Material for Egyptian Prosopography, p. 21; Hess, Richard S. (1993) Amarna Personal Names, p. 155.

(٢٩) يرجّح أن يورصا هي تل جمّه، جنوبي غزّة، ٧ كم شرقي دير البلح. راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 346.

(٣٠) يُرجّح أنها منسوبة إلى جبال الكرمل، وربما تكون تل العمر أو تل الصافت. راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 82.

(٣١) تطابق الموقع الأثري المعروف تل جَزَر، على بعد نحو ٨ كم جنوب غربي مدينة الرملة، راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 79.

توكلنا، إبراهيم (٢٠١٩) جزر (تل)، **موسوعة الآثار في سورية**، مج ٤، دمشق.

(32) Hess, Richard S. (1993) Amarna Personal Names, 132; Albright, W. F. (1946) Cuneiform Material for Egyptian Prosopography, p. 19.

(33) Hess, Richard S. (1993) Amarna Personal Names, 105; Albright, W. F. (1946) Cuneiform Material for Egyptian Prosopography, p. 15.

(٣٤) هي تل الدوير، في منتصف المسافة بين عسقلان والخليل. راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 174.

(٣٥) أوجاريت مركز مملكة شهيرة بالاسم نفسه، قرب اللاذقية.

(٣٦) طابق الباحثون مدينة شيجاتا مع موقع شِكّا شمالي البترون، على الساحل اللبناني الشمالي. راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 270.

(٣٧) طابقها الباحثون مع موقع أنفه شمالي شكّا، راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 17.

(٣٨) لا يرد ذكر مدينة بيخيلي في رسائل أخرى من مراسلات العمارنة. وهي Pella في العصر الروماني، وحاليًا خربة طَبَقة فِحْل في غور الأردن، قرب بلدة المشارع، جنوب غربي إربد. راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 220.

(39) Hess, Richard S. (1993) Amarna Personal Names, 82

(٤٠) طابق الباحثون قِلتو مع خربة قيلا أو خربة كوفين جنوب غربي القدس. راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 227.

(٤١) أُوروسليم/أُوروشليم هو الاسم الكنعاني القديم لمدينة القدس. راجع:

Belmonte Marin, J. A. (2001) Die Orts und Gewässernamen der Texte aus Syrien, 329.

(٤٢) يوصف يَنْخَمُ بأنه (m)*ia-an-ḫa-ma mu-ṣa-li-il*$_3$ LUGAL *be-li-ia*) "حامل مظلة الملك، سيدي"، والاسم في صيغة اسم الفاعل، مشتق من المصدر *ṣullulu* بمعنى "تظليل، تغطية"، وهنا لقبٌ لموظف خاص مرافق للملك. راجع:

von Soden, W. (1959-1981) Akkadisches Handwörterbuch. Otto Harrassowitz, Wiesbaden. P. 1110.

(43) Hachmann, R. (1982) Die ägyptische Verwaltung in Syrien während der Amarnazeit. Zeitschrift des Deutschen palästina-Vereins. Stuttgart, 98, 1982, 17.

(٤٤) إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) **مراسلات العمارنة الدولية**، ٣٣.

(٤٥) إسماعيل، فاروق (٢٠١٠) **مراسلات العمارنة الدولية**، ٤٩.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

النقوش الصخرية ذات الطابع السياسي في العصور المبكرة في مصر القديمة



د. زينب عبد التواب رياض خميس
أستاذ مساعد بقسم الآثار المصرية
كلية الآثار – جامعة أسوان
جمهورية مصر العربية

مُلَخّص

عبرت النقوش الصخرية في العصور المبكرة في مصر القديمة عن موضوعات عده كان من أهمها الموضوعات ذات الطابع السياسي، أي تلك النقوش التي توضح جانبًا من جوانب الوضع السياسي في مصر، لا سيما في المناطق الحدودية والصحاري المصرية خلال العصور المبكرة، وذلك من خلال إلقاء الضوء على أهم الأحداث السياسية التي جرت في أوقات بعينها، وتتبع مواقف القادة والملوك في سبيل تصديهم لتلك الأحداث، وقد جاء هذا النوع من النقوش الصخرية في بعض المواقع خاصة شمال شرق مصر، وجنوبها، بالإضافة إلى مواقع عدة بالصحاري المصرية الشرقية والغربية، والتي أظهرت نقوشها الصخرية العديد من رموز الحرب والانتصار، وأكدت على جهود ملوك تلك الفترة في توحيد شطري البلاد وحماية حدودها والتصدي لأي هجمات خارجية. يوضح البحث أيضًا كيف ركزت النقوش الصخرية من خلال بعض الرموز الملكية، على إظهار علاقات مصر الخارجية مع دول الجوار في عصور مصر المبكرة، ويبين أيضًا كيف كان تضافر الدين مع السياسة، وكيف كانا معًا من أهم العوامل التي دفعت بالملوك إلى توحيد قطري مصر، وإلى فرض سيطرتهم لتأمين حدود مصر وتوطيد علاقاتها مع دول الجوار في الفترة موضوع الدراسة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٠ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ٢٦ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

حماية الحدود؛ سيناء؛ النوبة؛ ليبيا؛ النقوش الصخرية؛ الصحراء الشرقية؛ الصحراء الغربية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.339619 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

زينب عبد التواب رياض خميس. "النقوش الصخرية ذات الطابع السياسي في العصور المبكرة في مصر القديمة".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ٢٧ – ٤٦.

Corresponding author: nfrtkmt77@yahoo.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

قبل البدء في تناول الموضوع لابد من توضيح المقصود بـ "العصور المبكرة"؛ فلقد قصدت الدراسة بالعصور المبكرة تلك الفترة الممتدة من عصر قُبيل الأسرات، الى نهاية العصر العتيق، والتي تتضمن (عصر الأسرة صفر، عصر الأسرة صفرين، عصر الأسرة الأولى، وعصر الأسرة الثانية)، وكان لا بد من توضيح ذلك كي لا يتم الخلط بين مصطلح "الأسرات المبكرة" و"العصور المبكرة"، فالعصر أشمل وأعم وقد يضم العصر الواحد أكثر من أسرة. سعى المصري القديم منذ عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقرار، وقد شجعه الاستقرار في مكان واحد على تكوين قرى ومدن، ومن ثم كان لابد من التفكير في إيجاد سلطة أو قيادة تنظم المجتمع، وتحل النزاعات بين أفرادها، وقد تطلب ذلك وجود قوة سياسية معنية بحماية الأفراد[١] ولقد وضحت سمات القوة والتنظيم السياسي على المجتمع المصري القديم منذ نهاية الألف الرابع ق.م تقريبًا، وظهر عدد من الأفراد ملكوا زمام الأمور آنذاك[٢]، كانوا هم الحكام والقادة، وكانت لهم مقابر خاصة في جبانات مستقلة[٣]، وكان لهم مكانتهم الاجتماعية التي أظهرتها مختلف الأعمال الفنية ومنها ما جاء في النقوش الصخرية[٤].

ولقد كان الدين والسياسة مرتبطان ببعضهما أشد الارتباط في مصر القديمة منذ العصور المبكرة، حيث كان الملك يجمع في يده السلطة الدينية والسياسية والعسكرية، فهو المُحارب في ساحات القتال، وهو الكاهن الأكبر مقدم القرابين للإله، وهو المسئول عن أمن مصر وأمانها وتحقيق السلام في أراضيه، ولقد ازداد الصراع الديني السياسي بطبيعة الحال في فترة التكوين الأولى للحضارة المصرية، حيث كانت العصبيات والانتماء لقرية أو مدينة بعينها وبالتالي إلى زعيمها ورمزها الذي سريعًا ما يتحول إلى إله محلي وتصبح له الغلبة، ثم ما لبثت أن تكونت القرى، ثم المدن، ثم الأقاليم، وكلما انتصرت قرية أو مدينة أو إقليم؛ انطوى المهزوم تحت لواء الإله المنتصر، وكان ذلك أول بزوغ للانتماء في مظاهره الأولى[٥].

أولاً: الوضع السياسي لمصر في العصور المبكرة

كانت محاولات السعي نحو تهدئة الأمور الداخلية، وتوحيد قطري مصر هو الهدف الرئيس الذي سعى له ملوك العصور المبكرة، هذا عن الوضع السياسي الداخلي في مصر آنذاك، أما عن الوضع السياسي الخارجي فقد تنوعت علاقات مصر الخارجية منذ عصور ما قبل التاريخ بين "علاقات سلمية" عن ﷺريق التبادل التجاري الذي أكدت عليه الأدلة الأثرية، و"علاقات عسكرية" وضحتها النقوش الصخرية المختلفة التي تصور الملك كمحارب يصرع أعداءه، ولقد تأكد الدور السياسي لمصر مع تأسيس حكومة مركزية على يد الملك "نعرمر"، وبدأت تتضح العلاقات الخارجية مع الأماكن الحدودية المجاورة لمصر شمالاً وجنوبًا، شرقًا وغربًا[٦]. إلا ن هذا لا ينفي محاولات ملوك عصر قبيل الأسرات (الأسرة صفرين والأسرة صفر) في بسط سيطرتهم ونفوذهم على المناﷺق الحدودية المصرية، وكانت النقوش الصخرية أحد أهم الأدلة المؤكدة على ذلك.

ثانيًا: النقوش الصخرية ذات الطابع السياسي في عصر قُبيل الأسرات (الأسرة صفرين، الأسرة صفر)

قسم العلماء عصر قبيل الأسرات إلى أسرتين هما:

١- الأسرة صفرين:

استطاع العلماء استنباط عدد من أسماء ملوك تلك الأسرة، والتي تواجدت مقابرهم بالجبانة U-J بأم الجعاب "أبيدوس"، وكان أشهرها مقبرة الملك العقرب الأول، ويمتد عصر هذه الأسرة بالفترة ما بين نقادة IIIa1-2، ويمكن اعتبار الملك العقرب الأول ومن خلفه من ملوك هذه الفترة هم ملوك عصر الأسرة صفرين[٧]، وقد حكم في تلك الأسرة تقريبًا خمسة عشر ملكًا، عُرف من بينهم أربعة ملوك كانت أسماؤهم هي: الملك الصقر، الملك الفيل، الملك الثور، الملك الأسد[٨].

٢- الأسرة صفر:

وهو مصطلح أشار Raffaele إلى استخدامه من قِبل "كويبل" ليصف اللقى والأدلة الأثرية التي ترجع لنهاية عصر ما قبل الأسرات، والتي عثر عليها في "نخن" هيراكونبوليس، والتي كانت ترجع لحكام تلك الفترة[٩]، وهي تشير إلى النصف الثاني من المرحلة الثالثة من الحضارة النقادية Naq. IIIB-IIIC1 والتي عُرفت بعصر التوحيد[١٠]، ولقد عبر زعماء الأسرة صفر عن أنفسهم وعن سلطتهم من خلال أسلوب فني سياسي ودعائي يهدف لإبراز قوة الملكية الناشئة التي تسعى لتوحيد البلاد والقضاء على العدو[١١]. ولقد تم العثور على بعض أسماء

ملوك تلك الأسرة في أم الجعاب بأبيدوس ومنها اسم الملك "إري حور"، و"سخم كا"، وتجعل الأدلة الأثرية الملك "سخم كا" سابقًا على الملك نعرمر، وتاليًا للملك إري حور، هذا بخلاف الملك "العقرب الثاني" الذي يعد آخر ملوك تلك الأسرة وبعده يأتي الملك نعرمر مؤسس الأسرة الأولى[١٢].

ولعل ما خلفه ملوك عصر قبيل الأسرات من أثار يعد خير دليل على المناخ السياسي الذي كان سائدًا آنذاك، والذي أشارت إليه الرموز الحيوانية ذات الدلالة الملكية، والتي وضحت في شتى الأعمال الفنية بتلك الفترة، لا سيما البطاقات العاجية، الصلايات، مقابض السكاكين، حيث جاءت نقوشها مصطبغة بالطابع التاريخي الأسطوري السياسي، الذي كثُر فيه تشبيه الملك بالثور، أو بالأسد الذي ينقض على أعدائه ويهزمهم شر هزيمة كإشارة الى الانتصار على الأعداء.[١٣] ولقد أظهرت النقوش الصخرية أيضًا أنه كان هناك نزاعات حربية في وادي النيل فيما قبل الأسرات، وضح ذلك بشده في عصر نقادة الثانية فصاعدا، وقد تأكد ذلك من خلال ظهور واستخدام الأسلحة مثل الصولجان والسهام والرماح والفؤوس من ناحية، وظهور بعض الأدلة مثل بناء الجدران والأسوار لأغراض دفاعية من ناحية أخرى.[١٤]

وعلى الرغم من أن الفن الصخري عُرف في مصر تقريبًا في أواخر العصر الحجري القديم حوالي ١٥٠٠٠ ق. م[١٥]، وعثر ضمن نقوش جبل السلسلة بأسوان على أمثلة من أقدم النقوش الصخرية[١٦]، إلا أن كثيراً من النقوش الصخرية الموثقة ينتمي إلى فترة ما قبل الأسرات (٤٥٠٠-٣١٠٠ قبل الميلاد). هذه النقوش كانت تجمع بين القوارب، الحيوانات الصحراوية والنيلية، وكذلك الشخصيات الذكورية في كثير من الأحيان مسلحين بأسلحة لا سيما الأقواس[١٧]

ولقد تركزت أغلب موضوعات الفن الصخري في عصر ما قبل الأسرات على تصوير مشاهد الصيد بعناصرها المتمثلة في قوارب وشخصيات مرفوعة السلاح، هذا النهج أدى إلى افتراض ارتباط تلك المشاهد بممارسات العبور المسلح لبعض المجموعات من هذا المكان أو ذاك[١٨]، ولقد كان هناك تواجد رعوي في الصحاري المصرية خلال عصور ما قبل الأسرات، ففي الصحراء الشرقية على سبيل المثال، كان الجزء الجنوبي منها مأهولاً ويستخدمه فئات رعوية متنقلة من مجتمع النوبيين، وذلك خلال الألفية السادسة والخامسة ق.م، وقد مارست هذه المجموعات الفن الصخري وصوروا رموزًا عده من أنشطة الرعي والصيد.[١٩]

ويُعد وادي النيل والصحاري عالمان مختلفان تمام الاختلاف سواء في الطبيعة أو التكوين، أو في طبيعة الموروث الثقافي، فما خلفه وادي النيل ودلتاه من أعمال فنية، يختلف عما خلفته المناطق النائية الصحراوية من فنون صخرية[٢٠]، إلا أن كلاهما ترك من الأدلة الأثرية ما يؤكد على الهيمنة السياسية والملكية في تلك الفترة، والسعي نحو توحيد مصر شمالاً وجنوبًا، وتأمين مناطقها الحدودية. ولعل النقوش الصخرية المتناثرة في الصحاري المصرية تعد خير دليل على إعادة تنشيط وإعمار تلك المناطق النائية، ويتأكد ذلك من خلال العديد من النقوش الصخرية المكتشفة، والتي عثر عليها أعلى بعضها البعض عبر عدة أجيال، خاصة في الصحراء الشرقية لا سيما في الفترة (٣١٠٠-٢٦٠٠ ق.م) أي طوال عصر الأسرتين الأولى والثانية تقريبًا[٢١]، ويغلب على معظم هذه النقوش الصخرية طابع السلطة الملكية، مما يشير إلى محاولة فرض السيطرة الملكية على المكان، وقد ارتبط معظم الفن الصخري في الصحراء الشرقية ببعثات رسمية كانت تهدف إلى استغلال الثروات المعدنية بها[٢٢]، وكانت القوارب الملكية عنصرًا هامًا في أغلب هذه النقوش الصخرية، إذ تكرر العثور عليها في مواقع عدة ضمن نقوش الصحراء الشرقية منها ما جاء في موقع خور أبو سبيرة الجنوبي١ بوادي أبو واصل شمال شرق أسوان، حيث عُثر على نقش لقارب من ذلك النوع الذي يؤرخ بعصر نقادة الثانية، والذي عرف باسم القارب المنجلي ذو النهايات المعقوفة ويُلاحظ على القارب وجود شخص ممسك بعصا مما يشير ربما إلى كونه واحدًا من الزعماء مصور بجانبه ذلك الشعار أو الطوطم، مع ملاحظة عدم وجود كابينة على ظهر القارب[٢٣]. (شكل:١)

وقد اقترنت القوارب في خور أبو سبيرة ببعض الإشارات الدالة على السلطة سواء من خلال الرموز أو الأشخاص ذوي غطاء الرأس المميز، وكان من بين النقوش الصخرية التي جمعت بين هذه الرموز بخور أبو سبيرة النقش رقم ٤ في الموقع رقم ١١، والذي جاء فيه قارب يعلوه كابينة مزدوجة، ويحيط بالقارب طيور وثلاثة من الرجال، اثنين من هؤلاء الرجال تعلوا رؤوسهما أغطية رأس من الريش، ويمسك كل واحد منهم بعصا معقوفة الطرف، بينما يقف الشخص

الثالث بمفرده في الجانب الآخر إلى اليسار من القارب ممسكًا بعصاه ومرتديًا غطاء للرأس مستقيم لأعلى، أقرب لتاج الوجه القبلي في الشكل إلا أنه أكثر استقامة.[٢٤] (شكل:٢)

وبناءً على نمط الهيئات الآدمية بالنقش يمكن تأريخ المنظر بعصر نقادة الثانية D، أما عن الشخص الواقف فوق القارب فكان يرتدى غطاء رأس مثلث الشكل ربما يشبه التاج الأبيض، او ربما هو شعار للملكية مرتبط بمصر العليا، أما ظهور الصقر فقد كان رمزًا للملكية، وربما كان هذا المنظر هو الجذور الأولى التي تطورت فيما بعد ليظهر الصقر على قمة "السرخ" الذي يشير إلى القصر أو ربما واجهة المعبد.[٢٥] وبناءً عليه يكون بداية ظهور الرموز الملكية كان في عصر قبيل الأسرات (عصر الأسرة صفرين، والأسرة صفر)، وأن توحيد القطرين كان له إرهاصاته الأولى التي سبقت عصر الملك نعرمر.

ولقد عُثر أيضًا بخور أبو سبيرة على نقوش صخرية أخرى لقوارب ضمن مشاهد عبرت عن الاحتفال بالنصر [٢٦] (شكل:٣)، حيث جمعت عناصر المشهد بين القوارب وبين هيئات آدمية ترفع أيديها لأعلى، فسرها البعض بأنها تعبر عن الرقص احتفالاً بالنصر، وفي نقش آخر جاء القارب مجرور بالحبل من قبل خمسة من الأشخاص، بينما يتوسطه شخص رافع ذراعيه لأعلى[٢٧]، وهو دلالة على الاحتفال بالنصر. (شكل:٤)

ومن تكرار تصوير القوارب يتبين كيف كان القارب رمزًا مهمًا في مفهوم الحضارة النقاديه، وقد تم استخدامه في الأنشطة التي تنطوي على أحداث ذات طبيعة سياسية وطقسية، إذ أن القوارب استخدمت في مرحلة ما قبل الأسرات في نقل المتوفى ضمن الطقوس الجنائزية، وقد تأكد ذلك من خلال العديد من رسوم المراكب التي جاءت على أسطح الأواني الفخارية.[٢٨] ولقد فسر Vanhulle تصوير القوارب في النقوش الصخرية التي عُثر عليها في مناطق قريبة من نهر النيل بأن الغرض منها ربما كان الإبحار في مياه نهر النيل أثناء الفيضان، أما النقوش الصخرية البعيدة عن ضفاف نهر النيل فقد أشار إلى أنه ربما كان الغرض منها ديني أو سياسي[٢٩]، ومن ثم فالنقوش الصخرية في صحاري مصر تؤكد على الأهمية الاستراتيجية لهذه الصحاري في تلك الفترة الزمنية المبكرة.

وبخلاف تصوير القوارب، فقد عُثر في وادي أبو سبيرة كذلك على بعض النقوش الصخرية التي تضمنت علامات ملكية مثل علامة "السرخ" "واجهة القصر" وعليها الصقر حورس رمز الملكية المصرية، وأيضا بعض الرموز تخص اسماء الملوك الأقدم الذين حكموا مصر قبل عصر الأسرة الأولي، ولعل كثافة تلك النقوش في مكان واحد تدل على استقرار الملكية وبداية نشأة وتكّون الدولة المصرية وسيطرتها على تلك البقعة الصحراوية المترامية الأطراف؛ ويدل أيضًا على امتداد نفوذ الملكية واستقرارها من الألف الرابع قبل الميلاد في جنوب مصر[٣٠]، وفي النصف الثاني من عصر نقادة الثالثة (٣١٠٠ ق.م) بدأت تظهر ملامح الوحدة السياسية بين مصر العليا ومصر السفلى، وتطلع ملوك نخن "هيراكونبوليس" وأتباعهم ممن عرفوا بـ (الشمسو حور šmsw-ḥr) أو "أتباع حور" اللذين سعوا نحو وحدة البلاد تحت لواء المعبود حور، مما يشير إلى أن الوحدة السياسية للبلاد تمت تدريجيًا وليس بتغير مفاجئ عنيف، وهذه الفترة اكتمل فيها التفاعل والانسجام الثقافي بين معظم بقاع أرض مصر العليا والسفلى، والذي مهد في النهاية إلى نجاح زعماء "نخن" في النصف الثاني من نقادة إلى توحيد مصر وجعلها مملكة واحدة[٣١].

وفي عصر الأسرة صفر امتد تأثير الحضارة المصرية حتى الأماكن الحدودية بشمال شرق مصر؛ بما يشير إلى انتشار وتوسع المد الحضاري من وادي النيل خاصة في عصر نقادة الثالثة، ووضح ذلك بشدة في شبه جزيرة سيناء شمال شرق مصر[٣٢]، حيث عُثر في وادي عميرة جنوب شبه جزيرة سيناء والذي يقع على بعد حوالي أربعة عشر كم غرب جبل التيه، على نقش للملك إري حور ثاني ملوك عصر الأسرة صفر، النقش عبارة عن لوحة منقوشة بصخر الجبل تتضمن تمثيل قارب كبير بطول ١٠٠ سم تعلوه مقصورة، ويعلو القارب اسم الملك إري- حور ثاني ملوك عصر الأسرة صفر، متمثلاً في طائر الصقر (hr) جاسم على علامة (r)، والذي كان أحيانًا يُقرأ (wr-r3) بمعنى "الفم العظيم"، ويعلو الاسم نقوش هيروغليفية لاسم مدينة منف "إنب -حج" inb-ḥḏ.[٣٣] (شكل:٥)

ولقد أشار "عمر" إلى أهمية هذا النقش الذي يعد أشبه بوثيقة ترسخ وتُؤرخ عصر تأسيس مدينة "الأسوار البيضاء"، وأن الملك إري-حور استطاع أن يحكم مصر بقطريها، وأن

ينشئ عاصمته الإدارية في رأس الدلتا، كما يبرهن النقش على تواجد وهيمنة الملك وانتشار نفوذه على الحدود الشمالية الشرقية آنذاك، وهو دليل على اكتمال الصورة الملكية والانتشار السياسي للملك في هذا العصر المبكر(٣٤). لذا فأن هذا النقش يُدحض الرأي القائل بأن الملك "نعرمر" هو أول من أسس عاصمة مصر الموحدة "من-نفر"، فقد سبقه الملك "إري-حور" الى ذلك، بل وربما سبق كذلك غيره من ملوك العصر المبكر في تأمين حدود مصر الشمالية الشرقية.

أما عن الفن الصخري في الصحراء الغربية خلال هذه الفترة فقد أشار Vanhulle إلى أنه كان أقل عددًا عما عُثر عليه بالصحراء الشرقية، وقد تركز بشكل أساسي بالقرب من الواحة الداخلة، الخارجة والفرافرة، وهو يقدم أسلوب ونمط وخصائص مختلفة عند مقارنته مع ما جاء بالوادي والصحراء الشرقية، فالنقوش الصخرية بالصحراء الغربية لا تزال تحتاج إلى المزيد من الدراسات لتقديم المزيد من المعلومات بشكل أفضل حول كيفية ممارسة الفن الصخري والهدف منه في العصور المبكرة(٣٥)، فقد عُثر على نقش صخري أخر بجبل Tjauti بصحراء مصر الغربية، عُرف النقش باسم "نقش جبل Tjauti"، حيث تم الكشف عن جرافيتي يظهر فيه أسير مقيد عاري ذو شعر طويل (مشار اليه في الصورة بسهم أحمر)، ومسيطر عليه شخص أصلع ملتح يحمل صولجان(٣٦) (مُشار اليه في الصورة بسهم أزرق)، ويؤرخ النقش بأخر عصر ما قبل الأسرات، تقريبًا بفترة نقادة IIIAI.(٣٧) (شكل:٦)

يتكون المنظر من قطاعين تتجه جميع الأشكال فيهما إلى اليمين، يبدأ القطاع العلوي (من اليمين إلى اليسار) بصورة مقصورة أو هيكل مرتفع، محاطًا ومغطى جزئيًا بزوج من طيور اللقلق، يلي ذلك صقر يسبق رجل يحمل عصا، ويعلوها صقران إضافيان، يبدأ السجل السفلي بصورة صقر فوق عقرب، (فهل يكون في ذلك إشارة إلى الملك العقرب؟ ربما كان ذلك)، ويتبع ذلك شخص يحمل عصا، وقبلها صورة مفقودة جزئيًا، خلف الشكل يوجد أسير عاري طويل الشعر مربوط بحبل يمسك به رجل أصلع ملتح يحمل صولجان، وهي رموز يدل تفسيرها على النصر سواء من خلال تمثيل أشكال حورس الثلاثة، أو الشخص الذي يحمل العصا والذي ربما كان يُمثل ابن ملك(٣٨)، وجميعها مشاهد تدل على الصراع وترسيخ دعائم تأسيس الدولة المصرية الموحدة آنذاك(٣٩).

ومن الجدير بالذكر أن الحبل كان يُعتبر من إحدى الصور الدالة عل العبودية في مصر القديمة، فهو القيد المعروف والمستخدم في تقييد الشخص المراد توقيفه سواء بسبب كونه أسيرًا أو عبدًا أو خارجًا على القانون، ولقد كان هناك أنواع عدة من الحبال، إلا أن الأدلة الأثرية أكدت أن القيد المصنوع من الألياف النباتيةٌ هو الذي كان مستخدمًا في كثير من الأحيان لقمع أسرى الحرب، وتسهيل إحضارهم إلى مصر في سهولة ويسر، وذلك بدءًا من عصر ما قبل الأسرات عندما عرف المصري القديم معنى الصراع من أجل فرض السيطرة وفرض نفوذ الحكم على أرجاء البلاد، ومن خلال مناظر المقابر عبر العصور يبدو أن المصري القديم أدخل أسراه لمصر مقيدين الأذرع(٤٠)

وتدلل النقوش الأثرية بعدة أدلة موضحة ان القيد بالحبل كان هو الوسيلة الأولى والفعالة في التحكم في حركة الأسير أو المجرم منذ عصور ما قبل وبداية الأسرات، حيث كان يتم تصوير الأسير أو العدو مُقيدًا بالحبال ويديه خلف ظهره، بما يعني أن الملك أخضع أعداؤه وسوف يضربهم بمقمعته أو سلاحه الذي بيده، ولقد تعددت وتنوعت المناظر التي توضح استخدام الحبل كقيد على الآثار المصرية القديمة في شتى العصور الحضارية القديمة(٤١). وربما استفضت هنا في الحديث عن الحبل؛ وما كان ذلك إلا لتكرار ظهوره في العديد من الأعمال الفنية سواء على الصلايات أو مقامع القتال، أو في العديد من النقوش الصخرية مما يوحي برمزيته المتعلقة بالنصر على الأعداء من خلال تقيدهم بالحبال.

ولقد ظهر أيضًا تمثيل لشخصية الملك في الفن الصخري في موقع وادي المحاميد ٨١ في منطقة الكاب(٤٢)، يشير النمط التخطيطي للرسم المحفوظ بشكل غير كامل، وكذلك شكل التاج الأبيض ذو الخطوط المستقيمة إلى أواخر عصر ما قبل الأسرات أو أوائل عصر الأسرات، وبالقرب من الملك يوجد نقش لأرنب ربما كان جزء من مشهد تم تدميره، ولكنه لا يؤرخ بنفس الفترة، وانما يرجع لعصر الأسرات المصرية القديمة، ربما عصر الدولة الحديثة(٤٣). (شكل:٧)

ولقد تميز الفن الصخري لمصر في نهاية عصر ما قبل الأسرات، بهيمنة المشاهد ذات الصبغة الملكية متمثلة في عناصر ورموز المراسم والطقوس العسكرية والبحرية، حيث كان التركيز على إظهار شخصية الملك، والتيجان والشعارات الملكية، وكانت هذه الرموز هي العناصر الأكثر شيوعًا في الفن

الصخري في أواخر عصر ما قبل الأسرات لا سيما في جنوب الصحراء الغربية في صعيد مصر والنوبة(٤٤)، ونقوش اللوحة التذكارية المبكرة آنفة الذكر في جبل Tjauti في الصحراء الغربية(٤٥).

وفي نجع الحمدلاب بالصحراء الغربية على بعد اثنان ونصف ميل شمال أسوان، على الضفة الغربية لنهر النيل (شكل:٨) عُثر على نقش صخري من النقوش ذات الصبغة الملكية، يؤرخ بالفترة ما بين نهاية عصر ما قبل الأسرات، وبداية عصر الأسرات(٤٦). وقد جاءت النقوش الصخرية بالموقع كثيرة ومركبه، وظهر الملك واضحًا في ثلاثة من سبعة مواقع بنجع الحمدلاب هي المواقع (NH2a وc٣ و٧)(٤٧). (شكل:٩)

تبين تلك النقوش الثلاثة بالمواقع (NH2a وc٣ و٧) مشاهد لحملات أو بعثات رسمية، تؤرخ ببداية عصر الأسرات(٤٨)، وتهيمن على المشهد صورة متكررة لحاكم يرتدي أحد التيجان الملكية لا سيما "التاج الأبيض"(٤٩)، ويعد هذا النقش من النقوش الصخرية ذات الصبغة الملكية حيث تشابهت عناصرها مع نقوش مقمعة الملك العقرب وصلاية الملك نعرمر(٥٠)، يوضح المنظر بعثة أو اسطول بحري مكون من خمسة قوارب كلها ذات مقدمة مرتفعة، أربعة منهم بزخارف متطابقة تقريبًا وتحمل كابينة مزدوجة، تتجمع القوارب في مجموعتين، اثنين بهما كابينة مزدوجة في أعلى اليمين، ويظهر بالنقش علامات هيروغليفية نادرة من أوائل الأسرات(٥١). (شكل:١٠-١١)

يوجد فوق القارب الرئيسي في الزوج السفلي من القوارب صورة رائعة للملك وحاشيته، يرتدي الملك التاج الأبيض، ويمسك بعصا ؟ويلة ذات قمة منحنية، بينما يمسك في اليد الأخرى صولجانًا آخر أفقيًا؛ يتقدم الملك اثنين من حملة الألوية، الأول يحمل شعار ربما يُمثل المشيمة الملكية، والثاني يمثل شعار يشير الى "وب واووت" ويتبع الملك حامل المروحة الملكية(٥٢). (شكل:١٢) ويُعَدّ هذا المنظر من أهم المناظر التي تمثل الملك يرتدى تاج الوجه القبلي وذلك ضمن مجموعة من المناظر الملكية التي ترجع لعصر الأسرة «صفر» وبدء معرفة الكتابة المصرية القديمة حوالي (٣٢٠٠ ق.م).(٥٣) ورغم إرجاع النقش لعصر قبيل وبداية الأسرات، إلا أن رموز وعناصر المشهد، وما تضفيه من ؟ابع سياسي ملكي، يؤكد بلا أدنى شك الاستقرار السياسي والأمني في مصر في هذه الفترة

الزمنية، وكأن عصر الأسرة صفر قد مهد للبداية الحقيقية للعصور التاريخية، وأن جهود ملوك تلك الفترة كان الأساس المتين الذي شيدت عليه الحضارة المصرية القديمة.

هذا ومن الجدير بالذكر أنه كثيرًا ما اقترنت القوارب لا سيما في المناظر ذات الصبغة الحربية بعلامة šms، ويشير ذلك المصطلح لأحد أعياد عصور ما قبل التاريخ، فاستخدام علامة šms يدل على أن هؤلاء الأتباع ذو ؟بيعة حربية بسبب أحداث البلاد في هذه الفترة، وكانت معارك التوحيد آنذاك يتم بعضها في النيل، لذلك كتبت كلمة šms بمخصص المركب، أما الصقر فيشير إلى حورس الذي قاد مسيرة الكفاح في تلك الفترة، وذلك كما جاء على صلاية الملك نعرمر حيث مثل الشكل الموجود فوق المركب المصورة على الصلاية علامة šms التي تشير إلى أتباع حورس(٥٤)، وفي مثل هذه الأحوال فإن القارب المصورة إنما تعني مركب الصقر؛ مركب الحرب؛ مركب تنتمي إلى المعبد(٥٥).

ثالثًا: النقوش الصخرية ذات الطابع السياسي في عصر الأسرة الأولى

كان الوضع السياسي الداخلي في مصر خلال عصر الأسرتين الأولى والثانية مضطرب إلى حد ما، إذ قامت العديد من الحروب الأهلية الجنوبية من أجل توحيد الجنوب، كذلك مرت الدلتا بأكثر من مرحلة من أجل الاتحاد، وعندما اتحد الجنوب المصري سعى حكامه إلى الاتحاد مع الشمال مما أدى إلى نشوب حروب أهلية أخرى بين شمال مصر وجنوبها في عصر الملك العقرب الذي تمكن من تحقيق انتصارات واضحة على الشمال، حيث ظهر بالصف الثاني بنقوش رأس مقمعته، حملة المراوح وخلفهما صفين من نبات البردي، مما يشير انتصار الملك العقرب على الشمال(٥٦)، ونادرًا ما ظهر مع تلك المشاهد علامة "السرخ"، وأحيانًا كنت تظهر بعض العلامات الهيروغليفية البدائية، وربما مثلت هذه البعثات نوع من المراقبة الحدودية والسيطرة من قبل الدولة على تلك الأراضي آنذاك، وكان الفن الصخري هنا خير دليل على توثيق صلة هذه المنا؟ق البعيدة بالوادي(٥٧)

أما عن الوضع السياسي الخارجي ففي بداية العصور التاريخية اكتملت مصر إداريًا وسياسيًا، وأصبح الملوك أكثر بطشًا مع الدول المجاورة، وظهر ذلك من خلال النقوش الصخرية، بل أصبح الأمر أكثر عنفًا وأتضح ذلك من خلال

بناء بعض القلاع والحصون في منطقة إلفنتين، ومن خلال بعض النقوش الموجودة على الصخور بموقع Hall B القريب من بوهين التي يرجع تاريخها إلى الأسرة الأولى، وعلى ما يبدو أن هذه القلاع تم استخدامها كنقطة انطلاق لإرسال غارات على النوبة كما هو مسجل على بطاقة عاجية للملك نعرمر، وعلى ما يبدو أنه كانت هناك حملة موجهة من مصر إلى النوبة السفلى في الأسرة الثانية وخاصة في عهد الملك خع-سخم فمن ضمن آثاره التي عثر عليها في نخن ما يصوره وهو منتصر على أهل الجنوب "تا- ستي"[٥٨]، حيث عُثر على جزء من لوحة حجرية صُور عليها أسير راكع على منصة منتهية برأس شخص أجنبي تعلو رأسه علامة القوس، وأسفل ذلك نجد اسم الملك خع-سخم[٥٩] (شكل: ١٣).

وهكذا فمع بداية عصر الأسرات وبعد توحيد القطرين تحت لواء ملك واحد، ارتبطت النقوش الصخرية المتكررة برمزية الحرب والنصر، وكانت عادة ما تستلزم مشاهد النصر التي يتم تصويرها على شعارات ملكية، مثل الصولجان، وغطاء الرأس المميز، وتزين الشعر أحيانًا بالريش والضرب بالعصا أو المقمعة، بالإضافة إلى تصوير "القائد المنتصر" بحجم أكبر إذا ما قورن بغيره من الأشخاص، كل هذه الخصائص تكررت باستمرار في صور اظهار الحاكم الأول وأصبح لاحقًا جزءًا من تمثيل الملك خلال الحقب التاريخية، وبنفس المنهجية كان هناك العديد من العناصر الأخرى التي تبين النصر، منها تقديم الأسير من الأعداء كدليل على الهزيمة، وكذلك تقييد الذراعين خلف الظهر، والظهور في وضعية الركوع ، وتمثيل العدو المنهزم بحجم أصغر إذا ما قورن بالمنتصرين[٦٠].

ولقد وضح ذلك في العديد من النقوش الصخرية، ففي واحة الخارجة الشمالية (NKOS) "North Kharga Oasis Survey" تم اكتشاف علامة "سرخ" من عصر الأسرات المبكرة (شكل:١٤)، وهو من أكثر الاكتشافات إثارة للاهتمام، وقد تم العثور على هذا النقش على الوجه الشمالي الشرقي لكتلة صخرية من الحجر الرملي شمال الواحة، حيث توجد بالقرب من درب عين أمور[*]، ويعد هذا النقش دليل على استخدام هذا الموقع كنقطة اتصال حضاري[٦١]. ويُعَدّ هذا المنظر واحدًا من المناظر المعبرة عن الصيد، ويمكن تفسير مشاهد الصيد في سياق الدولة المصرية الناشئة باعتبارها مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بصعود مجموعة من الأفراد على أقرانهم، وظهور دور القائد أو الزعيم الذي كان يتصدر تلك المشاهد.[٦٢]

يبدو هذا الأمر واضحًا بشكل خاص بسبب العلاقة بين المشاهد التي تمثل صيادًا ينتصر دائمًا على الحيوانات الخطرة (أو أعداء البشر) ومفهوم السيطرة على البيئة الصحراوية المعادية، والسيطرة على الفوضى، يتوافق هذا مع المهام الأساسية للحاكم المصري والتعبير عن السيطرة الملكية، وقد أظهرت الرموز الملكية كل ذلك من خلال تصوير الملك وهو يحمل أيضًا صولجانًا ويرفع ذراعيه في إشارة إلى النصر.[٦٣]

كثيرًا ما كان الحد الغربي لمصر يتعرض لهجمات من الـ"تحنو"، وقد وضح ذلك منذ أقدم العصور، وقد أشارت الأدلة الأثرية إلى وجود مناوشات بين مصر وليبيا منذ عهد الملك نعرمر، فقد قام بحملة تأديبية ضد التحنو، وذلك استنادًا على خاتم أسطواني عثر عليه بنخن يتضمن ذكرًا لاسمه واسم أرض التحنو، وأشكالاً لأسرى تم القبض عليهم[٦٤]، وقد تأكد ذلك أيضًا من خلال صلاية التحنو.

وقبائل التحنو " كانوا في الأصل مصريين، وأنهم سكنوا الوجه البحري، ثم هاجروا منه في وقت ما نحو الغرب، وسكنوا إقليم تحنو الواقع على الحدود المصرية الغربية[٦٥].

وقد عثر بشمال الواحة الخارجة بالصحراء الغربية على مجموعات أخرى من الجرافيتي تتضمن العديد من المشاهد التي تُشكل علامة السرخ جزء من تركيبتها وذلك كما في (شكل:14) الذي ظهرت فيه علامة السرخ يعلوها الصقر، وبالقرب منها علامة الذراع "حرف العين"، هذه العلامة لا تتوافق مع اسم أي حاكم معروف في وقت مبكر من عصر الأسرات، ولا بين الملوك التي تم إثبات وجودهم بالأدلة التاريخية والأثرية ولا بين الملوك الأوائل المدرج أسماءهم على حجر بالرمو، ولا ملوك الأسرة الأوائل المعروفين، "عحا" و"قاعا" (الأسرة الأولى)، فاسم "قاعا" نجد أن حرف k الذي يشكل اسم الملك غير موجود، ولا أثر لافتقاده بالنقش، وبشكل عام أسلوب السرخ تتقاطع خطوطه معًا، وكذلك الصقر الذي يعلو السرخ ويميل للأمام، يحمل تشابه معين لأمثلة على نمط سرخ الملك "عحا"، ومع ذلك فإن اسم "عحا" دائمًا مكتوب بذراعين، أحدهما يحمل سلاحًا والآخر يحمل درعًا، وهنا بالنقش يوجد بوضوح ذراع واحدة فقط،

وأما تفسير اتصال إحدى أرجل الصقر بالسرخ، فربما كان هذا مجرد مصادفة، أو قد تعكس التمثيل المعتاد لنمط سرخ الملك "عحا"، حيث يحمل الصقر الأسلحة بنفسه داخل السرخ، ومع ذلك لا يوجد حتى الآن أي دليل على كتابة اسم "عحا" بدون الذراع التي تمسك بالمقمعة والدرع [٦٦]. (شكل:١٥)

وربما كان هذا الشكل يمثل كتابه قديمة غير معتادة لاسم الملك "نعرمر"، رغم هذا الافتراض غير مؤكد، حيث أن الجزء العلوي من السرخ جاء مستقيم، وهذا النمط لم يسبق ظهوره عهد الملك "عحا"، فالأمثلة الأقدم من ذلك كان السرخ تأتي قمته مقعرة، ورغم ذلك فإن حورس في وضع الانحناء كان أكثر شيوعًا في الأسرة صفر وبداية الأسرة الأولى، وهكذا فبناءً على التحليل الأسلوبي يبدو أن السرخ قد يحتوي على اسم حوري لمك يُدعى "عا"، ربما هو ملك ينتسب إلى عصر الأسرة صفر أو الأسرة الأولى، وقد يكون هذا اسم آخر للملك كان معروفًا لنا من قبل، وقد يكون اسمًا جديدًا تمامًا.[٦٧] أو قد يكون للملك قاي عا وأن الكاتب قد نسي حرف القاف أو سقط سهواً.. فلما لا؟

ولقد قدمت Ikram أكثر من تفسير لهذا النقش؛ فاقترحت أن السرخ والحيوانات الأخرى ربما كانت جزءًا من مشهد يعبر عن رحلة صيد تم تنفيذها تحت إشراف ملكي، أو ربما هي رحلة من الرحلات غير التقليدية كان الغاية منها البحث عن حيوان ما، أشارت كذلك إلى أن وجود نقش "السرخ" يجعل المشهد يميل الى الصفة الرسمية أكثر، فربما هي بعثه استكشافية للمنطقة للبحث عن معدن أو غيره بدلاً من الصيد[٦٨]. ولقد فسر البعض هذه الحيوانات بأنها أسماء ملكية أو رموز ملكية، لا سيما وأنها تكررت في العديد من المناظر المشابهة في النقوش الصخرية التي تؤرخ بنفس الفترة الزمنية.[٦٩]

وسواء كان هذا الاسم لملك غير معروف، أو هو اسم حوري لملك معروف من ملوك عصر قبيل وبداية الأسرات، فالمهم هو أنه كان هناك محاولة للسيطرة وفرض النفوذ الملكي على منطقة الواحات بالصحراء الغربية منذ العصور المبكرة، ويعد هذا النقش من النقوش ذات الصبغة السياسية الهامة التي ترجع لتلك الفترة. وفي الصحراء الشرقية تكرر العثور على نقوش صخرية ذات طبيعة ملكية كان من بينها نقش لـ "سرخ" الملك نعرمر، وسرخ آخر فارغ من مرحلة زمنية سابقه عن ذلك[٧٠]. (شكل:١٦)

وهكذا تشابهت نقوش الصحراء الشرقية مع نقوش الصحراء الغربية في موضوعاتها، وربما كان الدافع الاقتصادي هو الغاية من وراء تلك النقوش الصخرية، فقد كان الاقتصاد هو المهيمن على التوجهات السياسية خلال عصر ما قبل وبداية الأسرات، بل وطوال حقب الحضارة المصرية القديمة، فلقد كانت مناجم الذهب في الصحراء الشرقية من أهم الأهداف المقصودة والتي بذلت الدولة جهودًا واضحة لتأمينها والسيطرة عليها، ومن ثم فقد كانت أهم الأهداف السياسية والاقتصادية هو استغلال الصحراء الشرقية سواء من حيث سبل التجارة أو من حيث استغلال مناجم الذهب واحتكار الأرباح المتأتية منها، كان هذا من شأنه أن يؤدي إلى زيادة المنافسة والصراع، مثل سعى الحكام الرئيسيون في صعيد مصر للهيمنة على كل المنطقة، وهذا يفسر أسباب شن مجتمعات صعيد مصر في أواخر عصر ما قبل الأسرات هجمات لضمان وصولهم إلى شبكات التبادل التجاري هناك وإظهار السيطرة الملكية في الصحراء الشرقية[٧١].

ولأن الأماكن الحدودية كانت أكثر المناطق عُرضة للهجمات الخارجية، فكان لا بد من تأمين الحدود المصرية لا سيما في منطقة شرق الدلتا وشبه جزيرة سيناء إذ كانت من أكثر الأماكن عُرضه للهجمات الخارجية، سواء من خلال الهجرات الدائمة عليها، أو تسلل البدو الآسيويين القاطنين على الحدود[٧٢]، هذا بخلاف أهميتها الاقتصادية الكبرى لوفرة مناجم الفيروز والنحاس بها[٧٣]؛ ولذلك كانت مطمعًا مستمرًا لهؤلاء البدو الآسيويين، فكان لزامًا على الملوك المصريين تأمين بعثاتهم التعدينية فيها، وتأمين حدود بلادهم الشمالية الشرقية ضد هجماتهم، ومنعهم من دخول الأراضي المصرية، فقاموا بالعديد من الحملات الحربية منذ بداية عصر الأسرات؛ لتأديب القبائل المرتحلة حول هذه الحدود، وتأمين طرق التجارة والمواصلات مع البلاد الخارجية، وتشير الدلائل الأثرية والنصية سواء كانت مناظر أو نقوش إلى الجهود الحربية للملوك المصريين لتأمين الحدود الشمالية الشرقية لمصر منذ عصر بداية الأسرات، وطرد هؤلاء الآسيويين، وإرسال بعثات التعدين إلى سيناء[٧٤]. وقد تم الكشف في شبه جزيرة سيناء عن العديد من المواقع الأثرية

التي عُثر فيها على مختلف أنواع الأدلة الأثرية التي تنوعت بين الكسر الفخارية، الأدوات الحجرية، بقايا منشآت دينية، والعديد من النقوش الصخرية التي تؤرخ بعصر بداية الأسرات[٧٥].

وكان أشهر وأهم هذه النقوش الصخرية نقوش ترجع لعصر الملك "دون" dn خامس ملوك الأسرة الأولى، والتي توثق بعثات الملك "دون" الاستكشافية خلال عصر الأسرة الأولى[٧٦]، وتؤكد على اهتمام الملك "دون" بحماية حدود مصر الشمالية الشرقية ضد البدو الأسيويين بسيناء آنذاك[٧٧]، ويعبر اسم الملك "دون" عن ذلك بوضوح، فالفعل "dn" بمعنى "يقطع" أو "يفصل" الرؤوس أو غيرها[٧٨]، وهذا يشير إلى القتل، وعندما يوضع بالسرخ ويعلوه الصقر حورس فإن ذلك يشير إلى "حورس الذي يضرب".

ففي وادي الحمر الذي يقع شمال منطقة مناجم الفيروز والنحاس، ويبعد مسافة ٢٥ كم شمال وادي المغارة جنوب سيناء (شكل:١٧) تم الكشف عن ثلاثة من النقوش الصخرية تؤرخ بعصر الملك "دون"[٧٩]، جاءت النقوش الصخرية الثلاثة بارزة على نفس السطح، متراكبة على بعض الصور والنصوص التي تركها العمال، ولسوء الحظ تم تدمير جميع المناظر، إلا أنه لا زال هناك سلسلة من المشاهد جيدة الحفظ، ومنها هذه النقوش الثلاثة[٨٠]،

النقش الأول: يصور الملك "دون" مرتديًا التاج الأبيض يمسك بناصية أحد الأسيويين، ويهم بضربه على رأسه بمقمعته أمام المعبود "سوبد" الذي سادت عبادته بسيناء آنذاك[٨١]، يوجد خلف الملك نقش لشخص أمامه علامات لحروف كلمة 3ḥḳ بمعنى "حاكم"، يصل طول النقش إلى حوالي ٦٠ سم ارتفاعه ٣٥ سم،[٨٢]. (شكل:١٨) ومن الجدير بالذكر أن المبعود "سوبد" هو أحد أشكال المعبود حورس، وهو معبود الحدود الشرقية للدلتا وإله الصحراء الواقعه بين النيل والبحر الأحمر، وهو من أصل أسيوي يُمثل على هيئة صقر جاثم تعلو رأسه ريشتان عاليتان، أو رجل له شعر ولحية أسيوية، وكان من ألقابه "سيد الشرق"، كان مركز عبادته شرق الدلتا في "بر سوبد" "صفط الحنة حاليا شرق مدينة الزقازيق"، اندمج مع حورس تحت اسم "حور سوبد"، واعتبر من آلهة الحرب وحامي حدود مصر الشرقية، وأطلق عليه لقب "محطم الغزاة وسيد البلاد الأجنبية[٨٣].

النقش الثاني: عبارة عن تمثيل مزدوج للملك "دون" يؤدب أحد الأسرى، يصل طول النقش الى حوالي ٨٠ سم وارتفاعه ٣٥ سم،[٨٤]، صور الملك دون على اليمين وهو يرتدي التاج الأبيض، ممسكًا بأسير يقوم بضربه، وبجوار الأسير كلمة i3btt (الشرق)[٨٥]، وخلف الملك شخص في حجم صغير يرتدي ثوبًا طويلاً ومعه "حامل الأختام عنخ كا ḫtmw cnḫ-k3 tt، وإلى اليسار ظهر الملك مرتديًا التاج الأحمر وممسكًا أسير يقوم بضربه وخلف الملك أحد الأتباع[٨٦]. (شكل:١٩) وكأن الملك بهذا النقش يؤكد شرعيته وسيطرته على قطري مصر شمالاً وجنوبًا، وعلى سيطرته على الحدود المصرية ضد البدو الآسيويين.

النقش الثالث: يُنسب هذا النقش للملك سمر-خت smr-ḫt سابع ملوك عصر الأسرة الأولى (٢٩٣٠- ٢٩٢٠ ق.م)[٨٧]، يُصور النقش الملك سمرخت وهو يمسك بناصية أسير آسيوي، ويهم بضربه أيضًا على رأسه[٨٨] (شكل:٢٠)، وخلف الملك شخص يحمل القوس والسهم وعلى ما يبدو أنه زعيم الحملة، وشخص آخر ترافقه كلمةspr ربما كان اسم شخص أو اقليم.[٨٩] (شكل:٢٠) وأمام الملك كُتب اسمه الحوري داخل السرخ smr-ht تأكيدًا على انتسابه للمعبود الصقر حورس، ومن الجدير بالذكر أن الملك سمر خت كان حريصًا على تأكيد صلته ليس فقط بحورس بل كذلك بغيره من الآلهة الأخرى[٩٠]، وذلك دليل على حنكته السياسية.

من كل ما سبق يتبين أن الملك دون كانت له سياسة حربية على الحدود الشمالية الشرقية لمصر، تتمثل في قيامه بعدة حملات عسكرية متتالية تجاه البدو الآسيويين وخاصة بدو سيناء، وربما ارتبطت نقوش الملك "دون" بوادي الحمر بنقوش بطاقة دون العاجية في المتحف البريطاني، وبنقوش حجر بالرمو التي توضح قيام الملك دون بثلاث حملات عسكرية ضد ثلاث فئات مختلفة، الحملة الأولى ضد سكان آسيويين في العام التاسع عشر من حكمه، والحملة الثانية ضد شعب يسمى " لوتيو" في العام الواحد والعشرين من حكمه، وأخيرا الحملة الثالثة ضد شعب يسمى (أونتيو) في العام التاسع والعشرين من حكمه، وربما كان هناك حملات

أخرى للملك لم يتم توضيحها بسبب وجود فجوه في حجر بالرمو[٩١].

وفي جنوب مصر أظهرت النقوش الصخرية أيضًا مدى التواجد العسكري والأمني والسياسي على الحدود الجنوبية، فبالقرب من الشلال الثاني عند جبل الشيخ سليمان عُثر على كتلة ضخمة من الحجر الرملي أبعادها (٢,٧٥م × ٠,٠٨م) عليها نقوش تؤرخ بعصر الملك جر ثالث ملوك عصر الأسرة الأولى، ويعد هذا النقش من أقدم النقوش الصخرية التي تعبر عن انتصار ملك مصري على جماعات نوبية[٩٢]. (شكل:٢١/أ-ب)

وقد وضح بجانب الأسير علامة تمثل شكل قديم للقوس الذي هو أحد مكونات اسم النوبة، ومن ثم فهي تشير إلى اسم "تا ستي" T3- sti أي أرض الأقواس "النوبة"[٩٣]، إذ نرى أمام القارب سجين راكع يديه خلف ظهره وقد ثقب السهم صدره، وقد شُد عنقه بحبل إلى مقدمة القارب، ويوجد رمز يشبه حدوة الحصان نُقش أمام وجهه، وربما هي علامة هيروغليفية تشير إلى علامة mḏ، وأسفل القارب صُور عدد من الأعداء المهزومين، تتشابه أوضاعهم مع ما جاء على صلاية الملك نعرمر، وقد اقترن اسم الملك "جر" بعلامة السرخ الملكية (شكل: 21)، ولقد نقلت تلك الكتلة الحجرية الى متحف الخرطوم عام ١٩٦٣[٩٤].

وتُعَدّ تلك الكتلة الحجرية بنقوشها المميزة من أهم الوثائق الأثرية التي تعبر عن العلاقة بين مصر والنوبة في تلك الفترة الزمنية المبكرة من تاريخ الحضارة المصرية القديمة، ولقد أشار Somaglino إلى آراء العديد من الباحثين حول هذه النقوش، وكيف فسر البعض علامة "السرخ" بأنها ما هي الا علامة تعبر عن اسم الملك جر ويعلوها شكل الصقر حورس كتعبير عن كونه اسم ملكي[٩٥].(شكل:٢٢) إلا أن الأوقع هو أنها علامة تمثل الـ"سرخ" وبداخله علامة جر.

وفي منطقة الحوش التي تقع بأسوان على الضفة الغربية لنهر النيل، على بعد حوالي ٣٠ كم جنوب إدفو و٦ كيلومترات شمال جبل السلسلة[٩٦]، عُثر على العديد من النقوش الصخرية التي ترجع لعصور ما قبل التاريخ والعصور اللاحقة[٩٧]، عُثر بالموقع على نقش يُعتقد أنه يعود إلى نهاية الأسرة الأولى، يحتوي على علامات هيروغليفية بدائية، وبالتالي سيكون أقدم دليل على الكتابة الهيروغليفية في المنطقة.[٩٨] يوجد النقش أقصى جنوب منطقة الحوش، ويعود لعهد الملك قاعا آخر ملوك الأسرة الأولى، وفي عهده ظهرت بعض الألقاب والوظائف في مجال الإدارة، نُقش النص على مستوى العين على لوح صخري من الحجر الرملي على طول الجانب الجنوبي، يتكون النقش من خمس علامات هيروغليفية مرتبة في عمودين تقرأ من اليمين إلى اليسار، يمكن التعرف على العلامة الهيروغليفية الأولى إلى اليمين على أنها علامة تصور فرع من الخشب متبوع بعلامة بومة، يمكن تحليل العلامات على أنها تعني imy ḥt wr بمعنى "الذي في البيت العظيم" أو "من أتباع العظيم"، وهو لقب وظيفي كان يتقلده كبار المسؤولين من الأسرة الحاكمة[٩٩]. (شكل:٢٣)

تكمن أهمية هذا النقش ليس فقط في أنه الأقدم في منطقة الحوش، ولكنه أيضًا واحد من أقدم الأدلة المعروفة للكتابة الهيروغليفية في صعيد مصر جنوب أسوان، وقد تم توثيق نقش واحد فقط أقدم في وادي عباد على بعد ٢٥ كيلومترًا شرق إدفو، وهو يتألف من نقش باسم الملك "جت" رابع ملوك الأسرة الأولى[١٠٠].

وقد استمر انتساب ملوك عصر الأسرة الأولى للمعبود حور، ووضح ذلك سواء من خلال الأسماء الملكية، والنقوش الصخرية والأعمال الفنية، فقد عثر على لوحة من الحجر الجيري بمقبرة الملك قا-عا بأبيدوس، ظهر عليها نقش للملك قا-عا مرتديًا تاج الوجه القبلي الأبيض، ويحتضنه المعبود حورس مصورًا برأس الصقر (شكل: ٢٤)، وقد كتب اسم الحوري أعلى السرخ "m ḥt ḥr" والذي يعني "في معبد الاله حورس".[١٠١]

رابعًا: النقوش الصخرية ذات الطابع السياسي في عصر الأسرة الثانية

لم يُعرف سبب سقوط الأسرة الأولى، وإذا تتبعنا الوضع السياسي خلال عصر الأسرة الثانية نجده غير مستقر إلى حد ما، فقد تولى العرش في هذه الأسرة تسعة ملوك[١٠٢]، وكان الملك "حتب سخموي" هو مؤسس هذه الأسرة، ومعنى اسم "htp sḫm-wy هو "فلترضى القوتان" أو "رضى القويان"، وقد يكون القويان هما حورس وست، اللذين يمثل الملك سلطتهما على الأرض، أو يتقمص شخيتهما على الأرض[١٠٣]، وربما يشير المعنى الحوري لاسمه إلى ما قام به هذا الملك من إعادة أمور البلاد إلى نصابها بعدما اندلعت

الصراعات على العرش، وسادت البلاد حالة من الصراعات على العرش، وسادت البلاد حالة من الاضطرابات التي ظهرت في البلاد منذ نهاية عصر الأسرة الأولى، والتي ربما كانت أحد أسباب انهيارها.(١٠٤)

ولعل هذا الاسم بمعناه الموضح يؤكد رغبة الملك في تهدئة الأوضاع السياسية غير المستقرة بالجمع بين القوتين المسيطرتين آنذاك "حور وست" "وأتباع حور وأتباع ست".

ولقد تولى الحكم بعد الملك "حتب سخموي" الملك "رع نب" ويقرأ أيضًا "نبي رع" بمعنى (ربي هو رع)، وهو أول اسم ملكي معروف اعترف صراحة برب الشمس رع(١٠٥)، ويشير اسم هذا الملك الى ارتبا؟ه بالإله "رع"، ولقد عثر على نقش لاسم الملك رع نب على مقربة من ؟ريق تجاري قديم يوصل للواحات الغربية خلف أرمنت، إذ وجد الاسم منقوشًا على الصخر بطريقة خشنة(١٠٦)، مما يشير إلى فرض السيطرة السياسية على الصحراء الغربية آنذاك.

وتولى الملك "ني-نثر" ni-nṯr ثالث ملوك عصر الأسرة الثانية الحكم بعد الملك "رع نب" وفي عهده قامت حرب أهلية(١٠٧)، استمرت حتى نهاية عصر الأسرة الثانية، وقد حدث انقسام بين الشمال والجنوب، وحدث صراع بين أنصار حور في الشمال، وأنصار ست في الجنوب وذلك في النصف الثاني من عصر الأسرة الثانية، وقد يكون هذا الصراع من الأسباب المباشرة لحدوث الحرب الأهلية(١٠٨)، إلا أن بعض المؤرخين رأى أن الحرب لم تكن بسبب صراع بين أنصار حورس وست، بل كانت بسبب هجوم الليبين على الدلتا واستيلائهم عليها في عهد الملك بر ايب سن رابع ملوك عصر الأسرة الثانية، وقد كانت أسماؤه ذات دلالة سياسية واضحة، إذ أن "سخم إيب" تعني "مُخرج قلوبهم"، ولقد عُرف الملك بر ايب سن أيضًا باسم سخم ايب بمعنى "قوي القلب"(١٠٩)

تولى الملك "خع سخم" الحكم بعد الملك "بر إيب سن"، وهو سابع ملوك الأسرة الثانية، ومعنى اسم "خع سخم" -ḫc Sḫm" هو أشرقت القوة"، وهو معنى يشير إلى التجديد وسيطرة القوة، ولقد قامت في عهد الملك خع سخم الحرب الأهلية الثانية، وكانت أهم أسباب هذه الحرب هو الانخفاض الواضح في مستوى الفيضان بشكل عام عنه في عصر الأسرة الأولى، وبناء على ذلك حدث نقص في الإنتاج، وانخفاض في مستوى المعيشة وبالتالي نشوب حروب أهلية(١١٠)

أما عن السياسة الخاجية فلقد نشطت العلاقات المصرية الآسيوية بشكل كبير في عصر الأسرة الثانية؛ بسبب احتياج المصريين للأخشاب والراتنج والزيوت الموجودة بوفرة في لبنان، والتي تم استيرادها عن ؟ريق البحر؛ ولذلك فقد حرص المصريون على تأمين هذه المنا؟ق بشكل مستمر، ويمكن القول أن حملات ملوك هذه الأسرة كانت بمثابة حروب دفاعية، خاضها هؤلاء الملوك لحماية حدود بلادهم الشمالية الشرقية؛ ولصد هجمات البدو الآسيويين ومنعهم من دخول الأراضي المصرية؛ ولتحقيق الأمن وحماية البعثات التعدينية العاملة في سيناء من هجماتهم(١١١)، ولعل ظهور لقب "المشرف على الأراضي الأجنبية" في العصر العتيق، يؤكد على وجود فرض سيطرة على البلاد المجاورة، لا سيما خلال عصر الملك "خع –سخموي"(١١٢)، وهذا يتجلى بوضوح من خلال معنى اسمه "أشرقت القوتان"، وسواء كانت القوتان هما "حور وست"، فإن هذا يذكرنا من جديد بمصطلح "شمسو حور" آنف الذكر، والذي ظهر بمخصص المركب على آثار تم اكتشافها في أبيدوس، وبشكل خاص على لوحتين من العاج يرجعان لحكم الملك "عحا"، يُذكر عليهما شجرة السنين rnpt وتحتها مباشرة علامة كلمة "شمسو" وظهر أيضًا تعبير "شمسو حور" بمخصص مركب على مجموعه من البطاقات والصلايات والأواني من العصر العتيق، وعلى بقايا نقش من الفنتين من عصر الأسرة الثالثة، وقد ظهر الشمسو حور مرات عديدة على حجر بالرمو في الأسطر الأولى التي تحمل أسماء ملوك العصر الثيني بمخصص المركب على سطحها الأمامي صقر رابض ، بينما يوجد على سطحها الخلفي علامة šms والتي يمكن ترجمتها بـ"عيد تابعي حور"(١١٣)، ويشير "نسيم" إلى أن الـ"شمسو-حور" ربما كان حدث يحدث بصفة دورية، فسره بعض العلماء بأنه كان يتمثل في رحلة نيلية تستقر في "نخن"، يقوم بها الملك وموظفوه من أجل جمع الضرائب المفروضة،

وذلك في عصر الأسرتين الأولى والثانية، وقد حل محل مصطلح الـ "شمسو حور" بعد ذلك كلمة ṯnwt والتي تعني "التعداد"، إلى أن ظهر المصطلحان جنبًا الى جنب في عهد الملك "ني-نثر"[١١٤]، وأن مصطلح šmsw-ḥr قد كتب بمخصص المركب () واستخدم ليدل على مجموعة من الأتباع ذو طابع عسكري، وأن مهمة هؤلاء الأتباع هي ذات طابع تأديبي، وهو فرض الضرائب، وذلك لوجود علاقة بين šmsw الذين اعتبروا أتباع ذوي بأس، وبين الضريبة التي تعتبر أيضًا في حد ذاتها نوع من العقوبة[١١٥]، ولقد ظهرت قارب "الشمسو حور" ضمن النقوش الصخرية في طريق وادي الحمامات، وهو الطريق الذي سلكه أتباع حور عندما قاموا بغزو مصر من الجنوب[١١٦].

وإذا صح ذلك التفسير فربما كان كل ما تم تصويرة من قوارب بنقوش صخرية في الأماكن الحدودية، دليل وإشارة تؤكد على فرض سيطرة ونفوذ الدولة على كل الأماكن الحدودية المصرية في عصر قبيل وبداية الأسرات.

ولقد فسر البعض مصطلح الـ"شمسو حور" تفسيرًا دينيًا، أرجعه إلى احتفال ديني كان يتم بصفة دورية، وكان أول من احتفل به هم ملوك العصر الثيني بمصر العليا، لأن صفة أتباع حور أول من حملها هم أتباع حور نخن بمصر العليا، وقد حاول خلفاء العصر الثيني الاحتفال بهذا العيد، وزيارة معبد "نخن" والحج الى هذه المدينة، وهي بمثابة رحلة تذكارية[١١٧].

ولهذا التفسير أهمية كبرى تتفق مع الدلالة السياسية آنفة الذكر، حيث إن الدين هو المحرك لحياة وفكر المصريين القدماء، وإذا توجدت النزعة الدينية، لا بد أن ترضخ لها النزعة السياسية، وكلاهما يؤكد على نتيجة واحدة هي سيطرة الدولة وقوتها السياسية في تلك الفترة الزمنية المبكرة. وسواءً دلَ مصطلح "شمسو حور" على معنى ديني، أو سياسي، أو حربي فالغاية واحدة، وهو محاولة فرض السلطة الملكية على الصحاري الشرقية والغربية، وعلى المناطق الحدودية المصرية خلال عصر ما قبل وبداية الأسرات، بما يؤكد الاستقرار وقوة السلطة الملكية آنذاك.

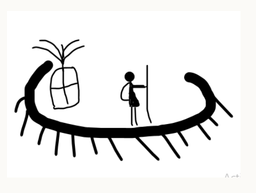
ولقد بين "الطلي" كيف كانت الأوضاع السياسية الداخلية غير مستقرة أثناء عصر الأسرتين الأولى والثانية، بسبب قيام الحرب الأهلية الأولى والثانية، وبسبب أن العاصمة كانت في الجنوب في "ثنى" ، فكان هذا البعد النسبي من أهم أسباب الصعوبة في اتخاذ القرارات الإدارية ، مما جعل أهل الشمال أو الدلتا يثورون على الملك ويعتقدوا أنهم بمنأى عنه فيحاولون الاستقلال أو الانفصال عن المملكة الموحدة وأن يتخلصوا من التزامات وأعباء الوحدة. وأوضح "الطلي" أيضًا كيف كان وجود العاصمة في أقصى الجنوب أيضًا السبب الرئيسي لأن تحدث الخلافات السياسية بين الشمال والجنوب في عهد جت وفى نهاية عصر الأسرة الثانية ، مما فرض على ملوك الأسرة الثالثة نقل فعلى وعملي العاصمة إلى منف، حيث تقع في مركز متوسط بين الشمال والجنوب، وبالتالي يدرك المصريون في الشمال أن الملك قريب منهم فلا يفكروا في الثورة ضده ولا يتمردوا عليه، كذلك يسهل على الجيش القضاء على أي ثورة قد تحدث في الشمال ، وربما شرعوا في عملية النقل الفعلية للعاصمة في عهد الملك خع سخموى ، ثم تأكدت عملية النقل في الأسرة الثالثة ، مما أدى إلى عدم حدوث أي صراع بين أنصار حور وست أو أي حرب أهلية في الدولة القديمة وبالتالي حدث الاستقرار والازدهار الحضاري في جميع مناحي الحياة في عصر الدولة القديمة[١١٨]

وكان هذا التفسير من أكثر التفسيرات التي أصابت الهدف الحقيقي، والتي أوضحت بدقة طبيعة ما كان سائدًا من أوضاع سياسية داخلية وخارجية في مصر خلال عصر بداية الأسرات، وكيف أن ملوك هذه الفترة حملوا على عاتقهم مسؤولية إرساء قواعد الدولة المصرية، وكانوا في ذلك أشبه بخلية النحل، يبدأ الأول ليكمل الثاني وتتوالى الصراعات وتتوالى النجاحات لتظل الحضارة المصرية القديمة شاهدة على بطولات أولئك الملوك الأوائل.

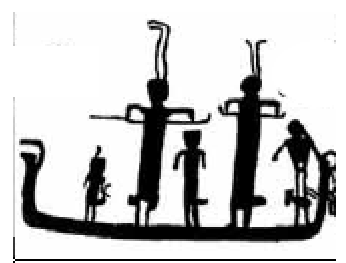
نتائج الدراسة

- ظهرت السلطة الملكية في مصر تقريبًا منذ ٣٢٠٠ ق.م، وكان الظهور الأول للسلطة الملكية قد بزغ في الصعيد، وسرعان ما تأسست عواصم مصر الأولى "هيراكونبوليس/نخن، نقادة، وأبيدوس"
- تركزت أغلب النقوش ذات الطابع السياسي خلال عصر ما قبل وبدية الأسرات في المنا�ق الحدودية المصرية.
- اقترنت بعض المناظر ذات الطابع السياسي بالقوارب مرتفعة النهايات والهيئات الآدمية كبيرة الحجم والمميزة التي ربما أشارت للحاكم أو القائد في كثير من المناظر.
- جمعت بعض المناظر بين رموز دينية وسياسية في آن واحد، مما قد يوحي بالهيمنة الدينية على شتى مناحي الحياة في مصر القديمة خلال عصر ما قبل وبداية الأسرات.
- كان الريش الذي يعلو رؤوس بعض الهيئات الآدمية في العديد من النقوش الصخرية، من العناصر الدالة على المناظر ذات الصبغة السياسية، إذ أشارت إلى أشخاص ذو مكانة في المجتمع، ولهم سلطة سياسية إذا صح التعبير.
- هناك رموز دالة على النصر تعددت في مناظر النقوش الصخرية، وتشابهت مع نقوش الصلايات ومقابض السكاكين العاجية من نفس الفترة الزمنية منها السرخ، القارب، رفع الأيدي لأعلى دليل على النصر.
- دلت النقوش الصخرية الخاصة بالملوك التي يظهر بها الملك بصورة محارب، على القوة والسيطرة الملكية، وعلى كثرة الحملات العسكرية التي تمت بالفعل خلال العصور المبكرة، سواء في شبه جزيرة سيناء، أو في الصحراء الشرقية أو الغربية آنذاك.
- أن كثافة النقوش الصخرية في مكان بعينه لا سيما بالمنا�ق الحدودية الصحراوية، يعد دليل على فرض النفوذ الملكي واستقرار الدولة المصرية، وسيطرتها على تلك المنا�ق الحدودية منذ العصور المبكرة.
- كانت سيناء بوابة مصر الشرقية، والرابط الأرضي الذي يربط بين قارتي أفريقيا وآسيا، ومن ثم كان هناك حرص على حمايتها منذ العصور المبكرة، ولقد اتضحت ملامح تلك الحماية من خلال إظهار الجانب الحربي والسيادة الملكية لحمايتها منذ عهد الملك إري-حور عصر الأسرة صفر، وكذلك في عصر الملك "دون" خامس ملوك الأسرة الأوى، والملك «سمرخت» سابع ملوك الأسرة الأولى، قبل ٣٢٠٠ قبل الميلاد، وحملاتهم العسكرية التي قاموا بها إلى وادى الحمر مو�ن مناجم الفيروز في سيناء ضد البدو الرحل هناك، مسجلين أخبار حملاتهم بنقوش صخرية تعد هي الأقدم في أرض سيناء، لتؤكد على تصدي ملوك العصر المبكر بحملاتهم ومعاركهم ضد الطامعين والمعتدين .
- كان ظهور الملك وهو يُمسك عدوًا ويقوم بضربه من المناظر الشائعة في النقوش الصخرية، وأصبح هذا المشهد من أكثر المشاهد ذيوعًا منذ عصر قبيل وبداية الأسرات، و�وال شتى مراحل الحضارة المصرية القديمة.
- كان تصوير القوارب ضمن موضوعات النقوش الصخرية من أهم الإشارات التي تؤكد على فرض سيطرة ونفوذ الدولة على هذا المكان أو ذاك من خلال إرسال البعثات الرسمية الاستكشافية.
- كان الدين هو المحرك لحياة وفكر المصريين القدماء، وبمرور الوقت واستقرار الدولة المصرية أصبح الدين والسياسة وجهان لعملة واحدة، وكان لا بد أن ترضخ السياسية لسطوة النزعة الدينية، والعكس صحيح.
- معظم الحروب الأهلية في عصر بداية الأسرات كانت تستتر خلف الأسباب الدينية، غير أن السبب الحقيقي وراء هذه الحروب ربما كان الدافع الاقتصادي أو السياسي والرغبة في الحكم وفرض السيطرة.

الملاحق




(شكل:١) نقش لقارب ذو نهايه معقوفة يعلوه شخص ممسك بعصا- خور أبو سبيرة
محمد عبد الحي محمد أبوبكر، ٢٠١٦، شكل ١٩.

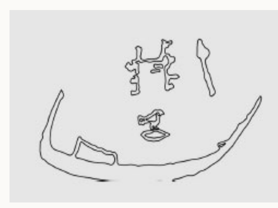
(شكل:٣) – جزء من النقش يبين قارب يعلوه خمس هيئات آدمية- خور أبو سبيرة
Lankester, F., 2022, p. 39, fig. 11.



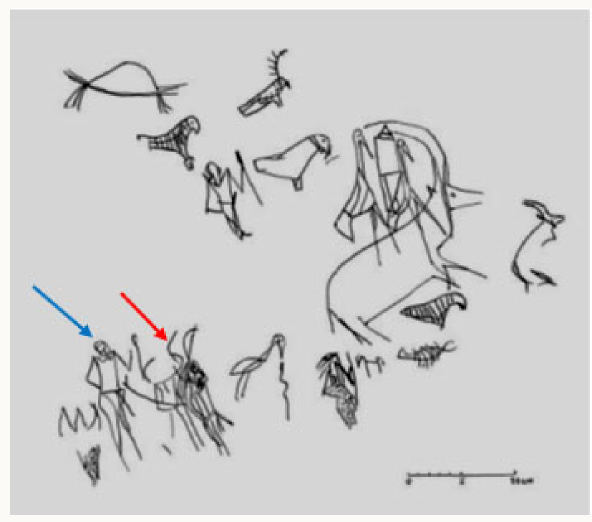

(شكل:٢) - نقش لرجال يعلوا رؤوسهم الريش - الموقع رقم ١١، لوحة رقم ٤، بخور أبو سبيرة
LIPPIELLO, L., & GATTO, M., 2010, fig. 4.




(شكل:٤) - قارب يتوسطه شخص رافع يديه لأعلى، ويجر القارب خمسة أشخاص – وادي أبو واصل
Lankester, F., 2022, p. 39, fig. 13.

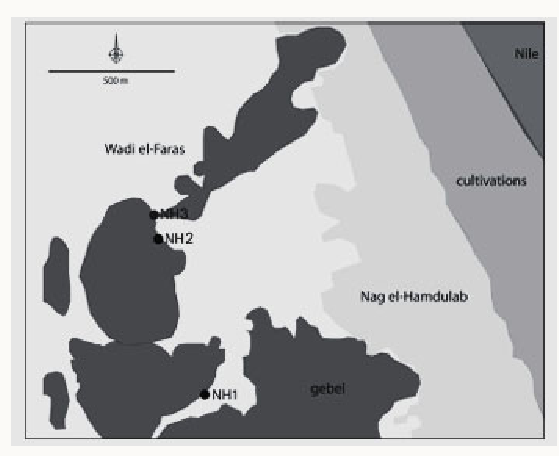



(شكل:٥) - نقش لقارب يعلوه اسم الملك "اري-حور"– وادي أبو عميرة – جنوب سيناء- عصر الأسرة صفر
ناجح عمر، ٢٠٢٢، شكل رقم ١٧ أ-ب.



(شكل:٦) – جزء من نقش جبل Tjauti

Van Sittert, 2020, p. fig.12



(شكل:٩) - خريطة توضح الموقع رقم NH7 بنجع الحمدلاب

Stan, H.& GATTO, M. C., 2009, fig.3.



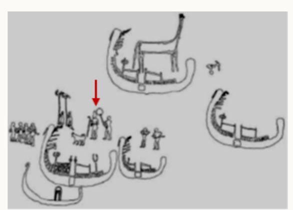

(شكل:٧) - نقش وادي المحاميد –أسوان

Hendrickx, Swelim, Raffaele , Eyckerman, & Friedman, 2009, p. 175, fig.5.



(شكل: ١٠) - نقش من موقع الحمدلاب 7A

Darnell, J. C., 2015, fig.3.



(شكل: ١١) – رسم للأسطول البحري يتوسطه الملك- موقع الحمدلاب شمال غرب أسوان

Darnell, J. C., 2015, fig.4.



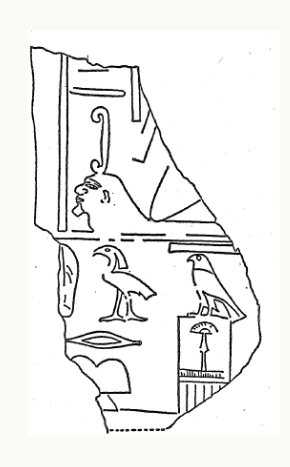
(شكل:٨) - صورة بالقمر الصناعي لموقع الحمدلاب بأسوان

CURCI, A; URCIA, A; LIPPIELLO, L; GATTO, M C., Using digital technologies to document rock art in the Aswan-Kom Ombo region (Egypt), SAHARA, 23, 2012, fig.2.




(شكل:١٢) - الملك وخلفه حامل المروحة الملكية

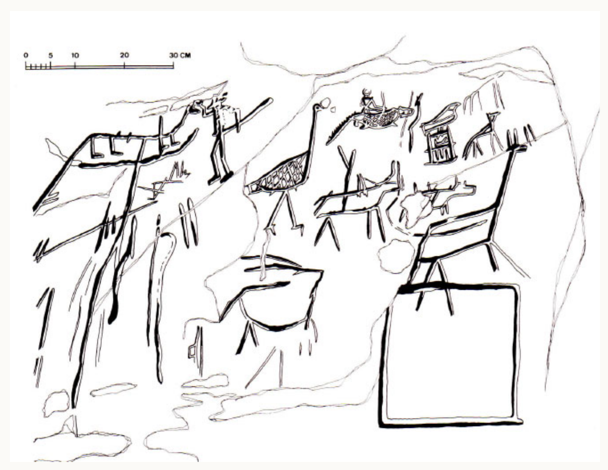
Stan, H.& GATTO, M. C., 2009, fig.1.

(شكل: ١٣) - جزء من لوحة حجرية للملك خع سخم- المتحف المصري بالقاهرة
JdE 33895
Emery, W.,1996, fig. 64 & http://www.francescoraffaele.com/egypt/hesyra/Khasekhemwy.htm



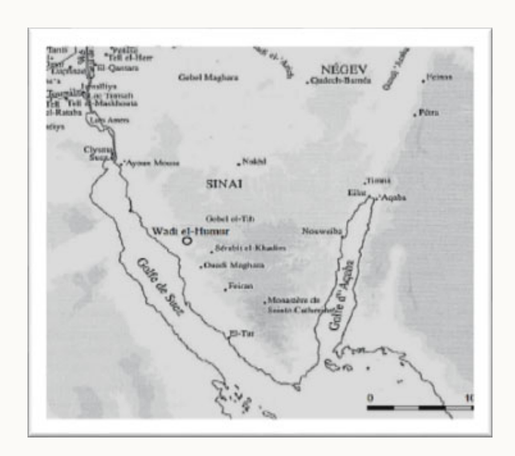

(شكل:١٥) - نقش للسرخ الملكي – الواحة الخارجة
Ikram, S., & Rossi, C., 2004, fig.2.



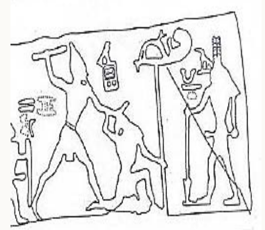
(شكل: ١٤) - نقش لمشهد يتضمن علامة السرخ، على نتوء صخري بالقرب من درب عين أمور
Ikram & Rossi, 2004, p. fig.1




(شكل:١٦) - سرخ للملك "نعرمر" وسرخ بجواره فارغ - الموقع QAS-3 (RME-18)، الصحراء الشرقية
Lankester, F. D., 2012, p. 41, fig.2.7



(شكل:١٧) خريطة توضح موقع وادي الحمر جنوب سيناء
Ibrahim, M. R., 2009, fig. 1.

(شكل:١٨) - الملك "دون" وهو يؤدب أحد الأسرى الأسيويين – وادي الحمر – جنوب سيناء

Ibrahim, M. R., 2009, fig. 2, no.1.



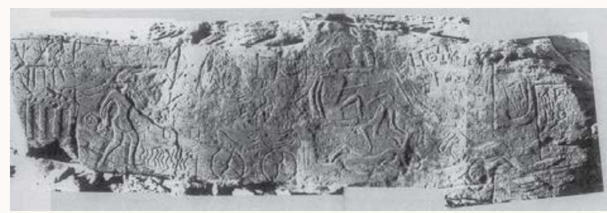

(شكل:١٩) - نقش مزدوج للملك دون- وادي الحمر جنوب سيناء

Ibrahim, M. R., 2009, fig. 2, no.٢.

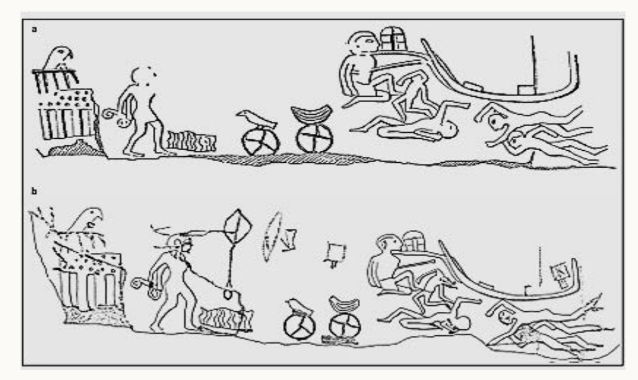



(شكل:٢٠) - الملك سمرخت يؤدب أحد الأسرى الآسيويين – وادي الحمر جنوب سيناء

Ibrahim, M. R., 2009, fig. 2, no.3.



(شكل:٢١/أ) - نقوش جبل الشيخ سليمان – عصر الملك "جر" الأسرة الأولى



(شكل:٢١/ب) - نقوش جبل الشيخ سليمان – عصر الملك "جر" الأسرة الأولى

Somaglino, C., & Tallet, P., 2015, fig. 3,4.



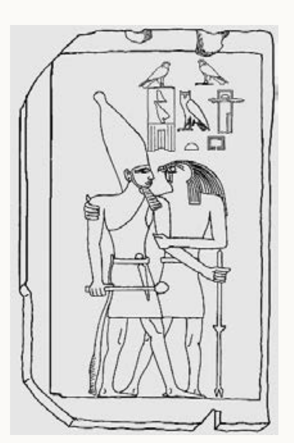
(شكل:٢٢) - رسم توضيحي لجانب من نقش جبل الشيخ سليمان

Somaglino, C., & Tallet, P., 2015, fig. 3& 5.



(شكل:٢٣) - نقش صخري من منطقة الحوش -اسوان- عصر الملك قاعا

Regulski, I., 2007, fig. 3.





(شكل:٢٤) - لوحة من الحجر الجيري للملك قا-عا يحتضنه المعبود حورس

El. Menyawy, H. M., 2019, fig. 8.

الاحالات المرجعية:

(١) إيمان السيد علي نور الدين خليفة، **"المجتمعات ذات التركيب الاجتماعي غير القائم على الزراعة وفخارها خلال عصور ما قبل التاريخ في مصر وأمريكا الشمالية: دراسة مقارنة"**، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، العدد ١٩، ٢٠١٨، ص ١٣٦.

(2) Fattovich, R., "Remarks about the study of predynastic Egypt", Rivista degli studi orientali, Nuova Serie, Vol. 85, Fasc. 1/4, 2012, P.266.

(3) Tassie, G., The Social and Ritual Contextualization of Ancient Egyptian Hair and Hairstyles from the Protodynastic to the End of the Old Kingdom, Volume 1 (Text), London, 2008, p.25.

(4) Bard, K. A., "Toward an Interpretation of the Role of Ideology in the Evolution of Complex Society in Egypt", Journal of Anthropological Archaeology, 11, 1992, p.1.

(٥) خالد إبراهيم عبد المنصف هجرس، **"توحد المصريين من أجل إشراقة التحضر فيما قبل الأسرات والعصر العتيق"**، مجلة بحوث كلية الآداب، العدد ١٢٢، ٢٠٢٠، ص ٣، ٥.

(٦) دعاء عاطف على الشيخة، **"تصوير الملك كمحارب في فن النقش من بداية الأسرات حتى نهاية الدولة القديمة: دراسة تاريخية أثرية"**، مجلة كلية الآداب- جامعة بنها، عدد ٥٣، ج ١، ٢٠٢٠، ١٣٩.

(7) Raffaele, F., "Dynasty 0", AH, Vol. 17, 2003, P. 105.

(٨) عبد الحليم نور الدين، **تاريخ وحضارة مصر القديمة**، ج ١، ٢٠١١، ص ١٢١.

(9) Raffaele, F., 2003, p.105.

(١٠) أحمد سعيد، **"الأسرة صفر، ماهيتها - زعمائها- أهم آثارها"**، المؤتمر الدولي الأول لعصور ما قبل التاريخ في الوطن العربي، كلية الآثار - جامعة القاهرة، ٢٠١١، ٦٨، ٧١.

(١١) محمود مرسي محمد جارحي، **"دلالات توحيد القطرين بالفن المصري القديم إلى نهاية الأسرة الثامنة عشر"**، مجلة العمارة والفنون، العدد الثامن عشر، ٢٠١٩، ص ٤٣٤.

(١٢) Wilkinson, T.H., "what a king is this: Narmer and the concept of the rulers" , JEA, 86,2000, pp. 23-32.

(13) Wing, G., Predynastic Egyptian representations of animals: The journey from nature to art and beyond, Durham theses, Available at Durham E-Theses Online: http://etheses.dur.ac.uk/11335, 2015, p. 120-125.

(14) CAMPAGNO, M., "IN THE BEGINNING WAS THE WAR. CONFLICT AND THE EMERGENCE OF THE EGYPTIAN STATE", in: Hendrickx, S; Friedman, R; Cialowicz, K; Chlodnicki, M., (edit.,), Egypt at its Origins. Studies in Memory of Barbara Adams, Orientalia Lovaniensia Analecta vol. 138, 2004, PP. 691.

(15) Huyge, D., "Rock Art". In Willeke Wendrich (ed.), UCLA Encyclopedia of Egyptology, Los Angeles, 2009, p.1.

(16) Huyge, D., 2009, p.2.

(17) Vanhulle, D., New Perspectives on Predynastic and Early Dynastic Rock Art in Egypt (c. 4500-2600 BC), Rock-Art, A Human Heritage. Proceedings of the XXVIII Valcamonica Symposium, Capo di Ponte (Valcamonica), 2021, PP. 91.

(18) Vanhulle, D., 2021, p.93.

(19) Vanhulle, D., 2021, p. 95.

(20) Vanhulle, D., 2021, p.94.

(٢١) نيقولا جريمال، **تاريخ مصر القديمة**، مترجم، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٦١.

(22) Vanhulle, D., 2021, p.91, 95.

(٢٣) محمد عبد الحي محمد أبوبكر، **المناظر الصخرية فيما قبل الأسرات في خور أبي سبيرة مقارنة بمواقع أخرى في الصحراء الشرقية**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم الآثار المصرية، جامعة عين شمس، ٢٠١٦، ص ٣٧.

(24) LIPPIELLO, L., & GATTO, M., 2010, pp. 276-277.

(25) LIPPIELLO, L., & GATTO, M., Intrasite Chronology and Paleoenvironmental Reconstruction at Khor Abu Subeira South 1, International Colloquium the Signs of Which Times? Chronological and Paleoenvironmental Issues in the Rock Art of Northern, Royal Academy for Overseas Sciences, 2010, PP. 282.

(26 Lankester, F., "Egyptian Script and Rock-Art. Connected or Unconnected?", Préhistoires de l'écriture [online], 2022, P. 37-38.

(27) Lankester, F., 2022, p. 39.

(28) Vanhulle, D., 2021, p. 93.

(29) Vanhulle, D., 2021, p. 94.

(30) Hartung, U., "Some remarks on a rock drawing from Gebel Tjauti", Archaeology of Early Northeastern Africa, 9, 2006, PP. 672-673.

(٣١) ناجح عمر، "**الملك إري. حور Iry-Hr دراسة تاريخية وأثرية**"، مجلة الآثار والسياحة، ٢٠٢٢، ص ٣.

(٣٢) ناجح عمر، ٢٠٢٢، ص ٣.

(٣٣) ناجح عمر، ٢٠٢٢، ص ٧-٨.

(٣٤) ناجح عمر، ٢٠٢٢، ص ٩.

(35) Vanhulle, D., 2021, p. 94.

(36) Van Sittert, B., Maintaining Order over Chaos": A study of the ba and baw concepts in the Predynastic Period, Early Dynastic Period, and Old Kingdom, master's Thesis, the American University in Cairo]. AUC Knowledge Fountain, 2020, p. 25.

(37) Darnell, D; Friedman, R; Hendrickx, S., "Theban Desert Road Survey in the Egyptian Western Desert, Volume 1: Gebel Tjauti Rock Inscriptions 1-45 and Wadi el-Hôl Rock Inscriptions 1-45", Oriental Institute Publications 119, 2002, p.10.

(38) Van Sittert, B., 2020, p.32-33.

(39) CAMPAGNO, M., 2004, p. 691.

(٤٠) سمر فهيم حماد، "**الحبل كرمز للعبودية في مصر القديمة**"، مجلة كلية الآداب، جامعة طنطا، ع ٤٥، ٢٠٢١، ص ٢.

(٤١) سمر فهيم حماد، ٢٠٢١، ص ٧.

(42) Hendrickx, S; Swelim, N; Raffaele, F; Eyckerman, M; Friedman, R., "A lost Late Predynastic-Early Dynastic royal scene from Gharb Aswan", Archéo-Nil, Vol. 19, 2009, p. 174.

(43) Hendrickx, S; Swelim, N; Raffaele, F; Eyckerman, M; Friedman, R., 2009, p. 175.

(44) Darnell, J. C., The Early Hieroglyphic Annotation in the Nag el-Hamdulab Rock Art Tableaux, and the Following of Horus in the Northwest Hinterland of Aswan, ARCHÉO-NIL, n°25, 2015, p. 21.

(45) Darnell, D; Friedman, R; Hendrickx, S., 2002, pp. 10-11.

(46) Stan, H.& GATTO, M. C., A Rediscovered Late Predynastic-Early Dynastic royal scene from Gharb Aswan (Upper Egypt), SAHARA, Vol. 20, 2009, pp.147-148.

(47) Darnell, J. C., 2015, p. 22.

(48) Vanhulle, D., 2021, p. 94.

(49) Darnell, J. C., 2015, p. 22.

(50) Stan, H.& GATTO, M. C., 2009, pp.147-148

(51) Darnell, J. C., 2015, p. 23.

(52) Darnell, J. C., 2015, p. 23.

(53) Hendrickx, S; Swelim, N; Raffaele, F; Eyckerman, M; Friedman, R., 2009, p. 172.

(٥٤) للمزيد عن أتباع حورس انظر:

Saied, M., Götterglauben und Gottheiten in der Vorgeschichte und Frühzeit Ägyptens, Doktorarbeit, Kairo-Uni, (1997).

(٥٥) هالة مصطفى منصور إبراهيم، **رموز الحيوانات والطيور المقدسة بمراكب الحضارة المصرية القديمة حتى نهاية الدولة الحديثة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم الآثار، جامعة عين شمس، ٢٠١٥، ١١٣.

(٥٦) خالد محمد الطلي، "**الحرب الأهلية خلال عصر الأسرة الأولى والثانية مظاهرها الدينية ودوافعها السياسية والاقتصادية**"، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، المجلد ١١، العدد ١، ٢٠١٠، ص ٥٤.

(57) Vanhulle, D., 2021, p. 94.

(٥٨) دعاء عاطف على الشيخة، **تصوير الملك كمحارب في فن النقش من بداية الأسرات حتى نهاية الدولة القديمة: دراسة تاريخية أثرية**، مجلة كلية الآداب- جامعة بنها، عدد ٥٣، ج ١، ٢٠٢٠، ص ١٤٠.

(٥٩) Emery, W., Archaic Egypt Place of publication not identified: Texas Bookman,1996, p. 100, fig. 64.

(60) Incordino, I., Hunting at the time of the emergence of the Ancient Egyptian state, Ilaria Micheli (ed.), "Materiality and Identity. Selected papers from the proceedings of the ATrA Conferences of Naples and Turin, Trieste, EUT Edizioni Università di Trieste, 2016, p. 130.

(•) يعد هذا الدرب هو المسار الرئيسي بين الشرق والغرب في المنطقة وسمي على اسم الواحة الصغيرة التي تقع على الحافة الغربية لمنخفض الخارجة، على طريق القوافل القديم الذي يربط الواحات الخارجة عبر موقع أم الدباديب وعين أمور إلى واحة الداخلة، تتقاطع هذه المنطقة الصحراوية مع العديد من المسارات التي تم استخدامها في أوقات مختلفة.

(61) Ikram, S., & Rossi, C., "An Early Dynastic serekh from the Kharga Oasis", JEA, Vol. 90, 2004, 211.

(62) Incordino, I., 2016, p. 126.

(63) Incordino, I., 2016, p. 127.

(٦٤) دعاء عاطف على الشيخة، ٢٠٢٠، ص ١٤٣.

(٦٥) محمود مرسي محمد الجرحي، ٢٠١٩، ص ٤٣٧.

(66) Ikram, S., & Rossi, C., 2004, p. 213.

(67) Ikram, S., & Rossi, C., 2004, p. 213.

(68) Ikram, S., & Rossi, C., 2004, p. 214.

(69) HAMILTON, C. R., "Conflict in the Iconography of the Protodynastic and Early Dynastic Periods", Landgráfová, R., Charles, J. M., (edit.,), RICH and GREAT, Studies in Honour of Anthony J. Spalinger on the Occasion of his 70th Feast of Thoth, 2016, p.102.

(70) Lankester, F. D., Predynastic & Pharaonic era Rock-Art in Egypt's Central Eastern Desert: Distribution, Dating & Interpretation, Distribution, Dating & Interpretation. Doctoral thesis, Durham University, 2012, p. 41.

(71) Campagno, M., 2004, p. 697.

(٧٢) شعبان السمنودي عبد القادر إسماعيل، **"الحملات الحربية المصرية لتأمين الحدود الشمالية الشرقية منذ عصر بدايةالأسرات إلى نهاية عصر الدولة الوسطى"**، مجلة بحوث كلية الآداب، جامعة المنوفية، مجلد ٣١، عدد ١٢٠، ٢٠٢٠، ص ٥.

(٧٣) دعاء عاطف على الشيخة، ٢٠٢٠، ص ١٤٠-١٤١.

(٧٤) شعبان السمنودي عبد القادر إسماعيل، ٢٠٢٠، ص ٣.

(٧٥) هشام محمد حسين حامد، **"الحدود المصرية الشرقية خلال عصر بداية الأسرات"**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة قناة السويس، العدد ٤، ٢٠١٣، ص ١٥٥-١٥٧.

(76) Hamilton, C. R., 2016, p.100.

(77) Hamilton, C. R., 2016, pp.107- 108.

(78) Gardiner, A., Egyptian Grammer, Oxford, 2001, p. 602.

(٧٩) هشام محمد حسين حامد، ٢٠١٣، ص ١٥٧.

(٨٠) Ibrahim, M. R., "King Den in South-Sinai: The Earliest Monumental Rock Inscriptions of the Pharaonic Period", RCHÉO-NIL, n°19 - janvier 2009, p. 180.

(٨١) هشام محمد حسين حامد، ٢٠١٣، ص ١٥٧

(٨٢) دعاء عاطف على الشيخة، ٢٠٢٠، ص ١٤٢.

(٨٣) سمير أديب، **"تشبيه أعضاء جسد المتوفى بالمعبودات المصرية القديمة"**، مجلة جامعة مصر للدراسات الإنسانية، مجلد ٢، العدد٢، يناير ٢٠٢٢، ص ١٧١.

(84) Ibrahim, M. R., 2009, p. 182.

(٨٥) دعاء عاطف على الشيخة، ٢٠٢٠، ص ١٤٢.

(86) Ibrahim, M. R., 2009, p. 182.

(87) Hafez, N. M., "Study about King Semerkhet of the 1st Dynasty", Journal of Association of Arab University for Tourism and Hospitality, Vol.22, No.4, 2021, P. 58.

(٨٨) شعبان السمنودي عبد القادر إسماعيل، ٢٠٢٠، ص ١٠.

(٨٩) دعاء عاطف على الشيخة، ٢٠٢٠، ص ١٤٢.

(90) Hafez, N. M., 2021, p. 59.

(٩١) دعاء عاطف على الشيخة، ٢٠٢٠، ص ١٤٣.

(92) Somaglino, C., & Tallet, P., "Gebel Sheikh Suleiman: a First dynasty relief after all", ARCHÉO-NIL, 123, 2015, PP. 123-124.

(93) Gardiner, A., 2001, p. 593.

(94) Somaglino, C., & Tallet, P., 2015, p. 126.

(95) Somaglino, C., & Tallet, P., 2015, pp. 124-125.

(96) Darnell, J. C., 2015, p.20.

(97) Regulski, I., "The rock inscriptions at el-Hôsh", British Museum Studies in Ancient Egypt and Sudan, 9, 2008, p. 52.

(98) Regulski, I., "An Early Dynastic rock inscription at el-Hosh" , JEA, Vol. 93, 2007, p. 254.

(99) Regulski, I., 2007, p. 257.

(100) Regulski, I., 2007, p. 258.

(101) El. Menyawy, H. M., "Study concerning the king k3j-c of the 1st dynasty", Journal of Association of Arab Univiristies for Tourism and Hospitality, Vol.17, no.2, 2019, PP. 1-14

(١٠٢) للمزيد انظر: ناجح عمر علي، **الاسرة التمهيدية في الحضارة المصرية**، دار العالم العربي، القاهرة، ٢٠٢٠.

(١٠٣) عبد العزيز صالح، **حضارة مصر القديمة وآثارها**، الجزء الأول، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٢٥٧.

(١٠٤) عماد عبد العظيم أبو طالب، **تاريخ مصر القديمة (منذ العصور الحجرية حتى نهاية الأسرات الفرعونية)**، القاهرة، ٢٠١٦، ص ٩٥.

(١٠٥) عبد العزيز صالح، ١٩٦٢، ص ٢٥٧.

(١٠٦) عماد عبد العظيم أبو طالب، ٢٠١٦، ص ٩٦.

(١٠٧) عماد عبد العظيم أبو طالب، ٢٠١٦، ص ٩٦.

(١٠٨) خالد محمد الطلي، ٢٠١٠، ص ٦١.

(١٠٩) عماد عبد العظيم أبو طالب، ٢٠١٦، ص ٩٧.

(١١٠) خالد محمد الطلي، ٢٠١٠، ص ٥٨-٥٩.

(١١١) شعبان السمنودي عبد القادر إسماعيل، ٢٠٢٠، ص ١٣-١٤.

(١١٢) دعاء عاطف على الشيخة، ٢٠٢٠، ص ١٤١.

(١١٣) عادل رفعت لويس نسيم، **"عيد "تابعي حور" في الحضارة المصرية القديمة"**، مجلة كلية الآداب، جامعة سوهاج، عدد ٤٦، ج ٢، ٢٠١٨، ص ٣٣٤.

(١١٤) عادل رفعت لويس نسيم، ٢٠١٨، ص ٣٣٦.

(١١٥) عادل رفعت لويس نسيم، ٢٠١٨، ص ٣٤٦.

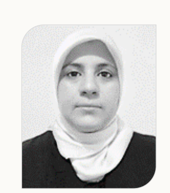
(١١٦) عادل رفعت لويس نسيم، ٢٠١٨، ص ٣٤٣.

(١١٧) عادل رفعت لويس نسيم، ٢٠١٨، ص ٣٣٩-٣٤٠.

(١١٨) خالد محمد الطلي، ٢٠١٠، ص ٧٠-٧١.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

الشم والروائح في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتب الطب
جوانب من تاريخ خفي



لمياء بوزيد
باحثة في سلك الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – القنيطرة
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تعسى الكتابة التاريخية الحديثة استكشاف قضايا وإشكاليات تتسم بالجدة والبحث في مواضيع غير مسبوقة في التاريخ الاجتماعي والثقافي، كونها ظلت خارج دائرة الاهتمام لسنوات طوال. وإذا ما كانت الدراسات الحديثة قد أولت الكثير من الاهتمام بالعطر وصناعته في التاريخ الإسلامي كمظهر من المظاهر الاجتماعية المحببة والمطلوبة، بالنظر إلى قدرته على إلغاء رائحة الجسد الكريهة وتعويضها بأخرى طيّبة تستجيب للأوامر الدينية، ولفوائده المتعددة التي أقرها الطب آنذاك، خاصة مع توفر مادة مصدرية ضمت كتبا مؤلفة خصيصا لهذا الغرض منها كتاب "فنون الطيب والعطر" لابن الجزار، وتلك التي أوردها ابن النديم في فهرسه، فإن روائح أخرى موجودة بالفعل لم تلق العناية ذاتها كروائح الأغذية والروائح الكريهة، وكذلك الحال بالنسبة لحاسة الشم المسؤولة أصلا عن شم كل هذه الروائح، والكيفية التي تتم بواسطتها هذه العملية. وفي هذا الإطار يأتي هذا المقال لتسليط الضوء عن تاريخ الشم في بلاد الغرب الإسلامي، استنادا على الكتب الطبية في تأريخها للروائح، لما لها من أهمية بالغة في الكشف عن جوانب مخفية من صور الحياة الاجتماعية لمختلف شرائح تلك المجتمعات، وبالتالي التعرف على الأنساق الثقافية التي تحكمها، وذلك من خلال التعرف على كيفية تعاملها مع الظاهرة الشمية، وتوضيح مفهوم الشم لديها بدلالاته الطبية، الاجتماعية والدينية، والعوامل المؤثرة فيه، والتمييز بين أنواع الروائح، فضلا عن أهمية شم الروائح من أجل الوقاية الصحية والعلاج من بعض الأمراض وفق ما يتطلبه البحث التاريخي من رؤية متكاملة بعيدة عن أي خلل منهجي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٧ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

تاريخ الشم؛ الروائح الطيبة؛ الروائح الكريهة؛ روائح الأغذية؛ التاريخ الوسيط

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.339620

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

لمياء بوزيد. "الشم والروائح في بلاد المغرب والأندلس من خلال كتب الطب جوانب من تاريخ خفي".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ٤٧ – ٥٧.

Corresponding author: lamiaebouzaid@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

قليلة هي الدراسات التي عنيت بالبحث في تاريخ الشم والرائحة، وإن صح التعبير فقد اقتصر الأمر على بعض الأدبيات والبحوث العلمية التي حاولت الكشف عن أسرار هذه الحاسة وسبر أغوارها [١]، وذلك على الرغم من الأهمية التي صارت لهذه الأخيرة خاصة بعد جائحة كورونا أواخر سنة ٢٠١٩م، حيث تسبب فقدان الشم بشكل كلي (l'anosmie) أو جزئي (l'hyposmie) حسبما أثبته الواقع الاجتماعي في حالة من الذعر، سيما وأنه ارتبط أيضا بفقدان تذوق النكهات، مما جعل الناس يستشعرون الأهمية البالغة لهذه الحاسة، وحاولوا استرجاعها بشتى الطرق، ومن أهمها الطريقة التقليدية عبر استنشاق النباتات العطرية القوية وزيوتها. بناءً على ذلك جاءت أهمية دراسة حاسة الشم والروائح في تاريخ المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط التي تكاد تصل الدراسات حولها إلى العدم المطلق، من أجل إعادة بناء الماضي من جهة، وإبراز راهنية الموضوع من جهة أخرى.

ولما كانت تيمة الروائح قد عرفت تداخل عدة أبعاد، منها الدينية والقانونية والاجتماعية والسياسية عكستها لنا كتب النوازل والحسبة وبقية المصادر الأخرى، فإننا اخترنا أن نلج إلى هذا الموضوع أساسًا من زاوية ما تقدمه المتون الطبية من مادة فريدة وأصيلة بهدف معرفة النظرة الوسيطية إلى هذه الحاسة بصفة عامة وإلى الروائح خاصة، والتي استطاعت إبراز تأثير حاسة الشم على المشاعر والأحاسيس والسلوك النفسي البشري عمومًا من خلال الكشف عن أسباب وآليات توظيفها وأهميتها من خلال النتائج المترتبة عن ذلك.

أولاً: الشم (المفهوم والدلالة)

لكل ظاهرة معينة مصطلح يعبر عنها، ويحمل في طياته اشتقاقات لغوية وتفاسير عديدة تستوجب الإحاطة بها، كي يتأتى فهم تلكم الظاهرة وتتبعها في نسقها الشمولي عند تحليلها. لذلك فعند العودة للمعاجم اللغوية نجد أن الشم هو مصدر شمِمت، وهو حِسُّ الأنف، وإدراك الروائح[٢]. وبالانسياق مع تفرعات مادة "شمم" والتي تقول: تشمّم الشيء أدناه من أنفه ليجتذب رائحته، وأشممت فلانا الطيب فشمّه واشتمّه، والشمّامات ما يُتشمّم من الروائح الطيبة[٣]، يتسنى ربط الشم بعنصرين أساسين: أولا، الأنف كعضو يتم على مستواه الحس الشمي، والثاني، الروائح التي يقع عليها فعل الشم، والمقصود بها الطيّبة على وجه التحديد.

أما عن مفهوم الشم في الفترة الوسيطية، فقد طغى عليه البعد الطبي في التنظير، إذ احتفظ لنا ابن الجزار بنص بالغ الأهمية عن ماهية هذه الحاسة حين قال: «والشم إنما يدرك الروائح بتوسط الهواء على ما بيّنا. وليس الشم كسائر الحواس ذلك أن كل حاسة تدرك اللذيذ والكريه عندها والأشياء المتوسطة بين هذين كالبصر(...) وكذلك الذوق(...). وليس الشم كذلك لأنه يدرك الرائحة الطيبة الكريهة ولا يدرك المتوسط بين الرائحتين»[٤]. ويضيف أنه من مميزات الشم إدراك الإنسان الروائح القوية إذا حملها بيده سواء في حركته (واقفا) أو سكونه (ماضيا)، هذا بالإضافة إلى قدرته في التعرف على عدد أصناف الروائح المجتمعة والمقدمة له، بحيث أنه مثلا «إذا شم المسك والصندل والكافور، علم أنها ثلاثة أشياء»[٥].

والحقيقة أن المثال الذي يسوقه ابن الجزار، يتعلق بأنواع طيب تتميز برائحة قوية خاصة بكل واحدة منها، وهذا راجع أساسا إلى اهتمامه في هذا المصنف بصناعة الطيب والعطر. وكما هو معلوم، فهذا الفن يقوم أساسا على نباتات وعقاقير عطرية تشكل أصول تركيبات مثل الغوالي واللخالخ وغيرها[٦]، لكن إذا اتفق أن تعلق الأمر بالروائح المركبة من جواهر أي أصول مختلفة، ذات روائح قوية وأخرى لا رائحة لها أو ذات رائحة ضعيفة، فسيكون من الصعب تحديد أصول جميع هذه الروائح، فحاسة الشم إنما تدرك ما كان أصله بسيطا مفردا[٧]، وهذا ما تفطن إليه ابن رشد حين أقر بخطأ الحكم على الكل بالجزء[٨].

ومهما يكن من أمر، ففي كلتا الحالتين هناك روائح أو رائحة على الأقل تشم، لكن ماذا عن سبب حدوثها، وكيفية شمها، فمن وجهة نظر فلسفية، تنتج الرائحة عن تحلل بخار شيء معين، أو تكون بانفعال من الهواء أو تأدية، بينما من الزاوية الطبية، فشم الرائحة يكون في الأصل بتغير ما يقع من الهواء على سبيل التأدية،

يساعده بعد ذلك صعود محسوس الشم وهو البخار المتحلل من الجسم وذي رائحة معينة(٩)، والرائحة بهذا المعنى عبارة عن "بخار ينحل من الجسم ذي الرائحة بتشارك الهواء المحيط، وينفذ معه إلى المنخرين إلى الدماغ بالاستنشاق فيشمه الإنسان بمشاركة الروح الحساسة التي في بطون الدماغ"(١٠).

إن هذا التصور لمفهوم الرائحة يجعل من الدماغ العضو المسؤول عن فك شفرة البخار المستنشق والمنبعث من الأشياء ذات الروائح على وجه الخصوص. ذلك أن للدماغ أربعة بطون، اثنان منها في مقدم الدماغ، والثاني في الوسط، والأخير في المؤخرة، وينبثق من البطنين المقدمين "زائدتان شبيهتان بحلمتي الثدي، تبلغان إلى العظم الشبيه بالمصفى، وهو عظم مثقب ثقبا كثيرة على غير استواء، وموضعه من القحِف(١١)، حيث ينتهي إليه أقصى الأنف"(١٢)، مما يساعد على "الاستنشاق وعلى نقض الفضل بالعطاس وعلى توزيع أكثر الروح الحساس وعلى أفعال القوى المصورة من قوى الإدراك الباطن"(١٣)، ويكون ذلك حينما يخالط الهواء البخار المنحلّ من الأجسام المشمومة، وعند دخوله إلى المنخرين يصل مباشرة إلى الزائدتين، فتتحول طبيعة هاتين الأخيرتين إلى طبيعة ذلك البخار المستنشق(١٤).

وقد حظي هذا التفسير بالقبول من قبل أكثر الأطباء وقتئذ، وحتى سابقيهم كجالينيوس حين ربطوا إدراك الشم بمقدم الدماغ بما هو مادة الحس لسائر الحواس(١٥)، أو بمعنى أصح أن آلة الشم هي الدائرتيّن المشبهتين بحلمتي الثدي، دون أن تكون هناك ملاقاة بين حاسة الشم والجسم المشموم على العكس من حاستي الذوق واللمس، ويستدلون على ذلك بأمثلة تؤكد أن آلة الشم أغور من الأنف(١٦)، فلو أن إنسانا "أخذ شيئا له رائحة قوية، ثم قرّبه من خياشيمه، وألصقه بها، لما اشتم له رائحة دون أن يتنفس الهواء، ويستنشقه ويجذبه حتى يصل بخاره إلى الدماغ"(١٧).

لكن بالمقابل فإن ابن رشد (ت.. ٥٩٥هـ)، كان رأيه مخالفا تماما، إذ أن الموضع الذي يتم على مستواه هذا الإدراك، والآلة الأولى لحاسة الشم هو الأنف نفسه، عبر المنخرين الظاهرين له، وحجته في ذلك أنه لو كان الأمر كذلك، "لكنا متى سددنا أنوفنا واستنشقنا الهواء على الفم، أحسسنا بالروائح ضرورة، إذ كان الحنك منفوذا إلى الأنف"(١٨)، كما أنه يفند مزاعم الآخرين في ربط الشم بمحسوساته عن طريق "الاستنشاق" لبعد موضع الشم في الدماغ، عندما ساق مثالا عن الحيوانات التي لا تستنشق لكنها تتميز بقوة حاسة الشم كالنمل والنحل(١٩). لكن هذا لا يعني أنه يقصي الدماغ من عملية الشم، فهو يؤكد أن الحواس موجودة فيه، وخاصة السمع والبصر والشم، بل إن الدماغ خادم للقوة المدبرة الحساسة للحواس الخمس عموما والتي تكمن في القلب(٢٠). وتبقى المفارقة العجيبة ألا أحدا من هؤلاء الأطباء فكر في المزاوجة بين التفسيريّن اللذين يعكسان بالفعل كيفية عمل حاسة الشم حسبما أثبت الطب المعاصر، وإلا لكان سبقا طبيا في تاريخ الطب الإسلامي(٢١).

وإذا كانت حاسة الشم طبيا، وسيلة لشم الروائح الطيبة وغيرها، فإنها قانونيا تصبح غاية في حد ذاتها، نظرا لكونها تدخل – مع بقية الحواس الأخرى– في إطار أحد الوجوه التي يدرك بها العلم، الضروري للإدلاء بالشهادة في المحاكم، إذ يدرك العلم بالعقل مع حاسة الشم جميع الروائح المشمومات(٢٢)، كما أنها تعتبر الطريقة المثلى لتنفيذ عقوبة الحد لشارب الخمر من خلال قدرتها على التمييز إن كانت الرائحة المنبعثة من فمه مسكرة أو لا(٢٣)، مما يعطي لهذه الحاسة قيمة اعتبارية مضاعفة.

ثانيًا: أنواع الروائح المشمومة

انطلاقًا من مفهوم الشم السابق عند ابن الجزار، يتضح أنه قد حصر الروائح بين نوعين اثنين معروفين، هما الروائح الطيبة والكريهة، والواقع أن هناك اختلافا بين العلماء حول هذا الأمر، فبين من يتفق مع ابن الجزار على ذلك، نجد أن آخرين يقسمون الروائح إلى أكثر من ذلك، وعليه فقد جاء تقسيمنا على الشكل التالي:

٢/١–الروائح الطيّبة

حسب ثابت بن قرة (ت.. ٢٨٨هـ)، فإن جالينيوس يعرّف هذا النوع من الروائح بكونه مجانسا للإنسان(٢٤)، وبذلك فهي مقبولة عند الطبيعة البشرية بالموافقة والمشاكلة(٢٥)، ومن أهم أصنافه ما تتلذذه النفس مثل

الطّيب، ويكتسي أهمية بالغة باعتباره نافعا للأعضاء الرئيسية في الجسم المتمثلة في الدماغ، القلب، والكبد، فضلا عن كونه "يطيب النفس، ويحدث السرور ويشجع ويقوي جميع الجسد وخاصة المعدة وسائر الأعضاء"[٢٦].

ومن عناصر الطيب وأشهرها هناك العنبر والمسك والكافور والعود، والزعفران، والقرنفل، والمصطكى وغيرها[٢٧]، وهي ذات أصول نباتية، حيوانية، وتتميز هذه الروائح الذكية العطرة بالضرورة بجوهرها الحار- وبطعم يغلب عليه الحلاوة واللذع[٢٨]- باستثناء البعض منها وأشهرها الورد والريحان والنيلوفر والبنفسج[٢٩]، مما يفسر استخدامها في صناعة الطيوب بمختلف أنواعها، سواء بشكل مفرد أو تركيبي، لأن تلك الحرارة تعمل على تلطيف "الجوهر الذكي" لتلك العناصر، فتصبح سريعة التحلل مع البخار، وبالتالي تسهل عملية وصولها إلى الروح النفساني الذي في بطن الدماغ فيقبله ويوافق عليه بسرعة، علما أنه وكما سبقت الإشارة، في حالة الروائح المركبة لا يصل إلى الدماغ سوى أحد الجواهر المكونة لها، وخاصة ذلك الجوهر الذكي الموافق للروح النفساني، إذ أن هذا الأخير وبحكم لطفه لا يقبل من الشيء إلا ما شاكل طبيعته[٣٠].

لهذا السبب، فإن قبول الدماغ للرائحة العطرة سيترجم على أرض الواقع عبر اتخاذ الطيب كأحد المثيرات للرغبة الجنسية، بما أنه يحرك اللذة والعشق لكلا الطرفين على اعتبار أن لكل جنس مواد عطرية ملائمة له [٣١]، ومن ثم أصبحت حاسة الشم شرطا أساسيا في تبلور السلوكين الجنسي والنفسي، تغذيهما "الذاكرة الشمية" التي تعمل على تخزين واسترجاع الروائح المعلومة لديها لا شعوريا متى تم تنشيطها بأي نوع منها[٣٢]. وكذلك ستشكل الروائح العطرة أحد المظاهر المميزة للمجالس، التي فرشت بأصناف الرياحين بمختلف أنواعها[٣٣]، وكذا أثناء الاحتفالات في المناسبات الكبرى من لدن الأمراء والوزراء وعلية القوم، ولعل احتفال المأمون بن ذي النون (ت.. ٤٦٧هـ) بإعذار حفيده أبلغ صورة عن "مجالس التطييب" تلك[٣٤]، إلى درجة أن العطور خاصة الفاخرة، صارت من أفضل ما يقدم كهدايا للسلاطين وغيرهم[٣٥]، وهو ما جعل إدريس الأول (ت. ١٧٧هـ) يقع ضحية طيب مسموم[٣٦].

وفي ذات المنحى، فقد سعى الجميع للحصول على أنواع الطيب كل من موقعه الاجتماعي، بدليل انتشار دكاكين العطارين بالمدن الوسيطية، ويكفي الرجوع إلى الوصفات الخاصة بالملوك والوزراء والأشراف، وبين عامة الناس ليتبين بالملموس أن الروائح العطرية المستخلصة من مختلف عناصر الطيب، لتعطير ذواتهم وملابسهم وحتى أيديهم، شكلت مؤشرًا للتراتب الاجتماعي بامتياز[٣٧]، بل إن التصرف الذي بدا غريبًا للحكم المستنصر بالله (ت. ٣٦٦هـ) حين أمر بغالية [٣٨] في واقعة الربض المشهورة[٣٩]، ما هو إلا انعكاس أمين للتمايز الطبقي بواسطة الطيب، وإن كان ذلك حتى في زمن الفتنة![٤٠]

٢/٢-الروائح الكريهة

قبل الحديث عن الروائح الكريهة من المفيد الإشارة إلى أنها تتخذ تسميات أخرى، فزيادة على ما هو معروف كالنتنة والفاسدة والخبيثة، يسجل مصطلح "الزهمة"[٤١] حضوره القوي، والزهومة هي الرائحة الثقيلة المنتنة، والزهم هو الشحم[٤٢]، مما يحيل إلى أنها مرتبطة بهذا الأخير، ومما يعضد ذلك أن ابن الجزار قد أدرج إزالة الرائحة الزهمة في إطار وصفه للأشنان الذي يخصص لغسل اليدين[٤٣]، أي تلك التي بها دسم الشحم، بل إن الإسرائيلي(ت. ٣٢٠هـ) كان أكثر وضوحا أثناء شرحه، فالشيء الفاسد جوهره لرطوبة عفنة تكون رائحته زهمة، أما ما كان لحرارة خارجة عن الطباع المعتدل، فتكون منتنة[٤٤]. كما يضيف مفردات أخرى من قبيل: "الزفورة"[٤٥]، و"السهوكة"[٤٦].

وبالمثل تعمل حاسة الشم على إدراك الروائح الكريهة أو "المخالفة" أو المباينة للإنسان على حد قول جالينيوس[٤٧]، وعوض الموافقة والمشاكلة فإن هذه العملية تتم بانفعال، ذلك أن الروائح النتنة كونها عبارة عن "مزاج يتولد عن رطوبة غريبة وعن حرارة عفونية"[٤٨]، يتعسر تحللها في البخار بسبب عدم قدرة الطبيعة على نفي الفضول الغليظة عنها، الشيء الذي ينتج عنه وصولها إلى الدماغ بعد مدة، فيقبله بانفعال بفعل قهرها وغلبته عليها، وذلك لمخالفة طبيعته للرائحة الكريهة[٤٩].

ولعل ذلك يبدو جليا، من خلال ما يترتب عن استنشاق الروائح النتنة المنبعثة من المواضع الفاسدة، من الإصابة بألم الرأس والذي عرف بـ«الصداع النتن»[٥٠]، وسعي الأطباء لمداواته عن طريق وصفات علاجية مناسبة لكل حالة من الحالات[٥١].

إن هذا التأثير الانفعالي ضد الرائحة النتنة، والمؤطَّر خاصة من طرف الدين الإسلامي بأوامر توجب التطهر منها، كان على ما يبدو سببًا في محاولة إقصائها وإن كانت نابعة من الجسد نفسه، كما هو الحال في بخر الفم، ونتن الإبطين، أو درن البدن، وهو ما جعل الأطباء يفردون حيزا مهما لذلك[٥٢]، ويعطي للنظافة بمختلف طرقها ووسائلها- إلى جانب العطور- قيمة اعتبارية مهمة في تاريخ الرائحة.

كما أن المتأمل لمجريات الواقع بالغرب الإسلامي، يستشف بأن هذه الروائح على المستوى الخارجي أي البيئي، كانت مرفوضة تماما، وهو ما أجمله ابن رامي حين تحدث عن ضرر الرائحة الناجم من الدخان والحمام والفرن، فضلا عن المراحيض والقنوات المرتبطة بها، فهذه "الرائحة المنتنة تخرق الخياشيم وتؤذي الإنسان"[٥٣]، ولسنا هنا بصدد التطرق إلى الأمر من الناحية الفقهية وبيان أحكامها، بقدر ما يهمنا ما أسفر عنه ذلك من «استقذار الطباع للقاذورات"[٥٤]، وللجيف والأزبال عمومًا وعدم قبولها داخل المجتمع بدليل اعتبارها من المنكرات المعتادة في الشوارع والمحلات[٥٥].

٢/٣-روائح الأغذية

إن الحديث عن روائح الأطعمة خصوصًا اللذيذة يحيل في الحقيقة إلى صنف ثان من الروائح الطيبة، بما أن للأغذية أيضًا رائحتها المميزة لها، والواقع أن التقسيم الكلاسيكي القائم على مفهوم الطيّب والنتن قد تم تجاوزه عندما تعلق الأمر بالأغذية، حيث تمت إضافة قسم ثالث مرتبط بالطعوم، ويبدو هذا الشيء مقبولا بالنظر إلى الارتباط الوثيق بين حاستي الشم والذوق من حيث الأفعال المؤثرة عليهما كفعل الحموضة والحرافة مثلاً[٥٦]، مما حذا ببعض الأطباء يمكن أن نطلق عليهم التيار الأول، إلى التأكيد على أن الروائح قد تشتق لها أسماء من الطعوم، فتصبح بذلك لها دلائل تساوي دلائل الطعوم مثل الرائحة الحلوة، الحامضة، المرّة، الحريفة[٥٧]، بينما نجد أن هناك تيار ثاني من الأطباء نفى أن تكون للروائح تلك الدلائل، معللين ذلك بأن ما يترتب عن فعل الحموضة والحرافة من تقطيع وتلذيع[٥٨] هما من محسوسات اللمس وليس الشم، أما بالنسبة للاتجاه الثالث فقد أقر بأن للروائح دلائل إلا أنها ضعيفة وغير موثوق بها، ذلك أن حاسة الشم على العكس من حاسة الذوق، فاللسان تأتيه من الدماغ ست عصبات تجعله قادرا على إدراك محسوساته، في حين أن حاسة اللمس لا تأتيه إلا عصبة واحدة والتي بدورها ما يأتيها ليس بالكثير، لذلك فلا تدرك حاسة الشم إلا أطراف محسوساتها، أي الطيّب والمنتن، أما الأنواع التي توجد بينهما فتتسب إلى حواملها كأن يقال مثلا رائحة المسك، ورائحة العنبر وغيرها[٥٩].

إن استعارة أسماء الروائح من حاسة الذوق بهذا الشكل، ومن بقية الحواس عموما كأن نقول رائحة ناعمة، أو شديدة أو خفيفة مثلا[٦٠]، يعبر بحق عن النقص اللغوي لهذه الحاسة، خاصة إذا علمنا أن الدين الإسلامي في دعوته للطهارة، ميز فقط بين الطيّب/ المحمود، والنتن/ المذموم، فسمح للرجل بالتطيب علنا على عكس المرأة، ولم يكن تأخر الوحي عن الرسول (ﷺ) إلا بسبب الأوساخ النتنة المجتمعة لأصحابه تحت الأظافر وفي البراجم (عقد الأصابع)، مع عدم التسوك، وذلك لتعودهم على قبول الرائحة النتنة المنبعثة من جسدهم[٦١].

وبصرف النظر على الاختلاف الحاصل حول مساواة دلائل الروائح بدلائل الطعوم، إلا أن رائحة الأغذية تبقى مقياسًا ومعيارًا لحفظ الصحة، فما كان طيب الرائحة، فهو موافق لها[٦٢]، وما كان كريه الرائحة فغذاؤه مذموم، مضر ومولد للعفونات الفاسدة، لذلك ينبغي تجنبه، أو القيام بإصلاحه ونقله من "الطعم الكريه والرائحة الفاسدة" إلى "الطعم اللذيذ ذي رائحة ذكية" وبالتالي مقبولة[٦٣].

٢/٤-روائح/ أبخرة دون رائحة؟

قد يبدو هذا العنوان غريبًا، لكن من المنظور الطبي وقتئذ، هناك من الروائح من تكون ساكنة وخاملة لدرجة أنها لا تصدر أي رائحة على الإطلاق، وذلك يعود لطبيعتها الكثيفة والثقيلة، حيث تتمتع بقوة تجاه

الانحلال في الهواء، وبالتالي فإنها لا تتبخر بسهولة، وهذا يعني أن جوهرها لا يكشف عن شيء من طبيعته لا لحرارة ولا لبرودة. وبالتالي، فإنه لا يوجد بخار يتبخر منها ويؤثر في الهواء المحيط بها بأي شكل من الأشكال[٦٤].

ثالثًا: العوامل المؤثرة في الشم

يتعرض الشم مثله مثل سائر الحواس لآفات وعلل تؤدي به من جهة إلى إبطاله، وهو ما يسمى بالخشم أي تعطل الشم وفقدانه[٦٥]، أو ضعفه عن شم الروائح الطيبة والمنتنة معا، أو أحدهما على الأقل، ومن جهة أخرى إلى فساده وتغيره بحيث يتلذذ بروائح غير مستطابة، أو يشم روائح خبيثة رغم عدم وجودها أصلا[٦٦]، كما يعرض عند أصحاب الماليخوليا[٦٧].

ويعود ذلك إلى عدة أسباب لا يسعنا المقام هنا لذكرها ولا لتفصيلها كاملة، لكن يمكن تقسيمها من حيث مكان حدوثها في الأنف إلى نوعين: الأول يتعلق بما دون المجرى النافذ إلى الفم، أي المنخرين، وهنا نستطيع الحديث عن السُدّة فيهما[٦٨] أي انسدادهما، ويكشف عن هذه الأخيرة وجود غنة في الكلام وامتناع عن دخول الهواء داخل الأنف، ثم الأورام خاصة منها اللحم الزائد المعروف ب" البسفايج"[٦٩] أو"فولوقس"[٧٠] الذي ينبت في باطن الأنف، بالإضافة إلى القروح بنوعيها "الخشكريشة"[٧١] وكذا الرطبة التي بها نتن، والبواسير والسرطان، علما أن الفرق بين هذين الأخيرين يكمن في صلابة الورم، فإذا كان متحجرا صلبا فهو سرطان، أما إذا كان رخوا لينا فهو باسور[٧٢].

أما الثاني فيتعلق بما هو فوق المجرى النافذ للفم، فيكون السبب "تعسر الشم من تراكم خلط مخاطي من غير تورم ولا انسداد في ذات الثقب بل يكون من فوق كالطلاء"[٧٣]. أو يكون السبب هو السدة على مستوى مقدم الدماغ، أو بطونه، أو ثقب العظم الشبيه بالمصفاة، فيحدث بذلك في الحالة الأخيرة زكام خفيف، وفي حالة تزامن انسداد الثقب وتورمَ الغشاء المحيط به، فإن مدة الزكام تطول، ولا يبقى من حاسة الشم شيء بتاتًا[٧٤]. وهنا يستوقفنا هذا الأمر بشدة، فبطلان الشم بهذه الطريقة لجدير بالاهتمام، خاصة إذا ما قورن بوباء "كورونا" الذي ضرب العالم مؤخرا، حيث عد فقدان الشم أحد العوارض الدالة عليها، وبالتالي هل كانت العلة السابقة مجرد حالة عادية فردية لمفهوم الزكام، أم أن الأمر ليس إلا امتدادا لمرض كان سابقًا، ويمثل بالفعل جذورًا تاريخية لآفة كورونا؟!

علاوة على ما سبق، يمكن أن ينتج ذلك إما بسبب فساد مزاج الدماغ بحيث يسخن أو يبرد نتيجة لاستعمال الأدوية، وإما بفعل أهوية متغيرة، أو بفعل انحدار رطوبة عفنة إلى الأنف من بطون الدماغ أو ثقب العظم به، فيشم العليل ريحا نتنا[٧٥]، هذا بالإضافة إلى أنه يمكن أن يكون السبب خارجيا كأن تتسبب ضربة ما أو سقطة في آفة لعظم الأنف[٧٦].

إن لهذه العلل من العلامات ما كان سببًا في إفراد قسم خاص بأمراض الأنف مع تحديد الأدوية المناسبة لعلاجها بشقيها المفرد والمؤلف[٧٧]، والموجهة للاستخدام الخارجي على هيئة غراغر وأطلية للرأس، أو للاستعمال الداخلي على شكل بخورات، شمومات، سعوطات، نشوقات، ونفوخات[٧٨]، مما يبرز العناية التي وجهت إلى الأنف عموما وحاسة الشم تحديدا، لما لها من أهمية في حياة الأفراد تتمثل في تلذذ النفس بالروائح الطيبة العطرة إن لم تكن التلذذ بالحياة نفسها.

رابعًا: علاقة الأمراض بشم الروائح

لما كان البعد التجريبي للمعرفة الطبية راسخا ببلاد المغرب والأندلس[٧٩]، فقد تضمنت مصنفات الأطباء وصفات علاجية واستطبابات دوائية استخدِم فيها شم المشمومات ذات أصول نباتية وحيوانية، إما بشكل مباشر أو عن طريق التبخير الذي يتطلب الحرق بالنار. والمتصفح للمتون الطبية، يستشف بجلاء أن الروائح لم يعد دورها يقتصر على إنعاش النفس فحسب، إنما تجاوزه إلى أبعد من ذلك، بحيث أمكن لنا مقاربة استخدام الظاهرة الشمية من ثلاث زوايا، بشكل يعطينا فكرة وتصور أولي حولها بحسب ما يسمح به المجال هنا:

٤/١-علاج بعض الأمراض بالشم

تعددت الأمراض التي عمل شم الأدوية المفردة والمؤلفة على مداواتها ومحاولة التغلب عليها، لكن الملفت للانتباه هو أن تلك الأمراض كان منها مما لا يمكن

الوصول إليه في بدن الإنسان، أي تتعلق غالبا بالأعضاء الداخلية، لا سيما على مستوى الرأس والدماغ والأنف والمرتبطة عموما بالسدد المشار إليها سابقا، وعلى مستوى الصدر والرئة، وذلك لأن الأعضاء الخارجية كالفم والأذن والعين والجلد مثلاً استفادت عادة من أدوية موضعية، بينما الأعضاء الباطنية فقد شكلت الأغذية والأشربة أهم علاج لها، وهكذا يمكن أن نذكر في هذا الصدد، الشقيقة، سدد الدماغ، سدد المنخرين، الأرق، الربو، السعال، والزكام[٨٠].

وغني عن القول، أن الأمراض الوبائية بأصنافها خير معتمد على الشم كآلية من آليات تطهير الهواء الملوث بالنظر لأنه أحد الأسباب الكامنة وراء حدوث تلك الأمراض، وبناء على ذلك شكل إصلاح الهواء الملوث ودفع ضرره الذي يصيب على الأكثر جميع الناس[٨١]، أهم إجراء لجأ إليه الأطباء للقضاء على الروائح النتنة وتغيير الهواء الفاسد بآخر نقي، بواسطة طريق التبخير[٨٢].

وفي هذا السياق يندرج استعمال ثلاث أبخرة وهي العطرية، الدهنية، والقابضة منها العنبر، المَيْعة، المصطكى، الصندل الأصفر والعود والطرفاء الكافور، والزعفران علما أن العطرية منها، ونظرا لرائحتها الذكية والقوية هي التي خصصت لإصلاح الهواء المنتن[٨٣]، بل حتى لإصلاح الأبدان عموما بالنظر إلى علاقة هذه الأخيرة باستنشاق هذه الأبخرة، ووصولها إلى الأعضاء الداخلية[٨٤]، مع تحديد أفضل مكان للبخور وهو موضع دخول الهواء إلى البيت[٨٥]، والأوقات المناسبة لذلك والمتمثلة في «طلوع الشمس وأنصاف النهار وغروبها ونصف الليل، لأن في هذه الأوقات يسيل الهوى[الهواء]، وقد يضاد الهوى المفرط بالرطوبة بالنيران الكثيرة»[٨٦]، وعلى الرغم مما تنطوي عليه هذه الإشارة الأخيرة من نظرية العلاج بالضد، إلا أنها يمكن أن تحمل أيضا تفطن الأطباء لقدرة النيران على تعقيم الجو من خلال الهواء الحار الذي تولده.

هذا وقد أورد ابن البيطار نصا مهما عن المواد العطرية المستخدمة في المجال المدروس بالضبط يقول فيها: «بخور الأندراسيون وعامة بلاد المغرب وبلاد الأندلس يعرفونه باليرطور[ة][٨٧]، إذا بخر به ذهب بكل رائحة عفنة من أي نوع كانت، وكذلك ينفع من الوبا الحادث من الملاحم وينفع من ضروب الوبا[ء] كلها بقطعه الروائح الصاعدة من أجسام الناس وإصلاحه الهوا[ء]»[٨٨]، مما لا يدع مجالا للشك إلى الحضور الوازن للمواد المحلية الموجهة للتبخير بها، ومبادرة الناس لاستعمالها.

إلى جانب ما سبق، لم يكن رش سطوح البيوت والحيطان كل يوم بعد كنسها[٨٩]؛ وشم أنواع الطيوب والمشمومات، أقل شأنًا من الإجراء السابق، كما يفهم من كلام ابن هيدور التالي: «اتخاذها البيوت الشمالية وفرشها بالرياحين الباردة كالآس والخلاف؛ ورشها بماء الورد الممزوج بالخل والتطبب به وبالطيوب الباردة، ومسح الوجه والأطراف بذلك، والمواظبة على شمه؛ وشم الأترج والليم والأزهار الباردة كالورد والبنفسج (...)، والتدخين بالصندل مع يسير من العود الرطب على إثر الرش بماء الورد»[٩٠].

إن هذا النص يوضح بجلاء سعي الأطباء بوعي تام، يسهل إدراكه بكثرة التجارب والمشاهدات المحسوسة لابن خاتمة وابن الخطيب والشقوري وغيرهم، إلى تطويق المرض الوبائي والدفع نحو محاولة اكتساب مناعة ضده[٩١]؛ من خلال تعقيم المكان المحيط بالبدن أرضا وجوا، بتدابير ملموسة كي يصيرا هواؤه نقيا وصحيا وصالحا للعيش، على اعتبار أن روح الإنسان مستمدة منه ولا يمكن تبديله، ولا مندوحة عنه لسواه[٩٢].

كما يسجل حضور الخل كعنصر أساسي في عملية الرش، إذ تنضاف إليه باقي المكونات، لما له من أهمية ملموسة في التعقيم، بينما تجسدت عملية شم المشمومات في مظهرين، الأول عبر شم المواد العطرية من طرف الإنسان كماء الورد والآس في أكثر الأوقات[٩٣]، وهنا نستحضر أيضا طريقتين أخرتين للشم، وتتجلى الأولى في التدخن بالعقاقير والذي يبدو المقصود بها هو ابتلاع الأفراد للدخان بواسطة أنبوب[٩٤]، والثانية في التمرخ بالأدهان اللينة كدهن البنفسج ودهن النيلوفر[٩٥]، مما يسمح بالاستفادة من رائحتها، فضلا عما يوحي استخدامها كطبقة وقائية ضد تسرب الهواء الملوث إلى البدن.

أما المظهر الثاني فتميز بوضع الرياحين بالبيوت كالآس، وورق الكرم، وورق القصب مع تجديدها كل ثلاثة أيام[٩٦]، وهنا نتساءل لماذا وجب ذلك بالضبط بعد المدة المذكورة؟ فمعلوم أن هذه النباتات إذا كانت يابسة فإنها لا تفقد الرائحة بعد تلك المدة البسيطة، إذن فهل هذا راجع فقط لاعتقاد الشقوري وحده واجتهاد من طرفه دونا عن بقية الأطباء، أم أن الأمر يقتصر على استعمال تلك النباتات بشكل طري؟![٩٧]

٢/٤–تحذيرات طبية من شم بعض الروائح

حذر الأطباء من مغبة استنشاق بخور أو شم بعض النباتات خشية التعرض لإصابة ببعض العلل، كما هو حال الصداع، فالجوهر الحار للعناصر العطرة من طيب وأفاويه، وكما يجعل منها محببة ومرغوب فيها، يمكن في نفس الوقت أن تكون مصدّعة[٩٨]، الأمر الذي استوجب تدخلاً قام أساسًا على مقابلتها بالروائح الطيبة الباردة، ويكفي الرجوع إلى المصنفات الطبية للوقوف على الوصفات التركيبية المناسبة للصداع الحار[٩٩].

وبالمثل جاءت الدعوة لتفادي شم دخان الزئبق لتسببه في آفة النسيان والبلادة، والياسمين البري لقدرته على إحداث رعاف قوي، إضافة إلى أن الإفراط في شم الروائح اليابسة أيضا كانت له أضراره، مثل شم الكافور الذي يولد السعال[١٠٠].

٣/٤–حفظ الصحة بالشم

لا غرو أن حفظ الصحة يشكل أحد الغايات الأساسية التي قامت عليها صناعة الطب[١٠١]، ومن المتعارف عليه أنه استند إلى عدة أسس[١٠٢] وطرق، وعليه لم يكن اعتماد شم الأدوية في منأى عن تلك الحركية للمنظومة الطبية، حيث يمكن أن نستجلي ذلك بوضوح من خلال تتبع العلاجات الطبية التي وصفت في هذا الشأن.

فلتنقية البدن من الفضول، استخدم الأطباء الاستفراغ لإخراج العرق كوسيلة من بين عدة وسائل أخرى[١٠٣]، وفي هذا الإطار يمكن العثور على أدوية معرّقة في حالة ما إذا تم البخور بها[١٠٤]، ويشرح الخميري كيفية التعريق تلك فبعد تحضير مطبوخ شبيبة العجوز وشجرة مريم وحجر من الرحى داخل برمة مغطاة، بها ماء به خل، يزال غطاء البرمة بعد صعود بخارها وتُدخل تحت ثياب من يراد تعريقه. ومن الأكيد أن هذا الأسلوب في العلاج ما زال يجد صداه إلى الآن.

وإلى جانب ما سبق، قدم الأطباء عدة نصائح تروم حفظ أعضاء البدن بعينها، كما هو الحال في جوهر الدماغ وتقويته وتنقيته[١٠٥]، عن طريق استنشاق دخان العود والمسك والروائح الطيبة عموما واجتناب الروائح الخبيثة[١٠٦]، وينطبق الأمر نفسه على صحة الأنف، مع الإكثار أيضا من شم الروائح المفتحة لسدده[١٠٧]، هذا بالإضافة إلى ما للبخور من أهمية في تقوية الذهن وآلات الحس[١٠٨]، بل إن اتخاذ الأبخرة يكون بمثابة إجراء وقائي للأبدان قبل وقوع مرض الوباء خصوصًا بالنسبة لأصحاب الأجسام البدينة، وكذا فئة الشيوخ[١٠٩].

تأسيسًا على ما سبق فإن الدعوة إلى استنشاق الروائح الطيبة والتحفظ من الروائح الكريهة انتقل من بدن الإنسان إلى محيطه، وهو ما تبلور حينما نصح الأطباء بضرورة بعد مكان السكن عن أماكن التلوث كالمداخن والمدابغ وأماكن رمي الأزبال[١١٠]، والابتعاد عن المياه الملوثة في الحياض والمستنقعات والبرك الراكدة، لأن الهواء إذا كان «مجاورا للمياه الفاسدة، أو مناقع متعفنة، أو مروج خبيثة، أسرع إليها العفن من مجاورتها»[١١١]، ويشم عن بعد نتنها[١١٢]، مما ينعكس سلبًا على صحة الإنسان والحيوان، فكان اختيار مواضع ذات هواء ومياه سليميّن من بين الشروط الواجب مراعاتها عند بناء المدن.

خَاتِمَةٌ

قصارى القول، إن تاريخ الشم/الرائحة هو مزيج من التأثيرات الملموسة على السلوك الإنساني، نفسيا وجنسيا وانفعاليا، اعتمادا على العلاقة الوثيقة بين الرائحة والذاكرة الشمية المستحضرة لها.

وإذا كانت النظرة نحو شم الروائح قد تغيرت مع مجيء الدين الإسلامي، فإنها ستتخذ منعطفا مهما مع المدرسة الطبية ببلاد المغرب والأندلس، فكان أن أصبح شم الروائح الطيّبة والتبخير بالنباتات العطرية مطلبا ملحا حين رفع الأطباء من قيمتها الطبية في التعامل مع الأمراض والأوبئة – وصلت تداعياتها لحد اليوم باللجوء إلى نفس الطريقة لمواجهة وباء كورونا أمام عجز الطب المعاصر عن احتوائه– ناهيك عن مزاياها الجنسية، وهو ما تحقق بفعل الاستفادة من عناصر الطيب بمختلف مكوناتها المحلية منها والمستوردة، في حين تم الحط من شأن الرائحة الكريهة التي أصبحت محظورة بدنيا، اجتماعيا، وبيئيا، لما تثيره من مشاعر وأحاسيس مقززة، كما شكلت الدراسة فرصة لإبراز وجود أسماء روائح جديدة، تبين استخدامها في العصر الوسيط متجاوزة بذلك التقسيم الكلاسيكي الذي حصر الروائح بين ثنائية الطيّب/ النتن.

إن ما قدمناه في هذه الدراسة لا يعدو أن يكون تصورا أوليا ينحو نحو محاولة إثارة الانتباه نحو الظاهرة الشمية لما لها من مكانة مهمة في الحياة الشخصية، وذلك في انتظار توسيع دائرة المصادر ذات الصلة وبالتالي فتح آفاق نحو إغناء البحث التاريخي بمزيد من البحوث الجديدة.

الاحالات المرجعية:

(١) من بين هذه الدراسات: - باتريك زوسكيند، **العطر قصة قاتل**، ترجمة نبيل الحفار، دار المدى، ط. ٢، ٢٠٠٧.
- بيت فرون وآخرون، **الرائحة أبجدية الإغواء الغامضة**، ترجمة صديق محمد جوهر، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ط. ١، ٢٠١٠. - رضا الأبيض، **كتابة الرائحة في نماذج من الرواية العربية**، دار زينب، تونس، ٢٠٢٠.
Annick Le Guérer, **les pouvoirs de l'Odeur,** Éditions Odile Jacob, 2002.

(٢) معجم اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية، ط. ٤، ٢٠٠٨، ص. ٤٩٥.

(٣) ابن منظور، لسان **العرب**، مجلد ١٢، دار صادر، بيروت، 1997، ص.٣٢٥-٣٢٦. الفيروزي آبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨، ص. ٨٨٩.

(٤) ابن الجزار، **فنون الطيب والعطر**، تحقيق الراضي الجازي وفاروق العسلي، المجمع التونسي للعلوم والأدب في الفنون "بيت الحكمة"، قرطاج، ٢٠٠٧، ص.٣٦.

(٥) ابن الجزار، نفسه، ص. ٣٧.

(٦) الزهراوي، **التصريف لمن عجز عن التأليف**، تحقيق محمد العربي الخطابي، ضمن الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي مدخل ونصوص، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠، ص. ٢٧٤، الخميري، **تحفة القادم**، خزانة حسن حسني عبد الوهاب، تونس، رقم: ١٨٥٠٢، ضمن مجموع، ص. ٢٠١ ب، ٢٠٢ أ.

(٧) الإسرائيلي، **الأغذية والأدوية**، ج.١، تحقيق محمد الصباح، مؤسسة عز الدين للطبع والنشر، بيروت، ط. ١، ١٩٩٢، ص. ٤٥-٤٦.

(٨) ابن رشد، **الكليات في الطب**، تحقيق محمد عابد الجابري، مركز الوحدة العربية، بيروت، ط.١، ١٩٩٩، ص. ٣٩١.

(٩) ابن سينا، **القانون في الطب**، ج.٢، تحقيق محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.١، ١٩٩٩، ص. ٢٣٤.

(١٠) ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص. ٣٧.

(١١) يقصد بالقحف العظام المكونة للجمجمة، وعددها ستة منها تخص القحف وهي تلتقي في ظاهره بما يسمى الشؤون، ومن الخلف بعظم يسمى الوتد. ابن رشد، **الكليات**، ص. ١٣٥.

(١٢) ابن رشد، نفسه، صص.١٤٨- ١٤٩.

(١٣) ابن سينا، **القانون في الطب**، ج.٢، ص. ٧.

(١٤) ابن مهنا، **الأيضّاح والتتميم لاحتوائه على أمور غفل عنها ذو العمل والتقديم**، المكتبة العامة والمحفوظات، تطوان، رقم: ١٣، ص.١٣٥.

(١٥) ابن رشد، **شرح أرجوزة ابن سينا الطبية**، دار الكتب القومية، مصر، رقم: ١٠٩، ص. ٧٣.

(١٦) كمثال على ذلك يستدل ابن الجزار بعدم وصول بخار الأشياء ذات الرائحة إلى الدماغ وبالتالي عدم قدرة هذا الأخير على شمها حين التعرض لعلة الزكام. ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص.٣٧. وحين يقول علي بن العباس: " متى بخرنا بين أيدينا بخورا كثيرا ومنعنا أنفسنا من الاستنشاق إلى داخل لم نحس بشيء من رائحة ذلك البخار، وإن نحن استنشقنا إلى داخل وجدنا رائحة ذاك البخار، على المكان"، حول هذا الأمر، يرجع إلى: ابن المهنا، **الأيضّاح**، ص. ١٣٦.

(١٧) ابن الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ٤٦.

(١٨) يتفق ابن رشد مع أرسطو فقط. للمزيد انظر ابن رشد، **الكليات**، ص.١٩٦-١٩٧.

(١٩) ابن رشد، نفسه، ص.١٩٧.

(٢٠) ابن رشد، نفسه، ص. ١٩١- ١٩٢.

(٢١) حسب الطب المعاصر فإن عملية الشم تتم عند دخول جزيئات الروائح عبر فتحة الأنف، حيث يكون في استقبالها خلايا الشم التي تمتد إلى منطقة الطبقة المخاطية الغنية بالمستقبلات الشمية والتي تقوم برد فعل كيميائي ينتج عنه تولد إشارات عصبية تصل إلى منطقة الشم في الدماغ، حيث تعمل هذه الأخيرة على تحليلها وترجمة تلك المعلومات الشمية لمعرفة نوع الرائحة التي تعكسها. انظر:
Olfactory receptors and the mechanism of odor perception », Ryszard Farbiszewski, Robert Kranc,« in **Polish Annals Of Medcine**, volume 20, 2013, Poland,pp.51-55.

(٢٢) ابن رشد، **المقدمات الممهدات لبيان ما اقتضته رسوم المدونة من الأحكام الشرعيات والتحصيلات المحكمات لأمهات مسائلها المشكلات**، ج.٢، تحقيق سعيد أحمد أعراب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ص. ٢٨١-٢٨٢.

(٢٣) ابن فرحون، **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**، ج.٢، تحقيق جمال مرعشلي، دار عالم الكتب، الرياض، ٢٠٠٣، ص.١٤٧.

(٢٤) ثابت بن قرة، **الذخيرة في علم الطب**، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٢٨، ص. ٤٥.

(٢٥) الإسرائيلي، **الأغذية والأدوية**، ج. ١، ٤٥.

(٢٦) ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص. ٣٥.

(٢٧) للمزيد حول عناصر الطيب مجتمعة، انظر الزهراوي، **التصريف**، ضمن الأغذية والأدوية، ص. ٢٧٤. وتستورد أصول الطيب الخمسة المسك والعود والكافور من الهند، ماعدا الزعفران والعنبر. المقري، **نفح الطيب**، ج.١، ص. ١٤٤.

(٢٨) ابن سينا، **القانون**، ج.١، ص. ٣٢١؛ ٣٢٥. ابن رشد، **الكليات**، ص. ٣٩١.

(٢٩) ابن رشد، **شرح أرجوزة ابن سينا**، ص. ٢٧.

(٣٠) الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ٤٦.

(٣١) ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص. ٩٤.

(٣٢) ابن الجزار، نفسه، ص. ٣٧. من وصايا التيفاشي في هذا الصدد: «اعلم أن الرائحة التي تطيب رائحة البدن والثياب من المرآة جالبة لمودة الرجل، وباعثة له على الموافقة». أبو بكر التيفاشي، **أوصاف النساء ووصفات الأعشاب الطبيعية للقوة الجنسية**، تحقيق محمد رجب، دار الحرية، ٢٠٠٦، ص.٦١.

(٣٣) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص.١٢٤.

(٣٤) ابن بسام، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، ج.٤، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط.١، ١٩٧٩، ص.١٣١-١٣٢.

(٣٥) المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج.١، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ص. ٣٥٧.

(٣٦) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص.٢٣.

(٣٧) ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص. ٦٤-٦٩؛ ١١٦. ابن رزين، **فضالة الخوان في طيبات الطعام والألوان**، تحقيق محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. 1، ١٩٨٤، صص.٢٧٧-٢٧٩.

(٣٨) هي التراكيب العطرية القديمة وهي عبارة عن سحق أنواع متعددة من الطيب كالعنبر والمسك وتحليلها بدهن البان دون اللجوء إلى استخدام النار. زينب سالم صالح، «صناعة العطور في العصر العباسي(١٣٢-٦٥٦هـ/٧٤٩-١٢٥٨م) دراسة تاريخية»، مجلة **التربية والعلم**، المجلد ١٩، العدد ٣، ٢٠١٢، ص.١٢.

(٣٩) واقعة الربض هي الثورة التي حدثت بقرطبة سنة (٢٠٢هـ/٨١٨م)، خاضها سكان ربض شقندة ضد الأمير الحكم بن هشام (ت ٢٠٦هـ/٨٢٢م) المعروف بالحكم الربضي، نتج عنها قتل عدد كبير منهم وإجلاء باقي سكان الربض خارج قرطبة حيث تفرقوا بين مدن الأندلس ومنهم من هاجر نحو المغرب. للمزيد ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج.٢، تحقيق ج. س. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط.٢، ١٩٨٠، ص.٧٥-٧٧.

(٤٠) ابن حيان، **المقتبس**، تحقيق محمد علي مكي، س.٢، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط.١، ٢٠٠٣، ص.١٥٧.

(٤١) يستعمل لفظ "زهيم" إلى حدود الآن في الدارجة المغربية.

(٤٢) ابن منظور، **لسان العرب**، ج.١٢، ص. ٢٧٧.

(٤٣) ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص. ١٢٠.

(٤٤) الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ٥٠.

(٤٥) ابن الجزار، **فنون الطيب**، ص.١١٩.

(٤٦) ابن البيطار، **المغني في الأدوية المفردة**، ج. ٤، مخطوطات تركية فاتح، اسطنبول، رقم: ٣٦٣٤، ص. ٢٦٤ أ. الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ١٦٣. محمد العربي الخطابي، «ابن الخطيب وكتابه الوصول لحفظ الصحة في فصول (القسم الثاني)»، مجلة **أكاديمية المملكة المغربية**، عدد ٤، ١٩٨٧، ص. ١٣١.

(٤٧) ثابت بن قرة، **الذخيرة**، ص. ٤٥.

(٤٨) ابن رشد، **الكليات**، ص. ٣٩٦.

(٤٩) الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ٤٦.

(٥٠) الزهراوي، **التصريف لمن عجز عن التأليف**، تحقيق محمد العربي الخطابي، ضمن الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية دراسة وتراجم ونصوص، ج. ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.١، ١٩٨٨، ص. ١٥٠.ابن سينا، **القانون**، ج.٢، ص.٤٩-٥٠.

(٥١) ابن سينا، نفسه، ص. ٦٥.

(٥٢) الزهراوي، **التصريف**، ص. ٢٩٣-٢٩٤؛ ٢٩٦. ابن البيطار، **المغني في الأدوية المفردة**، ج. ١، مخطوطات تركية فاتح، إسطنبول، رقم: ٣٦٣٣، ص.٢٦٣ أ- ٢٦٤ ب.

(٥٣) ابن الرامي، **الإعلان بأحكام البنيان**، تحقيق فريد بن سليمان، مركز النشر الجامعي، تونس، ١٩٩٩، ص. ٦١.

(٥٤) ابن الرامي، نفسه، ص. ١٥١.

(٥٥) ابن مناصف، **تنبيه الحكام على مآخذ الأحكام**، تحقيق عبد الحفيظ منصور، دار التركي للنشر، تونس، ١٩٨٨، ص.٣٣٧.

(٥٦) الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ٤٤. ويقصد بالحريف ما يلدغ اللسان من الطعوم كالفلفل. الخطابي، «**ابن الخطيب**»، م. س، ص. ١٣٨.

(٥٧) ابن سينا، **القانون**، ج. ١، ص. ٣٢٢. ابن رشد، **الكليات**، ص. ٣٩٦.

(٥٨) يقصد به اللذع ويستعمل لكل ما يحرق. انظر، الخطابي، «**ابن الخطيب**»، م. س، ص. ١٣٤.

(٥٩) حول روائح الأغذية بالتفصيل، انظر الإسرائيلي، **الأغذية**، ص. ٤٤-٤٥.

(٦٠) البرزلي، **فتاوى البرزلي، جامع مسائل الأحكام لما نزل من أحكام بالمفتين والحكام**، ج.١، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.١، ٢٠٠٢، ص. ١٣٤.

(٦١) الغزالي، **إحياء علوم الدين**، دار حزم، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٥، ص. ١٦٣.

(٦٢) الإسرائيلي، **الأغذية**، ص.٤٩.

(٦٣) الإسرائيلي، نفسه، ص. ١٦٢.

(٦٤) الإسرائيلي، نفسه، ص.٥٠.

(٦٥) الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**، ج.٢، إدارة الطباعة المنيرية، مصر، ١٩٢٤، ص. ١٠١.

(٦٦) ابن سينا، **القانون**، ج.٢، ص. ٢٣٥. انظر أيضًا ابن زهر، **التيسير في المداواة والتدبير**، الخزانة العامة، الرباط، رقم: ١٥٩، ضمن مجموع، ص. ٢٠.

(٦٧) ابن عمران، **مقالة في الماليخوليا**، تحقيق عادل العمراني والراضي الجازي، المجمع التونسي للعلوم والأدب في الفنون "بيت الحكمة"، قرطاج، ٢٠٠٩، ص. ٤٩.

(٦٨) السدة داء في الأنف؛ والسدة – مطلقا – هي كل علة تسد مجرى في البدن، والجمع سُدد. الخطابي، **الأغذية والأدوية**، م. س، ص٥٥٧.

(٦٩) الورم الكبير الأرجل. الرازي، **الحاوي في الطب**، تحقيق محمد إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. ١، ٢٠٠٠، ص. ٤١٨.

(٧٠) ابن البيطار، **المغني في الأدوية المفردة**، ج. ١، مخطوطات تركية فاتح، إسطنبول، رقم: ٣٦٣٣، ص. ٢٠٢ أ.

(٧١) الخركريشة هي القرحة التي ليس معها رطوبة.

(٧٢) الرازي، **الحاوي**، ص. ٤٢٨-٤٢٩.

(٧٣) ابن زهر، **التيسير**، ص. ٢٠.

(٧٤) ابن زهر، نفسه، ص. ٢١.

(٧٥) الرازي، **الحاوي**، ص. ٤٣٦.

(٧٦)ابن سينا، **القانون**، ج.٢، ص.٢٣٥.

(٧٧) ابن البيطار، **المغني**، ص. ١٠٠أ-١٠٢ ب.

(٧٨) حسب ابن سينا فإن السعوطات أجسام رطبة تقطر في الأنف، والنشوقات أجسام رطبة تجتذب إلى الأنف بجذب الهواء، والنفوخات أشياء يابسة مهيأة تنفخ في الأنف بواسطة أنبوب. للمزيد انظر ابن سينا، **القانون**، ج.٢، ص. ٢٣٤-٢٣٥.

(٧٩) سعيد بنحمادة، «الطب والصيدلة بالأندلس: القواعد والتيارات»، مجلة **هسبريس تمودة**، ٢٠١٩، ص. ١٩٣-٢٢٨.

(٨٠) - كان يتم تبخير علة الزكام بالأنيسون والقرص السيني والعود الهندي. الشقوري، **مقالة في الطب**، ضمن الأغذية والأدوية عند مؤلفي الغرب الإسلامي مدخل ونصوص، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ط ١، ص.٤٢٧.

(٨١) ثابت بن قرة، **الذخيرة**، ص. ١٦٧.

(٨٢) يقول الزهراوي عن ذلك: «وتقطع البخورات ضروب فساد الهواء الذي يعرض من قبله الطاعون والوباء، والحميات المركبة ونحو ذلك». الزهراوي، **التصريف**، ضمن الأغذية، ص. ٢٩.

(٨٣) تنفع الدهنية الهواء الحار اليابس، أما القابضة تصلح الهواء الشديد الرطوبة. للمزيد حول هذا الأمر، ابن البيطار، **المغني**، ج.٤، ص. ٢٨٧ أ وب. ابن زهر، **كتاب الأغذية**، تحقيق محمد أمين الضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط.١، ١٩٩٨، ص. ١٢٦-١٢٧.

(٨٤) يقول الشقوري في هذا الصدد: «فإن الإنسان لابد أن يستنشق شيئا من تلك الأدخنة والروائح، ويتنفس فيها وهذه فائدة التبخير، فكلما يصلح الهواء، يصلح أيضًا الأعضاء التي تصل إليها، وتقويها على دفع الفساد، وتمنع العفن فيها، فربما اكتسب قوة صالحة مانعة مدة لتصرّف الإنسان في حاجاته»، الشقوري أبي عبد الله بن محمد اللخمي، **تحقيق النبأ في أمر الوباء**، مجموع تحت رقم MSS5067/8 المكتبة الوطنية لإسبانيا، الأسكوريال، و٥.

(٨٥) لطف قاري، **رسالتان في الجغرافيا الطبية وتأثير البيئة**، رسائل جغرافية، عدده ٣٠، جامعة الكويت، ٢٠٠٥، ص.٦٩.

(٨٦) ابن البيطار، **المغني**، ج.٤، ص. ٢٨٧ ب.

(٨٧) هي عشبة الجدرة من نوع الكلخ ومن جنس الهدبات ذات رائحة عطرة مع حدة، تكثر في نواحي طليطلة جبال جيان والجزيرة الخضراء. الإشبيلي، **عمدة الطبيب في معرفة النبات**، ج.٢، تحقيق محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط.١، ١٩٩٥، ص. ٦٣٥.

(٨٨) ابن البيطار، **المغني**، ج.٤، ص.٢٨٤ أ و ب.

(٨٩) ابن البيطار، نفسه، ص. ٢٨٦.

(٩٠) ابن هيدور، **المقالة الحكمية في الأمراض الوبائية**، خزانة محمد المنوني، الرباط، رقم: ٣/٤٥٥، ضمن مجموع، ص. ٤٨. ابن زهر، **التيسير**، ص. ٢٣٣. ابن الخطيب، **مقنعة السائل عن المرض الهائل**، تحقيق حياة قارة، دار الأمان، الرباط، ط. ١، ٢٠١٥، ص.٦٦. ثابت بن قرة، **الذخيرة**، ص.١٦٨. الخميري، **تحفة القادم**، ص. ٢١١ ب.

(٩١) الشقوري، **تحقيق النبأ**، و٣. ينظر أيضًا شرح ابن الخطيب لكيفية قبول الجسم للمرض من عدمه، نفسه، صص.٦٨- ٧١.

(٩٢) ابن هيدور، **المقالة الحكمية**، ص. ٤٧-٤٨. انظر أيضًا، ابن زهر، **التيسير**، ص.٢٣٤. الخميري، **تحفة القادم**، ص. ٢١١ ب.

(٩٣) ينفع أيضًا شم ماء الورد والآس من الصداع والذي مرده كما أشرنا سابقا يمكن أن يكون شم الروائح الخبيثة. ابن البيطار، **المغني**، ج. ١، ص. ٤ ب؛ ٨ ب.

(٩٤) يمكن الوقوف على هذا المعنى من خلال، ابن البيطار، نفسه، ص. ١٥٥أ.

(٩٥) أبو سهل المسيحي، **رسالة في تحقيق أمر الوباء والاحتراز منه وإصلاحه إذا وقع**، تحقيق لطف الله قاري، في رسائل جغرافية، عدد ٣٠٥، جامعة الكويت، ٢٠٠٥، ص. ١٠٧.

(٩٦) الشقوري، **تحقيق النبأ**، و٤.

(٩٧) اكتفى ابن الخطيب بقوله بإصلاح المجالس بالطيوب الباردة والرياحين. ابن الخطيب، **مقنعة السائل**، ص. ٦٦. وانظر أيضًا ابن هيدور، **المقالة الحكمية**، ص. ٤٨.

(٩٨) ابن سينا، **القانون**، ص. **٣٢٦.**

(٩٩) ابن البيطار، **المغني**، ج.١، ص. ٦ أ؛ ٧ب؛ ٨ ب؛ ٩ أ.

(١٠٠) ابن زهر، **التيسير**، ص.٩٩.

(١٠١) ابن خلصون، **الأغذية وحفظ الصحة**، مخطوط مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء، رقم ١٠٨/١، ص.١.

(١٠٢) يجمع الأطباء على أن حفظ الصحة يقوم على ما يسمونه "الست الضروريات" ويندرج في هذا الإطار تقدير المأكل والمشرب (كما وكيفا ووقتا وترتيبا)، تقدير النوم واليقظة، تجنب العوارض النفسانية، الإقامة في الهواء المعتدل، الحركة والسكون، وأخيرا الاحتقان والاستفراغ ويكون إما بالتدلك والاستحمام واستعمال الأدوية المخرجة للفضول بإسهال بطن وإدرار بول وتسهيل عرق. ابن رشد، **الكليات**، صص.٤٧١-٤٧٥. الخميري، **تحفة القادم**، ص.١٤٩ أ. ابن مهنا، **الأيضًاح**، ص.١٣.

(١٠٣) الخميري، نفسه، ص. ١٥٥ ب.

(١٠٤) يمكن الرجوع إلى هذه الأدوية. **ابن البيطار، المغني**، ج.٤، ص ٢٦٦ أ و ب.

(١٠٥) ابن البيطار، المغني، ج.١، ص. ٢١ ب؛ ٢٢ أ و ب.

(١٠٦) ابن خلصون، **الأغذية**، ص. ١٠.

(١٠٧) ابن خلصون، نفسه، ص. ١٢-١٣.

(١٠٨) ابن البيطار، **المغني**، ج.١، ص. ٢٦ أ.

(١٠٩) الشقوري، **تحقيق النبأ**، ص. و٣.

(١١٠) لطف قاري، **رسالتان في الجغرافيا**، ص. ٦١.

(١١١) ابن خلدون، **المقدمة**، ضبط المتن خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١، ص. ٤٣٣. انظر أيضًا ابن زهر، **الأغذية**، ص. ١١٢.

(١١٢) ابن زهر، **التيسير**، صص.٢٣٤- ٢٣٥.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

بيلتا طليطلة
أعجوبة هندسة النوافير المائية في الأندلس


أ.د. عبد الله علي نوح
كلية الآداب والعلوم. المرج
جامعة بنغازي
دولة ليبيا


د. كريمة أحمد عوض
كلية السياحة والآثار. سوسة
جامعة عمر المختار
دولة ليبيا

مُلَخّص

شهدت صناعة النوافير في الأندلس الإسلامية تقدمًا ملحوظًا تشهد به الأعمال الهندسية التي خلدتها المصادر التاريخية، وظل بعضها لغزًا علميًا هندسيًا عجزت تقانة الأجيال اللاحقة عن تفسير سر صنعتها وفك هندسة تركيبها، ومنها نافورتان صنعهما المهندس عبد الرحمن الزرقالي بطريقة أعجزت معاصريها، ثم ظلت عصية على التفسير، لأن طريقة عملها تعتمد على ملء وإفراغ بيلتين في تلك النافورتين بطريقة آلية ترتكز على التوافق مع أيام الشهر القمري، بحيث تبدآن في الامتلاء بتصاعد تدريجي متناسق وبنسب ثابتة حتى منتصف الشهر القمري، ثم تبدآن في أول يوم من النصف الثاني من الشهر عملية إفراغ الماء بطريقة ذاتية، والعجيب أنه لو تدخل إنسان فزاد أو أنقص من مياههما، فإنهما بشكل ذاتي تصلحان زيادة أو إنقاص الماء داخلهما بالمقدار الصحيح الذي يجب أن يكون فيه ذلك اليوم وتلك الساعة، وكان مصير هاتين البيلتين التخريب على يد ملك قشتالي ومنجم يهودي يهدف معرفة آلية عملهما، الأمر الذي لم ينجح سوى في تعطيل عملهما. وقد أظهر البحث أن حوادث الأندلس السياسية والعسكرية المترافقة مع غزو المدن الإسلامية من قبل الإسبان، أثرت على مشاريع علمية حضارية، نعلم بعضها وانطمس خبر الكثير منها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٤ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٠٥ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

طليطلة؛ الأندلس؛ الحضارة الإسلامية؛ النافورة؛ علم الحيل

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2023.339624

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد اللّه علي نوح، كريمة أحمد عوض، "بيلتا طليطلة: أعجوبة هندسة النوافير المائية في الأندلس".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ٥٨ – ٧٣.

Corresponding author: aa24083@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

في نص عجيب ورد عند المقري في كتاب نفح الطيب وعند الزهري في كتاب الجغرافية، وفي كتاب تاريخ الأندلس مجهول المؤلف، أمر يستوجب التوقف ويستدعي التأمل والشرح والتفسير، فهو نص يتحدث عن إحدى عجائب الأندلس الهندسية، وهما النافورتان المتماثلتان في مدينة طليطلة، حين كانت النافورة المائية تسمى عندهم (بيلة).

وهاتان البيلتان (النافورتان) تعملان حسب النص بطريقة عجيبة ترتبط تمامًا بالتقويم القمري وتحديدًا بحركة الشهر القمري، وظلتا تعملان بتناسق متواصل وفق حسبان نصف الشهر القمري، بحيث يبدآن بذات الوقت في الامتلاء البطيء من أول أيام الشهر القمري وبمعدلٍ ثابت حتى انتصاف الشهر تمامًا فيكونان قد امتلآ تمام الامتلاء، وبدءًا من اليوم التالي لنصف الشهر يبدآن بالتناقص بنفس القدر والمقدار إلى تمام الشهر فيفرغان تمامًا، ثم يباشران ذاتيًا في اليوم التالي وهو أول أيام الشهر اللاحق في معاودة الكرة الماضية، وهكذا دواليك، نصف شهر للامتلاء ونصف شهر للفراغ والخواء.

وفوق العجاب من أمر عمل البيلتين والسر العلمي وراء حركتهما، هناك أمر تاريخي سياسي ارتبط بخراب عملها وفساد نظامهما، حيث أمر الملك القشتالي ألفونس السابع (Alfonso VII) بتفكيكهما سنة (٥٢٨هـ/١١٣٣م)، بعدما دخل طليطلة وبمشورة وطلب من منجم يهودي اسمه حنين بن ربوة أو حنين بن زبرة، الذي طلب بأن يسمح له بتفكيك البيلتين ليرى طريقة عملهما ويجعلهما يمتلآن ويفرغان في يوم واحدٍ لا في شهرٍ كاملٍ، وكان غرضه الحق أن يعرف سرَّ عمل البيلتين، في محاولة منه لفهم السر الهندسي الذي تعمل وفقه البيلتان.

فاتفق ذلك الطلب مع هوى ورغبة الملك ألفونس السابع وهكذا كان، بيد أن النتيجة التي حدثت هي أن حنين اليهودي فككهما دون علم ودراية هندسية، فبطل عملهما وفسد أمرهما، ولم يجد حيلة لإرجاعهما أو تطوير عملهما، فأفسد بتدبيره وبأمر الملك الإسباني اختراعًا إسلاميًا قلّ نظيره في الأزمان التالية، فما بالنا بزمنه ووقته.

١-خبر البيلتين من مصادره

لا بأس بدءًا ولكي نفهم المعنى ونستوضح السياق أن نسوق النص كاملًا كما جاء في كتاب نفح الطيب، ثم نحاول سبر أغواره واستخراج الوصف الذي أراد المقري ومن ساق النص مثله، إيصاله للقارئين عن تلك البيلتين العجيبتين.

يقول نص المقري: "ومن غرائب الأندلس: البيلتان اللتان بطليطلة، صنعهما عبد الرحمن لما سمع بخبر الطلسم الذي بمدينة أرين من أرض الهند، وقد ذكره المسعودي، وأنه يدور بإصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فصنع هو هاتين البيلتين خارج طليطلة في بيت مجوّف في جوف النهر الأعظم في الموضع المعروف بباب الدباغين، ومن عجبهما أنهما يمتلئان وينحسران مع زيادة القمر ونقصانه، وذلك أن أول انهلال الهلال يخرج فيهما يسير ماء، فإذا أصبح كان فيهما ربع سبعهما من الماء، فإذا كان آخر النهار كمل فيهما نصف سبع، ولا يزال كذلك بين اليوم والليلة نصف سبع حتى يكمل من الشهر سبعة أيام وسبع ليال، فيكون فيهما نصفهما، ولا تزال كذلك الزيادة نصف سبع في اليوم والليلة حتى يكمل امتلاؤهما بكمال القمر، فإذا كان في ليلة خمسة عشر وأخذ القمر في النقصان نقصتا بنقصان القمر كل يوم وليلة نصف سبع ، فإذا كان تسعة وعشرون من الشهر لا يبقى فيهما شيء من الماء، وإذا تكلّف أحد حين تنقصان أن يملأهما، وجلب لهما الماء، ابتلعا ذلك من حينهما حتى لا يبقى فيهما إلّا ما كان فيهما في تلك الساعة، وكذا لو تكلّف عند امتلائهما إفراغهما ولم يبق منهما شيئا ثم رفع يده عنهما خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في الحين، وهما أعجب من طلّسم الهند لأن ذلك في نقطة الاعتدال حيث لا يزيد الليل على النهار، وأما هاتان فليستا في مكان الاعتدال، ولم تزالا في بيت واحد حتى ملك النصارى دمّرهم الله طليطلة، فأراد الفنش أن يعلم حركاتهما، فأمر أن تقلع الواحدة منهما لينظر من أين يأتي إليها الماء، وكيف الحركة فيهما، فقلعت، فبطلت حركتهما، وذلك سنة ٥٢٨ وقيل: إن

سبب فسادهما حنين اليهودي الذي جلب حمام الأندلس كلها إلى طليطلة في يوم واحد، وذلك سنة ٥٢٧، وهو الذي أعلم الفنش أن ولده سيدخل قرطبة ويملكها، فأراد أن يكشف حركة البيلتين فقال له: أيها الملك أنا أقلعهما وأردّهما أحسن ممّا كانتا، وذلك أني أجعلهما تمتلئان بالنهار وتحسران في الليل، فلما قلعت لم يقدر على ردّها، وقيل: إنه قلع واحدة ليسرق منها الصنعة فبطلت، ولم تزل الأخرى تعطي حركتها، والله أعلم بحقيقة الحال".[١]

هذا نص المقري بتمامه، مع اختلاف طفيف جداً مع بعض المصادر التي ذكرت الحكاية، وتكاد تكون العبارات متطابقة وبذات الوصف، حيث وردت في كتاب ذكر بلاد الأندلس لمؤلف مجهول، بيد أنه وضع لها عنوانًا واضحًا: " الخبر عن البيلتين اللتين صنعهما أبو القاسم بن عبدالرحمن الزرقال بطليطلة"[٢]، ووصفهما بمثل الوصف السالف، كما أورد الخبر ذاته الزهري في كتابه الجغرافيا، وبذات الوصف والعبارات على سبيل التماهي والتطابق، وسردها بمثل الوصف السابق[٣].

والنص يحمل وصفًا لعمل نافورتين متطابقيتين، وفي ثنايا ذلك الوصف كثير مما يقال ويشرح ويوصف، مع كمٍّ من التساؤلات حول جملة الموضوع، وتلك الاستيضاحات تصلح تمامًا لأن تكون تساؤلات بحثنا هذا: من الذي صنع البيلتين (النافورتين)؟ وما مدى حذقه الهندسي، وما الدافع والفكرة الأساس من صنعهما، وما صفة هاتين البيلتين من الناحية الهندسية؟ وأي قانون هندسي يقوم عليه عملهما؟ وما الغرض الأساس من صنعتهما؟ وما علاقة ألفونس السابع ببطلان عمل تلكم البيلتين، وما دور حنين اليهودي في إفساد عمل البليتين وخرابهما، ثم ما النتائج المتوخاة من كشف قصة هاتين البيلتين؟ وما مدى إسهامها في إظهار المستوى الكبير الذي ارتقته صنائع مهندسي الأندلس العجائبية؟

٢-صنعة النوافير في الأندلس

تنبه المهندسون والصنّاع المسلمون الأندلسيون إلى بعض الفكر الهندسية التي تحمل طابعًا جماليًا وربما فلسفيًا، وذلك بتوظيف الماء في الحدائق والمساجد والقصور والدور، فالماء يرطب الهواء ويخفض لفحات الحر، كما يعزف بصوت خريره وتساقط قطراته تباعًا معزوفات طبيعية تطرب النفس وتربط الإنسان بالمحيط والطبيعة. كما تنبهوا إلى أن انعكاس الموجودات والصور والمباني والسماء على سطح الماء يعطي صورًا من جماليات المكان وبناياته وسمائه ومحيطه، وبين أشعة الشمس ورفلات الظل تتغير الصور المنعكسة على سطح مياه الغدران والبرك والنافورات، فوق أن الماء كان أداة الطهارة وله علاقة بالدين ذاته، فالإسلام لا ريب دين التطهر والماء.

لذلك سعى المهندسون لجلب تلك الصورة الجميلة التي تحدثها المياه إلى مدائنهم وقصورها وساحاتها ومساجدها، لما تضفيه من سحر وجمال، فتنافس الصنّاع والمهرة والمهندسون في تزويد القصور والدور والحدائق والمساجد بالنوافير التي تنوعت واختلفت وتعددت أشكالها وأحجامها وطرائق انسياح مياهها[٤]، واختلف نموذج النافورة داخل القصور أو الحدائق أو البيوت أو المساجد وخارجها اعتمادًا على المصدر المائي وغزارته، ويمكن أن يكون سبب الاختلاف ليس في الشكل وإنما في طريقة الصنع أيضًا.

فظهرت في جلّ مدن الأندلس نوافير كثيرة تعصى على الحصر والتعداد، وبينها اختلافات وافتراقات[٥] وتشابهات وتماهيات عديدة من حيث صور وقوة خروج الماء من النافورة، وعدد مسارب خروجه وزوايا سقوط المياه بعد ارتفاعها، فظهرت نافورات واقفة رأسية وأخرى مستديرة كروية وأخرى مخروطية وغيرها هرمية وأخريات بأشكال لا حصر لها ولا عدّ لنماذجها، ومن أشهر الأشكال الهندسية للنوافير الأندلسية تلك المربعة الأحواض وذات الحوض المستطيل، وهناك الدائرية الإسطوانية[٦]، وهناك المخمسة الحوض والسداسية وهناك المثمنة، وذات الفصوص وغيرها.

وفي المقابل تنوعت أساليب هندسة حركة الماء في النافورات، فهناك نوع بسيط غير معقد تندفع الماء فيه إلى أعلى مباشرة ويسقط مباشرة بالقرب من زاوية ارتفاعه بفعل الجاذبية، وهذه النوافير كانت شائعة في بيوت وقصور الأندلس، وتكون أحيانًا مثبتة في تمثال حيوان أو من صخر ونحوه.

بيد أن الملفت في هندسة النوافير الأندلسية دقة حساب عرض حوض النافورة وقطرها، بحيث يراعى مكان سقوط الماء بعد حساب قوة ارتفاعه وزاوية سقوطه حتى لا يخرج عن النافورة، وهذا يعني احتساب مسافة ارتفاع الماء الخارج من النافورة، والمسافة بين الماء المقذوف من النافورة ونهاية جسم النافورة سواء كان دائريًا أو مثمنًا أو غير ذلك، ولعل أعجب أمثولة هندسية مائية في تاريخ الأندلس هي نافورة الأسود الاثني عشر في بهو قصر الحمراء بغرناطة المعروف ببهو السباع[٧]، الذي تتوسطه تلك النافورة التي يعود تاريخ هندستها إلى زمن بني الأحمر حكّام غرناطة (٦٢٩– ٨٩٧هـ/ ١٢٣٢–١٤٩٢م)، وهي نافورة رخامية بالكامل، يبلغ قطرها حوالي ثلاثة أمتار ونصف المتر، وعمقها خمسة وستون مترًا، ويحمل حوضها المرمري المستدير الضخم اثني عشر أسدًا منحوتة من الرخام الأبيض، ويبلغ ارتفاع كل أسد منها نحو اثنان وثمانون سنتيمترًا، تخرج المياه من أفواهها تباعًا لتصب في أربع قنوات متقاطعة، تتجه مياه اثنتين منها إلى نافورتين رخاميتين صغيرتين داخل قاعتين: واحدة في شمال الفناء وأخرى في جنوبه[٨].

ووجه الإبداع في تلك النافورة فوق شكلها وحركة المياه المنسابة فيها، أنها كانت في الواقع عبارة عن ساعة مائية، يشير خروج الماء من أفواه الأسود فيها إلى ساعات النهار، ثم إلى ساعات الليل، بحيث يخرج الماء عند الساعة الواحدة من فم أول أسد، ويستمر الماء منسابًا من فم ذلك الأسد ساعةً بتمامها، وعند الساعة الثانية يبدأ الماء بالخروج من فم الأسد المجاور له، مع استمرار خروج الماء من فم الأسد الأول، فيعرف الناظر أن الوقت يشير إلى ثاني ساعات النهار، ويستمران إلى بداية ثالث ساعات النهار، فيبدأ الماء بالخروج من فم الأسد الثالث، مشيرًا إلى الساعة الثالثة، إلى أن يخرج الماء من أفواه جميع الأسود عند الساعة الثانية عشرة، منتصف اليوم تمامًا.

٣-البيلة: المفهوم والوصف

البيلتان مثنى مفرده (بيلة)، والبيلة في عرف الأندلسيين هي حوض النافورة المائية[٩]، وقد ورد ذكرها عند ابن جبير في رحلته بأن البيلة كلمة معربة وعبّر بها عن حوض النافورة[١٠]، واستخدم البعض اللفظ للتعبير عن حوض الماء المتسع الذي يتوضأ فيه الناس[١١]، واعتبرها البعض تسمية لصهريج الماء المصنوع من الرخام والملتصق بالأرض، وأن الكلمة إسبانية المنشأ[١٢]، وقد أوردها رينهارت دوزي في تكملة معجمه على أنها كلمة لفظة إسبانية يراد بيها حوض النافورة[١٣]، كما أطلق اللفظ في بعض بلاد المغرب والأندلس على السور أو القناة التي تدخل الماء إلى المكان أو البلد[١٤]، بيد أن البيلة تخص النافورة المائية، وإن كان بعض مؤرخي المغرب والأندلس قد فصّلوا بأن البيلة تختص بتسمية الجزء الأعلى من النافورة فيما يسمى أسفلها الخصة[١٥]، وعلى هذا فالبيلة هي الحوض الأعلى من كل النافورة فيما يسمى الحوض الأسفل الخصة، ففي تكملة المعاجم العربية ورد وصف لمحل البيلة من الخصة، بحيث أن الماء يأتي أولًا إلى البيلة حتى تمتليء "فإذا امتلأت البيلة انساب الماء إلى الخصة"[١٦]، وقد فصّل الجزنائي في كتابه جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس صنعة دار الوضوء التي بناها رجل يقال له موسى بن سدّان بجامع القرويين عام ٥٩٩ للهجرة، بوصفٍ شاملٍ لعمل تلك الميضأة، وذكر أن الماء ينصب من أنابيب في البيلة، ثم ينحدر منها وينصرف إلى الخصة[١٧].

٤-صانع بيلتا طليطلة

ورد في نص المقري اسم الذي صنع النافورتين مفردًا حين قال: "صنعهما عبدالرحمن"[١٨]، ولا يحيلنا المقري في إيراده الاسم مفردًا لأي مصدر غيره، كما وأنه لم يذكر اسمه كاملًا بخلاف الزهري الذي قال: "صنعهما أبو القاسم عبدالرحمن الشهير بالزرقال"[١٩]، كما أورده صاحب كتاب تاريخ الأندلس بذات الكنية والاسم واللقب[٢٠]، فمن هو أبو القاسم عبدالرحمن الزرقالي؟ وما أشهر أعماله الهندسية؟ وكيف هي حياته العلمية والمهنية؟

ومن الواجب والإنصاف للرجل إيراد ترجمته وسيرته حسبما تسعف بها المصادر، في الوقت الذي أصاب بعض المحدثين لبس غير مقصود بين هذا الرجل وغيره من علماء عصره الأندلسيين، وسبب اللبس هنا التصحيف الطفيف بين لقبه(الزرقالي)، ولقب (ابن

زرقالة) الذي حمله عالم فلك مشهور جدًا من أهل الأندلس وهو أبو إسحاق إبراهيم بن يحي التجيبي النقاش المشهور بابن زرقالة[٢١]، والذي تصحف عند المصنفين ما بين ابن زرقالة والزرقالي الذي كان بارعًا جدًا في رصد النجوم وعلل الأزياج الفلكية[٢٢]، وله مؤلفات وتصانيف عدة[٢٣]، بيد أن ابن زرقالة الفلكي توفي سنة ٤٩٣ه في قرطبة[٢٤]، فكان سابقًا لزمن خراب البيلتين الذي وقع سنة ٥٢٨هـ بحسب المقري[٢٥]، ووفق صاحب كتاب تاريخ الأندلس[٢٦]، ولم يكن في تراجم الزرقالي ذكر لصنعه بيلة مائية.

وعلى هذا فبين وفاة ابن زرقالة الفلكي سنة ٤٩٣ه، وخراب البيلتين بيد ملك نصراني ومنجم يهودي سنة ٥٢٧هـ أو ٥٢٨هـ، حوالي ثلاثون سنة كاملة، مع الأخذ في الاعتبار أن ولادة ابن زرقالة الفلكي كانت سنة ٤٢٠هـ[٢٧].

٥-الدافع العلمي التنافسي وراء عمل البيلتين

تناهى إلى مسامع عبدالرحمن الزرقالي ما أورده المسعودي عن صانع تماثيل من أهل الهند بحسب ألفاظ المقري وغيره، صنع تمثالًا يدور بإصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فأعجب عبدالرحمن الزرقالي بما كتبه المسعودي عن ذلك التمثال وصنعته الهندسية العجيبة، وبمراجعة المسعودي تبين أن المقصود تمثال من عجائب الاسكندرية وليس الهند، ففي كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر يصف المسعودي بعض عجائب بناء الاسكندرية من قديم زمانها إلى وقته، فيورد ضمن تلك العجائب وصف ذلك التمثال، فيقول: "وفيها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك، وإذا علت في الفلك فأصبعه مشيرة نحوها، فإذا انخفضت انخفضت يده سفلًا، يدور معها حيثما دارت"[٢٨].

ويبدو جليًا أن لا علاقة للنص بالهند ولا بعجائبها، إنما الحديث عن تمثال في الإسكندرية، فما معنى قول المقري أن عبدالرحمن صنع البيلتين، "عندما سمع بخبر الطلسم الذي بمدينة أرين من أرض الهند، وقد ذكره المسعودي، وأنه يدور بإصبعه من طلوع الفجر إلى غروب الشمس"[٢٩]، في حين جعل بعض المصادريين ذلك التمثال من عجائب الإسكندرية لا الهند، فقد أورد شيخ الربوة الدمشقي في كتاب نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، أن التمثال من عجائب الإسكندرية، فقال: "منها تمثال رجل قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك يدور معها حيثما دارت..."[٣٠]، كما تحدث عنه المقريزي كأعجوبة في الإسكندرية فقال: "منها تمثال قد أشار بسبابته من يده اليمنى نحو الشمس أينما كانت من الفلك، وإذا علت في الفلك فأصبعه يشير بها نحوها، فإذا انخفضت صارت يده سفلاً، تدور معها حيثما دارت"[٣١].

أما النص الذي يذكر الهند فموجود عند الزهري في كتاب الجغرافية، وفيه يحيل إلى المسعودي في مروج الذهب، حيث قال نصًا في وصفه لجزيرة أرين الهندية: "في جزيرة أرين من العجائب المشهورة المنارة التي وصفها المسعودي في كتاب مروج الذهب، وهي منارة عظيمة ارتفاعها كارتفاع منارة الإسكندرية، وفي وسطها طلسم من الذهب ظهره مما يلي الجنوب ووجهه مما يلي الشمال، ويده اليسرى مما يلي وسط المشرق وذراعه اليمنى مما يلي وسط المغرب، وقد قبض أنامل كفه ومدّ السبابة إلى وسط مطلع الشمس، فإذا طلعت كان إصبعه معها حتى تكون على سمت رأسه، فيكون إصبعه واقفًا معها، فإذا مالت الشمس إلى المغرب مال إصبعه معها فلا يزال كذلك حتى تغيب الشمس من المغرب، فيكون إصبعه في أسفل أفق المغرب، فإذا جنّ الليل أشار بإصبعه نحو الأرض"[٣٢].

وفي كل الأحوال تبقى مسألة تأثر الزرقالي بفكرة التمثال الذي يدور بإصبعه مع الشمس واردة حقيقةً، بيد أن تمكنه من صنعته الهندسية قادته إلى ابتكار حركة البيلتين دون أن يرى ذلك التمثال أو يقرأ شيئًا عن طريقة صنعه وهندسته، ومن ناحية ثانية فإن مقارنة حركة إصبع التمثال بحركة البيلتين تبقى غير عادلة، لأن التمثال على ما يبدو من وصفه يدور بإصبعه نحو الشمس من الشروق إلى المغرب، أما بيلتا الزرقالي ففيهما حركة امتلاء ثم حركة تفريغ للماء في النافورتين بحساب شهري قمري دقيق، يعتمد فكرة امتلاء البيلتين من أول الشهر إلى ليلة النصف منه، ومن بداية النصف الثاني من الشهر تبدأ عملية التفريغ التي تنتهي في آخر

يوم في الشهر، لتعود الكرة في اليوم التالي الموافق للأول من الشهر القمري اللاحق، فبحسب الوصف الوارد عن البيلتين يمكننا إدراك الدقة الكبيرة والصنعة الدقيقة في حركة المياه داخل البيلتين.

٦-علم الحيل كأساس لعمل البيلتين

للإنصاف فإن علماء المسلمين قد بلغوا شأوًا وارتقوا شأنًا في شتى صنوف العلم، وفي مجال الهندسة كان لهم السبق فيما عرف عندهم بعلم الحيل، وهو القائم على القواعد الهندسية والفيزيائية والهيدورستاتيكية ونحوها، ما يدل على معرفتهم الأشياء الحسنة وقدرتهم على حمل هذه الأثقال في البر والبحر مع قلة الآلات الرافعة وقصور علم الحيل (علم التقانة) عما هو عليه في عصرنا[٣٣]، ويكفي على سبيل القصر لا الحصر أن نستذكر مثلًا العالم بديع الزمان الجزري (ت. ٦٠٢ه/١٢٠٦م) الذي اعتبره البعض من رواد الهندسة الميكانيكية العالميين[٣٤]، وهو صاحب كتاب الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل[٣٥]، وهو كتاب زاخر بطرق ونظريات هندسية وميكانيكية مثل الساعات المائية، وآلات رفع المياه وغيرها الكثير[٣٦].

٧-شكل البيلتين

مما ورد في النصوص التي ذكرت وصف البيلتين بالإمكان تصوّر شكلهما، حيث أنهما منصوبتان فوق مياه نهر تاجة الذي يكاد يمر بكامل طليطلة[٣٧]، وتحديدًا بدرب الدباغين المسمى باب الدباغين الذي يشرف على نهر تاجة[٣٨]، وهما في بيت مجوف حسب الوصف المصادري، ومعنى في بيت مجوف أنهما داخل بناء مجوف يحيط بهما، والواضح أنهما داخل كرتين يجمعهما بناء واحد مثل البيت، وتم وضعهما وتثبيتهما " في جوف النهر"[٣٩]، وهذا معناه أنهم يبرزان فوق وجه الماء تمامًا بحيث يمر بهما النهر في انسيابه.

وورد وصفٌ لانسياب المياه تحت قنطرة نهر تاجة في طليطلة لدى الزياني في كتابه (الترجمانة الكبرى)، ويمكن من خلاله تخيل اختلاف وتيرة انحدار المياه من مكان لآخر في بعض مواضع نهر تاجة الذي يخترق طليطلة على وجه التقريب، ومساعدة بعض تلك الانحدارات المائية في إقامة النواعير باستغلال شدة انحدار المياه في بعض النواحي، فيقول الزياني عن مدينة طليطلة: " يشقها نهر تاجة، ولها قنطرة عظيمة عجيبة، قوس واحد يجري الماء فيه كالميزاب بسرعة، وفي الوادي ناعورة من النحاس علوها تسعون ذراعًا بالرشاشي[٤٠]، تُصعد الماء إلى أعلى القنطرة فيجري على ظهرها ويدخل إلى المدينة"[٤١]، وهذا النص يحيل إلى فهم استغلال الانحدارات الحاصلة في بعض جهات النهر في أعمال مائية، حتى ليوصف مستوى انحدار الماء بالميزاب في زاوية سقوطه، ما ساهم في تركيب روافع من النحاس ونحوه تصل إلى ارتفاعات غير قليلة، تقوم بواسطة حركة تدفق المياه بالدوران لرفع الماء داخلها ثم نقله إلى المدينة في مجاري خاصة، بيد أن الزرقالي حين نصب البيلتين في جوف النهر عمد إلى اختيار مكان محدد تنساب فيه المياه بانسيابية وانسياح ما يحقق له الانسياب المطلوب تمامًا.

ومن هنا يمكننا أن نعتمد المخيال التصوري لاستغلال حركة المياه في إقامة آلات وتركيب قناطر وصنع آلات، تساهم المياه بسرعة تدفقها في تحريكها وضمان دورانها، وبالإمكان وضع حركة البيلتين المائيتين في ذات السياق، وأن تدفق المياه داخلهما يسير وفق ذات النهج المعتمد على مستوى انحدار وسقوط المياه في إحدى ممرات النهر، وتبقى الفكرة في دقة التحكم في مستويات المياه الداخلة للبيلتين بما يتوافق ومرور الوقت والأيام والليالي، وبذات النسق التحكم الدقيق في مستويات الإفراغ بذات الدقة والتحكم في مناسيب المياه الخارجة من البيلتين، باعتماد مواقيت الأيام والليالي، وبما يناسب تمامًا تمام الشهر القمري.

ويبدو هذا المخيال والتصور ممكن الحدوث إذا تم طرحه على نظام عمل البيلتين، اعتمادًا على أن قوة تدفق وجريان وسقوط المياه كفيلة جميعها بإحداث حركة ميكانيكية وفق سرعة وإيقاع تدفق المياه، ويكمن نبوغ الإنسان في قدرته على توجيه نواتج ذلك التدفق والتحكم فيه قوةً وضعفًا، وبالتالي قدرته على التحكم في ملء جهاز معين بتلك المياه الجارية أو إفراغه منها بذات الفكرة وذات القانون.

وعليه فبالإمكان القول إن عبد الرحمن الزرقالي عمد إلى نصب بيلتيه في جهة محددة من نهر تاجة، وفي موضع به حركة مياه بقدر ومقدار يعين على وصول المياه إلى أسفل البيلتين بيسر وسهولة، وصنع كرتين متجاورتين تمثلان جسمي البيلتين في وسط النهر، ليظهر الشكل كأنهما داخل كرة واحدة، فبحسب وصف بعض المصادريين" كانت البيلتان في بيت واحد"[٤٢]، وصنع مسارب ومداخل دقيقة للمياه في إحدى جهات كل بيلة، يعين سمكها وطريقة تركيبها على ضمان تسرب مقدار محدد من المياه إلى داخل كرتي البيلتين في زمن متسق يعادل تماماً ما خطط له من تقسيم زمني يتطابق في نهاية الملء مع انتصاف الشهر، ثم عمد إلى ابتكار طريقة تجعل الامتلاء كعمل ميكانيكي بداية لعملية عكسية بحيث تسد مسارب دخول المياه إلى البيلتين، وتبدأ مسارب أخرى تضمن خروج ذات الماء الداخل إلى البيلتين بذات النسق والمقدار الذي دخلت به، وعبّر الزهري عن ذلك التناسق والتناغم بقوله:" ماء داخل وماء خارج"[٤٣].

ومن زاوية أخرى فإن بالإمكان القول إن الزرقالي حين اختار موضع البيلتين الدقيق، كان واضعاً في حسبانه وحساباته حركة المد والجزر التي تحدث بشكل طبيعي ودوري لمياه النهر كما غيرها من مياه البحار والأنهار، بحيث تساعده عملية المد في ضمان وصول المياه التي يرغب دخولها البيلتين إلى مساربها ومداخلها، وتساهم حركة الجزر في انسياح وخروج الكميات المقدرة من مياه البيلتين.

٨-فكرة عمل البيلتين

للوصول إلى طريقة عمل البيلتين، وجب بدءًا مراجعة الوصف الوارد عنهما، وحركية المياه فيهما، ثم طرح ذلك على النظريات الهندسية وعلم الحركة الذي وصله علماء المسلمين في العصور الوسطى، ثم مقارنتها مع الأساليب الديناميكية التي تعتبر من مسلمات علم الحركة اليوم، مع الأخذ في الحسبان أن هناك حساباً ومقاييس دقيقة للمياه في البيلتين، بمعنى أن الامتلاء مقسوم على أيام الشهر القمري تماماً، بل تعدى الأمر أن عملية الامتلاء تسير وفق نسق دقيق يعتمد على وحدات قياس أساسها اكتمال البدر ليلة النصف من الشهر القمري، أي أن العدد أربعة عشر (١٤) فيصل في عملية تناسق مقاسم مناسيب المياه، وهذا استدعى من الزرقالي التحكم في حركة ارتفاع المياه داخل البيلتين في مقادير متساوية مقسومة على العدد أربعة عشر(١٤)، ثم البدء في تناقص المياه في نفس الفترة.

والدليل على دقة توزيع مناسيب المياه بشكل دقيق وفراغها بنفس دقة الطريقة، أن النصف الأول من اليوم الأول من الشهر، وهو يوم بداية عملية ملء المياه، يصل منسوب المياه من جملة سعة البيلتين ربع السبع، وفي النصف الثاني من ذلك اليوم الأول يصل المنسوب من مياه البيلتين إلى ما يعدل تماماً نصف السبع، وعلى هذا فإن ملء السبع يحتاج لفترة يومين كاملين، وهذا معناه أن امتلاء البيلتين يعتمد على نظام يمكن أن نسميه (التسبيع) أي القسمة على سبعة، بمعنى أن قمة منسوب المياه صعوداً مقسم إلى سبعة أسباع(٧/٧)، ويحتاج كل سبع منها إلى يومين كاملين، وبهذا تحتاج نسبة سبعة أسباع إلى أربعة عشر يوماً بالتمام والكمال.

وبعملية حسابية رقمية يكون تدرج ارتفاع الماء في البيلتين يحمل إيقاعاً جبرياً رقمياً ثابتاً، يسير وفق النهج المعتمد على التدرج الآتي:

- النصف الأول من اليوم الأول = ربع السبع.
- النصف الثاني من اليوم الأول= نصف السبع.
- النصف الأول من اليوم الثاني = ثلاثة أرباع السبع.
- النصف الثاني من اليوم الثاني= السبع تماماً.

وهنا تكون نسبة الموجود من المياه تعادل سبع السعة الكاملة للبيلتين(١/٧).

- النصف الأول من اليوم الثالث = سبعاً وربع السبع.
- النصف الثاني من اليوم الثالث= سبعاً ونصف السبع.
- النصف الأول من اليوم الرابع = سبعاً وثلاثة أرباع السبع.
- النصف الثاني من اليوم الرابع = سبعان.

وهنا تكون قد مرت أربعة أيام كاملة من بدء عملية الامتلاء، ويكون معدل الملء متوافقاً مع ما يعادل السبعين(٢/٧) من جملة السعة الكاملة للبيلتين.

- النصف الأول من اليوم الخامس = سبعان وربع السبع.

- النصف الثاني من اليوم الخامس= سبعان ونصف السبع.
- النصف الأول من اليوم السادس = سبعان وثلاثة أرباع السبع.
- النصف الثاني من اليوم السادس = ثلاثة أسباع.

وبذا تكون قد مرت ستة أيام كاملة من بدء عملية الامتلاء، ويكون معدل الملء حينها ما يعادل ثلاثة من سبعة (٧/٣) من جملة السعة الكاملة للبيلتين.

- النصف الأول من اليوم السابع = ثلاثة أسباع وربع السبع.
- النصف الثاني من اليوم السابع= ثلاثة أسباع ونصف السبع.
- النصف الأول من اليوم الثامن = ثلاثة أسباع وثلاثة أرباع السبع.
- النصف الثاني من اليوم الثامن = أربعة أسباع.

وفي هذه المرحلة تكون قد مرت ثمانية أيام كاملة من بدء عملية الامتلاء، ويكون معدل الملء متوافقًا مع ما يعادل أربعة من سبعة (٧/٤) من السعة الكاملة مع ملاحظة أن انتصاف هذه المرحلة هو في الواقع انتصاف عملية الملء برمتها، حيث إن نسبة المياه في النصف الثاني من اليوم السابع (ثلاثة أسباع ونصف السبع)، هي في الواقع نصف مرحلة الملء، وهي كذلك صحيحة حسابيًا وجبريًا لأن (ثلاثة أسباع ونصف السبع) تساوي النصف تمامًا.

- النصف الأول من اليوم التاسع = أربعة أسباع وربع السبع.
- النصف الثاني من اليوم التاسع= أربعة أسباع ونصف السبع.
- النصف الأول من اليوم العاشر = أربعة أسباع وثلاثة أرباع السبع.
- النصف الثاني من اليوم العاشر = خمسة أسباع.

وبذا تكون قد مرت عشرة أيام من بدء عملية الامتلاء، ويكون معدل الملء حينها ما يعادل خمسة من سبعة (٧/٥) من جملة السعة الكاملة للبيلتين.

- النصف الأول من اليوم الحادي عشر = خمسة أسباع وربع السبع.
- النصف الثاني من اليوم الحادي عشر= خمسة أسباع ونصف السبع.
- النصف الأول من اليوم الثاني عشر = خمسة أسباع وثلاثة أرباع السبع.
- النصف الثاني من اليوم الثاني عشر = ستة أسباع.

وفي هذه المرحلة تكون قد مرّ اثنا عشر يومًا منذ بدء عملية الامتلاء، ويكون معدل الملء حينها ما يعادل ستة من سبعة (٧/٦) من جملة السعة الكاملة.

- النصف الأول من اليوم الثالث عشر = ستة أسباع وربع السبع.
- النصف الثاني من اليوم الثالث عشر= ستة أسباع ونصف السبع.
- النصف الأول من اليوم الرابع عشر = ستة أسباع وثلاثة أرباع السبع.
- النصف الثاني من اليوم الرابع عشر = سبعة أسباع (امتلاء كامل).

ومن هذه النقطة تبدأ البيلتان في عملية عكسية تمامًا هدفها البدء في إنقاص معدل المياه في البيلتين بنفس الوتيرة والمعدل الذي سارت به عملية الامتلاء، وتحدث عملية التفريغ وفق النسق التنازلي بالنقص لا بالزيادة، وعندما يصل الشهر القمري إلى يومه الأخير مساء التاسع والعشرين منه، تكون البيلتان قد فرغتا في انتظار بدء العملية المكررة صباح اليوم التالي ومن جديد.

٩-البيلتان: نافورتا ماء وآلة توقيت

إن تفحص إيقاع عمل البيلتين يشير إلى الناحية الجمالية المتمثلة في حركة الماء ذات الإيقاع الثابت طيلة الشهر القمري، علاوة على المنظر الجمالي وتتابع تسرب الماء داخل البيلتين بإيقاع زمني رتيب لكنه ثابت متوازن، وفوق ذلك فإن النتيجة المستدركة من مراقبة حركة الماء داخل البيلتين يعطي انطباعًا بعلاقة كل ذلك بالتوقيت والزمن، لأن مقاييس ملء وفراغ البيلتين مرتبطة بأجزاء اليوم الواحد، إذ الواضح أن اليوم الواحد بنهاره وليله يكفي تمامًا لبلوغ سبع سعة البيلتين، والمعنى أن ساعات الليل والنهار تعادل سبع المدى المقصود للامتلاء وهو

نصف الشهر أي أربعة عشر يومًا بلياليها، ثم حركة إفراغ البيلتين بنفس القدر والمقدار، بمعدل السبع لليوم والليلة إلى تمام الإفراغ المتماهي مع ختام الشهر القمري، بأربعة عشر يومًا أخرى بلياليها.

ولتقريب المسألة رياضيًا وربطها بالوقت والزمن فإن الماء يبدأ في دخول البيلتين من ليلة اليوم الأول من الشهر، فإذا انتصف اليوم الأول بلغ معدل الماء من كامل سعة البيلتين ربع السبع، وهنا نخمن بأن عبدالرحمن الزرقالي قد وضع علامة تماثل علامات قياس مناسيب المياه الخاصة بالأنهار والتي يعرف من خلالها منسوب الفيضانات والنقصان، وهي مشهورة عبر التاريخ، أما علامة الزرقالي فتشير إلى ربع سبع السعة الكاملة وتعادل تمامًا منتصف اليوم الأول من الشهر، فإذا انتصف ليل ذلك اليوم تضاعفت المياه عما كانت منتصف النهار فتبلغ نصف السبع، وذلك يعادل تمام يوم من الشهر.

ومعنى ذلك أن تتبع العلامات التي افترضنا أن الزرقالي قد وضعها لقياس مناسيب المياه تسير وفق توزيع اليوم والليلة، فالعلامة الأولى لمنتصف اليوم الأول، والتي تليها تعني تمام اليوم الأول من الشهر، والعلامة الثالثة تعني انتصاف اليوم الثاني والرابعة تعني تمامه، وهكذا دواليك إلى تمام منتصف الشهر، وهذا معناه أن عدد العلامات يبلغ أربعة عشر علامة من أسفل البيلتين إلى أعلاهما، وتستخدم نفس العلامات لمعرفة أيام الشهر ما بعد النصف، فالعلامة التي دلت بالأمس على امتلاء البيلتين وبلوغ السهر منتصفه، يبدأ الحسبان منها في اليوم التالي عند بداية حركة النقصان وبذات المعدل، بحيث تكون العلامة التالية للعلامة الأعلى تشير إلى الخامس عشر من الشهر، ويكون الفراغ بمعدل ربع السبع لكل نصف يوم، وسبع لليوم الكامل وهكذا.

والسؤال الملح هنا، ما علاقة كل ذلك بالمواقيت والساعة، خاصةً أن أحد المحدثين حين ذكر هذا العمل الهندسي قال حرفيًا عن تلكم البيلتين: "كانتا عبارة عن إناءين دائريين ضخمين داخل بناء معين على نهر التاج، يشيران إلى ساعات الليل والنهار، وإلى أطوار القمر، ولقد أشاد كتّاب هذه الحقبة أيما إشادة بهاتين الساعتين المائيتين، وظلتا تعملان لغاية سنة ١١٣٣م، وهو التاريخ الذي أمر فيه الملك المسيحي ألفونسو السابع ــــ إبان استرداد طليطلة ـــــ اليهودي الفلكي ابن زبارة Ben zebara بتفكيكهما لمعرفة الطريقة التي يعملان بها، إلا أن ابن زبارة لم يتمكن لا من اكتشافها، ولا من إعادة تركيب الساعتين من جديد"[٤٤].

١٠-دقة نسبة المياه في البيلتين

من ضمن وجوه دقة هندسة البيلتين مائيًا أن تدخل العنصر البشري لا يفسد ولا يخلخل نظام مناسيب المياه بهما، بمعنى أنه لو تدخل الإنسان وزاد أو أنقص من المياه في البيلتين، فإن نظام عملهما يتدخل بشكل ذاتي هندسي ويعيد النسبة من المياه موافقة للوقت والنسبة الصحيحة، ويبدو أن عمل البيلتين قد خضع للتجريب من باب التأكد تارة ومن باب الفضول تارة أخرى، فقد ورد أنه لو تدخل أحد وزاد أو أنقص من المياه، عادت وبشكل ذاتي إلى النسبة التي يفترض أن تكون فيها ساعتها وحينها، وهذا معناه أن النسبة الصحيحة المقصودة والمشيرة إلى الوقت في البيلتين سيظل ثابتًا حتى وإن حاول أحدٌ أن يزيد المياه أو ينقصها في البيلتين، يقول الزهري:" إذا تكلف أحد حين يكون فيهما الماء دون امتلاء، وجلب إليهما الماء وملأهما، بلعتا ذلك الماء حتى لا يبقى فيهما شيء إلا ما كان فيهما، فهذا ماء داخل وهذا ماء خارج، وكذلك إن تكلف أحدٌ عند امتلائهما أن يفرغ ماءهما حتى لا يبقى فيهما شيء، ثم أزاح بيده عنهما، خرج فيهما من الماء ما يملؤهما في ساعة، فهذا هو العجب العجاب"[٤٥]، وذات العبارات تقريبًا وبذات المعاني موجودة لدى المقري[٤٦] وفي كتاب تاريخ الأندلس[٤٧].

فأي نظام وأية تقنية ابتدعها الزرقالي في الحفاظ على كمية ومنسوب المياه داخل البيلتين حتى وإن حاول أحدهم زيادة أو إنقاص المياه داخل البيلتين؟، بحيث حتى وإن حاول أحدهم زيادة الماء فيهما، قامتا من ذاتهما بإنقاص المياه حتى تصل إلى المستوى الذي يفترض أن تكون فيه، وكذا إن تم إنقاص شيء من الماء قامتا بتعويض الناقص حتى يصل الماء إلى المستوى الصحيح المقصود.

١١-ملك إسباني ومنجم يهودي يفسدان اختراع عالم مسلم

رغم محاولتنا عدم وضع الأمر في إطار ديني أو في نهج عقدي أو مسلك عرقي، بحيث يظل اختراع البيلتين وعملهما في إطاره الهندسي العلمي الحضاري ولا يعدوه إلى إسقاطات أخرى، إلا أن واقع الحال قاد إلى الحديث عن إفساد وتخريب البيلتين في بيئة عدائية وبدوافع دينية لا نجد مندوحة عن ذكرها، فالمخترع مسلم وفي مدينة إسلامية، وهو عالم مجتهد واختراعه عمل إنساني حضاري علمي لم يقصد به غير العلم والتنافس العلمي، بيد أن إفساد ذلك العمل الهندسي العلمي تم بأمر ملك إسباني مسيحي وبتحريضٍ وفعلٍ من منجمٍ يهودي، ما يحيل إلى أن الحكاية برمتها فرضت هذا التصور، إذ ما الغاية المتوخاة من تفكيك وتخريب هذه الصنعة الجمالية والآلة الهندسية التي فوق عملها ومنظرها هي مؤقتة شهرية؟ فهل كان للتباغض العلمي دور في ذلك؟ أم كان الاختلاف العقدي والحزازات الدينية حاضرة وماثلة وقتئذ؟ أم شاءت ظروف هذا العمل الهندسي البديع أن يصنعه الزرقالي المسلم، ويفسده منجم يهودي بأمر ملك إسباني؟

ولتقريب صورة ذلك المشهد التخريبي، نحاول قبلاً معرفة شخصية المنجم اليهودي الذي طلب من الملك الإسباني أن يمكنه من تفكيك البيلتين، وقد مر سلفًا وفق المقري أنه حنين بن ربوة اليهودي[٤٨]، والغريب أن لا علاقة له بالعلم بل هو إلى السحر والتنجيم أقرب، بدليل أنه اشتهر بتقربه من ألفونس السابع عن طريق قراءة الطالع له، ولكي يثبت للملك الإسباني أنه متمكّن من السحر والتنجيم، قام على ما يروى بجلب أعداد كبيرة من حمام الأندلس إلى طليطلة[٤٩] حين دخلها ألفونس السابع، في محاولة بأن مقدمه فاتحة خير وسلام، والواضح أنه من عمل السحر، كما أنه أخبر الملك ألفونس بأنه سيدخل غرناطة ويملكها[٥٠] وقيل بل أخبره بأن ولده سيملك ثم سيدخل غرناطة غازيًا[٥١]، وعند البعض حفيده[٥٢]، وعلى هذا فنحن أمام شخصية تعمد الرجم والتنجيم وتبعد عن مقصود العلم والمعرفة.

كانت حجة حنين اليهودي أنه سيفكك هذا العمل الهندسي وينظر فيه، ثم سيعالجه بطريقة أفضل بحيث سيجعل حركة ملء الماء وفراغه تحدث بشكل أسرع وبدل الشهر الكامل ستمتلىء البيلتان وتفرغان في يوم وليلة فقط، وهذا منوط حسب زعمه بنظره فقط في كيفية عمل البيلتين هندسيًا، وقال:" أنا أقلعها وأردها كما كانت وأحسن، أردها تملأ بالنهار وتحصر بالليل"[٥٣]، ووجد هذا العرض صداه في نفس الملك القشتالي الذي تحركت نوازع نفسه ليتم تفكيك البيلتين والنظر في طريقة عملهما، فإن تفوق منجمه اليهودي فذاك ما أراد، ليوصل رسالةً مفادها أن بالإمكان بزّ علوم المسلمين بالأندلس فوق القدرة على هزيمتهم السياسية والعسكرية، وإن لم يحصل المراد فلا ضير ولا أسف على عمل يدل على ريادة المسلمين وتقدمهم العلمي.

وهكذا شرع حنين اليهودي بتفكيك البيلتين، فبدأ بإحداهما وفق بعض الروايات[٥٤]، فأزال بعض أجزائها، فلما نقص بعضها توقفت عن العمل، وكانت النتيجة الفورية أنها" قلعت فانبطلت حركتها، وكان قلعها وفسادها سنة ثمانية وعشرين وخمسمائة من الهجرة"[٥٥]، وظهر الهدف من كل الفكرة، حيث لم تكن النية تمامًا متجهة نحو تطويرها" إنما أراد أن يسرق من صنعتها، فبقيت واحدة معطلة والثانية باقية على حالها"[٥٦].

ومهما كان من أمر إحدى البيلتين التي لم تطلها يد التخريب ذلك اليوم، فإن الثابت أنها تعرضت كأختها للعبث، ربما بعد مدة وربما امتدت إليها يد السنون بالبوار والخراب، لكن عمل المنجم اليهودي بأمر الملك القشتالي أضاع عملًا عجابًا وهندسةً أعجزت معاصريها.

خَاتِمَةٌ

حاول البحث معالجة نص تراثي ورد في عدد محدود من المصادر الأندلسية، يتحدث عن صنعة هندسية غاية في الإبداع في زمنها، ويستهدف وصف آلية عمل (بيلتين) نافورتي ماء، صنعهما مهندس نوافير مائية مسلم يدعى عبدالرحمن الزرقالي، بطريقة آلية ترتبط فيها حركة امتلاء وإفراغ كرتين كبيرتين من الزجاج مثبتتان أعلى النافورتين بطريقة آلية بالكامل، غير أن وجه التقانة فيها يتمثل في أن حركة المياه مرتبطة تمامًا بأيام الشهر القمري، بحيث تبدآن وبنفس كمية المياه في الامتلاء مع بداية اليوم الأول من الشهر القمري إلى منتصف الشهر تمامًا، وتكون نسب المياه في أيام نصف الشهر مقسمة بشكل دقيق إلى ربع سبع السعة الكاملة كل يوم، ونصف سبع السعة كل يومين، وسبع السعة في أربعة أيام، وهكذا دواليك حتى تصل نسبة الامتلاء في اليوم الرابع عشر إلى منتهاها، ثم تبدأ في اليوم التالي لنصف الشهر عملية عكسية بنفس القدر والمقدار لإفراغ ذات المقادير النسبية كل يوم حتى تفرغ البيلتان من الماء نهاية الشهر تمامًا.

وحاول البحث مقاربة وصف عمل البيلتين بما توفر من مقدرة على التصور والتخيل لغياب نصوص تحليلية لأعمال مناظرة لتلكم البيلتين، مع محاولة تقريب فكرة عملهما بفكرة صنعة النوافير الأندلسية التي شاع استخدامها من لدن علماء المسلمين الأندلسيين اعتمادًا على علم الهندسة الآلية الذي كانوا يسمونه علم الحيل.

وأظهر البحث أن حوادث الأندلس السياسية والعسكرية المترافقة مع غزو المدن الإسلامية من قبل الإسبان، أثرت على مشاريع علمية حضارية، نعلم بعضها وانطمس خبر الكثير منها، لكننا نعلم من خلال النصوص القليلة أن البيلتين لقيتا مصير التخريب على يد منجم يهودي وبأمر من الملك ألفونس السابع، بحجة فهم آلية عملهما ومعرفة طريقة عملهما، غير أن النتيجة آلت إلى فساد عملهما وبطلان حركتهما.

وأبان البحث أن دقة عمل البيلتين بلغ حدًا جعل تدخل العنصر البشري بزيادة أو إنقاص منسوب المياه في البيلتين أو في إحداهما، يجعل استجابة البيلتين لحظية ومباشرة بحيث يقومان تلقائيًا بتصحيح نسبة المياه التي يجب أن تكون داخل البيلتين في تلك الساعة من النهار أو الليل.

وأشار البحث إلى أن هذا العمل الهندسي فوق جماليته ودقة صنعته، وغرابة طريقة عمله، وعجائبية إيقاع حركته، يحيل إلى أنه عمل أريد به كذلك الإشارة إلى الأوقات والساعات، لأن نسب التعبئة والتفريغ مرتبطة باليوم الواحد وبنصف اليوم وباليومين وبنصف الشهر، وهذا معناه أننا أمام آلة توقيت دقيقة تعمل وفق إيقاع ثابت لا يؤثر فيه تدخل الإنسان في نسبة المياه زيادة أو نقصانًا.

وصمت البحث عن جزئية دقيقة قد تعتري السائل عن صحة ارتباط ملء وإفراغ البيلتين آليًا وفق الارتباط بالشهر القمري والذي تتراوح أيامه بين تمام شهر ثلاثيني ونقصان يوم منه، وهذا يتطلب حسابات أكثر دقة مما حاول البحث سوقها، ويبقى عذر البحث أنه في جاء سياق تاريخي لا تطبيقي، وبالتالي فإن مسألة تدقيق تلك الحسابات تخرج عن اختصاص البحث برمته، ويبقى الباب مواربًا لبحث رصين متخصص يدرس مثل هاتين البيلتين وطرقة عملهما وحسبان نسبهما وفق اختصاص الهندسة المائية وعلوم الهيدروستاتيكا التي تختص بحركة السوائل وقوانينها.

الملاحق

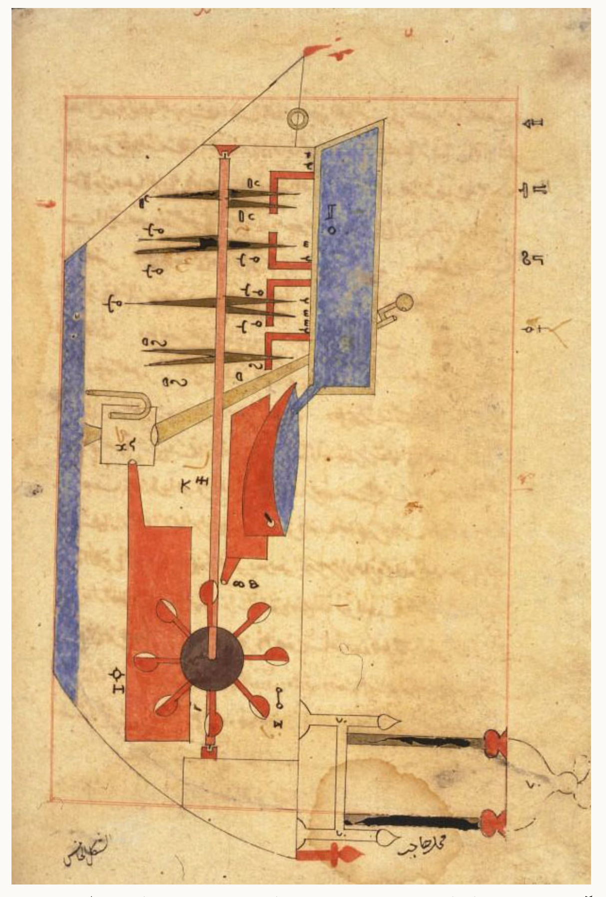
ملحق رقم (١)





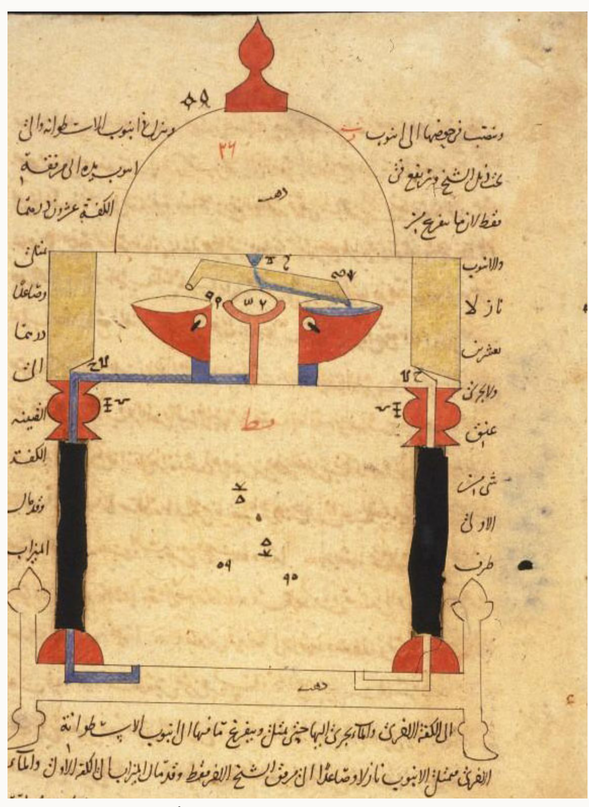
صورتان: حديثة وقديمة لنافورة الماء بقصر السباع في غرناطة، ويلاحظ التفاف السباع الاثني حول جسم النافورة دائريًا، وخروج الماء من أفواهها بالتتابع، إشارة إلى توالي ساعات النهار الاثني عشر، وبذا فالموضوع يحمل إنشاءً هندسيًا متمثلًا في النافورة وبذات الوقت ساعة مائية تشير إلى ساعات النهار، هذا العمل الهندسي الميقاتي ظل لغزًا هندسيًا عسير الفهم صعب التقليد، ويحمل في ثناياه فكرة قريبة التماثل مع فكرة بيلتي طليطلة، من ناحية التحكم في دخول المياه ومناسيبها بشكل دقيق، والصورة القديمة منقولة عن: ألبرت فريدريك كالفرت، غرناطة وقصر الحمراء، ص٢٢٢.

ملحق رقم (٢)



آلة لرفع الماء من تصميم الجزري، ويلاحظ دقة التحكم في حركة مناسيب المياه وحساباتها الدقيقة: الصورة منقولة عن: الجزري، مخطوط الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل، ص٧١ ظهر.

ملحق رقم (٣)



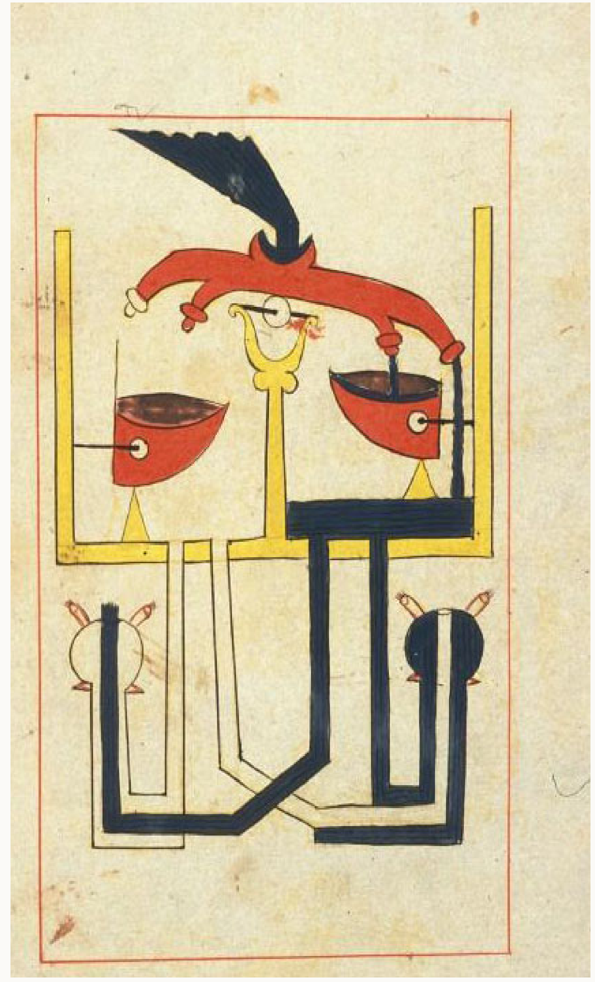
طريقة انتقال المياه بشكل آلي بين الأنابيب، ورفعها إلى الأحواض بنفس النسب وبطريقة تتابعية الصورة عن مخطوط الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل للجزري، ص٨١ ظهر.

ملحق رقم (٤)



شرح ورسم لآلة تقوم بملء الماء بنفس المقدار في عدة أحواض وبفروق زمنية متطابقة مع رسم توضيحي يبين طريقة عمل هذه الآلة: الجزري، مخطوط الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل، ص ١٠٣ وجه.

ملحق رقم (٥)

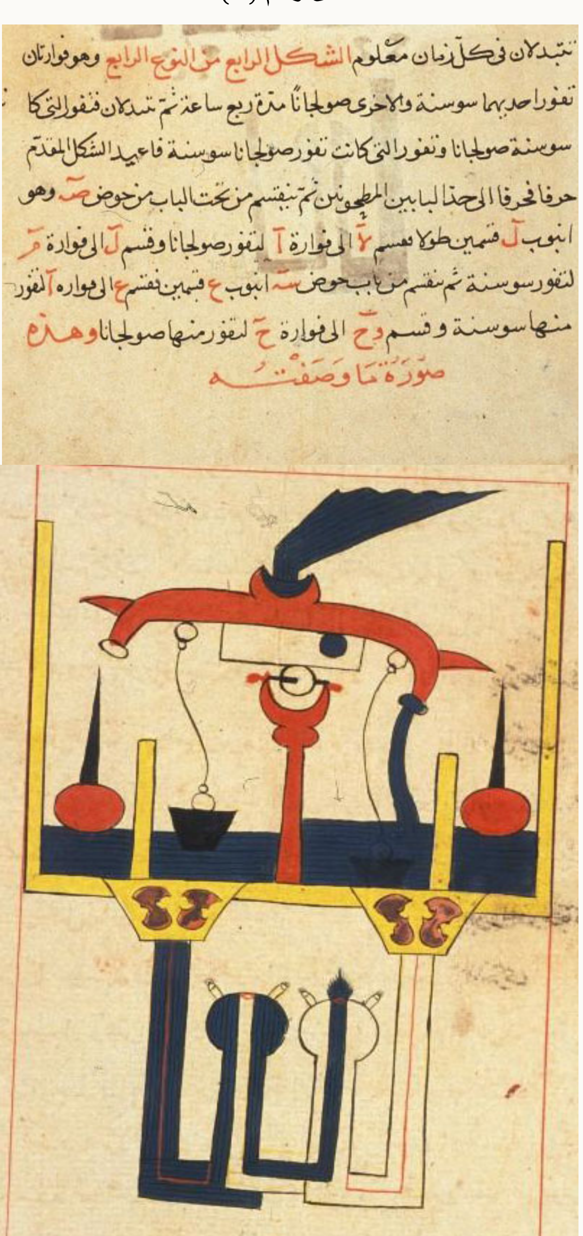


رسم توضيحي وشرح لما أسماه الجزري (فوارتا الكفتين في بركة واحدة) أي رفع الماء إلى نافورة بكفتين من بركة ماء أو نهر، والفكرة تماثل تقريبًا إلى حد كبير فكرة البيلتين اللتين كانتا في طليطلة: الجزري، مخطوط الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل، ص ١٠٤ وجه.

ملحق رقم (٦)

آلة تبين بالشرح والرسم طريقة قفل أنابيب المياه آليًا باستعمال أثقال خاصة لتحكم في قفل مسارات المياه في الأنابيب التي تملأ الأحواض: الجزري، مخطوط الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل، ص ١٠٦ ظهر.

ملحق رقم (٧)



شرح ورسم لفوارتين (نافورتين) تعملان بالتتابع كل ربع ساعة من الزمن، بحيث تفور الأولى بطريقة يسمونها السوسنة لأن شكل لماء المتدفق منها يشبه زهرة السوسن، وتفور الثانية بطريقة يسمونها الصولجان لأن شكل الماء المتدفق منها يعطي شكل الصولجان، وبعد ربع ساعة من الزمن يتغير تدفق ماء الأولى من شكل السوسنة إلى شكل الصولجان، ويتبدل شكل الماء المتدفق من الثانية من الصولجان إلى السوسنة وهكذا بلا توقف: والشرح والوصف مأخوذ عن: الجزري، مخطوط الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل، ص١٠٧ وجه وظهر.

الاحالات المرجعية:

(١) أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس**، ج١، شرح مريم قاسم طويل ويوسف علي طويل، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١١، ص ص١٩٩، ٢٠٠.

(٢) مؤلف مجهول، **تاريخ الأندلس**، تحقيق عبد القادر بوباية، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧، ص٩٣.

(٣) أبوعبدالله محمد بن أبي بكر الزهري، **كتاب الجغرافية**، تحقيق محمد حاج صادق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، ص ص٨٣_٨٥.

(٤) محمد هشام النعسان، **قصور وحدائق الأندلس العربية الإسلامية**، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٧، ص١٠٥.

(٥) مروة محمد عبدالرحيم عاشور، **تأثير الصحة والبيئة على المجتمع الأندلسي اقتصاديًا واجتماعيًا وعمرانيًا**، الإسكندرية، دار التعليم الجامعي، ٢٠٢٣، ص٢٥٧.

(٦) النعسان، **قصور وحدائق الأندلس**، ص٢٢٢.

(٧) ألبرت فريديريك كالفرت، **غرناطة وقصر الحمراء**، ط١، ترجمة أحمد إيبش، أبوظبي، دار الكتب الوطنية، ٢٠١٣، ص٢٢٢.

(٨) النعسان، **قصور وحدائق الأندلس**، ص289.

(٩) أبو عبد الله محمد الصغير الإفراني، **المسلك السهل في شرح توشيح ابن سهل**، ط١، تحقيق محمد العمري، الرباط، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٧، ص٩٦.

(١٠) أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، **رحلة ابن جبير المسماة اعتبار الناسك في ذكر الآثار الكريمة والمناسك**، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣، ص ٤٤.

(١١) ابن جبير، الرحلة، ص١٥٥.

(١٢) عثمان عثمان إسماعيل، **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، ج٤، ط١، الرباط، دار الهلال العربية، ١٩٩٢، ص٣٦١.

(١٣) رينهارت دوزي، **تكملة المعاجم العربية**، ج١، ترجمة محمد سليم النعيمي، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨٠، ص٥٠٧.

(١٤) أبو العباس شهاب الدين أحمد السلاوي، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج٢، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٤، ص٦٥.

(١٥) علي بن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، الرباط، دار المنصور، ١٩٧٢، ص٦٤.

(١٦) دوزي، تكملة المعاجم، ص٥٠٧.

(١٧) علي الجزنائي، **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس**، ط٢، تحقيق عبدالوهاب منصور، الرباط، المطبعة المليكة، ١٩٩٢، ص ص ٧١-٧٣.

(١٨) المقري، **نفح الطيب**، ص ١٩٩.

(١٩) الزهري، **الجغرافية**، ص٨٣.

(٢٠) مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص٩٣.

(٢١) هو **أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى التجيبي النقاش** المعروف، بابن الزرقالة فلكي أندلسي من أهل طليطلة " كان واحد عصره في علم العدد والرصد وعلل الأزياج، ولم تأت الأندلس بمثله من حين فتحها المسلمون إلى وقتنا هذا": أبوعبدالله محمد بن أبي بكر بن الأبار القضاعي، التكملة لكتاب الصلة، ج١، تحقيق عبدالسلام الهراس، بيروت، دار الفكر، ١٩٩٥، ص.١٢٠. وكان مرصده الفلكي في طليطلة زمن المأمون بن ذي النون، ثم انتقل منها إلى قرطبة وتوفي بها،

وكانت آخر أرصاده في قرطبة سنة ٤٨٠هـ، من مصنفاته: كتاب العمل بالصفيحة الزيجية وكتاب التدبير، وكتاب المدخل إلى علم النجوم، " وله صفيحة الزرقيال المشهورة ": جمال الدين أبو الحسن يوسف بن علي القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط١، تعليق إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٥، ص٥٠.

(٢٢) ابن الأبار، **التكملة**، ص٢٠١، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، ج٣٤، ط١، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٩٤، ص١٤٤.

(٢٣) شمس الدين محمد بن عمر بن عزم، **دستور الإعلام بمعارف الأعلام**، تحقيق هشام صمايري، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٢١، ص٤١٩.

(٢٤) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج٥، تحقيق أبو محمد جلال الأسيوطي، بيروت دار الكتب العلمية، ٢٠١٠، ص٦٧.

(٢٥) المقري، **نفح الطيب**، ص٢٠٠.

(٢٦) مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص٩٤.

(٢٧) أبو بكر خالد سعد الله، **نفحات من تراثنا العلمي المجيد**، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ٢٠١١، ص٢٨٨.

(٢٨) أبو الحسين علي بن الحسين المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج١، ط١، بيروت، المكتبة العصري، ٢٠٠٥، ص٢٨١.

(٢٩) المقري، **نفح الطيب**، ص١٩٩.

(٣٠) شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي طالب الدمشقي شيخ الربوة، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت، ص٣٦.

(٣١) أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ج١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٨، ص ٢٩٠.

(٣٢) الزهري، **الجغرافية**، ص٢١.

(٣٣) النعسان، **قصور وحدائق الأندلس العربية الإسلامية**، ص٢٩٣.

(٣٤) أيوب أبودية، **فلسفة التكنولوجيا**، ص١٢.

(٣٥) النعسان، **قصور وحدائق الأندلس**، ص٩٢.

(٣٦) أيوب أبو دية، **فلسفة التكنولوجيا**، عمان، شركة الآن ناشرون، ٢٠٢١، ص١٢.

(٣٧) أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، ج٥، شرح نبيل الخطيب، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٢، ص٢٢٠.

(٣٨) أحمد أرشيد الخالدي، **المدن والآثار الإسلامية في العالم**، عمان، دار المعتز للنشر والتوزيع، ٢٠١٠، ص٢٢٠.

(٣٩) الزهري، الجغرافية، ص٨٣.

(٤٠) **الرشاشي**: وحدة قياس تعادل وفق الإدريسي ثلاثة أشبار: أبوعبدالله محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي الحسني، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ج١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت، ص٣٢٠.

(٤١) أبو القاسم بن أحمد الزياني، **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برًا وبحرًا**، تحقيق عبدالكريم الفيلالي، الرباط، دار نشر المعرفة،١٩٩١، ص٨٩. والنص موجود بذات الألفاظ عند مقديش في كتابه نزهة الأنظار، وهذا منتحل من ذاك: محمود بن سعيد مقديش، **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، ج١، ط١، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨، ص١٥٦.

(٤٢) مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص٩٤.

(٤٣) الزهري، **الجغرافية**، ص٨٤.

(٤٤) شريف عبد الرحمن جاه، **لغز الماء في الأندلس**، ط١، ترجمة زينب بناية، أبوظبي، هيئة أبو ظبي للسياحة، ٢٠١٤، ص٦٧.

(٤٥) الزهري، **الجغرافية**، ص٨٤.

(٤٦) المقري، **نفح الطيب**، ص٢٠٠.

(٤٧) مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص٩٤.

(٤٨) المقري، **نفح الطيب**، ص٢٠٠. بطرس البستاني، دائرة المعارف، ج٥، بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٨١، ص٧٧٨

(٤٩) مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص٩٤.

(٥٠) الزهري، **الجغرافية**، ص٨٥.

(٥١) المقري، **نفح الطيب**، ص٢٠٠. شكيب أرسلان، **الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية**، ج١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧، ص١٦٤.

(٥٢) مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص٩٤.

(٥٣) الزهري، **الجغرافية**، ص٨٥.

(٥٤) المقري، **نفح الطيب**، ص٢٠٠.

(٥٥) مجهول، **تاريخ الأندلس**، ص٩٤.

(٥٦) الزهري، **الجغرافية**، ص٨٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

مساجد تازة خلال العصر الوسيط
توصيف وتوظيف



د. عثمان سال
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخَّص

بمجرد انتشار الإسلام في بلاد المغرب الأقصى، عمت المساجد مختلف مدنه وأحيائه، بل وصارت رمزًا من رموز الديانة الإسلامية، وموازاة مع مساهمتها الفعالة في إذكاء الوعي الديني عند المسلمين عبر المنابر والحلقات التعليمية والتي يرجع لها الفضل الأكبر في تربية النشء، فقد شكلت باحاتها أيضًا مسرحًا للبث في العديد من القضايا الأسرية كفض النزاعات، والزواج، والطلاق، وغيرها . وكغيرها من المدن العتيقة بالمغرب الأقصى حفلت تازة خلال العصر الوسيط بوفرة المساجد سواء في الحاضرة أو البوادي، حيث أشاد المؤرخون بأهمية منشآتها المعمارية، إذ صنفت من بين المدن المهمة آنذاك، ولعل هذا ما ذهب إليه الحسن بن محمد الحسن الوزان في كتابه وصف إفريقيا، حينما ذكر أن مساجدها ومدارسها بديعة الصنعة، وهو ما زكاه الإسحاقي في رحلته الحجازية بعدما أبدى إعجابه بالمسجد الأعظم والمدرسة التي تلاصقه. وفي هذا السياق، تأتي هذه الورقة البحثية التي نحاول من خلالها تسليط الضوء على مساجد تازة، وذلك بتبيان مهامها ووظائفها، معتمدين في ذلك على ما جادت به كتب النوازل الفقهية، ورسوم الحوالات الحبسية، وغيرها من المصادر الأخرى.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٥	يوليو	٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر:	٢٦	أغسطس	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الحوالات الحبسية؛ النوازل الفقهية؛ الوظائف والأدوار؛ مساجد تازة؛ العصر الوسيط

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.340683 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عثمان سال. "مساجد تازة خلال العصر الوسيط: توصيف وتوظيف".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ٧٤ – ٨٣.

Corresponding author: salle.outmane@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

عند ظهور الإسلام بالمغرب الأقصى، انتشرت في معظم مدنه الكثير من المساجد، باعتبارها رمزًا من رموز الحضارة الإسلامية، وبالمثل حفلت تازة خلال العصر الوسيط بوفرة المساجد سواء في الحاضرة أو البوادي، وهو ما صدحت به الوثائق التاريخية بمختلف أنواعها كالمدونات الإخبارية والنوازل الفقهية ورسوم الحوالات الحبسية وغيرها.

وبالنظر لأهمية المنشآت المعمارية التي كانت تحتضنها تازة -خاصة الدينية-فقد صنفت من قبل الإخباريين خلال المرحلة المذكورة من بين المدن المهمة في المغرب، ولعل هذا ما ذهب إليه الوزان في كتابه "وصف أفريقيا" حينما ذكر أن بها ما ((...يقرب من خمسة آلاف كانون، [...] والمدارس والمساجد المبنية بجدران في غاية الإتقان، وتحتل الدرجة الثالثة في المملكة من حيث المكانة والحضارة، ففيها جامع أكبر من جامع فاس، وثلاث مدارس وحمامات وفنادق كثيرة، وأسواق منظمة كأسواق فاس...))[١]. وخصها الإسحاقي بعده بوصف رائع وعجيب مركزا على وصف العمارة الدينية المتمثلة في المسجد الأعظم والمدرسة التي تلاصقه[٢]. مشيرا إلى أنها مدينة ((...آخذة في الحضارة بطرف وحصن حصين من المعاقل التي تعقل بها أثر الحسن القديم، وبها جامع كأحسن ما أنت راء من الجوامع سعة وحصانة وبناء متقنا محكم الشكل، وتلاصقه مدرسة عجيبة...))[٣].

أولاً: مساجد تازة (قراءة توصيفية)

شكلت المساجد قلب أحياء المدن العتيقة، بل علامة من علاماتها المعمارية، ورمزا من رموز مرجعيتها الدينية وتعبيرًا عن هويتها المعمارية، وكانت المساجد في تازة كثيرة العدد؛ ولا تزال هذه الحاضرة الفاتنة تزدان بعدد من المساجد التي يعود تشييدها للعصر الوسيط. ومن أشهرها المسجد الأعظم ومسجد الأندلس. ولعل هذا صدحت به الوثائق التاريخية الدفينة، حيث أتاح لنا الاطلاع على بعضها الوقوف عند عدد منها، وفيما يلي عرض مقتضب لمساجد تازة خلال العصر الوسيط سواء الجامعة أو مساجد الأحياء أو الأحواز:

١/١-مساجد المدينة

المساجد الجامعة

الجامع الأعظم: يعتبر من أقدم مساجد المدينة، بل أجمل معلمة تاريخية وأشهرها في المغرب الأقصى، ويكتسي أهمية خاصة في نفوس التازيين؛ ويرجح صاحب كتاب الاستقصا أن بناءه كان على عهد عبد المومن الموحدي (٤٨٧-٥٥٨/١٠٩٤-١١٦٢) سنة (٥٢٩/ ١١٣٤م)، حيث قال: ((...وَفِي سنة تسع وَعشْرين وَخَمْسمِائة أَمر عبد الْمُؤمن بِبِنَاء رِبَاط مَدِينَة تازا فبنيت وحصن سورها ثمَّ كَانَت محاربته لتاشفين بن عَليّ على نَحْو مَا أسلفناه وَالله تَعَالَى أعلم...)) ج/٢، ١٠٩. إلا أن التاريخ الذي أورده لا يذكر فيه المسجد بالضبط وهو التاريخ الذي نقله عن ابن أبي زرع صاحب روض القرطاس، ويظل هذا التاريخ غير دقيق ويصعب الأخذ به. فإذا عدنا إلى «مذكرات» البيذق، الذي يقدم لنا وصفا كرونولوجيا لحملات عبد المؤمن في شمال المغرب سنستشف أن الموحدين فرضوا سيطرتهم على بلاد تازة بحلول سنة ٥٣٦ هجرية، موافق ١١٤١-١١٤٢ ميلادية، مما يعني أن بناء المسجد لم يتم إلا في السنوات التي تلت هذا التاريخ، أي (٥٣٦هـ/ ١١٤٢م)[٤].

وتطالعنا الكتابات المنقوشة على الزليج والمحفوظة بالجامع الأعظم إلى يومنا هذا بأن هذا المسجد حظي بعناية كبيرة خلال العصر المريني، فقد أدخل عليه السلطان أبو يعقوب يوسف مجموعة من الزيادات والتعديلات، حيث أمر السلطان المذكور بتوسعته وإصلاح الجزء الموحدي القائم، وانطلقت هذه الأشغال سنة ١٢٩٢م وانتهت في شهر أكتوبر من سنة ١٢٩٣م[٥]. غير أن ابن أبي زرع أورد تاريخًا أخر حينما ذكر أنه في ((... سنة ثلاث وتسعين وستمئة فرغ من بناء جامع تازة، وعملت الثريا بالجامع وزنتها اثنان وثلاثون قنطارا من النحاس، وعدد كؤوسها خمسمئة كأس وأربعة عشر كأسا، وأنفق في بناء الجامع وعمل الثريا من المال ثمانية ألاف دينار ذهبا...))[٦]. وهو التاريخ نفسه الذي أورده الناصري في كتابه الاسقصا[٧]. وما يزال المسجد الأعظم إلى يومنا هذا يحتفظ بقدسيته عند الأسر التازية، فهو يشكل معلمة دينية تزين فضاء المدينة العتيقة وتحفة فنية شاهدة على عراقة المدينة وأصالتها.

جامع الأندلس: من المعالم الفريدة الضاربة في القدم، يتوسط مدينة تازة العتيقة، ويعرف أيضا بمسجد "دار لمخزن"، ولا يملك شهرة الجامع الأعظم، وحسب علمنا لا وجود لإشارات عنه في المدونات الإخبارية أو كتب الرحلات، ويبدو من خلال رسوم الحوالات الحبسية أنه كان قائما خلال العصر المريني، بدليل ورود ذكره في رسم مؤرخ بـ ٨٤٨هـ/١٤٤٤م، أشير فيه إلى استفادة الجامع من أوقاف على قارئ الشفا داخل المسجد، حيث إن شخصا من أهل تازة يدعى "أحمد بن الشيخ المرحوم أبي عبد الله محمد بن محمد المعروف بالغزال" ((...أوصى بثلث متخلفة لقارئ الشفا بمسجد الأندلس أحد مساجد مدينة تازى المحروسة ...))[٨]. من جهة أخرى استفاد هذا الجامع من أوقاف عقارية لحساب القيمين الدينيين به[٩]، وتجدر الإشارة إلى أن تاريخ بناء هذا المسجد غير معروف خاصة أمام صمت المصادر الوسيطية التي اكتفت بالتلميح للمسجد الأعظم، إلا أن ما ورد برسوم الحوالات الحبسية من إشارات تتعلق باستفادة هذا المسجد من الأوقاف لا تفي بالغرض لكون المسجد خلال هذه المرحلة كان قائما وكانت تقام فيه الصلوات وخطب الجمعة وكان مجالا لتعليم النشء من خلال قراءة كتاب الشفا، مما يدل على إمكانية تواجده في العصر الموحدي، ولعل هذا ما خلصت إليه الدراسة الأركيولوجية بالنظر للخصائص العمرانية التي ميزته خاصة المئذنة[١٠]، ولتحديد زمن هذه المعلمة بدقة لابد من تكثيف التنقيب الأثري بالمدينة الذي سيسهم ولاشك في الكشف عن معطيات أخرى.

مساجد الأحياء

تماشيًا مع خصوصية المدينة الإسلامية تميزت المدينة العتيقة في تازة بوجود مساجد عديدة أخذت أسماءها من المهن والحرف السائدة بالأحياء؛ كمسجد الحدادين ومسجد الغزالين، أو ارتباطًا بأماكن تواجد الأولياء الصالحين؛ كمسجد الولي سيدي محمد بن عطية والولي الصالح سيدي أبي علي سالم، وعليه توزعت بالمجال مساجد كثيرة انتشرت عبر أزقتها ودروبها، في إشارة لطبيعة العلاقة القائمة بين المساجد والحرف والأولياء. ويمكن تصنيف المساجد التي وقفنا عندها كالآتي:

مساجد ارتبطت أسماؤها بالأولياء

سميت بعض المساجد داخل المدينة العتيقة باسم عدد من الأولياء والصالحين وذلك تيمنا بهم واستحضارا لبركاتهم ورعهم وزهدهم ومنها:

مسجد سيدي عزوز: يعد حسب الروايات الشفهية من المساجد المقدسة بالنسبة لساكنة المدينة لارتباطه بالولي الصالح سيدي عزوز، يتوسط المدينة العتيقة، ويجاور رحبة الحبوب (الزرع) وفندق ابن كيران المحادي لحمام صب الما، هذا الموقع جعله في مجال اقتصادي حيوي، خاصة وأنه ينفتح على ثلاثة شوارع، منها ما يؤدي للمسجد الأعظم والملاح القديم[١١]، المسجد المذكور كان قائما خلال العصر المريني، وسندنا في ذلك رسوم الحوالات الحبسية التي أفادت توظيفه لوصف حدود بعض أملاك الأحباس، وأيضًا استفادته من هبات وقفية منها الوقف الموجود بـ: ((...زقاق الحطابين التي هي ملك ووقف على مسجد سيدي عزوز...))[١٢].

مسجد الولي سيدي محمد بن عطية: يقع هذا المسجد في الزاوية الجنوبية الشرقية للمدينة، ويجاور مجموعة من الأبواب التي تحيط بالمدينة العتيقة منها "باب السرية" و "باب القبور القديمة" وقد استفاد من حبوس متنوعة خلال العصر المريني، منها أوقاف توجد جوف ((...أرض مسجد الولي المتبرك به المدعو سيدي عطية...))[١٣]، علاوة على هبات وأوقاف خلال العصر العلوي وبالتحديد على عهد السلطان المولى إسماعيل[١٤].

مسجد الولي الصالح سيدي أبي علي سالم: ينسب المسجد لأبي علي سالم، ويبدو من خلال بعض الإشارات الواردة برسوم الحوالات أنه كان شخصية دينية ورعة، حيث تمت تحليته في بعض لوحاتها بـ "الولي الصالح" وأحيانا تلمس أهل تازة لبركاته في أدعيتهم بترديد عبارة "نفعنا الله ببركته". وعلى غرار بقية مساجد تازة استفاد هذا المسجد من عائدات الأوقاف مع المسجد الأعظم كما جاء في أحد الرسوم ذلك أن ((...بعضها وقف على المسجد الأعظم، وبعضها وقف على مسجد الولي الصالح سيدي أبي علي سالم نفعنا الله به وبأمثاله...))[١٥].

مسجد الولي الصالح أبي الفتوح: له صلة بالولي الصالح أبي الفتوح؛ الذي كان يعتبر شخصية دينية تقية عند أهل تازة، وحسب مبروك الصغير ينسب إلى هذا الولي شراء الماء لأهل مدينته من قبيلة غياثة، يقع هذا المسجد في الواجهة الغربية للمدينة بجوار باب زيتونة[١٦]، وعلى منوال المساجد الأخرى؛ استفاد المسجد من أوقاف عدة حيث ((...عهد الطالب الخير سيدي أحمد بن سيدي عبد الله الشريف عدة للقاء الله تعالى[...] وقفا[...] على مؤذن مسجد الوالي الصالح سيدي أبي الفتوح وعلى مؤذن مسجد زقاق أبي الطاهر داخل مدينة تازى ...))[١٧].

مسجد الزاوية: غالبا ما ترتبط الزوايا بولي أو صالح، والمسجد المذكور ينسب إلى الزاوية دون ذكر الولي، فقد يكون مسجدا تابعا للأولياء الذين سبق ذكرهم قبل، وقد يتعلق الأمر بمسجد آخر يرتبط بولي آخر، والإشارة الوحيدة التي وقفنا عندها تتعلق بذكر أوقاف على مساجد تازة الموجودة بضفة وادي انملي المتصلة بمسجد الزاوية[١٨].

مسجد الجوزاتي: من المساجد التي لم تشر إليها المصادر التاريخية، ولا يحظر حتى في الروايات الشفوية عند أهل تازة، وفي الغالب يدخل ضمن المساجد الوسيطة التي اندرست بفعل الخراب والفتن والحروب المحتدمة التي كانت تعرفها المدينة، والمسجد في الغالب له صلة بإحدى شخصيات المدينة حيث كشفت رسوم الحوالات عن فقهاء وحجاج كثر كانوا يحملون لقب "الجوزاتي"، وقد ورد ذكر هذا المسجد في سياق وصف أوقاف بمدينة تازة مثل ((...العرصة الكائنة بالموضع المسمى بالمسرح داخل المدينة المذكورة المتصل بجامع الجوزاتي عمره الله تعالى بدوام الذكر فيه وبحوانيت الجزارين...))[١٩].

مساجد ارتبطت أسماؤها بالحرف

تعددت أسماء أحياء المدينة العتيقة تبعا لتعدد الحرف والمهن داخلها، واستجابة لاحتياجات السكان، فقد كان لكل تجمع حِرفي يحظى مسجد يحمل اسمه ويؤشر على وجود هذه الحرفة في هذا الزقاق أو ذاك.

مسجد الغزالين: من مساجد تازة العتيقة، وفي غياب معلومات شافية حوله، يبدو من خلال اسمه أنه كان ذو صلة بالحرفة المعمول بها في ذلك المكان. وقد أشارت رسوم الحوالات الحبسية لمعلومات عنه منها ما يفيد ((...قراء الحزب بمسجد[٢٠] الغزالين...))[٢١].

مسجد الحدادين: الراجح أن تكون تسمية المسجد بهذا الاسم مرتبطة ارتباطا وثيقا بامتهان عدد من الحرفيين لحرفة الحدادة، والتي كانت منتشرة بكثرة بمدينة تازة، والواضح تواجده بمكان عملهم كوسيلة لتمكينهم من أداء فرضة الصلاة، وقد وردت عنه إشارة في رسوم الحوالات الحبسية، في سياق نزاع عن الماء بين أهل تازة وأهل الذمة خاصة اليهود الذين كانوا يجاورون مسجد الحدادين[٢٢].

مساجد ارتبطت أسماؤها بالأزقة

مسجد الحريم: تماشيا مع خصوصيات الشريعة الإسلامية الداعية لتجنب الاختلاط بين النساء والرجال، شهدت المدينة العتيقة أماكن خصصت للنساء فقط، آية ذلك مسجد الحريم الذي ورد ذكره في رسوم الحوالات الحبسية، والذي في الغالب ما يكون تابعا لأحد المساجد المذكورة سابقا، وبدوره استفاد من أوقاف خصصت لاقتناء بعض لوازمه كما يفهم من عبارة، ((...ضروريات مسجد الحريم...))[٢٣]. وعلى غرار المسجد نجد مجموعة من الأزقة المحيطة بموضع المساجد كان يطلق عليها الاسم نفسه؛ مثل "زقاق الحريم"[٢٤].

مسجد زقاق أبي طاهر: رغم أن المسجد من خلال اسمه يوحي ارتباطه بولي من أولياء المدينة، إلا أن ما وقفنا عنده من معطيات اكتفت بالإشارة إلى ارتباطه بالزقاق الموجود به، حيث ورد ذكر عبارة "مسجد زقاق أبي الطاهر"[٢٥]، وبالمثل كان له نصيب من الأوقاف منها ما حبسه ((...أبو الحسن علي بن يحيى على الجامع الأعظم من مدينة تازى أمنها الله تعالى مع المدرسة وجامع الأندلس ومسجد أبي الطاهر كل ذلك من مساجد المدينة المذكورة جميع الجنان بالقلعة كائنا ...))[٢٦].

مسجد مسطاسة: في الغالب تسميته مرتبطة بالدرب الذي يوجد فيه بمدينة تازة العتيقة، اطلعنا على ذكره برسوم الحوالات الحبسية في سياق أوقاف استفاد

منها مؤذن ((...يعين بمسجد مسطاسة[...] عام تسعة وأربعين وسبعمائة...))[٢٧].

٢/١–مساجد الأحواز

على غرار كثرة المساجد بمدينة تازة مكنتنا المصادر والوثائق التاريخية من الوقوف على مجموعة من المساجد بأحواز المدينة، بدءا بالعصر الموحدي وصولاً للعصر المريني، ومن هذه المساجد:

مسجد دشر قلال: ورد ذكر هذا المسجد في كتاب "أخبار المهدي بن تومرت" حيث قال "البيدق" أنه بعدما تجاوز مع رفيقه المهدي منطقة جرسيف ((...جددنا السير حتى وصلنا دشر قلال فنزلنا فيه بالمسجد فسمع المعصوم بالدشر اللهو وصراخ الرجال والنساء، فقال غيروا هذا المنكر...))[٢٨]. والمنطقة المذكورة هي المعروفة اليوم بـ"سبت بوقلال" التي تبعد عن تازة المدينة بحوالي أربعة عشر كيلومترًا وتقع بتراب قبيلة مكناسة في الطريق اتجاه أكنول.

مسجد أبي بدر: يوجد هذا المسجد ببلاد بني وجان بأحواز تازة، وقد ورد ذكره برسوم الحوالات الحبسية الخاصة بالعصر المريني، حيث تم التصريح بوجوده في أحواز تازة وبالضبط ((...ببلاد بني وجان حوز مدينة تازى أمنها الله تعالى المتصل بمقبرة مدشر أبي يدر[....] وأسلم الجنان المذكور ولمسجد أبي بدر المذكور تصرف غلاته في سائر ضرورياته لكونه وجد في رسم وقف عليه شهوده أنه حبس على المسجد المذكور...))[٢٩].

مسجد السيتاني: هذا المسجد وردت عنه إشارة بمعيار الونشريسي في سياق الحديث عن طائفة من اتباع المهدي بن تومرت كانوا يخالفون مذهب الدولة على العصر المريني ((...فاجتمع الناس عليهم في مسجد السيناتي وبحثوا فلم يوجد عندهم شيء من العلم، واتفق الناس حينئذ على أنهم قوم جهلة وأنهم يستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا، وكنت أنا حاضراً لذلك، فتابوا وانصرفوا، وما أفلتهم من القتل حينئذ إلا توبتهم على يد سيدي أبي عبد الله بن عطية رحمه الله تعالى...))[٣٠].

مسجد القرمود: من المساجد التي تعتبر معلمة من معالم منطقة ملال بجزناية الشمالية، غير أننا نجهل تاريخ تأسيس هذا المسجد الذي يبقى غامضًا ولا وجود –حسب علمنا–لوثائق تاريخية تؤكد ذلك، غير أن معظم الروايات الشفهية تؤكد قدم هذه المعلمة، مع تسجيل تضارب في التأسيس بين العصرين الموحدي والمريني[٣١].

من خلال هذا الجرد يتضح أن تازة عُرفت بوجود عدد كبير من المساجد، حيث عثرنا على ما يزيد عن اثني عشر مسجدًا بالمدينة العتيقة فقط، وأربعة مساجد في الأحواز، وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الجرد هو فقط ما سمحت به مضان بعض الوثائق التاريخية التي أتيحت لنا فرصة الاطلاع عليها، أمر قد يختزن دلالات رمزية متعددة منها حضور الوازع الديني عند سكان المدينة، ومنها الأدوار المتعددة والمتداخلة التي أنيطت بالمساجد كمؤسسات تتجاوز حدود الجانب التعبدي إلى مؤسسات لها مركزيتها بالنسبة للدولة لقدرتها على ممارسة وظائف متنوعة.

ثانيًا: وظائف المساجد التازية

يُعَدّ المسجد من المؤسسات المقدسة عند المسلمين، حيث شيدت في العالم الإسلامي مئات المساجد التي اضطلعت بأدوار مهمة عجزت عن القيام بها مؤسسات أخرى، فعلاوة على الصلاة والشعائر التعبدية، كانت للمساجد وظائف أخرى تعلقت بسياسة الدولة وإدارة شؤونها، وهو ما نستشفه من تعقب أدوار مساجد تازة.

١/٢–الوظيفة القضائية

عمل قضاة المغرب على استثمار باحات المساجد للنظر في الخصومات أو الفصل في أمور تتعلق بمصالح العامة. وعلى هذا النهج صار قضاة تازة الذين اتخذوا المساجد كمؤسسات للفتوى والحكم للبتِّ في قضايا مجتمعهم والنظر فيها، بدافع الضرورة الدينية والسياسية والاجتماعية. يعضد ذلك الإشارات التي وردت عنهم في كتب النوازل والتي كشفت عن مناقشتهم لبعض القضايا داخل بيوت الله، حيث عرضت النوازل التازية لنماذج من الصراعات السياسية[٣٢] التي شهدها المجال وتصدى الفقهاء لحلها انطلاقا من أرضية المسجد.

في السياق ذاته، أشار الونشريسي في معياره؛ توظيف قاضي من قضاة تازة بيت الله مكانا للنظر في مسألة المتنازعين، حيث ذكر أن قاضيا جلس في المسجد بتازة في أيام العيد، وقضى بزواج فتاة بكر من أبيها لرجل آخر؛ باعتبار كفاءته رغم معارضة الأب لكونه الوصي[٣٣]، مما يعني أن المساجد بتازة لم تكن مخصصة للصلاة فقط، بل تم استغلال فضاءاتها للنظر في الشؤون العامة للناس وحل مشاكلهم الأسرية. ويزكي هذه النازلة ما ورد في نازلة أخرى أبرزت توظيف المساجد التازية من قبل القضاة؛ حيث أشار الونشريسي إلى ظهور طائفة دينية خالفت ما عليه أهل السنة وخرقت الإجماع بأحواز تازة، طائفة ورد فيهم ظهير من السلطان في مدة قضاء الترجالي؛ يدعوه للبحث في أمرهم، فاجتمع الناس عليهم في مسجد "السيناتي" واتفقوا على كونهم قوم جهلة، وعليهم طلب التوبة وإلا قتلوا[٣٤].

النازلة المذكورة أبانت عن الأثر البارز للقضاة من خلال استثمارهم للمساجد سواء داخل المدينة أو باديتها، حيث كان المسجد مكانا تَدَاول فيه القضاة أمر عصيان الطائفة المخالفة، الشيء الذي يفصح لنا عن التنسيق بين المؤسسة القضائية وباقي المؤسسات الأخرى داخل المجال المدروس؛ في محاولة لضبط الأمن وضمان الاستقرار، وحري بنا أن نلفت الأنظار إلى أن تسخير باحات المسجد في مسائل وأغراض تتعلق بالقضاء لم يكن عرضًا بل كان أمرًا منظمًا من لدن الجهاز الحاكم للدولة المرينية، خاصةً إذا علمنا أن البحث في قضية الطائفة الخارجة عن المذهب المالكي كان بظهير[٣٥] من السلطان المريني[٣٦].

لقد استطاع قضاة تازة من خلال استعمال بيوت الله حلحلة العديد من المشاكل مما يعكس أهمية المساجد كمؤسسة لها قيمة وظيفية عدلية؛ لأنها تضمن في الغالب أن يكون القاضي بداخلها متحليا بطهارة القلب ومخلصا نيته لله؛ أملاً في إصدار أحكام نزيهة وشفافة لا تشوبها نقائص؛ من جهة أخرى شكل القضاء بالمساجد وسيلة فعالة لكسب ثقة الجماعة في المؤسسة القضائية بشكل عام.

٢/٢-الوظيفة السوسيو اقتصادية

بالموازاة مع الأدوار القضائية، كانت القضايا الأسرية حاضرة في باحات المساجد، حيث أشارت بعض النوازل الفقهية إلى استثمار المساجد كأماكن للحسم في أغراض اجتماعية كعقد الأنكحة بين الأزواج، وهو ما يفهم من العبارة التي أوردها صاحب المعيار حينما ذكر أن القاضي جلس في ((...المسجد في أيام العيد وقال للرجل زوج ابنتك من فلان...))[٣٧].

ويعضد هذه النازلة واقعة أخرى أشار فيها الونشريسي إلى أن بعض عدول تازة حضروا موطنا بجامع تازة، انعقد فيه النكاح بين زوجين، حيث ذكر أن ((...رجل ادعى على رجل أنه أنكحه ابنته بكرا وأنكر أبوها، فاستظهر المدعي برسم استرعاء ثابت عند بعض قضاة البوادي بشهادة رجال من البادية؛ شهدوا بأنهم حضروا بينهما موطنا بجامع تازا مع بعض العدول، انعقد فيه النكاح بينهما...))[٣٨].

هذا وتفيد بعض الحوالات الحبسية أن المساجد سُخِّرت لفض النزاعات الاجتماعية من قبل القضاة، حينما ورد في رسم أن ((...المدعو أبا علي بن محمد بن عبد الله بن الشيخ التاجر المبرور المرحوم أبي عثمان سعيد الجوزاني اليمني مع الشاهد العدل حول مضمن رسم الشراء الذي شهد فيه، فحلف الجوزاني المذكور بالمسجد الأعظم أمام القاضي أن الشاهد صاغ مضمون العقد بخلاف حقيقة المبايعة...))[٣٩].

ومن ناحية أخرى شكلت المساجد مرتكزا للنشاط الاقتصادي، فقد كان الجامع الأعظم ومعه بقية المساجد الاخرى بتازة محور الحركة الاقتصادية؛ إذ شكل النواة التي تدور حولها المراكز التجارية بالمدينة، وهو ما أفادته بعض النوازل؛ منها تلك التي سئل فيها العبدوسي عن مسجد بتازة له حوانيت كثيرة تهدمت سقفها، فعبارة ((... وسئل عن مسجد له حوانيت كثيرة، وكانت حوانيت المسجد بالسوق عندنا من تازا...))[٤٠]، وفي ذلك تَعبير عن تَركز الأنشطة التجارية بجانب المساجد لكونها مركزا لتجمع الساكنة، ومجالاً لترددها لأداء الصلوات، وهو ما يبرز كون الرواج التجاري دائم الصلة ببيوت الله خاصة المسجد الأعظم الذي كان يجسد النواة التجارية للمدينة.

٣/٢-الوظيفة السياسية

كانت المساجد التازية مكانا للشورى بين كبار الفقهاء لمناقشة القضايا السياسية الكبرى للدولة، سندنا في ذلك ما أورده الونشريسي حينما ذكر أن بقايا أتباع المهدي بن تومرت ((...ورد فيهم ظهير من السلطان رحمه الله في مدة الترجالي أن يبحث عن أمرهم، فاجتمع الناس عليهم في مسجد السيناتي وبحثوا فلم يوجد عندهم شيء من العلم، واتفق الناس حينئذ على أنهم قوم جهلة وأنهم يستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا. وكنت أنا حاضرًا لذلك، فتابوا وانصرفوا، وما أفلتهم من القتل حينئذ إلا توبتهم على يد سيدي أبي عبد الله بن عطية رحمه الله تعالى ...))[٤١].

وتجدر الإشارة إلى أن النظر في القضايا السياسية؛ كان ضروريًا باعتبار السكوت عليها مدخلا لجلب الفتن والصراعات، ولكون القضاة عنصرًا فاعلاً في النظام السياسي، فهم الدرع الواقي للدولة من كل اضطراب. من خلال إسهامهم في تهدئة العديد من القضايا ودعم مشروعية الدولة وتثبيت المذهب المالكي، وهذا برهان على أهمية خطة القضاء في هذا المجال، وأهمية المسجد من جهة ثانية كفضاء استوعب جميع هذه الأطياف في محاولة لبناء الاستقرار السياسي.

٤/٢-الوظيفة التعليمية

إن العملية التعليمية لم تكن يوما منفصلة عن المساجد عبر تاريخ العالم الإسلامي، وهو ما أشار إليه حتى المستشرقين، وعلى رأسهم "ول ديورانت" الذي أكد أن: ((...الزائر إذا دخل مدينة في أي بلد من بلاد الإسلام يخالجه شك في أنه يستطيع الاستماع إلى محاضرة علمية في مسجد المدينة الأكبر في أي ساعة من ساعات النهار...))[٤٢]. وهو ما عضدته "زيغريد هونكة" أن في مساجد العالم الإسلامي ((...يجلس إلى جوار الأعمدة الدقيقة الجميلة الأساتذة، وحلقة الدرس من الطلاب، وهم يلقون محاضراتهم والأبواب مفتوحة والحضور مباح للجميع...))[٤٣].

وتؤكد هذه الشهادات أن المساجد في العالم الإسلامي كانت نبراسا للعلم فلم تخل يوما من طلبة العلوم ولا سيما العلوم الشرعية، وهي وظيفة ظلت لصيقة ببيوت الله، وبالمثل كانت مساجد تازة وعلى رأسها المساجد الجامعة، تحفل بحلقات الدروس والعلم؛ خاصة وأن المدينة تتوفر على ثلة من العلماء والفقهاء والمفتين، استطاعت تكوين أجيال من الطلبة أصبحوا مقصدا للعلم وعلى رأسهم أبي الحسن الصغير حامل راية المذهب المالكي، والذي قدمه يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني لمنصب القضاء في تازة على سن الفتوة والأشياخ متوافرون.[٤٤]

فقد كانت المساجد التازية، مجالاً لتدريس أبناء المدينة من جهة؛ وتحفيظهم القرآن الكريم؛ وتلقينهم أصناف العلوم الأخرى من جهة ثانية، آية ذلك ما ورد في رسوم الحوالات الحبسية من خلال ذكر العديد من الكراسي العلمية التي كانت تقام بجوامع تازة خاصة المسجد الأعظم ومسجد الأندلس، حيث استفاد الأول من وقف ((...الشاب الأنجب عياد بن عياد الطالسي المالكي على قارئ الشفا بعد صلاة الصبح على كرسي الجامع الأعظم من مدينة تازى أمنها الله...))[٤٥]. واستفاد الثاني من حبس ((...على قارئ الشفا به، فمن ذلك العرصة المنسوبة لشقرون بن عبو الكائنة بباب الشريعة وعلى مقربة من الباب المذكورة...))[٤٦].

ومن تجليات الوظائف التعليمة توفر المساجد على خزانات تمتلئ رفوفها بنفائس الكتب المخطوطة، والشاهد عندنا خزانة المخطوطات بالمسجد الأعظم التي تعتبر من الدرر التراثية لتازة التي تحتضن بين جدرانها كنوزا نفيسة، مخطوطات تحكي عن حضارة متلاشية لمجال كان في صدارة مجالات المغرب الأقصى.

الأدوار المذكورة كانت من الأسباب التي خلقت المناخ الملائم لتطور العلوم الدينية، وهو ما جسده وجود عدد كبير من العلماء والقضاة والمفتين التازيين الذين بلغت شهرتهم الآفاق؛ وكان لهم دور كبير في نشر العلم والمعرفة من خلال عنايتهم ورعايتهم للقرآن والسنة وعلوم اللغة وغيرها من العلوم الأخرى.

وتأسيسًا على هذه الوظائف أصبحت المساجد التازية مؤسسات عظيمة وذات رمزية روحية، وهو ما جعل أهل تازة يتزلفون إليها بالنُذر عبر التبرعات والصدقات من أجل الاستمرار في أداء واجباتها، وهو ما كشفت عنه بعض المسائل الفقهية مثل النازلة التي أجاب عنها الفقيه العمراني الشريف بوجوب أداء النذر

بالنسبة للمرأة التي أشهدت على نفسها أنها ((...متى راجعت مفارقها فلانًا من الطلقة الخليعة التي طلقها قبل هذا، فإنها ألزمت نفسها أداء خمسين دينارا من الذهب المعين الكبير الضرب للجامع الأعظم بتازى المحروسة...))[٤٧]. وبالمثل؛ كانت الأسر التازية توصي بنصيب من تركتها للمسجد الأعظم بعد الوفاة، وهو ما كشفت عنه الواقعة التي استفتي فيها العبدوسي حيث ذكر أن رجلا ((...أوصى بثلث متخلفة لثلاثة رجال معينين، ثم قال في وصيته: فمن مات منهم يرجع النظر في نصيبه لإمام الجامع الكبير بتازا...))[٤٨]. هذا مع الاهتمام بترميم المساجد وحمايتها من الخراب، كما هو واضح في النازلة التي سئل خلالها العبدوسي عن ((...أطراف من نحاس تألقت بالجامع الأعظم من تازى ولا بقي للجامع فيها منفعة وإصلاحها بدراهم، ويخاف إن بقيت أن تضيع...))[٤٩]. كلها سلوكات تعكس ذهنية المجتمع التازي في حماية معماره الديني وضمان استمرارية وظائفه وتفصح عن سمو مكانة المساجد التازية.

خَاتِمَةٌ

إن حديثنا عن مساجد تازة لم يكن من باب بيان قوة عمارتها، أو من باب التباهي بمساجدها، أو حتى بحثا في أنواعها وعددها، بل كانت غايتنا بيان الأدوار التي أدتها خلال العصر الوسيط؛ ذلك أن القيمة التي تكشف عنها هذه الدراسة توضح بأن مساجد تازة كغيرها من المساجد الأخرى في المغرب الأقصى أو الغرب الإسلامي عموما، كانت شبيهة بخلية نحل لم تقتصر مهمتها على الصلاة فقط، بل تعدته إلى أغراض الدين والمجتمع كتعليم الأطفال والطلاب ومباشرة أمور القضاء والإفتاء والشورى. وعليه فقد عدت من المؤسسات التي تدخل ضمن الخطط الدينية التي كان لها موقع متميز لدى الدولة، فحري بنا استحضار تلك الأدوار والعمل على إحيائها في مجتمعنا، في وقت أصبحت فإذا كانت المدرسة اليوم مجالا لتلقين المعارف، فإن المساجد – رغم انكماش وظائفها في هذا العصر بسبب تعدد المؤسسات-أرضيات ومجالات لبناء القيم والفضائل النبيلة، وتلك هي الوسيلة الفعالة لصناعة إنسان متكامل قادر على القيام بأدواره على أكمل وجه.

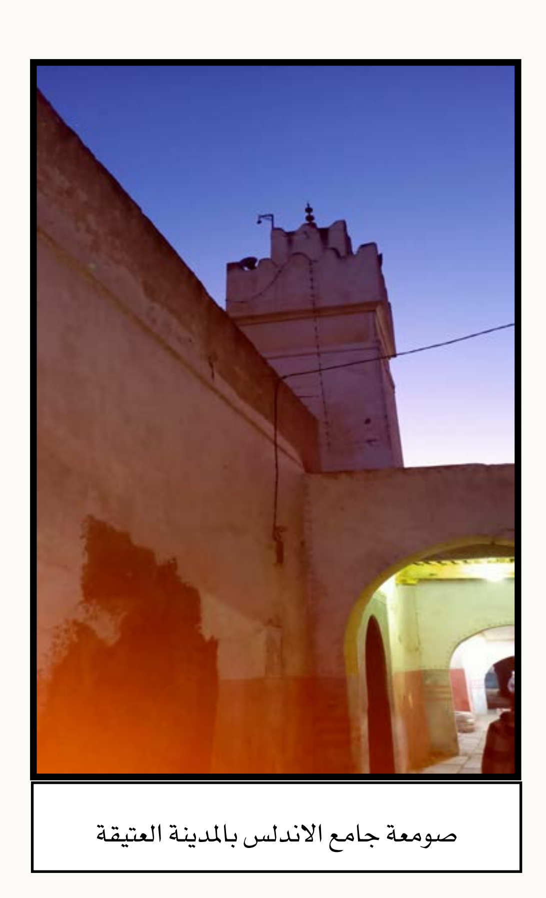
الملاحق



كتاب تبصرة اللخمي، حبسه أبو عنان المريني على المسجد الأعظم بتازى



المدخل القديم للمكتبة المرينية الموجودة بالمسجد الأعظم



صومعة جامع الاندلس بالمدينة العتيقة

الاحالات المرجعية:

(١) الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الأفريقي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ج/١، ص٣٥٤.

(٢) أبو محمد سيدي الشرقي بن محمد الإسحاقي، **رحلة الوزير الإسحاقي الحجازية**، دراسة وتحقيق محمد الأندلسي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المملكة المغربية، دار أبي رقراق للطباعة وللنشر، الطبعة الأولى ٢٠١٧، ج/١، ص ١٥٥. يُنظر أيضًا:
Lévi-Provençal; **Un nouveau texte d'histoire mérinide: Le - Musnad d'Ibn Marzuk** ; Emile Larose éditeur ; Paris ;1925. P 2.

(٣) الإسحاقي، **رحلة الوزير الإسحاقي ...** ج/١، ص ١٥٥.

(4) Henri terrasse, la grande mosquée de Taza, les éditions d'art et d'histoire, paris, pp 17-18.

(5) Ibid., pp 18-19.

(٦) ابن أبي زرع الفاسي، **روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، منشورات دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط ١٩٧٢، ص ٤٠٩.

(٧) قال الناصري: ((...سنة ثلاث وتسعين فرغ السلطان يوسف من بناء جامع تازا وعلقت به الثريا الكبرى من النحاس الخالص وزنها اثنان وثلاثون قنطارا وعدد كؤوسها خمسمائة كأس وأربعة عشر كأسا وأنفق السلطان في بناء الجامع وعمل الثريا المذكورة ثمانية آلاف دينار ذهبا...)). يُنظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتب العلمية -بيروت، الطبعة الثانية ٢٠١٠، ج/٣، ص ٧٥-٧٦.

(٨) حوالة أحباس تازة، اللوحة ١٢

(٩) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٣١

(10) Saghir Mabrouk, **la ville de Taza: recherche d'histoire d'archéologie monumentale et d'évolution urbain**, Thèse de doctorat, Université de Paris,1992, volume II, p :321-332

(11) Saghir Mabrouk, **la ville ....op.cit**, v II, p 345

(١٢) حوالة أحباس تازة، اللوحة ١٧٤.

(١٣) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٥٦.

(14) Saghir Mabrouk, **la ville ....op.cit**, v I , p 357

(١٥) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٩٨.

(16) Saghir Mabrouk , **la ville ....op.cit**, v II p 353

(١٧) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٢٧٣.

(١٨) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٦٨.

(١٩) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٢٢٨.

(٢٠) هذا المسجد كان ينعت أيضًا بمسجد سيدي عزوز؛ سندنا فيما نقول ما ورد في رسم الحوالة الحبسية ((...وهو الذي لجانب الحبس نصفه على قراء الحزب بمسجد الغزالين وسمي أيضًا بمسجد الحمام والنصف الآخر لمن تركه من الحبس بجميع منافع بياض الجنان المذكور وعامة مرافقة وكافة حقوقه...)). يُنظر اللوحة ١٣٠ من حوالة أحباس تازة.

(٢١) حوالة أحباس تازة، اللوحة ١٢٩-١٣٠.

(٢٢) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٣٠٣.

(٢٣) حوالة أحباس تازة، اللوحة ١٤.

(٢٤) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٢٥٤.

(٢٥) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٤٦.

(٢٦) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٤٢.

(٢٧) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٢٩٥.

(٢٨) أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، دار المنصور للطباعة والوراقة-الرباط ١٩٧١، ص ٢٢.

(٢٩) حوالة أحباس تازة، اللوحة ٢٠٤.

(٣٠) الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، إشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، ١٩٨١، **ج/٢، ٤١٩.**

(٣١) يرجى مراجعة:
- Abdelkrim KHABBACH, Aspects religieux, économiques et environnementaux des monuments anthropologiques de la tribu, Gzennaya (nord-est du Maroc), cas de Malal, Revue AFN Maroc, N° : 27-28 , Décembre 2020.

(٣٢) أشار الونشريسي إلى ظهور طائفة بدعية خالفت ما عليه أهل السنة وخرقت الإجماع بأحواز تازة، طائفة ورد فيهم ظهير من السلطان في مدة قضاء الترجالي؛ يدعوه للبحث في أمرهم، فاجتمع الناس عليهم في مسجد السيناتي واتفقوا على كونهم قوما جهلة، وعليهم طلب التوبة وإلا قتلوا. يُنظر: الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٤٦.

(٣٣) الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٦٨.

(٣٤) الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٤٦.

(٣٥) الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٤٦.

(٣٦) لعل المقصود به السلطان أبو الحسن المريني (٧٤٩-٧٣١هـ/ ١٣٣١-١٣٤٨م)، الذي عاصر هذه المرحلة، سندًنا في ذلك هو كون القاضي التازي أبي عبد الله الأصبغ عيسى بن محمد الترجالي الذي وصله الظهير السلطاني للبث في القضية، سبق أن أثبت في سياق نازلة أخرى مؤرخة بتسعة وثلاثين وسبعمائة. يُنظر: الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٨٠.

(٣٧) الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٦٧.

(٣٨) الونشريسي، المعيار...، ج/٣، ص ٩٧.

(٣٩) حوالة أحباس تازة، اللوحة رقم ٦٠.

(٤٠) الونشريسي، المعيار...، ج/٧، ص ٧٩.

(٤١) الونشريسي، المعيار...، ج/٢، ص ٤٦١.

(٤٢) ويل ديوانت، قصة الحضارة، ترجمة: زكي نجيب محمود، محمد بدران، عبد الحميد يونس، محمد علي أبو درة، فؤاد أندراوس، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، دار الجيل، بيروت – لبنان، ٢٠٠٢، ج/١٣، ١٦٩.

(٤٣) زيغريد هونكة، شمس الله تشرق على الغرب فضل العرب على أوروبا، ترجمة وتحقيق فؤاد حسنين علي، دار العلم العربي، ٢٠١٠، ص ٢٩٩.

(٤٤) أحمد بن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، طبعة ١٩٧٣، ج/٢، ص ٤٧٢. ابن القاضي، درة الحجال...، ج/٣، ص ٢٠٤.

(٤٥) حوالة أحباس تازة، اللوحة رقم ١٥٩.

(٤٦) حوالة أحباس تازة، اللوحة رقم ٥٤.

(٤٧) الونشريسي، المعيار...، ج/٤، ص ١١١.

(٤٨) العبدوسي، أجوبة العبدوسي...، ص ٤١٤.

(٤٩) الونشريسي، المعيار...، ج /٧، ص٥٢.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

اللغة اللاتينية في المصادر العربية الإسلامية
ق٣ – ١٠هـ/ ١٠ – ١٦م



يوسف المساتي
باحث دكتوراه في التاريخ وعلوم الآثار والتراث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – عين الشق
جامعة الحسن الثاني – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يندرج هذا المقال ضمن الأبحاث الرامية إلى نقد السردية التاريخية السائدة، وإعادة تمحيص الروايات التاريخية الرسمية، عبر طرح تساؤل أساسي حول اللغة اللاتينية، وقد انطلقت من فكرة جاك لوغوف التي قامت على تفعيل التقابل بين الشرق والغرب، فإن المقال يبحث عن الوجود الأوروبي ممثلاً باللغة اللاتينية في المصادر العربية الإسلامية، وذلك من خلال دراسة حضور اللغة اللاتينية في المصادر العربية الإسلامية منذ بداية عصر التدوين وحتى القرن السادس عشر الميلادي، حيث يرصد مختلف الإشارات الواردة لها في هذه المصادر، وارتباطاتها الجغرافية أيضًا، ويتتبع تطور حضور اللغة اللاتينية في المصادر العربية الإسلامية كرونولوجيا. كما يرصد المقال ارتباط اللاتينية في المصادر العربية الإسلامية بالأندلس وشمال أفريقيا، عوضًا عن الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط، إضافة إلى ما يعتري السردية اللاتينية من ثغرات ومشاكل، إذ أن الخط اللاتيني لم يعرف ظهوره بشكل منسجم ومتسق في المصادر العربية إلا بعد القرن السادس عشر الميلادي، وما يعتبر وجودا لاتينيا يظل محط كثير من علامات الاستفهام والتساؤل.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٣٠ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٩ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

المصادر العربية؛ اللغات القديمة؛ اللغة اللاتينية؛ الأندلس؛ أفريقيا

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.340687 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

يوسف المساتي. "اللغة اللاتينية في المصادر العربية الإسلامية ق٣ – ١٠هـ/ ١٠ – ١٦م".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ٨٤ – ٩٦.

Corresponding author: elmoussatiyoussef@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط؟ كانت هذه الجملة عنوان كتاب صدر سنة ٢٠٠٣ للمؤرخ الفرنسي جاك لوغوف، والذي سعى فيه منذ البداية إلى إبراز أن "أوربا بدون تاريخ ستكون يتيمة وبئيسة، لأن اليوم يخرج من الأمس، والغد ينبثق من الماضي"[١]، كاشفًا بذلك عن توجهه العام الهادف إلى تأكيد أن فكرة الاتحاد الأوروبي، ليست وليدة منتصف القرن العشرين، بل إنها تعرف جذورها في أوروبا الوسيطية، وهو ما أعلن عنه صراحة في موضع آخر بالقول أن: "الانخراط الملتزم في عملية تشييد أوروبا يجب أن يتم في إطار معرفة عميقة بالماضي ونظرة استشرافية للمستقبل"[٢]

ولأن التاريخ معرفة، والمعرفة سلطة (كما وضح ذلك فوكو ودريدا) تشكل وعي المجتمعات بذاتها وبالآخر، فإن كتابة التاريخ، كانت في شق منها ممارسة لنوع من السلطة والهيمنة، لهذا فإن فكرة جاك لوغوف أحد أعمدة مدرسة الحوليات التاريخية (إلى جانب بروديل وآخرون)[٣] ليست جديدة، فآباء التاريخ الكولونيالي اعتمدوا على التاريخ من أجل إضفاء الشرعية على الحملات الاستعمارية، وعصر النهضة اعتمد على التراث اليوناني الروماني وغيرهم كثير. وإذا كان الاستعمار المباشر قد انتهى فإن أشكاله الأخرى مستمرة، ومن بينها استعمار الوعي التاريخي وتزييفه، من هنا يصبح أحد أدوات التحرير هو الاتجاه صوب الهامش او التابع (بتعبير مدرسة "دراسات التابع الهندية) أو صوب ما أسماه بول ريكور بالذاكرة العادلة، التي ترد الاعتبار إلى ما تم نسيانه وتزييفه وتعيد تركيب التاريخ من جديد.

في هذا السياق، وما دامت بداية المقال كانت مع جاك لوغوف فسيكون سؤاله هو المنطلق لها أيضًا، من خلال طرح السؤال هل وجدت أوروبا الوسيطية؟ وبما أن لوغوف أكد أن العصر الوسيط عرف تفعيل مقولة التقابل بين الشرق والغرب، وبما أن جزءا من مشروع مدرسة المراجعين الجدد، ذهب إلى البحث في بدايات الإسلام في المصادر غير الإسلامية، فسيكون من المشروع رصد تقابل الشرق والغرب، والبحث عن الوجود الأوروبي في المصادر الشرقية أو بتعبير أدق العربية الإسلامية، وبما أن اللاتينية اعتبرت أحد أعمدة عصر النهضة، فسيكون السؤال مشروعا إذا: كيف حضرت اللغة اللاتينية في المصادر العربية الإسلامية؟

حسب السردية الرسمية يفترض أن اللغة اللاتينية شملت حيزًا كبيرًا من المجال الجغرافي الذي سيصبح فيما بعد إسلاميا، وهو ما يفترض أن يكون لهذا الأمر صدى في مصنفات المسلمين، الذين اهتموا بنقل وتدوين مظاهر شعوبهم والشعوب المجاورة لهم، حتى فيما يتعلق بالمظاهر اليومية لحياتهم وتاريخهم وغيرها، فكيف حضرت اللغة اللاتينية في المصادر العربية الإسلامية؟ ما طبيعة العلاقة بين الروم واللاتين؟ وهل يمكن اعتبار الخط الرومي هو الخط اللاتيني؟

هذه بعض من الأسئلة التي وجهت هذا المقال، والذي وظف المنهج التاريخي والوصفي من أجل محاولة الإجابة عليه، وقد تمت الاستعانة بمكتبة الشاملة التي تضم أكثر من ٨ آلاف كتاب من أمهات المصادر الإسلامية في مختلف التخصصات، إضافة إلى مراجعة المصنفات التراثية المعروفة في كتب الرحلات والجغرافيا والتاريخ بالخصوص، سواء في بلاد المشرق الإسلامي أو الغرب الإسلامي. وقد خلص المقال إلى أن الخط اللاتيني لم يعرف ظهوره بشكل منسجم ومتسق في المصادر العربية إلا بعد القرن السادس عشر الميلادي، وأن ما يعتبر وجودًا لاتينيًا يظل محط كثير من علامات الاستفهام والتساؤل، بل إن ظهور الخط اللاتيني اقترن بأفريقيا والأندلس، وأنه لا وجود لما يؤشر على وجود لاتيني سابق على هذه المرحلة.

أولاً: اللاتينية في المصادر العربية إلى حدود القرن السادس الهجري/ الثاني عشر ميلادي

١/١-إشارة البكري

تغيب الإشارة للاتينية أو اللاتين، بمختلف الصيغ في المصادر العربية (المطلع عليها) على اختلاف أنواعها قبل القرن الخامس الهجري، بل حتى المصادر التي اهتمت بالفهارس، أو بالأقلام والخط، لم تشر للخط اللاتيني أو القلم اللاتيني، فابن النديم مثلا، أشار لأغلب الأقلام أو

الخطوط المعروفة، إلا انه لم يشر للاتيني، وكذلك القلقشندي.

وأقدم إشارة تم تسجيلها عن اللاتينية، وردت في كتاب "المسالك والممالك" لأبو عبيد البكري (ت ٤٨٧ ه)، وقد ذكرها مرتين، جاءت الأولى في معرض حديثه عن مدينة إشبيلية، حيث أورد: "وهي قديمة أولية، زعم أهل العلم باللسان اللطيني أن أصل تسميتها إشبال معناه المدينة المنبسطة، ويقال إن الذي بناها يوليش قيصر وإنه أول من تسمى قيصر"(٤).

أما إشارته الثانية، فقد جاءت عند حديثه عن مدينة طليطلة، حيث أورد: "ذكر مدينة طليطلة: معنى طليطلة باللطيني تولاظو، معناه فرح ساكنها يريدون لحصانتها ومنعتها"(٥).

إن التأمل في هاتين الإشارتين، يجعلنا نقف على عدة ملاحظات، أهمها:

- اقترنت إشارتي البكري بمدينتين أندلسيتين فقط، رغم أن البكري فصل في تاريخ المدن من الشرق إلى الغرب، وأورد معطيات كثيرة عنها، إلا أن الحديث عن اللاتينية ارتبط بإشبيلية وطليطلة فقط، بينما لم يشر لأي ارتباط بين اللاتينية ومناطق أخرى عرفت أيضًا (حسب السردية الرسمية) بأنها لاتينية.
- اقترنت الإشارتان عند البكري باللسان، وليس الحرف أو القلم أو الخط، وهو ما يحيل إلى اللهجة وليس إلى الكتابة.

يمكن القول إذا بغياب أي وجود لاتيني في المصادر العربية، إلى حدود القرن الخامس الهجري زمن البكري، وقد يعترض البعض على هذا الرأي، بالقول، أن اللاتين وردوا تحت اسم الروم، وأن اللسان يمكن أن يعني الخط أو القلم أيضًا، ولا يشترك أنه يعني لهجة فقط، وهو ما ينسف الافتراض السابق، لكن هذا القول مردود عليه من ستة أوجه:

الوجه الأول: أن البكري خصص فصلاً كاملاً للروم والحديث عن تاريخهم، فكان من باب أولى أن يربطهم باللاتينية واللاتيني، فلماذا صمت عن هذا الربط وهو الذي تحدث عن تاريخ الروم، وملوكها ومدنها وغيرها؟

الوجه الثاني: أشار البكري مرارًا إلى أن لسان الروم كان الإغريقية، حيث أورد عند حديثه عن طيطش: "ثم ملك بعده ابنه طيطش، فكان أحكم ملوك أهل المجوسية باللسان الإغريقي"(٦)، كما أورد حول دخول الرشيد إلى أحد المدن الرومية: "قال أبو العباس: أخبرني شبل الترجمان قال: كنت مع الرشيد حين نزل على هرقلة، فلما افتتحها رأيت حجرًا منصوبًا مكتوبًا عليه باليونانية، فجعلت أترجمه وأمير المؤمنين ينظر إلي وأنا لا أعلم"(٧)؛ تؤكد هذه الشواهد النصية أن الخط الذي كان يكتب به الروم هو اليوناني/ الإغريقي، ولم ترد الإشارة بتاتا عند البكري إلى اللاتيني، فكيف يصمت عن هذا المعطى الهام ولا يورده؟

الوجه الثالث: أن البكري يقيم تمايزا بين اللسان والقلم، فهذا الأخير يعني الخط، ودليل ذلك ما أورده البكري حول القلم المصري القديم: "قيل له: فما بال هذا القلم الذي على الأهرام والبرابي لا يفهم؟"(٨) ويضيف في نص آخر: "وقد جعل بإزاء كل تمثال، تمثال من المرمر والرخام على هيئة الصنم على حسب عبادتهم للتماثيل. (وعليها أنواع من) الكتابات لم يقف على استخراجها أحد من أهل الملل، وزعم قوم من أهل الدراية أن لذلك القلم مذ فقد من أرض مصر أربعة آلاف سنة"(٩)، كما أورد خلال حديثه عن الإسكندر الأكبر أنه: "أتى موضع الإسكندرية فأصاب أثر بنيان وعمد رخام منها عمود عظيم مكتوب عليه بالقلم المسند- وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد(١٠)

أما اللسان عند البكري فيعني اللهجة أو اللغة، كما تدل على ذلك عدد من النصوص التي أوردها منها، ما أوردها بخصوص لسان شعيب الذي "كان عربي اللسان"(١١)، كما أورد بخصوص الألسنة: "فيقال: عند ذلك تبلبلت ألسن الناس من الفزع، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا، فلذلك سميت بابل، وإنما كان لسان الناس قبل [ذلك] بالسريانية"(١٢)، كما أورد عن الروس: "وسكنى بروس على البحر المحيط ولهم لسان على حدة لا يعرفون ألسنة المجاورين لهم"(١٣)، ويضيف في نص آخر: "ولسان الخزر غير لسان الترك والفرس وهي لغة لا تشاركها لغة من لغات الأمم"(١٤)، ويورد في نص آخر:

"فكلموها بكل لسان علم هناك فلم تجاوب منهم أحدا"[١٥].

يبدو واضحًا من خلال هذه النصوص، أن البكري يميز بين القلم واللسان، فيعني الأول الكتابة أو الخط، بينما يعني الثاني اللغة أو اللهجة، وفي الإشارتين اللتين أوردهما حول اللاتينية اقترنتا باللسان، أي اللهجة، ولا ورود للحرف في هذا السياق، إن صمت البكري في هذا السياق يمكن ربطه بالغياب، أي غياب القلم اللاتيني؟

الوجه الرابع: ربط البكري في إشارتيه بين اللاتينية والأندلس، في حين أنه كان يقيم تمايزا بين الروم والأندلس، فكان يتحدث عنهما كمنطقتين، بل وثقافتين مختلفتين، كما تؤكد ذلك نصوص البكري عن الروم أو الأندلس التي كان يهمين فيها الجلالقة، أكثر من هذا فإن العلاقة بين الروم والجلالقة كانت عدائية وحربية، فكيف إذا يقترن ذكر اللاتيني بالأندلسي فقط؟

الوجه الخامس: ويتعلق بترتيب البكري إذ ينتقل من ملوك الإغريق بمصر والشام الى تاريخ الروم ثم يعقبها مباشرة بملوك السودان والبربر وتبقى أوروبا في الأخير، ولنا أن نتساءل عن سر هذا التدرج في الترتيب؛ إضافة لهذا فقد أورد البكري أثناء حديثه عن الأقاليم، أن الخامس "يمر في بلاد الروم على خرشنة، ثم يمر بسواحل الشام مما يلي الشمال، ثم يمر على بلاد الأندلس"[١٦]، لا يبدو هذا الترتيب عشوائيا، أو خطأ من المؤلف، بل له أكثر من دلالة جغرافية لا يسع مجال الدراسة في تناولها، وما يهمنا هو وجود فصل مجالي بين الأندلس والروم.

٢/١-إشارة الإدريسي

تنعدم أي إشارات أخرى متعلقة باللاتينية بعد البكري، ولن تظهر إشارة أخرى إلا بعد حوالي قرن من الزمن، عند الشريف الإدريسي (ت. ٥٦٠ هـ) الذي أورد إشارة جد مهمة في كتابه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عند حديثه عن مدينة قفصة، جاء فيها: "وأهلها متبربرون وأكثرهم يتكلم باللسان اللطيني الإفريقي"[١٧]، تعتبر هذه الإشارة جد مهمة، إذ تشير إلى أن أهالي قفصة، متبربرون، أي من البربر أو البرابر، وأن لسانهم (لهجتهم) هي اللاتينية الإفريقية. لا يضيف الشريف الإدريسي أي معطيات أخرى تتعلق بهذا الأمر، وبالعودة إلى كلمة لسان يتأكد من أنها تعني اللغة واللهجة ولا تعني الحرف والخط، وبالتالي يجوز السؤال عن سبب الربط بين البربرية الإفريقية واللاتينية؟

إضافة لهذا فإن كثيرًا من الأسئلة تطرح نفسها: إذ لماذا لم يورد الإدريسي اللاتينية أو ما يدل عليها في أي موضع آخر؟ لماذا سكتت المصادر التي أرخت لهذه الفترة عن هذا المعطى؟ وما العلاقة بين الإفريقي واللطيني؟ ألا يفترض أن اللسان اللاتيني (اللطيني) ينتمي لشمال المتوسط، فما علاقته بقفصة التي تنتمي لجنوب المتوسط (حسب السردية الرسمية دائمًا)؟

كيف لم يسجل الإدريسي حضور اللاتينية في أوروبا وأفريقيا وهو الذي تعلم في قرطبة وعاش في صقلية (حسب السردية الرسمية)، وهي مناطق تعتبر "لاتينية"؟ بل إن كتابه كان إهداء لملك إيطالي ومع ذلك لا يشير لأي حضور للاتينية؟ كيف يتجاهل الإدريسي هذا المعطى اللساني المهم وهو الذي اهتم بتدوين كل المظاهر الثقافية (بالمفهوم الشامل للثقافة) للشعوب موضوع كتابه؟ ثم ما سبب عدم وجود أي طبعة لاتينية من كتاب الشريف الإدريسي الذي قدمه للملك الإيطالي روجر الثاني إلى غاية القرن السابع عشر، علما أن النسخة العربية المطبوعة منه صدرت سنة ١٥٩٢؟

ثانيًا: اللاتينية في المصادر العربية بعد القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر ميلادي)

ستتوالى الإشارات إلى اللاتينية بعد القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)، ويمكن تقسيم حضور اللاتينية في المصادر العربية الإسلامية خلال هذه الفترة إلى مستويين، تعلق الأول منها باجترار ما ورد في المصادر السابقة خاصة إشارتي البكري، أما المستوى الثاني فقد قدم معطيات تاريخية أو جغرافية جديدة.

١/٢-اجترار الإشارات السابقة

إشارتي البكري

إشبيلية: وردت الإشارة إلى إشبيلية في كتب الجغرافيا والموسوعات الجغرافية، حيث أوردها الحميري (ت ٩٠٠ هـ) في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار، بنفس الصيغة التي أوردها البكري ولم يضف

أي جديد لها، ف"اشبيلية مدينة بالأندلس جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام ومن الأميال ثمانون، وهي مدينة قديمة أزلية يذكر أهل العلم باللسان اللطيني أن أصل تسميتها إشبالي معناه المدينة المنبسطة ويقال إن الذي بناها يوليش القيصر وإنه أول من تسمى قيصر"[١٨]. كما اجتر نفس الإشارة في كتابه "صفة جزيرة الأندلس" حول إشبيلية دون أي إضافات أو تعديلات[١٩]

طليطلة: يجتر الحميري رواية البكري بخصوص طليطلة دون أي إضافات أخرى، حيث أورد ما نصه: "وزعموا أن معنى طليطلة باللطيني " تولاطو " – معناه " فرح ساكنها " يريدون لحصانتها ومنعتها"[٢٠]؛ وأضاف في صفة جزيرة الأندلس: "فرح ساكنوها، يريدون لحصانتها ومنعتها"[٢١].

إشارة الإدريسي

رغم أن الحميري يجتر نفس معطيات الإدريسي، حول قفصة لكنه يقدم بعض المعطيات الإضافية المهمة، حيث أورد عن قفصة: "وكان على أحد أبوابها كتابة منقوشة في حجر من عمل الأول ترجمت فإذا هي: هذا بلد تحقيق وتدقيق وتدنيق. وكذلك ليس بإفريقية حريم أجمل من حريم قفصة.. وأهل قفصة يتنافسون في المياه كلها ويتبايعون سقيها بأعلى ثمن، وأكثرهم يتكلم باللسان اللطيني الإفريقي. ومدينة قفصة مركز البلاد الدائرة بها"[٢٢]. تعتبر هذه الرواية مهمة، إذ أكد الحميري فيها انتماء قفصة لإفريقية، ووجود كتابة قديمة فيها، وهي مركز البلاد فيها، حيث يوجد اللسان اللطيني الأفريقي، لكنه لا يشير هل هذه الكتابة تتعلق باللسان اللطيني، أم أنها كتابة بخط ولسان آخر.

أيًا كان الجواب، فسيكون مناقضا للسردية الرسمية، إذ لو افترضنا أن هذه الكتابة القديمة هي اللاتينية أو اللسان اللطيني الأفريقي، فسنخلص إلى أن الحرف اللاتيني هو حرف أفريقي، كان لسانا لمنطقة مهمة تشكل قفصة مركزها أو عاصمتها، وبالتالي نصبح أمام القول بالأصول الأفريقية للحرف اللاتيني، وهو ما ينافي السردية الرسمية التي تقول بالأصل الأوروبي للسان اللاتيني. أما إذا كانت الكتابة بحرف آخر، فسيدفع هذا إلى القول بأن اللسان الأفريقي اللطيني لسان طارئ ومستحدث، وأنه إلى ما بعد القرن السابع الهجري، لم يعرف طريقه للتشكل بعد ككتابة، وفي هذا مأزق كبير للسردية القائمة.

٢/٢-معطيات جديدة

معطيات بشرية

أوردت المصادر العربية اللاتينية مقترنة بترجمة "الشاطبي أبو محمد القاسم بن فيره"، الذي يعتبر واحدا من أشهر علماء القراءات في الأندلس وبلاد الغرب الإسلامي على العموم، حيث جاء في معرض ترجمته عند الشارعي "وفيره: بكسر الفاء وسكون الياء المثناة من تحت، وتشديد الراء المهملة المضمومة، وهو بلغة اللطينى من أعاجم الأندلس، ومعناه بالعربي: الحديد"[٢٣]. وقد وردت نفس الترجمة بنفس اللفظ والمعنى عند ابن خلكان في وفيات الأعيان[٢٤]، وكذلك عند نكث الهميان[٢٥]، ولا تتضمن هذه الإشارات أي معطيات إضافية باستثناء الإشارة إلى أن اللطيني هو لغة بعض من أعاجم الأندلس. وفق هذا المعطى، ينحصر مجال لاتينية الأندلس في أنها لسان بعض من أعاجمها، ويتأكد افتراض أننا أمام نوعين من اللاتينية، الأولى لسان برابرة قفصة الأفريقية وهي اللاتينية الأفريقية، والثانية لسان بعض من أعاجم الأندلس وهي اللاتينية الأندلسية

معطيات جغرافية

وردت الإشارة إلى عدد من المواقع الجغرافية الجديدة ارتبطت باللاتينية، وقد انفرد الحميري بهذه الإشارات في كتابيه "الروض المعطار" و"صفة جزيرة الأندلس"، لكونه جمع ما تضمنته المصادر السابقة، وقدم عملا جمع بين العمل الموسوعاتي والتلخيص، وبتجميع الإشارات الجغرافية الواردة عند الحميري جاءت كالتالي:

طركونة: أشار الحميري، خلال ترجمته لمدينة أركونة الأندلسية أنه قد "ذكر أهل العلم باللسان اللطيني أن معنى طركونة الأرض المشبهة بالمعجنة، وكانت في قديم الزمان خالية لأنها كانت فيما بين حد المسلمين والروم، والأحناش بها مؤذية كثيرة، ومياهها كثيرة"[٢٦]، كما وردت نفس الإشارة بذات اللفظ في كتابه صفة جزيرة الأندلس[٢٧] بغض النظر على أن طركونة هي الحد بين

بلاد الروم والمسلمين، فإن إشارته تتضمن معطى مهم، وهي أن الأحناش مؤذية وكثيرة، وهي حسب الحميري وبعض المعاجم وغيرها، كل ما يدب على الأرض من حيات وأفاعي وعقارب وغيرها، والمهم في هذا المعطى، أن هذا النوع من الزواحف، يظهر وينتشر في البيئات الحارة، أما أحناش البيئات الباردة فلا تكون مؤذية؛ وبالعودة إلى موقع طركونة الحارة، نجد أن درجة حرارتها لا تتجاوز الثلاثين، فيبدو أن الحديث عن منطقة حرارتها فوق المتوسط على الأقل.

قرمونة: أشار الحميري إلى مدينة قرمونة التي توجد شرق إشبيلية، مشيراً أنها "مدينة كبيرة قديمة وهي باللسان اللطيني: كارب مويه – وهي الكاف والألف والراء والباء المعجمة بواحدة، معناه " صديقي"(٢٨)، كما وردت نفس الإشارة بذات اللفظ في كتابه صفة جزيرة الأندلس(٢٩)

ماردة: أشار الحميري إلى مدينة ماردة، موردا أنه "وتفسير ماردة باللطيني:"مسكن الأشراف"(٣٠)، كما وردت نفس الإشارة بذات اللفظ في كتابه صفة جزيرة الأندلس(٣١).

أريولة: أشار الحميري إلى مدينة أريولة، مورداً أنها "ومدينة أوريولة قديمة أزلية كانت قاعدة العجم وموضع مملكتهم، وتفسيرها باللطيني الذهبية"(٣٢)، كما وردت نفس الإشارة بذات اللفظ في كتابه صفة جزيرة الأندلس(٣٣).

لورقة: أشار الحميري إلى مدينة لورقة، موردا: "وتفسير لورقة باللطيني "الدرع الحصين"، وهذا الاسم وافق معناه لأنها من المعاقل الحصينة"(٣٤)، كما وردت نفس الإشارة بذات اللفظ في كتابه صفة جزيرة الأندلس(٣٥).

الملاحظ أن هذه الإشارات لا تتجاوز الإشارة إلى المقابل في اللسان اللاتيني لأسماء بعض المدن الأندلسية، وهي كلها إشارات عابرة قصيرة، لا يمكن أن تسهم في تشكيل رؤية عن حضور اللسان اللاتيني في هذه المنطقة. الملاحظ أيضاً أن هذه الإشارات اقتصرت على منطقة الأندلس، دون باقي المناطق، وأنها خاصة ببعض من أعاجم الأندلس، وهو ما يقوي فرضية أن اللسان اللاتيني المقصود كان لسان حال مجموعة بشرية موجودة من أعاجم الأندلس خلال هذه الفترة.

معطيات تاريخية

أوردت النصوص بعض الإشارات التاريخية المرتبطة باللاتينية، وبتجميعها وتنظيمها، تم الحصول على الآتي:

الراهب نقولا

تعتبر قصة "نقولا الراهب" الذي أرسله أرمانيوس إلى الناصر من أجل ترجمة أحد كتب الطب، الرواية التاريخية التي وردت فيها الإشارة إلى اللاتينية، وقد جاءت القصة في عدد من المصادر يرجع أقدمها إلى القرن السابع الهجري، رغم أن القصة تدور في فترة الناصر خلال القرن الرابع الهجري بالأندلس. وفيما يلي نسوق الرواية كما وردت عند ابن أبي أصبيعة، مع بيان التعديلات والإضافات الواردة في المصادر الأخرى:

"وكتب أرمانيوس في كتابه إلى الناصر إن كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف أشخاص تلك الأدوية، فإن كان في بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب وأما كتاب هروسيس فعندك في بلدك من اللطينيين من يقرأه باللسان اللطيني وإن كشفتهم عنه نقلوه لك من اللطيني إلى اللسان العربي. قال ابن جلجل ولم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الأندلس مَنْ يقرأ اللسان الإغريقي الذي هو اليوناني القديم فبقي كتاب ديسقوريدس في خزانة عبد الرحمن الناصر باللسان الإغريقي ولم يترجم إلى اللسان العربي وبقي الكتاب بالأندلس والذي بين أيدي الناس بترجمة أسطفن الواردة من مدينة السلام بغداد

فلما جاوب الناصر أرمانيوس الملك سأله أن يبعث إليه برجل يتكلم بالإغريقي واللطيني ليعلم له عبيدا يكونون مترجمين فبعث أرمانيوس الملك إلى الناصر براهب كان يسمى نقولا فوصل إلى قرطبة سنة أربعين وثلثمائة وكان يومئذ بقرطبة من الأطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهل من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس إلى العربية وكان أبحثهم وأحرصهم على ذلك من جهة التقرب إلى الملك عبد الرحمن الناصر حسداي بن بشروط الإسرائيلي وكان

نقولا الراهب عنده أحظى الناس وأخصهم به وفسر من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس ما كان مجهولا"[٣٦]

ويخالف شمس الدين الذهبي جزئية مهمة في هذه الرواية، فبينما يعتبر ابن أبي أصيبعة أنه لم يكن في البلاد من يعرف اللسان الإغريقي، وصمت على اللسان اللاتيني، يورد الذهبي أنه "وكان بالأندلس من يتكلم به، ثم كاتبه الناصر وسأله أن يبعث إليه برجل يتكلم باليوناني واللطيني، ليعلم له عبيدًا، حتى يترجموا له، فبعث إليه براهب يسمى "نقولا""[٣٧] محيلاً بذلك على اللسان اللاتيني. أما الصفدي فيخالف الذهبي، إذ يذكر أن الناصر استقدم نقولا "لأجل كتاب ديسقوريدوس لأنه كان يعرف اللسان اللطيني"[٣٨]

حسب رواية ابن أبي أصيبعة، فإن الهدية جاءت من ملك القسطنطينية إلى الملك الناصر، بكتاب يتضمن تاريخ الروم، وأنه نصحه بأن ينظر من يترجمه من أعاجم الأندلس باللاتينية، لكن لم يجد من يعرف اللسان "اللاطيني" في البلاد فطلب استقدام مترجم أجنبي.

ولا يمكن الوثوق لرواية الذهبي الذي ذكر بوجود من يعرف اللاتينية، والا فما الذي كان سيدعوه (حسب نفس الرواية) إلى طلب مترجمين أجانب لتعليم عبيده؟ فالراجح إذن أن الناصر طلب مترجمين أجانب لعدم وجود مَنْ يتحدث أو يكتب باللسان اللاتيني

الملاحظ أيضًا من هذه الروايات كلها لم تظهر إلا بعد القرن السابع الهجري، وقد كان أول مصدر أشار إليها، هو "عيون الأبناء في طبقات الأطباء"، وهو المصدر الذي لم يتم طبعه إلا سنة ١٨٨٢ بمصر تحت إشراف الألماني "أوغست مولر" وكل الطبعات التي جاءت بعده اعتمدت على طبعة مولر، ولنا أن نتساءل: كيف تسكت المصادر الإسلامية عن واقعة مهمة كواقعة الراهب نقولا طيلة أربعة قرون لم تشر إليها، إلى أن جاء ابن أبي اصيبعة؟ وكيف سكتت المصادر المغربية والأندلسية عن هذه الواقعة وأوردها مصدر شامي؟[٣٩]

اللاتين والإغريق

وردت الإشارة إلى اللاتين بعد القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، في إشارتين عند القلقشندي، متعلقتان بالصراع الإغريقي اللاتيني، حيث أورد في عند حديثه عن ملوك اليوناني وانحدارهم من يونان بن يافث "وتوالى الملك في ولده، وقهروا اللطينيين ودال ملكهم في أرمينية"[٤٠]. وأورد في الإشارة الثانية عن ظهور اللسان اللطيني: "ثم ملك بعده ابنه (برىامش) واتصل الملك في عقب بيقش المذكور وإخوته إلى أن كان منهم كرمنش بن مرسية بن شبين بن مزكة، بعد أربعة آلاف وخمسين لأول العالم في زمن بار بن كلعاد من ملوك بني إسرائيل، وهو الذي ألف حروف اللسان اللطيني ولم تكن قبله[٤١].

وتستوقفنا عنا عدة ملاحظات، نجملها فيما يلي:

الملاحظة الأولى: تحول الصراع من الإغريقي الرومي إلى اللاتيني الإغريقي، فإلى حدود فترة القلقشندي (القرن التاسع الهجري/الخامس عشر ميلادي) كان الصراع روميًا/ إغريقيا، لكن خلال هذه المرحلة سيظهر اللاتين مرادفا للروم، ويصبح الصراع لاطينيا إغريقيًا، وهذا الظهور المتأخر يطرح كثيرا من الأسئلة عن سببه، وعدم وروده في مصادر سابقة، والأهم عن المصادر التي استقى منها القلقشندي مادته هذه حول اللاتين.

الملاحظة الثانية: رغم أن القلقشندي خصص كتابه لفن صناعة الإنشاء لفن الكتابة، وأفرد حيزا مهما للأقلام واللغات، فإنه لم يشر للقلم اللاتيني وكل ما ورد في إشاراته حول تأليف حروف اللسان اللاتيني، في مرحلة لاحقة لتكون اللاطين الذين انهزموا أمام أبناء "يونان"، ولعل هذا ما يوجب التساؤل عن سبب غياب الإشارة للقلم اللاتيني، وكيف يعقل أن يتجاهلها القلقشندي وقد أفرد جانبا لكل الأقلام المعروفة وقته؟ كما أنه ألح على الكتاب بمعرفة الأقلام المعروفة في وقتهم؟ فهل كان القلم اللاتيني غير موجودا؟ أو ليس مهما؟ إن صمت القلقشندي عن القلم اللاتيني وتجاهله الكامل له، باستثناء الإشارتين السابقتين واللتين وردتا خلال الحديث عن ظهور الإغريق واعتبار اللاتين مجموعة بشرية طارئة، تأسست حروف لسانهم في وقت لاحق دون أي تفاصيل إضافية، يمكن أن يعد مؤشرا على الغياب أو الهامشية على الأقل للحرف اللاتيني.

ثالثًا: السردية الخلدونية

يشكل ابن خلدون محطة مهمة في تاريخ السردية اللاتينية، ولابد من تخصيص مجال منفرد لها، وذلك أنه جاء في مرحلة تاريخية انقلبت فيها موازين القوى صوب شمال البحر الأبيض المتوسط، وغدت أوروبا قوة صاعدة تشكل سرديتها التاريخية الخاصة، في حين بدأ نجم الحضارة العربية الإسلامية بالأفول، وسنورد أغلب النصوص التي وردت فيها اللاتينية واللاتين عنده[٤٢] ثم تسجيل بعض الملاحظات والتعليقات حولها.

النص الأول: ورد اللاتين واللاتينية في مقاطع متعددة عند ابن خلدون، وأول ورودها تعلق بالإنجيل إذ أورد: "ثم كتبوا الإنجيل الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب متى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم إلى اللسان اللاتيني وكتب لوقا منهم إنجيله باللاتيني إلى بعض أكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدي منهم إنجيله برومة وكتب بطرس إنجيله باللاتيني ونسبه إلى مرقاص تلميذه واختلفت هذه النسخ الأربع من الإنجيل"[٤٣].

النص الثاني: يفرد ابن خلدون نصا آخر لتاريخ الخط اللاتيني، ففي الفصل الخامس والثلاثون من الجزء الأول الذي خصصه لـ "المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف وإلغاء ما سواها، وقد جاء في هذا النص: "ثم الكتابة مختلفة باصطلاحات البشر في رسومها وأشكالها، ويسمى ذلك قلما وخطا... ومنها الخط اللطيني، خط اللطينيين من الروم، ولهم أيضًا لسان مختص بهم. ولكل أمة من الأمم اصطلاح في الكتاب يعزى إليها ويختص بها..... وأما اللطيني فكان الروم، وهم أهل ذلك اللسان، لما أخذوا بدين النصرانية، وهو كله من التوراة، كما سبق في أول الكتاب، ترجموا التوراة وكتب الأنبياء الإسرائيليين إلى لغتهم، ليقتنصوا منها الأحكام على أسهل الطرق. وصارت عنايتهم بلغتهم وكتابتهم آكد من سواها"[٤٤].

النص الثالث: يفصل ابن خلدون في تاريخ الروم واليونان وأنسابهم حيث أورد في الجزء الثاني من كتابه العبر: "ثم إن المحققين ينسبون الروم جميعا إلى يونان الإغريقيون منهم والطينيون... ونسب الروم اللطينيين فيهم ولم يعين نسبهم في أحد من الخمسة ... ونسب القوط الى ماداي بن يافث وجعل من إخوانهم الأرمن، ثم نسب القوط مرة أخرى إلى ماغوغ بن يافث وجعل اللطينيين من إخوانهم في ذلك النسب ... واسم الغريقيين عنده يشمل أبناء يونان كلهم كما ذكره، وينوع الروم إلى الغريقيين واللطينيين...وإن الشعوب الثلاثة من ولد يونان، فالإغريقيون من ولد أغريقش بن يونان والروم من ولد رومي بن يونان واللطينيون من ولد لطين بن يونان، وإن الإسكندر من الروم منهم والله أعلم"[٤٥].

النص الرابع: وجاء في نص آخر: "هؤلاء اليونانيون المتشعبون إلى الغريقيين واللطينيين- كما قلناه- اختصوا بسكنى الناحية الشمالية من المعمور مع إخوانهم من سائر بني يافث كلهم كالصقالبة والترك والافرنجة من ورائهم وغيرهم من شعوب يافث، ولهم منها الوسط ما بين جزيرة الأندلس إلى بلاد الترك بالمشرق طولا وما بين البحر المحيط والبحر الرومي عرضا، فمواطن اللطينيين منهم في الجانب الغربي ومواطن الغريقيين منهم في الجانب الشرقي والبحر بينهما خليج القسطنطينية. وكان لكل واحد من شعبي الغريقيين واللطينيين منهم دولة عظيمة مشهورة في العالم.... وكانت شعوب هذه الأمة قبل الفرس والقبط وبني إسرائيل متفرقة بافتراق شعوبها، وكان بينهم وبين إخوانهم اللطينيين فتن وحروب ... ولما فرغوا من شأن أهل فارس وأنفوا ملكهم بالجزى والطاعة صرفوا وجوههم إلى حرب اللطينيين، ثم استفحل أمر الإيشاءيين من الغريقيين ولم يكن قوامهم إلا الجرمونيون، فغلبوهم وغلبوا بعدهم اللطينيين والفرناسيين والأركاديين، واجتمع إليهم سائر شعوب الغريقيين واعتز سلطانهم وصار لهم الملك والدولة. وقال ابن سعيد: إن الملك استقر بعد يونان في ابنه أغريقش في الجانب الشرقي من خليج قسطنطينية، وتوالى الملك في ولده وقهروا اللطينيين والروم ودال ملكهم في أرمينية ... وانفرد الاغريقيون برئيس لهم، وصنع مثل ذلك اللطينيون، إلا أن اللقب بملك الملوك كان لملك الروم، ثم ملك بعده ابنه مطريوش فحمل الإتاوة لملك الفرس لاشتغاله بحرب اللطينيين والإغريقيين..."[٤٦]

النص الخامس: "وجمع سبعين من أحبار اليهود ترجموا له التوراة من اللسان العبراني الى اللسان الرومي واللطيني، ثم هلك فلديغيش لثمان وثلاثين سنة من ملكه"(٤٧).

النص السادس: "الخبر عن اللطينيين وهم الكيتم المعرفون بالروم من أمم يونان وأشياعهم وشعوبهم وما كان لهم من الملك والغلب وذكر الدولة التي فيهم للقياصرة وأولية ذلك ومصايره هذه الأمة من أشهر أمم العالم وهي ثانية الغريقيين عند هروشيوش ويجتمعان في نسب يونان، وثالثتهم عند البيهقي ويجتمعون في نسب يونان بن علجان بن يافث، واسم الروم يشملهم ثلاثتهم لما كان الروم أهل المملكة العظمى منهم، ومواطن هؤلاء اللطينيين بالناحية الغربية من خليج القسطنطينية إلى بلاد الافرنجة فيما بين البحر المحيط والبحر الرومي من شماليه. وملك هذه الأمة قديما كانت لهم مدينة اسمها طروبة، وذكر هروشيوش أن أول من ملك من اللطينيين ألفنس بن شطرنش بن أيوب وذلك لعهد دائرة بني إسرائيل وقد مر ذكرها في آخر الألف الرابع من مبدإ الخليقة. وملك من بعده ابنه بريامش واتصل الملك في عقب الفنس هذا وإخوته وكان منهم كرمنس بن مرسية بن شيبن بن مزكة الذي ألف حروف اللسان اللطيني وأثبتها ولم تكن قبله، وذلك على عهد يؤاثير بن كلعاد من حكام بني إسرائيل بعد أربعة آلاف وخمسين من مبدإ الخليقة"(٤٨).

النص السابع: "الخبر عن ملوك القياصرة من الكيتم وهم اللطينيون ومبدأ أمورهم ومصاير أحوالهم، لم يزل أمر هؤلاء الكيتم وهم اللطينيون راجعا إلى الوزراء منذ سبعمائة سنة، كما قلناه من عهد بناء رومة أو قبلها بقليل كما قال هروشيوش، تقترع الوزراء في كل سنة فيخرج قائد منهم إلى كل ناحية كما توجبه القرعة فيحاربون أمم الطوائف ويفتحون الممالك. وكانوا أولا يعطون إخوانهم من الروم اليونانيين طاعة معروفة بعد الفتن والمحاربة، حتى إذا هلك الإسكندر وافترق أمر اليونانيين والروم وفشلت ريحهم وقعت فتنة هؤلاء اللطينيين وهم الكيتم مع أهل أفريقية، واستولوا عليها مرارا وخربوا قرطاجنة ثم بنوها كما ذكرناه"(٤٩).

رابعًا: مناقشة السردية الخلدونية

لقد تعددت النصوص التي وردت فيها اللاتينية أو اللاتين أو اللاطين، وهي نصوص سمتها التناقض والاضطراب، وكأن كاتبها لم يكن واحدا، ولا نعلم هل مرد الأمر إلى منهج ابن خلدون في تدوين التاريخ والنقل منه، أم لاضطراب النساخ والنسخ؟ أم أن الأمر ربما كان تجميعًا لشذرات منسوبة إليه فقط؟ أيًا كان الحال، ومن خلال النصوص الواردة أعلاه يمكن تسجيل الآتي:

يحيل ابن خلدون عند حديثه عن تاريخ الروم أو اليونان أو غيرهم على المؤرخ هروشيوش المعروف بأوروسيوس، ومن المعروف أن ابن خلدون قد نسب إليه مرارا ما ذكره، عن تاريخ الروم والاغريق واللاتين وغيرهم، وقد تمت الإشارة سابقا إلى قصة ابن جلجل الذي كان أول من أورد تاريخ اوروسيوس وترجمته في عهد الناصر وغيرها، مما يستلزم دراسة خاصة لأهمية هذا المصدر وما نسب إليه، لكن الإشكال يظل بأي لغة نقل عنها ابن خلدون، فإذا كان قد نقله باللاتيني، فإن النسخة اللاتينية كتبت في زمن متأخر، كما ان هذا النقل يفترض أن ابن خلدون كان عالما بهذه اللغة، وإذا ما افترضنا هذا الأمر، فكيف له أن يتجاهل الخط اللاتيني ولا يفصل فيه وهو ينقل منه؟ اما إذا كان نقله بناء على النسخة العربية، فإن الأمر لا يخلو من جملة إشكاليات أبرزها أن النسخة العربية الوحيدة التي وجدت للمخطوط تختلف اختلافا بينا عن النسخة اللاتينية؟ وأنها متأخرة زمنيا عن وقت ابن خلدون؟

يشير ابن خلدون في النص الأول إلى أن أغلب الأناجيل جرت كتابتها باللاتينية، وقد انفرد بخبر نقل يوحنا ابن زبدي للإنجيل باللاتينية، وهو خبر لم تنقله أي من المصادر العربية الإسلامية قبله، بل إنه خالف ما ورد حتى في بعض المصادر بعده، فالمقريزي مثلا أورد حول إنجيل يوحنا: "ألفه يوحنا ابن زبدي تلميذ المسيح بعد رفعه بثلاثين سنة، وكتبه باليونانية في بلد آسية، وهو نحو أربع وعشرين ورقة، ويوحنا هذا هو الذي ترجم إنجيل متى من العبرانية إلى اليونانية"(٥٠)

وعلى غرار الملاحظة السابقة، لا يوضح ابن خلدون مصدر خبره هذا، ولا من أين استقاه، بل يقدمه كحقيقة ثابتة لا مجال فيها للظن، وهو ما يطرح كثيرا من الأسئلة حول هذه الرواية، بل إن غياب ما يسندها من روايات وأخبار يدفع إلى تضعيفها، وانفرادها بلفظة اللاتيني التي لا يوجد ما يدعمها حتى عند المؤلف نفسه يدفع إلى تضعيف هذا الخبر.

أما النص الثاني الذي خصصه للخطوط والخط اللاتيني، ففيه جملة ملاحظات وتساؤلات، يمكن إجمالها فيما يلي:

الملاحظة الأولى: يؤكد ابن خلدون في هذا النص ما ورد سابقا من التمييز بين الكتابة واللسان، وأن الكتابة أو الحرف يعرفان بالقلم والخط وليس باللسان، ويميز بين اللغة واللسان والعبارة من جهة، والقلم والخط والكتابة من جهة أخرى. يعضد هذا الأمر التساؤلات السابقة حول عدم الإشارة في المصادر العربية الإسلامية إلى القلم اللاتيني وغيابه، وتشكل اللسان اللاتيني بشكل محتشم.

الملاحظة الثانية: يشير ابن خلدون الى أن اللطينين من الروم لهم لسان وخط مختص بهم، وقد كان بذلك النص الأول في المصادر العربية الذي يتحدث عن الخط اللاتيني عوض اللسان فقط، ونفهم من هذا الكلام، أنه لم يكن خطا لكل الروم، بل لبعضهم فقط، وبالتالي وجود فرق بين الروم واللاتين، وهو ما يدحض الرأي الذي يعتبر أن اللاتين هم الروم، وأن الخط اللاتيني هو الرومي.

الملاحظة الثالثة: يحدد ابن خلدون الخطوط المعروفة والمستعملة في ثلاثة خطوط وهي: السرياني والعربي والعبري، ورغم إشارته إلى اللاتيني إلا أن الإشارة كانت عابرة، ولم يتوقف عنده نفس توقفه عند الخطوط الأخرى. وهنا يجب التساؤل: كيف لابن خلدون الذي نشأ في القرن الخامس عشر على الضفة الجنوبية للمتوسط في فترة اتسمت باتساع الغزو الايبيري له، أن يتجاهل الخط اللاتيني الذي غدا أساسيًا ومهمينا في المنطقة؟ ألا يفترض أن يهتم ابن خلدون (رجل الدولة في المغرب الأقصى وتونس ومصر) بالخط اللاتيني أكثر من اهتمامه بالسرياني لأنه كان على احتكاك مباشر بهذه الثقافة؟ فلماذا تجاهلها؟ وقلل من أهميتها؟ ولم يفرد لها مجالاً مهما؟ وهو الذي اشتغل في البلاط المريني الذي عرفت تغلغلاً مسيحيًا مهما خلال هذه المرحلة؟

الملاحظة الرابعة: لا يشير ابن خلدون إلى تاريخ ترجمة التوراة وغيرها من كتب الأنبياء الإسرائيليين إلى اللاتينية، بل يكتفي بإيراد المعلومة دونما تدقيق، لكن المعطى المهم في هذه الرواية، إشارته أن اهتمام اللاتين بلغتهم لم يبدأ إلا بعد ترجمة الكتاب المقدس إليها، وهذه إشارة جد مهمة تؤكد أن كتابة اللاتينية طارئة، حكمتها خلفية دينية من أجل ترجمة الكتاب المقدس. يبدو واضحًا من خلال النص الثالث الاضطراب في تحديد نسب اللاتينيين، إذ أنه يجعل الإغريق واللطينيين من الروم وكلهم منسوبون إلى يونان، ثم يجعل كيتم من أبناء يونان، وينسب اللاطنيين إلى يونان دون أن يحدد نسبهم، ثم يعتبرهم إخوانا للقوط ومن نسب واحد معهم، ثم يجعلهم من نسب رومي ابن يونان وأنهم أخوة للإغريق؛ وهو ما يؤكد أنه إلى زمن ابن خلدون (القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي) لم يكن تصور واضح عن أصول اللاتين.

ويخلف النص الرابع ملاحظتين أساسيتين، إذ يشير ابن خلدون إلى أن اليونانيين (إغريقًا ولاطينيين) يسكنون في شمال المعمور مع باقي إخوان يافث، ما بين الأندلس إلى بلاد الترك، وأنهم يستوطنون الجهة الغربية في مقابل الغربية للإغريق؛ ويبدو الارتباك واضحا في هذا الخبر الذي انفرد به ابن خلدون حيال هذه التحديدات والمناطق التي تشملها، ما يؤشر على أن اللاطنين كجماعة إثنية لم تكن ذات ملامح محددة أو ظاهرة. من جهة أخرى فإن ابن خلدون عندما أشار إلى حروب الإغريق واللطينين والروم، والمعارك التي دارت بين الثلاثة، أقام تمايزا بين الثلاثة، وفي نفس الرواية جعل الروم في مواجهة اليونان التي تتكون من الإغريق واللاتين، وهو بهذا ينسف فرضية أن اللاتين هم الروم، ويؤكد خطأ هذا الافتراض، بل إننا هنا أمام ثلاث مجموعة بشرية مختلفة بينها حروب وعداوات.

ونسجل في النص الخامس ملاحظة أساسية وهي أن التوراة ترجمت إلى اللسانين الرومي واللاتيني، وباعتبار ما أقامه ابن خلدون من تمييز سابق بين اللسان

والقلم، ويبدو واضحا أن الحديث في هذا النص حول اللسان وليس القلم، كما أن هذا النص يميز بين اللسان الرومي واللسان اللاتيني.

أما النص السابع فقد تضمن رواية أخرى نسبها إلى جماعة من الإخباريين دون أن يحددهم، ويرجع فيها أصل الروم إلى ولد عيصو بن إسحاق ابن إبراهيم عليهما السلام، وهو خبر لا يجد مستندا في أي مصادر معاصرة، انفرد به ابن خلدون، لكن الإشارة الأهم التي يوردها تتعلق بهروب صفوا إلى الكيتم حيث عظم وحسن في أهل أفريقية، وإذا ما ربطنها باللاتيني الإفريقي، ومنطقة قفصة التي توجد في أفريقية، فيمكن اعتبار هذه الإشارة قد تكون دلالة على الأصول الأفريقية للاتينية.

ولعل أول ملاحظة تبدو في النص الثامن أن ابن خلدون يعوض الروم بالكيتم في حرب قرطاج، وبغض النظر عن مصداقية الرواية ككل، فإن لهذا التغيير دلالة مهمة، وهي أن مفردة اللاتينين لم تكن قد ظهرت آنذاك، كما أن الحرب اندلعت بين أهل النوبة والروم، وهي مؤشرات كلها تدفع إلى طرح التساؤلات حول العلاقة بين أفريقية واللاتينيين (اللاطينيين). إن هذه المعطيات التي وردت مضطربة ومتضاربة، تؤكد أنه إلى وقت ابن خلدون (القرن الخامس عشر) لم تكن قد نضجت السردية اللاتينية (عند الطرف النقيض على الأقل) إضافة الى ورود أغلب روايات ابن خلدون مقترنة بالبعد الافريقي، وهو ما يطرح السؤال حول العلاقة بينهما.

خاتِمَةٌ

انطلاقًا من سبق يمكن القول إنه إلى حدود نهاية القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي)، لم تسجل اللاتينية حضورا في المصادر العربية الإسلامية، باستثناء ثلاث إشارات عابرة، تحيل إلى وجود لاتينيتين واحدة أفريقية والأخرى أندلسية؟ وترتبط بالأندلس أكثر من ارتباطها بباقي أوروبا، وتحيل على اللهجة أكثر من إحالتها على الكتابة، أما ما عداها فالصمت التام والغياب التام للغة يفترض حسب السردية الرسمية أنها كانت مهيمنة على المجال وحاضرة فيه سابقا، وأنها كانت ركنا أساسيا في النهضة الأوروبية في مرحلة لاحقة، وهو ما يطرح علامات الاستفهام حول هذه السردية ككل.

أما النصوص المصدرية بين أواخر القرنين السادس وبداية (التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي)، فتؤكد فرضية أن اللاتينية ارتبطت بأعاجم الأندلس، دون سواهم، مع احتمال وجود أصل أفريقي للحرف اللاتيني أو أنه مجرد حرف طارئ. خلال هذه المرحلة أيضًا بدأت تتشكل البوادر الأولى للسردية اللاتينية، اعتمادا على وقائع منسوبة للقرن الرابع الهجري، كما أنه لحدود هذه المرحلة لم يوجد أي أثر للخط أو القلم اللاتيني، في نفس الفترة أيضًا جرى استبدال الروم باللاتين في صراعهم مع الإغريق.

وبعد القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)، توالت الإشارات إلى اللاتينية، في المصادر العربية الإسلامية، وقد انقسمت إلى قسمين، واحد يجتر ما ورد في المصادر السابقة خاصة إشارتي البكري، والثاني قدم معطيات تاريخية أو جغرافية جديدة تؤكد أن اللاتينية كانت لغة بعض من أعاجم الأندلس. وهو ما يعضد افتراض أن اللاتينية كانت نوعان، الأولى لسان برابرة قفصة الأفريقية وهي اللاتينية الأفريقية، والثانية لسان بعض من أعاجم الأندلس وهي اللاتينية الأندلسية، أما رواية ابن جلجل التي تم الاعتماد عليها لتبرير قدم اللاتينية، فالملاحظ أنها لم تظهر إلا بعد القرن السابع الهجري.

على مستوى الروايات التاريخية، تحول الصراع من الإغريقي الرومي إلى اللاتيني الإغريقي، في المصادر العربية الإسلامية، مع القلقشندي وهو تحول طارئ وغير مفهوم، كما أنه في نفس الفترة التاريخية بدأت تتأسس السردية اللاتينية، والملاحظ في نصوص ابن خلدون أنها تعددت وتنوعت حيث اتسمت بالتنوع والاضطراب والتناقض، كما أن ابن خلدون حافظ على التمييز بين الكتابة واللسان، وأن الكتابة أو الحرف يعرفان بالقلم والخط وليس باللسان، وميز بين اللغة واللسان والعبارة من جهة، والقلم والخط والكتابة من جهة أخرى. كما أظهرت نصوص ابن خلدون بعض الإشارات المرتبطة بمجال جغرافي مختلف للاتيني، كالارتباط بالكيتم وبصفوا الأفريقي.

تظهر كل هذه المعطيات على أن سردية اللغة اللاتينية تعرف ثغرات عديدة، ولا يبدو أي حضور لها في المصادر العربية الإسلامية الطرف المقابل لها، كما تبدو هذه السردية متناقضة وغير متماسكة، ما يؤكد على أنها إلى حدود القرن الخامس عشر لم تكن قد عرفت تأسيسها بعد، أو على الأقل أنها لم تكن من الأهمية والحضور الذي يفرضها على المصادر العربية الإسلامية، بما فيها الأندلسية، التي اقترنت اللاتينية بها في هذه المصادر.

خلاصة القول، أنه إذا كان لوغوف قد تساءل هل وجدت أوروبا الوسيطية، فإن الأكيد أن اللغة اللاتينية لم توجد بالصيغة المقدمة بها حاليا في المصادر العربية الإسلامية، إلا بعد القرن السادس عشر، ما يعني أن تقابل الشرق والغرب، ظل ناقصًا، أو غير كامل، أو أن سردية الوجود الأوروبي ككل تحتاج للقراءة من جديد.

الاحالات المرجعية:

(١) جاك لوغوف، **"هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط"**، ترجمة محمد حناوي ويوسف نكادي، مطبعة مفكر، وجدة المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠١٥، ص ١٠.
(٢) نفسه، ص ١٠.
(٣) رغم أن مدرسة الحوليات شكلت فتحا جديدا في العلوم التاريخية، وأسهمت في تطوير مناهجه إلى حد كبير، إلا أن علاقته بالتصورات والمنطلقات الكولونيالية، لم توضع على محك النقد، إذ أعتقد أنها وعلى تطورها المنهجي لم تكن سوى وجه آخر من أوجه الكولونيالية، أو مركزية الرجل الأوروبي.
(٤) أبو عبيد البكري، **"المسالك والممالك"**، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٢، الجزء الثاني، ص ٩٠٢.
(٥) نفسه، ص ٩٠٧.
(٦) نفسه، ص ٣٠٨.
(٧) نفسه، ص ٣١٦.
(٨) نفسه، ص ٥١٢.
(٩) نفسه، ص ٥٢٣.
(١٠) نفسه، ص ٦٢٨.
(١١) نفسه، ص ١١٣.
(١٢) نفسه، ص ١٠٧.
(١٣) نفسه، ص ٣٣٤.
(١٤) نفسه، ص ٤٤٨.
(١٥) نفسه، ص ٦٦٥.
(١٦) نفسه، ص ١٨٥.
(١٧) الشريف الإدريسي، **"نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"**، عالم الكتب، بيروت–لبنان، ١٤٠٩، الجزء الأول، ص ٢٧٨.
(١٨) عبد المنعم الحميري، **"الروض المعطار في خبر الأقطار"**، تحقيق عباس إحسان، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، ص ٥٨.
(١٩) عبد المنعم الحميري، **"صفة جزيرة الأندلس"**، تصحيح وتعليق ليفي بروفنسال، دار الجيل، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ص ١٨.
(٢٠) الحميري، **الروض** ... مرجع سابق، ص ٣٩٤
(٢١) الحميري، **صفة** ... مرجع سابق، ص ١٣٣؛ الحميري، **الروض**...، ص ٣٩٤
(٢٢) الحميري، **الروض** ...، مرجع سابق، ص ٤٧٨
(٢٣) موفق الدين أبو محمد بن عبد الرحمن، ابن الشيخ أبي الحرم مكيّ بن عثمان الشارعي الشافعي، **"مرشد الزوار إلى قبور الأبرار"**، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ، ٦٣١.
(٢٤) شمس الدين ابن خلكان، **"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"**، تحقيق إحسان عباس، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، ١٩٧١، ص ٧٢.
(٢٥) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، **"نكث الهميان في نكت العميان"**، تعليق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ٢١٣.
(٢٦) الحميري، **الروض** ... مرجع سابق، ص ٣٩٢.
(٢٧) الحميري، **صفة** ... مرجع سابق، ص ١٢٦.
(٢٨) الحميري، **الروض** ... مرجع سابق، ص ٤٦١.
(٢٩) الحميري، **صفة** ... مرجع سابق، ص ١٥٨.

(٣٠) الحميري، **الروض** ... مرجع سابق، ص ٥١٨.
(٣١) الحميري، **صفة** ... مرجع سابق، ص ١٧٦.
(٣٢) الحميري، **الروض** ... مرجع سابق، ص ٦٧.
(٣٣) الحميري، **صفة** ... مرجع سابق، ص ٣٤.
(٣٤) الحميري، **الروض** ... مرجع سابق، ص ٥١٢.
(٣٥) الحميري، **صفة** ... مرجع سابق، ص ١٧٢.
(٣٦) أبو العباس ابن أبي أصيبعة، "**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**"، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة – بيروت، ص ٣٩٣-٣٩٤.
(٣٧) شمس الدين الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، الجزء ٢٧، ص ٢١٣
(٣٨) صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي، "**الوافي بالوفيات**"، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ٢٠٠٠، الجزء ١٣، ص ٢٩٣
(٣٩) إذا ما تبنينا منهج "مدرسة المراجعين الجدد" الاستشراقية، فلن نتوانى عن القول إن الأمر يتعلق برواية "منحولة" كتبت بأثر بعدي وأنها لا تنتمي لزمن الناصر، ولكن ومع الحذر المنهجي الواجب، فإن هذه الرواية تظل محط شكوك كبيرة.
(٤٠) أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، الجزء الخامس، ص ٣٦٠.
(٤١) القلقشندي، مرجع سابق، الجزء الخامس، ص ٣٦٢.
(٤٢) نظرًا لطول نصوص ابن خلدون فسنقوم باستحضار ما تعلق بشكل مباشر باللاتينية أو اللاتين.
(٤٣) عبد الرحمان ابن خلدون، "**ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**"، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت –لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، الجزء الأول، ص ٢٨٩.
(٤٤) نفسه، الجزء الأول، ص ٧٣٠-٧٣١.
(٤٥) نفسه، الجزء الثاني، ص ٢١٨-٢١٩.
(٤٦) نفسه، الجزء الثاني، ص ٢٢٠-٢٢١.
(٤٧) نفسه، الجزء الثاني، ص ٢٢٤.
(٤٨) نفسه، الجزء الثاني، ص ٢٣٢.
(٤٩) نفسه، الجزء الثاني، ص ٢٣٥.
(٥٠) تقي الدين المقريزي، "**إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**"، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩، الجزء الرابع، ص ١٧٣.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].



محورية الأمن المائي ضمن تحصينات "مزغان" خلال الفترة ١٥٤١ – ١٥٤٨م



شكيب الحباشي
باحث دكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة شعيب الدكالي الجديدة – المملكة المغربية

مُلَخَّص

شكل توسيع وتحصين قلعة مزغان على ساحل المحيط الأطلسي، الحلّ الأمثل أمام البرتغال للحفاظ على ميناء "مزغان"، بعد أن اضطروا لإخلاء أسفي وأزمور بدون معارك. وقد كان الجلاء عن الموقعين نتيجة مباشرة لتنامي قوة الأشراف السعديين بالمغرب الأقصى، حيث تمكنوا من إحراز تفوق واضح من خلال دخولهم حصن سانتطاكروز بالسوس عنوة سنة ١٥٤١م. على أنّ التحصينات التي عرفتها مزغان والتي دامت خلال الفترة ١٥٤١م – ١٥٤٨م لم تقتصر على ما هو حربي فقط من خلال تشييد الأسوار والأبراج وحفر الخنادق حول القلعة، بل شملت أيضًا تأمين القلعة مائيًا من خلال تحويل قاعة للأسلحة والمؤن إلى خزان مائي، نظرًا لعدة اعتبارات منها ما هو طبيعي يخص جيولوجية الموقع بشكل خاص والتي ساهمت في عدم توافر ماء عذب كافي بالموقع وما هو مناخي يخص مجال تواجد قلعة "مزغان" عمومًا الموسوم بقلة التساقطات، وعدم انتظامها، وبنيوية الجفاف، الأمر الذي دفع إنسان المنطقة الى التكيف مع المجال من خلال مجموعة من الوسائل أهمها خزن المياه في أيام الرخاء، لاستعمالها في أوقات الشدة. وسنحاول مقاربة هذا الموضوع من خلال تتبع مراحل توسيع الحصن وكذا رصد الاعتبارات التي أدّت إلى تحويل قاعة الأسلحة إلى خزان مائي، وفي الأخير إلى الوسائل والتقنيات التي اهتدى إليها المهندسون والحكام من أجل الحرص على تأمين تزويد الخزان والقلعة بالماء.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٨ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر:	٠٩ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

مزغان؛ البرتغال؛ السعديون؛ حصار؛ آبار؛ خزان

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.340693



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

شكيب الحباشي. "محورية الأمن المائي ضمن تحصينات مزغان خلال الفترة ١٥٤١ – ١٥٤٨م".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ٩٧ – ١٠٥.

Corresponding author: chakibhabachi728@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تميزت سنة ١٥٤١م بحدث بارز، تمثل أساسًا في دخول الأشراف السعديين لسنطاكروز عنوة والذي كان من نتائجه المباشرة جلاء البرتغاليين عن أزمور وأسفي دون معارك، بعد أن تردّد الملك مبكرًا ومنذ سنة ١٥٢٩م. في التخلي عنهما لضخامة تكلفة المحافظة عليهما، على الميزانية البرتغالية المتدهورة أصلاً.[١] ويقرر الاحتفاظ بحصن مزغان، على أن يتم توسيعه وتحصينه بشكل يستجيب للمخاطر المحتملة بفعل تنامي قوة الأشراف السعديين. كما شكلت أيضا سنة ١٥٤١م بداية توافد مهندسين ذائعي الصيت على المدينة من أجل الوقوف على التصاميم والأشغال،[٢] لتمتد عملية توسيع الحصن وتحصينه بأبراج وأسوار وخنادق إلى سنة ١٥٤٨م.[٣] ويبدو أن خصوصية مناخ دكالة عمومًا، وموقع مزغان الصخري فرض على البرتغاليين البحث في تأمين حصن مزغان مائيًا، لتفادي أي حصار ذي طبيعة مائية، سيما وأن استخدام الماء لم يكن خافيًا في حروب المنطقة. حيث سيلاحظ خلال نفس الفترة تحويل قاعة الأسلحة والمؤن في الحصن السابق لمزغان إلى خزان لمائي.[٤]

وفي علاقة بالماء أيضًا سيتم الإشغال على توفير قناة آمنة للمياه، عبر مسار تحت أرضي، من بئر وفيرة المياه وُجدت خارج أسوار القلعة. وسنحاول مقاربة هذا الموضوع من خلال تتبع مراحل توسيع الحصن وكذا رصد الاعتبارات التي أدّت إلى تحويل قاعة الأسلحة إلى خزان مائي، وفي الأخير إلى الوسائل والتقنيات التي اهتدى إليها المهندسون والحكام من أجل الحرص على تأمين تزويد الخزان والقلعة بالماء.

يبدو أن اسم "مزغان" ظهر لأول مرة لدى البكري في كتابه نزهة المشتاق[٥] في القرن السادس الميلادي، كما جاء بصيغة "مازيغن" لدى الإدريسي،[٦] وفي مخطوط ابن عبد العظيم الأزموري[٧] كما ورد ذكر "مزغان" لدى مارمول كاربخال، حيث ذكر وجود برج عتيق لميناء قديم[٨] والذي من الممكن أن يكون نفسه البرج الذي أدّى تصغيره إلى تسمية المكان بالبريجة.

وعلى العموم تبقى "مازيغان"، أو "مزغان" تسمية محلية تحيل إلى المغاربة الأمازيغ الذين استوطنوا المنطقة والتي عجّت دكالة بأسماء عديدة لقرى ومدن تعود تسمياتها إلى أصول أمازيغية. كأزمور وتيط، وأيير ومرامر وغيرها.[٩] وعن مدلول هذا الاسم، أورده الأستاذ شفيق، بمعنى ذات الرحى بعد أن حوّل مزغان إلى" م – ازركان" وهو جمع "ازرك".[١٠] وسأضيف في هذا الإطار معاني أخرى ذات صلة بالماء أعطيت لكلمة مزغان:

المعنى والذي نظن أنه يعود للسان الدارج المغربي "ما – سخان"، [١١] Elma' skhon الأول هو "ما- زغان" بتحريف الخاء إلى حرف الغين. والذي قد يعود أيضًا للسان الدارج L'eau -tombé[١٢] والمعنى الثاني " لما- ازكا"، المغربي بمعنى استقر في الأرض وتبت على الأرض، والتي قد تعني الماء المستقر أو الماء المخزن، مما قد يحيل إلى ماء النطفية. أو ماء المطر الذي يسقط من السماء ويستقر في الأرض وهو ما ذهب إليه جوزيف كولفن (الماء الساقط لأنه ليس هناك ماء بالمدينة غير ماء الآبار).[١٣]

معنى أخير أورده جوزيف كولفن أيضًا: ويعني الماء النائم أو الماء الساكن وقد يحيل المعنى إلى الركود[١٤] L'eau dormante ويُستفاد من هذه المعاني أنه بالإضافة الى اعتماد هذه المعاني في الغالب على ما يمكّنه اللسان الدارج العربي من معاني وهو الأمر الذي لا يستقيم، نظرًا لقدِم اسم مزغان والذي يعود لفترة استقرار الأمازيغ بدكالة. ولعلّ الواقع المائي الذي كانت تعيشه مزغان المتمثل في اعتمادها على مياه الآبار ومياه الخزّانات، أدّى إلى بروز معاني ذات صلة بالماء، ماء مستقر، ماء ساقط، ماء نائم وربما راكد يصبح راقدًا باللغة العربية الفصحى ويترجم إلى الفرنسية بـ L'eau dormante

أولاً: مراحل توسيع مزغان خلال الفترة (١٥٠٢ – ١٥٤١)

إن احتلال مزغان كان نتيجة صدفة، حيث قادت عاصفة هوجاء (أورد جوزيف كولفن الذي انطلق منEmanuel George de Mello إيمانويل جورج

دي ميلو لمهاجمة أسطول لشبونة سنة ١٥٠٢ - تاركًا على مسافة ٣٥ كلم من تطوان لتحمل الرياح السفينة Elboreja[١٥] القبطان قبالة برج مهجور —البريجة — ولعلّ البريجة المقصودة هنا، حسب الناصري (هي ما كان يسمى برج الشيخ ولا زال مسمى بهذا الاسم حتى الآن).[١٦] فيدفع هؤلاء إعجابهم بالميناء بترك حامية صغيرة بما تحتاجه من مؤن وأسلحة ويعود الأسطول إلى لشبونة ليقنع الملك ببناء قصر قوي في ذلك الموقع*. بيد أن هذه الرواية تفندها وثائق تاريخية أوروبية تثبت أن البرتغاليين كانوا يتاجرون مع سكان مزكان على الأقل ابتداءً من سنة ١٥٠٠م. كما لا يعقل كما يقول أبو قاسم الشبري ألا يكون البرتغاليون قد عرفوا مزكان وهم يتردّدون على أسفي وأكوز وموكادور وأكادير وماسة[١٧]. وبقبول الملك امانويل لوترني* للمشروع تم الشروع في بناء الحصن من أربعة أبراج من بينها برج البريجة في الشرق وعن تاريخ هذه العملية يقول أبو شارب (ومعلوم أن البرتغاليين وجدوا القرية مخربة خريف ١٥١٣... وشرع البرتغاليون في تحصين القرية صيف ١٥١٤م. وكانت التحصينات بسيطة وكان البرج البرتغالي صغيرًا ومربع الشكل ٤٧م-٥٧م).[١٨]

ولقد اتفقت المصادر التاريخية لهذه الفترة على أن كل ما كان يوجد داخل السور هو عبارة عن قاعة شاسعة مخصصة للأسلحة تفصلها عن السور مخازن الحبوب والعتاد التي كانت تحيط بالقلعة من جهاتها الثلاث. غير أن تضافر مجموعة من العوامل أهمها تَقوّي شوكة السعديين أثّر بشكل كبير على البرتغاليين، فقد (كان الشيخ رحمه الله ماضي العزيمة قوي الشكيمة... فتح حصن النصارى بسوس، يعني حصن فونتي، بعد أن قاموا فيه ٧٢سنة)،[١٩] (حتى تركوا اسفي وأزمور من غير قتال)،[٢٠] و(تم الاحتفاظ بمازيغن التي عرفت تحصينات ضخمة سنة ١٥٤١م)،[٢١] وسيتم تحويل الحصن الأصلي إلى خزان للمياه. ولا نعرف بالضبط تاريخ بداية الأشغال بمازغان بعد الجلاء عن أسفي وأزمور، بل كما لاحظ روبير ريكارد بدأ ظهور أسماء معروفة بمدينة مزغان في مجال الهندسة المعمارية منذ١٥٤١.[٢٢] وجواو Joao de Casthilo وسيتكلّف بأعمال بناء مزغان المهندسان جواو دي كاستيلو، كما سيعمل الملك البرتغالي يوحنا الثالث على تعيين عسكري Joao Ribeiro ريبيرو[٢٣] Louis Leriero تمتّع بصيت كبير وتجربة عسكرية مهمّة حاكمًا لمزغان.

ثانيًا: تخزين المياه وتأمين استدامتها لتفادي حصار العطش خلال الفترة (١٥٤١ – ١٥٤٧م)

١/٢-دواعي تحويل قاعة الأسلحة الى خزان مائي

سبق وأشرنا أنه تم تحويل الحصن الأول لمزغان الى قلعة على شكل رباعي محاط بخمس أبراج، حيث تم تجميع ما تبقى من قوات الملك خوان الثالث بكل من أسفي وأزمور وتم تحويل قاعة الأسلحة. إلى خزان مائي بعد ١٥٤١م،[٢٤] وعن شكل هذا الخزان والذي هو عبارة عن ثلاث قاعات يحيط بها السور الخارجي، فيصفها الشبري كالتالي (وهذه القاعات الثلاث تحيط بفناء داخلي مربع أو يكاد (- ٦٠, ٣٤ -٦٠, ٣٣ -٦٥, ٣٤ — ٥, ٣٣ م) نصفه تحت الأرض ويحمل سقفه ٢٥ عمود من ١٢ مربع و ١٢ دائري وآخر امتزج فيه الدائري بالمربع والأعمدة الضخمة كلها من الحجر المنحوت تعلوها تيجان مربعة بسيطة تقع عليها عوارض المحذبات التي تحمل قباب السقف بالأجور المطهي[٢٥]) وتبلغ سعة المسقاة ما بين ٧٠٠٠ و ٨٠٠٠ برميل من الماء.[٢٦]

لقد أملت مجموعة من الاعتبارات وجوب توفير خزان مائي بمزغان أو بالأحرى وجوب تحويل قاعة الأسلحة في الحصن الأول إلى خزان مائي*، اختلط فيها بين ما هو أمني استراتيجي له علاقة بظروف الصراع البرتغالي الدكالي خصوصًا والمغربي عمومًا وما هو جيولوجي طبيعي أثّر على وفرة الماء في الموقع، بالإضافة إلى خصوصية منطقة دكالة المناخية، التي تعارف أهلها على اعتماد مجموعة من التقنيات، أهمها خزن الماء بنطفيات، لبنيوية الجفاف في المنطقة. فبخصوص ما هو استراتيجي أمني، يمكن أن نشير إلى أن البرتغاليين تعرّضوا للهجوم وللحصار مرّات عديدة حيت يمكن أن نورد بعض الأمثلة لذلك، فقد أورد مارمول أنه تمت محاصرة مدينة أسفي بعد أن استولى عليها نينيو فيرنانديز، وذلك بتحريض من الفقهاء والذين قاموا بتطويق المدينة في الوقت الذي حالت فيه

المساعدات من قشتالة والبرتغال دون انتصار القبائل.[٢٧]

كما عزم الناصر الوطاسي على محاصرة أزمور ليتراجع عن ذلك بعد واقعة الجمعة ببولعوان، وضرب الأعرج السعدي حصاراً على أسفي سنة ١٩٣٤م، كما ضرب أخوه حصارًا على أكادير في السنة التي قبلها [٢٨] كما حاصر سانتكروز لمدة ٦ أشهر ممّا أدّى إلى اقتحامها في ١٢ دجنبر ١٥٤١م، ذلك الاقتحام كان السبب المباشر لإخلاء أسفي وأزمور بعد أن تردّد يوحنا الثالث كثيرًا في شأن ذلك. وبعد أن ظفر السعديون بأزمور (نادوا بالجهاد إلى البريجة، وأمروا الناس بالاستعداد إليها وأن يكونوا على أهبة للجهاد).[٢٩] على أنّ المحاولات المتكررة للحصار، كانت تقتضي استراتيجيًا وأمنيًا الاكتفاء الذاتي من مادة حيوية كالماء بكميات مهمة تفي لأيام إن لم يكن شهور. ولعلّ السعة العالية للخزان المائي كانت إجابة مستوفية لهذا الهاجس. والواقع أن مسألة الحصار قد تعدّدت بعد ١٥٤١م، ففي سنة ١٥٤٧م أمر الشريف أحد قواده وهو حمو داوود أن يقيم مع ٦٠٠٠ من الجنود المسلحين بالرماح قرب مزيغان،[٣٠] كما حاصر مزكان المرابط سيدي محمد العياشي سنة ١٦٠٤م وعاود الهجوم عليها سنة ١٦٤٠م.[٣١]

وفي ذلك يقول الإفراني (وضيّق عليهم أشد تضييق حتى منعهم من الرعاية والحرث).[٣٢] إلى حدّ تواجد مركز لتجمع المجاهدين الدين يهاجمون البريجة على بعد ست كيلومترات ونصف في جنوبي شرق المدينة، والذي كان بمثابة مدينة حقيقية دعيت بفحص الأزموريين.[٣٣] كما حاصرها عبد الله الغالب واتُّهم أنه باعها (ولم يحدث في أيامه شر من بيعه بادس والبريجة بعدما أخدها القايد علي بن ودة و دخل إلى أبراجها... فأتاه رسول السلطان أن يتخلى عنها)،[٣٤] بالإضافة إلى الحصار الأخير الذي قام به السلطان محمد بن عبد الله الذي تم من خلاله تحرير المدينة.[٣٥]

الاعتبار الثاني والذي يتعلق بالخصوصية المائية لمنطقة دكالة، فقد أورد ابن قنفد أن دكالة ليس بها ماء ولا عين إلا آبار طيبة،[٣٦] كما أورد البرتغالي المجهول أنّ الدكاليين اعتمدوا على عدد من الحفر، تسمى خزانات، حيث يُحتفظ فيها بمياه الأمطار.[٣٧] هذا الارتباط بمياه المطر سيُأثر لا محالة على حياة الإنسان نظرًا لتواتر سنوات الجفاف. إلى حدّ أن الاستقرار وعدم اللجوء الى الرحيل كان رهينا بما تَمّ خزنه من ماء، فقد أورد ابن الزيات رواية في باب كرامات الشيخ الصالح أبي وكيل ميمون بن تاميمونت، أنه حدّثه غير واحد (أن المطر احتبس في وقت نزوله وقلّت المياه، فكان الناس يرحلون من بلادهم إلى مواضع المياه، فأمر أبو وكيل منيمون قومه أن يستقوا من الحفرة التي أعدها لماء المطر، فقالت له زوجته: ما هذا الذي تفعله؟ أتريد أن يتم الماء فترحل كما رحل الناس؟ فأعرض عن قولها. فلما نفد ماؤها... قالت: انظر في الرحيل فقد نفد ماؤنا).[٣٨]

وبالفعل فقد عرفت المنطقة في القرن السادس عشر الميلادي، جفافًا سنة ١٥١٧ و١٥١٩ وآخر خلال موسم ١٥١٩ – ١٥٢٠ وآخر سنة ١٥٤٠ ولا شك أنه كان للجفاف نتائج خطيرة جدًا على السكان ومواشيهم لاعتمادهم في شربهم على مياه المطر.[٣٩] حيت سيفطن البرتغاليين إلى أهمية تلك التقنيات خصوصًا منها ما يهمّ خزن المياه، فعمدوا إلى محاولة الاستفادة من تجربة الدكاليين في التكيّف مع مجال دكالة.

ولعلّ تضافر هاذين الاعتبارين بالإضافة إلى حوادث التاريخ الماضي القريب للبرتغاليين بدكالة، كاستعمال الماء في الحرب، كردّ جيش سلطان فاس على عقبه بعد أن انهزمت مقدمته ببولعوان بنواحي دكالة و(أصبح تقدمه عسيرًا لكون البرتغاليين كانوا قد أغلقوا أفواه جميع الآبار)،[٤٠] أو كرفض رجوع عبدة إلى أراضيها كما كتب قبطان أسفي لقلة الماء،[٤١] أو تلك الصورة الأوضح عن معرفة البرتغاليين لأثر النقص في الماء والتي تتمثل في الإشارة التي وردت عن سفينة أتت محملة بالماء الصالح للشرب من البرتغال مُتّجهة إلى أسفي،[٤٢] كل ذلك سيجعل مشكل الماء في صلب الاهتمام الأمني البرتغالي عمومًا، وفي صلب توسيع حصن مزغان خصوصًا. إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن شوكة السعديين تقوّت بشكل بيّن، واحتمالات محاصرة مزكان بعد ١٥٤١م واردة بشكل كبير.

والاعتبار الأخير الذي نرى أنه أيضًا كان حاسمًا في العمل على توفير خزان مائي هائل بمزكان الثانية، يخصّ جيولوجية الموقع الصخري لمزغان الذي كان قليل الماء أو

أنه كثير الملوحة بفعل فرشته المائية البحرية. وعن صخارية الموقع يقول ميشو بلير (أما في غرب أم الربيع فإن الشاطئ الأطلسي (...) فهو بعد أن يكون رمليًا تحيط به الكثبان بين أزمور والجديدة يصبح صخريًا عندما يتجه نحو الجنوب الغربي قاطعًا الجرف الأصفر).(٤٣) و يقول عن موقع مزكان أبو شارب – (أنه صخري و مرتفع)(٤٤) وهو الأمر الذي لم يختلف فيه معه مجموعة من الباحثين الذين أجمعوا على أن موقع مزكان عبارة عن جرف صخري حقّق أهمية كبيرة على مستوى المناعة ضد هجمات الدكاليين، فقد تساءل جوزيف كولفن عن الإمكانيات التي يتيحها بناء مزكان على صخرة بحرية،(٤٥) كما أشار ويزجيربر أكَد أن مزغان تستوي على نقطة صخرية.(٤٦)

غير أنه إذا كان الموقع يحقق مسألة المناعة ضد الهجمات ويحقق إمكانية الرسو بشكل جيد إلى درجة اعتباره أحسن ميناء في العالم،(٤٧) فإن عيبه الوحيد هو خصاصه المائي،(٤٨) ذلك العيب (الذي لا يمكن فعل شيء إزاءه، وهو الأمر الذي جعل من الماء سببًا للاختناق، لأن المغاربة كانوا يقطعون الماء عن القلعة.. الأمر الذي سيفرض حفر آبار داخل القلعة وخصوصًا إعداد المسقاة بعد ١٥٤١م).(٤٩) ولعلّ الطبيعة الصخرية للموقع والفرشة المائية البحرية تجعلنا نظن أنه من الصعب العثور على آبار توفر مياه عذبة داخل القلعة وهو ما ذهب إليه جوزيف كولفن مضيفًا (حيث إن الآبار لا تمكّن إلاّ من مياه مالحة فقاعة الأسلحة ذات السعة الهائلة، والمقاومة للماء بفعل سمك ومتانة جدرانها، بدا تحويلها إلى خزان مائي أمرًا مثاليًا).(٥٠) إذا كان تحويل قاعة الأسلحة إلى خزان مائي أمرًا مثاليًا، فمسألة إمداده بالماء ستفرض الاستعانة بآبار خارجية. وبالفعل فسيتم البحث في إمكانية تزويد المسقاة بالماء من خارج القلعة، وهذا ما سنحاول تتبعه فيما سيأتي.

٢/٢- مد القنوات وتخزين المياه بمزغان

أورد الرحالة موكي الذي زار مزغان في سنة ١٦٠١م وجود خزان عريض بداخل القلعة له قدرة على استيعاب ٢٠ ألف مكيال من الماء محفور وسط الساحة، كانت تستعمله الساكنة في شربها(٥١) وقد أورد أنه وُجدت في أعلى الخزان فتحة دائرية بقطر ٣متر و٥٥ سنتم(٥٢) وضعت عليها حراسة (٥٣)، ويبدو أن الحراسة كانت لدَرأ أي عارض قد يُفسد مياهها، وقد يفيد أيضًا أنّ الفتحة كانت تفيد في استغلال مياه الأمطار في ملء الخزان بالماء ولو جزئيًا، غير أنّ المؤشرات التاريخية تفيد أن جزءَ آخر من المياه وعلّه الأهم كان يأتي من بئر وجدت خارج القلعة، فقد أورد مارمول كربخال في هذا الصدد (أن مزكان يحرسها المحيط من جهة و خندق عريض عميق من جهة أخرى يرتفع ماؤه مع البحر وفي داخله بئر ماؤه عذب يحيط به سور من حجر في غاية الارتفاع والنتوء، تأتي إليه السفن للتزود بالماء العذب).(٥٤) وقد أورد هنري دي خورخي، حيث كان يحاول إقناع الملك بغزو المغرب، استراتيجية مائية تتمثل في وضع سياجات في أماكن توفير المياه (وفي كل منبع للمياه تم احتلاله يوضع حصن من الطوب وتكون هذه الحصون على شكل أبراج)،(٥٥) ولا نستبعد أن تكون هذه التقنية مأخوذة عن تأمين الآبار بمزغان.

وتقدم لنا هاتان الروايتان مجموعة من الملاحظات:

الملاحظة الأولى: تعزز ما ذكرناه سابقًا أن ماء الآبار داخل الحصن لم يكن بالعذوبة الكافية، أو على الأقل لم يكن كافيًا لسد كل حاجيات ساكنة مزكان.

الملاحظة الثانية: أن تلك البئر كانت مسوّرة بشكل منيع بالإضافة إلى وجودها داخل خندق* لكي لا يتمكّن المهاجمون من قطعها عن القلعة أو بتسميمها، فقد أورد موكي أن المغاربة في محيط مزكان كانوا ينهبون البساتين ويسمّمون الآبار، إلى درجة وصف محيط مزكان بصحراء قاحلة.(٥٦)

الملاحظة الثالثة: أن التزوّد بالماء كان يتم عن طريق قوارب تأتي لأخذ الماء من ذلك الموقع الحصين، والذي يبدو أنه لن يكون يسيرًا في حال الهجوم ما على القلعة، فلا يمكن أن نتصور سفنًا تأتي للتزود بالماء أثناء الحصار أو الهجوم على القلعة بهذه السهولة. وعلى اعتبار رواية مارمول كانت في حوالي ١٥٧١م، فقد نفترض خفوت الهجومات الرسمية على مزغان بفعل الصراع حول الحكم من جهة وأيضًا بفعل توجيه البوصلة نحو الشمال في محاولة للسيطرة على المغرب الأقصى ككل، فقد أورد عبد الله العروي أنه ﴿في الحين ذاع صيت السعديين، ورجحت كفتهم على الوطاسيين،

استفاد محمد الشيخ من الوضع الجديد، فتغلب على أخيه أحمد الأعرج ودخل مراكش سنة ١٥٤٥/٩٥١ حيث بويع بالإمامة على المغرب الأقصى وانفتحت أمامه الطريق لغزو شمال المملكة»[٥٧]. كم أورد ميشو بلير أنّه (قد تميز عهد السعديين بالجهاد إلى أن تبوأ أحمد المنصور العرش في ١٥٧٨م، وإذ ذاك اختفى تاريخ دكالة المحلي في خضم الأحداث، لأن الفوضى أصبحت ضاربة أطنابها بالمغرب، وأخذ المتنافسون على العرش يبحثون عن المساندة الأجنبية، فمنهم مَنْ كان يطلبها لدى الأتراك، ومنهم مَنْ كان يطلبها من البرتغال).[٥٨] مما يدفعنا للجزم أنه كلما سمحت الظروف بذلك، كانت القوارب تخرج للتزود بالماء من خلال بئر خارجية كما ورد لدى جان موكي، غير أنه في ظروف الحصار قد يبدو الأمر مستحيلاً على أن المناوشات كانت تصل إلى حدود أبواب المدينة.

وهو ما سيدفع في نظرنا إلى تفكير لشبونة في إمداد الماء من خلال قناة تحت أرضية إلى القلعة منذ بداية تشييد مزغان ١٥٤١م، الأمر الذي تعززه مجموعة من الرسائل بين لشبونة ومزغان. حيت تُظهر رسالة بعثها حاكم مزكان لويس دو لوريرو ليوحنا الثالث بتاريخ ١٥ دجنبر ١٥٤٢م ردًا عن استفسار الملك يوحنا حول مآل السرداب التحت أرضي الذي كان قد أمر بحفره لنقل مياه البئر إلى القلعة، في حين يفيد جواب الحاكم لوريرو أن ذلك السرداب، كان يمكن أن يكون جاهزًا في تاريخ الرسالة، لو كان الحاكم قد توصل بحاجيات سبق أن طلبها من الملك في رسالة سابقة، ومنها الخشب لاستعماله في أقواس قبو السرداب.[٥٩] ولعلّ السرداب المقصود، هو ذلك السرداب التحت أرضي الذي ستمر من خلاله قنوات إمداد المياه إلى القلعة. وقد أورد كولفن معلومات حول تلك البئر بقوله (أنه قد تم حفرها سنة ١٥١٣م، وأطلق عليها بئر الدوق، وقد سمي بذلك لافتتاحه أثناء زيارة دوق Bragance).[٦٠]

كما تفيد نفس الرسالة أنه سيتم اعتماد مضخات لرفع الماء من الخندق، تلك المضخات كانت ضمن أدوات أخرى متضمنة في لائحة أرسلت قبل تاريخ ١٥ دجنبر١٥٤١م.[٦١] ولعل الخندق المعني في الرسالة في نظرنا هو ذلك الخندق الذي كان يحيط بالقلعة، والذي تغمره مياه البحر والذي أورد كولفن أن عرضه كان يصل إلى ٤٨ متر وعمقه إلى ٣ أمتار.[٦٢] ويستفاد أيضًا من رسالة Jean de casthilo أن الملك تباحث مع جان دي كاستيلو في شأن إمداد القناة بمياه آبار أخرى[٦٣] غير أن الحاكم كان له رأي آخر على اعتبار أن تلك الآبار كانت في مستوى ماء أقل من القناة، وكون البئر التي يشتغلون عليها تتوفر على مياه كافية، وكونه سيعمل على إنشاء خزّانات داخل المدينة والتي ستكلف أقل بكثير من اعتماد تلك الآبار،[٦٤] مما يظهر هواجس الملك في توفير أكبر قدر من المياه، من خلال آبار متعددة.

وعن ظروف الاشتغال بمزغان خلال تلك الفترة، فيستفاد من رسالة سابقة أن عملاً جبارًا كان يتم في مزغان لا تعيقه سوى المناوشات التي يقوم بها المغاربة من حين لآخر.[٦٥] ويبدو فعلاً أنّ المناوشات كانت تصل في بعض الأحيان إلى حدود أسوار مزغان فقد أورد ديكو دي طوريس عن إحدى الهجمات التي قتل فيها ابن حاكم مزكان لوريرو (ولما وصل لوريرو إلى باب مزكان وجده مفتوحًا لأن جميع النساء والأطفال كانوا قد خرجوا من المدينة وهم يبكون ويبحثون عن آبائهم وأزواجهم)[٦٦] ولم يكن من بدّ سوى إغلاق الأبواب دونهم ويضيف (ولو كان المغاربة تقدموا أكثر في مطاردة- ليريرو- لدخلوا مختلطين مع السكان)،[٦٧] مما جعل انعدام الأمن في محيط القلعة يعقّد الإنجاز العادي للأشغال ويقلّص من ساعات العمل،[٦٨] الأمر نفسه الذي كان يبرر طلب جواو دي كاستيلو عمال ذَوي دراية بالأشغال والحرب،[٦٩] مما حدا بالرحالة جان موكي باعتبار كل ساكنة مزكان من المحاربين، وأضاف أن محيط مزكان كان متار ترقّب وحراسة دائمين، حيث يورد في ذلك أنّ مزكان كانت بمثابة سجن حقيقي، تتم المداومة فيه من الصباح إلى المساء عبر مناوبتين من ٤٠ فارس، من الصباح إلى وسط النهار وأخرى من وسط النهار إلى المساء.[٧٠]

غير أنّه لم تكن فقط المناوشات مع المغاربة وحدها سببًا في تعقيد الأشغال، بل كان المدّ البحري أيضًا يؤثر على الأشغال بالإضافة إلى الطبيعة الصخرية للموقع التي كانت تفرض تغيير مسار الحفر من البئر إلى الخندق المحيط بالمدينة، ومن فتحة السرداب الذي ينقل

قنوات المياه إلى باب الخيانة بمزغان.[٧١] وقد قدَر كولفن طول القناة المائية بـ ١٥٠٠ خطوة.[٧٢] وقد بلغ ارتفاع فتحة السرداب ٢،٢ متر وعرضه ٣" بالموس"[٧٣]، أي ٣ "أشبار" والتي تعادل ٦٦ سنتم.[٧٤]

ويبدو أنَه إلى تاريخ ٢٧ غشت ١٥٤٧م، لم يكن قد تم إنهاء إنجاز القنوات المائية الحجرية التي تصل البئر بفتحة السرداب المؤدي للمدينة، والتي كان من المنتظر أن تنتهي أشغالها في نهاية شهر شتنبر من سنة ١٥٤٧م كما ورد في الرسالة، على أن إمداد الماء عبر السرداب يستلزم إرسال قواديس فخارية بقطر أكبر من تلك التي تم استعمالها بين البئر وقبوه،[٧٥] وأن احتمال وصول الماء إلى المدينة عبر السرداب سيكون في شهر نونبر١٥٤٧م، بعد أن تكون أرضية الخزان جاهزة لاستقبال المياه بعد تبليطها بلبنات فخارية.[٧٦] وعن الموقع الذي يصل إليه ماء القناة في القلعة، فقد أورد كولفن (أن القنوات كانت تنقل الماء إلى الجهة الغربية من الساحة بالقرب من برج سان أنطوان حيث يوجد خزان كبير).[٧٧]

خاتِمَةٌ

يستفاد من كل ما سبق أن، الملك يوحنا الثالث حرص على تأمين مزكان مائيًا، ليس فحسب من خلال توفير خزان كبير للمياه، بل أيضًا من خلال البحث عن آبار قريبة يمكن من خلالها تزويد الخزان بالماء، كما عمل بواسطة مهندسين معروفين، ويد عاملة يتم جلبها بمواصفات مضبوطة على حفر سرداب تحت أرضي تمر من خلاله قنوات تنقل الماء إلى المدينة. كل ذلك من أجل تفادي التخلي عن مزغان، تحت ضغط حصار ذا طبيعة مائية.

ويبدو من خلال الرسائل أن إمداد المدينة من خلال قناة تحت أرضية امتد من سنة ١٥٤١م، حيث ظهرت أولى الإشارات حول الموضوع إلى سنة ١٥٤٧م، حيث تبشر الرسائل بإمكانية وصول للمياه عبر قنوات نهاية السنة نفسها. مما يعني أن إمداد القلعة بالماء أخذ بدوره ذلك الحيّز الزمني الذي أخدته مجموع التحصينات، التي أعطت الشكل النهائي للقلعة التي استطاعت الصمود أمام الهجومات الشعبية والرسمية، والتي كان أهمها الصمود أمام حصار عبد الله الغالب.

كما يظهر أن خزن المياه وحفر الخزانات، الذي كان يميز سكان دكالة في علاقتهم بالماء، أصبح أيضًا استراتيجية برتغالية، فيبدو أنه لم يتم الاقتصار على الخزان السابق الذكر وحده، بل تم العمل على حفر خزانات أخرى داخل وخارج القلعة بمحاذاة سور القلعة.

وتبدو تلك الأهمية التي كان يحظى بها خزن المياه في الخزان في التقريع الذي توصل به حاكم مزغان فرانسيسكو دو ميلو كاسترو سنة ١٧١٣م،[٧٨] بعد أن قام بتجفيف الخزان وتنظيفه دون استشارة ملك البرتغال. ممَا يعني أن الماء المخزون في الخزان يكتسي صبغة أمنية، لا يجب التصرف فيه دون استشارة الملك.

الاحالات المرجعية:

(١) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي وأزمور**، مطبعة النجاح الدار البيضاء، ١٩٨٤ ص٤٢٨.

(2) ROBERT Ricard **les travaux de Mazagan**, Sources Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal T IV, p 10,

(٣) الشبري أبو قاسم **دكالة وإيالتها جهة دكالة –عبدة تاريخ وآثار**، بسمة برينت الجديدة، الطبعة الأولى، ص. ١٠.

(٤) الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء الرابع دار الرشاد، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ص١٣٧.

(٥) البكري، أبو عبيد الله، **المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، المسالك والممالك**، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ.

(٦) الإدريسي أبو عبد الله محمد، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وصف أفريقيا**، ص٨٤.

(٧) الشبري أبو قاسم **دكالة وإيالتها جهة دكالة –عبدة تاريخ وآثار**، مرجع سابق، ص٩٥ -٧.

(٨) كاربخال مارمول، **وصف أفريقيا**، ترجمة محمد حجي، أحمد التوفيق وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع المعارف الجديدة، الرباط ١٩٨٤، ج ٢، ص٨٥.

(٩) حول أصول اسم مزعا، انظر:

Cenivial, Henri de, **les origines de Mazagan**, source Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal, T 1934

(١٠) الشبري أبو قاسم **دكالة وإيالتها جهة دكالة –عبدة تاريخ وأثار**، مرجع سابق، ص٩٧.

(11) Cenivial Pierre De **les origines de Mazagan** d'après João de Sousa ...op.cit. , page 130

(12) Goulven Joseph **la place de Mazagan sous la domination portugaise (1502_1769)** Emile la rose, Paris 1917, P.132.

(13) Cenivial Pierre De **les origines de Mazagan** d'après João de Sousa, ...op.cit. p 131

(14) Goulven Joseph **la place de Mazagan sous la domination portugaise** ...op.cit. ,p

(15) Ibid ,p

* أورد صاحب الاستقصا هذه الرواية نقلاً عن البرتغالي لويز مارية الاستقصاء، الجزء الخامس، مصدر سابق، ص١٤٦.

(١٦) الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، **الاستقصا أخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الخامس**، مصدر سابق، ص١٤٦.

(١٧) الشبري أبو قاسم، **دكالة وإيالتها جهة دكالة –عبدة**، مرجع سابق، ص٩٦.

* Emanuel le tortuné.

(١٨) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي وأزمور**، مرجع سابق، ١٩٨٤م، ص٤٤٢.

(١٩) مجهول **تاريخ الدول السعدية التكمدارتية**، تحقيق وتقديم عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، ط١، ص١٣.

(٢٠) الافراني، محمد الصغير بن محمد، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، مطبعة أنجي، باريس، ص٣٦.

(٢١) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي وأزمور**، مرجع سابق، ص٤٢٤.

(22) Ricard Robert, **les travaux de Mazagan**, ...op.cit. ,p 9.

*أورد طوريس ديكو دي، في **تاريخ الشرفاء**، مصدر سابق، ص١٠٧، أنه كان حاكمًا لمازيغن سنة ١٩٤٦م.

(٢٤) الشبري أبو قاسم **دكالة وإيالتها جهة دكالة –عبدة تاريخ وآثار**، مرجع سابق، ص. ١٠.

(٢٥) الشبري أبو قاسم، مرجع سابق، ص٩٩.

(26) Robert Ricard, Un document portugais sur la place de Mazagan au début du XVII eme siècle, Geuthner, Paris Traduction de 'Descriçào de fortaleza de Mazagao' (1615-1619) de D .Jorge de MASCARENHAS p.72.

*قال فيه الناصري، {**واتخذوا في ذلك الحصن ماجلا عظيما لخزن الماء، وهو النطفية في لسان الجيل**} **الاستقصاء** في ذكر أخبار المغرب، الجزء الرابع، مصدر سابق، ص١٢٨.

(٢٧) كاربخال، مارمول **وصف أفريقيا**، ترجمة محمد حجي وأحمد التوفيق، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع المعارف الجديدة، الرباط، ص٧٦.

(٢٨) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي**، مرجع سابق، ص٤١٧.

(٢٩) مجهول، **تاريخ الدول السعدية التكمدارتية**، مصدر سابق، ص١٥، ص١٦.

(٣٠) طوريس، دييكو دي، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، ص١٠٩.

(٣١) الشايظمي محمد الحاجي السباعي، **تاريخ ناحية دكالة، دراسة جغرافية وتاريخية واجتماعية** من سلسلة، من سلسلة مدن وقبائل المغرب، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط ١، دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠١٠، ص١٦٧.

(٣٢) الأفراني، محمد الصغير بن محمد، **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، مصدر سابق، ص٢٦٣.

(٣٣) الشايظمي محمد الحاجي السباعي، **تاريخ ناحية دكالة، دراسة جغرافية وتاريخية واجتماعية**، مرجع سابق، ص٧٩.

(٣٤) مجهول، **تاريخ الدول السعدية التكمدارتية**، مصدر سابق، ص٤٢.

(٣٥) لشايظمي محمد الحاجي السباعي، **تاريخ ناحية دكالة، دراسة جغرافية وتاريخية واجتماعية**، مرجع سابق، ص١٦٧.

(٣٦) بن الخطيب ابن قنفد أحمد القسنطيني، **أنس الفقير وعز الحقير**، عن ابن الزيات التادلي، تحقيق ونشر محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط ١٩٦٥، ص٧١.

(٣٧) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور**، مرجع سابق، ص٥٧.

(٣٨) الوزان الحسن بن محمد، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة ووراقة البلاد، الرباط، الجزء الأول، ص٥٧.

(٣٩) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي**، مرجع سابق، ص٥٠.

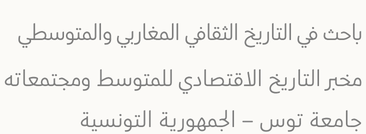
(٤٠) الشايظمي محمد الحاجي السباعي، **تاريخ ناحية دكالة، دراسة جغرافية وتاريخية واجتماعية**، مرجع سابق، ص١٥٨.
(٤١) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي**، مرجع سابق، ص٦١.
(٤٢) نفسه، ص٦١.
(٤٣) الشايظمي محمد الحاجي السباعي، **تاريخ ناحية دكالة، دراسة جغرافية وتاريخية واجتماعية، مرجع سابق**، ص٢٢.
(٤٤) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي**، مرجع سابق، ص٥٦.
(45) Goulven joseph **la salle d'arme portugaise**, Revue France Maroc, N 7 15. Juillet 1915, p. 218.
(46) Weisgerber F. **Trois moi de compagne au Maroc** Ernest leraut, Paris 1904, PAGE 110.
(47) Cenivial, Henri de, les **origines de Mazagan**, source Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal, T 1934.
(48) Amengual Michel **voyages en Doukkala de l'antiquité à l'indépendance**, d'après Main Fernard «les ports du Maroc français «afrique orient 2013 P.30.
(٤٩) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي**، مرجع سابق، ص٦٦.
(50) Goulven joseph **la salle d'arme portugaise** ...op.cit. ,p 218
(51) Moquey Jean **voyage en Afrique, Asie, Indes orientales et occidentales**...op.cit. p ٥٧
(52) JOSEF Goulven le cercle ; page 396
(53) Moquey Jean **voyage en Afrique, Asie, Indes orientales et occidentales** ...op.cit. ,p٥٧
(٥٤) كاربخال ، مارمول **وصف أفريقيا**، مصدر سابق، ص٨٦.
(٥٥) دي هينين خورخي، **وصف الممالك المغربية ١٦٠٣-١٦١٣** ترجمة عبد الواحد اكمير، تقديم تركواتو بيريس دي كوثمان منشورات معهد الدراسات الإفريقية ١٩٩٧، ص١٩٦.
*حول الخندق يقول الناصري **{ثم أداروا حول السور خندقا فسيحا وجعلوا عمقه أربعة عشر شبرا بحيث بلغوا به الماء. وإذا فاض البحر ملأ بين جوانبه} الاستقصا، ج الرابع** ، مصدر سابق ، ص ١٣٨
(56) Castonnet Des Fosses, H **.Les portugais au Maroc**, Extr. Des Annales de l'Extrem Orient et de l'Afrique, Challamal, Paris d'après jean mocqyet p34.
العروي عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الرابعة، ٢٠١٦، ص٥٧ ٥٧
(٥٨) الشايظمي محمد الحاجي السباعي، **تاريخ ناحية دكالة**، مرجع سابق، ص١٦٦.
(59) Castries, Henri de Lettre de D .Luis de Louriero au Roi Jean III,15 décembre 1542 Sources Inédites de l'histoire du Maroc ,France T I , p 142,
(60) Goulven Joseph **la place de Mazagan sous la domination portugaise**...op.cit., p ١٤٣
(61) Castries, Henri de Lettre de D. Luis de Louriero au Roi Jean III. op, cite, p 142,
(62) Goulven Joseph **la place de Mazagan sous la domination portugaise** ...op.cit. P.١٤٣ .
(63) Castries Henri de**, lettre de D. Luiz au Roi Jean III** . ...op.cit. ,142
(64) ibid., page 142
(65) Ricard Robert**, Lettre de João Casthilo a jean III**, 18 juillet 1542 Sources Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal T IV, p 71,
(٦٦) طوريس، دييكو دي، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، ص١١.
(٦٧) نفسه، ص ١١١.
(68) Ricard Robert **les travaux de Mazagan**, ...op.cit. p.10,
(69) Ricard Robert **Lettre de João Castillo a jean III**, 18 Juillet 1542 Sources Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal T IV, p 71,
(70) Moquey **Jean voyage en Afrique, Asie, Indes orientales et occidentales**, ...op.cit. p. 56
(71) ١٨ يوليوز ١٥٤٢، ص ٧٣
(72) Goulven Joseph **la place de Mazagan sous la domination portugaise**, ...op.cit. p١٤٦
(73) Ricard Robert **lettre de João Castillo a jean III.**.op.cit., p 74
(٧٤) بوشرب أحمد، **دكالة والاستعمار إلى سنة إخلاء اسفي**، مرجع سابق، ص ٧٤٢٩٣.
(75) icard Robert **Lettre Liez Leriro a Jean III**, 27 aout 1542 Sources Inédites de l'histoire du Maroc, Portugal T IV p 231
(76) Ibid. p 232
(77) GOULVEN Joseph **La place Mazagan** ...op. cit. page 146
(78) Goulven joseph la place Mazagan. Op, cite. P. ٣١٢ .

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

دويلات المغرب من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر
حدود سياسية رخوة، لهوية ثقافية منفتحة





د. عادل النفاتي

باحث في التاريخ الثقافي المغاربي والمتوسطي

مخبر التاريخ الاقتصادي للمتوسط ومجتمعاته

جامعة تونس – الجمهورية التونسية

مُلَخّص

شكّل زمن العصر الوسيط المتأخر مرحلة دقيقة في رسم ملامح تشكل الكيانات السياسية في منطقة بلاد المغرب، بالتساوق مع ظهور تحوّلات كبرى كان قد شهدها العالم المتوسطي شرقا وغربا، وأيضًا بسبب تحوّل الانتباه الأوروبي إلى المسالك البحرية الجديدة المحاذية للسواحل الغربية لبلاد المغرب والواصلة مع العالم الجديد. فضمن هذا الإطار الزماني اخذ مفهوم الحدود السياسية يتبلور في الذهنية المغاربية ثم ليتطور شيئا فشيئا مع الحضور العثماني، لتنزع كل مركزة سياسية إلى وضع حدود معلومة تتحرك فيها الجماعة البشرية المعلنة انتسابها إلى ذلك المجال كمكون أساسي لهويتها. غير انه من الجدير الإشارة إلى ان تلك الحدود ظلت رخوة ومتبدلة إلى حين قدوم المستعمر الأوروبي الذي سعى إلى ضبطها ومراقبة الأماكن الحدودية. ومع تطوّر الوعي الحدودي لدى ساكنة المغارب في الفترة المذكورة فإن ذلك لم يمنع استمرار حركة التنقل بين جهاته للأفراد والقبائل والأفكار ما فتح الباب امام استمرار تبادل العطاءات الثقافية بين مختلف أقاليمه، كما لم تمنع الصحراء من نشوء عمليات تثاقف عميقة بين الفضائين المغاربي وإفريقيا جنوب الصحراء والذي لامس عدة مجالات لاسيما منها الموسيقى الشعبية والطقوس الروحية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٠ يوليو ٢٠٢٣

تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

العهد الحفصي؛ بلاد المغرب؛ فاس؛ جامع الزيتونة؛ تونس

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.340719 doi

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عادل النفاتي. "دويلات المغرب من القرن الثالث عشر إلى القرن السادس عشر: حدود سياسية رخوة، لهوية ثقافية منفتحة".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ١٠٦ – ١٢٠.

Corresponding author: adel.nafeti@gmail.com

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

شكّلت الفترة الزمنية الممتدة من القرن الثالث عشر إلى منتصف القرن السادس عشر مفصلة زمنية مهمة في تاريخ تشكّل حدود دويلات المغارب، بعلاقة مباشرة بالتحوّلات المحلية التي شهدتها المنطقة من تقلبات سياسية على إثر تفكك الدولة الموحدية وتطلّع السلالات الحاكمة الناسلة منها إلى استعادة توحيد المنطقة تحت رايتها. ولم تكن بلاد المغرب بمعزل عن التقلبات التي شهد العالم المتوسطي في حوضيه الشرقي والغربي، بعد انقضاء مرحلة الصراع المباشر بين ضفتي المتوسط في إطار ما عرف بالحروب الصليبية وفتح الباب أمام ازدهار تجاري مؤقت للجمهوريات الإيطالية، قبل أن تظهر مع نهاية القرن الخامس عشر قوى متنافسة لأجل السيطرة على المتوسط، ثم بداية الانصراف الإيبيري لاستكشاف المسالك البحرية الجديدة المحاذية للسواحل الغربية لبلاد المغرب وإفريقيا، والواصلة مع العالم الجديد، موطن الثروات والزخم السكاني.

انشغل كتّاب التاريخ بتضمين نصوصهم مجمل تفاصيل تلك الأحداث والوقوف عند سرد أخبار المركزات السياسية التي تشكّلت في مجال المغارب منذ العصر الوسيط المتأخر إلى منتصف القرن السادس عشر، كمرحلة تاريخية لم تنقطع فيها الصراعات الحدودية بين دويلات المغارب، إلى حين انقضائها وحلول قوى وافدة عجّلت بإنهاء وجودها، راسمة لحدود جديدة وفق مرجعيات مغايرة للمرجعيات الوسيطية، لتكون النواتات الأولى لحدود الدول المغاربية راهنا. لقد دقق ابن خلدون في مؤلفيه «المقدمة»، «وتاريخ العبر»، ومن بعده الحسن الوزان الفاسي صاحب «وصف إفريقيا» ثم مارمول كاربخال محرّر مدونته التاريخية والجغرافية «إفريقيا» في سرد أخبار دويلات المغارب وتنافسها فيما بينها لأجل توسيع حدودها أو اجتهادها في الصمود لأجل صدّ القوى الغازية والمنافسة.

لم يثن حديث الحدود المؤرخين والرحّالة من تخصيص صفحات مطولة للحديث عن الهويّة الثقافية المغاربية، مع تشديد على نقاط التشابه والتقارب في شتى الخصوصيات الحضارية التي ميزت شعوب المنطقة: كالأكل واللباس والمعمار وأدوات الزينة وعادات الزواج وطقوس "العبور إلى العالم الآخر" وغيرها. فقد كان انتشار الثقافات وتمدّدها في المغارب وعبر التاريخ أقوى من جدران حدود سياسية رخوة آخذة في التشكّل، إذ لم تحد تلك الحواجز حركة القبائل والتجار والسفراء والمتصوفة والأفكار والتمثلات من الانتقال والارتحال بين المملكات المختلفة.

كما لم تمنع الصحراء بقساوتها من ظهور مسالك برية وجادات تخترق جبال الأطلس لتضمن التواصل بين بمجالات المغارب وبلاد السودان، ويؤمها التجّار والمهاجرون والسفراء والبعوث، لتقاسم بضائعهم وعطاءاتهم الثقافية. فقد أشار الحسن الوزان الفاسي إلى حيوية تلك المسالك التجارية، محددًا أبرز محطاتها ومواعيد خروج القوافل والمخاطر التي قد تتهدد مرتاديها. وأشار أيضًا إلى تسرّب المؤثر الإفريقي في عدة مناحي من الثقافة المغاربية ومنها الموسيقى الروحية للسود من خلال تزايد حضور الأفارقة أو جماعة كناوة ودمجهم لتمثلاتهم الطقسية الإفريقية ضمن طقوس متصوفة المغارب كالرقص والغناء واستخدام الآلات الوترية والنفخية والايقاعية.

وأمام هده المتغيّرات المحورية التي شهدتها بلاد المغرب والمنبئة بحدوث تحوّلات جذرية في مستوى الذهنيات والمشاهد السياسية والثقافية، فقد رمنا البحث في الإشكاليات التالية: ما هو أثر التحوّلات السياسية في ترسيم الحدود بين دويلات المغارب في نهاية العصر الوسيط؟ وكيف بدأ المشهد الثقافي المغاربي في عين وذهن الضابط الإسباني مارمول كاربخال؟ وكيف تمكن التراث الثقافي الإفريقي جنوب الصحراء من الولوج إلى المشهد الثقافي المغاربي برغم صرامة المؤسسات الفقهية في حفظ "الثقافة النقية"؟

أولاً: الحدود السياسية لدويلات المغرب ودور المحلة والأعيان في فرض سلطان المخزن

استندت الحدود السياسية الفاصلة بين الدول والممالك عبر التاريخ إلى استخدام الحواجز التضاريسية كعلامات ظاهرة لإعلان نهاية مجال دولة

ما وبداية حدود دولة أخرى. فقد تكون تلك العلامات في شكل أنهار، أو جبال، أو صحاري، أو بحار وغيرها. وقد تكون أيضًا ذات طبيعة ثقافية تتجسد في مجمل القيم والتمثلات واللغة والأذواق المشتركة، التي تُكسب الجماعة هوية ثقافية مخصوصة تمايزها عن الهويات الثقافية المجاورة، وتخلق بين أفرادها شعورًا بالانتساب إليها. وكما ترسم الحدود على الخرائط فإنها ترتسم أيضًا في أذهان ساكنتها وحكامها، للفصل بين المجالات الأليفة والغريبة، ولتتركز ضمن حيزها سلطة مستقلة بذاتها قادرة على فرض نسقها وكسب ولاء أتباعها.

لتناول طبيعة الحدود السياسية بين دويلات مجالات المغارب في العصر الوسيط المتأخر، يدعونا هذا الأمر إلى النظر في استخدام تلك العبارة ومرادفاتها في التراث الفكري والأدبي والجغرافي العربي مشرق ومغربا[١]، حيث لم يقتصر ذلك الرصيد المعرفي الضخم على استخدام كلمة الحدود، بل أوجد مرادفات أخرى متصلة بالطابع الاحترازي والتحصيني أو الهجومي مع الأطراف المعادية لمراكز الحكم. ومن تلك المرادفات نجد: الثغور والرباطات والتخوم والنواحي والعواصم. ولأن المجال لا يسمح بالنظر في الكتابات المختلفة التي تناولت مسألة الحدود وخصوصا المؤلفات الجغرافية العربية والإسلامية والتي اختصت بما عرف ب«أدب المسالك والممالك » وكانت قد أوردت تفاصيل الأقاليم المكونة لخريطة العالم الإسلامي والحدود التي تفصلها عن بقية العوالم الأخرى،- فكانت مناسبة لاستعراض جملة المفاهيم واختلافاتها وفق طبيعة الشعوب المتاخمة لنواحي المسلمين - ، غير أنه من الجدير التنويه بالاستخدام المميز لابن خلدون الذي يستعمل ذات المفردات (الثغور والحدود والأقاليم) لا فقط للفصل بين المسلمين وغير المسلمين وإنما للفصل أيضًا بين أقاليم الدولة الحفصية ذاتها وهي: إفريقية أو "عمالة السلطان"، والممالك الغربية أي بجاية وقسنطينة أو بين المركزات السياسية المغاربية الثلاثة التي زامن حكمها[٢].

١/١-حدود إفريقية في العهد الحفصي، بين التمدّد والانحسار

ظل اسم إفريقية في المصادر السابقة للقرن السادس عشر يحيل باستمرار على واقع جغرافي متغيّر، فهو يتقلص أحيانا لكي يتطابق مع منطقة جغرافية ضيقة — تعيدنا إلى الزمن القرطاجي في آخر مراحله - تتحصر في القسم الشمالي من البلاد التونسية الحالية والذي يتداول في الذاكرة الجماعية تحت مسمى «فريقا» والموسومة بالخير والخصب. وينفسح أحيانا أخرى ليستوعب كامل الفضاء المغاربي، وربما يمتد إلى أبعد منها باحتوائه لأجزاء ترابية خارجة عنها، كالأندلس أو صقلية[٣]. ويبدو أن جدلية الاتساع والانحسار لم تكن حكرا على دولة دون أخرى أو فترة زمنية محددة، بل هي ظاهرة تاريخية مغاربية تمتد جذورها إلى العصور القديمة[٤]. ونظرا لطول المدة الزمنية التي صاغت ثنائية التمدّد والانحسار للدول والكيانات السياسية التي اتخذت من شمال إفريقيا نقطة ارتكازها، فإننا سنقصر جهدنا على العهد الوسيط المتأخر الذي فرض فيه الحفصيون سلطانهم على مجال إفريقية في أبعاده الواسعة والضيقة. حيث وصل تأثيرهم في القرن الثالث عشر حتى الأندلس، وفرضوا هيمنتهم في فترات أخرى على الزيانيين ملوك تلمسان، على أيام ابي زكرياء الحفصي (١٢٠٣ - ١٢٤٩). وبلغ في نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر مدينة فاس على أيام أبي فارس عبد العزيز (١٣٦١ - ١٤٣٤). لكن ذلك التمدّد تعرض في فترات أخرى إلى التقلص وحتى الانقراض ظرفيا مثلما حدث زمن الامتداد المريني خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر[٥].

لقد أربك عدم استقرار حدود الدولة الحفصية كتّاب تاريخ بلاد المغرب، واختلفوا في تحديد حدودها باختلاف سياقات الكتابة وأزمنتها. فقد مال ابن خلدون إلى تحديد مجال إفريقية في زمنه بذاك المجال الممتد من " بلاد بجاية في ساحل البحر ثم قسنطينة في الشرق منها وفي جنوبي هذه البلاد ومرتفعا إلى جنوب المغرب الأوسط بلد أشير ثم بلد المسيلة ثم الزاب وقاعدته بسكرة تحت جبل أوراس المتصل بدرن...والقطعة الجوفية من جبل درن ما بينه وبين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس وتبسة والأربس، وعلى ساحل البحر بلد بونة، وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد إفريقية، فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم سوسة ثم المهدية وفي جنوب هذه البلاد تحت

جبل درن بلاد الجريد وتوزر وقفصة ونفزاوة وفيما بينهما وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسبيطلة وعلى سمت هذه البلاد كلها شرقا بلاد طرابلس.[٦]» . أما الحسن الوزان الفاسي الذي زار تونس في العقد الثاني من القرن السادس عشر، فإنه آثر الحديث عن أقاليم مملكة تونس الأربعة وهي: بجاية[٧] وقسنطينة وطرابلس الغرب والزاب، ثم استدرك عند حديثه عن الحدود الفعلية لمملكة تونس زمن حضوره في المنطقة بقوله: "وكان إقليم بجاية موضوع نزاع مستمر، يتبع تارة سلطة ملك تونس، وسلطة ملك تلمسان أخرى، إلى أن أصبح في أيامنا هذه مملكة مستقلة استولى على عاصمتها الكونت بيير نافارو اسم ملك اسبانيا فرديناند[٨]».

فمن خلال هذا البسط التاريخي الموجز، نستنتج أن اسم إفريقية لم يكن حتى القرن السادس عشر يحيل على واقع جغرافي وسياسي محدّد وثابت، بل أن مدلوله في النصوص متطوّر بتغير السياق التاريخي وموازين القوى في المنطقة، رغم اجتهاد السلاطين الحفصيين بكل السبل للحفاظ على مجال دولتهم الذي خلّفه الأجداد. عبر التحالف تارة مع القراصنة الأتراك الذين أضحوا يمتلكون الأسلحة النارية والمدافع لمواجهة التمدّد الإسباني على السواحل الحفصية، وفي أحيانًا أخرى اللجوء إلى الإسبان لإبعاد خطر تأسيس ولاية عثمانية على الثغور الغربية والجنوبية. ويضطرون في أوقات أخرى إلى التحالف مع المجموعات القبلية، كما فعل السلطان الحسن في مواجهة حملة خير الدين سنة ١٥٣٤.

انقلبت موازين القوى كليًا مع أواسط منتصف القرن السادس عشر لفائدة الأتراك الذين اقتطعوا الجناح الغربي من إفريقية الحفصية وألحقوه بإيالة الجزائر، وخصوا إيالة طرابلس بالقسم الشرقي، ولم يبق للمخزن الحفصي سوى فضاء محدود قدّرته إحدى المراسلات الإسبانية بمسيرة يوم من العاصمة تونس، قبل أن يتم إزاحتهم نهائيًا من الحكم سنة ١٥٧٤[٩]. ويبدأ الشروع في ترسيم الحدود بين إيالتي تونس والجزائر في الثلث الأول من القرن السابع عشر خصوصًا بالأقاليم الشمالية -على اعتبار أنها أكثر الأقاليم الآهلة بالسكان

– وظلت الحدود الجنوبية غير مضبوطة إلى حين تدخل السلط الاستعمارية في بداية القرن العشرين لتتكفل بترسيم الحدود الصحراوية بين البلدين وبين الجزائر وبقية البلدان الإفريقية الصحراوية.

٢/١-نهر ملوية علامة حدودية مرجعية بين المغربين الأوسط والأقصى

شكّل نهر ملوية علامة تضاريسية بارزة للعيان رسّخت الحدود المجالية بين المركزات السياسية التي تكونت في المغربين الأوسط والأقصى في كل العصور والأزمنة. فكما كان فاصلا بين الموريطانتين القيصرية والطنجية خلال الفترة الرومانية، فقد سار الزيانيون (١٢٣٥ - ١٥٥٤) والمرينيون (١٢٤٤ - ١٤٦٥) على عادتهم، واتخذوه علامة حدودية مرجعية خصوصا في أيام السلم، بعد أن يتم تجاوزه من قبل هذا الطرف أو ذاك في أيام الحرب.

ونظرًا لأهميته الجغرافية والاستراتيجية فقد انتبه الحسن الوزان الفاسي إلى وصف نهر ملوية كالآتي بيانه، هو: « نهر كبير ينبع من الأطلس في ناحية الحوز... يجتاز أولاً بعض السهول الوعرة اليابسة ليصل إلى سهل أكثر وعورة ويبسا بين مفازات أنكاد وكرط، ويمر في سفح جبل بني يزناسن ويدخل في البحر المتوسط غير بعيد عن مدينة غساسة.[١٠]». كما لم يغب عن ذهن الفاسي وهو يمر بتلمسان وصف مجال الدولة الزيانية وتحديده حيث:« يحد مملكة تلمسان واد زا ونهر ملوية غربًا، والواد الكبير وصحراء نوميديا جنوبًا... إلى أن انتزعه منهم (بنو عبد الواد) أمير ذو شأن كبير يسمى يغمراسن بن زيان وورثه عنه أحفاده.... وقد استقر الملك في بني زيّان ثلاثمائة سنة.[١١]» . لم تكن حدود الدّولة الزيانية كبقية الدويلات المغاربية ثابتة ومستقرّة، فهي بدورها متغيرّة تبعًا للظروف السياسية والأحداث الخارجية وخصوصًا مدى تطوّرها في الجارتين الشرقية والغربية، فقد كانت بمثابة الدولة الحاجز Etat- tampon والأضعف بين الحفصيين والمرينيين.

كانت الدولة الزيانية في أغلب الأوقات ضعيفة ومنهكة، بسبب افتقادها على خلاف جيرانها لمجال حضري – باستثناء تلمسان - كثيف يشد أزرها في

أوقات الأزمات، حيث وقع احتلال حاضرة حكمهم في أكثر من عشرين مناسبة[١٢]. فكانت سلطتها لا تتجاوز في بعض عهودها أسوار تلمسان، مثلما حصل أيام الحصار المريني الأول والذي امتد من ١٢٩٩ إلى١٣٠٧م، ومهاجمتها في مرة ثانية من قبل أبي الحسن المريني سنة ١٣٣٧، وتمكنه من القضاء على السلطة الزيانية. حينها أصبح مجال مملكة تلمسان خاضعًا بأكمله للدولة المرينية إلى غاية إحيائها من جديد على يد أبي حمو موسى الثاني سنة ١٣٥٩، والذي نجح في الحفاظ على سلطانه إلى حدود سنة ١٣٨٩ [١٣]. ثم ستعرف الدولة الزيانية بعد ذلك استقرارًا هشا لحدودها المعروفة إلى حين مقدم الأتراك، على أن تتخلل ذلك هجمات حفصية في عهدي أبي فارس عبد العزيز سنة ١٤٢٦ وأبي عمرو عثمان سنة ١٤٦٢، ما فرض على الزيانيين وقتها اللجوء إلى التفاوض والقبول بالخضوع.

ثم سيتغير المشهد الجيو-سياسي بصفة جذرية بمقدم الإسبان في إطار حركتهم لتعقب الأندلسيين بعد سقوط إمارة غرناطة ومواصلتهم لما عرف بحروب الاسترداد، ولتدعيم موقفهم بعد ذلك في المتوسط في مواجهة إمبراطورية سليمان القانوني. فسارعوا منذ مفتتح القرن السادس عشر بمهاجمة موانئ مملكة تلمسان واحتلال مينائي وهران والمرسى الكبير[١٤]، وسعوا إلى تركيز حاميات وحصون ثابتة. ولقد استتبع ذلك الحدث حلول القراصنة الموالون للدولة العثمانية. عندها أبانت الظرفية الجديدة عدم قدرة المركزات السياسية الوسيطية الناسلة من رحم العصبيات القبلية غير قادرة على مواكبة متغيرات الحداثة، فانصاعوا إلى الدولة العثمانية وزالت الدولة الزيانية سنة ١٥٥٤.

لم تكن التهديدات الخارجية وحدها هي من تسببت في إثارة حالة الفوضى والإنهاك للدولة الزيانية أو بقية الممالك المغاربية، فقد أشار الفاسي إلى خطر ما وسمه بتعدّيات الأعراب، حيث لم تفتأ الإمارة الزيانية:« تتضرر من تعسفات الأعراب القاطنين بالجزء المجاور للصحراء. وكان ملوك تلمسان دائما مضطرين إلى أن يهدئوهم بأداء إتاوات جسيمة وتقديم الهدايا لهم، لكن لم يستطيعوا قط إرضائهم جميعا، وقلما توجد في البلاد سبل آمنة.[١٥]" . فقد دعت حالة التشظي المجالي في كل من مملكة تلمسان أو في المملكتين المجاورتين، وحالات العصيان التي تثار هنا وهناك بفعل بروز قوى مناوئة سواء أكانت قبلية أو ولائية على غرار الدولة الشابية في الوسط الغربي لإفريقية الحفصية إلى ضرورة تسيير حملات عقابية بغاية الإخضاع وفرض سلطان المخزن.

٣/١-المحلة، السلطة المتجوّلة

تمثل الجباية مصدرًا رئيسًا لخزينة الدولة ولموارد العائلات الحاكمة في مجالات المغارب لتصريف شؤون الحكم ولدفع رواتب الجند وموظفي الإدارة. وتمثل الجباية أيضًا رمز الولاء والخضوع وتحييز المجال territorialisation الذي تمتد فوقه سلطة الحاكم، فتتحول المحلة فرصة لتجديد البيعة للسلطان من لدن القبائل الخاضعة أو لتأديب القبائل المنتفضة والمنافسة للدولة، والمعروفة باسم قبائل السيبة.

وأمام هذه الضرورات فقد اعتادت مدينة تونس منذ العهد الحفصي أو في زمنة عثمنة البلاد التونسية على تجهيز موكب المحلة مرتين في السنة، محلة الشتاء التي تغادر المدينة إثرى انطلاق جني الزيتون والتمور في وطن الساحل وبلاد الجريد، ومحلة الصيف باتجاه الشمال أو وطن «فريقا» لجمع المجابي من الحبوب بعد موسم الحصاد. وكانت المحلة تتألف من أطياف بشرية متنوعة، فتجمع أصناف مختلفة من عسكر السلطان والموظفين والفقهاء والتجار والحرفيين، ويتم تطعيمها بأعداد وافرة من الجند وفرسان القبائل المخزنية والكتّاب والحرس والجوانب والحجاب والخدم. وتنتظم المحلة غير بعيد عن أسوار المدينة ثم تغادر في موكب استعراضي يقودها السلطان الحفصي أو من ينوبه لجلب الخير العميم من دواخل البلاد إلى حاضرة الحكم. فتتنقل المحلة وفق مسارات مضبوطة مسبقا محدثة حيوية وجلبة في الطرق والمسالك، معبّرة عن حضور فعلي ومباشر لسلطة المخزن ولمؤسساته في أعماق المملكة. فتنشر القضايا أمام الفقهاء ليجري العدل بين الناس وتعقد الأسواق وتزدهر المعاملات في أمن واطمئنان، ويكف المارقون عن القانون أيديهم عن السرقات وأعمال الحرابة[١٦].

لقد كانت المحلة متعددة الوظائف والأدوار ومنها الجباية ومراقبة السبل وصرف الرواتب ونشر العملة في عالم تسوده المبادلات العينية، ونصب الأسواق وبسط احتكار الدولة على المواد الأولية المطلوبة في التجارة المتوسطية على غرار الحبوب والجلود والزيت والمنسوجات. وهي فرصة ليتواصل المخزن مع قيادات القبائل الموالية، والتفاوض مع القبائل المناوئة، ولاستعراض أبهة سلطانه وقدراته الردعية[١٧]. ومن نافلة القول إن البلاطات لم تكن تميل في العادة إلى استخدام القوة ضد خصومها في الداخل إلا عند الضرورة، فالمخزن لا يتوانى على إغداق الأموال على رؤوس القوم في البوادي وتقاسم الأعطيات المالية والعينية لأجل كسب ودهم، ومساعدته على النفاذ إلى الأفراد والسيطرة عليهم[١٨]. فبفضل قوة نفوذ الأعيان المادي والمعنوي فهم قادرون على نشر الأمن والاستقرار في مناطق بعيدة عن مركز السلطة، وعلى إخضاع قبائلهم وجعلها ممتثلة لإرادة المخزن[١٩]. على أن ذلك لا يعني الولاء المطلق وغياب حركات عصيان وتمرد إذا ما أخل المخزن بتعهداته الدورية تجاه أعيان القبيلة.

في نهاية هذه العروض حول مسألة الحدود الهشة في مجالات المغارب في نهاية العصر الوسيط يقودنا تحليلنا إلى طرح التساؤل التالي: ترى هل شعر سكان تلك المجالات بتشكّل ما يسمى حاضرًا بالدولة الترابية Etat- territorial بمعنى هل ساد شعور بالانتماء وبواجب الدفاع عن مركزة سياسية ومجال معلّم يسمى بالمفهوم الحديث «الوطن» ؟

رغم اشتراك المجموعات البشرية التي استوطنت دويلات المغارب في العصر الوسيط في عدة مقومات ذاتية ومنها الاشتراك المجالي والعقدي وأحيانا اللغوي (أمازيغي أو عربي) والثقافة الشعبية، والمشترك التاريخي والحضاري، إلا أنه من السابق لأوانه الحديث عن بروز "شعور وطني" لساكنة تلك المجالات واستعدادها للوقوف بصفة طوعية ضد القوى الخارجية. فلقد ذكرت المصادر كيف تخلّت القبائل البدوية خلال حملة أبي الحسن المريني سنة ١٣٤٨ عن مؤازرة السلطان الحفصي والانضمام إلى صفوف السلطان المريني. فما إن وصل إلى مدينة وهران تلقى السلطان المريني وفود المدن الطرفية في مجال إفريقية مثل توزر ونفطة وقفصة وقابس. ثم تلقى في مدينة بجاية ممثلين عن القبائل الكبرى معلنة ولاءها له[٢٠].

يمكن تفسير انصياع بعض المدن التونسية والمجموعات القبلية إلى الجيش المريني بعدة مبررات أهمها: أن الحدود الجغرافية للمركزات السياسية التي كانت خاضعة لها رخوة غير مستقرة لا على أرض الواقع ولا في الأذهان، ولم تدعمها اتفاقيات مكتوبة يشعر فيها كل متجاوز لحدودها بالغربة في المناطق التي تليها. فضلا عن ترسّب ولاءات منافسة للولاء إلى السلطة، إذ حافظ ولاء الأفراد للقبيلة على صلابته ليكون أمتن بكثير من بقية الولاءات الأخرى. فضلا عن الطبيعة الظاعنة للقبائل التي يشغلها بلوغ أراضي تحفظ حياة الجماعة أكثر من التمسك بحيز جغرافي محدّد ومضبوط تتفاعل معه وتنشأ معه أواصر شعورية قوية[٢١]. أما المجتمع الحضري فقد كان منشغلا بانتمائه الضيق إلى المدينة ولا يعترف بالرباط الوجداني مع سكان البادية، الذي نعتهم بـ «عرب» (وصم تحقيري نسبة إلى الأعراب). دون أن ننسى أن اسم الدولة أو المركزة السياسية عادة ما كانت تحمل اسم السلالة الحاكمة وليس اسم المجال الذي يحوي ساكنيه، ما يضعف الصلات بين الأفراد أو المجموعات والطبقة الحاكمة. على أن يبدأ تبلور مفهوم الهوية السياسية للمجالات المغاربية على مراحل خلال الحضور العثماني وتقسيمه لمجال الدولة الحفصية في الربع الأخير من القرن السادس عشر إلى ثلاث ولايات ثم الشروع في رسم حدود فاصلة بينها ومتفق عليها بين الجيران بعد إبرام معاهدات واتفاقيات، والتي ستؤول شيئا فشيئا إلى تشكّل ما يعرف اليوم بالهوية السياسية لكل مجال. فهل يحملنا هذا الاستنتاج إلى القبول بتشكّل هويات ثقافية محلية في ذلك الوقت؟ وهل عطلت تلك الحدود الهشة تقاسم العطاءات الثقافية بين أقاليم المغارب؟

ثانيًا: التشابك الثقافي المغاربي والانفتاح على هويات مجال الصحراء وبلاد السودان

تُعَدّ الهويّة الثقافية وفق ما ذهب إليه الفيلسوف الفرنسي إتيان باليبار Balibar Etienne «تحقيق لوجود الفرد والجماعة وإثبات لخصوصيتهم، وذلك بناء على مقومات وقيم متعارف عليها ومتفق عليها داخل حيز جغرافي مترامي ومُعلّم. وتتجلى بصورة معلنة في طريقة الكلام واللهجات وطريقة إعداد الأطعمة وآداب الأكل والجلوس إليه، واللباس والمعمار والأذواق الأدبية والفنية وغيرها من عناصر الثقافة المادية واللامادية. وتستند تمثلات الجماعة في تشكيل عناصر ثقافتها إلى الأعراف والتقاليد والموروث الشعبي، والمعتقدات وقوانين الجماعة وفكرها وطبيعة العلاقات بين مكوناتها وسلوكياتها والمباح والمحرم عندها[٢٢]». فمن خلال هذا التعريف فإن المشاهد الثقافية هي الكفيلة بالتعرّف على هويات الشعوب وانتماءاتها، وإذا ما رمنا تنزيل هذا التعريف على الواقع الثقافي للمغارب في منتصف القرن السادس عشر، ومحاولة فهم خصوصياته الثقافية، فإنه من الجدير النظر في ذلك من خلال الوقوف عند تمثلات مغايرة، بمعنى تتبع سؤال الهوية الثقافية للمغاربة بعيون أخرى منتمية إلى مجالات ثقافية أجنبية.

للبحث في هذا الموضوع ارتأينا الوقوف عند مصدر أدبي صُنّف ضمن نصوص الرحلة، كتب في الربع الأخير من القرن السادس عشر، دوّن فيه صاحبه مشاهداته من خلال تنقلاته في مجالات المغارب والأنباء التي تناهت إلى مسامعه عبر التجار والسفراء والبحارة والمستكشفون الإيبيريين، الذين زاروا ببلدان المغارب أو مروا بها في منتصف القرن. وتكمن أهمية هذا المصدر لا فقط من حيث مزامنته للمواضيع التي نحن بصدد دراساتها وإنما لاختلاف زاوية النظر مقارنة بالمؤلفات المحلية. فصاحب النص هو ضابط إسباني يدعى مارمول كاربخال[٢٣] وفد إلى تونس سنة ١٥٣٥ ضمن حملة شارلكان، ثم نجده بعد ذلك بسنوات أسيرا لدى المخزن السعدي بمراكش قبل أن يتم افتداءه وإرجاعه إلى اسبانيا في منتصف العقد الخامس تقريبا. لقد سار مارمول على خطى الحسن الوزان الفاسي وطاف في أرجاء ب المغارب لمدة زمنية ناهزت ثمانية سنوات، ودوّن مشاهداته في مؤلفه «أفريقيا» وعمل فيه على رصد الجوانب الثقافية المادية وغير المادية في المجالات المزارة، سيما كبرى حواضر بلاد المغرب. ولأن الحديث عن الهويّة الثقافية المغاربية هو موضوع رحب ومتشعب في آن، إرتأينا أن نركز جهودنا على أحد جوانبه، تمثل في الظاهرة العمرانية في مدينتي تونس وفاس، للبحث في المشترك الثقافي الذي عمّ المنطقة منذ الأزمنة القديمة.

١/٢-عمارة الدور والأسواق في مدينتي فاس وتونس

تُعَدّ فاس وتونس من أبرز الحواضر السلطانية داخل الفضاء المغاربي وقد تمكنتا خلال تاريخهما الطويل من الإشعاع على مجالات جغرافية واسعة وتنشيطها، وأن تكونا مقرّات اتخاذ القرار في شأن المجالات الخاضعة لهما، واستقطاب خيراتها. حظيت المدينتان لحظة تأسيسهما بموقع استراتيجي، إذ تموضعت مدينة فاس على ملتقى للطرق التجارية بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب. واستقرت مدينة تونس على ضفاف المتوسط في منطقة سهلية عدت من أخصب سهول افريقية، ما جعل المدينتين قبلة لعديد المجموعات البشرية الوافدة وملجأ للجماعات المضطهدة. فقد كانت ساكنة مدينة فاس في القرن السادس عشر خليطًا من أمازيغ الأطلس المتوسط والقيروانيين والأندلسيين واليهود الذين أسهموا في تطوُّرها العمراني والاقتصادي والثقافي. وشكلت مدينة تونس بدورها خاصة في العهد الحفصي منطقة وفود جاليات مغربية وأندلسية ومسيحية ويهودية، فضلا عن الرقيق السودان والعلوج المرتزقة الوافدين من أوروبا ومن البوادي المجاورة والبعيدة[٢٤].

إنّ الحديث عن المشهد العمراني بمدينتي تونس وفاس يحيلنا على علاقة العمارة على اختلاف أشكالها وأنماطها بالوسط الثقافي الذي تنشأ فيه، فهي أكثر النشاطات صلة بتجسيد الواقع الحضاري للشعوب، وتعكس النمط الحياتي والسلوكي من خلال تأثّرها المباشرة بالبيئة السكانية، واستبطانها للمفاهيم والرموز المادية والمعنوية في أي فترة تاريخية[٢٥]. وللعمارة أواصر وثيقة بالمعطيات الجغرافية والوضع الطبوغرافي

والظروف المناخية، إذ يلجأ الناس إلى استخدام خامات ومواد بناء أصلية من الأوساط القريبة والمجاورة لهم. وتحدّد نوعية البناء والتصاميم وفق إملاءات أو خيارات تطرحها المعطيات الثقافية والاجتماعية والبيئية(٢٦). ونظرا لكثافة المادة المعرفية في مؤلف «إفريقيا» حول العمارة في المدينتين، فإننا سنكتفي عند حدّ عرض الدور والأسواق والجوامع الكبرى والمدارس الملحقة بها.

الدور: بخلاف دور سكان الجبال والبوادي التي حافظت على أشكال عمارة بدائية متصفة ببساطة التصميم والمواد المستخدمة في البناء والتسقيف والتبليط، فيكتفي أصحابها باتخاذ أغصان الشجر أو قوالب من طين والحجارة غير المنجدة بغاية الاستضلال والكين على حدّ تعبير ابن خلدون(٢٧)، فإن دور مدينتي فاس وتونس - من خلال ما أورده مارمول - قد اتصفت بأبهة عظيمة إذ تجاوز أصحابها الضروري ليبلغوا الكمالي بطلب الزينة والزخرفة، بعد أن استوعب النمط المعماري المغاربي مؤثرات معمارية وفنية وافدة على غرار المؤثرات الأندلسية فضلا عن المؤثرات المشرقية والمتوسطية. فلم يخرج تصميم المنزل التونسي على غرار المنزل الفاسي على ذات التصميم المعتمد في المنازل الإغريقية والرومانية ومنازل المشرق، حيث تكون الغرف مكشوفة على ساحة كبيرة للتزود بالماء والهواء للغرف الموزعة على جوانبها الأربعة التي تفتقد في الغالب لنوافذ مكشوفة على الشارع(٢٨).

بنيت دور فاس «بالآجر أو الطوب الملصق بالجير أو الإسمنت، وهي جميلة من الداخل أكثر منها في الخارج، لأن فيها غرفا جميلة مبيضة ومزلجة بمربعات صغيرة مرصوصة شديدة الصفاء. وتوجد عادة في حجر الدور البهية خزانات داخل الجدران وأقواس من جبس شديدة البياض مزخرف بصور أرقام وأوراق شجر ملونة بشتى الألوان. الدور مغطاة بسقوف من طين مخلوط بالجير والرمل والإسمنت، ولها أفنية محاطة بممرات وأروقة فيها خزانات مصنوعة من خشب طيب الرائحة. كما توجد في الدور أحواض كبيرة من الآجر مبلطة مرصعة، وحمامات أو برك من المرمر(٢٩).» وتشابه دور تونس دور نظيرتها فاس من حيث المواد المستخدمة في البناء فكانت تبنى «بالحجارة أو الآجر والجير وهي في غاية المواتاة مع ظروف هذا البلد إذ أنها ذات سطوح متدرجة بحيث تمكن من تصريف مياه الأمطار إلى الخزانات، أما السقوف فهي من الجبس المزخرف بالذهب وبالعديد من الألوان، إذ لا توجد في هذه الجهات الأخشاب الكافية لصنع ألواح السقوف. أما أرضية الغرف فهي معمولة من مربعات صغيرة من الإسمنت أو تبليط مرصع. وليس في الدور على العادة غير طابق واحد، وأبهاؤها باردة نظيفة لأن الرجال يقضون فيها معظم أوقاتهم وهم يتحدثون ويجرون معاملاتهم، وبذلك يتجنبون إدخال أصدقائهم ومستخدميهم إلى داخل الدار حيث توجد نساؤهم(٣٠).

الأسواق: يكتسي الحديث عن أسواق المدن وخاصة منها العتيقة أهمية معتبرة في مؤلفات الرحلة وكتّاب التاريخ عمومًا لما تقوم به تلك المرافق سواء أكانت المغطاة أم المفتوحة، من أدوار محورية في حياة الناس في توفير حاجاتهم اليوميّة والكسب الذي يعود على متعاطي النشاط التجاري. كما تعكس الأسواق في آن المستوى الإنتاجي والتطوّر التقني لسكان المدينة وفحوصها.

فعند الوقوف عند تاريخ أسواق مدينة تونس، فإنه يجدر التذكير بجهود أبي زكريا الحفصي (١٢٠٣ – ١٢٤٩م) في توسيع أسواق المدينة وتشييد عدة قيصريات (أسواق مغطاة). ثم بلغت المدينة في عهد أبي يحي أبي بكر (ت ١٣٤٦م) مرحلة هامة من الاتساع، إذ أحصى ابن الشماع أكثر من ٧٠٠ حانوت للعطارة، وما يزيد على ١٢٠ طاحونة تقوم بطحن ٤٠٠٠ قفيز من القمح كل يوم(٣١). خُصّص لكل سوق مجال وانتظمت وفق تراتبية مخصوصة، انطلاقا من المركز أي الجامع الكبير في اتجاه أبواب المدينة، حيث تنتصب الرحبات التي تحتضن المعاملات المختلفة بين أهل البادية والحضر(٣٢). ولقد استرعى اهتمام الكاتب نشاط أسواق مدينة تونس وحركيتها التي تمتد على كامل ساعات اليوم لتصل إلى ما بعد منتصف الليل، خاصة بسوق العطارين بسبب ارتياد النسوة الحمامات ليلا(٣٣). كما نوّه مارمول كاربخال بوفرة دكاكين الشواشين والنسّاجين الذين انتصبوا داخل حيز خاص بهم داخل أسواق المدينة، غير بعيد عن جامع الزيتونة حيث حظيت منتوجاتهم بشهرة واعتبار عند مسلمي إفريقيا جمعاء(٣٤).

ويحيلنا اقتضاب حديث مارمول في وصف أسواق مدينة تونس إلى ضرورة النظر فيما أورده مواطنه الفاسي في مؤلفه «وصف إفريقيا»، فكانت أسواق المدينة تضم "عددًا كبيرًا من تجار القماش الذين يعتبرون أغنى سكان المدينة، كمّا تضم غيرهم من التجار والصنّاع، كالعطارين وبائعي الأشربة والعقاقير المحلاّة بالسكر، وتجار العطور والحرير، والخيّاطين والسراجين والفرّائين والفاكهانيين واللّبانين والخبّازين والقصابين الذين يذبحون الخرفان أكثر من غيرها لا سيما في الربيع والصيف، إلى غير ذلك من الحرف التي تمارس في هذه السوق[٣٥].

وتركزت في الطرف الغربي للمغارب المبادلات والمعاملات التجارية في أسواق» فاس البالي»، بالقرب من «جامع القرويين» في «مكان مسور يدعى القيصرية، حيث [توجد] دكاكين التجار وجميع ثروات فاس. لها اثنا عشر بابًا كبيرًا، بسلاسل غليظة من الحديد تستعمل كحواجز لمنع دخول المرء إليها راكبا. وتضم خمسة عشر زقاقا للدكاكين. أهمها زقاق الإسكافيين الذين يصنعون أحذية مطرزة بالذهب والحرير، وبعدهما زقاقا القطانين الذين يصنعون أشرطة وشُرّابات تعلق بركابات وعلى صدور الخيل مع عدة السروج من نفس المادة. وهناك أيضًا أزيد من مائة دكان للتجار الذين يبيعون جميع أنواع النسيج من الحرير وأخرى بجوارها تباع فيها النّطُق من الحرير والصوف للنساء، منسوجة على وشاحات غليظة من الخيط بأهداب طويلة في أطرافها... تتمنطق بها جميع النساء العربيات. كما أنه توجد في نفس المكان عدة دكاكين، تباع فيها أقمشة رقيقة من الصوف، وربطات من الحرير الخام، جلّ هؤلاء التجار من مسلمي الأندلس وبلنسية»[٣٦].

ففي هذه السوق الكبيرة يجد الفاسيون جميع مستلزماتهم من قماش وحلي وعطورات وأبازيز وفواكه وغلال ومصنوعات جلدية والكتب والنعال والألبسة والأعشاب، ودكاكين الفواكه وباقات الزهر ودكاكين جميع أنواع المشروبات. ودكاكين الشماعين وبائعي اللبن والحليب ومشتقاته ودكاكين السراجين والحصريين ودكاكين بائعي الخضر والشوائين وبائعي الزيوت والسمن والعسل والجبن والزيتون والقصابين والتوابل والحدادين وكل مستلزمات الفرسان والمواشي. وتفرقت أسواق أخرى مختلفة الاختصاصات في أرجاء المدينة، فعلى مقربة من الأبواب الرئيسية (باب الجيسة، وباب الفتوح، وباب المحروق) انتصبت أسواق الحبوب، لتجنب شحن تلك المواد الثقيلة عبر الشوارع الضيقة.

ولأن أسواق مدينة فاس كانت مقصد العديدين من داخل المدينة وخارجها، ما استوجب تشييد عدد كبير من الفنادق قدّر عددها الضابط الإسباني «مائتي فندق، كبيرة حسنة البناء، كان يرتادها التجار القادمين من أصقاع مختلفة للإقامة أو لتخزين سلعهم[٣٧]». بقي أن نشير إلى تمدّد الصلات التجارية بين مدينتي تونس وفاس منذ القدم الذي لم يكن فقط مع المجموعات السكانية المجاورة لهما، بل مع المجالات البعيدة في الصحراء وما وراءها، ومع المدن المتوسطية عبر مسالك برية وبحرية. غير أن تلك المبادلات تقلصت بسبب تمركز الحضور الإيبيري على السواحل المغاربية، وبفعل اتجاه مركز ثقل التجارة الدولية نحو الأطلسي، والتراجع النسبي لتجارة القوافل. واللافت أن مارمول كاربخال واصل في الحديث عن ازدهار النشاط التجاري للمدينتين ما يوحي إلينا بأن معطياته لم تكن متزامنة لأوضاع المغارب لحظة وجوده أو زمن تدوينه لمؤلفه.

٢/٢-عمارة جامع الزيتونة والقرويين والمدارس الملحقة بهما

عدت فاس منذ تأسيسها العاصمة العلميَّة والروحيَّة للجناح الغربي لبلاد المغرب، وازدانت عبر التاريخ بعديد الجوامع الكبرى، إذ أحصى مارمول كاربخال وجود «حوالي خمسين جامعًا كبيرًا، في كل واحد منها سقاية من الماء الجاري، مع أحواض كبيرة من المرمر، وعدد من السواري لدعم القبة، فضلا عن ستمائة من مسجد آخر ليس بناؤها جيدًا كثيرًا. والسقوف كلها مغطاة بخشب الأرز المزخرف بعدة نحوت ونقوش، ولها صوامع عالية، مثل أبراج الأجراس، يصعد إليها المؤذن الذي هو بمثابة خادم الكنيسة لينادي إلى الصلاة[٣٨]». وضمن هذه الشبكة الكثيفة من الجوامع والمساجد يبرز «جامع القرويين» الشهير، كأبهى الجوامع وأعظمها في بلاد المغرب كلها وفق شهادة الضابط الإسباني.

يقع الجامع وسط المدينة، «في مكان منبسط سوي، ودائرته نحو نصف فرسخ، له ستة أبواب رئيسية[٣٩]متصلة بستة من الأزقة المهمة. وكل الأبواب مغشاة بقطع صغيرة من نحاس، تشكل شتى الأحرف والتشبيكات بشكل لطيف جدا، مع أقفال ضخمة مصنوعة بنفس الطراز، مثلما يشاهد في الكنيسة العظمى بإشبيليا[٤٠]». ونظرا لتشابك المعرفي بالديني، فقد ألحقت بالجامع مدرسة عظيمة معروفة باسم «مدرسة القرويين" يُدرّس فيها العلماء والفقهاء علوما وفنونا متنوعة ويشرف على تسييرهما والاهتمام بمواردهما المالية مُشرف يعيّنه حاكم المدينة، ولكن بسبب الصعوبات المادية التي لحقت بفاس في القرن السادس عشر وضع الحكّام أيديهم على مقدرات المؤسستين[٤١]. كما شدّت «المدرسة البوعنانية» بفخامتها الكاتب التي عدها من أجمل بنايات مدينة فاس، من حيث أفنيتها الكبيرة وأروقتها وتعدّد غرفها الملبسة بالطلاء الجيد، أرضيتها المزلجة. ولاستقبالها لعديد الطلبة من داخل فاس وخارجها والذين يتكفل المخزن بالإنفاق عليهم جميعا[٤٢].

ويضاهي «جامع القرويين» من حيث المكانة والرفعة جامع الزيتونة بمدينة تونس، فهو «مسجد واسع، له موارد وفيرة، وله صومعة عالية توجد في أعلاها ثلاث رمانات من النحاس المموه بالذهب شبيهة بالتي في مراكش[٤٣].» وتنتشر بأحياء المدينة عدد آخر من المساجد، والمدارس والتي وقع هدم البعض منها بسبب ما كان يعيشه المخزن الحفصي من صعوبات مالية خانقة بعد أن فقد السيطرة على موارده المتأتية من الخارج على غرار عائدات القرصنة البحرية والتجارة الخارجية نتيجة اضطراب أحوال المتوسط واشتداد الصراع العثماني الإسباني[٤٤]. ومع ذلك فقد ظلت بعض المدارس الأخرى تؤدي وظيفتها التربوية والتعليمية وينفق عليها من الهبات والصدقات، وذلك لرسوخ قناعة عند أعيان المدينة بضرورة استمرار المدارس في القيام بأدوارها في تعليم الناس المعارف الدينية والدنيوية، ولتضطلع بوظيفة رئيسية في تكوين أعوان الدولة ونخبة المخزن الجديد داخل الفضاء الحضري. وتعرض الكاتب في مواضع أخرى من مؤلفه وبدرجات متفاوتة للحديث عن عدد آخر من المنشآت العمرانية الكبرى التي تقوم بأدوار مركزية في حياة الناس على غرار الحمامات والبيمارستانات والقلاع. وتعمّد الحديث أيضًا عن أسوار المدينتين، فبدت له فاس وتونس غير حصينتين بسبب قصر أسوارهما وعدم قدرتها على الصمود أمام ضربات المدافع[٤٥].

ما يمكن استنتاجه في نهاية هذا العرض حول عمارة مدينتي تونس وفاس في مدونة «إفريقيا»، أنّ الكاتب لم يخف إعجابه الكبير بالزخم العمراني في المدينتين الذي عكس حيويتهما البشرية والاقتصادية وعراقتهما التاريخية، مشدّدًا على التشابه العمراني بين المدينتين في الهندسة والمواد المستعملة والزينة والوظائف، فضلا عن دورهما المحوري في احتضان المركزات السياسية في طرفي مجال المغارب. كما عرّج الكاتب على أوجه الشبه في المشهد العمراني لحاضرتي تونس وفاس مع نظيره الأندلسي الذي كان شائعا في اشبيلية وطليطلة ومرسية وقرطبة وغرناطة. وأحال مارمول على سرعة اندماج الموريسكيين في الحياة الاجتماعية المحلية، مثمّنا لأدوارهم الريادية في إثراء العمارة المغاربية والأنشطة الاقتصادية، وخاصة منها الحضرية كالحرف والتجارة. متهما العرب والمسلمين لحظة وصولهم إلى شمال إفريقيا بتدمير المعالم العمرانية وتسببهم في نشر البداوة، وهدم الحواضر.[٤٦]

ومهما يكن من أمر فقد نأى مارمول بنفسه عند حديثه عن ملامح الحياة العمرانية في مدينتي تونس وفاس عن ذكر مجالات المغايرة العمرانية والاقتصادية بين العالمين الإيبيري والمغاربي، مُفضلاً استحضار أوجه التشابه والتماهي بين المدينتين المغاربيتين، وهو أمر غير مستعجب حيث وضع الكاتب المدنيتين في نفس الحيز المجالي سماه كعادة الأوروبيين ببلاد البربر، كإقليم جغرافي وثقافي متباين عن بقية الأقاليم الإفريقية الأخرى.

٣/٢-انفتاح الشخصية الثقافية المغاربية على الثقافة الصحراوية وبلاد السودان

يتفق الدارسون للمسألة الثقافة حول بعدها الديناميكي والحركي، فهي في الأعم نشيطة تطمح للتمدّد والانتشار والتشابك مع الثقافات المجاورة، وحتى

البعيدة توازيا مع حركة الجماعات والأفراد. ولكن يختلف نسق ذلك الحراك من ثقافة إلى أخرى، بعلاقة بنوعية التضاريس الجغرافية وطبيعة المسالك والجادات، وبمدى استعداد الأفراد للقبول بالوافد(٤٧). يقودنا هذا الاستنتاج إلى النظر في قدرة الثقافات المغاربية على تقبّل مؤثرات الثقافات المغايرة وخاصة منها ثقافة شعوب إفريقيا ما وراء الصحراء، سيما وأن الحسن الوزان الفاسي قد عزل مجالات المغارب جغرافيا وثقافيا عن بقية أجزاء إفريقيا، واضعا الصحراء (والتي سمّاها ليبيا) كحد فاصل بين بلاد المغرب وبقية إفريقيا. فهل ستكون الصحراء عقبة أمام التثاقف المغاربي – الإفريقي أم تكون شاهدة على حركية ضاجة بين المجالين؟

يشمل التثاقف أو تقاسم العطاءات الثقافية بين شعوب المغارب وسكان بلاد السودان عدة مجالات يتعذر علينا في هذا النص حصرها والتوقف عند جميعها، لذا إرتأينا النظر في أحد مظاهرها والمتمثل في مستويات تأثير الموسيقى الإفريقية الوافدة مع جماعة قناوة وتسللها إلى التعبيرات الموسيقية الروحية للطريقة العيساوية، كطائفة صوفية محلية تنتمي جغرافيا إلى المغرب الأقصى ثم حققت انتشارا واسعا في بقية المغارب (٤٨). أمّا في خصوص طائفة قناوة، فهي مجموعات بشرية من السود حضرت إلى شمال إفريقيا منذ عهود قديمة(٤٩)، وتدّعمت بصفة جليّة في العهد العلوي، عندما قام اسماعيل الذهبي (١٦٦٦ م – ١٧٢٧م) بانتداب أعداد كبيرة منهم ضمن الجيش المغربي، مشكلين وحدات خاصة بهم سميت ب"عبيد البخاري".

أسهم الحضور الكثيف للسود في إثراء المشهد الثقافي المغاربي، وبلغ مداه البعد الروحي، وبروز موسيقات محلية حاملة لجينات ثقافية لإفريقيا السوداء، متخذة لمسميات مختلفة ومنها: قناوة بالمغرب الأقصى والديوان بالجزائر والسطنبالي بالبلاد التونسية. وكانت جميع هذه الطوائف تشترك في فرادة اللحن والكلمات والنسق، والذي كان مغايرا لما ألفه المغاربة من طبوع موسيقية وألحان وكلمات. فيستحضرنا حينئذ انشغالنا بأوجه التمازج الثقافي بين الطائفتين جملة من الأسئلة الباحثة عن هوية قناوة وعيساوة، وسياقات بروزهما، ومرجعياتهما الفكرية والروحية، وأثر التأثير الإفريقي في التصوف المغاربي.

تنتسب طريقة عيساوة إلى الشيخ محمد بن عيسى (ت ١٥٢٦ م) دفين مكناس، والذي احتفظت له الذاكرة الشعبية بصورة فيها كثير من التبجيل، إلى حدّ وسمه بـ «الشيخ الكامل»، لما كان يربي عليه مريديه على العناية الخاصة بالذكر وتلاوة القرآن، وسرد المدائح والصلوات على النبي. ولقد اتبعت عيساوة في مسارها الصوفي خطى سابقتها ومنسّلتها الطريقة الجزولية، التي استندت من ناحيتها إلى الإرث الصوفي الشاذلي المختزل لأبرز التوجّهات والنظريات الصوفية الرائجة منذ أعقاب القرن العاشر ميلادي. وهي توجهات أسهمت بدرجة كبيرة وفعّالة في تدوين وتوضيح وإثراء أفكار متصوفة التأسيس، عاملة تبعا لذلك على إدماج تلك الأفكار في حظيرة الشريعة، محققة بذلك مصالحة حقيقية بين علمي «الباطن» و«الظاهر» أي بين التصوف والفقه(٥٠). وتلازمت أولى الممارسات العيساوية ذات الصبغة الشفوية والصوتية مع العديد من الأعمال الطقسية التأسيسية والأنشطة الطرقية المعتمدة على أدبيات خاصة وهي كتاب «دلائل الخيرات»(٥١) وحزب «سبحان الدايم»(٥٢).

ومن الثابت لدينا، أن السياق الروحي المغربي في القرن الخامس عشر قد اتخذ مسارا مغايرا لما أقره متصوفة التأسيس، حيث وجّه عنايته نحو الجوانب الشكلية من ممارسات صوتية وشفوية على حساب المضامين والمحتوى، رغبة منه في التأثير على الوجدان أكثر منه على العقول. فشهدت بعد ذلك انزياحا طقسيا نحو إعادة صياغة تلك الأذكار والأدعية الزهدية التي وضعها الشيخ بن عيسى، بأسلوب النظم الشعري السائد المعروف بالملحون. مصبغين الأحزاب والأذكار الصوفية بمسحة غنائية، مصحوبة باستخدام الآلات الموسيقية في مصاحبة أغانيهم الصوفية، مقتصرين في الغالب على الآلات الإيقاعية، مع إضافة في حالات نادرة للآلات النغمية(٥٣).

ولقد صارت الطريقة العيساوية كغيرها من الطرق الأخرى نحو مغادرة الزوايا والقيام بعدد من عروضها خارجها، أسوة بما كانت تقدمه جماعة قناوة. إذ كانت مستجيبة للدعوات من قبل بعض العائلات أو أثناء مواسم مخصوصة لزيارة الأماكن العامة، بغاية تطهيرها ونشر البركة فيها، أو لمداواة نفوس قد شعرت بأذى "كائنات خفية"(٥٤). ولقد خصت جماعة عيساوة مريديها بطقس الليلة، كطقس صوفي حركي تتم فيه دعوة كائنات خارقة بغاية تقديم العون للمرضى والمستضامين في تماهي كبير لليلة القناوية، والتي تتكون من ثلاث فقرات مميزة وهي الذكر والملوك والحضرة. ولقد ألينا التوقف عند مرحلة الملوك العيساوي والقناوي باعتبار تشابه الطقسين لدى الطائفتين.

يعود مصطلح «الملوك» كطقس محوري ضمن «الليلة» العيساوية والقناوية إلى اعتقاد إفريقي قديم في الجن وقدراته الخارقة في تملك الآدميين، فيطلق على هذه المخلوقات اسم «الملوك» أي المالكين لشخص ما. ويتمثل ذلك الطقس في حصة مخصصة لنوع من الممارسة الموسيقية المصحوبة برقص طقوسي غايته طرد الجان والأرواح الشريرة، ويساعد على شفاء المرضى الذين يفترض أنهم مملكون من الجن(٥٥). فخلال طقس «الملوك» عند عيساوة يلتقي صفان متقابلان جلوسا ينقرون على الدفوف، يتوسطهم شيخ الحلقة المسمى بدوره بـ«المقدم» أو «شيخ الشتشارة»، ويقف المريدون أو الدراويش المسمون في أدبيات الطريقة بـ«الحضّارة» للرقص(٥٦) والحركة تفاعلا مع معاني الأبيات الشعرية والأزجال الصوفية، وتناغما مع حركة الإيقاع الموسيقي بحثا عن مواجد روحية وحالات انجذاب نفسي تنتشي بموجبها النفوس وتنجُم عنها سعادة روحية قصوى(٥٧). ووفق تنظيم الليلة العيساوية، يختص كل جنيّ بلحن مخصوص ينشده العيساويون على إيقاع مستعار من موسيقى القناوي، فيقوم بعض الموسيقيين بعزف «الصاجات» أو «الشقاشق» والطبل الكبير، بغاية جلب المملوكين الى الرقص لأن الملوك يظهرون من خلالهم. ويعتقد أن جماعة الجن عندما تسمع الموسيقى المحببة لديها، فإنها تجبر الأشخاص المملوكين على القيام بالرقص(٥٨). ومع نهاية «الملوك» تنتقل الليلة العيساوية إلى المرحلة الأخيرة وهي مرحلة «الحضرة» والتي تتمثل في مجموعة من الأعمال والممارسات الموسيقية المتنوعة التي يسعى العيساويون من ورائها الانعتاق من العالم الدنيوي وبلوغ الحضرة الإلهية عن طريق الرقص الجماعي الذي يشترك فيه الحاضرون من الرجال والنساء ومختلف الأعمار(٥٩).

فمن وجهة نظر ثقافية، لم تحل الطبيعة ومعيقاتها المناخية والتضاريسية من حدوث تبادل ثقافي ملموس مثلما ما تم عرضه بين مجالات المغارب والمجالات الصحراوية والإفريقية الواقعة من خلفها، فحركة الشعوب والملوك والجنود والتجار لم تأبه إلى تضاريس المنطقة الوعرة، ولا إلى جفاف الصحراء وقفرها. فقد شهدت المسالك الصحراوية المخترقة لجبال الأطلس والصحراء والرابطة بين مدن المغارب على غرار فاس والقيروان وتلمسان بمدن سجلماسة وتمبكتو وغاو وغدامس، حركية نشيطة للناس وللأفكار. فبفضل تلك الطرق الضاجة بالحركة في الاتجاهين جنوبا وشمالا، انتقلت المعتقدات واللغات والأساطير والخرافات والأحاجي، وأيضًا الفنون القولية والحركية كأشكال تعبيرية صادقة على خلاف ما تورده نصوص مكتوبة حمّالة للأوجه.

لم يكن قبول المغاربة بالمؤثرات الثقافية الإفريقية عفويّا، فقد شكّل حضور السود بالمنطقة في بداية الأمر مصدرا للتوّجس والريبة، وذلك خشية "فساد معتقدهم". وبالنتيجة لم تتمكن جماعة قناوة ممارسة طقوس أجدادها في العلن إلا بعد أن قبلوا بأسلمتها وجعلها موائمة للذائقة الإسلامية المغاربية. لذلك فإنه من غير الممكن أن تنطلق احتفالات "الليلة القناوية" دون تلاوة بعض الآيات القرآنية والتصلية على نبيّ الإسلام وقراءة بعض الأوراد والأناشيد الدينية. وفي المحصلة، لقد آل ذلك القبول السلمي بين الطرفين إلى انصهار حضاري سلس بين الأفارقة والمغاربة أثبت قدرة لافتة في حفظ بقائه إلى اليوم، وليحصل على تأييد جلّ الفاعلين السياسيين والاجتماعيين. ورغم الموجات النقدية التي تظهر بين الحين والآخر تدين ما تعتبره ضربا من الشعوذة والدجل، فإن موسيقى قناوة أو السطنبالي أو الديوان بطقوسها المختلفة ظلت ماضية في مسيرتها

الفريدة، ومحتفظة بأساطيرها القديمة وروائح نشأتها الإفريقية، محققة انتشارًا فاق كل التوقعات داخل المغارب وخارجها توج بشهادة أممية تعتبر فنون قناوة رصيدًا تراثيًا إنسانيًا.

خَاتِمَةٌ

أحالت كلمة "المغرب" في النصوص الأدبية وفي الذهنيات خلال العصر الوسيط على إقليم جغرافي شاسع يتموقع غرب النيل ضمن الدولة الإسلامية. حيث غلب على دلالات هذا المفهوم البعد الجغرافي أكثر من الإحالة على معناه السياسي، رغم ظهور كيانات سياسية مستقلة بالمنطقة عن مركز الخلافة بالشرق منذ القرن الثاني للهجرة. وكانت الحركة بين أطرافه انسيابية، إذ لم تعطل الحدود السياسية تنقلات الأفراد والقبائل والمتصوفة والأفكار والسلع، فكان بمثابة عالم من دون حدود[٦٠] un espace sans frontières وفق توصيف الباحث إبراهيم جدلة. ولكن هذه الانسيابية في الحركة لم تكن تعني غياب حدود من نوع آخر. لقد اتخذت الحدود صيغًا أخرى متعددة، وهي أساسا حدود عرقية: (امازيغي/ عربي / إفريقي / اندلسي) أو مذهبية: (مالكي/خارجي) أو انتماء اجتماعي وجغرافي: (حضري / بدوي). فقد اسهمت هذه الانتماءات للأفراد والمجموعات في تشكيل التحالفات والولاءات خصوصا في أوقات التشكل الجنيني للحدود السياسية بين الممالك المغاربية.

لقد تكونت داخل الفضاء المغاربي وعلى إثر انحلال الدولة الموحدية جملة من المركزات السياسية، كان على رأس كل واحدة منها سلطانا، تخترق سلطته الحدود لتشمل كل المؤمنين، غير معترفة بوجود الكيانات السياسية الأخرى. فنفوذه السلطان يسير على سكان المسورات كما على عناصر القبائل الرحل. ورغم أن مجال النفوذ الفعلي لم يكن دومًا مستقرًا، فإنه كان متطابقًا مع مجال الحدود الجبائية[٦١]. فقد يتوسع في زمن قوة المخزن وقد يتقلص في زمن ضعفه ووهنه.

أخذت تمثلات المغاربة للحدود منذ نهاية القرن الرابع عشر في التطوّر التدريجي تحت تأثير عديد الظروف ومنها تعاظم أدفاق المبادلات والأفكار مع القوى الأوروبية، فكان لزاما على المركزات السياسية المغاربية التأقلم مع المثل الأوروبية للدولة على الأقل في بعدها المجالي. ولقد تدعم هذا المنزع مع الشروع في تبادل السفراء والبعوث على غرار حلول السفير الفلورنسي بتونس منذ سنة ١٤٤٤، والذي مثل بداية الاعتراف الأوروبي بوجود دولة ذات أبعاد جغرافية معلومة. ولقد تساوق ذلك مع ظهور ميل لدى المجموعات القبلية إلى التشبث بالمجالات التي اعتادوا التنقل فيها في اشارة واضحة على تقهقر رابطة الدم لفائدة الانتماء إلى المجال. وتعزز المفهوم الترابي للدولة مع انزياح مفهوم الدولة في الذهنية المغاربية من الإحالة على البعد الزمني كالقول مثلاً بدولة الحفصيين، لتصبح لها معنى مجالي يتمحور حول عاصمة أو حاضرة السلطان يمتد نفوذها على بقية الأطراف[٦٢]. ولقد برز هذا التغيير خاصة في كتابات القرن السادس عشر عندما اضحى مفهوم الدولة له دلالة ترابية أكثر منه زمنية، حيث قسّم الحسن الوزان الفاسي ممالك المغارب إلى أربعة ممالك ترابية عوض السلالات الحاكمة، ما ينبؤ بتغيرات مفهوم الحدود والمجال والسلطة في أذهان النخب العالمة في ذلك الزمن.

وضمن هذه المناخات الجيو- سياسية المتجهة نحو الثبات والترسيم على أرض الواقع وفي الأذهان، إلا أن ذلك لم يحد من تبادل العطاءات الثقافية بين مختلف الأقاليم. فوفق شهادة مارمول كاربخال قد مثّل الفضاء المغاربي وحدة ثقافية متجانسة، كان تشابهها باديا في مختلف التعبيرات الثقافية وخاصة منها المسألة العمرانية، حيث شدّد صاحب كتاب "إفريقيا" على مظاهر التشابك الثقافي المغاربي خصوصا بكبرى الحواضر على غرار تونس وفاس من خلال ثبات المؤثرات الثقافية المحلية في صياغة تصاميم المنشآت العمرانية الكبرى، في استجابة مباشرة لحاجيات السكان ولطبيعة المواد الأولية المتوفرة. فقد كانت تونس وفاس مثالا عن مشهد ثقافي نجح في صياغة هويته من خلال التأليف بين المحلي والوافد، مهما كان مصدره.

ورغم تشبث الحسن الوزان الفاسي بفكرة "أفضلية سكان بلاد البربر" على بقية سكان القارة في مستوى

التمدّن، فإن المجتمعات المغاربية لم تجد غضاضة في احتضان التأثيرات الفنية والروحية الوافدة من وراء الصحراء. حيث نجح جماعة قناوة والديوان والسطنبالي مثلما رأينا في نقل جوانب من الفنون والتعبيرات الإفريقية، وحتى تمثلاتهم لوجود عوالم خفية، - مثلما نبّه النص القرآني بدوره إلى ذلك، نحو الفضاءات المغاربية. فنتيجة لذلك التثاقف، وفي سياق انتقال الظاهرة الصوفية المغاربية من حقلها العرفاني والوجداني إلى حقل الممارسة الطقوسية لم تعد تقتصر طقوس متصوفة عيساوة وغيرها من الطرق المغربية الأخرى على حركات محدودة من الرقص، بل اتخذ النسق أكثر حركية على شاكلة الرقص الإفريقي لبلوغ مراحل متقدمة من الانتشاء واستدعاء الكائنات الخفية للتداوي والعلاج من أمراض استعصى حينها فهما أو لتأمين طقوس العبور والحضور إلى الحضرة الإلهية.

الاحالات المرجعية:

(١) إن الاهتمام بمسألة الحدود في تمثلات المسلمين يحيلنا بالضرورة إلى موقع هذا المفهوم في المؤلفات الجغرافية العربية والإسلامية. فبالنسبة إلى أندري ميكاييل فقد مثلت الجغرافية العربية هي البداية الفعلية للجغرافية البشرية في العالم، حيث ابدى الجغرافيون العرب نجابة كبرى في هذا المنهج بعد تأليفهم مؤلفات كثيرة في جنس ما عرف بأدب "المسالك والممالك"، والذي انشغلوا فيه بوصف المدن والأقاليم والطرقات والمسالك والحدود، وقاموا برسم الخرائط وحدود الأقاليم. وقد لاحظ ميكاييل غياب حدود فاصلة في مؤلف "نزهة المشتاق" الإدريسي والذي علله صاحبه بعدم قدرته على ضبطها في نصوصه أو في الخرائط المصاحبة وهو في قصر الملك الصقلي روجر الثاني بالدقة المطلوبة. بعكس المقدسي الذي كان شديد الحرص على ذكر حدود الأقاليم والمسافات الفاصلة بينها مع ذكر للحدود السياسية والجغرافية.

(٢) ابن خلدون، **كتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣، ج ٧، ص ٤١٨.

(٣) **إفريقية** عند ياقوت الحموي (توفي سنة١٢٢٩ م) هي" بلاد واسعة ومملكة كبيرة قبلة جزيرة صقلية وينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس"، **معجم البلدان**، دار بيروت للطباعة والنشر- دار صادر، ج ١، ص ٢٨٨.

(٤) بن سليمان (فاطمة)، **الأرض والهوية، نشوء الدولة الترابية في تونس: ١٥٧٤ – ١٨٨١**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، ٢٠٠٩، ص٢٤.

(٥) نفسه، ص ٣٢.

(٦) ابن خلدون، **المقدمة**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٩، ص ٦٠.

(٧) احتل الإسبان مدينة بجاية عدة مرات، ثم استرجعها باشا الجزائر صالح رايس سنة ١٥٥٥.

(٨) الفاسي (الحسن الوزان)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ط ٢، ج ٢، ص ٣١.

(٩) بن سليمان(فاطمة)، **الأرض والهوية، نشوء الدولة الترابية في تونس: ١٥٧٤ – ١٨٨١**، م س، ص ٣٢

(١٠) الفاسي (الحسن الوزان)، **وصف إفريقيا**، م س، ج ١، ص ٢٥.

(١١) نفسه، ج ٢، ص ٧.

(12) Brahim Jadla, «Le Maghreb de l'expédition mérinide au périple de Léon l'Africain», Cahiers de recherches médiévales et humanistes [En ligne], 21 | 2011, mis en ligne le 10 mai 2014, consulté le 15 décembre 2022. URL : http://journals.openedition.org/crmh/12421 ; DOI : https://doi.org/10.4000/ crm.12421

(١٣) يقول الحسن الوزان الفاسي عن متاعب الزيانيين:" غير انهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس- أي المرينين- الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات، حسب ما جاء في التاريخ. وكان مصير ملوك بني زيّان حينئذ إما القتل أو الأسر أو الفرار إلى المفازات عند جيرانهم الأعراب، وتعرضوا أحيانًا أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس، إلاّ انهم كانوا يسترجعون ملكهم كل مرة. (١٣)"» . الفاسي (الحسن الوزان)، **وصف إفريقيا**، م س، ج ٢، ص ٧.

(١٤) يذكر الفاسي: « ولهذه المملكة ميناءان مشهوران: ميناء وهران، وميناء المرسى الكبير...غير أن هذين الميناءين سقطا في يدي الملك الكاثوليكي فرناندو (١٤)، فكان ذلك خسارة عظمى لمملكة تلمسان، حتى أن الشعب طرد الملك أبا حمو وعوضه بأحد أعمامه...وهو المدعو أبا زيان...لكن ذلك لم يدم طويلا حيث أن (عروج) بربروس التركي طمح إلى الملك فقتل أبا زيان غيلة ونصب نفسه ملكا. ولما طرد الشعب أبا حمو توجه فورا إلى وهران وقطع البحر إلى إسبانيا قاصدا جلالة الإمبراطور شارل كارلوس متضرعا إليه أن ينجده ويعينه على أهل تلمسان والتركي بربروس. فاظهر الإمبراطور الكبير رحمة وشفقة مثلما أظهرها أسلافه، بحيث لبى دعوة الملك وأرسل معه جيشا قويا هائلا استطاع أبو حمو بواسطته أن يرجع إلى مملكته ويقتل بربروس وعددا من أتباعه. وبعد هذه الأحداث أرضى أبو حمو جنود الإسبان، وتمسك رغبة منه في السلم بالعهود التي قطعها على نفسه مع الإمبراطور، مؤديا له سنويا الإتاوة المحددة.» . **وصف إفريقيا**، م س، ط ٢، ج ٢، ص ٩.

(١٥) نفسه ونفس الصفحة.

(١٦) عزيزي (محمد الحبيب)،« محلة الشتاء والصيف، الكراسات التونسية» عدد ١٧٢، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، الثلاثي الأول سنة ١٩٩٦، من الصفحة ١٢ على الصفحة ٤٨.

(١٧) عزيزي (محمد الحبيب)، أطروحة دكتورا، ظاهرة الحكم المتجوّل في بلاد المغرب الحديث: المحلة التونسية أنموذجًا، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بالجزائر، قسم التاريخ، السنة الجامعية ٢٠٠٦/٢٠٠٧، ص ٤

(١٨) بورقية (رحمة)، **الدولة والسلطة والمجتمع: دراسة في الثابت والمتحوّل في علاقة الدولة بالقبائل في المغرب**، در الطليعة بيروت، ١٩٩١، ص٧١.

(١٩) بياض (الطيب)، **المخزن والضريبة والاستعمار**، أفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠١١، ص ١٣٨.

(20) Brahim Jadla, « Le Maghreb de l'expédition mérinide au périple de Léon l'Africain », op. Cit.

(٢١) يشير الباحث إبراهيم جدلة إلى اتجاه القبائل الرحل إلى تقليص حركتها داخل مجال معين والتشبث بالأرض بعد حملة أبي الحسن

المريني سنتي ١٣٤٧ –1448 ما ساهم في إعطاء تجانس ديمغرافي داخل الممالك المغاربية.

(22) Balibar Etienne. « Identité culturelle, identité nationale». In: Quaderni, n°22, Hiver 1994. Exclusion-Intégration : la communication interculturelle. pp. 53-65.
DOI : https://doi.org/10.3406/quad.1994.1062
www.persee.fr/doc/quad_0987-1381_1994_num_22_1_1062

(٢٣) مارمول كاربخال (١٥٢٠ - ١٦٠٠) كاتب وضابط إسباني شارك في عدة حملات عسكرية تحت الراية الملكية الإسبانية، ومنها حملة الإمبراطور شارل الخامس الشهيرة على مدينة تونس سنة ١٥٣٥ ما مكّنه أن يكون شاهد عيان على مستجداتها وأن يخصها بصفحات مطولة عند تعرضه لوصف مدينة تونس. وأسعفه أسره من قبل السعديين ومرافقتهم لهم في حلهم وترحالهم إلى حين افتكاكهم السلطة من أيدي الوطاسيين أن يكون أيضًا الأقدر للحديث عن حواضر المغرب الأقصى ومدنه وبواديه، وأن يقدم لوحة تاريخية متنوعة الأبعاد حول الخصائص الحضارية والطبيعة للمنطقة. وتذكر المصادر أيضا مشاركته في حملة قمع ثورة البوشرات الغرناطية Rébellion de las Alpujarras (١٥٦٨ -١٥٧١). للاستزادة حول شخصية مارمول يمكن العودة إلى:

* Oumelbenine Zhiri, L'Afrique au miroir de l'Europe : Fortunes de Jean Léon l'Africain à la renaissance, Ed. Librairie Droz, Genève. 1991.

(٢٤) حسن (محمد)، **المدينة والبادية**، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية تونس، ١٩٩٩، ج١، ص ١٤٩.

(٢٥) جودي (محمد حسن)، **العمارة العربية الإسلامية**، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٧، ط١، ص٢٧.

(26) Philippe Boudon ,Architecture et architecturologie, Paris ,١٩٧٥ PP (89-90).

(٢٧) عبد الرحمان بن خلدون، **المقدمة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٧، ص ١٣٥.

(٢٨) للاستزادة حول المنزل الفاسي يمكن العودة إلى مؤلف روجيه لوتورنو، **فاس في عصر بني مرين**، ترجمة نقولا زيادة، مكتبة لبنان. ١٩٦٧، من الصفحة ٩١ وما يليها.

(٢٩) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، ترجمه محمد حجّي وآخرون، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرّباط، ٩٨٤، ج ٢، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٣٠) نفسه، ج ٣، ص ٢٣.

(٣١) حسن (محمد)، **المدينة والبادية**، م س، ج١، ص ١٦٩.

(٣٢) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، م س، ج ٣، ص ٢١.

(٣٣) نفسه ونفس الصفحة.

(٣٤) نفسه ونفس الصفحة.

(٣٥) الفاسي (الحسن الوزان)، **وصف إفريقيا**، م س، ج ٢، ص ٧٥.

(٣٦) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، م س، ج ٢، ص ١٤٩.

(٣٧) نفسه، ص ١٥٠.

(٣٨) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، م س، ج ٢، ص ١٤٦.

(٣٩) ذكر الحسن الوزان الفاسي أن مجموع أبواب جامع القرويين واحد وثلاثون بابا كلها كبيرة، **وصف إفريقيا**، ج ٢، ص ٢٢٤.

(٤٠) مارمول كاربخال، **إفريقيا**، م س، ج ٢، ص ١٤٦.

(٤١) نفسه، ص ١٤٧.

(٤٢) نفسه ونفس الصفحة.

(٤٣) نفسه، ج ٣، ص ٢٢.

(٤٤) الشريف (محمد الهادي)، **تاريخ تونس**، دار سراس للنشر، ط ٣، تونس، ١٩٩٣، ص ٦٤.

(٤٥) مارمول كاربخال **إفريقيا**، م س، ج ٣، ص ٢٣.

(٤٦) نفسه، ص ١٧.

(47) Claval (Paul), la géographie culturelle, Armand Colin, Paris, 2003, p94.

(٤٨) «كناوة» أو «قناوة» وفق عديد الدراسات هي كنية مستوحاة من انتساب جغرافي، حيث كان التجّار المغاربة يطلقونها على أهل "جيني" أو "كيني"، وهي مدينة مشهورة تقع جنوب تمبكتو على حوض النيجر. وردت هذه التسمية في عدة مصادر كلاسيكية ومنها ما ذكره الحسن الوزان الفاسي الذي أرجع أصل التسمية إلى:" مملكة يسميها التجار الأفارقة (يقصد المغاربة) «كناوة» والأهليون «جيني»، ويطلق عليها البرتغاليون ومن لهم خبرة بهذه المناطق في أوروبا غينيا. الفاسي (الحسن الوزان)، **وصف أفريقيا**، م س، ج ٢، ص ١٦٢.

(49) Pouchelon(J), Les Gnawa du Maroc: Intercesseurs de la différence, éditions Delatour France.2019. P35.

(٥٠) نفسه ونفس الصفحة.

(٥١) **دلائل الخيرات، أو دلائل الخيرات وشوارق الأنوار فى ذكر الصلاة على النبى المختار** ، كتاب من تأليف محمد بن سليمان الجزولي المتوفى سنة 870 هـ، جمع فيه صيغ فى الصلاة على رسول الإسلام، ويعدّ من أشهر الكتب فى هذا المجال مما جعله محط اهتمام كثير من العلماء قديماً وحديثاً، وخصوصًا الصوفية منهم، فجعلوه جزءاً من أورادهم التي يقرؤونها صباحاً ومساءً.

(٥٢) يتألف هذا الحزب من تشكيلات لغوية متنوعة من الأذكار والأدعية المتفرقة التي وضعها عدد من شيوخ الجزولية، انظر: **ممارسات الإنشاد الصوفي في الطريقة العيساوية**، ص ١٥٢ وما يليها.

(٥٣) بن عمر(هشام)، **ممارسات الإنشاد الصوفي في الطريقة العيساوية**، م س، ٢٩٧

(٥٤) فقد شهد الحسن الوزان الفاسي في جهة فاس دعوة بعض الأعيان إلى أعراسهم أحد الشيوخ البارزين من المتصوفة مع جمع من مريديه. فاذا أتوا الوليمة، بدأوا بتلاوة الأذكار وترتيل الأناشيد. وبعد تناول الطعام، يأخذ المسنون منهم في تمزيق ثيابهم في إشارة الى رقص الحضرة. **وصف أفريقيا**، م س، ص ٢٦٩.

(٥٥) لقد كان الاعتقاد في الجن سائدا ومنتشرا في شمال أفريقيا قبل وصول العرب والمسلمين إليه. فعلى الرغم من كون هذه المعتقدات قد اندمجت مع ما جاء به الإسلام فقد بقيت مع ذلك بعض المؤشرات الدالة على تميّز الاعتقاد في الجن بالشمال الأفريقي عن مثيله في الشرق الإسلامي، كعادة التضحية بالطيور لإرضاء تلك المخلوقات الخارقة والتي تعود أساسًا إلى الديانة القرطاجية. بن عمر(هشام)، **ممارسات الإنشاد الصوفي في الطريقة العيساوية**، م س، ص ٢٦٥.

(٥٦) وجب عدم الخلط بين الرقص والشطح، فالشطح الصوفي هو عبارةٌ عن كلمات تَصْدُر منهم في حالة الغَيْبوبة حيث لا يَشْعُرون حينئذٍ بغيرِ الحَقِّ كقول بعضهم :أنا الحَقُّ وليس في الجُبَّة إلاّ الله ونحو ذلك.

(٥٧) الكحلاوي (محمد)، «مدخل أنثروبولوجي إلى فنون السماع الصوفي بالغرب الإسلامي»، **مجلة التقاليد والفنون**، المعهد الوطني للتراث، العدد ١٣، سنة ٢٠٠١.ص ٦٧.

(٥٨) بن عمر (هشام)، **ممارسات الإنشاد الصوفي في الطريقة العيساوية**، م س، ص ٢٦٧.

(٥٩) نفسه، ص ٢٢١.

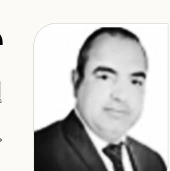
(60) Brahim Jadla, «Le Maghreb de l'expédition mérinide au périple de Léon l'Africain». op.cit.

(61) Ibid.

(62) Ibid.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

قُضاة دمشق
خلال القرن الحادي عشر الهجري السّابع عشر الميلادي
دراسة بروسبوغرافيّة



د. الأسعد يانسي

إطار بيداغوجي بوزارة التربيّة

حاصل على الدكتوراه من الجامعة التونسيّة

تونس – الجمهورية التونسية

مُلَخّص

يستهدف المقال الراهن دراسة مدى إمكانيّة التعويل على مدوّنة التراجم عند التصدّي لبعض المسائل الاجتماعيّة باعتماد المنهج البروسبوغرافي، ومدى الإمكانات التي يوفّرها هذا المنهج لدراسة الفاعل الاجتماعي خلال العصور الحديثة، وتحديدًا عبر مُساءلة فئة القضاة الذين تولوا الإشراف على الجهاز القضائي بولاية دمشق العثمانيّة خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السّابع عشر الميلادي. وبالتالي لا تتناول هذه الدراسة تاريخ الجهاز القضائي بالولايات العثمانيّة كمؤسّسة، بل تحاول الكشف عن بعض الجوانب الاجتماعيّة لهؤلاء القضاة من زاوية أصولهم الجغرافيّة ومختلف المسارات التي تخيّروها لأجل تأمين ترقّيهم العلمي والمهني، وبالتالي الاجتماعي، فضلاً عن طبيعة العلاقات التي علّمت تواصلهم مع بعضهم ومع بقيّة المكوّنات الاجتماعيّة وكيفيّة تمثّلهم لمهنتهم من خلال الأدوار المختلفة التي مارسوها تجاه بقيّة الأوساط الاجتماعيّة. وقد اتضح من الدراسة تفرّد متون التراجم، عمومًا، بمادّة تاريخيّة هامّة ومفيدة، حيث تسمح لنا ببناء قواعد بيانات خاصّة بتراجم الفئة المُستهدفة بالدّراسة، أي قضاة دمشق، ممّا يسمح لنا، وفي إطار المنهج البروسبوغرافي، من إعادة تركيب تلك البيانات، على تشتّتها وانعدام خيط ناظم في ما بينها، إذا استثنينا طبعًا الإطار الزمني والغاية الوعظية لكُتابها، ممّا يتيح لنا بناء شبكة البيانات البروسبوغرافيّة، بشكل يساعدنا في ضبط شبكة الفرضيات والأسئلة المُعتمدة عند مساءلة الفئة المُشتغل عليها، وهو ما يُيسّر لنا حسن توظيف تطبيقات الحاسوب ويرفع من قدرتنا على السيطرة على الكم الغزير من المعطيات الواردة بمتون التراجم والتصرّف فيها وفق الأهداف المرسومة ضمن الدراسة البروسبوغرافيّة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٠	يوليو	٢٠٢٣
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٢	أغسطس	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

قضاة؛ دمشق العثمانية؛ بروسبوغرافيا؛ تراجم؛ الدولة العثمانية

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.340731

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

الأسعد يانسي. "قُضاة دمشق خلال القرن الحادي عشر الهجري السّابع عشر الميلادي: دراسة بروسبوغرافية".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ١٢١ – ١٣١.

Corresponding author: lassaadyansi@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

من ناحيّة النص، تحاول هذه الدراسة اختبار مدى الإمكانات التي يمكن أن يوفّرها جنس مخصوص من الكتابة الكلاسيكيّة، المسمّى بـ "أدب التراجم" وذلك بهدف مزيد إثراء معرفتنا التاريخيّة.(١) أمّا من حيث المنهج، وبالرّغم من المُنجز العلمي، الذي تمّ الاعتماد فيه على المنهج البروسبوغرافي، منهجًا وتطبيقًا وذلك ضمن الفضاءات العربيّة،(٢) فإنّ هذا المنهج لا يزال بحاجة للتعزيز والإثراء خاصّة من حيث تطبيقاته المُمكنة.(٣) أمّا من حيث الموضوع، فقد رُمنا، من خلال هذا المقال، دراسة عيّنة من الفاعلين الاجتماعيين بولاية دمشق زمن الفترة العثمانيّة، وتحديدًا خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السّابع عشر الميلادي، عبر التصدّي لفئة من أعيان الزمان، طبعت مختلف تقاطعات الحياة سواء منها السياسيّة أو الاجتماعيّة أو الثقافيّة، ألا وهي فئة القضاة الذين زاولوا وظيفة القضاء بولاية دمشق ضمن الجهاز القضائي الذي أرسته الدّولة العثمانيّة، مركزيّا وإقليميّا.

من هذه المنطلقات، ستحاول هذه الدراسة تتّبع بعض الأركان التي أفرزت مع بعضها حضور فئة تقاطعت مع غيرها من الفئات في بعض الخصائص، لكن في المقابل تمايزت عن غيرها من الفاعلين الاجتماعيين، الأمر الذي سمح لها بأن توجّه الحياة الاجتماعيّة آنذاك وفق منظورها الخاص بها تجاه بقيّة المكوّنات الاجتماعيّة، خاصّة تجاه الفئة الأعلى منها، تحديدًا ممثّلي السّلطة السيّاسيّة، والفئات الأدنى منها، تلك التي تُختزل عموما في لفظ "الأهالي"، وذلك من خلال الوقوف على طبيعة الأدوار التي لعبتها فئة القضاة إلى جانب خصائص العلاقات التي ربطت هذه الفئة ببقيّة المكوّنات.

وبناء على ما تقدّم، يتألّف هذا المقال، من ثلاثة محاور أساسيّة، هي: أولاً: قضاة دمشق خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السّابع عشر الميلادي، ثانيًا: كتب التراجم والمنهج البروسبوغرافي، ثالثًا: قُضاة دمشق: الأصول والمسارات والأدوار.

أولاً: قضاة دمشق خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السّابع عشر الميلادي

١/١-القضاة

يستهدف هذا المقال فئة من "أعيان" دمشق وفق منظور كُتّاب التراجم زمن الفترة المدروسة، والتي تشمل أولئك الذين تقلّدوا وظيفة القضاء بدمشق سواء كانوا شاميين أو أولئك الذين قدموا من خارجها، دون غيرهم، وذلك بقطع النظر عن رتبة القاضي أو اختصاصه المذهبي ضمن الجهاز القضائي، بما فيه قضاء ركب الحج الشّامي. وبالتالي فإنّ هذه الفئة التي تمّ تخيّرتها ضمن هذه الدراسة ليست سوى واحدة من بين فئات أخرى عديدة تزخر بها مصنّفات التراجم، وبالتالي فهي ليست فئة اجتماعيّة بالمنظور السوسيولوجي. وتضمّ هذه الفئة ٧٥ قاضيًا ممّن تولّوا أمر القضاء بدمشق خلال القرن الحادي عشر الهجري/ السّابع عشر الميلادي.

ولئن يتصدّى هذا المقال إلى القضاة كفاعلين اجتماعيين، فمن المهم التذكير بالإطار المؤسساتي الذي رسم ضمنه هؤلاء القضاة مساراتهم المهنيّة ووجاهتهم الاجتماعيّة. إذ نجد على رأس الجهاز القضائي العثماني، ذي البنية الهرميّة، شيخ الإسلام وهو مفتي الدّولة وبمثابة قاضي قضاتها، ومُستقرّه بالعاصمة العثمانيّة، وفي نفس الوقت تمّ تقسيم المجال العثماني إلى منطقتين قضائيتين كبيرتين، يرأس كل منهما قاض أفندي: منطقة برئاسة قاضي عسكر الرّوملي، الذي يعيّن قضاة الولايات العثمانيّة الواقعة بأوروبا، وأخرى برئاسة قاضي عسكر الأناضول، الذي يعيّن قضاة الولايات العثمانيّة بآسيا ومصر.

ومن الصلاحيات الموكلة لقاضي عسكر الأناضول نجد تعيين القضاة الأقلّ درجة منه بموجب تذكرة تسمّى "منصب كاغدي"، وبالتالي كان القاضي يرتبط برئيسه الذي يعيّنه عادة لمدة سنة لكن بالإمكان أن تتجدد باستمرار. وأمّا بلاد الشام، وضمنيًا دمشق، فقد كانت تتبع السّلطة القضائيّة لقاضي عسكر الأناضول،(٤) على أن يكون قاضي قضاة الولاية حنفيّ المذهب، ويتمتّع قاضي دمشق بامتياز تعيين قضاته أو نوابه الأربعة، وهم

قاضي الحنفيّة ويعدّ النائب الرئيسي لقاضي الولاية، إلى جانب قاض مالكي وقاض حنبلي وقاض شافعي، وعادة ما يكون هؤلاء النواب من المحليين.

أمّا بقيّة مكوّنات الجهاز القضائي بالولاية فتتكوّن من معاونين غير قضاة وهم؛ أمين المحكمة، ومحضر باشي، ومترجم، وكاتب محكمة، وروزنامجي، وضابط المحكمة، والجلاّد، والشهود. وعموما، نجد بدمشق سبع محاكم عثمانيّة، وهي محكمة البزوريّة، أقدم محكمة عثمانيّة، ومحكمة الباب، وهي المحكمة الرئيسيّة بدمشق، ومحكمة القسمة العربيّة والعسكريّة، مختصّة في قضايا الميراث والنزاعات بين العسكر، ومحكمة العونيّة، ومحكمة الصالحيّة، ومحكمة السنانيّة، ومحكمة الميدان، مختصّة في قضايا الأراضي الزراعيّة.[٥]

٢/١-دمشق العثمانيّة

منذ سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م أضحت بلاد الشام[٦] تحت الحكم العثماني، حيث قُسّمت إداريّا إلى ثلاث ولايات، وهي ولاية دمشق (أو الشام)، وولاية طرابلس وولاية حلب. ونجد على رأس كل ولاية وال، وهو ممثّل السّلطان العثماني بها، وعادة ما يقطن بالسّرايا، حيث يمارس سلطاته العسكريّة والمدنيّة، "ويساعده القاضي، الذي يُشرف على محاكم دمشق السّبع، بالإضافة إلى المفتي ونقيب الأشراف ورؤساء العسكر".[٧]

أمّا ولاية دمشق، مجال الدراسة، فقد تألّفت من عشرة سناجق (ألوية)، وهي: دمشق، والقدس الشريف، وغزة، وصفد، ونابلس، وعجلون، واللجون، وتدمر، وصيدا وبيروت، والكرك والشوبك. رغم أنّ حدود ولاية دمشق ومكوّناتها غير ثابتة وذلك بحسب تطوّر المقاربات الإداريّة العثمانيّة تجاه ولايات بلاد الشام عمومًا. وبما أنّ سنجق دمشق يعدّ مركز الولاية فقد توّطنت بمدينة دمشق مختلف الأجهزة الممثّلة للسّلطة المركزيّة العثمانيّة.

أمّا من حيث الإشعاع، فإنّ مدينة دمشق يتجاوز إشعاعها حدود الولاية، باعتبارها مركزًا محوريًا ضمن ولايات بلاد الشام الثلاث ثم الأربع، إثر إحداث ولاية صيدا سنة ١٦٦٠م، وذلك نظرًا لقيمة موقعها ولقيمتها الدينيّة لدى العثمانيين، فهي نقطة تجمّع قافلة الحج الشامي ومركز انطلاقها، كما يتمتّع حاكمها بأسبقية إداريّة على باقي ولايات الشام.[٨] من جهة أخرى، كان النسيج الاجتماعي والديني لدمشق متنوّعًا حيث ضمّت طوائف دينيّة وأعراق مختلفة، إذ توطّن بها مسلمون ومسيحيون ويهود، فضلاً عن توزّع المسلمين عمومًا بين شيعة وسُنّة، وتفرّق هؤلاء الأخيرون بين المذاهب السُنيّة الأربعة (الشافعيّة، والحنفيّة، والمالكية، والحنبلية)، ضمن أعراق مختلفة أبرزها العرب والأتراك الأكراد والتركمان والآشوريين.

٣/١-القرن الحادي عشر الهجري/ السّابع عشر الميلادي

خلال القرن الحادي عشر الهجري (١٧م)، تعاقب، تقريبا، ١١ سلطانًا على حكم الدوّلة العثمانيّة، وقد خاضت هذه الأخيرة خلال هذه الفترة حروبا على جبهتين، ضد دول أوروبا غربًا وضد الدّولة الصفويّة على الحدود الشرقيّة. لقد أثّرت هذه الحروب سلبًا على الأوضاع الداخليّة، وذلك منذ أواخر القرن ١٠هـ (١٦م)، ومطلع القرن ١١هـ (١٧م)، حيث بدأت الأوضاع الاقتصاديّة للدولة العثمانيّة تسوء، وتجلّى ذلك خاصّة من خلال الأزمات الماليّة والنقديّة التي بدأت تلقي بضلالها على مركز الدّولة وولاياتها، بما فيها دمشق.[٩]

لقد أفرزت طبيعة المرحلة المتأزمّة تحوّلات في مستوى التشكيلات العسكريّة، فقد تحوّل منتسبو الجيش الإنكشاري بدمشق من أغلبية روميّة إلى أغلبيّة محليّة، وكذلك في مستوى ارتفاع مقادير الجباية طيلة القرن السابع عشر الميلادي (١١هـ). وقد أثّر ذلك سلبا على أوضاع السّكان، صاحبه سعي بعض الأعيان المحليين إلى مزيد الإثراء، حيث شكّل بعضهم كتائب مسلّحة تعمل تحت إمرتهم، هذا إلى جانب نزوع بعض الحكّام المحليين إلى فرض صيغ جديدة في علاقاتهم مع السلطة المركزيّة العثمانيّة تراوحت بين التمرّد والرّغبة في الانفصال.[١٠] كذلك مثّل القرن السابع عشر الميلادي (١١هـ)، مرحلة انتقاليّة مهمّة في نظام الجباية العثمانيّة وذلك بالتخلّي التدريجي عن نظام "التيمار" مقابل إحلال نظام "الالتزام" الذي سيتواصل لغاية منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، حيث ستنطلق الدّولة في تطبيق ما يُعرف بـ "التنظيمات".[١١]

هذا التحوّل في النظم الجبائيّة ساهم بشكل مؤثّر في هيمنة العنصر المحلّي ضمن إدارة الولاية، على غرار ولاية دمشق، حيث ترتّب عن زيادة نفوذ العناصر المحليّة ضمن المشهد السياسي والاقتصادي للولاية بروز صراعات فيما بينها من جهة، وبينها وبين ممثّلي السّلطة المركزيّة بالولاية من جهة أخرى.[١٢] على غرار صراع الأمير فخر الدين بن معين، (ت. ١٠٤٣هـ/ ١٦٣٥م)، مع السّلطة المركزية ممثّلة في والي دمشق مصطفى باشا المعروف بالخنّاق، (وُلّي دمشق سنة ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م)، ومع حكام محليين مثل بني سيفا، حكام طرابلس الشام.[١٣] مقابل ذلك خيّرت السّلطة المركزيّة التعامل مع الحكّام المحليين بالولايات عموما ودمشق خصوصا بشكل من "البراغماتيّة"، حيث أضفت الشرعيّة على الحكام المحليين مقابل التزام هؤلاء الأخيرين بطاعة السلاطين العثمانيين وتمسّكهم بالانتساب للدّولة العثمانيّة مع تأمين الدعم الجبائي والعسكري للمركز، مقابل إمكانيّة تدخّل السّلطة العسكريّة المركزيّة بكل ثقلها لإعادة ترتيب الأوضاع المحليّة كلّما لاحظت بداية خروج السّلطة المحليّة عن الإطار المسموح لها.

فيما يتّصل بأوضاع الدّولة العثمانيّة عموما، كان القرن ١٧م يتأرجح بين فترات تأزّم وأخرى أقرب إلى التوازن، وكانت أوضاع الولايات، على غرار دمشق، تتأثّر بهذا التأرجح بين القوّة والضعف، رافقتها تحوّلات عسكريّة وجبائيّة مصحوبة بتجذّر سلطة البيوت المحليّة داخل الولاية.

ثانيًا: كتب التراجم والمنهج البروسبوغرافي

من أبرز المصادر التي يمكن التعويل عليها في مثل هذه الدراسات، نجد كتب التراجم، وقد ترك لنا الشاميون مدوّنة ثريّة في هذا الجنس من الكتابة. ولعلّ من أبرز ما دُوّن في هذا المجال في علاقة بالفترة المدروسة، أي القرن الحادي عشر الهجري (١٧م)، نذكر المُصنّف الذي ألفّه المؤرّخ والأديب الدمشقي محمد الأمين المحبّي، (١٠٦١-١١١١هـ/١٦٥١-١٦٩٩م)، والموسوم بـ "خُلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر"، والذي قال فيه ابن شاشو، الذي عاصر المحبّي، بأنّه "صنّف تاريخا لم يسبق إلى حسن تنميقه، لم يبق للكتب قبله ذكرا، فكأنّها بالنسبة إليه إذا عدت صفرا، حوى جميع محاسنها".[١٤] ويتألّف هذا الكتاب من أربعة مجلّدات، ضمّ تراجم لـ ١٢٨٩ شخصيّة من أقاليم عربيّة وإسلاميّة متنوّعة ومن شرائح اجتماعيّة مختلفة، كانت قد توفيّت بين ١٠٠١ و١١٠٠هـ/ ١٥٩٢-١٦٨٦م، وقد رتّبها المؤلف وفق حروف المُعجم. لذاك اتسّم هذا الكتاب بتغطيته للعالم الإسلامي آنذاك من جهة وبثراء مضامينه من جهة ثانيّة. ومن بين الفئات التي ترجم لها المحبّي، نجد القضاة، الذين بلغ عدد تراجمهم بـ "الخُلاصة" ١٩٣ قاضيًا، من مختلف الدرجات والأصول الجغرافيّة. وقد أحصينا فيما يهمّ قضاة دمشق ٧٥ قاضيًا.

وبحسب ما تقدّم، وفي إطار الدراسة البروسبوغرافيّة، سنقوم بمساءلة هذه الفئة، أي قضاة دمشق، من جوانب مختلفة، وذلك من خلال طرح جملة من الأسئلة تتمحور حول:

-الأصول الجغرافيّة لهؤلاء القضاة.

-آليات تدرّجهم ضمن مساراتهم العلميّة والمهنيّة.

- انعكاس خصائص هذه المسارات على العلاقات والأدوار التي ميّزت قضاة دمشق.

ثالثًا: قُضاة دمشق: الأصول والمسارات والأدوار

٣/١-في الأصول الجغرافيّة لقضاة دمشق

ينحدر القضاة الذين باشروا هذه المهنة بدمشق، على مختلف رتبهم، من أصول جغرافيّة متنوّعة. وإذا استثنينا القضاة الذين لم يرد مكان ولادتهم ضمن تراجم المحبّي، والبالغ عددهم ٢٩ ترجمة أي بنسبة ٣٨,٦٦ %، فإنّ جلّ القضاة الذين تولّوا هذا المنصب بدمشق هم من المحليين أي دمشقيين، حيث نجد ٢٩ قاضيًا من جملة ٧٥ قاضيًا، أي بنسبة ٣٨,٦٦ %. في حين توزّع حوالي الرّبع المتبقي من القضاة بين أصول روميّة، وعددهم ١٣ قاضيًا (١٧,٣٣%)، و٤ قضاة شاميين، (فلسطينيين، وحلبيين)، ما يمثّل ٥,٣٣ % من جملة ٧٥ قاضيًا الذين ذكرهم المحبّي في "خلاصته".

يبدو هذا التوزّع الجغرافي لهذه العيّنة من القضاة منطقيّ جدّا، خصوصًا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار مجال الدراسة، أي دمشق، الحاضرة العلميّة التاريخيّة ببلاد المشارق، وما قدّمته من أعلام في مجالات الدّين على غرار الفقه والحسبة، فضلا عن طغيان العنصر التركي ضمن المذهب الحنفي، المذهب الرّسمي للدّولة العثمانيّة، فيما يتّصل بمنصب قاضي القضاة سواء بدمشق أو بغيرها من الولايات العثمانيّة.

٢/٣–مسارات التدرّج العلمي والمهني لقضاة دمشق

أمّا من حيث مسارات التدرّج العلمي والمهني التي علّمت تراجم هؤلاء القضاة بدمشق، فإننّا نسجّل بالنسبة للقضاة الدمشقيين، والذين عادّة ما تولّوا نيابات القضاء، ومن خلال رصد محطات تدرّجهم في تحصيل العلم ومسالك تولّيهم وظيفة القضاء و/أو ما ارتبط بها من وظائف أخرى كالتدريس أو الإفتاء، اختلافا في المسارات:

حيث نجد طائفة من القضاة الدمشقيين اتّسم تكوينهم المعرفي بشيء من المتانة، يخوّل لهم مزاولة مهنة القضاء بالاقتدار المطلوب، حيث حرصوا على التمدرس في علوم الحديث على غرار القاضي إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد بن عَليّ بن أبي بكر الصَّالِحِي الْمَعْرُوف بالغزال، (ت. ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م)، والذي تتلمذ على يد الشهَاب أَحْمد الوفائي،[١٥] إلى جانب تلقيهم دروسا في الفقه على يد مُحَمَّد الْحِجَازِي، وفي التَّفْسِير أخذوا عن محب الدّين المحبّي، مثل القاضي الشَّافِعِي، أَبُو بكر بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد الْمَعْرُوف بالزهيري، (ت. ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م)،[١٦] وكذلك الأمر بالنّسبة لقاضي الشَّافِعِيَّة بمحكمة الْبَاب بِدِمَشْق، أَحْمد بن عَليّ بن عَلَاء الدّين الْمَعْرُوف بالصفوري الحسني، (ت. ١٠٤٣هـ/ ١٦٣٣م).[١٧]

كما نجد طائفة من القضاة الدمشقيين الذين، إلى جانب تلقيهم علوم الدّين بدمشق، حرصوا على مزيد التحصيل خارجها، وبالذات الجلوس عند علماء القاهرة، مثل قَاضِي الْمَالِكِيَّة بِدِمَشْق، أَحْمد بن مُحَمَّد الْمَعْرُوف بالزريابي، (ت. ١٠٥٠هـ/ ١٦٤٠م)، فإلى جانب تكوينه الدّيني بدمشق، كان قد أمضى ثماني سنوات من التحصيل في الفقه وغيره على يد شيوخ القاهرة منهم الْبُرْهَان اللَّقانِيّ، وذلك قبل أن يُصبح مدرّسا بِالمدرسة اليونسية[١٨] سنة (١٠٤٦هـ/ ١٦٣٦م)،[١٩] أو كذلك قَاضِي الشَّافِعِيَّة بمحكمة الميدان والمحكمة الْكُبْرَى بدمشق الْفَقِيه الأديب حُسَيْن بن مَحْمُود الْعَدوي الزوكاري، (ت. ١٠٩٧هـ/ ١٦٨٦م).[٢٠]

كما نجد منهم من سلك مسلكًا آخر، لأجل الحصول على منصب ضمن الجهاز القضائي، حيث خيّر البعض السّفر إلى العاصمة العثمانيّة، إسطنبول، لمحاكاة عادة الأتراك في ما يُعرف بـ "الملازمة"، بمعنى مُصاحبة طالب العلم لأحد العلماء، أصحاب القرار المؤثّر في تنصيب الشخص المُلازم في مناصب قضائيّة و/أو تعليميّة، وذلك "على عَادَة عُلَمَاء الرّوم، وَهَذِه الْمُلَازمَة مُلَازمَة عرفية اعتبارية وَهِي الْمدْخل عِنْدهم لطريق التدريس وَالْقَضَاء"،[٢١] على غرار القاضي الدِّمَشْقِي زَكَرِيَّاء بن حُسَيْن بن مسيح البوسنوي، (ت. ١٠٣٢هـ/ ١٦٢٣م)، الذي ظلّ في خدمَة قاضي الشّام، آنذاك، شعْبَان بن ولي الدّين، حتى شغل مناصب قضائيّة بكلّ من دمشق والقاهرة إلى جانب تولّيه وظائف التدريس والقسمة العسكريّة،[٢٢]، والقاضي بمحكمة الميدان، عبد الْكَرِيم بن مُحَمَّد المعروف بالعبادي، (ت. ١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م)، والذي تحصّل على المنصب المذكور إثر مُلازمته مُدَّة من الزمن المفتي الْمولى عبد الْعَزِيز بن قره جلبي.[٢٣] أمّا من كان حظّه كبيرا وفاز بمُلازمة شيخ الإسلام وقاضي الْعَسْكَر بالرّوملي، آنذاك، يحي بن زَكَرِيَّاء، فستكون مسيرته المهنيّة مكلّلة بعدّة مناصب ورتب قضائيّة وتعليميّة مختلفة وربّما متزامنة، مثلما هو الحال بالنسبة للقاضي مُحب الله بن مُحَمَّد محب الدّين، (ت. ١٠٤٧هـ/ ١٦٣٧م)، صاحب "المناصب الْعَالِيَة والمدارس الساميّة".[٢٤]

بل ومنهم من غيّر انتسابه المذهبي ليصبح حنفيّا بعد أن كان شافعيّا، على غرار القاضي الدّمشْقي أَبُو الْبَقَاء بن عبد الْوَهَّاب بن عبد الرَّحْمَان الصفوري، (ت. ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٦م)، الذي كان شافعيّا زمن استقراره بدمشق، ثمّ أضحى حنفيّا إثر سفره إلى إسطنبول وتقرّبه من أحد وزراء الدّولة "العظام"، الأمر الذي سمح له بالارتقاء من كَاتب للصكوك بمحكمة الصالحية إلى قاض بعدّة محاكم بحواضر شاميّة عديدة.[٢٥] كذلك فعل القاضي أَحْمد بن إبراهيم الْمَعْرُوف بِابْن تَاج الدّين،

(ت. ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م)، والذي "صَار قَاضِيا بالرّكب الشَّامي" سنة (١٠٣٩هـ/ ١٦٣٠م)، قبل أن يصبح نائبًا بقَضَاء دمشق عَن قَاضِي قُضَاتها أبي السُّعُود الشعراني، (ت. ١٠٨٨هـ/ ١٦٧٧م)[٢٦] أو القاضي الدمشقي أَحْمد بن مُحَمَّد بن نعْمَان الْمَعْرُوف بالإيجي، (ت. ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٣م)، الذي، فضلا عن مصاهرته لنقيب الْأَشْرَاف، مُحَمَّد بن حَمْزَة، تحنّف بعد أن كان شافعيّا، ففاز بنيابات قضاء بمحاكم دمشق إلى جانب منصب قاضي الرّكب الشّامي.[٢٧]

في المقابل، سلك قضاة آخرون مسلكا خاصّا للفوز ببعض المناصب القضائيّة، إذ تُفشي "الخُلاصة" عن حالات توسّل منصب القضاء عبر بذل الأموال والعطايا، مثل قاضي الشافعيّة الدمشقي، أَحْمد بن مُحَمَّد شهَاب الدّين الْجَعْفَرِي الصَّالِحِي، (ت. ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م)، والذي تمّ عزله بعد ذلك بسبب "حماقاته" المهنيّة، على حدّ تعبير المحبّي،[٢٨] كذلك القاضي مُحَمَّد بن كَمَال الدّين بن مُحَمَّد، (ت. ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م)، الذي "تكرّر سفره إلى دَار السلطنة ولازم على عَادَتهم ودرس ومدح مَشَايِخ الإسلام وصدور الدولة بقصائد فائقة، فَمن ذَلِك مَا مدح بِهِ قاضى العساكر الرّومية الْمولى أَحْمد الشهير بالمعيد... ثمَّ رَجَعَ إلى الشَّام... وَولِيّ النِّيَابَة الْكُبْرَى بِدِمَشْق وقسمه الْعَسْكَر".[٢٩] ومنهم من تولّى مناصب قضائيّة على إثر وساطة من بعض الوجهاء، مثل قاضي الْمَالِكِيَّة بمحكمة الميدان، صَالح بن عمر بن الْقَاضِي سعد الدّين بن الْعلم، (ت. ١٠٠٢هـ/ ١٥٩٤م)، الذي تولّى المنصب المذكور "حِين كَانَ عَمّه الْقَاضِي فَخر الدّين عُثْمَان بِدِمَشْق متخلياً عَن نِيَابَة الحكم بمحكمة الْبَاب"،[٣٠] أو القاضي صَلَاح الدّين بن زين العابدين، (ت. ١٠٣٦هت/ ١٦٢٧م)، الذي سُمّيّ قاضيًا لسنوات مسترسلة حينما كان وَالِده زين العابدين ترجمانا بمحكمة الصالحيّة بدمشق.[٣١] كما يحصل أن يتدخّل علماء دمشق وشيوخها لأجل تعيين أحد القضاة، مثلما حصل مع القاضي الشافعي حسن بن مُحَمَّد بن أبي الْفضل الملّقب ببدر الدّين الدِّمَشْقِي، (ت.١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م)، عند توليه قَضَاء الشَّافِعِيَّة بإحدى محاكم دمشق، زمن قاضي قضاة دمشق مصطفى بن حسن.[٣٢]

أمّا فيما يخصّ مسارات التدرّج المهني للقضاة غير الدمشقيين، والذين عادة ما زاولوا نشاطهم برتبة قاضي قضاة دمشق، فإنّنا نميّز بين:

مَنْ سلك طريق الْمُلازمة، على غرار قَاضِي قُضَاة الشَّام، سنة (١٠٣١هـ/ ١٦٢٢م)، أَبي سعيد بن أسعد بن مُحَمَّد بن حسن جَان، (ت. ١٠٧٢هـ/ ١٦٦٢م)، الذي لازم عمّه شيخ الْإِسْلَام الْمولى مُحَمَّد، فضلاً عن كونه ابن مفتي الدّولة، الأمر الذي وفّر له ظروفا مناسبة لاكتساب تكوين علمي متين بحسب وصف المحبّي.[٣٣] كذلك لازم أَحْمد بن توفيق الكيلاني المعروف بتوفيقي زَاده، (ت. ١٠٥١هـ/ ١٦٤١م)، شيخ الْإِسْلَام مُحَمَّد بن سعد الدّين، قبل أن يصبح قَاضِي قُضَاة دمشق سنة ١٠٤٠هـ/ ١٦٣١م.[٣٤] أمّا أَحْمد بن روح الله بن نَاصِر الدّين الْأَنْصَارِي الرُّومِي، (ت. ١٠٠٨هـ/ ١٦٠٠م)، قَاضِي الْقُضَاة بِالشَّام، فقد خدم بدوره "رجلاً من أَرْكَان الدّولة يُقَال لَهُ فريدون، وأقرأ أَوْلَاده ولازمه حَتَّى انتظم فِي سلك الموَالِي".[٣٥]

ومن جهة أخرى، نجد مَن راكم جملة من المعارف الضروريّة والتي تُؤهّله للحصول على مناصب هامّة في الدّولة، خاصّة منها القضاء، مثل قَاضِي قُضَاة الشَّام، سنة ١٠٢٢هـ/ ١٦١٣م، أَحْمد بن شيخ أَحْمد الْمَعْرُوف بشيخ زَاده، (ت. ١٠٣٣هـ/ ١٦٢٤م)، والذي كان "عَلامَة فِي الْعُلُوم الْعَقْلِيَّة، وَله إلمام تَامّ بعلوم البلاغة، فَاضلا فِي الْفِقْه"،[٣٦] حيث تولّى منصب القضاء إثر تخرّجه من مدرسة الحديث السليمانية بالقسطنطينيّة.[٣٧] وهذه الأخيرة مثّلت محطّة تكوينية فارقة لعدّة قضاة، على غرار، قاضي قضاة دمشق سنة ١٠٦٧هـ/ ١٦٥٧م، أسعد بن عبد الرَّحْمَان بن عبد الْبَاقِي القسطنطيني، (ت. بعد ١٠٧١هـ/ ١٦٦١م)،[٣٨] و رَحْمَة الله بن عُثْمَان، (ت. ١٠٦٣هـ/ ١٦٥٣م)، الذي "وصل إِلَى الْمدرسَة السليمانية وَولي منْهَا قَضَاء حلب ثمَّ قَضَاء مصر وَلم تطل مدَّته بهَا وَنقل إِلَى قَضَاء الشَّام فِي سنة ١٠٥٧هـ [/١٦٤٧م]"[٣٩] أو كذلك قَاضِي قُضَاة الشَّام، سنة ١٠٣٥هـ/ ١٦٢٦م، أَحْمد بن يُوسُف الْمَعْرُوف بالْمُعِيد، (ت. ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٧م)، والذي أبحر في علوم شتّى على يد كبار شيوخ الزمان بالعاصمة العثمانيّة.[٤٠]

على صعيد آخر، تعترضنا تراجم تفيد حضور من تخيّر مسلك التوسّل والشفاعة، حيث عادة ما يتوسّط عدّة أعيان بالدّولة العثمانيّة لأجل تنصيب بعض القضاة، من أمثال شعْبَان بن ولي الدّين البوسنوي النوسيلي، (ت. ١٠٧٧هـ/ ١٦٦٦م)، الذي تدخّل له إِبْرَاهِيم الْمَعْرُوف بالروزنامة جي، لدى الْوَزير الْأَعْظَم مُحَمَّد باشا، لأجل أن يفوز بمنصب قضائي، كما تدخّل لأجله مرّة أخرى عند "عزل الْمولى أَحْمد بن زين الدّين الْمَعْرُوف بالمنطقي عَن قَضَاء دمشق، [حيث] سعى لَهُ الْوَزير مصطفى باشا السلحدار، نديم السُّلْطَان، وَكَانَ إِذْ ذاك [شعْبَان النوسيلي] نَائِب الشَّام فأنعم عَلَيْهِ السُّلْطَان بهَا".[٤١] وذلك قبل أن يرتقي لرتبة قاضي عسكر الأناضول، ثم الرّوملي.[٤٢] أمّا عبد الرَّحْمَان بن حسام الدّين الْمَعْرُوف بحسام زَاده الرُّومِي، (ت. ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م)، فإلى جانب تبحّره في المعارف الدينيّة والأدبيّة، فإنّ ما جعله يفوز بالمناصب القضائيّة السّاميّة، منها قضاء الشّام سنة ١٠٥١هـ/ ١٦٤١م، هو "أَن الْعلَّة فِي تقرّبه إِلَيْه [السُّلْطَان مُرَاد] إتقانه للرّمي بِالسِّهَام وَمِنْه تعلّمه السُّلْطَان الْمَذْكُور وأتقنه، وَلم يزل مشمولاً بعنايته... إِلَى أن وصل إِلَى الْمدرسَة السليمانية وَولي منْهَا قَضَاء حلب... ثمَّ نقل من قَضَاء حلب إِلَى قَضَاء الشَّام".[٤٣] أمّا قاضي دمشق بين سنة ١٠٤٨هـ و١٠٥٠هـ/ ١٦٣٨ و١٦٤٠م، مُحَمَّد بن عبد الْعَزِيز بن حسن جَان الشهير بالبهائي، (ت. ١٠٦٤هـ/ ١٦٥٤م)، فقد "نظّم قصيدة للسُّلْطَان مُرَاد، وأوصلها إليه على يَد بعض أَرْكَان الدّولة من المقرّبين، فَوَقعت من السُّلْطَان في أتم موقع، فَوجّه إليه قَضَاء سلانيك ثمَّ نقل منْهَا إلى حلب ثمَّ عزل منْهَا... ثمّ... [تولّى] قَضَاء الشّام"، بالرّغم من إتيانه ما يمكن أن يمسّ بهيبة سلك القضاء كتعاطيه بعض المكيّفات كالأفيون والبرش.[٤٤] كما عُد انتساب مصطفى بن مصلح الدّين المرزيفوني، (ت. ١٠٥٨هـ/ ١٦٤٨م)، لفئة القضاة وتوليه قضاء دمشق سنة (١٠٥٦هـ/ ١٦٤٦م)، "من أغرب مَا وَقع في الدّولة العثمانية لِأَن رتبته بعيدَة الوصول إلى رُتبة الموالي فضلاً عَن قَضَاء دمشق الْمَعْدود عِنْدهم من أعظم المناصب".[٤٥] إلى جانب تقديمه الأموال الكثيرة والهدايا الثمينة لأجل الفوز بقضاء الرّوملي.[٤٦]

٣/٣-قضاة دمشق: العلاقات والأدوار

عمومًا، تتّسم العلاقات فيما بين القضاة أنفسهم بالانسجام والتقدير المُتبادل، خاصّة في ظل هرميّة الجهاز القضائي العثماني، مركزيّا وإقليميّا. إلاّ أنّ ذلك لا ينفي إصابة هذا النسيج العلائقي، أحيانا، ببعض الشّد، خاصّة عندما يتنافس حول منصب نيابة القضاء بدمشق أكثر من شخصيّة، وهو ما حصل مثلا بين كلّ من قاضي الشافعيّة بدمشق، أَحْمد بن مُحَمَّد شهَاب الدّين الْجَعْفَري، (ت. ١٠١٢هـ/ ١٦٠٣م)، وَالْقَاضِي مُحَمَّد الكنجي، حول نيابة القضاء بمحاكم دمشق،[٤٧] أو كما حصل بين قاضي المالكيّة بدمشق، مُحَمَّد شمس الدّين الْمَعْرُوف بِابْن المغربي، (ت. ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م)، والقاضي كَمَال الدّين بن خطاب،[٤٨] وحتى بين القاضي الشافعي بدمشق، شمس الدّين الْمَعْرُوف بالسكنجي، (ت. ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧م)، والقاضي أَحْمد بن مُحَمَّد الجعفري الْمَعْرُوف بالصالحي.[٤٩] وكان الحلّ الأكثر تواترا في مثل هذه الحالات هو تناوب المتنازعين على المنصب القضائي فترة بفترة.

أمّا بالنسبة إلى طبيعة العلاقات التي كانت تربط القضاة ببقيّة مكوّنات الدّولة والمجتمع، فهي، بحسب "خُلاصة" المحبّي، مُتعدّدة ومتباينة، بحسب تمثّل القُضاة أنفسهم لطبيعة أدوارهم تجاه المجتمع والدّولة، وبحسب المكوّنات الإداريّة والاجتماعيّة.

فمن حيث علاقتهم بالعلماء، فعادة ما يحرص القضاة على إرساء علاقات يسودها الاحترام والإكرام بينهم وبين بقيّة علماء العصر وشيوخه، ومن الشواهد المبثوثة بالأثر، يُمكن أن نشير إلى قَاضي قُضاة الشّام، إِبْراهيم بن عليّ الأزنيقي، (ت. ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م)،[٥٠] أو كذلك القاضي عبد الرَّحيم بن إسكندر، (ت. ١٠٠٩هـ/ ١٦٠٠م)،[٥١] أو القاضي مُحَمَّد بن أَحْمد بن مصطفى بن خَليل المشتهر بطاشكبري زَاده، (ت. ١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م).[٥٢] والعكس صحيح أيضا، حيث كان العلماء والأعيان بدورهم ينظرون نظرة التعظيم والتبجيل تجاه القضاة خاصّة منهم قاضي القضاة، على غرار عبد الرَّحمان بن حسام الدّين الْمعروف بحسام زَاده الرُّومِي، (ت. ١٠٨١هـ/ ١٦٧٠م).[٥٣]

أمّا من حيث علاقاتهم بالشعراء والأدباء، فلم تكن علاقة قضاة دمشق بأدباء الزّمان مغايرة لعلاقتهم بالعلماء، فقد جمعت بينهم مذاكرات ومطارحات عديدة سادها المديح في المقام الأوّل. من ذلك نذكر القاضي صَلَاح الدّين بن زين العابدين، (ت. ١٠٣٦هـ/ ١٦٢٦م)، الذي عاشر الأدباء معاشرة طيّبة، من بينهم الأديب إِبْرَاهِيم بن مُحَمَّد الأكرمي،[٥٤] أو كذلك القاضي عبد الرَّحْمَان بن حسام الدّين الْمَعْرُوف بحسام زَاده الرُّومِي، (ت. ١٠٨١ه/ ١٦٧٠م)، الذي تسبّب إطناب الشعراء في مدحه، كالأديب الدِّمَشْقِي يُوسُف البديعي، في مزيد شُهرته،[٥٥] فضلا عن قاضي دمشق سنة ١٠١٨ه/ ١٦٠٩م، مُحَمَّد بن برهَان الدّين الشهير بشريف الحميدي، (ت. ١٠٤٠هـ/ ١٦٣١م)، والذي كان لا يُفارق مجالس الشّعر والقصائد.[٥٦] والقاضي مَحْمُود بن مُحَمَّد أَبُو الْفضل الشهير بقره جلبي زَاده، (ت. ١٠٦٣ه/ ١٦٥٣م)، الذي استهدفه بالمديح عدد من الشعراء خاصّة منهم الشّاعر الدمشقي أَحْمد بن شاهين.[٥٧]

أمّا من ناحيّة الأدوار التي ميّزت قضاة دمشق، خارج مهامهم القضائيّة، فهي عديدة ومتباينة. حيث تكشف "خُلاصة" المحبّي تولّي عدّة قضاة أدوار المصالحة والوساطة عند الأزمات أو العكس؛ فقد فسحت العلاقة الحسنة، التي كانت تربط بين القضاة وبقيّة العلماء، المجال لعديد من القضاة للقيام بأدوار الوساطة وإرساء المصالحات حتّى خارج النزاعات القضائيّة. فعلى سبيل المثال، تدخّل القاضي إِبْرَاهِيم بن عليّ الأزنيقي، (ت. ١٠٢٨هـ/ ١٦١٩م)، خلال محاصرة جنود ابْن جانبولاذ (جنبلاط) لدمشق وتهديدهم لها ولسكانها، وتحمّل إزر "الصُّلْح بين ابْن جانبولاذ وَبَين عَسَاكِر الشَّام"، وبالتالي "تلافي الْفِتْنَة حَتَّى رَحل ابْن جانبولاذ عَن دمشق".[٥٨]

ولو أنّ ذلك لا يحجب انزياح أدوار بعض القضاة الآخرين تجاه الأهالي، خاصّة في فترة الأزمات، على غرار القاضي مُحَمَّد بن أَحْمد بن مصطفى المشتهر بطاشكبري زَاده، (ت. ١٠٣٠هـ/ ١٦٢١م)، الذي أفشى ظاهرة الارتشاء، زيادة على فرضه الترفيع في ضريبة "الْعَوَارِض" إلى ثلاثمائة عثماني، ذات رمضان ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٧م، رافضًا وساطة علماء دمشق وشيوخها للتعبير عن عجز الأهالي عن الدفع، وما ترتّب عن ذلك من حنق الناس وملاحقتهم للقاضي الذي انتهى به الأمر إلى الفرار.[٥٩] كذلك الأمر بالنسبة إلى قَاضِي قُضَاة الشَّام سنة (١٠٠٧هـ/ ١٥٩٩م)، أَحْمد بن سُلَيْمَان الرُّومِي الْمَعْرُوف بالإياشي، (ت. ١٠١٠هـ/ ١٦٠١م)، الذي اشتهر بدوره بالارتشاء وهضم الحقوق، ممّا عرّضه للرّجم من قبل ساكنة دمشق.[٦٠]

ومن الأدوار الأخرى كذلك، يمكننا الحديث عن وقوف عدد من القضاة في وجه مظالم الحكّام؛ إذ لم يتردّد عدّة قضاة في ردع جور الحكّام وظلم أعوانهم تجاه الأهالي خاصّة. فقد واجه قَاضِي الْقُضَاة أَحْمد بن الملا زين الدّين العجمي النخجواني الملقب بالمنطقي، (ت. ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م)، والي دمشق سنة (١٠٤٨ه/ ١٦٣٨م)، عُثْمَان الجفتلري، الذي منع على ما يبدو إيرادات الأوقاف عن أصحابها، وقد كلّف هذا التدخّل عزل المنطقي عن قضاء دمشق وذلك تمهيدا لقتله،[٦١] أمّا قَاضِي قُضَاة الشَّام، أَحْمد بن عوض العينتابي الْحلَبِي، (ت. ١٠٤٨ه/ ١٦٣٨م)، فقد وقف إلى جانب سكّان دمشق وشجّعهم على التصدّي لعَسْكَر السُّلْطَان، (عسكر القشلق)،[٦٢] الذين "ضيّقوا على النَّاس أَمر الْمَعيشَة وبالغوا فِي التَّعَدِّي والتجاوز وَنهب أَمْوَال النَّاس..."[٦٣] كما وقف القاضي مصطفى بن مُحَمَّد الشهير بحسمى زَاده، (ت. ١٠٥٩هـ/ ١٦٤٩م)، في وجه والي دمشق، مرتضى باشا، حيث منعه من ارتكاب المظالم وتعكير صفو السّاكنة.[٦٤]

وبالتالي كان لعدد من قضاة الشّام، على اختلاف رتبهم، أدوار محمودة من زاوية شد أزر الأهالي

والدّفاع عنهم في وجه أصحاب السّلطة السيّاسيّة، وتحمّل بعضهم تبعات تلك الأدوار. في المقابل، انخرط البعض الآخر في مزيد التنكيل بأهل دمشق وفي تأزيم أوضاعهم الحياتيّة. ولعّل ذلك يفسّر بطبيعة المسارات العلميّة وآليات الترقّي المهني سواء لمن كان سندا ودرعا للمحكومين أو لمن كان في صفّ تسلّط الحكّام في بعض المناسبات.

خَاتِمَةٌ

يتّضح لنا من خلال ما تقدّم، تفرّد متون التراجم، عمومًا، بمادّة تاريخيّة هامّة ومفيدة، حيث تسمح لنا ببناء قواعد بيانات خاصّة بتراجم الفئة المُستهدفة بالدّراسة، أي قضاة دمشق، ممّا يسمح لنا، وفي إطار المنهج البروسبوغرافي، من إعادة تركيب تلك البيانات، على تشتّتها وانعدام خيط ناظم في ما بينها، إذا استثنينا طبعًا الإطار الزمني والغاية الوعظية لكُتابها، ممّا يتيح لنا بناء شبكة البيانات البروسبوغرافيّة، la grille de la notice prosopographique، بشكل يساعدنا في ضبط شبكة الفرضيات والأسئلة المُعتمدة عند مساءلة الفئة المُشتغل عليها، وهو ما يُيسّر لنا حسن توظيف تطبيقات الحاسوب ويرفع من قدرتنا على السيطرة على الكم الغزير من المعطيات الواردة بمتون التراجم والتصرّف فيها وفق الأهداف المرسومة ضمن الدراسة البروسبوغرافيّة.

هذا من حيث المنهج، أمّا من حيث المضامين، فقد كشف لنا رصد الأصول الجغرافيّة لقضاة دمشق، ثُنائيّة حضور العنصر الرّومي والشّامي، أي المركزي والمحلّي، الأمر الذي ساهم في خلق نوع من التوازن على مستوى المؤسسات وأساليب اشتغالها. من جهة أخرى، تنتهي بنا الدّراسة إلى أنّ كل القضاة، تقريبًا، ممّن توفّرت فيهم التكوين العلمي المتين والتدرّج المهني المُفيد، كانوا قد تركوا أثرا مهنيًا إيجابيًا لدى سكان ولاية دمشق، بفضل تمكنّهم وحسن إدارة علاقاتهم ببقيّة مكوّنات الأجهزة السياسيّة والاجتماعيّة، ممّا جعل كثيرًا منهم يلعب أدوار الوساطة بإتقان وتعديل المواقف بإحكام، خاصّة بين الحاكم والمحكومين. إلاّ أنّ كل هذه الخلاصة الإيجابيّة التي علّمت التراجم الجماعيّة لفئة القضاة لا تحجب عنّا اتباع البعض الآخر منهم أساليب ملتويّة ومختصرة للفوز بالمنصب القضائي المنشود، كالارتشاء، والتقرّب والمُصاهرة، وطلب الشفاعة وغير ذلك.

الملاحق

(١)

"إِبْرَاهِيم بن عَليّ الأزنيقي، أحد موَالِي الرّوم قَاضِي قُضَاة الشَّام ولي قضاءها مرَّتَيْنِ ودخلها فِي الْمرة الْأَخِيرَة فِي أواسط شهر ربيع الثَّانِي سنة خمس عشرَة بعد الْألف وَكَانَ فِي قَضَائه حسن السِّيرَة وَله إكرام للْعُلَمَاء واحترام لَهُم جدا وَفِي أَيَّام قَضَائِه كَانَت فتْنَة ابْن جانبولاذ ومحاصرته دمشق كَمَا سأشرحه إن شَاءَ الله تَعَالَى فِي تَرْجَمته وَكَانَ القَاضِي الْمَذْكُور أحد من قَامَ بأعباء الصُّلْح بَين ابْن جانبولاذ وَبَين عَسَاكِر الشَّام تلافى الْفِتْنَة حَتَّى رَحل ابْن جانبولاذ عَن دمشق دَافع عَن أهل الشَّام بعض مَا كلفوا بِهِ من الْوَزير مُرَاد باشا حِين جَاءَ إِلَى حلب لقتَال ابْن جانبولاذ وانفصل عَن قَضَاء الشَّام فِي أَوَاخِر سنة سبع عشرَة بعد الْألف ورحل إِلَى بلدته أزنيق وَأقَام بهَا إِلَى أَن توفّي. وَكَانَت وَفَاته فِي سنة ثَمَان وَعشْرين وَألف هَكَذَا ذكره النَّجْم الْغَزِّي فِي ذيله لطف الله بِهِ."

المحبّي، محمّد الأمين: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المجلّد الأوّل، تحقيق محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٤٥.

(٢)

"أَحْمد بن سُلَيْمَان الرُّومِي الْمَعْرُوف بالإياشي، قَاضِي الْقُضَاة بحلب ثمَّ بِالشَّام ولي الشَّام فِي سنة سبع بعد الْألف وَكَانَ فِي ابْتِدَاء قَضَائِهِ معتدلاً وسلك مَسْلَك الْإِنْصَاف ومدحه شعراء دمشق بالقصائد البديعة وَمِنْهُم أَبُو الْمَعَالِي درويس مُحَمَّد الطالوي [...] ثمَّ تَغَيَّرت أَحْوَاله وفسدت أطواله واشتهرت فِي أَيَّامه الرِّشْوَة وأبطل كثيرا من الْحُقُوق حَتَّى ضجر مِنْهُ أهل دمشق وأعياهم الْجهد وَقَامَت عوامها على سَاق فرجموه عِنْد خَنْدَق القلعة بَين سوق الأرواح والعمارة الأحمدية وأفحشوا فِي رجمه وَكَانَ رجمه يَوْم دُخُول السَّيِّد مُحَمَّد باشا الْوَزير إِلَى دمشق حَاكما بهَا وَقد كَانَ طلع لاستقباله فَكَانَ النَّاس يشيرون إِلَى الْوَزير بالشكاية عَلَيْهِ فِي وَجهه يتظلمون وَهُوَ سَاكِت وَلم يزل النَّاس ممسكين أَيْديهم عَن الرَّجْم إِلَى أَن دخل الْوَزير الْمَذْكُور إِلَى دَار الْإِمَارَة ففارقه القَاضِي فَاسْتَقْبلهُ النَّاس عِنْد انْصِرَافه يصيحون فِي وَجهه ويقابلونه بِكَلِمَات لَا تليق وأعقبوا ذَلِك بِالرَّجم حَتَّى فرّ مِنْهُم هَارِبًا وأدركه مَعَ ذَلِك مَا أدْركهُ من الْأَحْجَار [...] ثمَّ عزل عَن قَضَاء الشَّام بعيد رجمه بِقَلِيل وَاتفقَ عَزله يَوْم عيد النَّحْر من سنة ثَمَان بعد الْألف فَقيل فِي تَارِيخ عَزله [...] وَكَانَت وَفَاته فِي سنة عشر بعد الْألف..."

المحبّي، محمّد الأمين: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، المجلّد الأوّل، تحقيق محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٢٣٩-٢٤٠.

الاحالات المرجعية:

(١) من بين المقالات التي أكّدت على قيمة المضامين الوثائقيّة لمصنّفات التراجم، يمُكن أن نشير إلى:

- Sublet (Jacqueline): "La prosopographie arabe", Annales ESC, 25-5, 1970, pp. 1236-1239.

- Méouak (Mohamed) : "Autour de l'Onomastica Arabicum. II - Répertoire des fonctionnaires de l'État andalou aux IXe et Xe siècles", In *Informatique et prosopographie*, 1984-1986, pp. 131-134.

(٢) نذكر على سبيل المثال:

- Méouak (Mohamed): *Les structures politiques et administratives de l'Etat andalou à l'époque umayyade (milieu du IIe VIIIe - fin du IVe Xe siècles) étude prosopographique, essai de synthèse sur les principales charges gouvernementales*, Lyon, 1989, deux volumes.

- مواق، محمد: **المناهج البروسوغرافية والأعلامية وتطبيقاتها على التاريخ الاجتماعي للأندلس**، ترجمة عبد اللطيف الخمار، التاريخ وأدب التراجم مباحث في المفهوم والمنهج والقضايا، مختبر البحث في العلاقات الثقافيّة المغربيّة المتوسّطيّة، الكليّة متعدّدة التخصصات بتازة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، الطبعة الأولى، المغرب، ٢٠١٦، ص ٧٧-٩٠. - عنقود، رجاء: **البروسـبوغرافيا، منهـج لدراسـة النخـب والفئـات الاجتماعيـة، محاولـة تعريـف**، مجلة أسطور، العدد ١١، يناير ٢٠٢٠، ص ٨١-١٠٠.

(٣) حول حدود تطبيقاتها ضمن الفضاء العربي الإسلامي، يمكن العودة إلى المقال التالي:

Bulliet (Richard W.): "A Quantitative Approach to Medieval Muslim Biographical Dictionaries", in *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, Vol. 13, No 2, Apr 1970, pp. 195-211.

(٤) Gibb (H.A.R.), Bowen (Harold): *Islamic society and the West*, Vol. 1, Pt 2, Oxford University Press, London, 1957, pp. 121-122.

(٥) الصالحي، محمد بن كنان: **يوميّات شاميّة**، تحقيق أكرم حسن العلبي، الطبعة الأولى، دار الطباع، دمشق، ١٩٩٤، ص ١٠-١١.

(٦) "يُطلق اسم بلاد الشام على الوحدة الطبيعية التي يعرفها الجغرافيون باسم سورية الطبيعية، وتقوم إلى الغرب من آسيا ممتدة شرقي البحر الأبيض المتوسط، من جبال طوروس شمالاً إلى صحراء سينا جنوباً، ومن الجزيرة والفرات وبادية الشام شرقا إلى البحر المتوسط غرباً، أي أن بلاد الشام تضم في نطاقها إلى جانب سورية، لبنان وفلسطين وشرقي الأردن وكيليكيا". سليمان، حسين سلمان: **عوامل إفقار بلاد الشام في العصر العثماني**، مجلّة تاريخ العرب والعالم، العدد ٣٩، ١٩٨٢، ص ٤٦.

(٧) الصالحي، محمد بن كنان: **يوميّات شاميّة**، مرجع سابق، ص ٧.

(٨) يوسف، صلاح إبراهيم ومحمد نوري أحمد العالم، أحمد: **الأَوضاع العامّة لبلاد الشَّام في أواخر القرن السادسَ عشر وحتّى مطلع القرن السابع عشر ١٥٩٦-١٦٣٥م**، مجلّة أبحاث كلية التربية الأساسية، المجلد ١٨، العدد ٤، ٢٠٢٢، ص ٤٨١.

(٩) العزاوي، قيس جواد: **الدولة العثمانية، قراءة جديدة لعوامل الانحطاط**، الطبعة الثانية، الدار العربيّة للعلوم، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٣٣-٣٤.

(١٠) İnalcık (Halil), "Military and Fiscal Transformation in the Ottoman Empire 1600-1700", In *Archivum Ottomanicum*, N° 6, 1980, pp. 283-337.

(١١) للتوسّع أكثر حول الموضوع، انظر:

Lewis (Bernard), "Ottoman Land Tenure and Taxation in Syria", In *Studia Islamica*, N° 50, 1979, pp. 109-124.

(١٢) كوثراني، وجيه: **السّلطة والمجتمع والعمل السياسي، من تاريخ الولاية العثمانية في بلاد الشام**، الطبعة الأولى، مركز دراسات الوحدة العربيّة، بيروت، أكتوبر ١٩٨٨، ص ٦٠-٩٣.

(١٣) المحبّي، محمّد الأمين: **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر**، المجلّد الثالث، تحقيق محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٢٥٦-٢٥٨.

(١٤) ابن شاشو، عبد الرحمان: **تراجم بعض أعيان دمشق**، المطبعة اللبنانية، بيروت، ١٨٨٦، ص ١٠٠.

(١٥) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الأوّل، مرجع سابق، ص ٦٢-٦٤.

(١٦) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق ص ١١٥-١١٦.

(١٧) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ٢٧٩-٢٨٢.

(١٨) الْمَدْرَسَة اليونسية: مدرسة حنفيّة، تقع حول مدينة دمشق، "أنشأها الأمير يونس داودار الظاهر برقوق في سنة ٧٨٤هـ." النعيمي، عبد القادر بن محمّد، **الدّارس في تاريخ المدارس**، فهرسة إبراهيم شمس الدّين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٠، ص ١٤٨.

(١٩) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٣٥٤-٣٥٥.

(٢٠) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثاني، مرجع سابق، ص ١١٤-١١٦.

(٢١) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الأوّل، مرجع سابق، ص ٢٩.

(٢٢) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثاني، مرجع سابق، ص ١٧٠-١٧١.

(٢٣) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثالث، مرجع سابق، ص ٩-١٠.

(٢٤) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثالث، مرجع سابق، ص ٢٩٦.

(٢٥) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الأوّل، مرجع سابق، ص ١٣٦-١٣٨.

(٢٦) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ١٨٦-١٨٧.

(٢٧) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٣٦٢-٣٦٣.

(٢٨) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق ص ٣١٧-٣١٨.

(٢٩) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الرّابع، مرجع سابق، ص ١٢٥-١٣٢.

(٣٠) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثاني، مرجع سابق، ص ٢٣٠.

(٣١) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٢٤٠-٢٤١.

(٣٢) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق ص ٦٢-٦٣.

(٣٣) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الأوّل، مرجع سابق، ص ١٥٢-١٥٤.

(٣٤) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٣٥) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٢١٩-٢٢٠.

(٣٦) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٣٧) تمّ في عهد السّلطان العثماني، سليمان القانوني، تشييد أربعة مدارس كبرى تهتمّ بالعلوم الرياضيّة ومدرسة للطب وأخرى تسمى دار الحديث، وفي سنة ١٥٥٧م، شُيّدت المدرسة السليمانيّة التي

ضمّت ١٥ قسما من بينها الجامع ومدرسة الطب ومشفى الأمراض العقليّة والمطبعة ودار الضيافة، فضلا عن دار الحديث، الذي تخرّج منها القاضي المذكور أعلاه. أبو غزالة، رمزي فوزي محمد: **تطوّر التعليم في الدولة العثمانية: السّلطان عبد الحميد الثاني أنموذجا**، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، مجلّد ١٩، العدد ٣، ٢٠١٩، ص ٣٢٨-٣٢٩.

(٣٨) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٤٤٢.
(٣٩) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثاني، مرجع سابق، ص ١٥٨-١٥٩.
(٤٠) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الأوّل، مرجع سابق، ص ٤١١-٤١٢.
(٤١) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثاني، مرجع سابق، ص ٢١٨-٢٢٢.
(٤٢) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٢١٨-٢٢٢.
(٤٣) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٣٤٢-٣٤٧.
(٤٤) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الرّابع، مرجع سابق، ص ٣-٩.
(٤٥) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٣٨٢-٣٨٣.
(٤٦) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٣٨٢-٣٨٣.
(٤٧) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الأوّل، مرجع سابق، ص ٣١٧-٣١٨.
(٤٨) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثالث، مرجع سابق، ص ٣٣٨-٣٣٩.
(٤٩) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الرّابع، مرجع سابق، ص ١٦٠.
(٥٠) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الأوّل، مرجع سابق، ص ٤٥.
(٥١) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثاني، مرجع سابق، ص ٣٩٥.
(٥٢) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثالث، مرجع سابق، ص ٣٤١-٣٤٤.
(٥٣) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثاني، مرجع سابق، ص ٣٤٢-٣٤٧.
(٥٤) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ٢٤٠-٢٤١.
(٥٥) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٣٤٢-٣٤٧.
(٥٦) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثالث، مرجع سابق، ص ٣٩٠-٣٩٢.
(٥٧) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الرّابع، مرجع سابق، ص ٣١٦-٣١٨.
(٥٨) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الأوّل، مرجع سابق، ص ٤٥.
(٥٩) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الثالث، مرجع سابق، ص ٣٤١-٣٤٤.
(٦٠) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الأوّل، مرجع سابق، ص ٢٣٩-٢٤٠.
(٦١) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٢٢٧-٢٣٢.
(٦٢) تعني القشلق، عسكر القشلة، أي القوات القارّة بالثكنات.
(٦٣) المحبّي: **خلاصة الأثر**، مرجع سابق، ص ٢٩٧-٣٠٠.
(٦٤) المحبّي: **خلاصة الأثر**، المجلّد الرّابع، مرجع سابق، ص ٣٨١-٣٨٢.

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

تداعيات الوجود الفرنسي على النشاط التجاري في غرب أفريقيا
خلال القرن التاسع عشر الميلادي



حسن سكّران

باحث دكتوراه تاريخ العلاقات المغربية الإفريقية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، سايس

فاس – المملكة المغربية

مُلَخّص

يسعى البحث حول الوجود الفرنسي في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، من خلال هذه الدراسة، الكشف ولو بصورة يسيرة عن نشاط هذه الدولة الأوروبية، في الحياة الاقتصادية السائدة في المجال الأفريقي المدروس، حيث إن المتتبع لهذا الوجود في مصادر التاريخ، ومختلف كتب الرحلات الأجنبية الأوروبية، سيقف عند نشاطه وأثره وتداعياته، وهي المسألة التي حاولنا إثارتها في هذه الدراسة، لفتح شهية النبش أكثر في مستقبل ما استجد في الموضوع. وقد انطلقنا في الكشف عن هذه التداعيات من محطتين، الأولى: ناقشنا فيها النشاط التجاري لفرنسا في غرب أفريقيا، كونها الدولة الأوروبية التي تحكمت في ذلك الجزء المهم من القارة، وخلصنا في مناقشتنا تلك، إلى استفادة فرنسا من السلع التي تزخر بها غرب أفريقيا، في مقابل إغراقها بالسلع المنتجة في أوروبا، هذا في حين استغلت في ذلك المسالك التجارية والسواحل الأطلسية، المساهمة في دينامية وتنقل السلع والمواد. أما المحطة الثانية، سعينا فيها إلى تحليل السياقات التي جعلت فرنسا تواصل مشروعها في الغرب الأفريقي، ومن ذلك محاولة إرساء قواعد التجارة الأوربية وإحداث تغييرات في التنظيمات الاقتصادية المحلية، بإدخال البنيات المتطورة، القائمة على المبادلات التجارية العالمية، واستنزاف الثروات الطبيعية والبشرية. ورسمنا معالم هذه الدراسة انطلاقًا من إشكالية أساسية، تتمثل في البحث في الوجود الفرنسي في غرب أفريقيا، وأثره على الجانب التجاري خلال القرن التاسع عشر الميلادي، وذلك من خلال مقاربة تاريخية، توضح المظاهر والعوامل المفسرة للوجود الفرنسي، إلى جانب آلية التحليل والتفسير لمجمل الإشكالات البحثية المعالجة. ومن خلال ما سبق، نتوصل إلى أن تداعيات هذا الوجود الفرنسي، لم يبق حبيس الزمن البحثي المدروس، ذلك أنها تجاوزت الفترة الاستعمارية واستنزاف الثروات، إلى ما بعد الاستقلال، وهي فترة عاشت على وقع التحولات الفكرية، المحددة بالأساس في التعارضات بين الفكر الكولونيالي والديكولونيالي، ويمكن تمثيله في التعارض ما بين المدرسة الاستعمارية والمدرسة الأفريقية الأنتروبولوجية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٤	يوليو	٢٠٢٣
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٩	أغسطس	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

أفريقيا الغربية؛ الوجود الفرنسي؛ القرن التاسع الميلادي؛ التجارة؛ الاقتصاد.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.341155 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حسن سكران. "تداعيات الوجود الفرنسي على النشاط التجاري في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ١٣٢ – ١٤٠.

Corresponding author: hassansgran3@gmail.com

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

تقدم دراسة علاقة أوروبا بأفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، أفاقًا واعدة في فهم النظرة الأوروبية المركزية تجاه القارة السمراء، وهي نظرة تنهل من حجم ما كونته من معرفة بجوانب اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية، عبر مستكشفيها وضباطها العسكريين، وعلى أساس تلك المعرفة، وجهت أنظارها لاستغلال الفضاء الأفريقي الغني بثرواته الطبيعية والبشرية، ويهمنا من هذا الفضاء مجال غرب أفريقيا، باعتباره مجالاً تاريخيًا واستراتيجيًا على مستوى ما عرفه من العلاقات، منذ الاستيطان البشري القديم والهجرات المتعددة المشارب، عبر تاريخه الممتد، وفي المقابل، تمكننا دراسة علاقة أوروبا بأفريقيا، من استجلاء مكانة أفريقيا، وموقعها من هذه العلاقة، وهي التي تسعى للحفاظ على خصوصيتها، المستمدة من واقعها التاريخي والجغرافي.

وهكذا، فإن استقصاء جوانب من هذه العلاقة، يستدعي بالأساس نظرة دقيقة ومسحا عميقا، لمصادر متعددة، أجنبية ومحلية، وفي مقامنا هذا، فإننا وقفنا عند مختلف تلكم المصادر، وسعينا إلى دراستها دراسة تقوم على فهم العلاقة، ومظاهر التواجد الأوروبي الفرنسي، وتجلياته في القطاع التجاري، عبر ما عرفه الجانبان، من مبادلات تجارية غير متكافئة في غالب الأوقات، تميل فيها الكفة للأوروبيين، وتزيد من فرص ثرائهم، وتطوير بلدانهم، ما أدى بتضرر التنظيمات المحلية الغرب أفريقية، والصحراوية.

واهتمامنا بهذا الموضوع، ينهل من السياق الراهن، عبر ما تعيشه بلدان غرب أفريقيا من ظروف داخلية، على مستويات اجتماعية واقتصادية وسياسية وأمنية، آخرها الانقلاب على الحكم في بلاد الحوسة[1]، ودولة الغابون، وتراجع الأدوار الفرنسية في المنطقة وتوتر علاقاتها مع دعاة الفكر التحرري من تبعات الاستعمار الذي لحق أفريقيا، وهو ما يندرج ضمن النقاش المحتدم ما بين الفكر الكولونيالي والديكولونيالي، أي الفكر الاستعماري والفكر الرافض له، وهو نقاش يهمنا في هذا الموضوع، في جانب الصراع بين الخصوصية المحلية للتنظيمات التجارية، مقابل سعي فرنسا لإحداث سوق تجارية تتلاءم وتطورها الاقتصادي، إلى جانب نقلها المبادلات التجارية إلى الساحل الأطلنتي، بما يتماشى مع قوة أسطولها البحري، وتجاوز المسالك التجارية البرية الصحراوية، الرابطة بين مجموعة من الحواضر شمالاً وجنوبًا.

وعلى أساس منطلقنا هذا، نسعى لتحليل ومناقشة الحضور الاقتصادي الفرنسي في غرب أفريقيا، وتداعياته على التنظيمات المحلية الخاصة بالقطاع التجاري، وذلك من خلال مسارين مباشرين، الأول نتساءل فيه عن النشاط التجاري الفرنسي في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي، والثاني نبحث فيه عن انعكاس الوجود الفرنسي على الاقتصاد التجاري في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي.

أولاً: النشاط التجاري الفرنسي في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي

منذ القرن السادس عشر الميلادي، أثارت أفريقيا الغربية انتباه العديد من الدول الأوروبية، بفضل ما وفرته من مكاسب مهمة في تكوين الثروة، أساسها تجارة الحواضر الصحراوية، وما قدمته هذه التجارة من سلع أساسية من قبيل الملح والذهب والعبيد، وتزامن هذا الاهتمام الأوروبي مع سياق الكشوفات الجغرافية الهادفة إلى خلق الثروة وتجميع المواد الأولية، وتنويع الاقتصاد الداخلي الذي كان في السابق قائمًا على الإقطاع وامتلاك الأراضي الفلاحية.

وتطور هذا الاهتمام الأوروبي بتجارة أفريقيا الغربية مع توالي السنوات والعقود، حتى اتخذ شكل المبادلات والاستغلال المباشر لمصادر المواد الأساس، حيث أسهم في ذلك تجارها المستقرون في المنطقة، وتعاملهم المباشر مع التجار الأفارقة، مستغلين الحماية المقدمة لهم من طرف الزنوج السودانيين، وحجم ما يصلهم من الإمدادات والسلع من أوروبا[2]، إلى جانب الأرضية المناسبة للقيام بالمعاملات التجارية، من أسواق ومخازن المواد، والمسالك التجارية الرابطة بين مراكز الحواضر

التجارية، ومراسي السواحل الأطلسية، الغربية والجنوبية.

وهكذا، وبموازاة مع ما لحق التجارة الغرب أفريقية من تأثيرات فرنسية، سعت هذه الأخيرة لإحداث خط مباشر من السواحل المتوسطية عبر الجزائر إلى تنبكت، لما في ذلك من تغييب لتجارة العبور، والوساطة التجارية لحواضر ومراسي البلاد المغربية، وتحويل السلع إلى مدنها على غرار تحويلات الفول السوداني إلى المصانع الكبيرة في بوردو ومرسيليا[٣]، وبهذا برزت منافسة شديدة من طرف التجار الفرنسيين ضد التجار المغاربة، تمثلت في إغراق السوق السودانية بسلع بلدانهم، حيث يوجد في سان لوي وتنبكت تجار فرنسيين يجلبون المنتجات الأوروبية إلى هناك[٤]، ذلك أن تجليات منافستهم تلك قد سبقها استغرابهم من إصرار القوافل العابرة للصحراء على مواصلة نشاطها في عهد التوسع الأوروبي، على طول السواحل.[٥] وفي ما يلي السلع التي حولها التجار الفرنسيون، نحو بلدانهم خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي.

جدول رقم (١)

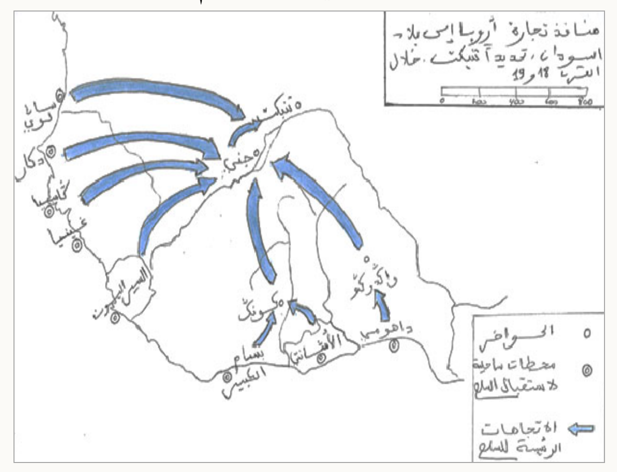
السلع المصدرة نحو فرنسا نهاية القرن ١٩ [٦]

السلع	قيمتها (بالفرنك)	تاريخ التصدير
الصمغ	138000	1880
ريش النعام	288000	1880
الذهب	36000	1880
بذور الكتان	27000	1880
جلود	135000	1881
أسماك محفوظة	171000	1881

إلى جانب هذه السلع، نجد فرنسا قد صدرت مختلف المواد الأخرى، مستغلة في ذلك حاجة الأفارقة إليها على غرار الكحول؛ إذ ليس من السهولة بمكان إيجاد مشروب كحولي مستورد من السوق الدولية، نظرا لندرته واحتكاره من قبل الخاصة من الحكام، وبه حظيت السلعة باهتمام منقطع النظير من طرف السكان البسطاء، فالمتواجد منه يأتي من طرف إرساليات الأوروبيين لجالياتهم في غرب أفريقيا، التي يتطلب استقرارها توافر بعض الحاجيات الضرورية، مثل الدقيق واللحم والنبيذ[٧]، كما حظي الرحالة الأوروبيون في وجباتهم بكمية مهمة من الكحول في الاستقبالات المخصصة لهم عند الزعامات المحلية، كالرحالة فيليكس ديبوا (F.Dubois) الذي قدمت له من أحد أبناء إحدى الزعامات المحلية في المنطقة، وجبة تضمنت نبيذا أحمر الشامبانيا[٨]، وفي سياق مماثل، وصلت شحنة فيها مجموعة من السلع، من قبيل الخبز وزجاجات من النبيذ الأحمر والأبيض إلى تنبكت حيث مستقرها، وموجهة للجاليات الأوروبية القاطنة هناك[٩].

فضلاً عن الكحول، صرفت فرنسا الأثواب القطنية والأقمشة التي تصنعها المصانع البريطانية والفرنسية والإسبانية وغيرها، لما تدره من أرباح في مجال يعيش على الندرة على مستوى الإنتاج، واستغلت نشاط تجارها بمدن المغرب مثل: فاس لتصدير أقمشة صوفية[١٠]، شكلت في ما بعد سلعة مهمة تصدر نحو حاضرة تنبكت، وأرسلتها إلى مناطق جنوبية عبر وسطاءها، إسهاما منها في تقليص مصارف النقل البحري[١١]، وبهذا شكل القطن موردا أساسيا للتجار الساعين لمراكمة الأرباح، لخصائصه الجوهرية في السوق السوداني[١٢]، وفي السياق نفسه توصلت سوق جني الأفريقية[١٣]، بملابس أوروبية لتصديرها إلى باقي الأسواق[١٤]، رغم سعرها المرتفع فإنها تجد إقبالا من طرف الأهالي، وبالإضافة إلى الأقمشة القطنية، هنالك أيضا البنادق الفرنسية والعنبر المزيف والكبريت[١٥]، والملاءات والشاي الأخضر من الصين والسكر والشموع والتمور والتبغ[١٦]، زيادة على ماتم تصنيعه في بلجيكا وإنجلترا[١٧]، وبهذا أمكننا القول على أن سلع فرنسا أثرت في السوق الغرب أفريقية بالخصوص، ودخلت ضمن المستودعات التجارية التنبكتية وغيرها، هدفا في تسخيرها للتجارة الإقليمية أو استهلاكها لدى الأهالي.

خريطة رقم (١)
منافذ تجارة أوروبا في بلاد السودان
خلال القرنين ١٨ و ١٩م[١٨]



أمكننا ملاحظة هذه الخريطة، الموجهة للوعي بمسارات التجارة الأوروبية في أفريقيا الغربية، وعليه نقرأ مفتاحها، الذي يتضمن إشارة إلى الحواضر الرئيسة، التي تستقبل السلع الداخلية والخارجية، وهما حاضرتي تِنْبُكتُ وجنِي، حيث ترتبطان مع المحطات الساحلية (الداهومي والأشانتي والسيراليون وسان لوي..)، وذلك عبر المسالك الصحراوية كما تشير الاتجاهات باللون الأزرق.

إن موقع المحطات الساحلية، جعلها تضطلع بأدوار استراتيجية، أهمها قربها من الساحل الأطلسي، حيث تستقبل مختلف السلع المستوردة من الخارج، في المقابل، تصدر ما تزخر به غرب أفريقيا من مواد أساس، كما رأينا في ما سبق ذكره، وهكذا، فإن دراسة النشاط التجاري لفرنسا في غرب أفريقيا، يجعلنا نقف عند محطة مهمة من محطات الحضور الاقتصادي الأوروبي في القارة الأفريقية، أساسه التطلع إلى خلق سوق أوربية لتصريف الإنتاج، إلى جانب جلب المواد الأولية والثروات المعدنية والبشرية، الكفيلة لخلق ازدهار صناعي وتجاري، فرضه السياق الداخلي، فضلاً عن السعي إلى وضع موطئ قدم في المجال المدروس، كمشروع استعماري، جنت أرباحه ومازالت تجنيه حتى وقتنا الراهن، في مقابل تداعيات ذلك على المنطقة.

ثانيًا: انعكاس الوجود الفرنسي على الاقتصاد التجاري في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي

تراكمت الدراسات المنجزة حول نظرة الأوربي لمجال أفريقيا[١٩]، حيث تمثل جانبًا من ذات المستعمر الذي سعى لإضفاء المشروعية، والتأثير على المجال والمجتمع، وصاحب المشروع الإصلاحي لعدة نواقص، كما زعم والتي تحتاج إلى التقويم، وما يتلاءم مع رزمانة قوانينه والحداثة التي عكستها ثقافته[٢٠].

إن موقع أفريقيا الغربية كمجال غني بالثروات الطبيعية والبشرية، وتوافره على نهري النيجر والسنغال، إلى جانب المشروع التوسعي الامبريالي في المنطقة، كلها عوامل لفهم الوجود الأروبي، وعلى وجه التحديد الفرنسي، وتأثيره على التجارة انطلاقا من وسائله وآلياته الاستعمارية وعلاقاته الاقتصادية، واستثمار سياق الثورة الصناعية، الهادفة إلى السيطرة على منابع المواد الأولية في العالم، ولم يتأت ذلك إلا عبر تحول النمط الاقتصادي من الفلاحة إلى التجارة في المجال الأفريقي المدروس، الشيء الذي أسهم في بروز التثاقف بين التجار الوافدين والسكان المحليين[٢١]، وهكذا، سعت البلدان الأوروبية عبر سياستها الاستعمارية التوسعية على إرغام الحواضر الأفريقية، على تغيير أنماطها الاقتصادية والاجتماعية القائمة على خصوصية المجال والمجتمع، ومن تلكم الأنماط تغيير كل أنواع المعاملات التجارية المحلية، وتجاوز التجارة البرية إلى البحرية، إلى جانب خلق سوق لتصريف منتوجاتها والانتفاع بثرواتها من ذهب وملح وعبيد.

ولكي نفهم أشكال الحضور القوي لفرنسا، نقتبس عبارة ترجمناها: "الاستعمار بالنسبة لفرنسا مسألة حياة أو موت"[٢٢]؛ إذ إن السياق العالمي خلال القرن التاسع عشر الميلادي، الذي شهد ثورة اقتصادية وتحولات اجتماعية داخليا وخارجيا، والتنافس الأوربي على أفريقيا، جعلا فرنسا تبحث لها عن مكان ضمن خريطة المستعمِرين.

وهكذا، فتأثير فرنسا يتخد شكلا أخر، يسلك طريقا ندرس فيه نوع الخطاب الذي تبنته، عبر ما نلاحظه في إسهامات رحالتها ومستكشفيها، الذين كان فهمهم للمجتمع والمجال الغرب الأفريقي ينطلق من أحكام جاهزة، ومن تصورات مصدرية عربية، على غرار إطلاق حكم اللصوصية والطغيان على جماعات محاربة مثل التوارگ[٢٣]، لمجرد كونهم من الزعامات السياسية التي وقفت ضد أهدافهم[٢٤]، ذلك أن مرامي السلطات التي أطرت عملية الاكتشافات، يصب في ما يخص أهدافهم الاستعمارية، لكن في المقابل، لابد من الإشارة إلى صورة المجال القريبة من الحقيقة، والتي تتجلى في ما قُدم بشأنها من خلال أوصاف عقلانية تخص الطبيعة، والفهم الصحيح للحكم لدى بعض الزعامات[٢٥].

وقد أدى تواجد أروبا في مناطق معينة من العالم خلال القرن التاسع عشر الميلادي، إلى ظهور ردود فعل قوية، بفعل سياستها الهادفة إلى استعمار تلكم المناطق، والتي من بينها أفريقيا، ومنذ عام ١٨٨٥م أضحت هذه القارة مثل كعكة، تم توزيعها بموجب مؤتمر برلين، لتحصل فرنسا على جزء هام، يشتمل على منطقة أفريقيا الغربية Afrique Occidentale، أو ماكان يطلق عليه اختصارا ب: A.O.F أي أفريقيا الغربية الفرنسية، وأمام هذا الواقع السياسي، طُرحت ثلاث أسئلة بخصوص استعمار غرب أفريقيا، السؤال الأول يهدف إلى البحث في القيمة الجوهرية للمجال، والسؤال الثاني حدد في البحث في نسب الربح المحتملة من هذا الاستغلال، أما السؤال الثالث فتعكسه إشكالية عبور المجال الصحراوي[٢٦]، وبهذا كان غرض الدول الأوروبية تحديدا فرنسا، الظفر بالثروات الطبيعية والبشرية، والتأثير على الحركية التجارية، وذلك عبر استيعابها أن التجارة الصحراوية كانت العصب الأساس الذي تسير عليه الحواضر الأفريقية، عبر ما راكمته تقارير الرحالة والمستكشفين من ملاحظات حول مصادر الثروات واتجاهاتها، ونشاط المسالك الرابطة بين الحواضر وحجم التبادل التجاري بين الشمال والغرب الأفريقي، وهكذا، فقد انتبه أحد الأوروبيين لإصرار القوافل المحملة بالصمغ من تنبكت على الذهاب إلى موكادور، في المقابل كان عليهم الانعطاف يسارًا إلى المستعمرة الفرنسية سان لوي، لبيع السلعة في أسواقها اقتراحا منهم لتذليل صعاب الطريق[٢٧].

ولأجل تطوير نقاشنا هذا، نواصل الحديث في مسألة ثنائية الساحل الأطلنتي والصحراء، أي التجارة الصحراوية والتجارة الأطلسية، وتتعلق هذه المسألة بعزم فرنسا لتجاوز التنظيمات المحلية للتجارة الغرب أفريقية، عبر تعطيل وظيفة تجارة القوافل لصالح تجارة السفن، خاصةً وأن هذه الفترة تطورت فيها المواصلات البحرية، منها السفن ذات القوة البخارية القادرة على حمل آلاف المسافرين[٢٨]، إلى جانب إغراق الأسواق الداخلية بالسلع، عبر خلق قناة للتواصل من السواحل إلى عمق الغرب أفريقي والصحراوي، يسهل من مأموريته العمل مع القوى السياسية المحاربة في المنطقة مثل دوي حسان[٢٩]، مقابل السعي لإنهاء سلطة الزوايا المرابطين على الاقتصاد الصحراوي[٣٠]، حيث استغلت فرنسا العلاقة المتوترة بين الطرفين، واشتداد الحروب والتنافس على الأرض وحوزته[٣١]، إلى جانب أن ازدهار التجارة الأطلسية، كان عاملا استدرج الإمارات الساحلية بالصحراء من بينها دوي حسان[٣٢]، ورغم ذلك؛ فإن مهمة الفرنسيين في الاختراق التجاري بدت صعبة، خصوصا في السواحل الغربية حتى السنغال، لإشكالية تضارب المصالح بين القبائل المؤثرة في المجال عبر وظائفها ونظامها[٣٣]، ووجهت بذلك أنظارها نحو السواحل الجنوبية للأطلنتي، في مجموع سواحل اليُرُوبَا والداهومي والسيراليون وغينيا وغامبيا، وأطلقت عليها تسميات مميزة لنوع النشاط الذي تقوم به، من قبيل تجارة الذهب في ساحل الذهب وتجارة العاج بالنسبة لساحل العاج وتجارة العبيد في ساحل العبيد[٣٤].

وفي العقد الثالث من القرن التاسع عشر، ألغت بريطانيا تجارة الرقيق باعتباره قرارًا وطنيًا يلزم الجميع، ويدعوا الدول الأخرى لتطبيقه[٣٥]، وآتى هذا الإلغاء بعد سنوات من الاستفادة، عبر ما يصلها من السواحل الأفريقية، وأرباحها الطائلة في مستعمراتها بأمريكا على غرار فرنسا، وحينما كانت السياقات الدولية تتغير، فعلّت قرار الإلغاء وأجبرت حواضر غرب أفريقيا على تعطيل تجارة الرقيق، بذريعة أنها ممارسات مشينة، والحال أنها أدركت أهمية تجارة العبيد في النمو

الداخلي لأفريقيا، وتشير بعض المعطيات إلى تدفق أعداد كبيرة منها نحو أوروبا، تحديدا البرتغال منذ بداية العصر الحديث، ومنذ ذلك الوقت حتى القرن التاسع عشر الميلادي، تطورت تجارتهم، لأنها كانت معدة لإعادة التصدير من البرتغال إلى مستعمرات بريطانيا وفرنسا في العالم الجديد، إزاء ما شهدته من تزايد الإنتاج بفعل استخدامهم في الأعمال الفلاحية والصناعية(٣٦)، هذا في وقت طرحت دراسة العبيد في غرب أفريقيا إشكالات معرفية من زاويتين: أولها مكانتهم كسلعة وعملة متداولة في الوقت نفسه، وثانيها حضورهم الإنتاجي داخل المجتمع الأفريقي، وعلى هذا الأساس يجب أن نميز بين العبيد المسخرين للاسترقاق وللمبادلات التجارية، والعبيد الذين بلغوا درجة اجتماعية معينة، ومكانة اقتصادية وسياسية، ونظرا للطابع الاجتماعي الأفريقي، فقد شكلوا المكون الأساس في الهيكل المجتمعي، وانقسموا إلى عبيد المنازل والنخاسة وأسرى الحرب وعبيد الدولة(٣٧).

ومن أوجه التأثيرات الأخرى، تضرر التجارة في المناطق المجاورة لتنبكت، بفعل استغلال فرنسا صلاتها المثينة مع الأمراء والأعيان، وعقد المعاهدات التجارية كما وقع في بلاد البيظان؛ إذ أفضى ذلك لتأجيج الصراع والحروب، بين الداعمين للأطماع الفرنسية والرافضين لها(٣٨)، ومن المعاهدات التجارية التي عقدتها فرنسا مع إمارة الترارزة، تلك التي حصلت بموجبها على الصمغ والعبيد والذهب(٣٩)، وبهذا تتأصل تأثيرات فرنسا بالمنطقة في الفترة الحديثة، حيث اكتست طابعا يهدف إلى تعيين عملائها في التجارة لكسر الوجود الإنجليزي(٤٠)، ثم إن الخطر الذي ظل يؤرقها تمثل في قوة الزوايا في المجال، وقامت بذلك على التحريض على طعن زوايا شربيبة أثناء حربهم مع المغافرة، وكانت نتيجة ذلك أن قُتل إمامهم القاضي عثمان سنة ١٦٧٤م(٤١)، والإسهام في انقسامات بين الزعامات بخصوص استمالة عملاءها أحد منافسي أمير الترارزة، بشأن قافلة الصمغ المتجهة إلى تجار إنجلترا سنة ١٨٢٢م، وتسبب الأمر في مقتل الشخص المرسول على يد أخر يدعى المختار بن سيدي(٤٢)، ويبدو بهذا أن فرنسا تكون محرجة بخصوص ما عرفته تجارة إنجلترا من تطور، وبالتالي نجد الكتابات الفرنسية دائما ما تحذر في حديثها عن التفوق الإنجليزي(٤٣).

وتنطلق السلطات الفرنسية في غزوها الاقتصادي وتأثيرها على تجارة غرب أفريقيا، من ثلاث مناطق أساسية ضمنت فيهم حضورا كبيرا(٤٤)، المنطقة الأولى: الجزائر منذ سنة ١٨٣٠م بعد حكم سابق من طرف العثمانيين، المنطقة الثانية: السنغال بفعل الاستقرار الفرنسي في سان لوي، المنطقة الثالثة الكابون والكونكو، مع الإشارة إلى أن الجزائر تعد منطقة مهمة عند فرنسا نظرا لعاملان أساسيان، الأول تمثل في إتصالها بالبحر الأبيض المتوسط، ما سيقلص من تكاليف الإبحار نحو السنغال، والعامل الثاني تمثل في سعيها لتجاوز المغرب، أهم وسيط تجاري بين غرب أفريقيا وأوروبا، وخلق مجالها الاقتصادي، وقد بدت مساعي فرنسا تتضح أكثر في بعض التفاصيل التي تقدم جانبا من جوانب تخطيطها لإدخال تقنيات جديدة، كخطوط السكك الحديدية من مدينة كايي إلى مدينة بافولابي في كيتا وبامكو وإنشاء الموانئ وتنمية أسطولها التجاري(٤٥).

وكلما تحدثنا عن القرن التاسع عشر الميلادي، علينا أن نكون واعيين بأن هناك مناطق اضطلعت بأدوار هامة، على غرار حاضرة تنبكت المركز التجاري والقطب الاقتصادي، وكلما تقلصت الطرق التجارية الرابطة بينها وبين الحواضر الأخرى، أسهم ذلك في حدوث مشاكل في الإمدادات لباقي المناطق، بفعل الاحتكار التجاري لفرنسا، وذلك عبر إحداثها مراكز خاصة في المحاور الرئيسة، التي تمر فيهما التجارة الصحراوية في دوائر احتلتها مثل البراكنة والترارزة، والحاقهما إلى مالي بمساعدة معاونها كزافي كَبُولَانِي(٤٦)، ثم ما لبث أن نهجت فرنسا أساليب أخرى، تمثلت في اختطاف الزعامات الاقتصادية إلى مناطق أخرى، على غرار اختطاف أمير البراكنة أهم فاعل في قطاع التجارة سنة ١٨٤٣م(٤٧).

أما عن المعاملات التجارية مع غرب أفريقيا، فغالبا ما يستفيد منها الفرنسيون، نظرا لاحتكارهم أهم المواد والسلع التي تعلوا قيمتها من قبيل مادة الصمغ، وهذا ما نراه من نماذج في بعض النصوص، نموذج ما أورده

الباحث ناعيمي بخصوص فقرة تقريرية، تبين الاستفادة الكبيرة للأوروبيين من معاملة تجارية، وهذا نص التقرير: "يأتي الزنوج بالجلد والعاج والأسرى وفي بعض الأحيان بالعنبر أما الصمغ فأتينا من الموريين، ونعطي بذله لهؤلاء ﴿...﴾ النسيج والقطن والنحاس والقصدير والحديد والعرق "ماء الحياة" ﴿...﴾ العائدات التي نحصل عليها من التجارة تقدر ب ٨٠٠% ﴿...﴾ وبذلك تكون النفقة أقل في الشراء منها في النقل"[٤٨]، وتأثرت المعاملات التجارية في المنطقة، بإدخال الفرنسيين أساليبهم في التعامل بالنقود المعدنية، حيث لم ترق لهم التعاملات التي تحدث عن طريق المقايضة، وتبديل السلع ببعضها البعض، مثل مبادلة الملح بالعبيد، أو هذا الأخير بالأسلحة، وقرروا التأثير على بعض المستعمرات نموذج سان لوي السنغالية، فأصبحت هذه الأخيرة تتعامل بالعملات الفرنسية[٤٩]، تحت حجة عدم توافق القيم التسويقية والمادة الخام المعروضة، وانتشرت هذه الأساليب في مناطق أخرى، مثل الدَّاهُومِي (البِنِينْ الحالية) التي تواصل فيها البيض والسود، ما سهل انتشارها[٥٠].

إجمالاً يمكن التوصل إلى أثر الدول الأوروبية تحديدا فرنسا، على تجارة غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر، وذلك إزاء عوامل وسياقات دولية وجهتها في سبيل مصالحها الاقتصادية والسياسية، ما انعكس سلبا على التجارة القفلية لصالح تجارة السواحل.

خَاتِمَةٌ

في نهاية هذا العمل نكون أمام خلاصات، حول تداعيات الوجود الفرنسي على الاقتصاد التجاري في غرب أفريقيا خلال القرن التاسع عشر الميلادي: أولها أن الحركة التجارية الفرنسية التي شهدها الغرب الأفريقي، قد وجهت علاقة الغرب الأوروبي بأفريقيا، وأنتجت صراعا اقتصاديا ما بين التنظيمات المحلية التقليدية والبنيات الأوروبية المتطورة؛ ثانيها أن ذلك الصراع خلق تحولات في المشهد الاقتصادي في المنطقة، على مستوى العلاقة داخل الحواضر التجارية الصحراوية، وأحدث شرخا بين الداعمين للتعامل مع الفرنسيين والرافضين له، ثم سعت فرنسا إلى الاستحواذ على أهم مواد المنطقة، على غرار العبيد، كونهم أساس الإنتاجية في اقتصاد أوروبا.

الاحالات المرجعية:

(١) تطلق تسمية بلاد الحوسة على تلكم المناطق الواقعة شرق نهر النيجر، أي دولة النيجر الحالية.

(2) Filix Dubois, **Tombouctou La Mystérieuse, Librairie E. Flammariox, Paris, 1897**, P 13.

(3) Oscar. Lenz, **Timbouctou Voyage au Maroc au Sahara et au Soudan, Librairie Hachette, Paris, 1887**, Tom. 2, P. 370.

(4) Augustin-Prosper Hacquard, **Monographie de Tombouctou, Société des études Coloniales etmaritimes**, paris, 1900, P. 48.

(٥) دانييل شروتر، **تجار الصويرة المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب ١٨٤٤-١٨٨٦**، تعريب خالد بن الصغير، ط. ١، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٧م، ص٢٠٧.

(6) O. Lenz, **Timbouctou Voyage...**, Op. cit, Tom. 2, P. 370.

(7) F. Dubois, **Tombouctou...**, Op. cit, P. 13.

(8) Ibid, P. 89.

(9) O. Lenz , **Timbouctou Voyage...**, Op. cit, Tom. 2, P. 298.

(١٠) الحسن الوزان، **وصف أفريقا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط. ٢، بيروت، دار الغرب الإسلامي، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ج. ٢، ١٩٨٣م. ص. ٢٤١.

(11) Zahra Tamouh, **Le Maroc et Le Soudan Au 19 Siécle (1830-1894) Contribution à Une Histoire Inter-Régionale De L'Afrique, Thèse Pour Le Doctorat De 3ème Cycle, Universite De Pantheon-Sorbonne (paris-1) Centre de Recherche Africaines**, Tom. 2, P. 184-185.

(12) Ibid, P. 188.

(١٣) جِنِي: حاضرة في غرب أفريقيا، تقع جنوب تنبكت.

(١٤) أحمد إلياس حسين، "**سلع التجارة الصحراوية**"، في: ندوة **التجارة عبر الصحراء**، أعمال الندوة التي نظمها مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، أيام ٢/٣/٤ أكتوبر ١٩٧٩م، طرابلس، ١٩٧٩م، ص. ٢١٠.

(15) Réne. Caillié, **Journal d'un voyage à Temboctou et à Jenné dans l'Afrique centrale, Paris, L'Imprimerie Royale**, Tom. 2, P. 200.

(16) O. Lenz, **Timbouctou Voyage...**, Op. cit, Tom. 2, P. 166.

(17) Ibid, P. 374.

(١٨) مجهود شخصي على مستوى رسم الخريطة، واستثمار المصادر المدروسة، ومن المصادر التي استعنت بها: خالد أوشن، **النشاط الاقتصادي في النيجر الأعلى من سنة ١٢٣٠م إلى سنة ١٥٩١م**، أطروحة نيل دكتوراه (النظام الجديد)، جامعة محمد الخامس الرباط، ٢٠٠١-٢٠٠٢م، ص. ٥٧١-٥٧٢، ومجموعة من الخرائط المرفقة في الأطروحة، خاصة الخريطة ص. ٧٦ ونفسها في الأصل منقولة (بتصرف) من:

Raymond Mauny, **Tableau Géographique De L'Ouest Africain Au Moyen Age, d'après les sources écrites, latradition et l'archéologie, Smithsonian Institution Libraries, 1961**, P. 512.

(١٩) من بين هذه الدراسات نجد: سليمان بشير دياني وجان لو أمسيل، **أفريقيا أفقا للفكر في مساءلة الكونية وما بعد الكولونيالية**، ترجمة فريد الزاهي، ط. ١، دار معنى للنشر والتوزيع، ٢٠٢١م. جيرار لكلرك، **الأنتربولوجيا والإستعمار**، ترجمة جورج كتورة، الطبعة. ٢، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠م. أشيل مبيمبي، **نقد العقل الزنجي**، ترجمة طواهري ميلود، ط. ١، بيروت، دار الروافد الثقافية ناشرون، ٢٠١٨م. رحال بوبريك، "**الإسلام بإفريقيا الصيرورة التاريخية وأنماط التدين بغرب أفريقيا**"، في: ندوة أفريقيا كأفق للتفكير، التي نظمتها أكاديمية المملكة المغربية في الدورة ٤٣ بالرباط أيام من ٨ إلى ١١ دجنبر ٢٠١٥م.

(٢٠) بينما نظرة الأفريقي تجلت في الحفاظ على الخصوصية المجالية والمجتمعية والحضارية لأفريقيا، مع تبني خطاب مضاد للفكر الاستعماري، ذلك أنه ينتقد فيه سعي الأوروبي لنشر ذلك الفكر في التربة المحلية، ونظرة الأفريقي تلك يعكسها حضور جانبا من النقد الموجه من طرف الأنثربولوجيا للكتابات الإستعمارية، خاصة في بداية الثلاثينيات من القرن الماضي، في سياق ظهور ما سمي بالقومية الأفريقية، وإرادة الأفارقة في التأكيد على حقوقهم وعلى مسؤولياتهم إزاء النظام الاستعماري، أثناء فترة ما بين الحربين العالميتين. ينظر: جيرار لكلرك، الأنتربولوجيا...، م. س، ص. ١٦٨.

(٢١) رحال بوبريك، "**الإسلام بإفريقيا الصيرورة التاريخية وأنماط التدين بغرب أفريقي**"، ضمن: ندوة أفريقيا...، م. س، ص. ٢٦٩.

(22) Philebert Charles, **La France en Afrique et le Transsaharien, Paris, éditeur Librairie Algérienne et coloniale, 1890**, P. 7.

(٢٣) التوارك هم قبائل محاربة ذات شوكة وتاريخ وتقاليد، معروفين في الصحراء الكبرى، بحكم نمط عيشهم القائم على البداوة والترحال، ليس لهم منازل يأوون إليها، يوفرون الأمن للقوافل التجارية والحجية، إلى جانب احتكارهم بيع الجمال للتجار الطارئين في المجال، وفي المقابل، يفرضون إتاوات المرور، ويجبرون القبائل الأخرى على احترام حوزتهم على تنبكت. يُنظر كل من: المختار بن حاميد، **حياة موريتانيا حوادث السنين أربعة قرون من تاريخ موريتانيا وجواره**، الإحالة ٢، ص٧٧.

(24) John Manuel, **Le Soudan : Ses Rapports Avec Le Commerce Européen, Paris, Imprimerie De E. Martinet, 1871**, P. 4.

(٢٥) يُنظر: P. Charles, **La france en Afrique...**, Op. cit, PP. 11-13. كون دراسته مهمة في تتبع قضايا تختلف قراءتها في مساهمات أخرى.

(26) P. Charles, **La france en Afrique...**, Op. cit, P. 10.

(٢٧) دانيل شروتر، تجار...، م. س، ص. ٢٠٧.

(٢٨) محمدو بن محمدن، **المجتمع البيضاني في القرن التاسع عشر (قراءة في الرحلات الاستكشافية الفرنسية)**، ط. ١، الرباط، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، ٢٠٠١م، ص. ٨٦.

(٢٩) قبيلة عربية هاجرت من المشرق إلى بلاد المغرب خلال القرن الرابع عشر الميلادي، وأحدث دخولها تحولات في الخريطة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

(٣٠) مصطفى ناعمي، **الصحراء من خلال بلاد تكنة تاريخ العلاقات التجارية والسياسية**، منشورات عكاظ، ١٩٨٨م، ص. ١٦٠.

(٣١) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٧م، ص. ١٠١.

(٣٢) مصطفى ناعمي، **الصحراء...**، م. س، ص. ١٦٢.

(٣٣) خضعت القبائل الصحراوية لدراسة من طرف الباحثين في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، فوضعوا مقارنة بين حضورهم ونظامهم المعيشي، القبلي القائم إما على العلم أو الحرب أو اللحمة أو البحر، وتوصل الأستاذ الباحث محمد بوزنكاض، عبر دراسته للزوايا وحسان، إلى حضور نموذجين ثقافيين مختلفين يقوم الأول على (التَّزَاوِيتْ) كنظام أخلاقي ذو مرجعية مرابطية صنهاجية، أما الثاني فيقوم على ثقافة عربية لها حضور في فيافي المغرب الأقصى. يُنظر: محمد بوزنكاض، **دراسة في التاريخ الاجتماعي للصحراء الأطلسية ما بين القرنين ١٧ و٢٠**، ط. ١، مركز الدراسات والأبحاث "مشاريع"، أسا، ٢٠١٢، ص. ٧٢.

(٣٤) عبد الله عبد الرزاق **إبراهيم وشوقي الجمل، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، ط. ٢، الرياض، دار الزهراء للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م، ص. ٥٣.

(٣٥) ا. ج. هوبكينز، **التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية**، تقديم محمد عبد الغني سعودي وترجمة أحمد فؤاد بلبع، الإسكندرية، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨م، ص. ٢٢٧-٢٢٨.

(٣٦) المرجع نفسه، ص. ١٧٨-١٧٩.

(٣٧) خاليد أوشن، **النشاط الاقتصادي...**، م. س، ص. ٩٣٣-٩٣٤.

(٣٨) الخليل النحوي، **بلاد شنقيط...**، م. س، ص. ٣٢٠.

(٣٩) مصطفى ناعيمي، **الصحراء...**، م. س، ص. ١٦٣.

(٤٠) المختار بن حامد، **التاريخ السياسي**، ط. ١، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠م، ص. ٢٢٦.

(٤١) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(٤٢) المرجع نفسه، ص. ٢٢٧.

(43) P. Charles, **La france en Afrique...**, Op. cit, P. 20.

(44) Ibid, P. 3.

(45) P. Charles, **La france en Afrique...**, Op. cit, P. 35.

(٤٦) المختار بن حامد، التاريخ السياسي...، م. س، ص. ٢٢٨.

(٤٧) الخليل النحوي، بلاد شتقيط**...**، م. س، ص. ٣٢٠.

(٤٨) مصطفى ناعيمي، الصحراء...، م. س، ص. ١٦١.

(49) O. Lenz, **Timbouctou Voyage...**, Op. cit, Tom. 2, P. 371.

(50) L. Brunet & L. Giethlen, **Dahomey et Dépendances, Historique Général, Organisation, Administration, Ethnographie, Productions, Agriculture, Augustin Challamel**, Paris, 1900, P. 446.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

التراث الثقافي اللامادي بمدينة وادي زم وبواديها زمن الحماية الفرنسية
الاحتفالات بالأطفال أنموذجًا



الصافي عبد الرزاق
أستاذ الثانوي التأهيلي وباحث بسلك الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس – المملكة المغربية

مُلَخّص

يعتبر التراث اللامادي جوهر الإنسان والمعبر عن هويته في تفاعله مع المكان الذي عاش وتعايش فيه، مجال هضبي قاري، كان كفيلاً بأن يجعل الإنسان الوادزامي يبتكر عددًا من الاحتفالات في ارتباط بالدين الإسلامي ليبين فرحه بالمولود الجديد ومختلف مراحل تطوره العمرية، فقد كانت الاحتفالات بالأطفال منذ الصغر إلى الكبر إحدى أهم أسس واهتمامات الساكنة بمدينة وادي زم، منذ مرحلة الحمل وفيها تشرع في تجهيز طعام "البسيسة" وخياطة وحياكة بعض الملابس الصغيرة لمولودها كالجوارب ومعاطف خيوط الصوف، لتصل إلى مرحلة الرضاعة وما يواكبها من طقوس واحتفالات مرورًا بالفطام والختان إلى حفظ القرآن الكريم وإخراج حسب اصطلاح التعليم الإسلامي بالمساجد للسلكة، ما يبرز ويبين مكانة الطفل بالمنطقة. ويشكل التراث اللامادي الثقافي المعبر عن هوية وجوهر الإنسان الوادزمي في تفاعله مع ذلك المجال الهضبي القاري، بل وأن هذا التراث اللامادي أصبح يحظى باهتمام العديد من المحافل العلمية والمنظمات والهيئات الدولية لما رأت فيه من جواهر وذخائر مكنونة لا تقدر بثمن، ومن فروع التراث الثقافي اللامادي الاحتفالات بالأطفال ما يبرز أهمية الزواج والإنجاب بمدينة وادي زم وبواديها فهو الضامن لاستمرار النسل والحفاظ على ارث وممتلكات العائلة، فكانت المرأة منذ حملها تخضع لمجموعة من الطقوس وفق احتفالات متعددة كتوفير الأكل الذي تحبه والشراب الذي ترغب فيه، إلى أن تصل إلى مرحلة الإنجاب ومرور الطفل في مختلف مراحله العمرية بالعديد من الاحتفالات حسب كل مرحلة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٩ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٥ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

التراث اللامادي؛ الأطفال؛ الاحتفالات؛ طقوس الميلاد؛ الحماية الفرنسية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.341663 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الصافي عبد الرزاق. "التراث الثقافي اللامادي بمدينة وادي زم وبواديها زمن الحماية الفرنسية: الاحتفالات بالأطفال أنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ١٤١ – ١٥٢.

Corresponding author: rrazaksafi@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

حاضر فينا أو معنا من الماضي سواء ماضينا أو ماضي غيرنا، سواء القريب منه أم البعيد"[١]، وفي إطار التعريف يقول أيضًا؛ "إن التراث خزان للأفكار والرؤى والتصورات تأخذ منه الأمة ما يفيدها في حاضرها أو ما هو قابل لأن يعين على حركة التقدم"[٢]. ويعرفه عباس الجراري بقوله: التراث هو ذلك الإرث الذي وصلنا على مر العصور والأزمان، والذي لا يزال مثلاً في حياتنا متمثلا فيما أنتجته عقول الأجيال السابقة، وما أوحت به قلوبهم من علوم وفنون وآداب، هي خلاصة حضارة هذا البلد، وثمرة عبقرية أبنائه"[٣].

يعتبر التراث اللامادي الثقافي المعبر عن هوية وجوهر الإنسان الوادزمي في تفاعله مع ذلك المجال الهضبي القاري، بل وأن هذا التراث اللامادي أصبح يحظى باهتمام العديد من المحافل العلمية والمنظمات والهيئات الدولية. ويحتل الزواج والإنجاب بمدينة وادي زم وبواديها أهمية كبيرة، فذلك هو الضامن لاستمرار النسل والحفاظ على ارث وممتلكات العائلة، فكانت المرأة منذ حملها تخضع لمجموعة من الطقوس وفق احتفالات متعددة كتوفير الأكل الذي تحبه والشراب الذي ترغب فيه، إلى أن تصل إلى مرحلة الإنجاب، فالفطام، فالطهارة، فالاحتفال بحفظ القرآن الكريم، بل وإلى الزواج.

أهمية البحث:

- قد تسهم نتائج البحث الحالي في تكوين تصور علمي عن مدى أهمية التراث اللامادي في حياة الفرد والمجتمع.
- إغناء الدراسات المرتبطة بهذا الجانب نظرا للخصاص الموجود، وإحداث تراكم معرفي حول الموضوع.
- بناء أدوات جديدة للبحث في هذا المجال وتوضيح طريقة استخدامها والنتائج المترتبة عنها.
- تسليط الضوء على مجتمعات وعلى خصوصيات ثقافية كانت قد تناست أو في طريق النسيان.
- توجيه نظر الباحثين القادمين إلى إيلاء هذا النوع من البحوث أهمية كبيرة والتأكيد عليهم لكونه يسعى إلى حفظ الذاكرة الجماعية.

أهداف البحث:

الأهداف العملية: الاهتمام بالمعيش اليومي الذاكراتي الترفيهي لكونه يشكل ذاكرة الإنسان وهوية المجال، سيمكن من دراسة المجال، كما أنه ينبغي الحفاظ عليه للأجيال المقبلة لأنه يشكل هويتها.

الأهداف العلمية: تنويع مقاربات دراسة المجتمعات من خلال النبش في التراث اللامادي الثقافي الذاكراتي.

مشكلة البحث وفرضياته ووسائله وأدواته:

تسعى هذه المقالة المتواضعة إلى دراسة المجتمعات دراسة وصفية تقوم على رصد أدق تفاصيل حياة الإنسان اليومية والمرتبطة بالاحتفالات بالأطفال الذين يشكلون المستقبل والضامن لاستمرار الحياة، عبر النبش فيما تختزنه ذاكرات الإنسان الوادزمي والذي كان يستند عليه في تحقيق المتعة والترفيه، ومن هنا كانت الإشكالية المحورية لموضوع البحث هي؛ ما هي خصائص الاحتفالات بالأطفال بوادي زم وبواديها؟

ومن أجل الإجابة عن هذه الإشكالية طرحنا مجموعة من التساؤلات الفرعية على الشكل التالي:

- هل يمكننا أن نتوقع بأن وادي زم وبواديها تحتوي على تراث احتفالي بالأطفال؟
- ما هي خصائص هذا التراث اللامادي الثقافي؟
- هل يمكن للتراث الثقافي ومن ضمنه الاحتفالات بالأطفال تحقيق المتعة والترفيه.

وللإجابة عن هذه الإشكالية اعتمدنا على وسائل وأدوات منها: المقابلة والملاحظة والمشاركة والتسجيل، حيث حرصت أشد الحرص على تسجيل وتدوين الأشياء في أدق تفاصيلها كلما سنحت الفرصة بذلك، من خلال تسجيل يعتمد على الملاحظة والمشاركة، وما سنح لي بذلك هو انتمائي إلى المجتمع المدروس وادي زم وبواديها، وتسجيل تفاصيل حياة الإنسان اليومية بكل

دقة، وفي ذلك قد يرى البعض إطنابًا وعدم الفائدة، وفيه أرى تدقيقًا واستفاضة في البحث عن الخصوصية التراثية اللامادية للإنسان بالمنطقة.

- ما هي خصائص التراث الثقافي اللامادي لمنطقة وادي زم وبواديها؟
- ما خصائص الاحتفالات بالأطفال؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية استندنا على منهج تاريخي وصفي، يهدف إلى إبراز خصائص الاحتفالات بالأطفال وأهميتها في حياة الفرد والمجتمع.

أولاً: الولادة

١/١ طقوس الميلاد والإنجاب (الزيادة)

إن الإنسان الوادزمي تزخر حياته بالعديد من المعتقدات المرتبطة بالإنجاب، لذلك يعتبر الزواج، أمرا ضروريا ومهما ليحفظ نسل العائلة واستمرارها، إذ من الضروري أن يتزوج الابن في سن مبكرة، من أجل إنجاب أطفال يضمن بهم استمرار نسل العائلة، وأيضًا ليفتخر بهم وليساعدوه في الحياة.

الزوجة منذ أن تعلم بحملها تبدأ في الاستعداد لاستقبال هذا الصغير من خلال إعداد "ألزَمِيتَةَ أَو ألبْسِيسَةَ"، وذلك من خلال "قلي القمح وطحنه وغربلته "وشراء بعض الحبوب أو المنسمات وبعض المكسرات التي تضيف مذاقا جميلا إلى هذا الدقيق، وهي: حَبَّةَ حْلاوَةَ، نَافْعْ، جَلْجْلانْ، كَاوكَاو، إيلانْ، سُوجَا، لَوْزْ، تخلط بالزيت الرومي أو السمن، مع مزاولتها لأعملها "المنزلية بشكل عاد قدر المستطاع"[٤]. وهو الذي يوضحه محمد الشرقاوي –البزيوي– بقوله؛ "عندما يدخل الشهر التاسع للمرأة الحامل ويقترب موعد الولادة يقوم أهل الحامل بصنع "البسيسة" أو سلو ويتكون صنع "البسيسة" على الشكل التالي: يُقلى القمح، وينقى من غير زيت ثم يطحن وتنزع منه النخالة. بحيث تؤخذ نواة القمح فقط، ثم يضاف إليه السكر المدقوق كَلاصي، والتقاوت، وهي حبة حلاوة والنافع والكروية والجلجلان وغيره، ثم يعجن الخليط بالزيت البلدي "زيت الزيتون" ثم يحتفظ به إلى حين الولادة فيقدم منه للوالدة والزائرين"[٥]. ولعل أهمية هذه الأكلة توضحها الدكتورة ليجي بقولها "ويضمن تذوق "الزميتة" من طرف الوالدة الحديثة للطفل حياة مزدهرة، كما يقيها هي من الغشيان"[٦].

بعد هذا الاستعداد، وعندما تكتمل فترة الحمل، ويحين وقت الوضع، من خلال إحساس الحامل بالوخز والألم في البطن، تقوم باستدعاء أمها وحماتها "عْدُوزْتْهَا"، ليكنَ بجوارها في هاته المرحلة الصعبة، وعندما يشتد المخاض، يتم استدعاء امرأة تكون محترفة في توليد النساء "قَابْلَةَ"، لتساعد المرأة على الإنجاب، التي تقوم بإلصاق ثوب في عمود من أعمدة السقف أو مسمار مثبت جيدا، من أجل "تْوُجَاعْ" والإنجاب فالقابلة "هي من أقدم المهن تاريخيا، ظلت لقرون عديدة في التاريخ العربي عمومًا والتراث الثقافي المغربي خصوصا، شخصية لها مكانة خاصة في المجتمع، تهتم بالمرأة الحامل قبل الوضع: زيارتها والاطلاع على أحوالها وتقديم المشورة إليها وتقدير وضعية الولادة، هل ستكون عادية سهلة أم عسيرة. وقد تهتم القابلة بأطوار نمو المولود، أي أنها تقوم بدور طب الولادة والرضع. وهي في كل هذا محترفة على قدر كبير من الكفاءة والمسؤولية، تمارس مهنتها بأدوات بسيطة اعتمادا على خبرتها مقابل اجر غير محدد أو متفاوض بشأنه، بل كانت تقوم بعملها ابتغاء "الأجر" في الآخرة والتماسا لثواب الله سبحانه، إلا أن المجتمع لم يهملها، بل اعترف لها بالجميل فكرمها وجعل لها مكانة متميزة يحترمها الكبير والصغير"[٧].

نجد جريدة السعادة تتضمن مقالاً حول القابلة يقول؛ "عقب الوضع مباشرة تكون الوالدة منهوكة القوى في حاجة إلى الراحة والمسؤول عن العناية بالطفل بعد وضعه مباشرة إنما هو الطبيب المباشر أو القابلة المباشرة لعملية الولادة أو القابلة التقليدية التي لا خبرة لها بقواعد التمريض واغلب هؤلاء جاهلات فيحسن أن ينبه عليها أن تغسل يديها جيدا بماء ساخن وصابون ومطهر إن أمكن"[٨]. انطلاقا من هذا المقال نستشف بان القابلة كان لها حضور مهم داخل المجتمع لكن كان من الواجب التنبيه إلى أهمية النظافة لحماية حياة الطفل والأم.

إذن فالقابلة كان لها دور مهم في توليد النساء، ولعل ذلك ما حدا بالسلطات خلال ٠١ أبريل ١٩٥٥ إلى إصدار "ظهير شريف بالجريدة الرسمية عدد: ٢٢١٤ ص: ٨٩٤، يتعلق بتنظيم مهنة القابلة "المولدة"[٩]. فبمجرد خروج المولود الصغير وإطلاقه لصرخته الأولى، تقوم القابلة بفحصه فإذا كان ذكرا "تزغرد المولدة ثلاث مرات، أما إذا كانت أنثى فإنها تزغرد مرة واحدة فقط"[١٠].

و"تقول القابلة وهي تقطع الحبل السري: شكرا لله الذي جعلني آتي إلى العالم بهذا المسلم"؛ وبعدها، تمسك الطفل وتهمس له في أذنيه: "الله أكبر". وإثر ذلك، توجه له خطابا قصيرا، قائلة: "ستكبر وتنسى، ستكون سعيدا وتتعلم القراءة"، ثم تضع قليلا من السكر على لسانه لينعم بحياة حلوة، قبل أن تضغط على عظام جمجمته وتجر أنفه"[١١] لتأخذه إحدى النساء الحاضرات، وتلفه في ثوب أبيض يسمى "أَلْكْمَاطْ"، " لِيكَا بَيْضَا"(جزء أو قطعة من الصوف)، بعد أن تقوم القابلة بقطع حبله السري، الذي تضمه إلى المشيمة ليدفن في مكان بعيد عن بصر الإنسان، وعن شم الحيوانات، تخرج إحدى تلك النساء الحاضرات بالخروج لتقوم بزف خبر المولود للأب الذي يكون في الخارج يتتبع أخبار زوجته، فتقول له "مَبْرُوكْ ألعَزْرِي" إذا كان المولود ذكرا، وتقول له "مَبْرُوكْ أَلعَزْرِية " إن كانت طفلة. "بعد انتهاء عملية الوضع وتقميط المولود تحرص الحاضرات على وضع جانبه وجانب أمه قليلا من الملح وسكينا لطرد الأرواح الشريرة المتربصة بهما، ومنعها من إذايتهما"[١٢]. كما أن الأم تلبس ملابس جديدة "وتضع على رأسها الكنبوش (وهو منديل طويل به ألوان)" [١٣].

بعد تلقي الأب لهذا النبأ يسارع في أداء أول مهمة تنتظره وهي ذبح ديك، كان قد تم وسمه أي اختياره لهاته المناسبة[١٤]، أو غيره الذي أحضرته أم المرأة النفساء، حتى تعد به وجبة "ألرْفِيسَةَ أو التريد". فَالْرْفِيسَةَ تتكون من سميد مصنوع من القمح، يتم عجنه بدون خميرة وماء وملح وزيت، ويقومون بخبزها عن طريق وضعها على شكل دائري، ثم إدخالها إلى الفرن إلى أن تنضج ويتغير لونها الى الأحمر[١٥].

بعد ذلك يقومون بإخراجها ودقها وتفتيتها "تَهْرَاسهَا أي دَكْديكهَا"، باستعمال حجر مغسول أو "رْزَامَةَ دْيَالْ ألْمْهْرَازْ"، ثم يضعونها في "ألقَسْرِيَةَ، ألكَصْعَةَ "، ويقومون بسقيها بـ "بِألْبَلُولْ" الذي يتضمن العدس، الحمص، "أَلْمْسَاخْنْ الذي يسمى أيضًا "رَاسْ ألحَانُوتْ"، أو "رَاسْ ألْعَطَارْ "، بخصوص ألْتْرِيدْ، فهو يتكون من "مَسَمَنْ " مقطع إلى قطع صغيرة، تضاف إليه نفس التوابل التي سبق ذكرها، كما أنهم يقومون بشواء اللحم "دَوَارَةَ "يشتريها الزوج من السوق، وكل هذا من أجل أن تستعيد "اَلمَرْا ألنَافْسَةَ" أي المرأة النفساء، قوتها وتسترجع طاقتها وعافيتها، وحيويتها في اقرب وقت ممكن، وتقوم النساء القريبات منها (من عائلتها، ومن جيرانها..) بإحضار ألرْفِيسَةَ، أو ألتْرِيدْ، أو البَرْكُوكْشْ أو كما يسمى أيضًا بِطَرْنَةَ المعد بالدجاج البلدي من منازلهم وهو مطبوخ، أو يحضرون الخضر والدجاج والزيت والتوابل، يتم إعداده في بيت النفساء، وتقوم المرأة النفساء بإعطاء ألكُحَلْ وَالسوَاكْ، وَألقُرُنْفَلْ، وَألحَرْكُوسْ... للنساء اللواتي زرنها، واللواتي يعيطنها "ألبْيَاضْ" حسب قدراتهن المادية[١٦].

بعد أن تنتهي عملية "تْكْمَاطْ " المولود —ة—، تحرص أمها أو أم زوجها على وضع سكين وقليل من ألمْلَحْ، وَألْقَطْرَانْ، وَألْشَبَةَ، وَألحَرْمَلْ، بجانبه وبجانب أمه، بل وأيضًا أنهم يضعون هاته الأشياء في سُرَةَ وتعلق في "ألدَوْحْ"، الذي سيتم استعماله للرضيع، "أما دم المرأة حديثة الولادة، ونظرًا لأنه قابل للاستعمال في السحر الشرير الموجه ضدها، فيخفى ليحجب تماما عن الأنظار. ومن حق القابلة بمفردها لمسه، ولهذا، فهي التي تتكلف بتنظيف غسيل الأم. والأمر نفسه ينطبق على خرق المولود التي تغسلها القابلة وتجففها في غرفة مغلقة، بعيدا عن الأنظار. ومن اللازم عليها أيضًا أن تنشر الخرق هذه على أوان مصنوعة من النحاس ("مهراز" أو صينية)، نظرًا لأن النحاس يبعد الجن الذين قد يغريهم تدنيس الخرق ونقل أمراض فتاكة بالنسبة للطفل إليها. ولا تتناول النفيسة (النفساء) طعامها إلا بمعية القابلة بمفردها، وذلك طيلة سبعة أيام عقب الوضع. وحتى في حالة وجود أشخاص آخرين يتناولون طعامهم في نفس الغرفة، فإن أكلها يوضع في طبق منفرد، ولا يحق لأي شخص مسه باستثناء قابلتها"[١٧].

"وفي اليوم الثالث عقب الإنجاب، يصبغ وجه الأم بالزعفران والزنجفر، وذلك قصد محو الكلف الذي ظهر عليه. وحتى لا تصاب الأم بنزيف، يعلق حرز خطه "طالب" في فخذها الأيمن. كما تثبت أشرطة رابطة صغيرة حول السبابتين والذراعين والفخذين، وبعدها يمسد بطنها بكمادات شديدة البرودة بهدف تبريد دمها. وتروم الكمادات الباردة والأشرطة الرابطة كذلك منع الدم من السيلان"[١٨].

تستمر العناية بالأم النفساء إلى غاية اليوم السابع، وهنا يقومون بمساعدتها على الوقوف ووضع حزامها، وتقوم بارتداء ملابس جديدة مع وضع بعض الزينة مثل الكحل في العينين، والحركوس في انفها وبعض المناطق من شعرها، بالإضافة إلى القرنفل الذي يخلط مع إحدى العطور الجميلة "الزهر، أو الريحة" ويوضع فوق الاذنين وبجانب الرأس من اليمين واليسار "المدادغ"، كما تقوم بوضع مجوهراتها بمساعدة إحدى قريباتها.

"وعقبها، ينصب الاهتمام على المولود. توقد أولا شمعتان من الحجم الكبير متعددتا الألوان تم جلبهما من ضريح الولي الصالح الذي نذر له الطفل، وذلك ليكون فأل الطفل منيرا. ثم تنزع عنه ملابسه ليبقى عاريا تماما، وتمسكه الوالدة فوق طست، لتشرع القابلة في سكب الماء المطهر المجلوب مع الشمعتين من نفس الضريح. تصب السائل في البداية على يده اليمنى وجنبه الأيمن، ثم على اليد اليسرى والجنب الأيسر، وأخيرًا على الرأس وهي تقول: "ثمة في هذا العالم السفلي الحصبة، والسعال الديكي، والقوباء، والجدري، والسعفة، الخ، الخ...". وذلك بنية جلية ترمي إلى أن يجرف هذا التطهير معه جراثيم جميع هذه الأمراض وأن يعقم الوليد ضدها. وفي الطست حيث ينهمر الماء المطهر، ترمي صديقات ونساء العائلة قطعا نقدية فضية، مرفقة إياها بالحرمل والملح. ومن شأن هذه القطع الفضية تبييض فأل المولود، وهي تسمى "تبيضة"، لكنها تكون من نصيب القابلة في النهاية. أما الحرمل والملح، فيمنعان صغار الجن من الاستحمام في الطست خلال تنظيف الوليد، وإلا أصيب بمرض. وبعد النطق بأسماء الأمراض، تستحضر القابلة الأولياء المحليين، وخاصة الذي سيحمي الطفل من بينهم. ومع إنهاء التطهير، يتم التخلص من مياهه أسفل شجرة، وذلك قصد نقل الطاقة السحرية المتولدة عن تماسها بالمولود إلى الشجرة"[١٩].

في هذا اليوم، يتم دعوة أفراد العائلة، جيران، أصدقاء وبعض الفقهاء "أَلْطُلْبَة"، إلى حضور "حفل العقيقة أو السابع، هو مستهل المناسبات الاحتفالية التي يخص بها المجتمع الفرد خلال دورة حياته، وهو احتفال يقام يوم سابع ازدياد المولود. وتعد مناسبة حفل العقيقة أو السابع احتفالاً مزدوجًا؛ احتفال بالمولود، واحتفال بالأم الولود. الاحتفال بالأم التي اجتازت مرحلة الحمل عامة والمخاض خاصة فأنجبت ذرية، ولاحتفال بالمولود خلف السلف وضامن الاستمرارية..."[٢٠].

حفل السبوع هذا يكون بتسمية المولود، عبر ذبح خروف أو جدي، أو بعض الديوك، وتسمية الله أثناء الذبح ويردد اسم المولود أثناء عملية النحر ثلاث مرات، فاليوم "السابع عقب الوضع هو يوم تسمية الوليد. وهو كذلك يوم تطهيره وتقديمه لجن الدار الذين سيصبحون أصدقاء وحماة له. وتسمى هذه الطقوس مراسيم "الراحة"، أي شعائر تجاوز الفترة الخطيرة التي يكون، خلالها، بإمكان جميع القوى الخفية إيذاء الأم وطفلها"[٢١]. كما يتم إلباس الطفل ملابس جديدة بعد تبخيرها "بالجاوي" والملحة الحية، والحرمل وعبر إشعال شمعتين يتم إدخال الشمعتين من الأسفل وإخراجها من العنق طردًا للأرواح الشريرة[٢٢].

يكون الذبح "وقت الضحى الباكر حتى ينطق المولود باكرًا، كما يتم الحرص حين تنظيف كرش الذبيحة أن تضحك المنظفات حتى يضحك مبكرًا كذلك. يسمي الذابح الله ويكبر"[٢٣]، ليتم الشروع في إعداد المرق أو الكسكس مع قراءة آيات من القرآن الكريم، والدعاء للمولود بالصلاح، ويتضح الأمر أكثر من قول مصطفى الميموني؛ "بعد مرور سبعة أيام يقام حفل العقيقة، الذي يتم فيه ذبح كبش والإعلان عن اسم المولود، وهناك مَنْ يراعي في اختيار الاسم بعض المناسبات، فإذا ازداد المولود مثلاً في عيد المولد غالبا ما يسمونه مُولُود إذا كان ذكرًا ومُولُدة إذا كانت أنثى، وفي عيد الأضحى (العيد الكبير) يسمون الذكر عبد الكبير والأنثى: الكبيرة"[٢٤].

تقوم العديد من الأسر بذبح الذبيحة تجنبا لخطر الأرواح الشريرة، "وإذا كان الوالدان أو الأجداد على قيد الحياة، فالمولود لا يسمى باسمهم، أما إذا كان أحدهم متوفى، فالوليد يحمل اسمه احتراما لذكراه. وفي حالة وفاة والد الطفل والأخير في يومه السابع، يلقب الصغير باسم الأب مع إضافة لقب "خْليفة" (خَليفة)، ومن ثمة يصبح ينادى عليه "خليفة فلان" رغم أن هذا ليس اسمه الحقيقي"[٢٥].

وتتجلى العديد من الأهازيج التي يحضر فيها البعد الروحي المرتبط بالزاوية الشرقاوية وتأثيرها في سكان المنطقة على النحو التالي:

"أسيدي صالح والصلاح اللي فاتو
أبركة مولاي بوعبيد والعباد اللي فاتوا
أملات لوليد إعطيك أوليد في إوليد
هاك نبغيك يا أم الرجال تبقاي ديما غزال"[٢٦].

وأثناء ترديد هاته الأغاني يكون من حق الحاضرات تقبيله وإعطائه "الزرورة"، وقبل الطواف به على الحاضرات تقوم الأم أو القابلة بربط "سرة" وهي كيس صغير من الحرمل والشبة، ولوحة أحد "المحضرة" من اجل أن يكون قويا عليما، وعندما يستيقظ الطفل في الصباح أو خلال طيلة اليوم، ويبدأ بالبكاء تقوم الأم بترديد مجموعة من الأغاني التي تهدف إلى تسكين روعه:

- صْبَاحْ وْليدي صْبَاحُو
- مْيَاتْ نَاكَةْ في مْرَاحُوا
- بمْيَاتْ عَبدْ إسُوكْهَا
- وَمْيَاتْ خْدَمْ تْكُودْهَا.
- فْلانَةْ لالاهُمْ بالزِينْ فَايْتَاهُمْ.
- فْلانَةْ لالاهم بالسْمِيَةْ فَيْتَاهُمْ.
- كُوسْ كُوسْ كُوسْ أُمُكْ حَجْلَةْ أُبَاكْ فَرْكُوسْ.
- بالكْيَاسَةْ بالكْيَاسَةْ مُكْ فَيَاشَةْ.
- بَاكْ قْضيبْ الوَرْدْ مَنْ دَارْ إبْغيه.
- يكْبَرْ ويزيدْ يَاسيدي وزيد.
- شَبْ شَبينْ كُل نْهَارْ دْرَاعْ وُشَبْرينْ يا سيدنا جبريل.
- الله الله يالعالي يَالفُوكَاني.

كما أن الأم أثناء ترديدها لتلك الأغاني من الممكن أن تتطرق لأغاني أخرى تتنكر فيها للمرأة التي لا تحسن التصرف مثل:

- الله الله يالعالي يالفُوكَاني.
- المرة اللي تَنْضَغْ العْلَكْ وَالدُورْ عَدْ الجَارْ وَتْعَاوُدْ لخْبَارْ مَاتْخَلصْ وَخَا زينها يَقْطَعْ النار.
- الرحمة ياربي يالعالي لما شوف من حال وليدي.
- يالله يالي متوكل كلابها فين نتي رايحا.

عندما يتمم الرضيع أربعون يوما، يحلق رأسه من الجوانب، وذلك باختيار والدي الطفل أسرة غنية معروفة بجودها وكرمها في القبيلة أو الدوار أو من الأهل والأصدقاء، الذين يقومون بهذه العملية، عملية "ألحَلْقْ". بعد هاته العملية يتم خلط الحناء والماء ويضعونها على رأس الطفل، ويقومون بتمرير "سَبُولَةَ تَحْتْ ألصَوْفْ" على رأس الطفل ــة-، حتى لا يكون رأسه كبيرا "تْضُرْبُوا السُرَةَ" وإذا ما حدث هذا الأمر يأخذون الرضيع إلى رجل أو امرأة معرفة عائلته أو عائلتها بعلاج هذا الأم، وإذا أصيب بمرض، يتم أخذه عند فقيه "بَاشْ إسْبَبْ ليه"، ويعطي حجابا لأمه لتلصقه له بعنقه و"وَشْويَا شَبَةَ، أُو القُصبُرْ، وَالمَلحَةَ ألحَيَةَ" من أجل أن يبخر اتقاء العين[٢٧]، وتتضمن جريدة السعادة مقالا حول ولادة مولود بمدينة وادي زم تحت عنوان وادي زم مولود سعيد "رزق الله سبحانه القائد الهمام الفاضل السيد احمد ابن سيدي الحسن بنيس عامل بني سمير ووادي زم ولدا افتر له ثغره وفرح به هو وعائلته وأقام جنابه حفلة يوم سابع ميلاده حضرها الولاة والعمال والفقهاء والشرفاء ورجال السلطة المحلية. فنهنئ قائدنا بمولوده السعيد ونرجوا له دوام الأفراح"[٢٨].

لعل اهتمام جريدة السعادة بحفل ولادة الأطفال دليل على فرح الأسر وسعادتهم بولادة أطفال يخلفونهم ويملئون المنازل فرحًا وبهجة على والديهم، وألم الأطفال الم ومعاناة لآبائهم، ففي سياق الفرح بولادة الأطفال نجد مقالاً أخر يتضمن؛ "رزق الله تعالى الأديب السيد احمد بن مسعود الموظف بمراقبتنا بنية مباركة افترا لها ثغره وأقام يوم عقيقتها حفلة حضرها أعيان وموظفون. فنهنيه ببنيته ونرجو أن يجعلها الله مباركة سعيدة"[٢٩].

"وفي حالة وفاة طفل قبل بلوغ يومه الأربعين، فقميصه الأول يدفن معه. ويوم القيامة، والجو جد حار نظرًا لهبوط الشمس إلى السماء الأولى، يبلل الطفل، الذي يتحول إلى عصفور، قميصه هذا في عيون الجنة المنعشة ليبرد به جبين والده. ولا يجب البكاء على مولود جديد عند وفاته، ذلك أن فقدان ابن صغير عربون على عدم التعرض للحرق في العالم الآخر، علاوة على أن الدموع المذروفة عليه تتحول، يوم الحشر، إلى نهر يفصل نهائيًا الطفل عن والديه"[٣٠].

٢/١–طقوس الفطام[٣١]: يعرف الطفل خلال السنتين الأوليتين حدثا مهما، يعيشه كل طفل، وهو حدث الفطام، الذي يبتدئ بإعداد الأم "كُرصَةَ ديال ألْمَسَمْنْ"، وتأخذها إلى الفقيه الذي يكتب فوقها اسم الله، وتقوم بإلصاقها له في عنقه، أو إعطائها له لحملها، يأكل منها هو والأطفال الصغار حتى "يَتْقَاسْمُوا مْعَاهْ هَوْلْ ألْبِرْزُولَةَ"، بالإضافة إلى أن الأم تضع القَطْرَانْ، أو لاتُوخْ، أوْ حَرِيقَةَ، أوْ الإبْزَارْ على تدييها، حتى يشعر الطفل بالمذاق الحار أثناء الرضع. ويمنعون الأطفال الصغار من تناول "ألطَيْحَانْ"، لأنه يتسبب في ظهور "حَبْ ألْشْبَابْ عَلَى وُجُوهِهِمْ"، أما بخصوص الأطفال الذين يتأخرون في النطق، فإنه بحلول العيد الأضحى يتم طلب سبعة السن للبهائم، من الجيران، يطبخونها ويأكل منها هو والأطفال الصغار، حتى يتحدث مثلهم، أيضًا من الأحداث التي يعيشها الأطفال أثناء الصغر، هو إصابتهم بمجموعة من الأمراض، على سبيل المثال لا الحصر: بُوصُفَيْرْ، الذي يتم علاجه "بتَشْرَاطْ اليدين والرجلين" بُو حَمْرَونْ، وأيضًا يصابون بالسعال الذي يتم علاجه بقلي "ألزَعْتَر فِي الزَيْتْ" إذ يعملون على دهن جبينه وصدره "تَيْصَلْبُوا لِيهْ جَبْهْتُوا أو كَاشُوشُوا"، وأيضًا مرض "ألحُمْرَةَ" الذي يصبح من خلاله جسم الطفل "مُورْدَدْ"، ويتم علاجه من خلال "تْشْرَاطْ، أُو البَخَانْ بِالمَلْحْ"[٣٢].

صيغ قصيرة لحفظ أسماء الأصابع:

يعمل الوادزميون على توظيف مجموعة من الأساليب في عملية تعليم أبنائهم بعض ما يحتاجونه في حياتهم اليومية، ومنها أسماء الأصابع مثل؛

- صغير أو عاقل (الخنصر) سْرق البيضة.
- لباس الخواتم (البنصر) شواها
- الطويل أو خاوي (الوسطى) نقاها
- الشاهد (السبابة) كال لو فاين حقي
- كْبير الفُم (الإبهام) دار كَال لو: كْلاتوا لَمْشيشة.
- فاين المشيشة؟

تحت الزرب

- فاين الزرب؟"[٣٣].
- كالو حرقاتوا العافية
- كاليه فين العافية؟
- كاليه طفاها الما
- كاليه فين الما؟
- كاليه وردوا الثور
- كاليه فين الثور
- كاليه بشا مع الواد الواد تال بير العواد[٣٤].

خلال هاته العملية يدغدغ الحاكي إبط يد الطفل التي ظل ممسكا بها وهو يطوي كل إصبع ذكر اسمه[٣٥].

ثانيًا: طقوس حفل الطْهَارَة[٣٦]

"من بين أهم المناسبات التي يحتفل بها... نجد حفل الإعذار والذي يتم خلاله إحياء سنة الختان، وهي سنة نبوية شرعها الإسلام ولها فوائد صحية كثيرة"[٣٧]، كما يشكل حفل الختان[٣٨]، بوادي زم، حدثا بارزا ومهما، لما يعرفه من طقوس، إذ يعتبرونه محدد من محددات دخول الإسلام، ولعل هذا يتبين من خلال الأغاني التي يتم ترديدها.

يتم دعوة يوم الختان أعمام الطفل وأخواله، وبعض الأصدقاء، وذلك حتى يقدم أحدهم المساعدة "لِلْحَجَامْ". ولعل اسم الحجام أطلق على هاته العملية التي تسمى أيضًا "الحجامة" باعتبارها تسمية "آتية من اسم منفذ العملية وهو الحجام أي الحلاق وتسمى العملية أيضًا بـ "الطهارة". تبتدئ "الطهارة" أو "حجام" عادة بتحديد يوم إجراء العملية وتبدأ الاستعدادات لها قبل الموعد المضروب مع الحجام. حيث يقام طقس "الحناء" في الليلة قبل يوم الختان، وفي هذه الليلة تقدم المأكولات للمدعوين والمدعوات، وفي الغد يحمل الطفل على ظهر الحصان، ويلبس حينها الجلباب ويضع القب. وغالبا ما يركب خلفه خاله ليمسك بالحصان فيقال: "ما نطهر

ولدي حتى يجي خالو يركبو قداموا ويعطيه من مالو"(٣٩).

قبل الشروع في هاته العملية، يتم وضع الحناء في اليد والرجل اليمنى للطفل، ويتم إلباسه لباسا فضفاضا أبيض اللون، حتى يظهر في أجمل صورة ممكنة، ويظل هذا الطفل ما بين يدي العم والعمة والخال والخالة وأيضًا الجدة والجد، يلعبون معه يد تلتقفه من يد إلى أن يصل "أَلحَجَامْ". يضعون بقرب الطفل قالب سكر، ودَزَةَ دْيَالْ الصُوفْ، باعتبارها عادة مهمة بالنسبة للسكان في المنطقة، تقوم عبر وضع ما سبق بجوار الطفل إن لم يكن له إخوة قد سبق ختانهم.

عندما يصل "الحجام"، يخرج ويهيئ أدواته من حقيبته، يحمل أحد الأقارب الطفل على أصوات زغاريد تطلقها النساء في المنزل بعد لباسه "بذلة بيضاء(جلباب) ويتم جمع بعض الأعشاب (الحرمل، القزبر، الملح) وتجمع في قطعة من الثوب وتعلق في عنق الطفل"(٤٠)، ويقوم احدهم يحضر "غُربَالْ عَامَرْ بْرِيوْا تَاعْ أَلغْلَمْ" موضوعة فيه بيضة، "ليستعمل بعض حبات البريو المناسبة-(والتي يختارها بنفسه من حبات القصعة)- في عزل تمرة العضو عن الجزء المراد قطعه، ويجلس إلى جانب "لمعلم" فتيان قويان يمسكان بالصبي جيدًا.

وبعد عملية التمسيد اللازم وإدخال حبة "البَريوْ" في مكانها المناسب يقول "لمعلم" للطفل انظر إلى ذلك الفرخ في السماء وعندما يرفع الطفل رأسه للسماء يكون المقص الحاد قد فعل فعلته"(٤١)، وأثناء عملية الختان تلهي القريبات الأم بالغناء من خلال تلبيسها "قُفْطَانْ"، ويقومون بمشط شعرها "تَيْسَوْلفُوهْ بِكْرَيْشَاتْ أَلنَقْرَةَ"، ويغطونها كاملة بإيزار كما لو أنها عروس، يقول عنها سكان المنطقة "تَيْدَرْزُوْا أُمْ دْرِي"، "وتضع رجلها اليمنى في قصعة مملوءة بالماء لكي لا يخاف أو يتألم طفلها"(٤٢)، وتعمل النساء على غناء مجموعة من الأغاني يمكننا ذكر بعضها على النحو التالي:

*وَمَنْطَاهَرْ وْلِيدِي تَيْجِي خَالُوا
*وَمَنْطَاهَرْ وْلِيدِي تَيْجِي خَالُوا.
*وَمَنْطَاهَرْ وْلِيدِي تَيْجِي خَالُوا.
*وجِيبْ لُوْ نَاكَةَ بَيْضَا تْزِيدْ فِي مَالُوا.
*وجِيبْ لُوا نَاكَةَ بَيْضَا تْزِيدْ فِي مَالُوا.
*وجيبْ لُوا نَاكَةَ بَيْضَا تْزِيدْ فِي مَالُوا
*هَاكْ يَلالَةَ وْشَدْ يَلالَةَ أُو زَيْنْتْ أُوْلِيدِي أُو حَيْدَتْ أَللوْمَةَ عْلِيَا.
*هَاكْ يَلالَةَ أُو شَدْ يَلالَةَ أُو زَيْنْتْ أُولِيدِي أُو حَيْدَتْ أَللوْمَةَ عْلِيَا.
*هَاكْ يَلالَةَ أُو شَدْ يَلالَةَ أُو زَيْنْتْ أُولِيدِي أُو حَيْدَتْ أَللوْمَةَ عْلِيَا
*رَطْبْ إيدْكْ يَالحَجَامْ رَطْبْ إيدْكْ إرْحَمْ بَابَاك.
*رَطْبْ إيديكْ يَالحَجَامْ رَطْبْ إيدْكْ أَرْحَمْ بَابَاكْ.
*رَطْبْ إيدْكْ يَاْلحَجَامْ رَطْبْ إيدْكْ إرْحَمْ بَابَاكْ.
*وَطَالْعَا مَنْ أَلغْمَامْ كيفْ أَلكَمْرَا هَا لالَةَ وَسَالْفْهَا مَرْشُوشْ بِأَلعَطْرِيَةَ هَالالَةَ.
*وَطَالْعَا مَنْ أَلغْمَامْ كيفْ أَلكَمْرَا هَا لالَةَ وَسَالْفْهَا مَرْشُوشْ بِالعَطْرِيَةَ(٤٣).

انطلاقًا مما سبق؛ فـ "عندما يرتفع صراخ الطفل مدويا من شدة ألم استئصال هذا الجزء من عضوه التناسلي، تشدد النسوة اللائي يقبعن خلف "غرفة العمليات" من عزفهن وغنائهن وصلاتهن على النبي (الصلاة والسلام على رسول الله لا جاه إلا جاه سيدنا محمد الله مع الجاه العالي)، وترى ريسو أن مهمة هذا الإنشاد والموسيقى المصاحبة له هي إبعاد الأرواح الشريرة المترصدة وصرف انتباهها عن حالة الضعف التي يوجد فيها الصبي الختين. وفي هذه اللحظة يكون الصبي قد طهر وانتقل إلى عالم الرجولة، لقد استبدل قلفته بالرفاهية. وتؤكد المراقبة الذكورية المحضة في إنجاز هذه العملية من جهة، وتحمل الصبي الختين للألم من جهة ثانية، الطابع الإعدادي لطقس الختان"(٤٤).

أثناء ترديد هاته الأغاني يتم إرجاع المرأة، عن طريق المشي للخلف "لَوْرَانِيَةَ"، إلا أن يقول لها قريباتها "دُورْ"، عندما تدور تقوم بـ"أَلعَسْفْ عْلَى أَلبَيْضَةَ". وتجلس ممسكة ابنها "مطأطأة الرأس وسط النسوة المتحومات حولها، ويوضع فلذة كبدها الجريح في حجرها، ثم تنخرط في البكاء إشفاقا عليه من هذه التجربة الدموية المؤلمة. ويرمز هذا البكاء حسب البعض إلى فقدان الأم لطفلها الذي أصبح رجلا"(٤٥).

دون إغفال أن الأم تضل ملتهية بمحاولة إسكاته من البكاء، كما تفعل ذلك النساء الحاضرات من خلال إعطائه قطعا نقدية حتى يسكت، كما "يوضع الطفل فوق ظهر أمه لتذهب به إلى الخيمة المقابلة لخيمتها: ولعلها كانت في الأول خيمة أخيها خال الصبي. وهي تغني مع زميلاتها: فين خيمة خي فين هي نمشي ليها. وفي الخيمة التي تدخلها يُحَنُّون لطفلها ويقدمون لها السكر الأبيض رمزا لبياض السعد وحلاوته. ثم ترجعه إلى خيمتها بالغناء والتطبيل فتضعه وتغطيه بشقتها. وتقدم له رأس بصل يعضه ثم يقدموا له لحمة بوعكاف ليعضها أيضًا. بينما يقوم أحد أصدقائه بخطفها من يده. تبدأ عملية الزرورة أي تقديم الهدايا للطفل وتهنئة أهل البيت على نجاح الحفل والعملية. فالوداع"[٤٦].

كما يتم إعداد وجبة غداء يتم تناولها من طرف الحجام ومن الأقارب، وبعدها ينصرف الحجام بعد أن تعطيه عائلة الطفل "لْوَايَةْ دْيَالْ سبُولْ أوُ قَالْبْ سكر، ومعه الرجال الأقارب، في حين تبقى النساء، حتى يتناولن وجبة الغداء هن الأخريات، ثم بعدها كل واحدة تذهب في طريقها، في حين تبقى الأم معتنية بابنها ومراقبة إياه حتى لا يمس الثوب جرحه ويتسبب له في نزيف، وذلك هو حالها في الليل أيضًا. كما تقوم باستقبال جاراتها اللواتي يأتين إليها في يوم الطهارة، حيث يتم إحضار الأكل من روز ومرق وغيرها، ويقومون بإعطاء الأم "ألبْيَاضْ". "وعادةً ما يأخذ الأب طفله (قبل سن الرشد) إلى المسجد ويهيئه للقيام بالصوم. يظهر الأب والأم على حد سواء عطفهما وحنانهما تجاه الأبناء، لكن بمجرد ما يصل الابن سن البلوغ يكف الأب عن إظهار حنانه، بينما تستمر الأم وحدها في إظهاره نحوه بصورة علانية. وهكذا يطور الأبناء مع أمهاتهم علاقات قوية من العاطفة المعلنة، إذ غالبا ما تفضل الأمهات المطلقات أو الأرامل العيش مع أبنائهن وتنتظرن منهم المساعدة المادية والمعنوية. ومن السائد اعتقاده، أن الأب إذا استمر في إظهار عاطفته وحنانه تجاه ابنه، فإن الابن سيصبح "طريا كالمرأة" بعد أن يبلغ الرشد، ويسمح للآخرين بالسيطرة والهيمنة عليه. وهكذا يعامل الأب ابنه معاملة يغلب عليها الطابع الرسمي والقسوة "(قاصح بالدارجة في الأصل)"[٤٧].

ثالثًا: حفل السلكة والمعروف[٤٨]

"يُعَدّ الاحتفال بالأطفال الذين أتموا حفظ القرآن تقليدًا متوارثًا يتضمن أبعادًا ودلالات تعكس تميز المغاربة وتفردهم في الفرح والتشجيع، ومناسبة حظي خلالها الأطفال المتوجون باحتفال شعبي بهيج تنشد فيه الأمداح وتزخرف لوحة الختم بألوان زاهية وتكتب عليها آيات قرآنية كريمة بخط جميل، وقد عبر عبد الواحد الراضي في مذكراته عن تقدير المغاربة وتبجيلهم للأطفال حفظة القرآن وتشجيعهم بالهدايا في جو من المرح بقوله: لا أنسى احتفالية حفظ القرآن، وحرص العائلات على تحفيز الأطفال بالهدايا والغناء الجميل، (طه والحولي مربوط حداها) وفقيه المسيد في أجمل لحظاته، إذ تغمره هو أيضًا الهدايا والعناية السخية"[٤٩].

شكل تعليم القرآن الكريم أحد أهم القضايا الأساسية بالنسبة للوادزاميين، وهذا حال كل المغاربة، وهو ما يتضح من قول فاطمة إزم؛ "شكل تعليم القرآن وحفظه أساس تربية الذكور في المجتمع المغربي، وكان المغاربة يولون مكانة خاصة للفقيه المشارط في الكُتاب الذي يعرف بالمسيد، ودأب سكان (وادي زم) على تنظيم، مثل جميع المغاربة، حفل ديني عندما ينهي أحد أبنائهم حفظ سورة "الرحمن" أو "طه"، أو حفظ القران الكريم حفظا تاما، وذلك إكراما لكتاب الله وللفقيه"[٥٠]، وتسمى بالسلكة "خرج السلكة"، وتتم عبر الكتابة في اللوحة "زوقو لو الويحة" من أجل أن يأخذه المحضرة لبيته ليفرح والده وأمه بحفظه، ويتم تزويق اللوحة باستعمال "السمخ"، ويمسك الطفل من أذنيه مع ترديد؛

حذق حدذق يا يوه سعدا تمو وبوه
علم هاذ الصبي ببركة النبي
بيضة بيضة الله باش نزوق لوحتي
لوحتي عن الطالب والطالب في الجنة
والجنة محلولة حللها مولانا
محمد وصحابوا في الجنة يتصابوا[٥١].

كما أن المحظرة الذين يصلون الى ٢٠ أو ٣٠ طفل، أثناء اقتراب عيد من الأعياد "العواشر" يقومون بالتجول في القبيلة بطلب من الفقيه الذي يدرسهم حاملين

ألواحهم منتقلين من منزل الى منزل لأخذ ما جادت به الأسر عليهم من دجاج وبيض ونقود لتعطى للفقيه(٥٢).
وبعد إتمام الطفل لحفظ القرآن الكريم يتم إعداد طقس يسمى "المعروف" الذي يتم ببناء الخيمة في الكاعة وإعداد الكسكس بعد ذبح خروفين فرحا بذلك، وهناك من الأسر من درست ابنين القرآن الكريم في وقت متزامن(٥٣). يتم نسج زربية للفقيه الذي درس الطفلين وسلهام، يوضعان أمام باب الخيمة إشارة الى الفقيه أنه إن نجحا الطفلين في الاختبار أمام أفراد الجماعة وفقهاء القبيلة سيحصل عليهما الى جانب خروف سمين مجهز لذلك، دون إغفال أن الطفل أو الطفلين الحافظين للقرآن الكريم يتم نسج جلبابين لهما من طرف أمهما فرحا بهما وإعدادا لهما ليدخلا مرحلة "تطالبيت"، أي أن يصبحوا طلبة حاملين لكتاب الله تعالى(٥٤).

بعد تناول وجبة الغذاء يتم امتحان الطفل الحافظ للقرآن الكريم أمام فقهاء القبيلة ومقدم الفقهاء "مقدم الطلبة" أي امتحان مدى تمكن الطفل من حفظ القرآن الكريم، بعد اجتياز الامتحان بنجاح يحصل الفقيه على الهدايا التي جهزت له بهذه المناسبة، والجدير بالإشارة أن الفقيه الذي علمهم لا يتحمل مسؤولية امتحانهم، بل تعطى هذه المهمة لمقدم الطلبة، باعتباره رئس الفقهاء "الطلبة"(٥٥).

خَاتِمَةٌ

يُعَدّ التراث الثقافي اللامادي جزءًا لا يتجزأ من هوية الأفراد والجماعات، فكان المعبر عن ما يخالجهم من أفراح وأتراح، وعلى اعتبار أن الطفل يشكل وريث العائلة والضامن والمحافظ على استمرارية نسلها، كانت ترافقه منذ أن كان جنينا في البطن إلى أن كبر وتعلم القرآن الكريم مجموعة من الطقوس والاحتفالات، التي تبرز قيمته ومكانته، فكان الاهتمام بهذا الموضوع في سياق الاهتمام بتاريخ وتراث وادي زم وقبائلها السماعلة، بني سمير، بني خيران، التي لا زالت إلى اليوم تحافظ على هذه العادات والتقاليد التي تشكل مرآة عاكسة لثقافة الإنسان.

الملاحق:


صورة رقم (١)


صورة رقم (٢)


صورة رقم (٣)


صورة رقم (٤)

مصدر الصور: كاتب المقال

الاحالات المرجعية:

(١) انظر: محمد عابد الجابري، **التراث والحداثة دراسات..ومناقشات**، الطبعة الأولى، بيروت، تموز/ يوليو ١٩٩١، ص. ٤٥.

(٢) المرجع نفسه، ص. ٣٨.

(٣) انظر: مريم أمشغال، **ملامح من التراث اللامادي لقبيلة إد براهيم**، (ص ١٢٩- ١٤٢)، كتاب جماعي **واحة تغجيجت: المجال، التاريخ، التراث، والمجتمع**، أشغال الندوة العلمية حول: واحات تغجيجت بين الغنى الطبيعي والثقافي وآفاق الاستدامة المنعقدة يوم ١٤/١٠/٢٠١٧، تنسيق: رشيد صديق، تقديم ومراجعة: حسن حافظي علوي، الطبعة الأولى ٢٠٢٢، ص. ١٢٩.

(٤) انظر: مصطفى الميموني، **جوانب من التراث الثقافي بمجال بني مسكين**، (ص ٣٧، ص٤٩)، التراث الثقافي اللامادي بالشاوية، الملتقى الثالث حول تراث وأعلام الشاوية جماعة بني خلوق- دائرة البروج إقليم السطات، إشراف وتحرير: شعيب حليفي ورياض فخري وخالد سرتي، نشر جامعة الحسن الأول بسطات، الطبعة الأولى ٢٠١٩، ص. ٣٩.

(٥) انظر: أحمد الشرقاوي –البزيوي-، **ورقات من تاريخ أبي الجعد: المدينة-الزاوية خلال الفترة ما بين ١٨٩٤ م- ١٩٥٦م**، نشر دار الثقافة، الطبعة الثانية ٢٠٢١، ص. ١١٥-١١٦.

(٦) انظر: الدكتورة ليجي، **المعتقدات والطقوس الشعبية للمغاربة قبل مئة عام**، ترجمة: سعيد عاهد، نشر دار القلم العربي للنشر والتوزيع بلوك ج رقم ١٠٩ المغرب العربي القنيطرة- المغرب، الطبعة الأولى: ٢٠٢٢، ص. ١٢٥.

(٧) انظر: سعاد زبيطة، **النساء المغربيات زمن الاستعمار ١٨٣٠-١٩٦٢ الموروثات والمتغيرات**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى ٢٠٢٠، ص. ٨٠-٨١.

(٨) انظر: **السعادة**، ٢٦ غشت ١٩٥٥، العدد ٩٤٥٨.

(٩) انظر: **الجريدة الرسمية** عدد: ٢٢١٤ ص: ٨٩٤.

(١٠) انظر: صطفى الميموني، **جوانب من التراث الثقافي بمجال بني مسكين**، (ص ٣٧، ص٤٩)، **التراث الثقافي اللامادي بالشاوية**، الملتقى الثالث حول تراث وأعلام الشاوية جماعة بني خلوق-دائرة البروج إقليم السطات، إشراف وتحرير: شعيب حليفي ورياض فخري وخالد سرتي، نشر جامعة الحسن الأول بسطات، الطبعة الأولى ٢٠١٩، ص. ٣٩.

(١١) انظر: الدكتورة ليجي، م. س، ص. ١٢١.

(١٢) انظر: طليح عبد العزيز، **إبقوين نبش في الذاكرة دراسة اثنوغرافية**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ٢٠١٦، ص. ١٤٠.

(١٣) انظر: أحمد الشرقاوي –البزيوي-، **ورقات من تاريخ أبي الجعد: المدينة-الزاوية خلال الفترة ما بين ١٨٩٤م - ١٩٥٦م**، نشر دار الثقافة، الطبعة الثانية ٢٠٢١، ص. ١١٦

(١٤) انظر: **رواية شفهية للسيدة ميمونة الوراق**، يوم ٢٥/٠٨/٢٠١٧، على الساعة ١٦:٣٠.

(١٥) انظر: **رواية شفهية للسيدة فاطنة الجوراني**، يوم ٠٩/١٢/٢٠٢٢، على الساعة ١٤:١٩.

(١٦) انظر: **رواية شفهية للسيدة جمعة الصافي**، يوم ٠٩/١٢/٢٠٢٢، على الساعة ١٤:٢١.

(١٧) انظر: الدكتورة ليجي، م. س، ص. ١٢٨.

(١٨) انظر: المرجع نفسه، ص. ١٢٩.

(١٩) انظر: الدكتورة ليجي، م. س، ص. ١٣٦.

(٢٠) انظر: عبد العزيز طليح، م. س، ص. ١٣٩.

(٢١) انظر: الدكتورة ليجي، م. س، ص. ١٣٣.

(٢٢) انظر: **رواية شفهية للسيدة فاطنة الجوراني**، يوم ١٥/٠٧/٢٠٢٢، على الساعة ١١:٤٧.

(٢٣) انظر: عبد العزيز طليح، م. س، ص. ١٤١.

(٢٤) انظر: صطفى الميموني، **جوانب من التراث الثقافي بمجال بني مسكين**، (ص ٣٧، ص٤٩)، **التراث الثقافي اللامادي بالشاوية**، الملتقى الثالث حول تراث وأعلام الشاوية جماعة بني خلوق- دائرة البروج إقليم السطات، إشراف وتحرير: شعيب حليفي ورياض فخري وخالد سرتي، نشر جامعة الحسن الأول بسطات، الطبعة الأولى ٢٠١٩، ص. ٤٠.

(٢٥) انظر: الدكتورة ليجي، م. س، ص. ١٣٣.

(٢٦) انظر: محمد الشرقاوي –البزيوي-، **ورقات من تاريخ أبي الجعد: المدينة- الزاوية خلال الفترة ما بين ١٨٩٤ م- ١٩٥٦م**، نشر دار الثقافة، الطبعة الثانية ٢٠٢١، ص. ١١٦.

(٢٧) انظر: **رواية شفهية للسيدة ميمونة الوراق** يوم ٢٥/٠٨/٢٠١٧، على الساعة ١١:٣٢.

(28) Regarder : ES-SAADA, Samedi 9 Février 1952, N 8374. (السبت ٥ جمادى الأولى عام ١٣٧١، ٢ فبراير ١٩٥٢)

(٢٩) انظر: **السعادة**، الثلاثاء فاتح جمادى الأولى عام ١٣٧١، ٢٩ يناير سنة ١٩٥٢، العدد ٨٣٦٤.

(٣٠) انظر: الدكتورة ليجي، م. س، ص. ١٢١-١٢٢.

(٣١) يقول الله عز وجل: "وَالْوَلِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أن يُتِمَ الرَضَاعَةَ". سورة البقرة، الآية: ١٥

(٣٢) انظر: **رواية شفهية للسيدة فاطنة الجوراني**، يوم ٢٥/٠٨/٢٠٢٣، على الساعة ١١:٣٧..

(٣٣) انظر: الدكتورة ليجي، م. س، ص. ١٦٦-١٦٧.

(٣٤) انظر: **رواية شفهية للسيد الحاج عزوز الصافي**، يوم ١٥/٠٧/٢٠٢٢، على الساعة ١٢:٣٤.

(٣٥) انظر: الدكتورة ليجي، م. س، ص. ١٦٧.

(٣٦) يقول الله عز وجل: "وإدا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن دريتي قال لاينال عهدي الظالمين". (٣٦) سورة البقرة، الأية: ١٢٤. عن أبي هريرة "رضي الله عنه" قال: سمعت رسول الله يقول: (الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط).

(٣٧) انظر: زكرياء اكجدول، طاطا: **المجال، الإنسان والتاريخ ما بين (١٨٧٣-١٩٥٦) دراسة منوغرافية**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى ٢٠٢٠، ص ١٤٥.

(٣٨) قال عبد الله بن عباس "رضي الله عنهما": ابتلاه الله بالطهارة: خمس في الرأس، وخمس في الجسد: في الرأس: السواك، والاستنشاق، والمضمضة، وقص الشارب، وفرق الرأس وفي الجسد خمسة: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، والاستنجاء من الغائط، والبول، ونتف الإبط.

(٣٩) انظر: محمد الشرقاوي –البزيوي-، **ورقات من تاريخ أبي الجعد: المدينة- الزاوية خلال الفترة ما بين ١٨٩٤ م- ١٩٥٦م**، نشر دار الثقافة، الطبعة الثانية ٢٠٢١، ص.١٢.

(٤٠) انظر: مصطفى الميموني، **جوانب من التراث الثقافي بمجال بني مسكين**، (ص ٣٧، ص٤٩)، **التراث الثقافي اللامادي بالشاوية**، الملتقى الثالث حول تراث وأعلام الشاوية جماعة بني خلوق- دائرة البروج إقليم السطات، إشراف وتحرير: شعيب حليفي ورياض فخري وخالد سرتي، نشر جامعة الحسن الأول بسطات، الطبعة الأولى ٢٠١٩، ص. ٤٠.

(٤١) انظر: مصطفى عربوش، **من تاريخ منطقة إقليم تادلة وبني ملال، مكتبة الطالب ١٤٠٩-١٩٨٩**، الطبعة الأولى أبريل ١٩٨٩، ص. ٢٢٩.

(٤٢) انظر: مصطفى الميموني، م. س، ص. ٤٠.

(٤٣) انظر: **رواية شفهية للسيدة فاطنة الجوراني**، يوم ٢٠٢٣/٠٨/٢٥، على الساعة ١١:٤٤.

(٤٤) انظر: عبد الغني منديب، **الدين والمجتمع دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب**، أفريقيا الشرق ٢٠١٠ - الطبعة الثانية، ص. ١٦٧.

(٤٥) انظر: المرجع نفسه، ص. ١٦٨.

(٤٦) انظر: مصطفى عربوش، م. س، ص. ٢٢٩-٢٣٠.

(٤٧) انظر: ديل إيكلمان، **الإسلام في المغرب**، ترجمة: محمد أعفيف، رؤية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠١٥، ص. ٢٢٣.

(٤٨) انظر: **واية شفهية للسيدة حدهم الغرودي**، يوم ٢٠٢٢/٠٧/١٤، على الساعة ١١:٣٠.

(٤٩) انظر: قاسم الحادك، **جوانب من التسلية والترفيه في مغرب الحماية من خلال المذكرات والسير**، (ص. ٩٧ إلى ص١٢١)، كتاب **التسلية والترفيه في تاريخ المغرب**، إعداد وتنسيق: خالد سرتي/ جلال زين العابدين، نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك بالدار البيضاء، مطبعة force equipement، ٢٠٢٢، ص. ١٠٥.

(٥٠) انظر: فاطمة إزم، **طقوس الاحتفال والفرح في قبائل الشاوية**، (ص ٦١، ص٧٦)، **التراث الثقافي اللامادي بالشاوية**، الملتقى الثالث حول تراث وأعلام الشاوية جماعة بني خلوق-دائرة البروج إقليم السطات، إشراف وتحرير: شعيب حليفي ورياض فخري وخالد سرتي، نشر جامعة الحسن الأول بسطات، الطبعة الأولى ٢٠١٩، ص. ٦١.

(٥١) انظر: **رواية شفهية للحاج عزوز الصافي**، يوم ٢٠٢٢/٠٢/٠٥، على الساعة؛ ٧:٤٩٠.

(٥٢) انظر: **رواية شفهية للحاج عزوز الصافي**، يوم ٢٠٢٢/٠٢/٠٥، على الساعة؛ ٧:٤٩٠.

(٥٣) راجع: ابني الحاج حمد الصافي رحمه الله واسكنه فسيح جناته؛ الحاج عزوز الصافي واخوه العربي الصافي، رواية شفهية للحاج عزوز الصافي يوم ٢٠٢٢/٠٢/٠٥.

(٥٤) انظر: **رواية شفهية لسي محمد ولد الحسين**، يوم ٢٠٢٢/٠٢/٠٦، على الساعة ١٠:٠٠.

(٥٥) انظر: **رواية شفهية للحاج عزوز الصافي**، يوم ٢٠٢٢/٠٢/٠٥، على الساعة؛ ٧:٤٩٠.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

يهود الأطلس والريادة الاقتصادية والمالية في مغرب ما قبل الاستعمار



د. عبد الغني العمراني
باحث في التاريخ المعاصر
أكاديمية الدار البيضاء
سطات – المملكة المغربية

مُلَخّص

تروم هذه الدراسة إبراز مختلف الأنشطة الاقتصادية والمالية التي مارسها يهود مدن الأطلس وقراه خلال فترة ما قبل الحماية الفرنسية على المغرب، وهي دراسة تاريخية تعالج موضوعًا لم يحظ –فيما نعلم–بأي أهمية على الأقل من طرف الباحثين المغاربة، فباستثناء بعض الدراسات القليلة جدا التي تناولت موضوع الأنشطة الاقتصادية والسياسية ليهود مدن الساحل المتوسطي والأطلنتي، تبقى الدراسات الأخرى التي عالجت الموضوع ذاته عند يهود مدن الدّاخل من طرف بعض الباحثين الأجانب مكرسة بشكل أساس لدراسة جانب محدد من حياة يهود مدينة بعينها دون غيرها، لذلك لم نجد مندوحة عن التعويل على النص الرحلي أو النص الاستشراقي في دراسة هذا الموضوع من جميع جوانبه، والاستعانة في بعض الأحيان بالكتابات اليهودية والمحلية التي عرّجت على ذكر الموضوع المعني بالدراسة في بحر تناولها لموضوع يهود المغرب بصفة عامة. وقد توصلت الدراسة إلى أن الجماعة اليهودية بالأطلس المغربي خلال فترة ما قبل الاستعمار مارست أنشطة اقتصادية متعددة ومتنوعة، ارتبطت بعضها بالظروف الطبيعة والمناخية للمنطقة، وارتبطت أخرى بإقبال الساكنة المحلية على بعض السلع والمنتجات الخاصة، واستطاعت بفضل مهارتها الفائقة وذكائها الحاد أن تراكم ثروات ضخمة أمسى معها عدد من أفرادها تجارًا كبارا، وصُنّاعًا أطبقت شهرتهم الآفاق، وصيارفة لا يُستغنى عنهم من قِبل جيرانهم المسلمين الذين كانوا يقترضون منهم المال عند الحاجة، بل حتى القبائل المغربية، والشخصيات الوازنة، والسلاطين أنفسهم كانوا يضطرّون إلى الاستدانة منهم زمن المحن والشدائد، مثلما فعل على سبيل المثال السلطان مولاي عبد العزيز، حينما استفحلت الأزمة في عهده، وتراكمت عليه الديون، وفشل «الترتيب»، فلم يجد مندوحة عن طلب القروض من تجار يهود فاس.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٨	يوليو	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	٣٠	أغسطس	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

يهود الأطلس؛ المخزن؛ النشاط التجاري؛ تاريخ الأقليات الدينية؛ المغرب الأقصى؛ التاريخ المغرب الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.239555 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الغني العمراني. "يهود الأطلس والريادة الاقتصادية والمالية في مغرب ما قبل الاستعمار".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ١٥٣ – ١٦٥.

Corresponding author: pr.ghaniho@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

قدّم يهود الأطلس أنموذجًا متفردًا في التدبير الجيد والمعقلن للأنشطة الاقتصادية والمالية، وهو ما جعلهم عنصرا متميزا لا يمكن بأي حال من الأحوال الاستغناء عنه سواء من طرف المخزن المغربي أم من طرف جيرانهم المسلمين. فقد امتهن يهود مدن وقرى جبال الأطلس مختلف أنواع الأنشطة الاقتصادية كالصياغة، والزراعة، والبناء، والتجارة بمختلف أشكالها، بيد أن هذا النشاط الأخير شكل أبرز الحقول الاقتصادية التي استرعت اهتمامهم منذ استقرارهم في البلاد أول مرة، ويرجع سبب تركيزهم على هذا النشاط بالأساس إلى درايتهم الواسعة بشؤون التجارة الدولية، وبتقنيات الحساب اللازمة في هذا الميدان، وباللغات الحيَّة، وتوفرهم على رؤوس الأموال خاصة بعد قدوم الميغوراشيم (يهود الأندلس والبرتغال)، ومحافظتهم على علاقات بيهود أوروبا. وبفضل النشاط التجاري المكثف ذاع صيت عدد من التجار اليهود في هذه النواحي، وأطبقت شهرتهم الآفاق ليتبوَّأ عدد منهم مكانة بارزة لدى المخزن المغربي كوسطاء تجاريين بينه وبين الدول الأوروبية، وذوي خبرة في إنجاز «الصفقات» وإدارة المعاملات التجارية، وكسفراء لقضاء أغراض السلاطين وحلِّ المتوتر من العلاقات، كما عمد السلاطين أيضًا إلى تعيِّن عدد منهم كمستشارين ووزراء، وغيرهما من المناصب المؤثرة في الدولة، وسمحوا لهم أيضًا باستثمار أموال الدولة في تجارة الوسق والاستيراد على الخصوص. تحاول هذه الدراسة استجلاء مختلف الأنشطة الاقتصادية والمالية التي مارسها يهود مدن وقرى جبال الأطلس، بالتركيز أساسًا على الكتابات الأجنبية والإنجليزية منها وجه الخصوص، بالنظر إلى ندرة الدراسات والأبحاث المغربية التي تناولت الموضوع بجدية.

أولاً: أهم الموارد الاقتصادية ليهود الأطلس

من المعلوم أن الحياة الاقتصادية عند الجماعات اليهودية المغربية تتنوع تبعًا للأزمة والأمكنة، وإن كلّ محاولة تهدف إلى جعل هذه الحياة ذات نمط موحد ستكون بالتأكيد محاولة متعسِّفة[١]. ففي الأدبيات اليهودية، فإن القيادة الروحية والدنيوية توجد بين أيدي أولغارشية، وهي فئة منحدرة من عائلات أرستقراطية عريقة من أصل أندلسي في غالبيتها (طوشافيم)، ومن هذه الفئة يتم انتقاء الفقهاء البارزون «نكيديم» والوجهاء الذين يرتقون أحيانًا إلى مراتب رسمية سامية، وهم من يراقبون القروض والأعمال التجارية الكبرى الداخلية والخارجية ويمولون الحرف المحلية ومجهزو الجيش، ويستحوذون على رؤوس الأموال، وتربطها علاقات مع المخزن، وكانت لها وسائلها الخاصَّة للحصول على المعلومات ذات الطابع الاقتصادي بفضل من كانت تتصل بهم من مراسلين دوليِّين، وكانت تحتكر تصدير المواد المحلية (الحبوب، الجلد، الفرو، والشمع)، وتختص باستيراد مختلف مواد التموِّين والنسِّيج، وهؤلاء التُجَّار الكبار هم الأكثر تشددًا في معاملاتهم التجارية مع بني جلدتهم مثل تجار التقسِّيط الصغار وأصحاب الدكاكين في الملَّاح أو السوق (السوَّاقة) والمتجولين ببضائعهم في البوادي، ولا تشكل هذه البلوتوقراطية البورجوازية إلَّا فئة قليلة داخل المجتمع اليهودي، بينما تعيش الأغلبية السَّاحقة من السكان من التجارة الصغيرة والحرف وبيع البضائع المتنقلة ومن الوظائف الدينية –التعليمية ومن الزراعة [٢]في بعض الأماكن القروية[٣].

هذا فضلاً عن اشتغال هذه الفئة الأخيرة بمدن الأطلس، وخصوصًا بمدينة فاس بـ«تصريف الفلوس بالدراهيم...، وصنع قراشيل الصوف والحجامة والحرارة وتباقلت وبيع اللبن...، وحرفة النجارة وصنع.....، اللجم وخرازة البالي...، والصبغ والنحاس...، والدِّباغة وبيع القنب وغزله [وبيع الكتان وشجره]»[٤]، وبيع الحرير والفخار والأسلحة والسروج المطرَّزة والقيام بأعمال الصاغة[٥]، ويقومون أيضًا بصناعة خيط الذَّهب –تسكاليك- وكانت الصناعة قائمة بالملاَّح، وهي ذات دخل وفير تضمن عيش عددًا كبيرًا من الأسر اليهودية، وهي متوارثة منذ عصور عديدة، وكانت الصناعة بفاس قائمة بالأساس على الذهب والفضَّة والحرير، ويُشرف عليها ما يسمُّونهم بـ«المعلمين» الذين يقومون بجلب المواد الأساسية، ويوزعونها على الحرفيِّين الفاسيِّين المتخصصين في صناعتها[٦].

وهي نفس الإفادات التاريخية التي أوردها المستكشف والجغرافي الألماني فريدريش جيرهارد رولفز Friedrich Gerhard Rohlfs (ت.١٨٩٦م) في مؤَلفه «مغامرات في المغرب» حيث آتى فيه على ذكر صناعة الذهب والفضة بمدينة فاس، وخصَّ بها اليهود دون غيرهم إلى جانب صناعة ملابس النساء وخواتم الأصابع والأساور والخلاخل النحاسية والفضية وسك النقود[٧]،بالإضافة إلى ذلك عمد يهود فاس إلى ابتكار صناعة جديدة مذهلة، حيث تمكنوا من استخراج شراب من التين يسمى «الماحيا» الذي يُستهلك كثيرًا ليس من طرف الرجال وحسب، وإنما حتَّى من قِبل النساء اللواتي يعرفن تمامًا طعم هذا السائل القوِّي، وكل هذا جعل شؤونهم التجارية تشهد ازدهارًا[٨].

تَعتبر الكتابات البريطانية –في طليعتها كتابات بدجيت مكينJ. E. Budgett Meakin (ت.١٩٠٦م) – أنَّ الحياة الاقتصادية ليهود الأطلس لا تختلف عن الحياة الاقتصادية لليهود في باقي المناطق المغربية، فإلى جانب الفلاحة، امتهنوا الصناعة خاصة صناعة المجوهرات، والنحاس، والقصدير وباقي الأعمال المعدنية، وبرزت مهاراتهم وبراعتهم أيضًا في تطريز النعال وخياطة المناديل والأوشحة وتطرِّيزها، وفي صناعة الوسائد المطرَّزة والنعال الجلدية والبنادق والخناجر والسروج، وكذلك في النجارة، وفي إعداد عدد من السلع المفيدة والمزخرفة، وفي بيع السكر والتبغ والتوابل والأساور والقلائد وقوارير ماء الورد والكحل والسواك، أمَّا التُجَّار وأصحاب المتاجر، فإن نسبة كبيرة من تجارة البلد تمرُّ عبر أيديهم، بل إنَّ أكبر نسبة تمرُّ من خلالهم، وبأنَّ تلك السلع الكثيرة التي تباع بالتقسيِّط من قِبل المسلمين إنمَّا تم استيرادها من طرفهم، بل حتَّى جميع متاجر البيع بالتقسِّيط بالمغرب هي في ملكيتهم[٩]، وهكذا، فإنهم يشتغلون في جميع أنواع التجارة من تاجر مرموق إلى بائع توابل متجوِّل[١٠].

وقد اعتبر الإنجليزي ويليام لمبريير William Lempriere (ت.١٨٣٤م) يهود مراكش صناعيون بامتياز، ففضلاً عن كونهم مصرفيِّين، فإنهم يتحكمون في جميع الشؤون المالية والتجارية باستثناء جباية الضرائب[١١]، وروى الكاتب البريطاني هيوغ إدوارد ميلينجتون ستوتفيلد Hugh Edward Millington Stutfield (ت.١٩٢٩م) أنه يوجد بين يهود المغرب أمهر الحرفيِّين في الجلود والمعادن والمواد الأخرى، وبأنَّ الشخص اليهودي ذكي جداًّ مقارنة بنظيره المسلم، بل حتَّى السلاطين المغاربة يقرُّون بكفاءتهم كرأسماليين، ورغم الاضطهاد، فإنهم مُصرُّون على جمع الثروة[١٢]، فيما حكى المستكشف البريطاني جوزيف طومسون Joseph Thomson (ت.١٨٩٥م) أنَّ يهود منطقة تسامست Tasimset الجبلية الواقعة جنوب غرب مدينة دمنات امتهنوا التجارة وصناعة وإصلاح الأحذية، فأغلب يهود المنطقة هم تجار صغار يجوبون الأسواق الأسبوعية في جبال الأطلس وفي السهول[١٣].

وكذلك الشأن بالنسبة ليهود دمنات الذين شكلوا أهمّ جماعة متاجرة بالمدينة، وذلك لأسباب متعددة منها؛ تخصُّصهم، ولكونهم وسطاء رئيسيِّين في البضائع الأجنبية التي لم تفتأ تزداد مكانتها في التجارة القروية، ولعل إقدام بعض الدمناتيِّين في يناير ١٨٦٦م على إحراق سلعة يهودي بحانوته كانت إيذانًا بنشوء حزازات بين جماعة التجار المسلمين وجماعة التُجَّار اليهود الذين بدأت تقع في أيديهم رؤوس أموال أجنبية[١٤]، وقد تعاطوا للدباغة[١٥]وللنجارة والبناء وقليل منهم من «تعاطى الفلاحة، وضئيل في حق من له عقار بالرهن أو الشركة»[١٦]، واشتهروا كثيرًا بصياغة المعادن من الفضة المستوردة من خارج المنطقة، أو يقومون بإعادة صياغة مسكوكات نقدية كالريال الحسني مثلاً، كما قد يشتغلون خارج المنطقة مع الأسر التي تريد صياغة المجوهرات لأبنائها أو بناتها خلال المناسبات، فحينما تعتزم مثلاً أسرة على القيام بخطبة عروس لابنها يُستدعى صائغ يهودي إلى الدار «ويحفر موقدًا، وينصب الكير، فتطلب الأم من ولدها ريالين مما حصل من أجر خلال هجرته من خارج المنطقة، وتطلب... (منه) أن يصنع منهما سوارين، وحين تتم الصياغة يعطيه الإبن أجره، ويُطعمه هو ومساعده ويسقيه شايًا وينصرف»[١٧]، وكان بدمنات خلال عهد مولاي الحسن الأول ثمانية على الأقل من يهود عائلتي ابن شلول وابن البهوش الذين عُرِفوا بإتقانهم لصناعة زناد البناق[١٨].

ويبدو أنَّ مدينة دمنات استمدَّت أهميتها في المبادلات من موقعها الجغرافي المتميِّز بين سهل الحوز وجبال الأطلس الكبير الأوسط، ومن وقوعها على طريق ممرات كانت هي الطريق العادية إلى وادي دادس وواد درعة وتدغة وتافيلالت، ومن وقوعها أيضًا على مقربة من منتصف الطريق بين منطقتين تجاريتين كان بينهما اتصال محدود هما: منطقة مراكش ومنطقة فاس، ولئن كان من الصعب مقارنتها بفاس ومراكش بالنسبة لحجم المبادلات خلال منتصف القرن التاسع عشر، فإنها كانت أكثر من مجرد سوق أسبوعية، بل كانت لها أهمية أكبر ممَّا كانت لمراكز أخرى مجاورة واقعة عند قدم الجبل، كسيدي رحال، وأيت ورير، وأمزميز، وإيمنتانونت[١٩].

وهكذا، استغل التجار اليهود كل هذه الظروف والمؤهلات وغيرها، فسيطروا على الممرات التي تربط المدينة بالمراكز التجارية الكبرى ممَّا جعلها منذ منتصف القرن التاسع عشر مركزًا تجاريًّا إقليميًّا مهمًّا[٢٠]، كما شهدت أيضًا خلال العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر انتعاشًا اقتصاديًّا ملحوظًا أسهم فيه إلى جانب التجار اليهود مسلمي المدينة الذين تولوا عمارة متاجر الملاح القديم المعوّضة لأهل الذمة، وزاد السلطان مولاي الحسن الأول في بناء مائة متجر جديد تهافت التجار اليهود على كرائها، وبفضل مؤهلاتها المتنوعة أمست دمنات خلال أواخر القرن المذكور مزدحمة بالوافدين عليها من القبائل حتى تعذَّر فيها وجود مسكن بالشراء أو الكراء أو الرهن[٢١].

لكن سرعان ما دخلت المدينة في فترة تدهور عقب وفاة السلطان مولاي الحسن الأول سنة ١٨٩٤م، واضطرَّ العديد من التجار اليهود إلى مغادرتها في اتجاه المدن الكبرى، وجاءت انتفاضة القبائل في صيف ١٨٩٤م لتنهب أسواق دمنات وتحرقها وتشتت تجارها وصنَّاعها، فتعطلت أسواقها بصفة كليَّة، وعلى الرغم من محاولة القبائل المجاورة إحياء النشاط التجاري وإقرار الأمن بها، فإنها لم تكن لتفلح بسبب مغادرة العديد من التجار الكبار المدينة نهائيًّا[٢٢].

وقد كان اليهود يشكلون ثلث سكان المدينة البالغ عددهم حوالي ثلاثة آلاف نسمة خلال سنة ١٨٦٤م[٢٣]، وذلك حسب تقديرات الباحثة الأمريكية جيسيكا مارجلين Jessica Marglin[٢٤]، بينما قدَّر أحمد نجيب الدمناتي في «القول الجامع» عددهم خلال فترة حكم السلطان مولاي الحسن الأول بألف وثمانمائة عائلة، مضيفًا أن «غالبهم يحترفون بالتجارة، وغالب عيشهم ما غالب على جنسهم من الاقتصاد التام، شأنهم اكتساب الفلس من الناس حرصًا على جمعه بجميع الوسائل، وقد كانوا قديمًا من أثرياء البلد»[٢٥]، أمَّا الكاتب الفرنسي مارسيل مونمارشي Marcel Monmarché (ت.١٩٤٥) فقدَّر عددهم بألف وخمسمائة نسمة من أصل مجموع سكان المدينة البالغ أربعة آلاف نسمة خلال العقد الثاني من القرن العشرين.[٢٦]

وكذلك الشأن بالنسبة ليهود منطقة نتيفة (Ntifa[٢٧]) الذين مارسوا التجارة في الأسواق الأسبوعية، وقد كانوا مستقرِّين أساسًا في مركز إقليمي صغير يُسمَّى فم الجمعة Foum Jamaa[٢٨]، وشكلوا خلال سنة ١٨٨٣م ما مجموعه مائتي نسمة من إجمالي عدد السكان البالغ حوالي ألف وخمسمائة نسمة[٢٩]، وفضلاً عن استقرارهم في مركز فم الجمعة تواجد اليهود أيضًا في كل أنحاء منطقة انتيفة، وشيدوا هناك عدة ملَّاحات كملَّاح تنانت، وملَّاح بوحرزان، وملَّاح تيزوكين، وملَّاح أيت تكلا[٣٠].

ويبدو أن ممارسة يهود الأطلس للصناعة وللتجارة ليس وليد الفترة المعاصرة أو حتى الفترة الحديثة، وإنما يعود تعطشهم إلى هاتين المهنتين إلى فترات تاريخية سابقة عنهما، فقد ذكر مرمول كربخال في مؤلفه الشهير «إفريقيا» امتهان يهود الأطلس الكبير التجارة والصناعة قبل مطلع العصر الحديث، ففي بحر حديثه عن مؤهلات منطقة تَدْنِسْتْ التي عدَّها «أهم مدينة بإقليم حاحا...، وينيف عدد مساكنها عن ثلاثة آلاف»[٣١] آتى على ذكر التُجار والصُناع اليهود القاطنين بها[٣٢]، وذلك بقوله:«وهناك أيضًا بعض الحرفيِّين كالإسكافيِّين والخياطين، والحدادين والنجارين وعدد من الصاغة اليهود والتجار الذين لا يبيعون سوى أقمشة خشنة مصنوعة في البلاد.....، وتوجد أكثر من مائتي دار لليهود في حيٍّ منعزل يعيشون فيه وفق شريعتهم ويؤدون للعامل مثقالاً عن كل رأس»[٣٣]، وكذلك خلال

كلامه عن المؤهلات البشرية والاقتصادية لمدينة «تيُّوت»[٣٤]التي قال عنها إنَّ «سكانها أغنياء، ولهم أراض كثيرة يزرعونها شعيرًا ويربون فيها الماشية....، ويعامل السكان الأجانب معاملة في غاية اللياقة، وتعيش بين ظهراهم ثلاثون عائلة من الصُنَّاع اليهود الذين يتمتّعون بكامل الحرِّية»[٣٥]، وحينما ذكر أيضا منطقة درعة التي «يتساكن (فيها) عدد هام من اليهود التجار والصياغين»[٣٦]، ثم عندما تحدث عن منطقة «تكاووست»[٣٧] السوسية التي يوجد بها «أكثر من ثمانية آلاف منزل، منها ما يزيد عن ثلاثمائة لليهود الصُنَّاع والتُجار الذين يعيشون في حيٍّ منعزل»[٣٨].

وتحدث من جهته الحسن الوزان في «وصف إفريقيا» عن احتراف اليهود الصناعة والتجارة في مدن تاريخية كثيرة بالأطلس المتوسط والكبير والصغير منذ الفترة الوسيطية، فخلال رصده لموقع مدينة فاس ولأهم أحيائها دوَّن ما يأتي: «بقرب دار السكة سوق فيه دكاكين الصاغة...، ومعظم الصاغة من اليهود الذين ينجزون أعمالهم بفاس الجديد ثم يحملونها إلى المدينة القديمة لبيعها في سوق معدٌّ لهم قرب سوق العطارين، ولا يمكن... لأيِّ مسلم أن يمارس مهنة صائغ، إذ يُقال أن بيع المصوغات الذهبية والفضية بثمن أعلى مما يساويه وزنها يُسمَّى ربا، ولكن الملوك يسمحون لليهود بالقيام بهذا العمل»[٣٩].

وفي معرض حديثه عن آيت دواود، وهي مدينة تاريخية عتيقة اندثرت اليوم إلَّا أن قبيلة آيت دواد لاتزال إلى اليوم في نفس المنطقة في حاحا الشمالية الغربية، قال إنَّ بهذه «المدينة عدد كبير من الصُنَّاع اليهود من حدَّادين وإسكافيِّين وصبَّاغين وصائغين، يُقال إن السكان الأقدمين لهذه المدينة يهودًا من سلالة دواد »[٤٠]، ونقرأ أيضًا في مؤلفه المذكور ما يفيد أن يهود الأطلس مارسوا الصناعة والتجارة في بعض المدن التاريخية منذ زمن قديم،كقوله عن مدينة تيُّوت السوسية «وفي تييوت عدد كثير من الصناع اليهود، وهم لايؤدون أيَّة الجزية، وإنما يقدِّمون بعض الهدايا الصغيرة إلى الأعيان»[٤١]، وقوله عن مدينة تِيدِّسي«وفيها عدد كثير من الصُنَّاع اليهود، كصياغين وحدَّادين»[٤٢]وعن مدينة تَفْزَة التي يوجد «فيها نحو مائتي دار لليهود، كلهم تجار وصنّاع»[٤٣].

أمَّا سكان جبل شيشاوة بالأطلس الكبير فـ«يختلط بهم كثير من اليهود الذين يزاولون في هذه الجبال مهنة الحدادة ويصنعون المجارف والمناجل وصفائح الخيل، كما يخدمون في البناء الذي لا يفيدهم فائدة تذكر»[٤٤]، كما يوجد بجبل هَنْتَاتَة «كثير من الصُنَّاع اليهود الذين يؤدون الجزية»[٤٥]، وغير ذلك من المناطق الجبلية الكثيرة والقرى والمدن التاريخية العديدة بالأطلسين الكبير والصغير التي عمَّرها عدد كبير من التُجار والحرفيِّين والصُنَّاع اليهود منذ الفترة الوسيطية أو ربما قبلها.

وفضلاً عن ذلك، أمدَّنا الكاتب البريطاني ستوتفيلد بمعطيات مهمّة عن أساليب أخرى سلكها يهود الأطلس من أجل جمع الثروة، كإقراض المسلمين قروضًا بالفائدة[٤٦]، وهي طريقة تدرُّ عليهم أموالاً كثيرة، فالذكاء الحاد لهذا العرق- يقول ستوتفيلد--يؤهله لخداع القروي المسلم بكل سهولة. فالمغربي المسلم -في نظره- أكثر «المخلوقات» سذاجة على الأرض، وهو ما يؤدي في النهاية إلى الحقد والضغينة ضدَّ اليهود، هناك آلاف الحيل مرتبطة بالعملة يمارسها اليهود على المغاربة «التعساء» زمن القحط والمجاعات، وهي حيل قد لا يتم تمريرها حتى على طفل صغير، بينما يتم ممارستها على المغاربة المسلمين السذَّج[٤٧]، وللتعويض عن سوء المعاملة والاضطهاد احترف اليهود السرقة ضدًّا على المغاربة المسلمين[٤٨].

وممَّا لا شك فيه أنَّ تهافت يهود الأطلس إلى تحصيل الثروة بشتَّى الطرق الشرعية وغير الشرعية ليس فعلاً حديثًا، فقد تحدثت الكاتبة والأسيرة الهولندية في مكناس خلال القرن الثامن عشر ماريا تير ميتلين Maria ter Meetelen (ت.١٧٥١م) في مذكراتها التي وسمتها بـ«اثنتا عشرة سنة من الاستعباد ١٧٣١-١٧٤٣م» عن الابتزاز الذي تعرضت له باستمرار من طرف بعض يهود المدينة خلال إقامتها بالقصر السلطاني زمن «الفترة»[٤٩]، خصوصًا حينما علموا بامتلاكها بعض الأشياء الثمينة التي كان قد أهداها إيَّاها السلطان محمد ولد عربية[٥٠]، فمما جاء على لسانها في هذا السياق قولها: «وبمجرد ما دخلت (بيتي) وجدت نفسي عرّضة لشتائم النصارى مجددًا الذين كانوا يريدون

الوشاية بي لدى الزنوج(٥١) بأنني أتوفر على العديد من الأحجار الثمينة والذهب كنت حصلت عليها من الملك....، إذ ألبوا اليهودي.... ضدِّي، فاستدعاني....، ذهبت إليه فأساء معاملتي وألح عليَّ كي أدفع له المال، وبقدر ما كنت أقول له بأنني لا أملك نقودًا بقدر ما كان يلقي على مسامعي الكلمات الجارحة والشتائم....، وهددني قائلاً: إنه اتخذ التدابير كلها من أجل الحصول على المال مني، وهو ما شرع في تنفيذه بعيد ذلك»(٥٢).

ومن كثرة ما تعرَّضت له من ابتزاز اليهود والنصارى على حدٍّ سواء، وخوفًا على حياتها منهم اضطرَّت ماريا في نهاية المطاف إلى طلب حماية باشا مدينة مكناس، خاصة وأن أوضاع المدينة في تلك الفترة كانت متردِّية للغاية بسبب الاضطرابات والقلاقل السياسية الناتجة عن تسلط جيش عبيد البخاري الذي أقدم سنة ١٧٣٨م على عزل السلطان المذكور، وتنصيب سلطان بديلاً عنه هو مولاي المستضيء، وعلى الرغم من دخولها في حماية الباشا الذي استقبلها ورحب بها وبأسرتها، فإنها لم تنج أبدًا من غطرسة اليهود الذين سعوا عن ساعد الجدِّ لتألِّيب امرأة يهودية تقيم في دار الباشا ضدَّها، ذلك أنه بمجرَّد ما إن دخلت دار الباشا حتَّى وجهت لها المرأة اليهودية السؤال التالي: «قولي لي أين تركت المال والحلي، لقد اعترف زوجك وعُوقِب بقسوة، وهم الآن منشغلون بسلخ جلده عن لحمه، وإن لم تخبرني سيأتون للبحث عنك وسيعاملونك بالمثل»(٥٣).

ومما يُدلل كذلك على الرغبة الجامحة لدى اليهود في امتلاك الثروة بأيِّ وسيلة كانت، تقول ماريا إنَّ يهود مكناس لمَّا «علموا أن أسرانا الهولنديِّين وعدوا بـ١٠٠ دوكة كي يتم افتداؤهم، توجهوا إلى بعض أسرانا من بين الأصغر سنًّا، والذين لم يكونوا يعرفون أيّ شيء عن أحوال البلد، طيّبوا خواطرهم بكلام حلو، ووعدوهم بالحرِّية إن استطاعوا مساعدتهم في إيجاد بعض المئات من الدوكات كي يتم تقديمها كهدية للقائد الأعلى للزنوج»(٥٤).

ويعترف الصحفي الإنجليزي وولتر بيرتون هاريس Walter Burton Harris (ت.١٩٣٣) بأنه على الرغم من تعلق يهود الأطلس بطرق وأساليب النصب والخداع وبعادات السكر، وعلى الرغم من القذارة التي يعيشون فيها، فإنَّ بينهم عمال مهرة، يتفوقون على نظرائهم من المسلمين، ويمتهنون التطرِّيز بالفضَّة والذَّهب والخياطة وسك العملة(٥٥).

وعلى الرغم من امتهان معظم يهود الأطلس الصناعة والتجارة ومعظم الحرف التقليدية التي تُدرُّ عليهم أموالاً محترمة، فإنَّ كل ذلك لا يرق إلى مستوى طموحاتهم، إذ يبقى الطموح الكبير لدى اليهودي المغربي عمومًا للارتقاء في السلم الاجتماعي، هو أن يصبح مترجمًا لدى مفوضية أجنبية(٥٦)، وهي وظيفة لا تضمن له حياة مُريحة وحسب، وإنما تمنحه أيضًا أهمية ومرتبة معينة يمكن أن تكون وسيلته للارتقاء إلى أعلى مراكز القرار، ويُدين العديد من كبار المصرفيِّين والتُجار اليهود في المدن الساحلية بموقعهم الحالي الذي يتمتَّعون به لهذه الوسيلة في الارتقاء سواء بأنفسهم أو بواسطة آبائهم، ويشغل العديد منهم منصب نواب القنصليات الأجنبية(٥٧).

ولا يتقيد اليهود –حسب مكين- بأيِّ شكل من الواجبات الأخلاقية التي ينصُّ عليها دينهم(٥٨)، فعلى سبيل المثال يحق لليهود الفقراء سرقة المسلمين والمسيحيين، فليس في ذلك أدنى خطيئة، فالحكمة في نظرهم هي الخداع والكذب ونكث العهد، والعدالة في نظرهم هي الانتقام والكراهية والافتراء، أمَّا التبصُّر عندهم، فهو الجشع والجبن، لكن على الرغم من ذلك، فإنه يُقرُّ بأن اليهودي المغربي رجل مضياف وأسرته رائعة، فإن كانت عاداته متَّسخة وأمانته ضعيفة، فإنَّ أخلاقه هي الأسمى في المغرب باستثناء زيجات الأطفال المخزية(٥٩).

لا تختلف كثيرًا هذ المعطيات المتَّصلة بالحياة الاقتصادية ليهوديِّ الأطلس عن تلك التي أوردها باحثون معاصرون، فأستاذ التاريخ والدراسات الدولية في ولاية إيداهو الأمريكية رفائيل تشيجيوك نجوكو Raphael Chijioke Njoku ذهب أيضًا بالقول إن يهود المغرب امتهنوا التجارة الحرفية وتبادل العملات غير القانونية، والمتاجرة كذلك في المواد الثمينة مثل: الفضَّة والذهب والألماس، وبأنهم سيطروا على جزء كبير من الاقتصاد المغربي، بيد أنَّ عددهم تقلص خلال النصف الأول من القرن العشرين بسبب الهجرة إلى إسرائيل(٦٠)، وكتبت

الباحثة الأمريكية إميلي غوتريتش Emily Gottreich ما يفيد أنَّ التجار اليهود في مدينة مراكش كانوا يتجرون أساسًا في «الزيت والكبريت واللوز وبذور المشمش والقطن والشعير والشمع...، وغالبًا ما كانت هذه المنتجات متوفرة للشراء في الحيِّ اليهودي أولاً، ثم يتم إعادة بيعها في باقي أجزاء المدينة»[٦١].

وبالإضافة إلى هذه المنتجات، احترف يهود مراكش صناعة الفضَّة والذَّهب، واستخدموا الأحجار الكريمة والمرجان واللؤلؤ والترتر[٦٢] الإيطالي بشكل كبير في إبداعاتهم التي ضمَّت فضلاً عن صناعة المجوهرات عناصر أخرى مثل صناعة التعويذات والرَّكائب[٦٣] وحاملات المصاحف، وامتهنوا حرفة الخياطة التي مارسها عدد كبير من يهود مراكش الذين تجاوز عددهم الألف، فكان أبرز زبنائهم من رجال الشرطة والجنود، واشتهروا أيضًا ببيع التبغ والنعال ليس داخل الملَّاح وحسب، وإنمَّا في باقي أسواق مدينة مراكش[٦٤]، بل إنَّ نشاطهم التجاري تجاوز أسوار المدينة الحمراء ليمتدَّ إلى مناطق قروية كثيرة في جنوب المغرب، حيث كانوا يبيعون للساكنة القروية المنتجات المستوردة مثل: الشاي والسكر والمنسوجات، ويشترون منها في المقابل سلعًا محلية كجلود المعز، والشمع، والحبوب، واللوز وغير ذلك، ثم يعيدون عرضها للبيع في أسواق مراكش[٦٥].

وعلى عكس الدول الأوروبية التي كان يعيش فيها أغلب اليهود في المدن والقرى الكبرى، فإنَّ معظم يهود جنوب المغرب كانوا مستقرِّين في القرى الريفية الصغيرة بأحواز مراكش، حيث امتلكوا هناك أراض زراعية، واتخذوا منها موردًا للرزق[٦٦]، والشأن نفسه بالنسبة ليهود مدينة فاس الذين امتلكوا أيضًا كثير من العقارات بمحيط جامع القرويين، وكانت غالبية تلك العقارات عبارة عن حوانيت ومحلات تجارية كبرى[٦٧]، هذا فضلاً عن عقارات أخرى بضواحي المدينة كانت تُستغلّ لأجل إنتاج الحبوب، والفاكهة، خاصة العنب الذي كان يجفَّف ويُصدَّر إلى أودغست[٦٨].

وأكد من جهته الزعفراني أنَّ تجار مدينة فاس اليهود احتكروا صناعة التقطير وتجارة شمع النحل، بحيث كانوا يصدِّرون قطع الشمع، ويستخدمون بقايا التقطير في «الماحيا» لتستهلك في الملاح، وفضَّل آخرون شراء بساتين أشجار الزيتون في بعض المناطق الفلاحية مثل صفرو التي كانت «توجد بها جالية يهودية كبيرة»[٦٩]، ومارس بعض منهم صناعة وسك النقود، واشتهر آخرون بصياغة الذَّهب والفضَّة، ويُعدُّ اليهودي الفاسي جودا بن عطار من أبرز الصُياغ الذين ذاع صيتهم في الآفاق، فقد عُرِف هذا الرجل كصائغ ماهر جدًّا، وظل يعيش من مهنته، ويرفض أن يتلقى أجرة من مال الجماعة اليهودية مقابل الوظائف التي كان يشغلها، وهي قاضي القضاة ورئيسًا للمحكمة الربية بفاس، ويُطلق على الصُنَّاع الصيَّاغ في اللغة العبرية اسم «صورفيم»، كما امتهن يهود فاس مهنة البناء، والدليل على وجود هذا النوع من المهن هي الصفة العبرية «هاباناي» (البناء) التي أضحت لقبًا حقيقيًّا لإسحاق بار دينار بن شيمول هاباناي[٧٠]، بينما احترف البعض منهم مهنة الصباغة مثل التلوين بألوان قوس قزح، فقد ذكر الباحث عبد الرحمن بشير مستندًا إلى «الروض القرطاس» أنَّ عدد دور الصباغة في مدينة فاس زمن ابن أبي زرع (ت.١٣٢٦م)، بلغت مائة وستة عشر دارًا كانت بجانب الوادي الكبير الذي سكن اليهود أسفله، وقد حظيت هذه المهنة بأهمية كبيرة من طرفهم، بحيث كانوا يستوردون مواد الصباغة من مصر، وفلسطين، وكرمان، جنوب شرق فارس، ومن الهند أيضًا[٧١].

والجدير بالذكر أنَّ النشاط التجاري اليهودي لم يكن محصورًا داخل فضاء ملَّاح مدينة فاس فقط، وإنما امتدَّ ليشمل الفضاء العام للمدينة بأكملها، وبرز نشاطهم التجاري بشكل كبير في قلب فاس النابض، ومركز جذبها التجاري حيث القيسارية والأسواق الكبرى[٧٢].

واشتغل نظراؤهم بمدينة مكناس حسبما جاء في مؤلف شحلان «اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى ريّاح الفرقة» بالمهن التالية: قطابة الصوف، صياغة الذهب والفضة، الحدادة، صناعة السروج، صباغة الكتان، تقطير الشمع، نسج القطيفة، صناعة الحبال، الخياطة، البناء، الحلاقة، إصلاح الساعات، الخبازة، الخرازة، النجارة، وتجليد الكتب[٧٣].

وينكر أحمد التوفيق كلام الرّحالة الإنجليز من أمثال: ستوتدفيلد وطومسون وغيرهما الذين زعموا أن يهود دمنات دأبوا على إقراض المسلمين البسطاء

بالفائدة، ويُؤكد أن معاملات اليهود كانت تتم باستثمار أموالهم في القبائل المجاورة بإعطاء تلك الأموال للتجار المسلمين للمتاجرة بها في مختلف أنواع البضائع، أو بإعطاء متموِّلات كالبهائم بالشركة، أو الأرض المرهونة لديهم، أو الممتلكة لهم بالمزارعة أو الشركة، وبذلك كانوا يدخلون معهم وسطاء من أهل القبائل بثلث الربح أو نصفه، أمَّا تلك المعاملات المالية التي كانت تُعطى بالفائدة –أو بالطلوع كما كانوا يسمُّونها– إنما كانت تنطبق على الأموال المسلفة بصفة عامة، والمسلفة بصفة خاصة للمدينين للمخزن من شيوخ أو قبائل أو أفراد(٧٤).

وهكذا يكون التُّجار اليهود قد أسهموا خلال فترة ما قبل الحماية بقدر كبير في تنشيط الحياة التجارية سواء في المدن الكبرى للأطلس، كمراكش وفاس ومكناس، أم في مراكز وقرى جبال الأطلس إلى جانب التُّجار المسلمين الذين هيّأوا لهم الفرصة لاحتكار ميدان التجارة لاعتبارات اقتصادية ودينية بالأساس(٧٥)، وتمكنوا بفضل ذلك من تجميع الثروة، فأصبحوا صرَّافين وتجَّارًا وصنَّاعًا، وعملوا في المهن الحرَّة كما كانوا نشيطين في ميدان الاستيراد والتصدير، وكانت لهم علاقات تجارية في جميع أنحاء العالم منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين(٧٦)، وسطع نجم عدة أسر يهودية في ميدان التجارة والمال والأعمال في مدينة مراكش خلال القرن التاسع عشر من أمثال: آل مقنين(٧٧)، وقورقوزCorcos ، وروزيليو Rosillio، وكوريات Coriat وغيرها من الأسر التي تحملت مسؤولية التعامل مع القوى الأجنبية، ومع الرابطة اليهودية العالمية، وكذا مع المخزن المغربي الذي شملها بالرعاية والاهتمام، وأنعم عليها بمختلف أنواع العطايا والامتيازات(٧٨)، واعتمد عليها في حلِّ بعض القضايا الاقتصادية المستعصية(٧٩).

وفي مدينة فاس من أمثال: عائلة كوهين سكالي Cohen Saqali، وأسرتي أبنصورAbensour وابن دنان Aben danan، وعائلتي سيريرSerrero وكلاعيAlcalai، وأسرة ابن زيمرا Abn Zimra، وابن عطار Abn Attar، وابن البازAbn Albaz، والمزنينة Almoznina، وعائلة حسرفاتيHassarfaty(٨٠)، ولعل انكباب التُّجار اليهود بصفة خاصة على ممارسة الصناعة والحرف التقليدية مردُّه بالأساس إلى التعاليم اليهودية التي تفرض على كل يهودي تعليم ابنه حرفة معينة منذ صغر سنه، ثم إلى براعتهم وإتقانهم لمختلف الحرف اليدوية مثل صياغة الذَّهب والفضَّة(٨١).

ثانيًا: يهود الأطلس واحتكار فضاء المال والأعمال

إلى جانب التجارة بكل أنواعها، ينبغي الإقرار بأن يهود الأطلس كان لهم كذلك تدخلاً ماليًّا مهمًّا داخل الفضاء الإسلامي، ذلك أنهم انخرطوا بشكل وثيق مع المسلمين في جميع المعاملات المالية، فمنهم من كان مقرضًا للمال، ومنهم من كان جامعًا للديون مثلما هو الشأن لليهودي المراكشي سليمان قرقوز Solomon Corcos(٨٢) الذي تقلَّد وظيفة جمع الديون سنة ١٨٤٥م، بينما قام يهود آخرون بتحصيل الديون لفائدة الأوربيِّين، كالمحمي الفرنسي اليهودي نسيم إسرائيل الجزاري Nissim Israil al-Jiziri، واليهودي مردوخ الإنجليزي الذي ربما كان وكيلاً إنجليزيًّا، كما اشتغل بعض اليهود –بمن فيهم حاييم قرقوز– في مجال توفير سندات الكفالة للسجناء اليهود والمسلمين على السواء، وآخرون في مجال صرف العملات رغم ما يشوب هذا العمل الأخير من مخاطر بسبب استفحال ظاهرة العملات المعدنية المزيَّفة(٨٣)، ولعل اختيار اليهود لهذه المهمة كان أساسًا بسبب إلمامهم بالأوزان والمقاييس الأوروبية التي لم يكن لدى المسلمين إلمام كبير بها، وبرز في ملَّاح مراكش خلال سنة ١٨٨٤م عدد من رجال المال والأعمال من قبيل: مسعود قرقوز Masoud Corcos، وميمون أحيون Mimun Ahayon، وهارون إبريزHaroun Ibris، ومخلوف أبريج Makhluf Abrij(٨٤)، وفي مدينة مكناس لمع نجم كل من التاجر يوسف الصبَّاغ، والتاجر داود الدرعي الفاسي، والتاجر أبراهام الدرعي الرباطي(٨٥). وغيرهم من رجال التجارة والمال والأعمال الذين أبدعوا وبرعوا كل في ميدانه، فذاع صيتهم في الآفاق، وسارت بأخبارهم الركبان، نظرا لأدوارهم الكبيرة في خدمة المجتمع والمخزن على السواء.

خَاتِمَةٌ

صفوة القول، مارست الجماعة اليهودية بالأطلس المغربي خلال فترة ما قبل الاستعمار أنشطة اقتصادية متعددة ومتنوعة، ارتبطت بعضها بالظروف الطبيعة والمناخية للمنطقة، وارتبطت أخرى بإقبال الساكنة المحلية على بعض السلع والمنتجات الخاصة، واستطاعت بفضل مهارتها الفائقة وذكائها الحاد أن تراكم ثروات ضخمة أمسى معها عدد من أفرادها تجارًا كبارا، وصُنّاعًا أطبقت شهرتهم الآفاق، وصيارفة لا يُستغنى عنهم من قِبل جيرانهم المسلمين الذين كانوا يقترضون منهم المال عند الحاجة، بل حتى القبائل المغربية، والشخصيات الوازنة، والسلاطين أنفسهم كانوا يضطرّون إلى الاستدانة منهم زمن المحن والشدائد، مثلما فعل على سبيل المثال السلطان مولاي عبد العزيز، حينما استفحلت الأزمة في عهده، وتراكمت عليه الديون، وفشل «الترتيب»، فلم يجد مندوحة عن طلب القروض من تجار يهود فاس.

وعلى الرغم من هذه الأدوار المهمة، فإن الكتابات الإنجليزية تغاضت عنها، ولم تشر إليها إلا نادرًا، لذلك وجب التأكيد على أنه على الرغم من أهمية الكتابات الرحلية في الكشف عن جوانب دفينة ومهمة لاتزال بِكرًا في الدراسات التاريخية المعاصرة كحديثها عن الطبيعة المغربية بتضاريسها ومناخها خلال مختلف فصول السنة، ووصف الممرات والطرق والوديان والقرى والمداشر بدقة عالية، ورصد عادات السكان المحليّين وتقاليدهم وغير ذلك، فإنها في المقابل أبطنت أبعادًا سياسية خطيرة وأحكامًا مسبقة، وانطباعات شخصية غير بريئة موجَّهة بنظرية مركزية الغرب الحداثي، وهي خاصية ميَّزت معظم الكتابات الأوروبية التي دُوِّنت خلال فترة القرن التاسع عشر، بل حتى «كتابات السفراء الذين يفترض أنهم كلفوا بتسجيل ما رأوه بدقة وتجرد، فإنها لا تخلو من مبالغات... أهمها إلصاق كل الصفات الذميمة بالشعوب الأخرى»(٨٦)، وبالتالي فإن التعويل عليها في أبحاث أكاديمية دون الرجوع إلى الكتابات المحلية تبقى مغامرة من الباحث غير محسوبة العواقب.

الاحالات المرجعية:

(١) حاييم الزعفراني، **ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب تاريخ، ثقافة، دين**، تعريب: أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، ط. الأولى، الدار البيضاء ١٩٨٧، ص.١٤٢.

(٢) اشتغل بعض يهود الأطلس بالزراعة خصوصًا في منطقتي فاس وسجلماسة اللتين تغلبا عليهما السهول ذات التربة الخصبة، وتخترقهما الأنهار التي تزيد من خصوبتها بما تحمله من غرين غني المعادن، ففي فاس اختصَّ اليهود بإنتاج الحبوب والفواكه، أمَّا في سجلماسة فقد اهتموا بزراعة الدخن والذرة والقطن والكمون، والحناء، وبالبستنة، والتمر. عبد الرحمن بشير، **اليهود في المغرب الإسلامي وإسبانيا المسيحية**، منشورات عين الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠١٤، الجيزة، ص ص.٨٩-٩٠.

(٣) حاييم الزعفراني، **ألف سنة من حياة اليهود.......**، م.س، ص ص.١٤٣-١٤٤، ١٤٩

(٤) مجهول، **قضية المهاجرين المسمون بالبلديين**، دراسة وتحقيق: محمد فتحة، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط. الأولى ٢٠٠٤، ص.(٥٨-٥٩).

(5) Edith Wharton, In Morocco, New York, 1920, pp.107-108.

(٦) فاطمة بوعمامة، **اليهود في المغرب الإسلامي (خلال القرنين٧-٨هـ /١٤-١٥م)**، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والتوزيع، ٢٠١١، الجزائر، ص.٢٠٥.

(7) Friedrich Gerhard Rohlfs, Adventures in Morocco and Journeys Through the Oases of Draa and Tafilet, London, 1874, p.167.

(8) H.M.P. de La Martinière, Morocco: Journeys in the Kingdom of Fez and to the Court of Mulai Hassan, London, 1889, p.393.

(9) J. E. Budgett Meakin, «The Jews of Morocco». The Jews Quarterly Review, Vol.4, No. 3 (Apr.1892), p.391 ; Life in Morocco and Glimpses Beyond, London, 1905, p.17؛ The Moors: A Comprehensive Description, London, 1902, pp.446-447.See also: George Montbard, Among the Moors: Sketches of Oriental Life, London, 1894, p.147, 200 ; Robert Bontine Cunninghame Graham, Mogreb-el-Acksa: A Journey in Morocco, London, 1898, p.29; Donald Mackenzie, The Khalifate of the West: Being a General Description of Morocco, London, 1911, p.62; Arthur de Capell Brook, Sketches in Spain and Morocco, London, 1831, p.90.

(10) Donald Mackenzie, op, cit, p.62.

(11) William Lempriere, A Tour Through the Dominions of the Emperor of Morocco, London, 1813, p.182; H. J. B. Ward, Mysterious Morocco and how to Appreciate It, London, 1910, p.154؛ Donald Mackenzie, op, cit, p.62.

(12) Hugh E. M. Stutfield, El Maghreb: 1200 Miles Ride Through Marocco, London, 1886, p( ).140.

(13) Joseph Thomson, Travels in the Atlas and Southern Morocco: A Narrative of Exploration, London 1889, p.187.

(١٤) أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان ١٨٥٠-١٩١٢)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط. الثالثة، ٢٠١١، ص. ٢٩٤.

(١٥) انتشرت مهنة دباغة الجلود أيضًا على نطاق واسع عند يهود مدينتي فاس وأغمات. انظر: عبد الرحمن بشير، **اليهود في المغرب الإسلامي**....، م.س، ص.٩٧.

(١٦) أحمد نجيب الدمناتي، **القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من الوقائع**، ضبط النص وتقديم: أحمد بن محمد عمالك، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ٢٠١١، ص.١٠٢.

(١٧) أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر**....، م.س، ص ص.٢٣٧-٢٣٨.

(١٨) المرجع نفسه، ص.٢٣٨.

(١٩) المرجع نفسه، ص ص.٢٨٦- ٢٨٩.

(20) Jessica M. Marglin, Across Legal Lines Jews and Muslims in Modern Morocco, Yale University, 2016, p.132.

(٢١) أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر**....، م.س، ص.٣١٢

(٢٢) المرجع نفسه، ص ص.٣١٢-٣١٣.

(٢٣) ذكر أحمد التوفيق أن عدد سكان يهود دمنات شكل خلال عهد السلطان مولاي عبد الرحمان قرابة نصف عدد سكان المدينة، كان غالبيتهم من التجار، وقد امتلكوا أكثر من مئة متجر بالملّاح القديم عُوِّضت لهم في الملاّح الجديد سنة ١٣٠٩هـ/١٨٩١م، وأُضيف إليها مثل ذلك من المتاجر شيِّدت بإذن السلطان مولاي الحسن وتم كراؤها لهم. انظر: أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر**....، م.س، ص.٢٨٩.

(24) Jessica M. Marglin, Across Legal Lines Jews and Muslims......, op, cit, p.132

(٢٥) أحمد نجيب الدمناتي، **القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من الوقائع**......، م.س، ص.١٠١

(26) Marcel Monmarché, op, cit, p.145.

(٢٧) تقع قبيلة انتيفة أو هنتيفة قديماً ضمن إقليم هسكورة، وهي أحد بطونها، وتجاور هذه القبيلة أزيلال شرقًا وقلعة اسراغنة جنوبًا ودمنات غربًا، ويفصلها عن إقليم تادلا نهر وادي العبيد شمالاً، وتضم عدة أفخاذ منهم: أهل تعزيط، القرواني، أيت أنول، بني حسان، القرية، هرفالة، أيت بوكماز، فم الجمعة، أيت مصاد، وابزو، وجرت العادة تقسيم قبيلة انتيفة إلى قسمين؛ انتيفة الجبل وانتيفة الظل، وتقع ابزو ضمن القسم الثاني. انظر: المصطفى فرحات، **اليهود في ابزو رحلة اللاعودة**، مطبعة القلعة، ط. الأولى، ٢٠٢١، ص ص.٦٧-٦٨.

(٢٨) لايزال هذا المركز معروفاً إلى اليوم باسم فم الجمعة، ويقع على مقربة من سوق اتنين انتيفة في ملتقى جبال الأطلس المتوسط والكبير، على بعد ١٣٠ كلم شمال شرق مدينة مراكش، ويبعد عن قبيلة ابزو بحوالي ١٥ كلم، وكان يضم جماعة يهودية مهمة وصلت سنة ١٨٨٣م إلى مائتي نسمة من أصل ألف نسمة تشكل مجموع سكان المركز، وقد ذكره الوزان باسم «الجمعة» وبأنه يشكل مدينة وليس مجرد قرية، ووصف مؤهلاته البشرية والاقتصادية قائلاً: «تبعد مدينة الجمعة عن تاكوداست بنحو خمسة أميال، وقد بُنيت في أيامنا هذه على جبل عالٍ تكتَّنفه جبال أخرى شامخة محتوية على نحو خمسمائة كانون، ويوجد نفس هذا العدد في القرى الواقعة في هذه الجبال، وفيها عيون عديدة وحدائق كثيرة ملئية بكل أنواع الأشجار المثمرة لاسيما بعدد وافر من أشجار الجوز الضخمة، وجميع التلال المحدقة بهذه الجبال مكسوّة بحقول الشعير والكثير من أشجار الزيتون، يسكن هذه المدينة عدد وافر من الصُّناع لاسيما الدبَّاغين والسَّراجين والحدَّادين، لأن هناك منجمًا للحديد على عمق كبير، ويصنع هؤلاء الحدَّادون كثيرًا من صفائح الخيل يصدِّر أهل هذه البلدة جميع الأدوات التي يصنعونها مع بضائعهم...، ويستبدلونها بالعبيد والنيلة وجلود بعض الحيوانات التي تعيش في الصحراء». انظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، تعريب، محمد حجي ومحمد الأخضر، ج٢، دار الغرب الإسلامي، ط. الثانية، ١٩٨٣، لبنان، ص ص١٦٨-١٦٩؛ المصطفى فرحات، **اليهود في ابزو رحلة اللاعودة**......، م.س، ص.٦٨.

(29) Jessica M. Marglin, Across Legal Lines Jews and Muslims......., op, cit, p.134.

(٣٠) المصطفى فرحات، **اليهود في ابزو رحلة اللاعودة**......، م.س، ص.٦٩.

(٣١) مرمول كربخال، **إفريقيا**، تعريب: محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق وأحمد بنجلون، ج ٢، مطابع المعارف الجديدة، ١٩٨٤، الرباط، ص.٩.

(٣٢) سجل الحسن الوزان في مؤلفه السالف الذكر أن بمدينة تَدْنِسْتْ مائة منزل لليهود لا يؤدون الجزية، لكنهم يقدِّمون عادة هدايا للأعيان الذين يُوَّفرون لهم الحماية، ومعظم السكان هم من اليهود، وهم الذين يملكون دار السكة، ويضربون لسكان المدينة نقود الفضَّة. انظر: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**....، م.س، ج١، ص.٩٩.

(٣٣) مرمول كربخال، **إفريقيا**...، م.س، ج٢، ص ص.٩-١٠.

(٣٤) تحدَّث مرمول كربخال عن مدينتين معروفتين باسم «تِيُّوت» في كل من إقليمي حاحا وسوس، وأفادنا كثيرًا بمعطيات مهمة عن تاريخهما وعن مؤهلاتهما البشرية والطبيعية والاقتصادية، فقد وصف تيّوت حاحا بكونها «مدينة قديمة ذات أسوار من آجر، أسسها أهل البلاد، وقد شيِّدت على سهل ....، سكانها أغنياء ولهم أراض كثيرة يزرعونها شعيرًا ويربون فيها الماشية، وتحيط بالمدينة عدَّة بساتين تنتج كمية كبيرة من الخوخ والجوز والتين الذي يجفف، ويعامل السكان الأجانب معاملة في غاية اللياقة، وتعيش بين ظهراهم ثلاثون عائلة من الصنَّاع اليهود الذين يتمتعون بكامل الحرِّية، واستولى البرتغاليون على هذه المدينة سنة ١٥١٤....، ويعيش فيها الناس في هناء أكثر منذ أن غادر البرتغاليون آسفي». انظر: مرمول كربخال، **إفريقيا**....، م.س، ج ٢، ص ص.١٧-١٨؛ الحسن بن محمد الوزان الفاسي ، **وصف إفريقيا**.....، م.س، ج١، ص.١٠٣.

أما مدينة تيُّوت أو تشييت بإقليم سوس فقد ذكرها في فصل منعزل، ووصف مؤهلاتها قائلاً: «أسس هذه المدينة الأفارقة القدامى وهي... مقسمة إلى ثلاث مدن، يجري نهر سوس الكبير بقربها، ويخترق ضواحيها، فيها أزيد من أربعة آلاف كانون، وسكانها

أغنياء لكثرة القمح والشعير والخضر التي تنتجها المنطقة، هناك مغارس عظيمة لقصب السكر، وعدد عديد من مطاحنه، يقصدها التجار من جميع الأنحاء من فاس ومراكش وبلاد سوس، لأن السكر بها في غاية الصفاء، منذ أن أقام بها يهودي أسلم طواحين بمساعدة الأسرى..، وينتج البلد أيضًا الكثير من التمر...، لكن ليس هناك فواكه غير التين والعنب والخوخ....، وهناك تحضَّر الجلود الجيِّدة التي تُحمل إلى فاس ومراكش وأماكن أخرى». انظر: مرمول كربخال، **إفريقيا**....، م.س، ج ٢.س، ص.٢٩؛ الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**.....، م.س، ج١، ص ص.١١٥-١١٧.

(٣٥) مرمول كربخال، **إفريقيا**....، ج ٢.س، ص.١٨.

(٣٦) **المصدر نفسه**، ج٣، ص.١٤٥.

(٣٧) هي مدينة قديمة ذكرها مرمول كربخال باسم «تَدْنِسْتْ»، واعتبرها أهم مدينة بإقليم حاحا، وكان تأسيسها على يد الأفارقة من قبيلة مصمودة، ووصفها قائلاً: «وهي مسيدة في مدخل سهل جميل، ينيف عدد سكانها عن ثلاثة آلاف، أسوارها من خشب وآجر ملصق بالجص يجعلها حواجز قوِّية جدًا، والدور مبنية بنفس الطريقة، ويكتنفها نهر لا يبعد منبعه من هناك، ضفافه مليئة بالأشجار المثمرة وبكل أنواع الخضر، معظم السكان رعاة حارثون....، وهناك أيضًا بعض الحرفيِّين كالإسكافيِّين والخياطين والحدادين والنجارين وعدد من الصاغة اليهود والتجار الذين لا يبيعون سوى أقمشة خشنة مصنوعة في البلاد....، إن تحضُّر هذه المدينة أقلّ ممَّا هو عليه في سائر مدن بلاد البربر، إذ لا توجد بها حمَّامات ولا فنادق، ولا مستشفيات ولا مدارس...، وتوجد أكثر من مائتي دار لليهود في حيٍّ منعزل يعيشون فيه وفق شريعتهم، ويؤدُّون للعامل مثقالاً عن كل رأس، فضلاً عن الجبايات الاستثنائية التي يؤدي بموجبها كل واحد أكثر مما يؤديه عشرة من أغنى سكان المدينة، ومع ذلك فلا يُسمح لهم بأن يملكوا منازل ولا تراثًا ولا أي عقار آخر مهما كان، وقد دُمرت هذه المدينة عدة مرّات». انظر: مرمول كربخال، **إفريقيا**........، م.س، ج ٢، ص ص. ٩-١٠؛ الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**.....، م.س، ج١، ص.٩٨.

(٣٨) مرمول كربخال، **إفريقيا**....، م.س، ج٢، ص.٣٨.

(٣٩) الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**.....، م.س، ج١، ص٢٨٣.

(٤٠) المصدر نفسه، ص.١٠٥-١٠٦.

(٤١) المصدر نفسه، ص.١١٧.

(٤٢) المصدر نفسه، ص.١١٩.

(٤٣) المصدر نفسه، ص. ١٧٦.

(٤٤) المصدر نفسه، ص. ١٤٠.

(٤٥) المصدر نفسه، ص.١٤٢.

(٤٦) تمنع الشريعة اليهودية القرض بالفائدة وتدينه مثلما يحرِّمه القرآن أيضًا، وقد تقيدت السلطات الربية نظريًّا خلال كل القرون بهذا المنع، غير أنها قبلت التمبّيز بين الربا الصريح من جهة (ربا مشروطة باتفاق شفهي أو عقد مكتوب) وهو محظور في الشريعة المكتوبة وبين ما يشبه الربا من جهة أخرى أي عدم وجود أي اتفاق مسبق ما بين المدين والمستدين، لكن التُجَّار اليهود تفننوا في اختراع الوسائل المتنوعة قصد التحايل على القوانين المتعلقة بالقرض بالفائدة، بل إنهم استطاعوا مع حظوظ متفاوتة من النجاح تبعًا لحالات معينة أن يجعلوا بعض الفقهاء يُقرُّون بتحايلهم على القانون ممَّا ألزم القيام ببعض التعديلات في التشريع لجعل بعض أشكال العمليات الربوية مشروعة. انظر: حاييم الزعفراني، **ألف سنة من حياة اليهود.......**، م.س، ص ص.١٦١-١٦٢؛ فاطمة بوعمامة، **اليهود في المغرب الإسلامي**......، م.س، ص ص.٢٠٥-٢٠٦.

(47) Hugh. E. M. Stutfield, op, cit, p.139; Alec John Dawson, Things Seen in Morocco: Being a Bundle of Jottings, Notes, Impressions, Tales, and Tributes, London, 1904, p.23.

(48) James Richardson, Travels in Morocco, V.II, London, 1860, p.4.

(٤٩) يُطلق مصطلح «الفترة»، على الأزمات العويصة طويلة المدى كتلك التي شهدها المغرب بعد وفاة السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي ١٦٠٣م، أو تلك التي أعقبت وفاة السلطان العلوي مولاي إسماعيل ١٧٢٧م، وكأن الأمر يتعلق بتلك المدَّة الفاصلة بين نبيِّين حينما تنقطع الرسالة السماوية ويُترك البشر دون هدى سوى من أنفسهم، وذلك للتدليل على هول الكارثة التي حلَّت بالبلاد والعباد. انظر: عبد الرحمن المودن، «الحوليات والأزمات السلطانية (١٧٢٧-١٧٥٧م) مصطلح الفترة»، في ندوة **الإسطوغرافيا والأزمة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى ١٩٩٤، ص ص.١٠٥-١١٣.

(٥٠) هو السلطان محمد بن اسماعيل الملقب بولد عربية أمّه عربية من الشاوية وبها عُرف. انظر: ماريا تير ميتلين، **اثنتا عشر سنة من الاستعباد رحلة أسيرة هولندية في بلاد المغرب ١٧٣١-١٧٤٣**، ترجمة وتقديم بوشعيب الساوري، دار السويدي للنشر والتوزيع، منشورات المتوسط إيطاليا، ط. الأولى ٢٠١٨، ص.٨٩.

(٥١) المقصود هنا عناصر من الجيش الذي قام بتشكيله السلطان مولاي اسماعيل العلوي، وهو جيش ضمَّ جنود سود من العبيد وعناصر سمراء كانت تسكن الواحات الجنوبية منذ أقدم العصور، وتُعرف باسم «الحراطين»، وقد أعطت سياسة مولاي اسماعيل العسكرية أكلها بحيث استطاع بفضلها فرض هيبة المخزن وسلطته في كل الجهات التي كانت تشمل التراب المغربي، فضلاً عن كونها ساعدته في مواجهة الخطر الأجنبي وطرد النصارى من بعض الثغور المحتلة. انظر: محمد مهناوي، تشكيل جيش البخاري ومسألة الحراطين من خلال مخطوط جني الأزهار ونور الأبهار»، **ضمن أعمال الندوة الوطنية**، الرق في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة، ٢٠١٠، ص.١٢٩.

(٥٢) ماريا تير ميتلين، **اثنتا عشر سنة من الاستعباد رحلة أسيرة هولندية في بلاد**...، م.س، ص.١٠١-١٠٣.

(٥٣) المصدر نفسه، ص ص.١٠٤-١٠٦.

(٥٤) المصدر نفسه، ص.١٠٢

(55) Walter Burton Harris, The Land of an African Sultan, Travels in Morocco 1887,1888, and 1889, London, 1889, pp.133-134.

(56) Budgett Meakin, «The Jews of Morocco », op, cit, p( ).392.

(57) Budgett Meakin, The Moors: A Comprehensive Description....., op, cit, p.447؛ «The Jews of Morocco»......, op, cit, p.392.

(٥٨) لا يتَّفق الطبيب الاسكتلندي روبرت كير مع هذا الحكم، ويُشدِّد على أن المخالفات ذات الطابع الديني أو الفساد أو ازدراء المحكمة لا يمكن التسامح معها إطلاقًا، فحينما يرتكب اليهودي مثل هذه المخالفات، فإنه يتعرَّض لمقاطعة شاملة من بني جلدته داخل الحيِّ، بحيث لا يُسمح لأحد بالشراء منه أو البيع له أو حتَّى الكلام معه، وإذا كان المذنب من ذوي النفوذ في المجتمع، فإنه يضطرُّ إلى السفر والتغيُّب عن القرية لمدة شهر (عطلة قسرية)، ثم يمنح مبلغًا ماليًا محدَّدًا إلى الفقراء، وإن لم يكن كذلك فسيكون مضطرًّا إلى تحمُّل العار. انظر: Robert Kerr, Morocco after Twenty-Five Years; A Description of the Country, Its Laws and Customs, and the European Situation, London, 1912,, pp.37-38.

(59) Budgett Meakin, The Moors: A Comprehensive Description....., op, cit, pp .448-449؛ «The Jews of Morocco»......, op, cit, p.393.

لا يتَّفق الباحث المصطفى فرحات مع هذا الطرح، بحيث نجده يخطو في اتجه معاكس تمامًا، ويُبرز أنَّ يهود الأطلس ويهود منطقة ابزو على وجه الخصوص معروفين بالصدق والوفاء وعدم خيانة الأمانة في المعاملات التجارية، لكن في المقابل، فإنهم يتعرَّضون للتدليس والخيانة من قبل شركائهم المسلمين. انظر: المصطفى فرحات، **اليهود في ابزو رحلة اللاعودة**......، م.س، ص.١٩٧.

(60) Raphael chijioke njoku, Cultur and Customs of Morocco, London, 2006, p.6.

(61) Emily Gottreich, The Mellah of Marrakesh: Jewish and Muslim Space in Morocco's Red City, Indiana University Press Bloomington, IN 47404-3797 USA, 2007, p.73.

(٦٢) يُقصد بالترتر رقائق معدنية أو بلاستيكية مستديرة لامعة صغيرة ذات ألوان متعدِّدة توشى بها ملابس النساء.

(٦٣) تعني الرَّكائب تلك الدعمات المعدنية التي تتَّصل بكل جانب من سرج الحصان، وهي ذات قاعدة مسطحة، والغرض منها دعم قدم الفارس.

(64) Emily Gottreich, op, cit, pp.99-102.

(65) Ibid, pp.119-120.

(66) Emily Gottreich, op, cit, p.111.

(٦٧) هشام الركيك، من حومة فندق اليهودي إلى ملّاح فاس الجديد، تجليات الحضور اليهودي في المشهد العمراني لمدينة فاس»، **في مجلة هيسبريس تمودا**، العدد الـ، مجلد ٢، ٢٠١٦، ص.٢٧٢.

(٦٨) عبد الرحمن بشير، **اليهود في المغرب الإسلامي**....، م.س، ص.٨٩.

(69) Edith Wharton, op, cit, p.113.

(٧٠) حاييم الزعفراني، **ألف سنة من حياة اليهود**.......، م.س، ص. ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٤.

(٧١) عبد الرحمن بشير، **اليهود في المغرب الإسلامي**....، م.س، ص ص.٩٥-٩٦.

(٧٢) هشام الركيك، «من حومة فندق اليهودي....»، م.س، ص.٢٧٢.

(٧٣) أحمد شحلان، **اليهود المغاربة من منبت الأصول إلى ريّاح الفرقة، قراءة في الموروث والأحداث**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط ط. الأولى ٢٠٠٩، ص.١٤١.

(٧٤) أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر**....، م.س، ص.٢٩٦.

(٧٥) عبد الله أيت يشو، «معالم من حياة اليهود المغاربة» **في مجلة كان،** دورية إلكترونية محكمة، العدد الثالث، ٢٠٠٩، ص.١٥.

(٧٦) خيرية قاسمية، **يهود البلاد العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط.الأولى، ٢٠١٥، ص.٣١٥.

(٧٧) اعتمد السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام في تنشيط التجارة الخارجية مع الأقطار الأوروبية ولاسيما مع الأراضي المنخفضة على أحد أفراد هذه الأسرة ويُسمَّى مَيِّر بن مقنين، ووضع رهن إشارته الأموال اللازمة لتحقيق هذه الإرادة السلطانية، ويتأكد ذلك من رسالته إلى القائد محمد أميمون المؤرخة في ٢٢ صفر عام ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م، والتي يُعلمه فيها بإنعامه على التاجر الذِّمي مَيِّر بن مقنين بوسق الثيران من مينائيَ طنجة وتطوان إلى بلاد الفلامنك مع تخفيضات مغرِّية في الرسوم الجمركية قائلاً له: «فاعلم أننا أنعمنا على خديمنا التاجر مَيِّر بن مقنين بوسق الثيران من مراسينا السعيديتيْن طنجة وتطوان عمَّرهما الله، وقصرنا وسق الثيران في المرستين المذكورتين عليه، وأن لا يسقه بهما أحد غيره ما عدا الثلاثة والثمانين رأسًا التي يسق اللنجليز عن كل شهر من طنجة ومثلها من تطوان، فإن ذلك يوسق، وأما غير هذا فلا يسق أحد ثورًا غيره، والوسق يكون على يده أو على يد أصحابه، ولا مدخل لك في صاكة ما وسقه من ذلك، وإنما تُعْلمنا بالعدد الذي يسقه، وأما الصاكة فبيننا وبينه». انظر **رسالة السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى القائد محمد أميمون، بتاريخ ٢٢ صفر عام ١٢٣٩هـ/١٨٢٣م. الأرشيف الوطني بلاهاي، سلسلة ٢,٠٥,٢٢، قنصلية طنجة ١٨١٥-١٨٣٠، رقم ٤٠.**

(٧٨) استفاد العديد من التُّجَّار اليهود خلال مرحلة ما قبل الحماية من امتيازات كثيرة مُنحت لهم من طرف السلاطين العلويين مقابل قضاء حوائجهم وأغراضهم المختلفة، فمن تلك الامتيازات، الاستفادة مما كان يُسمَّى بـ«الكنطردات» أي الاحتكارات التي كانت تسمح لتاجر معيَّن باحتكار تجارة بعض المواد، مقابل مبلغ يدفعه لبيت المال، وكانت هذه الاحتكارات تشمل بالأساس استيراد مواد أساسية، كالشاي، القهوة، والسكر، أو تصدير مواد مغربية، كالصُّوف والجلود وغيرهما، وقد عُرف هؤلاء التُّجَّار في المصادر التاريخية المعاصرة بـ«تجار السلطان»، ومن أشهر الأسر اليهودية التي لمع نجمها في هذا الميدان، أسرة آل مقنين، أسرة قرقوز، وأسرة بن دلاك. انظر: Emily Gottreich, op, cit, pp.119-120; محمد المنصور، مادة «تجار السلطان»، في **معلمة المغرب**، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، المجلد السابع، ١٩٩٥؛ دانييل شروتر، **يهودي السلطان المغرب وعالم اليهود السفرد**، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، دار أبى رقراق للطباعة والنشر ط. الأولى ٢٠١١، ص. ٦٣ وما بعدها؛ **رسالة السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام إلى القائد محمد أميمون...، م.س، رقم.٤٠.**

(79) Emily Gottreich, The Mellah of Marrakesh....., op, cit, p.103.

(٨٠) فاطمة بوعمامة، **اليهود في المغرب الإسلامي**......، م.س، ص.٦٠.

(٨١) عبد الله أيت يشو، «معالم من حياة اليهود المغاربة».....، م.س، ص.١٤.

(٨٢) يعود أصل عائلة آل قرقوز إلى الماضي الأندلسي، إذ جاء أسلاف هذه العائلة من إسبانيا والبرتغال إلى المغرب خلال القرن الخامس عشر الميلادي، ويبدو أن أحد فروع هذه العائلة كان مقيمًا في مدينة مراكش خلال القرن الثامن عشر، ولعل ميمون بن إسحاق كان ضمن المجموعة الأولى من تجَّار السلطان الذين أقاموا في مدينة الصويرة، ومات بالطاعون سنة ١٧٩٩م، وكان أبراهام وهو من أبناء عمومته من كبار تجَّار الصويرة في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وأربعنياته، ومن التجَّار الذين اعتمدوا في أعمالهم التجارية على السلفات السلطانية، وقد كان انتقاله من مراكش إلى الصويرة قبل هجوم الفرنسيين عليها في غشت ١٨٤٤م ببضع سنوات، وتابع آل قرقوز رحلتهم من حاحا إلى مراكش، فمكثوا بها حتى صيف ١٨٤٥م، وفي السنة الموالية تلقى شلمو والد أبراهام ظهيرًا سلطانيا يأمره بالانتقال إلى الصويرة للنظر في أمور تجارته وتسديد ديونه وما تبقى من ديون ولشاير Willshire الإنجليزي، وبقي يعقوب قرقوز في مراكش ينوب عن شلمو، ولمَّا كان هذا الأخير وكيلاً تجاريًّا للنائب القنصلي البريطاني ولشاير في مراكش، وفي حوزته ما تبقى من أمواله، قرَّر السلطان مولاي عبد الرحمان أن يواصل شلمو مسؤولية التصرُّف في تلك الأموال ويوظِّفها في التجارة الخارجية، وحينما توفي شلمو قرقوز في الصويرة سنة ١٨٥٣م، انتقل نجله يعقوب إليها سنة ١٨٥٧م ليستقرَّ بها بصفة دائمة بعد أن ترك ابن عمه حايِّيم نائبًا عنه في تسيير الأعمال التجارية في مراكش. انظر: دانييل شروتر، **تجار الصويرة، المجتمع الحضري والإمبريالية في جنوب غرب المغرب ١٨٤٤-١٨٨٦**، تعريب خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص ص.٧٢-٧٦.

(٨٣) شهدت العملة المغربية خلال القرن التاسع عشر انهيارًا كبيرًا ليس بسبب العجز التجاري المغربي أو لآليات تتعلق بالاحتكاك بين اقتصادين غير متكافئين، بل كان بسبب تفشي التزوير سواء بالنسبة للريال أو للبسيطة الإسبانية، وكان يسهل ذلك امحاء القطع القديمة، وكان ممن اشتهر بهذا الفعل الصُنَّاع اليهود والطلبة المسلمين، وقد أدى هذا التزوير إلى فقدان الثقة بالعملة، فلا يتبايع شخصان إلاَّ بعد أخذ الاحتياط الكامل، ولم يكن البائع يقبل قطعة نقدية إلاَّ بعد أن يشرك في فحصها شخصين أو أكثر، وإذا كان صانع يهودي بالجوار فنعم الخبير، أمَّا نقود الذهب فلا يجرؤ أحد على أخذها مخافة أخذ الفاسدة، غير أنَّ التزوير كان يطال الفلوس البرونزية بصفة أخصّ. انظر: أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر**....، م.س، ص.٢٧٥.

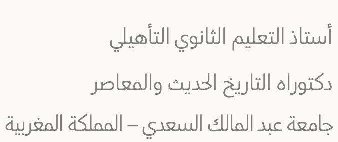
(84) Emily Gottreich, op, cit, pp.104-105.

(٨٥) أحمد شحلان، **اليهود المغاربة**.....، م.س، ص.١٤١.

(٨٦) عبد الإله الدحاني «منطقة الغرب في الكتابات الأجنبية خلال القرنين ١٧ و ١٨م» **في مجلة البحث التاريخي**، عدد مزدوج ٥-٦، ٢٠٠٨، ص.١٥٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

دور قبيلة بني مسارة
في القضاء على تمرد الجيلالي الزرهوني "بوحمارة"

د. إبراهيم بل العافية

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر

جامعة عبد المالك السعدي – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ

شكلت ثورة الجيلالي الزرهوني الملقب بـ "بوحمارة" (١٩٠٢ – ١٩٠٩) على المخزن المغربي في بداية القرن العشرين حدثا بارزا وفصلًا تاريخيا هامًا في تاريخ المغرب، أرخى بظلاله على جميع الأطراف الفاعلة في المغرب آنذاك، فالسلطة المركزية التي وجدت نفسها أمام ثورة منظمة وقوية كبدتها خسائر عسكرية ومادية فادحة، مما زاد من شعبية بوحمارة وزاد من رغبة الناس في الانضمام إليه. قاد بوحمارة حركة التمرد، مستغلاً استياء القبائل من الضرائب المفرطة والقمع المخزني. وقد ساهمت حركته هاته في إضعاف سلطة السلطان والتعجيل بسقوط البلاد في قبضة الاحتلال الأجنبي للبلاد. أما القبائل خاصة تلك المعروفة بضعف انضباطها لسلطة الدولة "قبائل السيبة" كقبائل جبالة ومن أهمها قبيلة بني مسارة التي وجدت نفسها في موقف حرج جدا من مجريات الوقائع والأحداث، فمن جهة السلطان الذي كانت لا تطيع أوامره وترفض الخضوع لضغطه الضريبي ولسلطته الزمنية بطرد أو قتل قواده، لكنها بالمقابل كانت تعترف بشرعيته الدينية وتدعو له على المنابر والمناسبات الدينية، ومن جهة أخرى الثائر "بوحمارة" الذي بنى مشروعية حركته على محاربة طغيان المخزن وتخليص القبائل من ضغطه وتهاونه في محاربة الضغوط الأجنبية..لكن القبيلة لم تجب على رسائله، ولم ترحب به لما حل بترابها، بل على العكس من ذلك ساهمت في القضاء على حركته وتسليمه إلى السلطان، وهذه حقيقة تاريخية مهمة تكشف بصدق وتفند الادعاءات خاصة الأجنبية على أن قبيلة بني مسارة لم تكن تنضبط لقرارات المخزن، وتعارض باستمرار تواجده العسكري عندما كان يتدخل لتهدئة المنطقة، إن عدم خوض بني مسارة في ثورة "بوحمارة" لدليل قاطع على عدم ميل المساريين إلى الانشقاق ذلك أن "بوحمارة" دعي لا يمثل الشرعية، وأن سلطة السلطان شرعية لا يمكن البتة الخروج عليها، ولهذا مالت القبيلة إلى جانب المخزن "الشرعية"، وساهمت في القبض على بوحمارة وتسليمه له لما حل الثائر بترابها.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٩	يوليو	٢٠٢٣
تـاريخ قبــول النشــر:	٢١	أغسطس	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

المخزن؛ بوحمارة؛ وزان؛ الصراع؛ بني مسارة

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.342796 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

إبراهيم بل العافية. **"دور قبيلة بني مسارة في القضاء على تمرد الجيلالي الزرهوني بوحمارة".** - دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ١٦٦ – ١٧٤.

Corresponding author: ibrahimbelafia9@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

في مطلع القرن العشرين، برزت شخصية "بوحمارة" كأحد الثوار الذين قادوا تمردا شجاعا على سلطة المخزن في شمال شرق المغرب. برزت شجاعته وعزيمته خلال مواجهته لمحاولات الجيش المخزني للقضاء على ثورته. واستطاع أن يثير الهلع في صفوف النظام المخزني بأكمله. كانت هذه الثورة لحظة تاريخية حاسمة في تاريخ المغرب، حيث تجسدت فيها صراعات السلطة مع حركة ثورية منظمة ومؤطرة تعمل بكل قوة ووضوح. استطاع " بوحمارة" أن يحشد القبائل بجانبه وأن يشوه سمعة السلطان بمختلف الأوصاف كبيع البلاد للأجانب. يجدر بالذكر أن قبيلة بني مسارة رفضت الانضمام إلى حركة "بوحمارة" في محاولة لتفادي الصراع بين الجانبين والحفاظ على حيادها. ومع ذلك، كانت القبيلة تتعرض لضغوط من المخزن، الذي استخدم الشرفاء الوزانيين كوسيلة للحيلولة دون انضمام المساريين إلى صفوف الثائر. بالمقابل، ظهرت رسائل من "بوحمارة" موجهة لبني مسارة كمحاولة لجذب الدعم الشعبي، حيث حاول فيها بناء صورة سلبية عن السلطان المخزني، ومُظهرًا نفسه كرمز للجهاد والدين. في هذا المقال، سنستعرض لأول مرة كدراسة أكاديمية بالمغرب تعرضت لهذا الموضوع هذه التداعيات التي أحدثها اندلاع ثورة "بوحمارة" على قبيلة بني مسارة. وكيف أثرت على علاقاتها مع السلطة المخزنية في تلك الفترة الزمنية المحورية؟ كما سنحاول فهم الدوافع والمخاطر التي دفعت السلطان إلى طلب التدخل السريع والحازم للقبيلة في الصراع، وكذلك نلقي الضوء على رد الفعل والاستجابة التي قدمها أفراد قبيلة بني مسارة في مواجهة هذه الحركة، وكيف أثر ذلك في مسار الثورة بالقبض على "بوحمارة" داخل القبيلة؟

أولاً: ثورة "بوحمارة" وتداعياتها على قبيلة بني مسارة

١/١-التعريف بالثائر "بوحمارة"

هو الجيلالي بن عبد السلام بن إدريس الزرهوني الملقب بـ"بوحمارة "وأيضًا "الروكي" و"الثائر"، ولد بمدشر أولاد يوسف بزرهون ١٨٦٥م أو ١٨٦٨م[١]، كان ذا معرفة وإلمام بعلوم التنجيم والحساب وبأمور الدين والشرع، كما عرف عنه قدرته الفائقة على التزوير[٢]، عمل عونا للقائد عبد الكريم ولد بامحمد الشركي، وصار كاتبا مخزنيا لخليفة السلطان بفاس الأمير أبي حفص عمر بن الحسن الأول وأخ السلطان المولى عبد العزيز[٣].

بسبب غضب الأمير مولاي عمر على بيعة أخيه عبد العزيز أوعز إلى أعوانه؛ الجيلالي "بوحمارة" والمهدي المنبهي ومحمد أنفلوس بزجر الفاسيين ممن أظهروا الفرح بالبيعة وتمزيق طبولهم[٤]، فألقى المولى عبد العزيز القبض على الأعوان الثلاثة وأودعوا السجن، وبعد خروجه من السجن صار يجول في المغرب الشرقي راكبا حمارة "أتانا" والتي ورث منها لقبه "بوحمارة"[٥]، متنكرا بلباس الصوفية والزهد، ومتقمصا لصفة الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر موهما الناس بأنه المهدي المنتظر "مول الساعة"[٦]. هاجم المخزن واتهم السلطان المولى عبد العزيز بالعمالة والخضوع للأجانب، ادعى أنه هو مولاي امحمد الابن الأكبر للسلطان الحسن الأول، قام ليخلص أخاه الأصغر من قبضة النصارى، ويحرر البلاد التي استولوا عليها[٧].

أعلن ثورته بضريح سيدي محمد بن لحسن الجاناتي، وبايعته عدة قبائل أهمها الحياينة ـ غياثة ـ التسول ـ البرانس ...فحالفوه على ألا يخالفوه، وأن يضحوا بأنفسهم وأموالهم دونه[٨]. وقد دارت بين الثائر والجيوش السلطانية حروب ومناوشات ومطاردات استمرت ٧ سنوات من ١٩٠٢ إلى ١٩٠٩م، كما تطلبت مواجهته أموالا ضخمة لتلبية نفقات المستلزمات الحربية، وأصبح المغرب في ضائقة مالية أدت إلى سقوطه في دوامة الاقتراض من البلدان الأوربية.

استولى "بوحمارة" على قصبة فرخانة وتازة، وألحق هزائم متوالية بالجيش السلطاني مستفيدًا من الدعم الإسباني والفرنسي حيث أمداه بالمال والذخيرة والسلاح، مقابل عقد صفقة خولت للدولتين المذكورتين حقوق استغلال معادن بني بويفرور لمدة ٩٩ سنة مقابل ٦٥٠٠٠ بسيطة[٩]، وقد أدى تعامله مع النصارى إلى انقلاب قبائل الريف ضده، وبدأت تحاربه بشدة وخاصة قبائل قلعية بزعامة الشريف محمد أمزيان، فكبدوه خسائر فادحة، أجبرته على الفرار من المنطقة الشرقية

والاتجاه نحو طنجة، لكن الجيش السلطاني تمكن من تعقبه وكانت آخر معركة بين الطرفين في أرض قبيلة بني مزجلدة[١٠]، أما نهاية حركته فكانت بقبيلة بني مسارة.

٢/١-تداعيات اندلاع ثورة "بوحمارة" على قبيلة بني مسارة

حظيت قبيلة بني مسارة باهتمام كبير من طرف المخزن والثائر الجيلالي بن إدريس الزرهوني الملقب بـ "بوحمارة" على حد سواء، نظرًا لوعي كل طرف بالوزن الذي قد تشكله إذا انضمت إلى الطرف الأخر، إنها الصخرة التي انكسر عليها الصراع، وما يدل على أهميتها لدى السلطان واستعجاله في القضاء على بوحمارة وحشد القبائل ضده، بعثه برسالة إلى بني مسارة في السنة الأولى لاندلاع الثورة، حيث كان السلطان يخشى من استفحال أمره إذا تغافل عنه، وفي موقف السلطان هذا ذكاء وبعد نظر بالحيلولة دون وقوع القبيلة تحت تأثير حركة الثائر.

وفيما يلي نص رسالة السلطان المولى عبد العزيز والمؤرخة بتاريخ ١٣ رمضان عام ١٣٢٠هـ - ١٩٠٢." خدامنا الأراضين كافة قبيلة بني مسارة، أخص منهم عمالهم وأعيانهم وكبراؤهم، وأهل الحل والعقد حفظكم الله ورعاكم وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:" فقد علمتم ما تظاهر به الفتان الذي استعان بغياثة على ما سوله الشيطان وصار يسود صحائف رعيتنا السعيدة، ويتسبب في حل نظام القبائل بأوهام غير مفيدة، وآثر بذلك مخالفة السنة والجماعة والخروج عن الإيمان والطاعة: قال عليه الصلاة والسلام من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، ومن خرج عن طاعة الإمام ثم مات فقد مات ميتة جاهلية، وبسبب تلبيساته وتدليسه واستهوى ذوي العقول الخفاف وصار يورطهم في مواقع العقوق والخلاف ويغريهم على الانحلال والانحراف، لولا لطف الله لعم الهلاك والعقوق والعقوبة للجميع. واستوى في المؤاخذة به العاصي والمطيع، ولكن رددنا وجهتنا السعيدة لتلك النواحي بسببه، وعزمنا على الاستيلاء عليهم جميعا بما لا قبل لهم به حتى يصيروا عبرة لمن اعتبر، ولا يبقى لهم بين الرعية أثر، لكننا تأنينا في أمورهم وتمهلنا حتى يميز الخبيث من الطيب، وعلمنا أن جل أهل الدين والعقل لم يرضوا بهذا الخبيث، فاقتضى نظرنا الشريف أن نكتب لسائر الصالحين والقبائل في شأن تحصيل الفاسد المذكور، ليتحقق لنا من يبادر إلى هذه المزية بعمل مشكور وعليه، فنأمركم أن تجعلوا أمره من الأمر المهم الأكيد، وتنصبوا له الأرصاد بجهاتكم وعدم إفلاته، وتعملوا جهدكم أن يجعل الله مزية التمكين منه على أيديكم وتستوجبوا بها من الجزاء والثواب ما ينجيكم بحول الله ويرضيكم، وها نحن من وراء ما نسمع عنكم في شأنه بحول الله أعانكم الله وألهمكم برشده والسلام عليكم. ١٣ رمضان عام ١٣٢٠هـ[١١].

ما يلاحظ على رسالة السلطان:

- أن تاريخها مبكر جدا حيث أرسلها مباشرة بعد اندلاع الثورة، وهذا يدل على الانزعاج والخطر الذي شكلته الثورة على سلطة المخزن وتخوفه من دخول هذه القبيلة تحت طاعته بما تمثله من قوة.
- تضمين الرسالة أخبارًا غير واقعية مفادها أن السلطان تأنى فقط في مقاتلة بوحمارة والقبائل الداعمة له، بينما الوقائع التاريخية تكذب ذلك[١٢]، حيث تعرضت الجيوش المخزنية لعدة هزائم على يد الثائر منذ البدايات الأولى لحركته التمردية، وهذا حتى لا يظهر السلطان عجزه أمام القبائل لكي لا تتشجع وتميل إلى الثائر، فما بالك بقبيلة قوية ثائرة كقبيلة بني مسارة التي كانت منذ مدة لا تعترف إلا بسلطته الرمزية.
- لم تكن قبيلة بني مسارة قبيلة سيبة وفوضى وطغيان كما يظهر الأجانب ويحلو لهم أن ينعتوها، ككتابات موليراس، دوشاتلييه... بل أن القبيلة كما تظهر الرسالة كانت تشارك المخزن همومه وتساهم معه في القضاء على كل من يهدد عرشه.

بدوره كتب "بوحمارة" رسالة وجهها إلى أعيان وكبراء بني مسارة تستهدف استدراجهم إلى صفوفه وحركته، وتعكس المكانة التي احتلتها بني مسارة في الصراع الدائر بينه وبين المخزن، وتعكس جانبا من استراتيجية بوحمارة في جر القبائل وكسب الأنصار، وتعبر بصدق عن قوة الصراع والظروف القاهرة التي دفعت بوحمارة

إلى طلب مساعدة بني مسارة، يقول الثائر في رسالته:" إلى خدام الأعتاب الشريفة كافة قبيلة بني مسارة وفقكم الله ورعاكم وسلام عليكم ورحمة الله وبعد: فقد طرق بسمعكم أن المسلمين قد بايعت للنصارى على يد كبير الرعية،(١٣) وقد قمنا بإذن من الله ورسوله غيرة على الدين بجهاد الكفرة اللئام، كما قال تعالى: (وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)(١٤) إلى غير ذلك من الآيات الواردة في ذلك، وعليه إن كنتم تحبون الله والرسول والجهاد في سبيل الله كما كانت عليه أسلافكم، فلا ينبغي للقبائل أمثالكم أن يتغافلوا عن هذا كل التغافل، وقد سمعتم بهذا الواقع، وعليه فنأمركم أن تقدموا إلى حضرتنا الشريفة، بحركة الخيل النافعة والرومة الصحيحة بالحزم والضبط والإتقان في ذلك، حتى يرتد أهل الكفرة ويرجعوا إلى الجادة أصلحكم الله ٢٢ أبريل سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م، وختمت الرسالة بخاتمي بوحمارة الكبير والصغير.

ما يلاحظ على رسالة بوحمارة، أنه كان يصدر رسائل وظهائر إسوة وقدوة بالملوك العلويين، ويختمها بطابعه الكبير أو الصغير أو بكليهما.

- قيامه بحشو الرسالة بكل ما من شأنه أن يسود ويشوه صورة السلطان، لدى الرعية والقبائل، من خلال الإشارة إلى بيعته للنصارى، " أن المسلمين قد بايعت للنصارى على يد كبير الرعية ".
- إظهاره نفسه كالمهدي المنتظر الذي جاء ليطهر الأرض، ويملأها عدلا بعدما ملئت جورا، جاء لإحياء الدين وإعلاء كلمة الإسلام بجهاد الكفرة اللئام" وقد قمنا بإذن من الله ورسوله غيرة على الدين بجهاد الكفرة اللئام".
- دغدغة مشاعر أبناء بني مسارة، بتذكيرهم بما قام به أسلافهم من إعلاء لكلمة الله والجهاد في سبيله حتى يجرهم إلى حركته وصفوفه:" وعليكم إن كنتم تحبون الله والرسول والجهاد في سبيل الله كما كانت عليه أسلافكم، فلا ينبغي للقبائل أمثالكم أن يتغافلوا عن هذا كل التغافل."
- لكن ما يثير الانتباه في الرسالة، وما كان يطلبه بوحمارة من بني مسارة، هو الانضمام الفعلي والعملي للقبيلة إلى حركته من خلال تزويده بالعدة والرجال والخيل، حتى يعزز صفوفه في مواجهة الجيش المخزني." وعليه فنأمركم أن تقدموا إلى حضرتنا الشريفة بحركة الخيل النافعة والرومة الصحيحة بالحزم والضبط والإتقان".

ثانيًا: موقف قبيلة بني مسارة من ثورة "بوحمارة" وظروف القبض على بوحمارة بضريح مولاي عمران ببني مسارة

٢/١-موقف قبيلة بني مسارة من اندلاع ثورة "بوحمارة"

أثبتت الوقائع أن بني مسارة لم تبال بالطرفين معا، ولم تستجب لطلبهما، والتزمت الحياد التام في الصراع، رغم محاولة المخزن جرها إليه منذ البداية، عندما أقدم القائد الأمراني على أخذ أعيان من القبيلة رهائن ليقاتلوا معه الثائر(١٥)، وحتى يمنع انضمام القبيلة إلى بوحمارة، وكانت خطة حربية ذكية من طرف القادة المخزنيين. لكن أهم ما استفاده المساريون من هذه الثورة هو التخلص من القائد الأمراني الذي أذاقهم الويلات، إضافة إلى توجيه أنظار المخزن إلى جهات أخرى، حيث تخلصوا من ضغطه وثقله. كما أن الناس كانوا يخشون انتقام المخزن إن ساعدوا الثائر(١٦)، لكن وبالرغم من ذلك تم إقحام بني مسارة في مسرح الصراع، حيث سيعرض عليها الفصل الأخير من ثورة بوحمارة، عندما قبض عليه داخل ترابها، فكيف تم ذلك؟

كما هو معلوم، فقد تمكن الجيش المخزني بعد بيعة المولى عبد الحفيظ سنة ١٩٠٨م من إنزال ضربات موجعة بالثائر "بوحمارة"، حيث أجبروه على الفرار من المغرب الشرقي، والاتجاه نحو حرم مولاي عبد السلام بن مشيش بجبل العلم قصد التفاوض حول الأمان، لأنه صار يعتقد أن قضيته أصبحت خاسرة(١٧). وكانت آخر معركة بينه وبين المخزن هي معركة بني مزجلدة التي هزم فيها الثائر، ومنها انسل هاربا إلى ضريح مولاي عمران ببني مسارة للاحتماء به، وقد أشار البكاري أنه استقر بهذا المقام ثلاثة أشهر قبل القبض عليه وتسليمه إلى الجيش المخزني، وإن اختلفت المصادر في من قبض عليه وكيفية ذلك.

كان المخزن قبل حلول الثائر "بوحمارة" ببني مسارة، قد اتخذ جملة من الإجراءات الاحترازية والاحتياطات الضرورية، خوفا من اتساع نفوذ الثائر، خاصة في قبيلتي بني مسارة وبني مزجلدة، فهما قبيلتان خطيرتان، ولا يمكن أن يؤمن جانبهما بالنسبة للمخزن، إذ كانتا دائمتي التمرد عليه وعصيان أوامره، بل إن بني مزجلدة كانت قد هاجمت سنة ١٩٠٣م محلة مخزنية اقتربت من أراضيها عندما كانت تتابع سير قوات بوحمارة هناك[١٨].

لهذا لم يكن المخزن يثق في القبيلتين، وفي حال انضمامهما إلى "بوحمارة"، فإن أمره سيستفحل وسيجد الثائر أرضية جديدة بغرب المغرب، سيجدد بها تمرده ونشاطه بعد فشله في شرق المغرب، اعتمد المخزن بشكل مباشر في حسم مسألة احتمال انضمام قبائل جبالة إلى بوحمارة على شرفاء وزان، الذين كان يعتمد عليهم كثيرا في إبطال مفعول دعاية الثائر. "لما لهم من تأثير كبير على جيرانهم جبالة، حيث كانت مواعظهم وخطبهم تسير بموازاة مع المحلة، وقد كان لمساعداتهم وتدخلاتهم هاته، أثرًا طيبًا وقويًا في نفس المخزن"[١٩].

لقد كان الشرفاء الوزانيون أوفياء في خدمتهم للمخزن في حربه ضد "بوحمارة" من مبتدإ أمره[٢٠]، وحتى بعد فشل ثورته في الشرق وتوجهه غربا نحو قبائل جبالة المترددة والمشكوك في ولائها للمخزن، والذي توصل بمعلومات من شريف وزان تشير إلى أن القبيلتين عازمتان على معاونة "بوحمارة" والضرب معه، يقول المولى عبد الحفيظ:" وبعد، وصل كتابك معلما بورود الخبر عليك، بأن الفتان دمره الله، نزل بمحل بتراب بني مزجلدة بطرف بني مسارة، وأن القبيلتين المذكورتين عازمتان على الضرب معه.."[٢١].

كانت للمخزن معلومات تفيد بأن "بوحمارة" كان له نشاط دعوي وسط سكان القبيلتين، ويحرضهم على الانضمام إليه، ويحذرهم أن جيوش المخزن ستستبيح ديارهم إذا لم يناصروه[٢٢]، وأن بهما من يؤيده ويرغب في مساعدته ونصرته والانضمام إلى حركته إن حل بالقبيلتين، ولهذا اتخذ المخزن الحفيظي جملة من الإجراءات لإبطال مفعول حركة بوحمارة بالمنطقة من أهمها:

- تنبيه القادة المحليين إلى ضرورة اليقظة والحذر في رصد بوحمارة وضربه هو وأنصاره، حتى لا تجتمع حوله الجموع لما يحل بالمنطقة. وحثهم على ضرورة الحذر الشديد والضرب بقوة على يد ثوار القبيلتين إن حاولوا مساندة الثائر.
- مراسلة شرفاء وزان في شخص نقيب الزاوية الشريف مولاي علي بن محمد الوزاني، وحثه على ضرورة تكثيف الدعاية بين الناس وتحريضهم على التصدي لبوحمارة وضربه بقوة إن حل بتراب القبيلتين وتحذيرهم من مغبة التعاون معه.

يقول السلطان المولى عبد الحفيظ في رسالة وجهها إلى شريف وزان مولاي علي بن محمد الوزاني في هذا الشأن:" وأنت كتبت لكبراء المحلة بارتكاب الكيفية التي ظهرت لك والزحف إليه والأخذ ما بالفساد ليقضى الغرض فيهم قبل انتشاره، وأنت توجهت لوزان لمقابلة ذلك الجانب وصار بالبال، فقد أحسنت في ذلك ولتقم على ساق الجد في حسم مادة المارق، وقطع دابره بكل ما أمكنك من وجوه السياسة وتحريض تلك القبائل على ضربه والتضييق به وحذرهم من التساهل في أمره والتنكيل به والإحداق به من كل ناحية"[٢٣].

لقد قام الشريف الوزاني بواجبه، واتصل بقبيلة بني مسارة خاصة فرقة بني يمل[٢٤]، والتي حاول تحريضها على "بوحمارة"، يقول السلطان المولى عبد الحفيظ في هذا الصدد:" ثم ورد عليك جميع بني يمل من بني مسارة وكلمتهم في القبض عليه أو قتله وتوجهوا من عندك مصممين على ذلك"[٢٥]، وقد تكرر ذكر فرقة بني يمل بكثرة في رسائل السلطان إلى قادته المحليين، وإلى شريف وزان عند حديثه عن قبيلة بني مسارة، وكأن السلطان لم يكن يخش من المساريين إلا ثورة هذه الفرقة، هل للعقاب الشديد الذي عوقبت به الفرقة على يد الأمراني سنة ١٩٠٢م دخل في جعل المخزن يتخوف من ثورتها انتقامًا منه على ما فعله؟

إن ما ارتكبه هذا القائد من فظائع؛ ومنها قطع سبعين رأسا من سكان القبيلة خاصة من فرقة بني يمل لا يمكن نسيانه، وأن الفرقة كانت تتحين الفرص لتنتقم من المخزن، وليس في الانضمام إلى ثورة "بوحمارة" خير

من ذلك، ولهذا اغتبط السلطان كثيرا لما تم إخباره، بأن هذه الفرقة التزمت الحياد، وأنها لم تنضم إلى الثائر بعد تدخل شريف وزان، جاء في نفس الرسالة: "... أما ما أكدت به على بني يمل فقد قمت فيه بالمتعين أصلحك الله"[٢٦]، وعلى عكس ما كان يتوجس منه المولى عبد الحفيظ، فقد أثبتت الوقائع أن تخوفه من بني مسارة وبني مزجلدة لم يكن في محله، فهما لم ينضما إلى الثائر بل على النقيض من ذلك، ساهمتا في تكسير شوكته وهزم قواته لما حل بتراب قبيلة بني مزجلدة، وفي القبض عليه لما فر إلى بني مسارة عندما احتمى بحرم مولاي عمران بدوار الزاوية الواقع في شمال القبيلة[٢٧].

٢/٢-ظروف القبض على الثائر "بوحمارة" داخل قبيلة بني مسارة

بعد انتصار الجيش المخزني على الثائر "بوحمارة" في آخر معركة بينهما على تراب قبيلة بني مزجلدة، انسل الثائر خفية إلى قبيلة بني مسارة المجاورة، حيث احتمى بحرم مولاي عمران بقرية الزاوية شمال قبيلة بني مسارة[٢٨]، حيث لبث به ثلاثة أشهر وكان يحضر الصلاة في الأوقات الخمسة وصلاة الجمعة بمسجد القرية، ويقرأ الحزب مع الناس مساءً وصباحًا، وكانت الجمعة تقام باسمه[٢٩]، وكاد أن يقتل فقيه المسجد لما دعا في خطبته للسلطان، ولولا فطنة هذا الأخير الذي بادر بإلقاء قصيدة شعرية تمدح "بوحمارة" لفتك به، لكنه عفا عنه وسامحه[٣٠].

ويبدو أن القسوة وسوء المعاملة التي أبداها الثائر اتجاه فقيه المسجد وسكان القرية، ولتعبهم من مؤونته وتغذيته هو وأتباعه[٣١]، كانت من بين الأسباب التي جعلت القبيلة تتربص به، ولا تنصره، وتشي به إلى قادة المخزن، وتساعدهم في القبض عليه، يقول سالم العبدي أحد جنود الحملة المخزنية: "وفي أحد الأيام جاءنا أهالي بني مستارة، يخبروننا أن قوات بوحمارة قد تلاشت، وأن فرسانه يغادرون شيئا فشيئا، وأنه لم تعد له الأموال الكافية، ولم يبق حوله سوى حريمه وخمسين فردا من العبيد، ومن السهل القبض على هذا المتمرد الذي تعبوا من مؤونته وتغذيته"[٣٢]، ومن جهة أخرى تخوف الناس من القمع والبطش الذي سيتعرضون له من طرف القادة المخزنيين، إن ناصروا الثائر أو تقاعسوا عن نصرة القوات المخزنية، فالإجراءات القاسية التي اتبعها القائد البغدادي قائد الحملة المخزنية اتجاه بني مزجلدة بإشعال النار في أراضيهم، ومعاقبتهم عقابًا شديدًا على سماحهم بمرور بوحمارة من مجالهم الترابي دون إيقافه[٣٣].

كما أن ما وقع للمساريين سابقا علي يد القائد الأمراني سنة ١٩٠٢م كان لايزال ماثلا أمام أعينهم، مما جعلهم يتجنبون الوقوع في مشاكل مع المخزن من جديد، لأنه لم يكن يتوانى أبدا عن إنزال أشد العقاب بالسكان إن رفضوا طاعنه فما بالك بمن ناصروا "بوحمارة"، كما أنه لا يجب الإغفال كذلك إلى أن القائد الأمراني كان قد أخذ معه رهائن من أعيان القبيلة بعد انسحابه منها سنة ١٩٠٣م، ونحن لا نشك في المصير الذي سيلقونه إن ناصر إخوانهم الثائر، لقد كان السكان في حالة توجس وخوف شديدين من عواقب ما قد يفعله الجيش المخزني بهم إن تستروا أو ساعدوا بوحمارة، وهذا ما يظهر جليًا من كلام الناجم الخصاصي أحد القادة المخزنيين الذين قبضوا على بوحمارة: "... فتجاوزنا المشهد قليلا، فرأينا تساقط الرجال علينا من القرى التي تجاور تلك الناحية، فتراكموا على مقربة منا مبتعدين، يتصايحون بنا قائلين (نحن والله والشرع معكم يا أصحاب السلطان) وقد علاهم الخوف من الجيش. فقلت لهم وقد رفعت عقب البندقية وأنا أسير إليهم - وتلك علامة المسالمة: أخرجوا إلينا منكم من نتكلم معهم، وعليكم الأمان التام، فإننا لا نطلب إلا طلبة السلطان أبا حمارة الفتان، فقيل لنا: إنكم تركتموه وراءكم في المشهد، فقد اختبأ فيه عنكم، فرجعنا فدهمنا المشهد"[٣٤].

لكل هذه الأسباب أوشى الناس بالثائر "بوحمارة" إلى الجيش السلطاني الذي أسرع الخطى للقبض عليه، بل أكثر من ذلك أن بعض المساريين ساعدوا من قبل الجيش المخزني في عبور مسالك بلادهم الوعرة الموصلة إلى قرية الزاوية حيث يختبئ "بوحمارة"[٣٥]، وقد دارت بين الجانبين معركة طاحنة سقط خلالها عدد كبير من قتلى الطرفين[٣٦]، وتحصن "بوحمارة" بداخل الضريح، وهو ما اضطر الجيش المخزني إلى إشعال النيران به، ولما امتلأ بالدخان خرج "بوحمارة" حيت تم القبض عليه[٣٧].

ولابد أن نقف هنا على مسألة تحديد الطرف الذي قبض على "بوحمارة"، فهناك تضارب كبير في المصادر، فمنها من يؤكد أن الناجم الخصاصي هو الذي قبض على الثائر، حيث جاء في شهادته التي اعتمدها المختار السوسي في كتابه المعسول، كيف نجح هو ومجموعة من جنده في اكتشاف مخبأ بوحمارة وحصاره، يقول القائد الناجم:" فاقتحمنا المكان وأوقدنا حوله النار... فلما اشتد الدخان على أبي حمارة اندلق من المحل، فانقضضنا عليه، فكنت أول من لمسته يده"(٣٨)، أما سالم العبدي شاهد لويس أرنو، فأشار إلى أن العديد من قادة الرحى هم الذين قبضوا عليه:"... وأحاط قواد الرحى(رتبة عسكرية) فرحين بكونهم هم الأوائل الذين عرفوه، وكان منهم ابن الجيلالي، والسغال الزمراني، وعقرة والناجم"(٣٩).

أما عبد الرحمان ابن زيدان، فذكر أن العشي هو من اعتقل "بوحمارة"(٤٠)، بالمقابل أكد التهامي الجوهري أن من أنهى تمرد "بوحمارة" هم المساريون الذين ترصدوه وقبضوا عليه وسلموه للقوات المخزنية خاصة عناصر من فرقة شرفاء أولاد جنون المسارية(٤١)، ويؤيد هذا الكلام الأجانب، ومن بينهم كزافيي دو مونطال (Xavier de Montal) بقوله:" أشعل البغدادي النار في أراضي بني مزجلدة، فعاقبهم على السماح لهم بمرور "بوحمارة" دون إيقافه، هذا التكتيك كان ناجحا على الفور، فخوفا من المعاناة من نفس المصير، تحولت قبيلة بني مسارة التي كانت مرعوبة حتى يومنا هذا من قوة الروكي فجأة وهجمت على معسكر الأخير، وبعد صراع عنيف دام جزءا من اليوم. رأى بوحمارة أن وحداته الأخيرة قد تخلت عنه، فعاد بسرعة إلى ضريح مولاي عمران الذي لا يمكن انتهاكه. وحذرا مما حدث للتو، جاء بوشتى البغدادي في مسيرة سريعة إلى مكان القتال، وأشعل حريقا حول مكان تراجع الروكي. ولم تكن النتيجة طويلة الانتظار، فقد خرج "بوحمارة" من الضريح، نصف مختنق وأفرغ آخر رصاصاته على أول جنود قابلهم، وكان هذا جهده الأخير"(٤٢).

أما عبد السلام البكاري فأكد استنادا على الروايات الشفوية لمن عاصروا الأحداث وشاركوا في معركة القبض على "بوحمارة"، أن أول من قبض عليه هم المساريون على يد السيد أحمد بن الأشهب العمراني، يقول البكاري في هذا الصدد:"... واتصلت مع فقهاء المنطقة الذين قبضوا عليه، ومع رجال زومي وشيوخها، وحتى الذين كانوا شهود عيان، وعلمت من ذلك كله، أن بني مسارة هي الأخرى كانت مسرحا لثورة الثائر وأن الذي قبض عليه أولا، هو السيد أحمد بن الأشهب العمراني، وحكى هذا السيد أنه بعد معارك مع الثائر ومحاصرته بالزاوية المذكورة سأله: أأنت ابن الحسن الأول؟ فأجاب: أنا ابن مولاي (القرطاس)، وأضاف قائلاً: أنه بعد القبض عليه سلم مباشرة إلى رؤساء الجيش الحفيظي الذي كان مقتفيا أثره للقضاء عليه، وأن القائد الذي تسلمه هو القائد الناجم الخصاصي السوسي"(٤٣)، كما يؤكد هذا الكلام أيضا البيت الزجلي التالي المشهور في العيطة الجبلية المحلية.

مَولاَي عَمرَان الحبيب شَاي الله الوَلِي
بنِي مَسَّارَة الأحرَار رَاهُم قُبضوا الجِيلاَلِي(٤٤).

ومهما كان الطرف الذي قبض على الثائر "بوحمارة"، فالأكيد أن بني مسارة كان لها دور بارز وكبير في القضاء عليه؛ بعدم الانضمام إليه والوشاية به إلى الجيش المخزني، إضافة إلى المساهمة الفعلية في معركة القبض عليه، وقد تم كل ذلك عشية يوم الأحد ٥ شعبان ١٣٢٧هـ(٤٥) موافق ٢٢ غشت سنة ١٩٠٩م، حيث انتزع منه كل ما كان بحوزته، ومنها خنجرا ومسدسا وخنشة صغيرة مملوءة بطوابع كان يطبع بها رسائله التي كان يوجهها إلى القبائل والتمائم المخيطة بخيوط الذهب الحقيقي(٤٦)، واقتيد وهو مغلولاً إلى فاس، وسبى جبالة بني مسارة نسائه، بالمقابل باع أفراد المحلة السلطانية عبيده وإماءه(٤٧).

وقد أورد المختار السوسي في كتاب المعسول حوارًا شيقًا دار بين الثائر والقادة المخزنيين يظهر فيه بوحمارة الندم الشديد على ترك المغرب الشرقي والإتيان إلى بني مسارة، حيث كانت نهايته:" وصار أولئك القواد يوبخونه ويلومونه على ما فعله يقولون له، عذبتنا وأهلكت المغرب طيلة سبعة أعوام، وأكثر عليه الناجم في التنديد والتثريب، فالتفت بوحمارة إلى ولد بامحمد الشركي،

قائلا له قل لصاحب الركب يسكت عني يعني الناجم، فأجابه ولد بامحمد أنه القائد الناجم ليس بصاحب الركب... ثم التفت أبو حمارة إلى الناجم فقال له، أقرأت كتاب مشارق الأنوار؟ فأجابه الناجم بأنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، فقال له أبو حمارة لم تصدع رأسي وأنت لم تقرأ حتى كتاب مشارق الأنوار، وزاد أبو حمارة قائلاً: "إن كل ما رأيت جار على وفق الأقدار، لأنني أنا تركت بلاد السبيب (قبائل شمال مدينة فاس التي كانت معروفة بتربية الخيول) وجئت إلى بلاد الزبيب (منطقة جبالة التي اشتهرت بصناعة الزبيب من العنب)، فقال له القائد محمد القريضي المساري الجبلي. ولكن لا تغفل أن الله لم يمكن منك إلا في بلاد الزبيب، فقال له بوحمارة إنكم يا أبناء جبالة، لستم رجال الملحمة وإنما أنتم رجال التنفحة (التبغ)" (٤٨).

خَاتِمَةٌ

اتضح انطلاقًا مما سبق، أهمية الإشارة إلى العلاقة بين الثائر "بوحمارة" وقبيلة بني مسارة لاستجلاء حقيقة موقفها منه، ومن جهة أخرى معرفة مدى تمدد نفوذه غرب الريف خاصة في منطقة جبالة، يظهر بوضوح عدم وجود أي صلة بين الثائر "بوحمارة" وقبيلة بني مسارة. فقد أشارت مختلف المصادر المتعددة التي اعتمدناها وظروف القبض عليه داخل بني مسارة على عدم وجود أي علاقة بين القبيلة والثائر، وأنها لم تستجب لدعواته، ولم ترحب به لما حل بترابها ولم تقدم له أي دعم، بل على العكس من ذلك، قامت بمساعدة القوات المخزنية في القبض عليه وتسليمه للسلطان. يعكس هذا الوقوف الثابت لقبيلة بني مسارة تمسكها بالشرعية واحترامها لسلطة السلطان. على الرغم من وجود التوترات في المنطقة وتدخل القوات المخزنية في عدة لقمع القبيلة وتهدئة المنطقة بالقوة، إلا أن القبيلة لم تتجاوز الخطوط ولم تنشق عن السلطة المركزية. تجلى هذا في عدم مشاركتها في الثورة وعدم دعمها لبوحمارة، الذي لم يحظَ بتأييد القبيلة، بل على النقيض من ذلك، تم التعاون مع السلطان للقبض عليه وتسليمه. هذه الحقيقة التاريخية تنفي الادعاءات الخاطئة وتظهر بوضوح ولاء القبيلة للسلطة المركزية واحترامها للشرعية، وتظل تجربة قبيلة بني مسارة مثالًا للتفاني في الحفاظ على الاستقرار والشرعية في المنطقة، وتكشف عن رفضها للثورات التي تزعزع الأوضاع وتعجل بسقوط الدولة.

الاحالات المرجعية:

(١) عبد الوهاب بنمنصور، **أعلام المغرب العربي**، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط ١٩٧٩م ص: ٣٠٣.

(٢) عاهد، م، س، ص: ١٥٣.

(٣) محمد المختار السوسي، **المعسول**، الجزء العشرين، مطبعة الجامعة البيضاء، ص: ٣٦.

(٤) العلوي زين العابدين، م، س، ص: ٢٥٧.

(٥) السوسي، م، س، ص: ٣٧.

(٦) عاهد، م، س، ص: ١٥٣.

(٧) السوسي، م، س، ص: ٣٧.

(٨) ابن زيدان، م، س، ج ١، ط ٢، ص: ٤٠٢.

(٩) إبراهيم كريدية، **ثورة بوحمارة (١٩٠٢- ١٩٠٩)**، شركة الطبع والنشر، البيضاء، ١٩٨٦، ص: ٥٦.

(10) Arnaud (Louis), op.cit. p.277.

(١١) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط١، ص: ٥٠-٥٢.

(١٢) يؤكد هذا الكلام الصحفي الإنجليزي والتر هاريس حيث قال: " في نهاية خريف ١٩٠٢ غادر مولاي عبد العزيز فاس ليلتحق بالرباط، وفي الحقيقة فقد تأخر سفره بسبب اندلاع ثورة بوحمارة ...انطلقت الرحلة الملكية في شهر نونبر... نشبت عدة معارك في بلاد زمور... قررت قبائل زمور عدم مقاومة تقدم السلطان قبيل وصوله إلى واد عميق يصل ربما إلى مائة قدم... لم يكتب لنا أبدا أن نعبر الوادي بسبب علم السلطان صباحا، بخبر هزيمة جيش أخيه وانتصار بوحمارة عليه قرب تازة... ولذا وبسرعة فائقة، تم اتخاذ قرار الرجوع إلى فاس... أياما بعد قرار العودة المباغت، حل السلطان بفاس حيث سيمكث بضع سنوات. عاهد، م، س، ص: ١٥٥.

(١٣) وظف بوحمارة دعاية مغرضة حول هذه القضية (التأثير المسيحي على السلطان) لإنجاح ثورته، بينما السلطان كان بريئا من هذا ومتشبثا بتعاليم الإسلام. يقول والتر هاريس في هذا الموضوع:" والسلطان الشاب متشبث بدقة بتعاليم دينه، ومع ذلك عمت البلاد ضجة حول التأثير المسيحي (على السلطان) إن المغاربة يعرفون كيف ينتهزون الفرص جيدا، لكن أحدهم تميز بانتهازية أكثر من الآخرين، حينذاك وهو المدعو بوحمارة" عاهد، م، س، ص: ١٥٢.

(١٤) سورة المائدة، الآية ٥٧ /١١.

(١٥) البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٢٣٣.

(١٦) بالفعل كان سكان القبيلة يخشون ثأر وانتقام المخزن إن ساعدوا بوحمارة خاصة أن ما فعله الأمراني بهم سنة ١٩٠٢م كان فظيعا. يقول المختار السوسي على لسان أحد القادة المخزنيين الذي قبض

على بوحمارة:"... وصار يجد في الدعاية التي يعرف (بوحمارة) كيف يصوغها ولا ييأس، قال: فجاء إلينا أهل جبالة (بني مستارة) خائفين على أنفسهم، فنقول لهم لا غرض لنا إلا بوحمارة وحده، فلا يخافن أحد". السوسي، م، س، ج. ٢، ص: ٦٨.

(١٧) عاهد، م، س، ص: ١٣٦.

(18) Arnaud (Louis), op.cit, p.188.

(19) Ibid, p.144.

(٢٠) بعد اشتداد أمر بوحمارة في تازة، اقترح المنابهي على المولى عبد العزيز أن يخرج لتراه القبائل. وكان معظم الجيش في تازة وكان لابد من مرافقة حربية قوية للسلطان في رحلته وسط القبائل." فأرسل (المنابهي) إلى الشريف مولاي الطيب الوزاني، وكان البرابر وأهل المغرب ينصتون لهذا الشريف، فقال له: أريد منك أن تعلم القبائل لتأتي إلينا بخيلها ورجلها بريالتين للفارس وريال للراجل عن كل يوم، ولهم السلاح الجديد نعطيه لهم بدل سلاحهم المعتاد"، فاجتمع بذلك كثيرون، فخرج بهم السلطان من فاس مع المنابهي". السوسي، م، س، ج. ٢، ص: ٤٤.

(٢١) **رسالة من السلطان المولى عبد الحفيظ إلى نقيب شرفاء وزان الشريف** مولاي علي بن محمد الوزاني، بتاريخ ٥ شعبان عام ١٣٢٧/ م. و. م، سجل ٦٢/ مح٢/ ٢٧.

(٢٢) السوسي، م، س، ص: ٦٨.

(٢٣) السوسي، م، س، ص: ٦٨.

(٢٤) كان ذكر فرقة بني يمل المسارية، يتردد كثيرا في المراسلات المخزنية إلى القبيلة أو إلى أعوانه، تبرز بوضوح بأنها كانت تشكل رأس حربة التمرد في بني مسارة، كما أنها كانت الفرقة التي عوقبت بشدة على يد الأمراني ١٩٠٢م، والمآسي التي أحدث بها ستجعل لا محالة سجل حسابها مع المخزن مفتوحا، وأنها ولا بد أن تنتقم، ولهذا كان السلطان يتخوف من ثورتها، ويدعو أعوانه إلى الاتصال بها ومحاولة تحريضها على "بوحمارة".

(٢٥) **رسالة من السلطان المولى عبد الحفيظ إلى شريف وزان** بتاريخ ١٣٢٧/ ١٩٠٩م، م. و. م، سجل ٦٢/ مح ٢/ ٢٧.

(٢٦) نفسه.

(27) Arnaud (Louis), op.cit, p.277.

(٢٨) لجأ بوحمارة إلى التحصن بحرم زاوية مولاي عمران على ما يبدو لما أحس بأن قوته قد ضعفت وأن جيشه قد اقترب من نهايته، وربما كان يعتقد بأنه سيكون محميا وبمنأى من الخطر، لأن الزاوية حرم مهاب لا يدخله أحد. وبالرغم من قدسية المكان إلا أن الجيش المخزني اقتحمه وأحرقه عندما أراد إخراج بوحمارة.

(٢٩) البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٢٣٢.

(٣٠) نفسه، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ١٤٦.

(31) Arnaud (Louis), op.cit, p.276.

(32) Ibid, p.٢٧7.

(33) Xavier De Montal, « Au service du Roghi », Familia, Revue Hebdomadaire de la Famille, nouvelles série – N°63, dimanche 20 mars 1910, p.186.

(٣٤) السوسي، م، س، صص: ٦٩-٧٠.

(٣٥) يقول سالم العبدي في هذا الشأن:" وكان أهالي البلاد يساعدوننا على عبور مسالك هذه البلاد الوعرة والمرتفعة التي يصعب فيها التحرك بسهولة وسرعة. وأخيرا وصلنا في حدود الساعة الرابعة والنصف إلى مشارف الزاوية التي لجأ إليها بوحمارة (٢٢ غشت)". انظر

- Arnaud (Louis),op.cit, p.276.

(٣٦) ذكرت جريدة لينوفيرس (L'Univers) الفرنسية أن بني مسارة شاركت في المواجهات، وفقدت خلالها ١٢ شخصا. انظر

- L'Univers. N°14934, samedi 21 aout 1909, p.3.

(٣٧) يتحدث سالم العبدي شاهد لويس أرنو، عن مشاهد هوليودية حول ظروف وطريقة القبض على "بوحمارة" في مشهد زاوية مولاي عمران بقوله:".. فبدأت المواجهة، حيث كان دفاعه قويا، فالعبيد يقصفون من الزاوية نفسها. مما أفقدناه عدة أفراد، لأنهم كانوا يرمون من ثقب الأسوار، وكان السكان المجاورون للزاوية قد غادروا مشاتيهم بمجرد علمهم باقترابنا، واحتموا بأبنائهم ونسائهم وبهائمهم بعيدًا عن مسرح المواجهة التي ينتظرون نهايتها. واقترح في هذه الأثناء، أحد أفراد المحلة الفكرة التالية: إن الوسيلة الوحيدة للقبض على بوحمارة دون فقدان مزيد من الأرواح هي إشعال النار في سقف الزاوية، فتطوع أحد الرجال بعد أن تجرد من ثيابه تماما، باحثا عن مكان مناسب ليبدأ عمله، فانبسط أرضا. وأخذ يمشي على بطنه كثعبان في المنعرجات والأماكن الوعرة، مختفيا وراء أدنى مرتفع في الأرض، وازداد دوي البنادق لإلهاء المحاصرين عن تحركات هذا الرجل، ووصل أخيرًا واشتعلت النار في السقف. فلم تعد الوضعية بالزاوية مريحة. فقد كنا نسمع الصراخ، وكان بوحمارة، وتحت حراسة قصف العبيد من الشرفات والثقب، يخرج النساء الواحدة تلو الأخرى من الزاوية، وكان بعض العبيد يتقدمون أماما يطلقون النيران يمينا ويسارا، والسقف المحروق قد سقط نصفه. لكن أين بوحمارة؟ وقد كان الهاربون المتمردون يحاولون الابتعاد من المواجهة في نظام متسللين، لكن فرساننا كانوا يحاصرونهم وأجبروهم على الدفاع من جديد، وكان أحد الجنود الذي يعرف بوحمارة قد ميزه من وسط النساء، فاعتقلوه". انظر

- Arnaud (Louis), op.cit. p.277.

(٣٨) رحال بوبريك، "العبودية بين القاعدة والاستثناء الناجم لخصاصي أو "العبد" الذي أصبح قائدا"، **ندوة الرق في تاريخ المغرب**، تنسيق ذ. عبد العزيز عينوز، ذ. عبد العزيز بل الفايدة، ذ. محمد الغرايب، ٢٠١٠، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة، ص: ٢٠٠.

(39) Arnaud (Louis), op.cit. p.27٧.

(٤٠) ابن زيدان، م، س، ج١، ص: ٤١١.

(٤١) بل العافية، **الشرفاء الكنونيون**، م، س، ص: ٩٨.

(42) Xavier de Montal, op.cit, p.186.

(٤٣) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ١٤٦.

(٤٤) مولاي عمران، هو مولاي جد الشرفاء العمرانيين ببني مسارة، يقع ضريحه في زاويته بدوار مولاي عمران ببني مسارة العليا.

(٤٥) ابن زيدان، م، س، ج١، ص: ٤١١.

(٤٦) السوسي، م، س، ص: ٧١.

(47) Arnaud (Louis), op.cit, p.27٧.

(٤٨) السوسي، م، س، ص: ٧١.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

التعمير الكولونيالي في المغرب من خلال حي الأحباس
دراسة وثيقتين غير منشورتين

غيثة بناني

باحثة الدكتوراه بجامعة الحسن الثاني

مفتشة المباني التاريخية لجهة الدار البيضاء

وزارة الشباب والثقافة والتواصل – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

هذا المقال عبارة عن قراءة في وثيقتين غير منشورتين، تهمان حي الأحباس (الحبوس) بالدار البيضاء، الذي تم تشييده خلال الفترة الكولونيالية، والذي يعد نموذجا على التصور الحضري والمعماري الفرنسي، في المدن المغربية، ومعبرا عن سياسة الفصل بين الأوروبيين والأهالي؛ وتقدم الوثيقتين معطيات جد هامة سواء ما تعلق منها بالمستوى الإداري، حيث يميط اللثام عن كيفية سير عملية تشييد الحي، والجهات المتدخلة فيها، وطبيعة علاقاتهم؛ أو ما تعلق بالمستوى المالي، حيث يقدمان فكرة عن بعض من مصاريف تأسيس الحي؛ أو ما تعلق بالمعطيات المعمارية، حيث يقدم فكرة عن المعطيات المعمارية، وهو ما يسهم في فهم تطور الحي على المستوى المعماري، وطبيعة الرؤية الكولونيالية لحي أريد له أن يكون موطنًا للأهالي؛ كما تتضمن الوثيقتان إشارات لأعلام ومؤسسات لعبت دورًا أساسيًا في صياغة الرؤية التعميرية الكولونيالية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٨	يوليو	٢٠٢٣
تـاريخ قبــول النشــر:	١٠	أغسطس	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

حي الأحباس؛ ليوطي؛ الكولونيالية؛ التعمير؛ الحماية الفرنسية؛ الدار البيضاء


معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.241298

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

غيثة بناني. "التعمير الكولونيالي في المغرب من خلال حي الأحباس: دراسة وثيقتين غير منشورتين".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ١٧٥ – ١٨٢.

Corresponding author: ritaben90@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

كانت مدينة الدار البيضاء القلب النابض للرؤية الاستعمارية على المستوى الحضري، والتي عمل الماريشال ليوطي على تطبيقها معماريا، بشكل جلي من خلال ما عرف ب"القرية الحبسية" والتي ستصبح فيما بعد حي الحبوس أو الأحباس. هذا الحي عكس التصور التعميري الكولونيالي، الذي استند في تصميم أحياء الأهالي إلى تصميمات معمارية جديدة تمزج بين العناصر التقليدية للمدينة المغربية والأسلوب الحديث. في هذا المقال تتم دراسة وثيقتين غير منشورتين، محفوظتان بأرشيف المغرب، ضمن رصيد مصلحة الأحباس[١]، وهما يقدمان صورة عن طبيعة سير عمليات تشييد الحي، والمؤسسات المشاركة في هذه العملية، ومستويات تدخل كل منهم.

أولاً: تاريخ التعمير والتهيئة الحضرية بمدينة الدار البيضاء وحي الأحباس

عرفت مدينة الدار البيضاء منذ نهاية القرن التاسع عشر تزايدا مهولا لسكانها نتيجة توافد المهاجرين من كل أنحاء المغرب، بسبب المكانة التجارية والاقتصادية التي صارت تحتلها المدينة، وأيضا لتطور أعمال ميناءها. وقد اهتم المقيم العام هوبير ليوطي بشكل خاص بمدينة الدار البيضاء، وهكذا مباشرة بعد توقيع معاهدة فرض الحماية الفرنسية على المملكة المغربية بتاريخ ٣٠ مارس ١٩١٢، كلف المهندس المعماري هنري بروست –الذي تم تعيينه حديثًا مديرًا للقسم الخاص للهندسة المعمارية وخطط المدن–بوضع أول تصميم تهيئة خاص بالمدينة.

غير أنه أمام عدم تمكن قدرة المدينة القديمة على استيعاب الوافدين الجدد، ارتأت سلطات الحماية إنشاء مدينة جديدة خاصة بالساكنة المحلية "الأهالي"[٢] خارج المسورة، وعلى هامش المدينة الأوروبية الجديدة (الجاري بناؤها)، وذلك تطبيقا لتصور ليوطي في الفصل بين السكان المحليين (الأهالي) والسكان الأوروبيين، أو ما يعرف ب"عزل المغاربة عن الأوربيين"، وقد جسد بروست هذه الرؤية في أول مخطط توجيهي للمدينة سنة ١٩١٥، والذي تم فيه وضع تصور للحي الجديد الذي سيُعرف باسم "القرية الحبسية"، والذي سيتضمن جميع خصائص المدينة التقليدية المغربية من حيث الشكل، ومن حيث مكوناتها.

تحكمت في اختيار موقع المدينة عدة عوامل، إذ هدفت إلى أن "يُمَكِّن المزارعين القادمين من الريف، والعمال في الميناء والمصانع من البيع أو الشراء، أو الصلاة أو الترفيه دون الذهاب إلى المدينة الأوروبية"[٣]. كما أتاح موقع "القرية الحبسية"[٤] التحكم في القوافل والبضائع وتفادي عبورها عبر المدينة الأوروبية، "وتظهر الخريطة الطبوغرافية لسنة ١٩١٤ أن الاهتمامات التجارية أدت إلى تجمع المخازن والمستودعات والمتاجر على الطرق الرئيسية، التي تربط الضواحي بالمدينة الأصلية، حيث كان من الممكن الوصول إلى الميناء الذي كان لا يزال في مرحلة النمو في ذلك الوقت"[٥].

في هذا السياق، جاء تأسيس "القرية الحبسية" جنوب شرق مدينة الدار البيضاء على طريق مديونة، بالقرب من القصر الملكي؛ بعد تبرع تاجر يهودي بالأرض المسماة "بحاير كرازم" للسلطان مولاي يوسف والتي تبلغ مساحتها أربعة هكتارات، سيمنحها هذا الأخير إلى الأحباس، ثم سيتم شراء الأرض المجاورة للقطعة الأرضية التي بلغت مساحتها خمسة هكتارات من ورثة "حاييم بن دحان"، ومن تم بدأ الشروع في إحداث هذا الحي، حيث قسمت الأرض الى أربعة أجزاء خصص الجزء الأول منها لبناء قصر السلطان، بينما خصص جزئين لبناء كل من درب سيدنا لإيواء العاملين بالقصر، ودرب خاص لحاجب السلطان وحاشيته، فيما خصص الجزء الأخير لبناء أحياء سكنية لفائدة المغاربة المحليين "الأهالي"، وهو المعروف حاليًا بحي الحبوس"[٦].

وهكذا، انطلقت أشغال بناء الحي الجديد بتمويل من مؤسسة الأوقاف، وتم تكليف المهندس المعماري ألبير لابراد بتصميمه، لكن بعد نقله لمدينة الرباط سنة ١٩١٧ لبدء بناء الإقامة العامة[٧]، سلم المشروع للمهندسين أندري كادي وإدمون بريون.

وقد تم بناء حي الأحباس عبر مراحل سلمت من خلالها بقع تتضمن مجموعة من المنازل والمحلات التجارية ومسجد، واعتمد المهندس في تصميمه على إعادة خلق البيئة التي اعتاد عليها المغاربة من خلال دمج

وتوفير جميع مكونات المدينة الإسلامية من حيث المرافق الأساسية والمعايير والزخارف.

ثانيًا: تقديم حول الوثيقتين محط الدراسة

احتفظ أرشيف المغرب بمجموعة من الوثائق، ترجع إلى فترة تأسيس وبناء الحي، وهي عبارة عن سلسلة من المراسلات والقرارات الصادرة عن مصالح تابعة للإقامة العامة، أو تابعة لوزارة عموم الأوقاف، أو جداول مصاريف أشغال تهيئة حي الأحباس، أو دفاتر إحصاء ممتلكات الأحباس وموظفيها.

من بين هذه الوثائق، وثيقتان موضوع هذا المقال، تُؤرخان لبدايات الحي وأعمال بنائه، وتمثلان لحظة مهمة في تاريخ حي الحبوس. فهما تؤكدان على أهمية الحي كنموذج للتنمية الحضرية في المغرب، وتعكسان الاهتمام الفرنسي بالمحافظة على التراث الثقافي المغربي، وهما عبارة عن مراسلات رسمية مخطوطة باللغة الفرنسية على شكل مسودة وهي موجهة من السيد طوريس الى كل من وزارة عموم الأوقاف (الوثيقة رقم ١١٧) والمهندس كادي (الوثيقة رقم ١١٨).

الوثيقة الأولى: الوثيقة رقم ١١٧ عبارة عن مذكرة موجهة لوزارة عموم الأوقاف من طرف السيد "طوريس" بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٢١. وتتكون من عنوان "مذكرة للوزارة" على يساره رقم "٤٥" ثم عرض الرسالة يمتد على صفحتين، وفي أسفله توقيع المرسل مرفوق بمكان وتاريخ الإرسال. تحمل الوثيقة تعليقات بتاريخ وتوقيع في الهامش، كما تظهر استخدام ألوان مختلفة من أقلام الحبر، بما في ذلك اللون المستخدم لتوقيع المرسل والذي يظهر مرة أخرى على الصفحة الأولى، وفي الهامش على اليسار مع رقم ربما يكون تسجيلًا (أو أرشفة). تمت إضافة الرقم على التاريخ في أعلى الصفحة الأولى أيضًا باستخدام لون آخر. كما يمكن مشاهدة علامة صغيرة مرسومة بقلم آخر على اليسار.

الوثيقة الثانية: الوثيقة ١١٨، عبارة عن رسالة من السيد "طوريس" بتاريخ ٢٦ فبراير ١٩٢١، موجهة إلى المهندس "كادي"، يخبره فيها بتطور المحادثات مع الوزارة، وإرسال طلب التمويل إليها، وللوقوف على التنسيق بينه وبين المؤسسات الأخرى اللازمة لاستكمال المشروع. تحمل الوثيقة على اليسار حروف تشير الى الجهة المرسلة بشكل مختصر « SCH »[٨] يأتي أسفلها موضوع الرسالة هنا "القرية الحبسية " "village indigène"، وتحمل على اليمين تاريخ الإرسال والمرسل إليه، وعرض الرسالة عبارة عن نص مكتوب باليد باللغة الفرنسية يمتد على صفحتين وأسفله توقيع باسم المرسل "طوريس". تحمل كذلك بالهامش تعاليق برقم وتاريخ النص.

ثالثًا: نص الوثيقتين مترجمًا إلى اللغة العربية

١/٣–ترجمة الوثيقة رقم ١١٧ إلى اللغة العربية

مذكرة للوزارة

بموجب المذكرة رقم ٣٤ بتاريخ ١٧ فبراير، قامت مصلحة المراقبة بإعلام الوزارة بانتهاء أشغال الفندق والحوانيت بقرية الأهالي للدار البيضاء.

أثناء زيارته لعين المكان، تلقى رئيس مصلحة المراقبة مقترحات من طرف السيد كادي بخصوص تهيئة وتحسين القطاع الذي شيد به الفندق والحوانيت، وهي كالتالي:

١– تهيئة الساحة المتواجدة بين حوانيت الحدادين والصباغين وتشمل: تسوية الأرض، غرس الأشجار، بناء شرفات مدعمة بأعمدة على الأقل بجهة الحدادين المعرضة للشمس والمغطاة جزئيا بالدالية كما بمدينة فاس.

٢– نفس التهيئة في مقابلة الحوانيت الكائنة بقرب المقهى المغربي بالقرب من الطاحونة. هذه الحوانيت تتعرض كثيرا للشمس في فصل الصيف وإن لم تتدخل وزارة الأحباس، فإن "المكترين" سيستعملون أقمشة وأغطية ذات منظر مسيء لحماية أنفسهم.

٣– عمل الأرضية تحت الأروقة بالحصاة على الطريقة العربية تفاديا لحفرها من طرف المكترين لوضع النفايات.

٤– صباغة أجزاء من أعمال النجارة بالبنايات المشيدة، فبعض أعمال النجارة لم يتم صباغتها من قبل والخشب يتشقق ويتعفن سريعا. وهو ما سيستدعي

استبدال معظم الأبواب والنوافذ خلال وقت قصير إذا لم يتم صباغتها.

٥- عمليات غرس متنوعة بالمجمعات المبنية والمبرمجة.

سيتولى السيد كادي تنفيذ كل هذه الأشغال الصغيرة التي تبلغ تكلفتها إجمالا حسب تقديراته ثلاثة وعشرون ألف فرنك تقريبا، وترى مصلحة المراقبة أنه من المناسب الاستفادة من تجربة السيد كادي الممتازة مع الأحباس، حتى يتم تنفيذ الأشغال المطلوبة من أجل إعطاء قرية الأهالي مظهر جميل ونظيف.

إذا وافق سمو الوزير على هذا الرأي، فإننا نطلب منه التفضل بتوقيع الشيك التالي باسم ناظر الدار البيضاء ليسلم هذا المبلغ للسيد كادي عند طلبه، والذي سيقدم تدريجيا كافة المبررات اللازمة. كما هو الحال بالنسبة للعشرة آلاف فرنك الموضوعة في حوزته وفقا للمراسلة عدد ١٣٦٢٣ من أجل تنفيذ أشغال صغيرة بقرية الأهالي (تهيئة آبار، عمليات غرس، تهيئة محيط الأشجار...).

وفقًا للمعلومات الأولية الواردة من الدار البيضاء، فإن عملية كراء الفندق والحوانيت في قرية الأهالي التي تتبعها الناظر حديثا أعطت نتائج مرضية. وهذا تشجيع للتقدم في المشروع المنجز.

الرباط ٢٥ فبراير ١٩٢١

طوريس

٢/٣-ترجمة الوثيقة رقم ١١٨ الى العربية

م.م.أ (مصلحة مراقبة الأحباس)

القرية الحبسية

٢٦ فبراير ١٩٢١

المهندس المعماري السيد كادي

الدار البيضاء

أتشرف بالجواب على مراسلتكم المؤرخة بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٢١ المتعلقة بأشغال التهيئة المراد إنجازها بالقرية الحبسية والتي تطلبون صرف تسبيقا بثلاثة عشرون ألف فرنك للناظر من أجلها. ب. الكراء الحبي لمصلحة الفنون الجميلة لمجموعة حوانيت مخصصة للمعلمين.

١- بخصوص النقطة الأولى، لقد أرسلنا إلى الوزير مذكرة مفصلة مركزين على ضرورة تنفيذ الأعمال المذكورة مرفقة بشيك بقيمة ثلاثة وعشرون ألف فرنك أرجو منه توقيعه وإرساله مع التعليمات إلى الناظر.

نتمنى أن يوافق السيد الجاي على طلبكم وطلبي.

علاوة على ذلك، تجدون في المرفقات نسخة من رسالتي إلى بلدية الدار البيضاء بخصوص أعمال الصرف الصحي، وتهيئة الساحة المتواجدة بين الحدادين والصباغين. سوف تتمكنون من محادثة السيد رابو بالأمر قريبًا.

٢- بالنسبة للنقطة الثانية، من المفهوم أنني ملزم بإجراء مقابلة مع السيد ريكار, رئيس مصلحة الفنون المغربية, من أجل التحقق من قبول مصلحته التكفل بكراء الحوانيت و توزيعها بين المعلمين. سوف أبقيكم على اطلاع بالأمر.

وبما أن الوضعية المالية لمصلحة الأحباس لا تسمح بقبول تبرعات ولو لمصالح عمومية، فإنني لست متأكدا من قبول السيد ريكار الدفع لهذه الحوانيت والحوانيت المجاورة تم تأجيرها للتو في المزاد العلني.

وحتى إن قبلت الوزارة التنازل عن مبدأ المزاد، فلن تقبل بإنقاص السعر ولا أتوفر على أي طريقة لإجبارها على ذلك خاصة بالنظر لأحوالنا المادية.

لكي أتمكن من مناقشة الأمر مع السيد ريكار على أسس سليمة، أرجو منكم إعلامي عبر الهاتف أو من خلال مذكرة صغيرة بثمن كراء الحوانيت المجاورة.

أشكركم على تفانيكم في قضية الأحباس وتقبلوا سيدي خالص التقدير.

توقيع طوريس.

رابعًا: تعريف بالشخصيات والمؤسسات الواردة في الوثيقتين

طوريس: يعتبر السيد طوريس مرسل الرسالتين أعلاه، وهو من "فرنسيي إفريقيا الشمالية" وكان من الأوائل على رئاسة مصلحة مراقبة الأحباس، حيث كان ثالث من شغل هذا المنصب منذ إنشائه بعد كالديرارو وبيارناي، وقاد هذه المصلحة خلال الفترة ما بين ١٩٢٠ و١٩٣٧ تاريخ تقاعده، وقد مكنه "تكوينه الإداري المميز، ومعرفته باللغة العربية وبالإسلام ومؤسساته بشمال إفريقيا من جعل الوزارة تتبنى التدابير الضرورية للحفاظ على الإيرادات عند مستوى كاف لتغطية جميع الرسوم.

الوزير احمد الجاي: تم ذكره في الوثيقة ١١٨ في السطر السابع، كان أحمد الجاي موظفًا سابقًا في المخزن، وتم تعيينه سنة ١٩١٢ كمدير عام للأوقاف، ثم بعد عامين تم تعيينه كوزير للأوقاف، وظل في هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٧، لعب دورًا هامًا في إعادة هيكلة الأوقاف من خلال تعاونه الذي اعتبره ضروريًا مع خدمة مراقبة الأوقاف.

المهندس كادي: مهندس معماري، كان هو المشرف على مشروع بناء وتطوير حي الحبوس، بالتعاون مع المهندس المعماري إدمون بريون، وقد شغل مكانة مهمة في هذا المشروع.

مصلحة مراقبة الأحباس: تعد من المؤسسات الجديدة المنشأة من طرف سلطات الحماية من أجل مواكبة النظام الإداري الجديد الذي أسسته، وقد كلفت هذه المصلحة بعدة مهام تخص تسيير عمل وزارة عموم الأوقاف والتنسيق بينها، وبين سلطات الحماية، خاصة وأن موظفي الوزارة لم يكونوا يجيدون اللغة الفرنسية، وعملت على عدة أوراش من أهمها حي الأحباس. كانت تقوم هذه المصلحة "بإعداد حساب إدارة جميع النظارات في نهاية كل سنة ومشروع ميزانية السنة التالية، تشكل ملفات المزاد العلني (بيع وتأجير المباني)، وكانت مسؤولة عن أكبر أعمال البناء والترميم بجميع أنواعها..وتدير الحساب المفتوح في بنك الدولة باسم "وزارة الأحباس" وتعد الشيكات، وتتابع جميع الإجراءات أمام المحاكم الفرنسية.

وزارة عموم الأوقاف: أقدمت سلطات الحماية على إعادة هيكلة مؤسسة الأحباس[٩] عبر خلق مديرية عامة للأوقاف بمقتضى ظهير ٢٠ ذو القعدة ١٣٣٠ الموافق ل ٣٠ أكتوبر ١٩١٢ قبل تحويلها إلى وزارة عموم الأوقاف حسب ظهير ٢٣ رمضان ١٣٣٣ الموافق ل ٤ غشت ١٩١٥.

ويقضي ظهير ٨ شعبان ١٣٣١ (الموافق ل ٣١ يوليوز ١٩١٣) بدور الوزارة في مراقبة تسيير النظار التابعين لها في كل أرجاء المملكة للأوقاف العمومية وكذا دورها في مراقبة أوقاف الزوايا والأوقاف الخاصة. ووظفت الوزارة موظفين مغاربة حصريًا تحت الإشراف والمراقبة الضيقة لكن متحفظة لبعض المسؤولين الفرنسيين[١٠].

يعتبر الناظر من أهم موظفي الوزارة وممثلها على المستوى المحلي، ويتكلف بتسيير أملاك الأحباس الموجودة في المجال التابع له والحفاظ على صيانتها وإعداد تقييم مالي للأشغال اللازمة لعرضه على الوزير. يقف الناظر كذلك على عملية كراء المحلات وبيع المحصول وإنجاز المعاوضات[١١] وفق القانون.

خامسًا: قراءة في الوثيقتين

تشير هاتان الوثيقتان إلى دور دائرة المراسلات التي شهدت بداية إنشاء حي الحبوس، والتي ساهمت في تنسيق العمل بين أصحاب المصلحة المختلفين في هذا المشروع، ومن بين الأطراف الرئيسية المشاركة في هاتين الرسالتين، يمكن تحديدهما على النحو التالي: وزارة الحبوس، وخدمة مراقبة الحبوس، والمهندس المعماري المشرف على المشروع أندريه كاديه.

ويظهر هذا الدور التنسيقي من خلال هاتين الوثيقتين حيث يتوجه السيد طوريس بمراسلة كل من الوزارة لإعلامها بمطالب المهندس المكلف بأشغال بناء وتهيئة حي الأحباس وبالطلب منها صرف أو توفير المبلغ اللازم. من جهة أخرى يخاطب السيد طوريس المهندس كادي لإعلامه بتطور المحادثات مع الوزارة وأيضا للوقوف على التنسيق بينه وبين المؤسسات الأخرى اللازمة لاستكمال المشروع.

تضمنت الوثيقتان تحسينات بالبنايات الأولى في الحي (الفندق والحوانيت والمقهى العربي والمطحنة)، حيث يتضح من خلال الوثيقتين أن حي الأحباس في هذه المرحلة شهد بناء فندق وحوانيت، وكذلك تمت الإشارة إلى مقهى عربي ومطحنة، وهو ما تؤكده نصوص أخرى من وثائق أرشيف نظارة الأوقاف وكتاب "جيزلين مفر"[١٢] حول الحي الصادر سنة ٢٠١٨.

بخصوص الفندق: يتعلق الأمر بالفندق المتواجد في أقصى زنقة سيدي عقبة من جهة طريق مديونة وهو اليوم محل للنجارة، وباتت الغرف الموجودة به إما مستودعات للخشب أو غرف للإيواء، ويشير التاريخ المنقوش أعلى القوس arcade المتواجد أمام مدخل الفندق إلى سنة ١٣٣٨ هجرية الموافق ل ١٩١٩ ميلادية. مما يؤكد مرة أخرى معلومات الوثيقة ويثبت أنه من أوائل البنايات التي بنيت في الحي.

تجدر الإشارة، أن أقدم تاريخ لنقش في الحي، يوجد بزنقة حاجي في مقابل الفندق ويرجع إلى سنة ١٣٣٧ هجرية الموافق ل ١٩١٨، ومن خلال قراءة "جزلين مفر" لتاريخ الحي نستنتج من خريطة التواريخ أن القسم الذي بني في نفس فترة بناء الفندق هو صف الحوانيت المتواجد بمقابل الفندق، يمين زنقة عقبة، وهذا القسم بني قبل سنة ١٩٢١ وهو تاريخ الوثيقتين محط الدراسة.

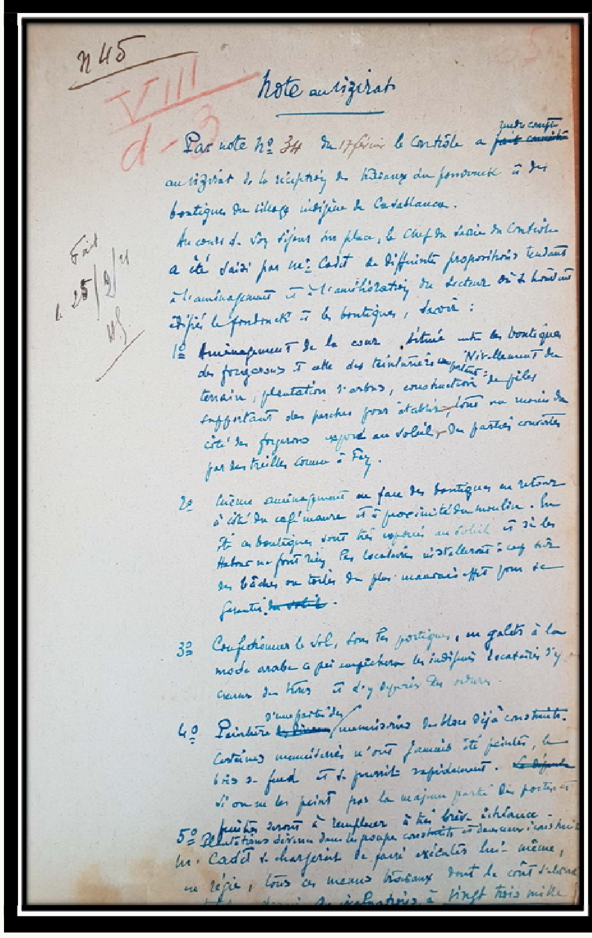
من جهة أخرى، فإن الظهير الشريف الصادر عن السلطان مولاي يوسف بتاريخ ١٥ شعبان سنة ١٣٤٥ ه الموافق ١٨ يناير ١٩٢٧ المسجل بوزارة الأوقاف بعدد ١٧٠٢ بتاريخ ٢٠ شعبان الموافق ٢٣ يناير ١٩٢٧، والمتواجد بأرشيف نظارة الأحباس يبين أن الحي بني عبر مراحل متتالية، شهدت كل مرحلة بناء قسم[١٣] يتضمن مجموعة من البنايات. ويتضح أن القسمة السادسة شملت بناء فندق كبير ورحى ومقهى عربية و٣٤ محلاً تجاريًا.

فيما يخص الطاحونة فإن الدراسة الطوبونيمية لأزقة الحي قد أفضت إلى احتمال تواجدها بزنقة الماكينة، وتعود هذه التسمية إلى لفظة macchina باللغة الإيطالية حسب كتاب "جيزلين مفر" وهو الاسم الإيطالي للطاحونة الذي اعتمده المغاربة.

خَاتِمَةٌ

تسلط هاتان الوثيقتان غير المنشورتان الضوء على الجهود التي بذلت في تأسيس هذا الحي، والمؤسسات المتدخلة في العملية، إضافة إلى ما يقدمه من معطيات معمارية وتاريخية، تسلط إضاءات جديدة على تاريخ التعمير بالحي ومستوياته، ويمكن أن تسهم إلى جانب وثائق أخرى في رسم كرنولوجيا تعميرية للحي.

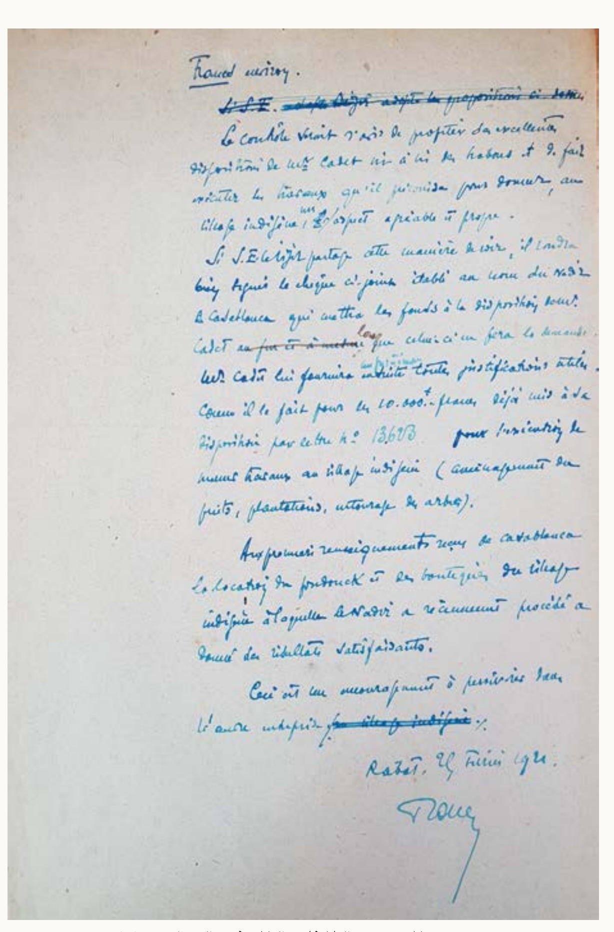
الملاحق


n 45
VIII d-3
Note au Vizirat

Par note N° 34 du 17 février le Contrôle a [illegible]
au Vizirat [illegible] boutiques du village indigène de Casablanca.
[illegible]
1° Aménagement de la cour [illegible]
2° Même aménagement en face des boutiques [illegible]
3° [illegible] mode arabe [illegible]
4° Peinture [illegible]
5° [illegible]

صورة للصفحة الأولى للوثيقة رقم ١١٧

تصوير الباحثة



Travaux divers.

~~S.E. [illegible] adopte les propositions ci-dessus~~

Le Contrôle serait d'avis de profiter des excellentes dispositions de Mr Cadet vis-à-vis des habous et de faire exécuter les travaux qu'il préconise pour donner au village indigène un aspect agréable et propre.

Si S.E. le Vizir partage cette manière de voir, il voudra bien signer le chèque ci-joint établi au nom du Nadir de Casablanca qui mettra les fonds à la disposition de Mr Cadet ~~au fur et à mesure~~ lorsque celui-ci en fera la demande. Mr Cadet lui fournira ensuite toutes justifications utiles. Comme il le fait pour les 10.000 francs déjà mis à sa disposition par lettre n° 13693 pour l'exécution de menus travaux au village indigène (aménagement des puits, plantations, entourage des arbres).

Aux premiers renseignements reçus de Casablanca la location du fondouk et des boutiques du village indigène à laquelle le Nadir a récemment procédé a donné des résultats satisfaisants.

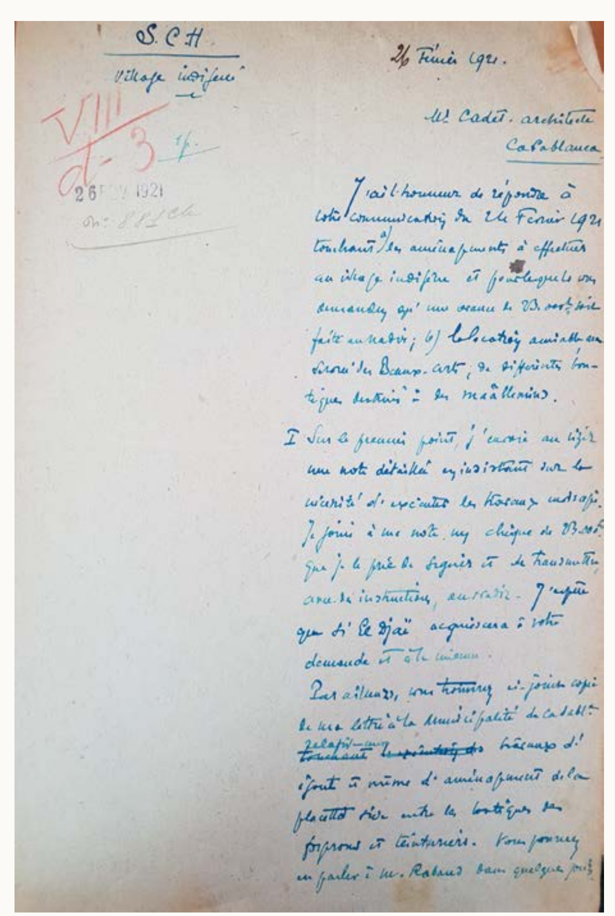
Ceci est un encouragement à persévérer dans l'œuvre entreprise ~~[illegible]~~.

Rabat, 25 Février 1921.

[illegible]

صورة للصفحة الثانية للوثيقة رقم ١١٧

تصوير الباحثة



S.C.H.

Village indigène

VIII d-3

26 FEV 1921

26 Février 1921.

Mr Cadet, architecte
Casablanca

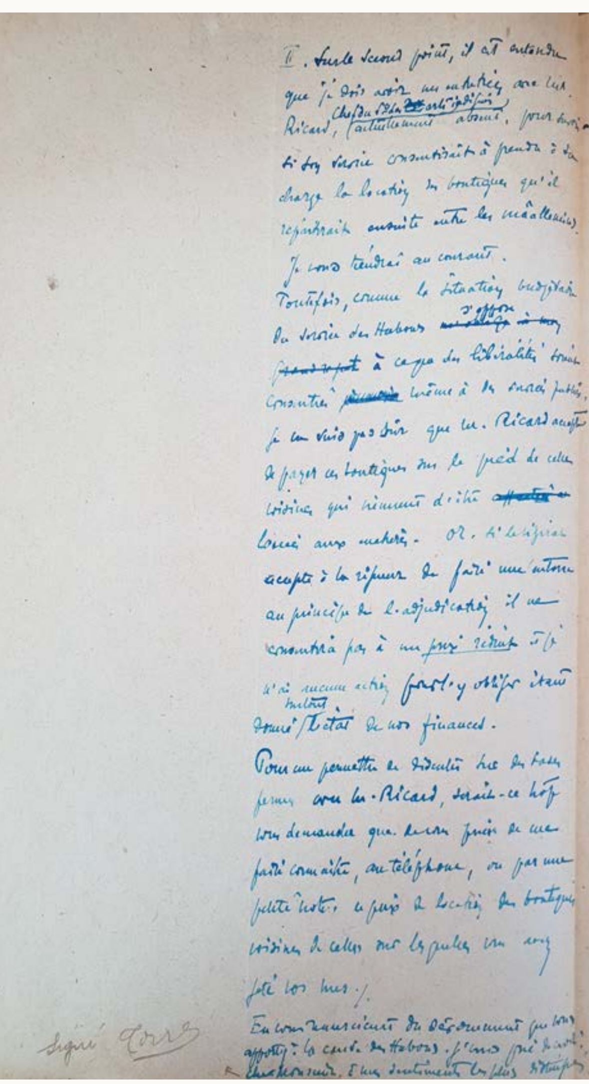
J'ai l'honneur de répondre à votre communication du 24 Février 1921 touchant a) les aménagements à effectuer au village indigène et pour lesquels vous demandez qu'une avance de 23.000 f soit faite au Nadir; b) la location amiable au [illegible] des Beaux-Arts, de différentes boutiques destinées à des maâllemins.

I Sur le premier point, j'envoie au Vizir une note détaillée en insistant sur la nécessité d'exécuter les travaux indiqués. Je joins à ma note un chèque de 23.000 f que je le prie de signer et de transmettre avec ses instructions au Nadir. J'espère que Si El Hadj acquiescera à votre demande [illegible].

Par ailleurs, vous trouverez ci-joint copie de ma lettre à la Municipalité de Casablanca relative aux ~~touchant l'exécution des~~ travaux d'égout et même d'aménagement de la placette située entre les boutiques des potiers et teinturiers. Vous pourrez en parler à M. Rabaud dans quelques jours

صورة للصفحة الأولى للوثيقة ١١٨

تصوير الباحثة


II. Sur le second point, il est entendu
que je dois avoir un entretien avec M.
Ricard, (Chef du S[illegible] des Arts indigènes) actuellement absent, pour [illegible]
[illegible] consentirait à prendre à sa
charge la location des boutiques qu'il
répartirait ensuite entre les [illegible]
Je vous tiendrai au courant.
Toutefois, comme la situation budgétaire
du Service des Habous s'oppose [illegible]
[illegible] à ce que des libéralités trop
considérables [illegible] même à des services publics,
je ne vois pas [illegible] que M. Ricard accepte
de payer ces boutiques sur le pied de celles
voisines qui viennent d'être [illegible]
louées aux enchères. Or, [illegible]
accepte à la rigueur de faire une entorse
au principe de l'adjudication il ne
consentira pas à un prix réduit si je
n'ai aucune action [illegible] y obliger étant
donné l'état de nos finances.
Pour me permettre de discuter sur des bases
fermes avec M. Ricard, serait-ce trop
vous demander que de me
faire connaître, au téléphone, ou par une
petite note, le prix de location des boutiques
voisines de celles sur lesquelles vous avez
fait vos lots.
En vous remerciant du dévouement que vous
apportez à la cause des Habous, je vous prie [illegible]
[illegible] l'expression de mes sentiments les plus [illegible]
Signé [illegible]

صورة للصفحة الثانية للوثيقة ١١٨

تصوير الباحثة

الاحالات المرجعية:

(١) أرشيف المغرب مؤسسة عمومية أحدثت سنة ٢٠٠٧، من أجل صيانة التراث الأرشيفي الوطني وتكوين أرشيف عام وحفظه وتنظيمه وتيسير الاطلاع عليه، ويتكون رصيد مصلحة الأحباس، المحدثة من طرف سلطات الحماية الفرنسية بالمغرب سنة ١٩١٢ والتابعة لمديرية الشؤون الشريفة، من مجموعة وثائق إدارية مختلفة متكونة من مراسلات متبادلة بين مديري الإدارة ونظار أحباس المدن المغربية، تخص مواضيع متنوعة (تسيير الموظفين، ترميم وصيانة أملاك الأحباس، عمليات الإحصاء، تسوية الخلافات ...)

(٢) تستعمل لفظة "indigène" في النصوص الفرنسية للإشارة للساكنة المحلية.

(3) ROYER Jean, L'urbanisme aux colonies et dans les pays tropicaux; communication et rapports du Congrès International de l'Urbanisme aux Colonies et Dans les Pays à Latitude Intertropicales, Tome premier, 1932, Delayance Editeur, LA-CHARITE-SUR-LOIRE, une ville créée spécialement pour les indigènes à Casablanca par Albert. LAPRADE ; p 94

(٤) "القرية الحبسية" هو الاسم الذي تم إطلاقه على حي الحبوس، كما يعرف اليوم، في المراسلات المخزنية إلى غاية سنة ١٩٢٣ حيث تحول الاسم المتداول للإشارة للحي في هذا النوع من الوثائق إلى "المدينة الحبسية". وتقابل هذه التسمية في الوثائق باللغة الفرنسية كما هو حال الوثيقتان موضوع المقال تسمية " village indigène"

(5) Idem p ٧1.

(6) MEFFRE Gislhaine, DELGADO Bernard, Quartier Habous à Casablanca : Une nouvelle médina dans la métropole, 2018, Editions la Croisée des Chemins, p71

(7) Idem 3 p. 98.

(٨) من خلال دراستنا لوثائق الأرشيف، استنتجنا أن هذه الحروف تشير إلى Service Contrôle Habous وهي مصلحة مراقبة الأحباس التي تم إنشائها من طرف سلطات الحماية لمتابعة ومراقبة وزارة عموم الأوقاف.

(٩) يعتبر الوقف أو الحبس محط اهتمام المسلمين قديما وحديثا، وقد خصصت مداخيل الأحباس للإنفاق على المساجد والمدارس والمارستانات وتنظيف الشوارع وتوزيع المياه العذبة وكل ما فيه المصلحة الإسلامية. وارتبط عمل الأحباس بـ "النظار" ومهمتهم إدارة الأوقاف تحت إشرافهم ومراقبتهم الشرعية مع الالتزام بصرف مداخيلها طبقا لإرادة الواقفين.

(10) LUCCIONI Joseph, «Les fondations pieuses «Habous» au Maroc depuis les origines jusqu'à 1956», Impr. Royale, 1982, p 165.

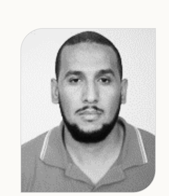
(١١) ورد مصطلح معاوضة (جمعه معاوضات) في وثائق الأرشيف المدروسة ويعني في المفهوم الفقهي، عقد يعطي كل طرف فيه نفس المقدار من المنفعة التي يعطيها الطرف الآخر. وتشير هنا إلى تعويض أرض ملك لطرف ما دعت الحاجة لحوزتها بأرض أخرى بقيمة مماثلة.

(12) Meffre G., Delgado B., « Quartier Habous de Casablanca, une nouvelle médina dans la métropole », La croisée des chemins, 2018.

(١٣) وقد تم ترقيم هذه الأقسام حيث أشارت الوثائق إلى ١٩ قسمًا وهو المصطلح المستعمل في الوثائق للإشارة إلى مجموعة بنايات مكونة من دور ومرافق (حمامة فران، حوانيت...).

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

مؤتمر وجدة (٢٦ أبريل – ٧ مايو ١٩٢٦)
آخر فصول عملية السلام في الحرب الريفية



عبد الرحيم الوسعيدي
باحث دكتوراه في التاريخ المعاصر
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

منذ أن تم تعيين المارشال فليب بيتان قائدًا للعمليات العسكرية بالمغرب، وتجاهل، نسبيًا، دور ليوطي الذي لم تعدّ سياسته ضد أحداث الريف تقنع القيادة الفرنسية بباريس، بالإضافة إلى التطورات التي عرفتها المقاومة الريفية، ولاسيما على خط جبهة ورغة، وحرب صيف وخريف ١٩٢٥، وتنامي تصدعات الثورة الريفية في الخارج، وعجز الجيشين الفرنسي والإسباني الانتصار على المقاومة الريفية، فكرت القيادة الفرنسية في عرض سلام على الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي لتجاوز الأزمة، في شكل عقد مفاوضات بمدينة وجدة في أبريل ماي ١٩٢٦. لكن ما قيمة وعد فرنسا من هذا السلام؟ تتناول هذه الدراسة الموضوع من خلال النقاط التالية: (مباحثات سلام، أرادت منها فرنسا إنهاء حرب الريف، مفاوضات تحضيرية تمهيدًا للرسمية، افتتاح المفاوضات الرسمية). وقد توصلت الدراسة إلى أن المستفيدين الحقيقيين من هذه الهدنة هما فرنسا وإسبانيا اللتان أرادتا بهذه المباحثات أن تجعل الرأي العام يعتقد أنهما مع تسوية سلمية وفق المعاهدات الدولية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٠	يوليو	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	٢٥	أغسطس	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:
مؤتمر وجدة؛ مفاوضات؛ مباحثات؛ الريف؛ العمليات العسكرية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.342895 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
عبد الرحيم الوسعيدي، "مؤتمر وجدة (٢٦ أبريل – ٧ مايو ١٩٢٦) آخر فصول عملية السلام في الحرب الريفية".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ١٨٣ – ١٩٧.

Corresponding author: abderrahim261116@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

أثارت الحرب التي شنتها فرنسا وإسبانيا على الريف تذمرًا كبيرًا لدى فئات واسعة من الفرنسيين والإسبان، ولاسيما الفئات المعارضة للحرب، مما أدى إلى إسراع القوتين الاستعماريتين للمطالبة بتوقيع الصلح مع الريفيين. وقد تمكنت الأطراف السير نحو التفاهم وعقد مؤتمر السلام بمدينة وجدة ما بين ٢٦ أبريل و٦ ماي ١٩٢٦. قبل ذلك، كان الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي يعي خطورة الحالة، ويدرك - وخاصة بعد بدء ظهور آثار القصف الجوي العنيف والحصار الاقتصادي الكامل والإنزال في خليج الحسيمة وفشل الهجوم على تطوان - أن الريفيين لن يستطيعوا الاستمرار وحدهم في الحرب، ولذلك وجه في منتصف سبتمبر ١٩٢٥ نداء من نوع جديد للمغاربة، أعلن فيه أنه لا يرغب في شيء سوى تخليص إخوانه المغاربة من سيطرة الأجنبي الكافر، وأنه مستعد لدعم السلطان وتأييده والاعتراف بسلطته والخضوع له إذا قام بالتخلص من سيطرة الكفار وبتحرير شعبه(١)، ثم دعا المغاربة إلى الحرب وتخليص المغرب من الأجانب(٢). لم يطالع الرأي العام المغربي على هذا النداء، لأن الفرنسيين ألقوا القبض على حامله عندما أراد إلصاقه على باب الجامع الكبير بطنجة(٣). لم يتحسن موقف الريفيين في نهاية عام ١٩٢٥، بل أصبح أكثر حرجًا في بداية سنة ١٩٢٦ عندما بدأت قبائل المنطقة الشرقية تستسلم للإسبان(٤).

أولاً: مباحثات سلام، أرادت منها فرنسا إنهاء حرب الريف

لم تكن فرنسا وإسبانيا إيجابيتين في التفكير في مضامين الاتفاق ولا في مخرجات الاتفاق مع الريفيين. ويمكن القول بأن الاتفاق كان ديماغوجيا صرفا يحمل في طياته من بين ما يحمله، إقناع الرأي العام في فرنسا وإسبانيا بأن الريفيين لا يريدون الصلح. كان المارشال بيتان قد طالب بإدراج نقطة مهمة هي، انضمام الجيشين الفرنسي والإسباني في قوة واحدة، والتقدم في واد كرت، كما أخبر بذلك محمد أزرقان(٥) من طرف دانيال برمانسي (Daniel Bourmancé Say)(٦).

يرى الوفد الريفي أنه من غير المقبول أن تحصل إسبانيا على هذه الأرض، ويذكر أن إسبانيا كانت قد اتفقت مع فرنسا حول السيطرة على أراضي واد كرت بحلول ١٥ أبريل ١٩٢٦ على أبعد تقدير، حيث لم تكن إسبانيا وحدها قادرة على غزوها بالسلاح(٧). في مذكرة وجهها بيتان إلى الحكومة الفرنسية، قال فيها: "إن قادة الريف "المتمردين" ينبغي أن يقتصر دورهم على قبول المطالبة بالدخول في مؤتمر دبلوماسي مع (حماتهم)"(٨)، ويحذر، "دعونا لا نخطئ في نطاق مبادراتنا السخية، في بلد مسلم، سيتم اعتبارها علامة ضعف، كدليل على الرغبة في السلام تصل إلى أقصى الحدود وإعلان امتيازات جديدة"(٩).

قال قائد معركة فردان (فيليب بيتان)، الذي ينتقده بشدة المقيم ستيك(١٠)، لبريان(١١)، "ما يجب القيام به أثناء المفاوضات، إنها مسألة إعادة عبد الكريم في الإطار المقيد الذي يناسبه: مسألة (أمير الحرب)، يجب أن يكون تاريخ فاتح ماي الموعد النهائي الممنوح لعبد الكريم لقبول شروطنا"(١٢)، هكذا اختتم بيتان المذكرة. وينطبق نفس الشيء على الجنرال الإسباني خوردانا الذي يعتبر "عبد الكريم زعيم عصابة مبتذل"(١٣). كان التوجه العام للقيادتين العسكريتين الفرنسية والإسبانية بالمغرب تسير في اتجاه واحد، ألا وهو زعزعة إطار المقاومة الريفية من خلال جلب أكبر عدد ممكن من القبائل للمطالبة ب "الأمان".

علاوة على ذلك خططت القيادة العسكرية العليا لفترة الشتاء المقبل لتكثيف العمل السياسي مع القبائل، وتنظيم إعادة الانتشار على الأراضي التي أعيد احتلالها صيف وخريف ١٩٢٥، من جهة أخرى متابعة المفاوضات مع إسبانيا وإعادة تنسيق العمل المشترك(١٤). تم في مدريد توقيع اتفاق جديد في ٦ فبراير سنة ١٩٢٦ للتعاون بين فرنسا وإسبانيا في المغرب، وفي وزان تم عقد مؤتمر بتاريخ ١٨ مارس ١٩٢٦(١٥)، أفصح فيه بيتان على مضامين خطته الخاصة بالتغلغل في قلب الريف(١٦)*.

لما علم عبد الكريم الخطابي بوجود اتفاق ٦ فبراير ١٩٢٦، اعتقد أن القوتين الاستعماريتين عازمتان على القضاء على المقاومة الريفية، فبعث القائد حدو إلى

تاوريرت لمقابلة المراقب ليون كابرييلي[١٧] والتحدث معه في شأن هذا الاتفاق الذي قدر يرجع النزاع إلى نقطة الصفر.

لعب المراقب المدني الفرنسي في تاوريرت ليون كابرييلي دورًا أكيدًا في التواصل مع أعضاء قيادة الريف لعقد مباحثات سلام بين الأطراف المتحاربة[١٨]، من جهة أخرى لم يتوانَ قط على رفع تقارير ورسائل إلى القيادة الفرنسية في الرباط وباريس، يشخص لهم الحالة التي تبدو له أنها تسوء لفرنسا مرة بعد أخرى، يقول في أحد تقاريره: "[...] كان الوضع يزداد سوءًا يوما بعد يوم في الجبهة، انشقت القبائل الواحدة تلو الأخرى، تعرضت تازة لتهديد خطير. تطول قائمة خسائرنا بشكل مؤسف. كان علينا فقط أن نعارض المتمردين بأعداد كبيرة، كنت قد أبلغت المارشال مرة أخرى بالوضع كما بدا لي وفقا للمعلومات، للأسف كلها متطابقة، [...]"[١٩]. تقابل القائد الريفي حدو "لكحل" مع كابرييلي بصفته مراقبا مدنيا على تاوريرت، أخبر المبعوث الريفي غابرييلي أن محمد بن عبد الكريم مستعد للتعامل مع الفرنسيين، ولكنه يرفض التعامل مع الإسبان، وأن الفرنسيين يستطيعون زيارة الأسرى وتزويدهم بما يحتاجون إليه، أما الإسبان فإنه لن يسمح لهم بذلك[٢٠]. كما أخبروه بأن اقتراحات محمد بن عبد الكريم لإقرار السلام مهيأة.

توج لقاء حدو بن حمو مع المراقب الفرنسي كابرييلي في تاوريرت يوم ٩ فبراير ١٩٢٦ مبدئيا إلى التوصل إلى إيجاد حل للقضية الريفية في شكل مباحثات سلام بين الأطراف المتنازعة، في البداية اعترضت القيادة الفرنسية بعدما أخبرها كابرييلي بمبادرة حدو بن حمو لفتح محادثات سلام كما نقلها هو نفسه من الأمير محمد بن عبد الكريم، على مسألة تحييد إسبانيا من هذه المفاوضات، ورأت القيادة الفرنسية بما أن إسبانيا طرف في الحرب فإنها ملزمة بقول رأيها في هذه المحادثات المزمع انعقادها في أبريل المقبل. في الحقيقة، إن إسبانيا يربطها إطار الاتفاقيات مع فرنسا في القضية، ولا يمكن لفرنسا أن تنفرد وحدها بعقد سلام مع الريفيين. كانت شروط الأمير التي نقلها حدو إلى كابريلي للتفاوض مع فرنسا فقط دون إسبانيا هي:

يعترف الأمير محمد بن عبد الكريم بسيادة السلطان، مقابل ذلك فإنه يطلب الحصول على منطقة يتمتع فيها بنوع من الحكم الذاتي[٢١]. وإذا تم الاتفاق على ذلك، فإنه يرفض رفضًا قاطعًا الرقابة الإسبانية وكذلك الإدارة الإسبانية، ولكنه ربما يقبل الإشراف الفرنسي. وهو مستعد للقيام بجميع التنازلات الإقليمية والسياسية للسلطان، ولكنه لن يتنازل أبدًا لإسبانيا. وهو يرضى أن يكون زعيما وقائدًا على قبيلته بني ورياغل. ثم أخبر المندوب الريفي غابرييلي بأن محمد بن عبد الكريم يريد أن يَعرفَ الشروط التي يفرضها السلطان[٢٢]، في حالة خضوعه، وأنه مستعد لدراسة أي اقتراحات في هذا الموضوع[٢٣]. فبالنظر إلى الشراكة المتينة والاتفاقات القوية بين الطرفين عسكريا وسياسيا، فلم يجد المقيم العام الفرنسي مانعًا من محاولة حل المشكلة الريفية سلميًا عن طريق المفاوضات، في المقابل رفض رفضًا قاطعًا الفصل بين إسبانيا وفرنسا[٢٤]، وأصر على ضرورة مشاركة الإسبان في أي مفاوضات مع الريفيين، واعتبروا الفرنسيين، أن كل مبادرة سلم من دون إسبانيا فهي ناقصة ولن نقبل المشاركة فيها. يظهر أن فرنسا قطعت الشك باليقين في مسألة ضرورة الحضور الإسباني في المحادثات المقبلة، ما أدى إلى تغير كبير في شروط الأمير عبد الكريم. فمسألة الحكم الذاتي لم تعد مطروحة إذا حضرت إسبانيا في المحادثات[٢٥].

وقبل حضورهما في تاوريرت قدم من الرباط الجنرال الفرنسي لويس موجان، وتفاوض مع السيد محمد أزرقان، وأطلعه على شروط الصلح التي تنبني عليها نتائج المؤتمر، فأظهر السيد محمد أزرقان قبول تلك الشروط مع بعض التغيير، واتفق معه على أن يعرض الجنرال ذلك التغيير الذي ظهر للسيد محمد أزرقان على المقيم، وهو يعرض تلك الشروط مع تغييراته لها على أميره السيد محمد بن عبد الكريم، ورجع إلى الريف بعدما اتفقا على أن يكتب الجنرال له، إذا وقع قبول تلك التغييرات ليحضر المؤتمر، ولما حضر المسيو دوكلو (Duclos)[٢٦]، مع رفيقه موجان، وجد القضية قد تمت بما وقعت المخابرة فيه[٢٧].

أخيرًا وافق الأمير محمد بن عبد الكريم على عقد مفاوضات وجدة أملا في التوصل إلى حل سلمي يرضي جميع الأطراف بعد إجراء المشورة مع أعضاء حكومته. في ١٢ أبريل ١٩٢٦ صدر بيان رسمي في باريس حدد بإيجاز الخطوط العريضة لظروف السلام[٢٨]، كما طَرَحَها مندوبو فرنسا وإسبانيا، وهي خمسة شروط[٢٩] أساسية للصلح منها:

١-إعلان الطاعة والخضوع للسلطان مولاي يوسف وسيادته على كامل التراب المغربي؛

٢-إبعاد الأمير محمد بن عبد الكريم عن البلاد؛

٣-نزع سلاح القوات والقبائل الريفية بالكامل؛

٤-إطلاق جميع الأسرى. في المقابل ستتمتع منطقة الريف بحكم ذاتي متوافق مع المعاهدات القائمة[٣٠].

أضيف إلى هذه الشروط الأربعة التي أبدى الريفيون استعدادهم للتفاوض حولها، شرط خامس يتمثل في إقرار هدنة سيتم بموجبها إيقاف كل العمليات الحربية على جميع الجبهات بدءًا من تاريخ التحاق اللجنة الريفية بالمؤتمر[٣١].

ثانيًا: مفاوضات تحضيرية تمهيدًا للرسمية

في أوائل أبريل ١٩٢٦ قَبِل الأمير محمد بن عبد الكريم اقتراح الحكومتين الفرنسية والإسبانية عقد مؤتمر بوجدة للتفاوض في شروط الصلح، خلال اجتماع تحضيري للوفود، بطرح شروط مسبقة، وهددوا بإلغاء المحادثات ما لم تتم الموافقة عليها[٣٢]. في مقابل هذا يسمح لقبائل الريف بنوع من الحكم الذاتي يتلاءم مع المعاهدات القائمة، وأعلنت هدنة، وائتمر المبعوثون، في ١٥ أبريل، اقترح الفرنسيون والإسبان في البداية احتلالهم لبعض المواقع كتمهيد للمؤتمر، وهذا ما أثار استياء الريفيين الذين فهموا أنه جيء بهم خدعة، وسحب أصحاب الاقتراح اقتراحهم بعد أن كان له أسوأ أثر، وأثار الشكوك[٣٣]، ففي الحقيقة لم يكن ذلك سوى مناورة تكتيكية، لأنه لم يعد مهمًا منذ فترة، ما يقبله الثوار أو يرفضونه[٣٤]. وأبى ممثلو الريف أن يكتموا الاقتراح الذي أعلنوا عنه لممثلي الصحف فضحًا لأصحابه، وصرحوا بأنهم يريدون أن يعرضوا قضيتهم على العالم أجمع، واصفين ذلك تجاوزًا سافرًا واحتقار للدبلوماسية الريفية، قال رئيس الوفد الريفي محمد أزرقان: "ليست لدينا أسرار، وفي نيتنا أن نعرض الأمور جميعًا بصورة علنية"[٣٥]، ثم انسحب الريفيون إلى تاوريرت[٣٦].

هل كان الفشل مبرمج سلفا؟

في الجلسة التحضيرية للمؤتمر، اشترط ممثلو القوى الاستعمارية تطبيق شرطين مسبقين قبل الانطلاق الفعلي لأشغال المفاوضات: الأول يتعلق بالأسرى؛ إطلاق سراح أسرى الحرب، والثاني، السماح للجيوش الفرنسية والإسبانية باحتلال نقط مهمة واستراتيجية على ضفاف واد كرت. يذكر محمد أزرقان عن الوفد الريفي في هذا المؤتمر في مذكراته "أنه باستعراض مندوبي فرنسا وإسبانيا لهذه الشروط التعجيزية، اتضح منذ البداية من الاستحالة التوصل إلى حل توافقي بين المقاومة من جهة والقوى الاستعمارية من جهة ثانية". ويتأكد تقييم محمد أزرقان في برقية لرئيس مجلس الوزراء الفرنسي يوم ٢٢ أبريل ١٩٢٦، حيث يدعو فيها المقيم العام الجديد السيد ستيك إلى جعل القوات العسكرية على أهبة الاستعداد لانطلاق العمليات بقوة حاسمة من أول إشارة[٣٧].

ظن الكثير من المتتبعين والملاحظين، أن أطراف المفاوضات كانت جادة في البحث عن حل تفاوضي شاف، قد ينهي الأزمة القائمة، إلا أن الشروط التعجيزية التي طرحت على الوفد الريفي لم تكن مرنة في الجلسة التمهيدية قبل الانطلاق الفعلي للمفاوضات، فالشروط المقترحة من الجانب الفرنسي والإسباني كانت في اعتقادنا، كافية لفضح نواياها الحقيقية، والمتمثلة أساسا في التحضير للعمليات العسكرية التي كان يتم إعدادها في الكواليس بتنسيق محكم ومتعهد عليه بين القيادتين الفرنسية والإسبانية[٣٨]. سعى هذا الاتفاق المسبق إلى جعل هذه المفاوضات تسير في اتجاه واحد وتجاهل قرارات الطرف الريفي، وأن الحل الوحيد الذي لا يقبل التفاوض بشأنه هو القضاء نهائيا على حركة المقاومة الريفية، فدونه لا مفاوضات. غلب على الطرح الفرنسي الإسباني منطق القوة والقضاء المقاومة الريفية، حيث رأت الدولتين أنه من الصعوبة بمكان مواصلة المقاومة الريفية بنفس النهج الذي كانت عليه

في السابق. فبمجرد وصول بيتان إلى المغرب لقيادة العمليات العسكرية، بالإضافة إلى تكثيف التعزيزات العسكرية وبتعاون محكم مع بريمو دي ريبيرا، كان الريف محاصرًا من جميع النواحي، الأمر الذي أعطى للقيادتين أن تقترح حلين أساسين في هذه المفاوضات، الأول، إما الاستسلام النهائي والانقياد لأمر الواقع، والثاني، مواصلة الحرب مع التهديد باستعمال أحدث الأسلحة الفتاكة.

من المسلم به أن مؤتمر وجدة كان تتويجا لعملية طويلة من محادثات غير رسمية بدأت في يوليوز سنة ١٩٢٥، توجت بزيارة المراقب كابرييلي إلى الريف. كانت فترة الأعمال العسكرية الكبرى تميزت بقطع شبه كامل في الاتصالات التي نشأت من قبل. لكن خلال شتاء ١٩٢٦[٣٩]، تم إحياء العملية التي أدت إلى افتتاح المفاوضات الرسمية بين ممثلي القوتين الاستعماريتين فرنسا وإسبانيا وممثلي المقاومة الريفية.

في الاجتماع الاستكشافي لمضامين المحادثات، قدم الوفود وجهات نظرهما[٤٠]. طالب المندوبان الإسباني والفرنسي، مسبقا من الوفد الريفي بقبول شرطين كمقدمة للانطلاق الفعلي للمفاوضات[٤١].

- إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين والإسبانيين قبل المحادثات الرسمية؛
- السماح باحتلال القوات الفرنسية والإسبانية بعض المواقع الأساسية ومن أهمها التركيز على وادي كرت[٤٢].

كان رد محمد أزرقان على هاذين الشرطين الأولين. "لا يمكن تصور ذلك في رأينا قبل بدء المحادثات الرسمية"[٤٣]. عاد أزرقان، ولما وصل إلى الأمير ابن عبد الكريم، وأطلعه على ما راج بينهم، فاستحسن الأمير نظره في قبول تلك الشروط، على ما يدخلها من التغيير[٤٤]. وبعد أيام وصل كتاب من الجنرال موجان إلى السيد محمد أزرقان يخبره بأن الشروط المذكورة يمكن إدخال التغيير عليها حال عقد المؤتمر الذي يأمل منه أن يحضره[٤٥]. يقول ولتر هاريس الذي كان موجدا في وجدة إن الانطباع الذي تركه هذا المطلب في الريفيين كان انطباعًا سيئًا جدًا[٤٦]، وقد أعلنوا أنهم مستاؤون لأنهم اجتُذبوا إلى مائدة المفاوضات بمزاعم زائفة[٤٧] ونية سيئة. يبدو واضحًا أن مندوبي فرنسا وإسبانيا بطلبهم هذا، أرادوا قبل الافتتاح الرسمي للمفاوضات كسب شوط جد مهم في المعركة السياسية. بهذه العنجهية الاستعمارية، أدرك محمد أزرقان أن هذه المحادثات لا يمكن أن تؤدي إلى تسوية مشكلة الريف[٤٨]، ومع ذلك أمر حدو "لكحل" بالعودة إلى الريف لأخذ رأي عبد الكريم في هذه النقطة، وعاد إلى الريف في ٢٠ أبريل. بعد ذلك وافق الأمير على الاستمرار في المفاوضات دون تأخير لبحث سلام يتوافق مع حماية مصالح قبائل الريف فيما يتعلق بالشروط الأربعة التي صاغها الوفدان[٤٩]. واقترح نيابة عن الأمير بعض التعديلات التي من المحتمل أن تدفع بالمناقشات إلى الأمام. في ٢١ أبريل ١٩٢٦ تم عقد اجتماع تحضيري ثاني في مدينة "العيون الشرقية"[٥٠]، كان الوفدان الفرنسي والإسباني يلحان على نفس الشرطين الأولين، أي ضرورة قبول الوفد الريفي على الفور التعجيل بإطلاق جميع الأسرى واحتلال النقط الأساسية على وادي كرت، قدم الوفد الريفي ردًا في ٢٤ أبريل أي قبل يومان من الانطلاق الرسمي للمحادثات، اعترض به على الشرطين الأولين[٥١]، التقى الجنرال سيمون رئيس الوفد الفرنسي وأوليفيان عن الجانب الإسباني مع محمد أزرقان وشرحا له أهداف السلام من خلال قبول الوفد الريفي للشرطين الأولين، ولكن دون أن يتمكنا من إرضاخ أزرقان لمطلبهما، فكرت القيادتان الفرنسية والإسبانية في تخفيف موقفهم قليلا عن طريق طلب تطبيق واحد من الشرطين المشهورين على الأقل[٥٢]، وطرحا ذلك على أزرقان مرة أخرة، من دون أن تحدد القيادتان أي شرط تمسكوا بتطبيقه والتخلي على الآخر، ويظهر أن القيادتين تركتا ذلك للسيد أزرقان الاختيار في الشرطين المسبقين. مرة أخرى رفض الوفد الريفي بقيادة أزرقان الاعتراف بأي شرط مسبق من الشرطين، يعني رفض الإفراج عن الأسرى أو التقدم باحتلال كرت[٥٣]. الذي وافق عليه الوفد الريفي هو تسهيل زيارة البعثة الطبية الإنسانية الفرنسية لتقديم الإسعافات الضرورية لجرحى أسراهم وأسرى الإسبانيين؛ حتى تتمكن الأطراف المشاركة في المفاوضات عقد الاجتماعات

القادمة ومن ثم التعامل مع المشكلة برمتها أملا في التوصل إلى حل للقضية. ونتيجة لذلك طلب الوفدان الفرنسي والإسباني من حكومتيهما تعليمات منسقة؛ إما تعليق المحادثات، أو مواصلتها في وجدة[٥٤]. من باريس، كان بيتان يضغط من حين لآخر على أطوار المحادثات، حيث كان مستعجلا بخصوص تنفيذ تقدمه باتجاه كرت، ولا يرغب في تأخير استعداداته العسكرية. لكن بالرغم من ذلك استمرت المحادثات، وسط ضوضاء الصحافيين الذين كان فيهم هاريس، دوطايي، الفيكونت دوفرو مبعوثا من لومانيتيه، توجه المندوبون إلى وجدة في ٢١ أبريل ١٩٢٦[٥٥].

وعلى خلفية رفض الوفد الريفي للشرطين، انبثق عن ذلك وجهتي نظر فيما يتعلق بالقيادتين الفرنسية والإسبانية. رأت القيادة الفرنسية في هذا الصدد بعد محاولتها الدؤوبة الحصول التنفيذ المسبق للمادتين، عدم قطع المحادثات سواءً تعلق الأمر بمسألة التوافق على احتلال ضفاف كرت أو تسريح الأسرى[٥٦]. أما القيادة الإسبانية فلم ترَ جدوى من استمرار المفاوضات إذا كانت منطقة الريف، لم ترض على شرط واحد على الأقل من الشرطين المشار إليهما[٥٧]. فإسبانيا كانت تعتقد أنه، كيف للوفد الريفي لم يقبل بهاذين الشرطين أن يقبل شروطا أخرى نحن بصدد مناقشتها في المفاوضات، من قبيل شرط نفي الأمير خارج المغرب، فالذي قابلنا برفض الشرطين هو نفسه يجتمع معنا على مائدة مفاوضات واحدة، وكانت إسبانيا تنظر مباشرة إلى الخيار العسكري بدل السياسي الذي لم يُجد نفعا حسب وجهة نظرها. في ٢٢ أبريل أصدر رئيس الوفد الفرنسي بيانًا وجهه للمقيم العام ستيك بالرباط يوضح فيه" أن مسار المفاوضات لا يقدم سوى القليل من الآمال المتفق عليها نحن القيادتين الفرنسية والإسبانية، لذلك من الضروري إبقاء القوات جاهزة لبدء العمليات عند أول إشارة لقواعدنا العسكرية[٥٨].

في كثير من الأحيان لم يعد يفهم موقف فرنسا في هذه المباحثات، تارة تظهر في مظهر الداعمين للسلام مع الريفيين، وتارة أخرى بطريقة غير مباشرة، تظهر مظهر المعرقلين لعملية السلام. وبالتالي التهديد للعودة إلى الحرب وكل هذا قبل الانطلاق الفعلي لمباحثات السلام يوم ٢٦ أبريل.

ثالثًا: افتتاح المفاوضات الرسمية

افتتح مؤتمر وجدة رسميا في ٢٦ أبريل[٥٩]، يتكون الوفد الفرنسي من الجنرال هنري سيمون (Henri Simon)[٦٠]، المدير السابق لشؤون السكان الأصلين بالمغرب ورئيس الوفد الفرنسي، ورئيس الجمعية الفرنسية والإسبانية[٦١]، والسيد هنري بونسو[٦٢] (Henri Ponsot)، الوزير المفوض نائب المدير بوزارة الشؤون الإفريقية والخارجية، والمقيم العام الفرنسي الرابع بالمغرب بين ١٩٣٣-١٩٣٦[٦٣]، الترجمان الكمندار (ماركو)[٦٤]، والعقيد دوكلوس (Duclos)، مساعد المفوض العام المقيم لجهاز المخابرات والاستعلامات بالرباط [٦٥]، هذا الأخير لم يحضر المفاوضات بسبب مرضه، تم تعويضه بالكولونيل نوجيس (Noguès)[٦٦]*. تم تعين المفاوضين الفرنسيين خلال مؤتمر عقد في ٢ أبريل ١٩٢٦ كي دورساي (Quai d'Orsay)[٦٧]. أما الوفد الإسباني يتألف من السيد لوبيز أوليفان (Lopez Olivan)، مدير القسم المغربي ورئيس الوفد الإسباني[٦٨] بالإضافة إلى القائد أغيلار (Aguilar) والقائد ميكيل (Miguel)[٦٩]، والترجمان فرانشسكو مارين (Francisco Marin)[٧٠]. توجد العديد من القوائم الفرنسية والإسبانية والأنجلوساكسونية في وجدة، وكان من بينهم بالطبع الصحفي الإنجليزي ولتر هاريس[٧١] الذي يبدو أنه منزعج من هذه المفاوضات بسبب الحيل الماكرة والخدع السياسية التي أحاطت بالاجتماع، ويبدو أنه قدم نصيحة للوفد الريفي بهذا الانزعاج، "كنت أفترض دائما أن محادثة بسيطة بدون مبالغة، وأنها لو كانت تحت الخيمة، كانت ستكون أفضل وأكثر فعالية من لقاء رسمي حول سجادة خضراء"[٧٢].

الوفد الريفي

عين الأمير محمد بن عبد الكريم، السيد محمد أزرقان، بصفته ناظرا للخارجية ورئيس الوفد الريفي في المؤتمر التفاوضي بوجدة، صحبة القائد حدو لكحل بن محمد البقيوي والسيد أحمد شدي الأجديري الورياغلي[٧٣]، والترجمان السيد عبد القادر بوزار

الجزائري الذي طلبه محمد أزرقان ليلحق بمأموريته، وساعده على ذلك الجنرال موجان الفرنسي[٧٤]. تم تعينهم في مفاوضات وجدة لأن غالبيتهم أعيان محترمون ومعروف عنهم أنهم محنكون سياسيا[٧٥]، وجرت مشاورات معهم لأنهم كثيرا ما كانوا هم اللسان المعبر عن قاعدة عريضة من الجمهور في الريف[٧٦].

استمرت المحادثات بين الأطراف كما هي مسطرة في جدول الأعمال خلال الجلسات الأولى بنوع من الهدوء والترقب إلى ما ستؤول إليها المناقشة. تتوقف المحادثات على الفور بسبب إدراج مطلب خطير يتمثل في تنحية الأمير بن عبد الكريم ونفيه خارج البلاد. وهذا المطلب مرفوض رفضا قاطعا من قبل الريف. جادل أزرقان وحدو "لكحل" وأحمد شدي الفرنسيين والإسبان بالقول: "يحتاج كل من السلام والحرب إلى زعيم"[٧٧]، احتج أزرقان بشدة حيث ردد قائلاً: "إنه ليس مهزوما، فلْتُعط له على الأقل الوسائل التي يحفظ بها كرامته وحقوقه"[٧٨]، وأضاف ملحا "وحده عبد الكريم قادر على فرض احترام شروط السلام"[٧٩]. واطلع الوفد الريفي الأمير على مستجدات المؤتمر وتطوراته الخطيرة عبر طائرة كانت فرنسا وفرتها للوفد الريفي ووضعتها بشكل خاص رهن تنقلاتهم[٨٠]، من وجدة إلى الريف[٨١]. (الراجح أن رجوع أزرقان كان على متن البحر مستقلا بابور/ مركب فرنسي يسمى طريبدو سانكالي)[٨٢]. أفرز هذا الشرط المستجد في مباحثات وجدة إلى وجهتي نظر لدى الريفيين، الأول، متشدد يؤيد استئناف أعمال المقاومة، ويرى أنه لا سلام مع الماكرين، يجسد هذا الرأي شقيق الأمير، امحمد الخطابي وأحمد بودرة بصفته وزير الحرب[٨٣]. أما الرأي الثاني، يجسده رئيس الدبلوماسية الريفية، محمد أزرقان والأمير بن عبد الكريم نفسه، حيث بدا هذا الرأي أكثر ميلا إلى حل تفاوضي، بشرط إلغاء شرط نفي الأمير وإبعاده عن الريف. لا يرى الوفد الريفي الاستسلام لشرط إقالة الأمير[٨٤]. ولما رجع إلى وجدة في المركب المذكور على طريقه التي جاء منها، وحضر في جلسة المؤتمر مخبرا لهم بأنه لا يمكن قبول الشرطين المزيدين عاجلا[٨٥]، أي شرط نفي الأمير والخضوع لسطلة السلطان مولاي يوسف.

أما بالنسبة للحكم الذاتي[٨٦] المقترح، فإن الريفيين يعتبرونه بالمعنى الواسع مع الاعتراف بحكومة الريف لدولة مستقلة والتحرر من أي تدخل من قبل السلطة الشريفية وإسبانيا في الشؤون الداخلية[٨٧]، كان في ٢٧ أبريل قد قدم الوفدان الفرنسي والإسباني مشروع السلام خلال الاجتماع الثالث، حيث أبلغ الوفدان مندوبي الريف عن عدد القبائل التي تمت دعوتها للاستفادة من الحكم الذاتي التي شملها مشروع السلام. وهذه القبائل هي: بني ورياغل، وبني يطفت، وبقيوة، وتارجيست، وبني عمرت، وبني بوفراح، وبني جميل، وبني سيدات، وصنهاجة السراير[٨٨]. أضاف الوفدان ولأسباب أمنية "... يتعين على الأمير بن عبد الكريم وشقيقه امحمد بن عبد الكريم وعمه عبد السلام الخطابي مغادرة البلاد. ويمكن للأمير بن عبد الكريم اختيار بلد الإقامة خارج المغرب، ولم يتوقف الوفدان الفرنسي والإسباني عند هذا الحد، بل طالبوا أيضا نزع سلاح القبائل بالكامل والخضوع لسلطة سلطان المغرب. وفيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة، ردّ أزرقان "إن خضوعنا للسلطان مولاي يوسف سيؤدي إلى الاعتراف بسيادته وهذا الأمر تحدده حكومة الريف نفسها"[٨٩]، من ناحية أخرى لا يمكن نزع سلاح القبائل دون منح ضمانات معقولة ولا غنى عنها لصالحهم؛ وبالتالي رفض بشكل قاطع إنشاء لجنة فرنسية إسبانية للإشراف على تنفيذها، وحسب أزرقان، "توجد حكومة ريفية تتكلف بتنفيذ جميع شروط الاتفاق"[٩٠]. أما بخصوص نفي الأمير بن عبد الكريم فقد اقترح أزرقان على الجنرال موجين سحب هذا البند ولا أساس للتفاوض بشأنه إطلاقا، وأضاف هذا البند بسبب الاستنكار الشديد الذي عبر عنه سكان الريف وكذلك أعضاء الحكومة الريفية، ففي نظرهم الأمير بن عبد الكريم هو الوحيد القادر على ضمان تنفيذ السلام[٩١].

في الجلسة الرابعة مساء يوم ٢٧ أبريل ١٩٢٦ حافظ الوفد الريفي على المواقف التي اتخذها في الصباح، أثناء تدخل أزرقان كانت الحقيقة الجديدة الوحيدة، هي قبول الريف – بتشكيل لجنة مؤلفة من ستة مندوبين فرنسيين وإسبان يمكنهم الذهاب إلى الريف، لمراقبة نزع سلاح القوات الريفية وفي نفس الوقت تعيين خلية

(ميلشيا) محلية[٩٢]. في يوم ٢٨ أبريل تم عقد اجتماعين، الخامس والسادس، من دون تحقيق أي تقدم إيجابي بشأن النقاط الأساسية ولا بشأن تدخل القوات الفرنسية والإسبانية للمضي قدمًا في نزع سلاح القبائل. يعتقد أزرقان أن "دخول قوة محتملة إلى الريف ليس شرطًا أساسيًا للسلام، نحن لا نعتبر أنفسنا مهزومين ولا نعرف التعصب الديني، وبهذا نخلُص إلى أنه ليس لديكم الرغبة في تحقيق السلام مثلنا"[٩٣]. في ٢٩ أبريل عقد الاجتماع السابع، أبلغ المندوبون الريفيون محاورهم بأنهم لن يسمحوا على كل أراضي التي يحددها خط الجبهة، مما ساهم ذلك في تعميق الخلافات بالفعل وأثار غضب الفرنسيين والإسبانيين[٩٤].

إلى هذا التاريخ الذي أوشك على نهاية شهر أبريل، لم تحصل القيادتان الفرنسية والإسبانية على تحقيق أي شرط من الشروط التي يتفاوض الوفد الريفي بشأنها، كان أساس المؤتمر مبنيًا على أنه لا يمكن إبرام شيء إلا بعد التزام نفوذ هذين الشرطين[٩٥]، حتى الشروط التي كانت قد ناقشتها في الجلسات التحضيرية، لم يتنازل الريفيون على أية قضية من قضاياه الأساسية، وللحفاظ على سير أشغال السلام قدم الوفد الريفي تنازلات طفيفة (نزع السلاح تحت إشراف الأمير عبد الكريم وإطلاق سراح الأسرى بعد التوقيع على " معاهدة السلام")[٩٦]. تفاجأ كثيرًا الوفد الريفي في تطور المباحثات، فكل جلسة من جلسات الحوار يتفاجأ الريفيون بشرط جديد، مما عكر تقدم المفاوضات. في المقابل وعت القيادتان الفرنسية والإسبانية أنه ليس من السهل النيل سياسيًا بالوفد الريفي، ولا سيما رئيسها محمد أزرقان، فالرجل يظهر أنه عارف كبير لدواليب السياسة، حاد في مواقفه وخبير بالفطرة، ظهر له بأن المؤتمر لا ينجح أمره، وصار مما يريده بقية الأعضاء[٩٧].

في فاتح ماي أعطى الوفدان الفرنسي والإسباني لمندوبي الريف إنذارًا نهائيا في شكل مذكرة تسرد الشروط النهائية مع تأخير استئناف العمليات حتى ما بعد ٦ ماي، وهذا السماح لمندوبي الريف بتقديم استجابة مواتية للشروط التي تم تحديدها لهم كأساس للمحادثات[٩٨]. غادر الوفدان الإسباني والفرنسي وجدة، موضحين أنهما سيعودان هناك فقط للاستماع إلى رد الوفد الريفي، وبالتالي تأكيد قرارهما بعدم قبول أي مناورة تأخير[٩٩]. توجه الجنرال سيمون إلى الرباط لمناقشة الوضع هناك مع المقيم العام ستيك ومع السلطان مولاي يوسف[١٠٠]. لهذا عاد الوفد الريفي إلى الريف تقديم رد رسمي ونهائي على الإنذار الفرنسي، وكان الإنذار أن أكد تنفيذ الشروط بالكامل[١٠١]، أي الشروط الأربعة المحددة في المفاوضات، قبل موعد ٧ ماي، وأكد الإنذار على التسليم الكامل لجميع الأسرى[١٠٢] الفرنسيين والإسبانيين.

عاد الوفد الريفي إلى وجدة يوم ٥ ماي لاستئناف أشغال جلسة المفاوضات، في اليوم الموالي ٦ ماي انطلقت الجلسة ولمدة أقل من ربع ساعة، كانت كافية لتؤدي إلى الانهيار النهائي كما توقعها محمد أزرقان قبل ذلك بحوال أسبوعين، اعتبر الوفد الريفي أنهم قدموا كل التسهيلات الممكنة بشأن السير الإيجابي للمفاوضات[١٠٣]. تعثرت المباحثات والنقاشات وتم تمديد الهدنة حتى ٧ ماي، مما زاد من غضب الموظفين الفرنسيين والإسبان الذين حظروا على هامش جلسات الحوار الرسمية. يحاول أزرقان مرة أخرى إظهار نه ليس لدينا سبب العداء ضد فرنسا، نحن مستعدون للتصالح مع السلطة الفرنسية في الرباط والجزائر وتونس[١٠٤]، كان أزرقان أعلن للجنرال سيمون رئيس الوفد الفرنسي في الأول من ماي، مستغلا غياب الوفد الإسباني، لا يمكننا أن نتفق مع الإسبان ونطلب من فرنسا أن تعمل كحكيم بيننا وبينهم[١٠٥]، يبدو أنه حتى اللحظة الأخيرة من مباحثات وجدة قبل التمديد، أنه اعتقد أزرقان من الممكن انتزاع سلام منفصل مع فرنسا فقط مقابل تنازلات إقليمية مهمة بما في ذلك بلاد بني زروال الخصبة[١٠٦]. وتبغ ذلك أزرقان "أما بالنسبة للباقي سنتحدث عنه فيما بيننا"[١٠٧]، وبما أن أزرقان اعترف للفرنسيين التنازل على بلاد بني زروال على اعتبارها جوهر المشكلة في المسألة الريفية، فلماذا أصر الفرنسيون على تطبيق كل الشروط الأخرى ولاسيما مسألة نفي الأمير بن عبد الكريم؟

توصل الجنرال الإسباني خوردانة (Jordana)، بخبر انفراد أزرقان وسيمون في مباحثات وجدة، واشتكى إلى باريس من وجود مفاوضات موازية مع مندوبي الوفد الريفي. ينبغي على المقيم العام ستيك أن يبرر ذلك ويؤكد أنه لا اتفاق مع الريفيين في أي شيء جانبي، وأن التحيز للإسبان مستمر حتى النهاية[١٠٨]. في ٢ ماي توجه رئيس الوفد الفرنسي إلى فاس حيث استقبله السلطان مولاي يوسف الذي كان يتابع باهتمام كبير تطورات مباحثات مؤتمر وجدة، وكان يرغب في التوصل إلى السلام كما يأمل ستيك هو الآخر[١٠٩] وضع مولاي يوسف ليسمون "اعتقد أنه يمكن تقديم بعض التنازلات للريفيين، لأنه في رأيي لا يشكلون أي تهديد خطير للقوة الشريفية" والسلطان، سيكون راضيا على السيادة الروحية على الريف. السلطان مستعد أن يذهب أبعد من ذلك عن طريق التفاوض المباشر مع الأمير بن عبد الكريم، الأمير مدين بسلطته إلى حالة الحرب، لا أرى أي مشكلة في الدخول في محادثات، قال السلطان: في جميع الأوقات، تفاوض المخزن مع (المتمردين)، نحن كمسلمين معتادين على هذه العملية، أخيرًا حذر السلطان سيمون. إذا قامت فرنسا الآن بعمليات عسكرية في الريف، فإن جميع المسلمين سيعتقدون أنها تقاتل نيابة على إسبانيا[١١٠]، وهذا سيكون له أسوأ تأثير عليهم. ردّ سيمون، نحن مرتبطون بإسبانيا بطريقة لا يبدو من الممكن تعديل أو التراجع على موقفنا فيما يخص مسألة الريف، أضاف سيمون" إذا كان نمن الممكن استئناف المحادثات لا حقا، يمكننا أخذ اقتراحات السلطان بعين الاعتبار"[١١١]. إلى حدود ٤ ماي شكك سيمون، في أن اللعبة قد لعبت بالفعل بين الوفد الريفي والأمير بن عبد الكريم[١١٢]، مقابل تمديد الهدنة بخصوص العمليات العسكرية. وفد الريف، الذي أكد للتو موافقة الأمير، على اقتراح تبادل الأسرى، ويقترح فقط تبادل حوالي خمسين سجينا فرنسيا وإسبانيا مقابل تحرير أسرى الريف، والسماح لزيارة بعثة إسبانية طبية[١١٣] إلى تاركيست لتفقد أحوال السجناء الفرنسيين ومساعدتهم[١١٤]. علق سيمون على هذا المقترح الذي جاء به الوفد الريفي فيما يخص إطلاق أسرى الفرنسيين والإسبان، أنه غير كاف، حذّر سيمون من انهيار المفاوضات، فانهيار المحادثات يعني العودة إلى استئناف العمليات العدائية[١١٥]. رد رئيس الوفد الريفي أزرقان، بعدما أُستُفِز الريفيون كثيرا، "نحن نقبله بفرح وسرور"[١١٦]. على إثر هذه العبارة الأخيرة، تم قطع المحادثات رسميًا ظُهر اليوم من قبل الوفدين الفرنسي والإسباني بعد مضي أقل من ربع ساعة من انطلاق المفاوضات[١١٧]، كانت هذه آخر محطة المصافحة. الوفد الريفي، غادروا على الفور وجدة. انتهى مؤتمر وجدة بالفشل التام، لا شيء تحقق بين بين الجانبين، مرة أخرى عودة ساعة البارود في المغرب[١١٨].أما الأمير الذي كان يجري في نفس الآونة مشاورات مع ٣٠٠ من ممثلي القبائل الريفية، فإنه دعا إلى مواصلة المقاومة حتى آخر رجل[١١٩]. وفي اليوم الأخير من المهلة اندلعت في جنوب شرق أجدير المعركة الحاسمة بين قبيلة الأمير بن عبد الكريم والقوات الإسبانية، دامت ثلاثة أيام[١٢٠].

على خلفية هذا المؤتمر وما آلت إليه النتائج، يقول هاريس أنه استشار الكثير من الريفين الذين يتمتعون بثقة عبد الكريم. أن عبد الكريم رفض أن يقبل هذه الشروط لأنه تبين افتقار إلى الاجتماع بين حكومة الحماية الفرنسية والجيش، فقد كانت الحكومة راغبة بإخلاص في الوصول إلى الصلح بواسطة المفاوضات. بينما كان الجيش تواقا إلى الحاق الهزيمة الماحقة بالريفيين. ولم يكن يعتقد أن الفرنسيين سيجتاحون الريف كما كان يأمل في التدخل البريطاني. ويظن هاريس أنه بقدر ما يتعلق الأمر بشعبه؛ فقد كان من العسير على عبد الكريم أن يقبل بالشروط المقدمة في وجدة، لأنها تتخلف كثيرًا عن الوعود التي قدمها وكانت القبائل تعتقد أنه لا يمكن مطلقا اجتياح معاقلها. وكانت راغبة في مواصلة الحرب، وفي رأي هاريس كان الأمير يدرك. أنه ليس في الإمكان الاستمرار في المقاومة إلا لفترة قصيرة من الزمن[١٢١]، وكان يعلم أن القوتين الاستعماريتين ستكون بعد مؤتمر وجدة أكثر قساوة في عملياتها العسكرية على الريفيين.

علق الأمير عبد الكريم بالقول: "كنت أريد السلام لكن بعد محادثات وجدة، رأيت أن الفرنسيين والإسبان كانوا في تفاق كامل. لقد اسْتَأْنَفْتُ القتال في حالة من اليأس التام، كان ذلك خارج عن إرادتنا من دون أن

يوهمني أي أمل باطل، توقعت ما سينجز قريباً: تخاذل رجالي، ورُضوخ القبائل مع تقدم الحرب. الجميع بات يدرك أنني لم أعد قادرًا على مساعدتهم. استنكر ستيك، الداعم المعلن لـ "الحل السلمي"[١٢٢] تنظيم مؤتمر وجدة الذي أنتج بشروط مواتية مثل أنه كان محكوما عليه بالفشل، جعلت الجلسات الرسمية للريفيين خجولة ووحشية، كلما تم التعبير عن مرارة المقيم العام ستيك ضد بيتان، حيث أشار إلى اتهامه في السعي وراء إجهاض سلام وجدة في برقية إلى أرستيد بريان[١٢٣] (Aristide Briand)، ويدعوه في البرقية إلى إعلان الرأي العام عن طريق الصحافة بتعميم الاتهام له[١٢٤].

رابعًا: شرط إبعاد الأمير عن الريف عكّر تقدم المباحثات

أمام الشروط التعجيزية بالإضافة إلى المعارضة القوية من المارشال بيتان في إحباط مفاوضات السلام، أضف إلى ذلك عدم الرضى التام للوفد الريفي للشروط المسبقة، وحجم الاستياء وسط أهالي الريف، عوامل كلها أدت إلى نتيجة فشل مباحثات السلام في وجدة، ومع ذلك كان أمل كبير يحذو الأمير بالتوصل إلى اتفاق سلام يرضي كل الأطراف، يقول الأمير " قدمنا إذن إلى وجدة بنية التعامل بإيجاب مع الشروط المطروحة علينا سلفا لكن ذلك الشرط غير المعروف من قبل، أي إبعادي عن الريف، كان شرطا مرفوضا[١٢٥]. لأنني لو قبلت به، في وقت كان ضمن رجالنا من لايزال يعتبر سيد الموقف، لاستنكر الريفيون جميعا وانتفضوا ضدنا"[١٢٦]. لهذا ورغم اقتناعي، الراسخ للأسف، بأنني سأُهزم يوما ما، فضلت حمل السلاح مجددا ضد جيوشكم[١٢٧]. رجع ماتيو مرة أخرى سأل الأمير " تعرب من جهة عن رغبتك الشديدة في إحراز السلام، تعترف من جهة أخرى بأن قومك قد تعب من هذه الحرب العقيمة. وإذا بك تستأنف الحرب ضدنا"[١٢٨]، أعرب الأمير أن ليس في كلامه أي تناقض، " كنت أعرف بأن رجالي، مع مرور الأيام، سيحاربون بحماس أقل فأقل. لكن إذا كان هؤلاء يحاربون من أجل استقلالهم، فأنا كنت أجسد ذلك الكفاح في سبيل الحرية. فكيف لي أن أتخلى وأتنازل؟ كان ذلك سيعادل الخيانة"[١٢٩]. كل الإجابات التي قدمها الأمير للصحفي ماتيو كانت تبدو له أنها غير مفهومة، ولمزيد من الإيضاح، رجع ماتيو وسأل عن موقف الأمير من فشل مفاوضات السلام ربيع ١٩٢٦، "لم أستوعب بعد موقفك، بما أنك كنت تتوقع الكارثة. سواء بالنسبة إليهم أو بالنسبة إليك النتيجة واحدة: تعرضتم للهزيمة. وأنت أجبرت على اللجوء إلى سنادة[١٣٠]، ومع ذلك، لا تتوانى في التباهي أحيانا بأنك قد هَزَمْتنا أيضًا![١٣١]. بالرغم من أنه بين أيدي الفرنسيين فلم يكن يخشى أي شيء في قول الحقيقة فلننظر هنا إلى جوابه وهو يرد على ماتيو "لقد هُزمنا، هذا لا جدال فيه؛ والدليل أنني في قبضتكم. لكن هُزِمتُم أنتم كذلك[١٣٢].

خَاتِمَةٌ

في ختام هذا التتبع لتفاصيل مباحثات وجدة التي كانت آخر محطة أُرْجِىَ منها سلام على بعد أسبوعين من المفاوضات. يمكننا القول إن المستفيدين الحقيقيين من هذه الهدنة هما فرنسا وإسبانيا اللتان أرادتا بهذه المباحثات أن تجعل الرأي العام يعتقد أنهما مع تسوية سلمية وفق المعاهدات الدولية. أما مسألة تأجيل المحادثات بعد توقفها في فاتح ماي بسبب اعتراض الوفد الريفي الموافقة على شروط المؤتمر التي كانت مجحفة في غالبيتها، كما تم اقتراحه على الريف قبل العودة إلى استئناف العمليات فعليا فهو لا يدين بتفسيره، خلافًا لما يتخيله المرء الرغبة صادقة في التوصل إلى حل سلمي لمشكلة الريف، ولكن بكل بساطة للظروف التي كانت في بداية ماي غير مواتية لإطلاق الهجمات المخطط لها.

علاوة على ذلك، من هذا المنطلق أرسل المقيم العام برقية إلى وزير الخارجية ليوضح له في تقرير من هيئة الأركان العامة ليوم ٣٠ أبريل، يشير في الواقع، "إلى هطول أمطار غزيرة واضطراب كبير في لأحوال الطقس، مما جعل المسارات غير سالكة إطلاقًا على الجبهة تقريبا بأكملها"[١٣٣]، ومما يزكي هذه السياسة التي دبرتها فرنسا، أنه في أكتوبر ١٩٢٥ كان فيليب بيتان متوجسا كثيرًا من الحرب ضد الريف في الشتاء القادم أي شتاء سنة ١٩٢٦، علما منه أن مناطق الريف

ومرتفعاته الجبلية تشهد تساقطات مطرية وثلجية مستمرة مما تسوء حالتها كثيرا. ينتج عن ذلك صعوبة المواجهة وبالتالي فإن القوات الريفية تعتبر هذه الأحوال من أهم نقط قوتها مما يمكنها من خطف النصر على حساب الجيش الفرنسي بالإضافة أن القوات الريفية معتادة القتال في مثل هذه الظروف. كان لتقهقر القوات الفرنسية إلى الوراء عجل بالقيادة الفرنسية التفكير في عقد المفاوضات سلام لاستغلال عامل الوقت وترتيب الأمور من جديد، حيث رأت القيادة الفرنسية أنه من الصعوبة البالغة هزم المقاومة الريفية في فصل الشتاء.

وبعد كل شيء، كان الطقس الجيد في المغرب قد بدأ لتوه، من حيث المبدأ يظل هكذا حتى أكتوبر، وبالتالي لا يمكن بأي حال من الأحوال المساومة على البرنامج المعتمد من خلال التأجيل لمدة أسبوعين أو عشرين يوما أو حتى شهر(١٣٤)، فهو في النهاية أتى بفوائد مهمة لطالما انتظرناها(١٣٥).

المسألة الأخرى التي تجدر الإشارة إليه، أن افتتاح المحادثات الرسمية مكن القوتين الاستعماريتين من إحداث تحسن ملموس في أوضاع أسراهما من خلال منحهما الحق في إرسال بعثات طبية بشكل منتظم حتى بعد استئناف العمليات النهائية(١٣٦)، فمن بين ما وافق عليه الفود الريفي في مفاوضات وجدة هو السماح للفرقة الطبية الفرنسية والإسبانية زيارة أسراهم وتقديم لهم الإسعافات اللازمة، بالرغم من أن الأسرى كانوا يتلقون كل ذلك من طرف الريفيين.

على الجانب الريفي، كان للمحادثات انعكاسات سلبية، فالنجاح الإعلامي غير المستقر الذي سجل أثناء انعقاد المؤتمر كان له الأثر الكبير في تراجع المعنويات للمقاومين الريفيين الذين بدأوا يحتضنون أمل السلام وتحذوهم رغبة جامحة للتوصل إلى حل سلمي ينهي الأزمة القائمة، نعم وكيف لا يأملون بالسلام فهم الذين عانوا الويلات في ظروف أقل ما يمكن القول عنها أنها "مرهبة وقاسية"، كيف لا فهم يواجهون أعظم دولة إمبريالية مدججة بمختلف الأسلحة الحديثة، أضف إلى ذلك أنهم حملوا البندقية لأكثر من ست سنوات...أدلى رئيس البعثة الصحية الفرنسية المرسلة إلى الريف بالقول "يبدو لنا قريبا جدا من الواقع"، يشير إلى أن المقاومة الريفية لم تعد بنفس الحماس الذي كانت عليه قبل المفاوضات. وأكد الأخير للمقيم العام ستيك أن من المؤكد أن محادثات وجدة وانهيارها عجلت بالانشقاقات في الريف(١٣٧)، خيبة أمل عميقة عجلت بتفكك المقاومة وباستسلام وتقدم القوات يتم دون قتال في معظم المناطق، بالإضافة إلى ذلك، لا ينبغي أن ننسى أن المخابرات الفرنسية خلال هذه الفترة شددت اتصالاتها مع القبائل بهدف الحصول على تفكك كامل لكتلة المقاومة بأقل تكلفة، وهذا السبب في نظرها رأسمالاً مهما وكفاءة مثالية كان ترجوها منذ أكتوبر من سنة ١٩٢٥.

الاحالات المرجعية:

(١) زكية داود، **عبد الكريم ملحمة الذهب والدم**، ترجمة، محمد الشركيَ، (الناشر، وزارة الثقافة، ٢٠٠٧)، ٢٤١-٢٦٠.

(٢) عثمان بناني، **محمد بن عبد الكريم الخطابي ومقاومة الاستعمار الإسباني**، (الرباط، منشورات الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الطبعة الأولى،٢٠١٩)، ٢٠١.

(٣) يوجد نص النداء في تقرير قسم الاستعلامات بالقوات المسلحة الفرنسية بالمغرب بتاريخ ٢٤ شتنبر ١٩٢٥. أورده، بناني، **محمد بن عبد الكريم**، ٢٠١.

انظر: S.H.A.T.- Vincennes, Carton 3H-102(Maroc).Document n°.5623.

(٤) بناني، **محمد بن عبد الكريم**،٢٠٢.

ينبغي الإشارة إلى أن قيادة المقاومة الريفية أولت اهتمام بالغ للمنطقة الشرقية راهنت على هذا المنفذ كعمق استراتيجي، حيث عملت على استثماره قدر الإمكان للتواصل مع الخارج والحصول على الكثير من الحاجيات التي كانت في أمس الحاجة إليها. يُنظر: محمد خرشيش، أهمية المنطقة الشرقية إبان أحداث حرب الريف التحريرية، **مجلة كلية الآداب تطوان**، عدد١٨، (٢٠١٦):٣٢٧.

(٥) يقول محمد أزرقان، أدى الحال إلى اتفاق بين فرنسا وإسبانيا في اجتماع بينهما في الخزيرات (الجزيرة الخضراء)، بين بيتان وبريمو ذي ريبيرا، وجاؤوا بجنود كثيرة من المنطقة الفرنسية، وبقي البارود مسترسلا نحو عام. يُنظر: أحمد سكيرج، **الظل الوريف في محاربة الريف، مذكرات محمد أزرقان**، مراجعة، عبد المجيد عزوزي، (طنجة: منشورات تيفراز، الطبعة الأولى، ٢٠٢٢)، ٢١٥.

(٦) دانيال برمانسي (D. Bourmancé Say)، هو الابن المتبنى لرجل الأعمال الفرنسي لويس ساي (Louis Say)، حاول تطوير العلاقات التجارية مع الريف، في ١٩٢٢ غطى مصاريف تنقل وفد ريفي إلى باريس بهدف دعم القضية الريفية. أما لويس ساي، فهو رجل صناعة فرنسي، يعتبر أبرز من أسس مدينة بورساي (مرسى بن مهيدي) بالجزائر سنة ١٩٠٥. انظر: ماريا روسا ذي مادرياغا، **محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال**، ترجمة/ محمد أونيا، عبد المجيد عزوزي، عبد الحميد الرايس، (الناشر، تيفراز، الطبعة الأولى، ٢٠١٣)، ٥٩٩-٦١٣.

(7) Vincent Courcelle-Labrousse Nicolas Marmié, La guerre du Rif: Maroc (1921-1926), (Paris, Editions Tallandier, 2008), . 321.

(8) Ibid .323.

(9) Ibid.

(١٠) في يناير ١٩٢٦ انفجر صراع حاد بين المارشال بيتان والمقيم العام الفرنسي الجديد ستيك الذي عينته الحكومة الفرنسية في ١١ أكتوبر ١٩٢٥ محل ليوطي بعد قبول استقالة هذا الأخير في ١١ شتنبر ١٩٢٥، وكان ستيك من أنصار ليوطي ويتبنى وجهات نظره في المشكلة المغربية، بينما كان المارشال بيتان يرى أن محمد بن عبد الكريم لم ينهزم معه، وأنه يجب القضاء عليه قضاءً مبرمًا. ولذلك كان يرى ضرورة توقيع اتفاق محدد مع إسبانيا يهدف القيام بعمليات عسكرية مشتركة. انظر: بناني، **محمد بن عبد الكريم**، ٢٠٢.

(١١) أريستيد بريان، (Aristide Briand)، وزير الشؤون الخارجية الفرنسية في حكومة بانلوفي سنة ١٩٢٥، ثم لاحقًا رئيس الوزراء.

انظر: ذي ماداriاغا، **محمد بن عبد الكريم والكفاح**، ٥٨٥.

(12) Labrousse, Marmié, La guerre,323.

(13) Ibid.

(14) Mohamed Kharchich, La France et La guerre Du Rif 1921-1926, (tanger, Altopress,2013),340.

(١٥) داود، **عبد الكريم ملحمة**.٣٠٤-٣٠٦.

(16) S.H.A.T. Vincennes. Carton 3H-100 (Maroc). Document n°2403.

أورده: بناني، **محمد بن عبد الكريم**، ٢٠٢.

* بعد التوقيع على اتفاق مدريد في ٦ فبراير ١٩٢٦ ظهر واضحا لمحمد بن عبد الكريم الخطابي أن الإسبان والفرنسيين عازمون على تصفية المقاومة الريفية تصفية كاملة. أرسل محمد بن عبد الكريم في ٩ فبراير ١٩٢٦، أي بعد ثلاثة أيام من الاتفاق مندوبه القائد حدو بن حمو بن محمد البقيوي الملقب ب "لكحل" إلى تاوريرت لمقابلة المراقب الفرنسي كابرييلي (Gabrielli).

(١٧) **ليون كابرييلي** (Léon Gabrielli)، كان يعمل مراقبًا مدنيًا في تاوريرت، وكانت علاقاته طيبة مع محمد بن عبد الكريم، وزار الريف عدة مرات وكل مرة كانت مهمته معرفة ما يدور في المنطقة الريفية، ورفع عدة تقارير وبرقيات ورسائل حول الأوضاع العامة التي يشهدها الريف بين الفينة والأخرى، كما برز دوره كثيرا في محادثات وجدة.

(١٨) انتظر ليون كابرييلي لقدوم الوفد الريفي رفقة ترجمانه السيد عبد القادر بوزار الجزائري، حيث تلاقى مع الوفد الريفي في سبت عين عمر من قبيلة المطالسة. يُنظر: سكيرج، **الظل**، ٢١٥. يُنظر أيضًا: داود، **عبد الكريم ملحمة**، ٣٠٤.

(19) Léon Gabrielli, Abdelkrim et les événements du Rif, (Casablanca, Ed Atlantides 1953), 126-127

(٢٠) بناني، **محمد بن عبد الكريم**، ٢٠٣.

(٢١) قد لا يفهم من هذا الشرط أن الأمير محمد بن عبد الكريم يريد الحكم الذاتي، فهو اقترح فقط في حالة استبعاد إسبانيا من المحادثات التي ستجري أطوارها في وجدة، وما دون ذلك فهو جد متحفظ على مسألة الحكم الذاتي. انظر: محمد حسن الوزاني، **مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية٢ حرب الريف**، (الناشر، مؤسسة محمد حسن الوزاني، [د.ت]،[د.م])، ١٢٧-١٢٩.

يُنظر أيضا:.Labrousse, Marmié, la guerre,324-325

(٢٢) ألح الأمير محمد بن عبد الكريم كثيرا على مسألة الاعتراف بسلطة السلطان من عدمها، ومسألة شروط السلطان التي يفرضها على الريف للخضوع لسلطته. يمكن القول إن الأمير كان يعلم يقينا أن الاعتراف بسلطة السلطان هو نفسه الاعتراف بسلطة فرنسا، ويعلم أيضا أن شروط السلطان هي شروط فرنسا، فتبقى مسألة ورود كلمة السلطان مسيسة ومجرد موضوع للتداول. فلو كانت السلطة تعود فعلا للسلطان، لما كانت فرنسا تلعب دور الوسيط بين الرجلين. في المقابل تعلم فرنسا أن الاعتراف بالسلطان هو نفسه الاعتراف بسيادتها على الريف، أي أن فرنسا تتخذ من شخص

السلطان ذريعة لكسب المكاسب السياسية والحفاظ على مصالحا في المغرب لا غير.

(٢٣) برقية من ليون كابرييلي إلى قسم الاستعلامات بالرباط بتاريخ ٩ فبراير ١٩٢٦.

S.H.A.T.Vincennes Carton 3H-256 (Maroc). Document n°.26:انظر

أورده: بناني، **محمد بن عبد الكريم الخطابي**، ٢٠٣.

(٢٤) نفسه، ٢٠٤. يُنظر أيضًا: الوزاني، **مذكرات**، ج. ٢، ١٢٧.

(٢٥) ثمة تأكيد فرنسي على ضرورة حضور إسبانيا في المفاوضات، على اعتبار أن هناك اتفاقات بينهما في هذا المجال، أما القيادة الريفية، حسب فرنسا، فلا ينبغي أن تشترط في اختيار محاوريها في وجدة. فالمشكل متعلق بهما جميعًا وليس ثنائيًا بين فرنسا والريف.

(٢٦) دوكلو Duclos، أحد المقترحين للوفد الفرنسي في مباحثات وجدة.

(٢٧) سكيرج، **الظل**، ٢١٦.

(28) Walter B. Harris, France, Spain And The rif; (London, 1927) ,279

(29) Ibid أشار والتر ب. هاريس إلى الشروط التي حددتها القيادتان الفرنسية والإسبانية وأوردها في كتابه بتفصيل .

(30) Harris, France, op. cit ,279

حددت القيادتان الفرنسية والإسبانية شروط خاصة حتى لشرط الحكم الذاتي، وهو أنه في حالة قبول الريف لمبدأ الحكم الذاتي فإنه لا يمكن السماح بالدخول في علاقات مباشرة مع الدول الأجنبية، أي أنه ينبغي على الريف أخذ تشاور مع فرنسا وبدرجة أقل مع إسبانيا بهذا الأمر، لأن المعاهدات وحدها مؤهلة للقيام بذلك. يجب أن يظل مثل هذا الاستقلال الذاتي الذي يمكن منحه ضمن حدود جميع الاتفاقيات الدولية القائمة، ومعاهدة الحماية وقانون الجزيرة الخضراء لسنة ١٩٠٦.

يُنظر: .Harris, France, Spain,280

(٣١) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية (AEF)، سلسلة المراسلات السياسية والتجارية (CPC)، السلسلة الفرعية، المغرب ١٩١٧-١٩٤٠، وثائق عبد الكريم، ١٠٨، محاضر جلسات مؤتمر وجدة، (الجزء ٥١٢). أوردته: ذي مادارياغا، **محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح**،٣٣١. يُنظر أيضًا: .Harris, France, Spain,273-274

(٣٢) رودبيرت كونز ورولف ديتر مولر، **الغازات السامة ضد عبد الكريم، ألمانيا وإسبانيا والحرب الكيماوية في الريف ١٩٢٢-١٩٢٧**، ترجمة، حسن الغلبزوري وعبد المجيد عموري، (طنجة، منشورات تيفراز، مطبعة سليكي أخوين، ٢٠٢٢)،١٧٣-١٧٤.

(٣٣) محمد الحسن الوزاني، **مذكرات حياة**،١٣٣،٢.

Labrousse, Marmié, La guerre,324.

(٣٤) كونز، مولر، **الغازات السامة**. ن.ص.

(٣٥) الوزاني، **مذكرات حياة**، ٢، ١٣٤.

(٣٦) نفسه.

(٣٧) محمد خرشيش، المفاوضات الفرنسية الريفية: السياق والأبعاد، فرنسا وحرب التحرير الريفية، **منتدى محمد بن عبد الكريم للفكر والحوار**، تنسيق عبد الرحمان الطيبي، (الرباط، منشورات دار أبي رقراق، الطبعة الأولى، ٢٠١٩)، ١٩٣-١٩٤.

(٣٨) خرشيش، "أهمية المنطقة الشرقية"،٣٢٩.

(39) Kharchich,La France, op. cit, . 344. voir aussi. Labrousse, Marmié, La victoire, op.cit..324.

(40) Labrousse, Marmié, La guerre, op. cit.,324-325.

(41) AAE 509. Télég n° 18-20.Oujda,19 avril 1926. De Ponsot à steeg et à Diplomatie.أورده Kharchich, La France et . op. cit, 344. Voir aussi. Labrousse, Marmié, La guerre, op. cit, 325.

(٤٢) روبرت فورنو، **أمير الريف**، ترجمة، فؤاد أيوب، (الناشر، دار دمشق، [د.ت])،٢٢١.

(43) Gabrilli, Les événements, po.cit..206

(٤٤) سكيرج، **الظل**،٢١٦.

(٤٥) نفسه.

(٤٦) فورنو، **أمير**،٢٢٢.

(٤٧) نفسه. انظر: فورنو، **أمير**.٢٢٢.

(٤٨) سكيرج، **الظل**، ١٤٨.

صدرت مذكرات محمد أزرقان سنة ٢٠١٠ في شكل كتاب بعدما أن كان مخطوطاً منذ سنة ١٩٢٦، بعنوان "الظل الوريف في محاربة الريف، من تأليف القاضي أبو العباس أحمد سكيرج الأنصاري، تحقيق الأستاذ رشيد يشوتي، كان أزرقان قد أملى مذكراته على القاضي المذكور بمدينة الجديدة، التي تم نفيه إليها من لدن الفرنسيين بعد القضاء على الجمهورية الريفية. انتهى سكيرج من كتابة تلك المذكرات سنة ١٩٢٦ وبقيت مخطوطاً نادرًا في المكتبات المغربية إلى أن خرجت بعد تحقيقها في كتاب من منشورات مؤسسة علمية رسمية.

Kharchich, La France. op. cit.345.

(49) Ibid.

(٥٠) **العيون الشرقية**، مدينة في الجهة الشرقية من المغرب تنتمي إلى سيدي ملوك إقليم تاوريرت تقع على منخفض من الغرب الجزائري إلى مشارف مقدمة الريف.

(51) Kharchich, La France, op.cit. 345.

(52) Ibid.

(53) AAE 509. Télég n° 61. Oujda, 24 avril1926. De la résidence général à Diplomatie. أورده Kharchich, La France, op.cit.346. يُنظر أيضًا Lt. Colonel Laure. La victoire franco – espagnole Dans Le Rif, (Rabat: Dar alaman,2017), 198-199.

(54) Kharchich, La France, op.cit, 346.

(٥٥) داود، **عبد الكريم ملحمة**،٣٠٥.

(56) AMG 3H 606. Télég n°52-53 Oujda, 24 avril 1926. De Ponsot à Diplomatie. أورده Kharchich, La France, op. cit, .346.

(57) Ibid.

(58) Kharchich, La France, op. cit, .346.

(٥٩) كان محل اجتماع الوفود الثلاث بدار القنصل العام هناك بوجدة، فتعارفوا به، وتصافحوا مع بقية الأعضاء، ونزلوا هناك أضيافا لدى الحكومة. انظر: السكيرج، **الظل**، ٢١٩.

See : Harris, France, op. cit..279.

Maria Rosa de Madariaga, Aventures et Mésaventures Du caïd Haddou ben Hammou, (tanger:Tifraz, 2021).259-296.

See : Harris, France, op.cit,279.

(٦٠) **هنري سيمون**، كان قائد فرقة ١١ في نانسي الفرنسية، وفي أوائل شتاء وخريف عام ١٩٢٥ اشتغل كقائد لمنطقة تازة، ورئيس الوفد الفرنسي في مفاوضات وجدة أبريل ماي ١٩٢٦. انظر: ذي مادارياغا، **محمد بن عبد الكريم**،٦٢٤. يُنظر أيضًا:

Harris, France, op.cit..279. Laure, La victoire, po.cit,200.

(٦١) السكيرج، **الظل**،٢١٧. يُنظر أيضًا:

Harris; France, op.cit..279.

(٦٢) **هنري بونصو**، هو أيضًا مقيم عام بالمغرب بعد لوسيان سان، أي أنه رابع المقيمين العامين بين ١٩٣٣-١٩٣٦، اشتغل أيضًا كمفوض سامي في الشرق في لبنان وسوريا، يقول عنه مواطنه الضابط جورج سبيلمان، "رجل يتميز بالاستقامة ووضوح الرأي والدقة في التفكير، انتقد بتبصر ودون مغالاة (أطماع عبد الكريم)، وفضح مناورات خصمنا وجعل حدا بذلك لتدخلات الجنرال موجان الذي اغتر بمكر وخديعة القائد بن عبد الكريم. انظر:

Harris, France, op.cit..279.

يُنظر أيضًا: جورج سبيلمان، **المغرب من الحماية إلى الاستقلال ١٩١٢-١٩٥٦**، ترجمة، محمد المؤيد، (الرباط: أمل، الطبعة الأولى،٢٠١٤)، ص٦٧.

(63) Laure, La vicatoire, po.cit.200.

(٦٤) السكيرج، **الظل**،٢١٧.

(65) Laure, Ibid.

(66) Laur Ibid.

* الحق المقيم العام ستيك العقيد نوجيس وهو أنداك قائد منطقة فاس - الشمال، بالوفد الفرنسي والتقى أحد رجال هذا الأخير بأزرقان قائد الوفد الريفي الذي ضم عبد الكريم ووزير في الشؤون الخارجية. انظر: سبيلمان، **المغرب من الحماية**،٦٧.

(67) Laure, Ibid.

(68) Ibid,205.

(69) Labrousse, Marmié, La guerre, op. cit,323-324. Voir aussi Kharchich, La France, op.cit, .344. يُنظر أيضًا Laure, La victoire, op. cit, 205-206.

(٧٠) السكيرج، **الظل**،٢١٧.

(٧١) انتقد ولتر هاريس، فرنسا وإسبانيا على اعتبارهما مسيطرتان على هذا الاجتماع مستغلتين عدم حضور عدم حضور الصحافة الدولية بقوله: "نحن بعيدون كل البعد عن "الديبلوماسية". أشار هاريس في انتقاده لمحادثات وجدة الصحفيين الفرنسيين والإسبان الذين يتابعون هذه المفاوضات، واعتبر ذلك تصفية حسابات بينهم وإهانة بعضهم بمقالات متداخلة لا ترقى إلى المستوى الحقيقي في نقل الأحداث إلى الرأي العام العالمي.

(72) Labrousse, Marmié, La guerre,324.يُنظر أيضًا Kharchich, La France, po. cit,344. voir aussi Mémoires d'Azerkane.op.cit,147.

(٧٣) أحمد شدي، [أحمد بن موح بن حدو] (من أعيان أجدير وأحد أعضاء الوفد الريفي المشارك في مفاوضات مؤتمر وجدة سنة ١٩٢٦. انظر: ذي مادارياغا، **محمد بن عبد الكريم**، ٥٨٤.

(٧٤) السكيرج، **الظل**،٢١٧.

(٧٥) محمد محمد عمر بلقاضي، **أسد الريف، محمد بن عبد الكريم الخطابي: مذكرات عن حرب الريف**، (الرباط: مطبعة سلمى، الطبعة الثانية٢٠٠٦)، ١٩٦-١٩٧.

يُنظر أيضا:.Laure. La victoire, op. cit.205-206

(٧٦) محمد العربي المساري، **محمد بن عبد الكريم الخطابي من القبيلة إلى الوطن**، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، ٢٠١٢)،٢٤.

(77)Labrousse, Marmié, La guerre, op. cit, 324.

(٧٨) زكية داود،**عبد الكريم ملحمة الذهب والدم**،م.س،ص.٣٠٤-٣٠٥.

(٧٩) نفسه.

(80) Labrousse, Marmié, La guerre, Ibid.

(٨١) يقول أحمد السكيرج الذي ألف مخطوط مذكرات محمد أزرقان، أنه بعد انقضاء ثلاثة أيام، وكانت أفكار الجميع متطرفة في جميع الشروط التي كانت شديدة على الريف. ولما رأى محمد أزرقان شدة الأمر استخلص من الجمعية بوجه لطيف، طالبا منهم أن يساعدوه في الذهاب إلى الريف، بقصد عرض ما راج بينهم على الأمير، وإن كان له التفويض التام فيما يبرمه معهم، ولكن قصده أن يخرج من المسؤولية في القبول أو عدم القبول إلا بعد المشورة في ذلك، فساعدوه على ذلك بضرب ثلاثة أيام أجلا في ذهابه ورجوعه، وتوجه على طريق البحر من الغزوات في **البابور (طريبدو سانكالي) [الطرادة "السنغالي" Le Sénégalais]** الفرنسي إلى اجدير

(٨٢) أحمد السكيرج، **الظل الوريف في محاربة الريف**،م.س،ص.٢١٧.

(83) Labrouss, Marmié, La guerre, op. cit, 224.

(84) Ibid.

(٨٥) السكيرج، **الظل**،٢١٩.

(٨٦) وسرعان ما انتهى المؤتمر إلى درب مسدودة بشأن معنى وخلفيات عبارة "الحكم الذاتي" ومضامينها. كان الريف جزءا لا يتجزأ من مراكش (المغرب)، كما تبين للريفيين، والمعاهدات المعقودة من قبل السلطان تربط البلاد بأسرها، بحيث لا يمكن منح الحكم الذاتي إلا في حال اعتراف أهل الريف بالمعاهدة الفرنسية الإسبانية لعام ١٩٠٤.

انظر: فورنو، **أمير**،٢٢٤.

يُنظر أيضًا: الوزاني، **مذكرات حياة**،١٢٧-١٢٨.

يُنظر أيضًا: داود، **عبد الكريم ملحمة**،٣٠٦.

(87) Labrouss, Marmié, La guerre, op. cit, Ibid.

(88) AMG 3H606. Télég n° 65. Oujda, 27 avril 1926. أورده Kharchich. La France, op.cit, 347.

(89) Ibid.

(90) AAE 509. Télég n° 74-75. Oujda, 27 avril 1926. De Ponsot à Diplomatie. أورده Kharchich, La France,347.

(91) AAE 509. Télég n° 74-75. أورده Kharchich, La France,op.cit.347.

(92) Kharchich La france,op .cit,p.348.

يُنظر أيضًا: داود، **عبد الكريم ملحمة**، ٣٠٦. يُنظر أيضًا: Laure, La victoire,op.cit,.210-211.

(93) AAE509. Télég n° 107 Oujda, 30 avril 1926. De Ponsot à Paris-Madrid et Rabat. أورده kharchich, La France, op.cit,348

(94) kharchich, La France, op.cit,348

(٩٥) السكيرج، **الظل**، ٢١٩.

(٩٦) كونز،مولر، **الغازات السامة**،١٧٤.

(٩٧) السكيرج، **الظل**،١١٨.

انظر أيضًا: de Madariaga, Aventures, op.cit,.197.

(98) kharchich, La France, op.cit,348.

(99) Laure, La victoire, op.cit,221.

(١٠٠) يقول الجنرال لوري عن هذه المقابلة، "شكر مولاي يوسف رئيس الوفد الفرنسي على روح التوفيق التي أداربها المفاوضات وأكد رغبته في التوصل إلى سلام، وثمن السلطان شروط المباحثات واعترف بها بشرط عدم المساس بمبدأ سيادتها".

يُنظر: Laure, La victoire, op. cit, 221.

(101) kharchich, La France, op.cit, 348.

(١٠٢) فورنو، **أمير**،٢٢٢-٢٢٣.

يُنظر أيضا: Jaques La dreit De Lacharriere, Le rêve d'abd Elkerim,(Rabat: Dar Al aman. 2014),210-213.

(103) kharchich, op.cit,348

(104) Labrousse, Marmié, La guerre, op. cit,225.

(105) Labrousse, Marmié, La guerre, op. cit,225

(106) Ibid.

(107) Ibid. Voir aussi, Laure, La victoire, op.cit.215-216

(108) Ibid.

(109) Ibid.

(110) Ibid.

(111) Ibid.326.

(112) Ibid.

(١١٣) السكيرج، **الظل**،٢١٩.

كان الوفد الفرنسي والإسباني طلبوا من محمد أزرقان أن يساعدهم على قبول الأطباء من جانب فرنسا وإسبانيا ليقابلوا مرضاهم بالريف، فأخبرهم بأنه مستعد لقبول كل من حضر لديهم بهذه الصفة. يُنظر: السكيرج، **الظل**، ص٢١٩-٢٢٠.

(114) Ibid. voir aussi, De Lacharriere, Le rêve; op. cit,210-211.

(115) Ibid.

(116) Ibid.Voir aussi, Laure, La victoire, op.cit,223.

(117) Labrousse, Marmié, La guerre, op. cit,226.

(118) Ibid.

(119) Woolman, Rebels in the Rif,.204-207.

أورده: كونز،١٧٤.

(١٢٠) كونز، مولر، **الغازات السامة**،١٧٤.

(١٢١) فورنو، **أمير**،٢٢٥.

(١٢٢) جاك روجيه ماتيو، **مذكرات عبد الكريم**، ترجمة، إسماعيل العثماني، (الرباط، منشورات دار الأمان،٢٠٢١)، ١٢٩.

(١٢٣) ذي مادارياغا، **محمد بن عبد الكريم**،٥٨٥.

(124) Labrousse, Marmié, La guerre, op. cit,327.

(١٢٥) ذي مادارياغا، **محمد بن عبد الكريم**،٣٠٨-٣٠٩؛ يُنظر أيضًا: ماتيو، **مذكرات**،١٢٧-١٢٩؛ يُنظر أيضًا: Labrousse, Marmié, La guerre, po. cit,311-330.

(١٢٦) ماتيو، **مذكرات**، ١٢٨.

(١٢٧) نفسه.

(١٢٨) نفسه.

(١٢٩) نفسه

(١٣٠) اسنادة:، أو بني يطفت قبيلة في الريف الأوسط تطل على البحر الأبيض المتوسط من ناحية الشمال، تحدها شرقا قبيلة ايبقوين، وبني بوفراح غربا، وفي الجنوب قبيلة بني ورياغل.

(١٣١) ماتيو، **مذكرات**،١٢٨.

(١٣٢) نفسه.

(133) Kharchich, La France, op. cit,349.

(134) Kharchich, La France, op. cit, 349. 350.

(135) Ibid.

(136) Ibid.

(137) Ibid. AAE 510 Télég n° 342. Fès.24 mai 1926. De steeg à Diplomatique.

ذكره محمد خرشيش، **فرنسا وحرب الريف**، النسخة الفرنسية، م.س.، ٣٥٠.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

مدينة الموصل حتى عام ١٩٥٨
في مذكرات الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل



أ.د. ذاكر محي الدين عبد الله
أستاذ تاريخ العرب وأفريقيا المعاصر
كلية الآداب – جامعة الموصل
جمهورية العراق

مُلَخّصْ

تُعَدّ المذكرات الشخصية وسيلةً للبوح بأسرار الذات، وقد تكون فرصة مثالية لمناجاة النفس، وتنفيس ما بها من مكبوتات، ومشاركة بعض الأسرار عن الآخرين عبرها، كما تُعَدّ أيضًا مصدرًا مهمًا من مصادر في التدوين التاريخي منذ ظهورها، على الرغم من اختلاف وجهات النظر بين الباحثين حولها بين مؤيدٍ ومعارض لموثوقية محتواها، ومع ذلك تزخر المذكرات الشخصية، بالحقائق التاريخية المتنوعة، ما بين سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وتعليميةٍ وثقافية، وقد يحوي بعضها صورًا، أو وثائق تزيد من أهميتها، مع أن بعضها قد يكتب بدوافع شخصية بحتة، ومع ذلك اعتقد أن بإمكان الباحثين الاستفادة منها في تدوين الأحداث التاريخية، ولاسيما تلك التي تبتعد عن دور الشخصية التي كتبت المذكرات الشخصية، عبّر قراءة المذكرات قراءة متأنية تمكنه من أخذ المادة العلمية من هذه المذكرات ومقارنتها مع ما يتوفر من مصادر. وفي اعتقادي المتواضع أن هذه المذكرات تزداد قيمتها التاريخية، وتتميز عن غيرها، عندما تكون صادرة عن باحث ومفكر له بصمته الخاصة، يدرك تمام الإدراك، أهمية المعلومات التاريخية ودقتها، والتي أوردها في مذاكرته هذه، والمسؤولية التاريخية التي يتحملها من جراء ذلك، ومما زاد من أهميتها تأكيده على اعتماده التدوين اليومي لمذكراته، ومنذ عام ١٩٥٦م، وهو بدون شك، زاد من مصداقية هذه المذكرات وأهميتها. والملفت للنظر، اعتماد التجرد والصدق في تدوين أحداثها، بشكل ملفت جدًا، متميزًا فيها عن غيره، ومما جاء حول ذلك قوله: ((.. فالسيرة الذاتية هي خبرة حياة تنطوي على الكثير من القيم التي يتحتم نقلها إلى الآخرين، بأكثر الأساليب وضوحًا وبيانًا ..))، وهو ما سأحاول تبيانه عبر استعراض المحطات التي أثرت في بناء شخصيته وصقل موهبته. ونحاول في هذه الدراسة، عبر منهج استقرائي تاريخي يعتمد التحليل، والمقارنة مع ما دون في هذه المذكرات، وغيرها من المصادر، بهدف الوقوف على ما دونه الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل في مذكراته عن مدينة الموصل في المدة، الممتدة من ولادته وحتى عام ١٩٥٨، تاركًا الفرصة أمام باحثين آخرين للاهتمام بما تلا ذلك من أحداث تاريخية، ركزت في هذه الدراسة الحديث عن ثلاثة محاور رئيسة هي: المحور الاجتماعي والثقافي، والمحور السياسي، والمحور الاقتصادي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٣١	يوليو	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	٢٧	أغسطس	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

المذكرات الشخصية؛ أحداث العراق؛ الأزياء الموصلية؛ الحياة الاجتماعية؛ تاريخ العراق الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.343768 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ذاكر محي الدين عبد الله. "مدينة الموصل حتى عام ١٩٥٨ في مذكرات الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ١٩٨ – ٢٢٨.

Corresponding author: thaker.m.a@uomosul.edu.iq
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تُعَدّ المذكرات الشخصية[١] واحدة من المصادر المهمة في تفسير بعض ما اشكل أو أبهم أو توضيحًا لأحداث تاريخية وقعت، عاصرها وشاهد تفاصيلها صاحب المذكرات، قد تقدم لنا معلومات جديدة حول حدث معين أو واقعة تاريخية. وفي اعتقادي المتواضع أن هذه المذكرات تزداد قيمتها التاريخية، وتتميز عن غيرها، عندما تكون صادرة عن باحث ومفكر له بصمته الخاصة، يدرك تمام الإدراك، أهمية المعلومات التاريخية ودقتها، والتي أوردها في مذاكرته هذه، والمسؤولية التاريخية التي يتحملها من جراء ذلك، ومما زاد من أهميتها تأكيده على اعتماده التدوين اليومي لمذكراته، ومنذ عام ١٩٥٦م، وهو بدون شك، زاد من مصداقية هذه المذكرات وأهميتها.

والملفت للنظر، اعتماد التجرد والصدق في تدوين أحداثها، بشكل ملفت جدًا، متميزًا فيها عن غيره، ومما جاء حول ذلك قوله: ((..فالسيرة الذاتية هي خبرة حياة تنطوي على الكثير من القيم التي يتحتم نقلها الى الآخرين، بأكثر الأساليب وضوحًا وبيانًا..))[٢]، وهو ما سأحاول تبيانه عبر استعراض المحطات التي أثرت في بناء شخصيته وصقل موهبته. ونحاول في هذه الدراسة، الوقوف على ما دونه الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل[٣] عن مدينة الموصل في المدة، الممتدة من ولادته وحتى عام ١٩٥٨، تاركًا الفرصة أمام باحثين أخرين للاهتمام بما تلا ذلك من أحداث تاريخية، ركزت في هذه الدراسة الحديث عن ثلاثة محاور رئيسة هي: المحور الاجتماعي والثقافي، والمحور السياسي، والمحور الاقتصادي.

أولاً: أوضاع مدينة الموصل الاجتماعية والثقافية

ركز الأستاذ الدكتور في هذا الجانب على أمور عديدة، كان في مقدمتها الحديث عن مدينة الموصل، ثم الأسرة وتنظيمها وتربيتها وتأثرها بالأحداث التي تواجهها، وتأثيراتها السلبية والإيجابية على بناء شخصية الفرد وتنشئته، والمدرسة وأهميتها، وما لاقاه فيها من علوم ومعارف وما تعرض له فيها، كما تحدث عن بعض العادات والتقاليد، وعن العلاقات الاجتماعية، وعن الوفاة وتأثيراتها في نفسية الأطفال، وعن المأكولات والأزياء وعن الأمراض وبعض السلبيات.

١/١–وصف مدينة الموصل

وكان لمدينة الموصل، والدار والمحلة مكانة لدى الأسر الموصلية، وذكرها يحدد نشأة الباحث والأجواء الاجتماعية والثقافية التي أثرت عليه وتركت بصماتها الواضحة على شخصيته، وبخاصة في وجدان، وذكريات شخصية موصلية كالأستاذ الدكتور عماد، الذي خصص للحديث عن ذلك صفحات عديدة، فقدم وصفًا لها في أربعينيات وخمسينيات القرن الماضي بقوله: ((كانت الموصل [القديمة] في مرحلة الأربعينيات وحتى أواخر الخمسينيات مدينة صغيرةً نسبيًا لا يتجاوز عدد أفرادها الربع مليون نسمة إلا قليلاً..))، وهي:((..العزيزة المسماة أم الربيعين بسبب من جمال خريفها الشبيه بالربيع..))[٤]،ونهر دجلة ((..الذي يتدفق رخاء عند حافات الموصل..))[٥].

وأضاف، مقدمًا لنا وصفًا تاريخيًا وجغرافيًا لها بقوله: ((..كانت لاتزال محصورة في بيئتها التاريخية القادمة من أيام السلاجقة، والأتابكة، والعثمانيين، حيث تحدها من الشمال قلعة باشطابيا والمستشفى الملكي(الجمهوري لاحقًا)، ومحلة الشفاء ومن الشرق نهر دجلة، ومن الغرب باب سنجار وباب البيض، ومحلة الطوافة القريبة من محطة القطار... أما جنوبًا فمحلة باب الجديد وباب لكش والشيخ عمر وباب الطوب...، أما شرقًا فلم يكن يربط الموصل بذلك الجانب سوى جسر حديدي واحد...، ولم نكد نجد فيها حيًا واحدًا، إلا حي النبي يونس(عليه السلام)، وحي الفيصلية[٦]، وما عداها فهي ارض العراء والبساتين والأشجار...، وكان جوار تل النبي يونس قصر مصمم على الطريقة الصينية—اليابانية، وهو قصر الطبيب الأرمني المعروف (ستارجيان)[٧]..))[٨].

وأضاف قائلاً: ((..كنا نعبر الجسر الحديدي[٩] الذي يربط بين دفتي المدينة...، وقد يستمر بنا المقام هناك الى ساعة متأخرة من الليل حيث يرى الناس وهم يعبرون الجسر.. عائدين الى دورهم..))[١٠]، وكانت محطة القطار وسكة الحديد ومساراتها جزءً لا يتجزأ

من مدينة الموصل، وقدم لنا دكتور عماد وصفًا مهمًا عنها وعن موقعها وأهميتها، ومن يتولى تقديم الخدمات فيها، ومما قاله: ((..وكان القطار يومذاك غاية في النظافة والخدمات التي كان يتولاها مجموعة من الاثوريين يرأسهم رجل معروف، كنا نسميه [التيتي]، وهو يتجول بين الدرجات الأولى والثانية لتقديم أكواب الشاي بالحليب للطالبين..)).[١١] وهي الحدود القديمة للمدينة التي شهدت توسعًا عمرانيًا وانفجارًا سكانيًا، فوصلت الآن ــــ عام ٢٠٢٣م ــــ الى مساحة يزيد قطرها على ٥٠ كيلو مترا في الاتجاهات الأربعة، التي ذكرها بقوله: ((..راحت في أخريات الزمن تشهد نموًا عمرانيًا ملحوظًا.. بتأثير الانفجار السكاني، ونمو الدخل القومي، والتوجه الحضري، لكل الحكومات التي تعاقبت على قيادة العراق..))[١٢].

وذكر أيضًا الأسواق العديدة في وسط المدينة، واطلق عليها تسمية ((مثلث الخدمات))، ذلك المثلث الذي تحده آنذاك: شوارع نينوى وغازي والعدالة ونهر دجلة، ((..لهذا المثلث المترع بالأسواق، والحرف، والأبنية، الخدمية، كالقيصاريات، والخانات، والحمامات، والقناطر، والمطاعم والمقاهي الشعبية، والدكاك الممتدة ذات اليمين وذات الشمال..))[١٣]. وتحدث عن حديقة الشهداء في وسط المدينة[١٤]، كيف كانت مقصدًا للعوائل والطلاب، كما ذكر شوارع الموصل الجنوبية، وهي المنطقة الممتدة من ساحة ناظم الطبقجلي الى رأس الجسر الرابع في الموصل، والمعروفة بمنطقة السجن والطيانة، والغزلاني والدواسة خارج، والدندان، ومنها الى المدبغة المحاذية لنهر دجلة جنوب الموصل، وأكد غرق بعضها بمياه الأمطار أيام الشتاء والربيع[١٥]، وذكر التجوال على السدة المطلة على نهر دجلة من جانبه الغربي، والتي تبدأ قريبا من الثكنة الحجرية جنوبي الموصل، وتمتد لمسافات طويلة بموازاة النهر[١٦]، والجسر الجديد (جسر الحرية)[١٧]، والطريق العام الممتد من الجسر الى دورة النبي يونس في الجانب الأيسر من مدينة الموصل وكان يعرف بشارع الحرية[١٨].

ثم استرسل بالحديث عن شوارع الموصل الرئيسة كشارع نينوى، والآخر سمي بشارع الفاروق القديم والجديد، واعقب ذلك الحديث عن مجموعة من الشوارع التي تتفرع أو تلتقي مع هذين الشارعين، مركزًا على الشارع الذي يمتد من باب لكش باتجاه الدواسة، وذلك لأنه الطريق الى المدرسة الابتدائية، ثم انتقل للحديث عن شارع حلب ((..كان شارعًا مترعًا بالمتع والمسرات، فثمة المطاعم وبائعو الجرز والسكريات والمقاهي الصيفية والشتوية، عدد كبير من محلات بيع التحفيات وخياطي ملابس الجنود وشاراتهم..))[١٩]، لأنه الطريق الى متوسطة المثنى والثانوية الشرقية.

٢/١-نماذج من الانسجام المجتمعي في الموصل

كما تحدث أيضًا، عن الانسجام بين أبناء المدينة آنذاك، بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والعرقية، وتجلت أبهى صورها في عن التنوع الاجتماعي لمدينة الموصل من مسلمين وغير مسلمين ومن عرب وغير العرب ومن حضر وغير الحضر، ما عكس ماضي هذه المدينة وحاضرها، فذكر منهم: المسيحيين واليهود والأكراد والبدو والأفندية واهل الريف والحضر، ومما قاله في ذلك: ((..إن تعاليم هذا الدين (الإسلام) الذي جعلنا نتعايش بعفوية وانسجام مع كل الطوائف، قبل أن يدس الاستعمار انفه، ويفرق بين أبناء الشعب الواحد.. لقد كانت الموصل أشبه بخارطة فسيفسائية تنطوي على كل الألوان العرقية والطائفية التي كنا نمر بها صباح مساء .. منها: المسلم والمسيحي..، اليهودي الصابئي، والمسيحيون انفسهم كانوا يتواجدون بطوائفهم كافة: الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت والأرمن والسريان والأراميين..))[٢٠].

ولم ينس استأذنا الحديث عن ما أصاب الموصل من تمزق طائفي، وحروب أهلية، وقتل وتهجير بقوله: ((..ويجد المرء نفسه مضطرًا للمقارنة بين ذلك العصر الذهبي من التعايش السلمي وبين ما شهده العراق، والموصل فيما بعد..))[٢١]، ولاتزال المدينة تستقطب الناس إليها، وان تغيرت تركيبتها الاجتماعية كثيرا بعد الاحتلال الأمريكي عام ٢٠٠٣م، وما ترتب عليها من عمليات تهجير قسري لفئات معينة من أبناء المجتمع، كان أخرها واشدها ما شهده المسيحيون وبعض الطوائف الدينية من عمليات تهجير قسري عن المدينة، وخروج قسم كبير منهم الى خارجها دون عودة بعد عام

٢٠١٤، في حين استقر فيها ومنذ عام ٢٠٠٣ فئات اجتماعية جديدة من أبناء الريف ومن بعض المدن والبلدات القريبة منها، ولاسيما من تلعفر، فضلا عن المهجرين من محافظات الجنوب، ولاسيما من البصرة وغيرهم.

٣/١-الموصل والالتزام الديني

وكان للتعبد والالتزام الديني جانب مهم في مذكرات الأستاذ الدكتور عماد، واهل الموصل بغالبيتهم أناس ملتزمون دينيًا، ومحافظون على التقاليد والأعراف الاجتماعية، وفي مذكرات الدكتور عماد وردت إشارات تحدثت عن التزام أهلها بالشعائر الدينية، وأداء الصلوات، كما ورد ذكر عدد من المساجد، فضلاً عن ذكره لبعض من الاحتفالات الشعبية الدينية بمناسبة المولد النبوي الشرف، إذ اعتادت العوائل الموصلية بمختلف طبقاتها الاهتمام بمثل هذه المناسبة أيما اهتمام[٢٢]. وعرف أهل الموصل الطرائق الصوفية، والبعض منهم كان ذا اتجاه سلفي محض، ومن المفيد الإشارة إلى أنه وضح اهتمام بعض أهل المدينة بالطريقة النقشبندية[٢٣] التي لاتزال تحظى بحضور جماهيري واسع في المدينة وضواحيها، وذكر من شيوخها (الشيخ عبد الحق حامد النقشبندي)، الذي قال عنه: ((ومنذ طفولتي المبكرة كنت الحظ على جدار الرهرة صورة كبيرة لرجل معمم ذي لحية طويلة، فلما كبرت عرفت من هو، انه شيخ أبي وأعمامي، حيث كانوا يتلقون منه التوجهات الدينية ذات الطابع الصوفي المعتدل، والذي يؤكد على الالتزام بمطالب الشريعة الغراء..))[٢٤].

كما ثبت لنا في مذكراته، واقع استقبال الناس لرمضان[٢٥]، إذ تحدث عن أداء الصلوات، وعن التوجه للمساجد وعن الصيام وإحياء ليالي رمضان، وتحدث المساجد التي كانت تعج بالمصلين، وعن كرم أهل الموصل في تلك المناسبات التعبدية، وحقيقة التكافل الاجتماعي بين العوائل الموصلية، وتبادل الأطعمة فيما بينها كتقليد لاتزال تدرج عليه العوائل الموصلية، وان كان بشكل أقل عما كانت عليه في عهد الأستاذ الدكتور عماد[٢٦]، وسجل لنا كيف ينتظر العوائل وقت الإفطار، في وقت غابت فيه مكبرات الصوت، كما هو الحال اليوم، إذ يقف الصبية على اسطح المنازل وهم يرقبون باهتمام كبير دخول وقت الإفطار، وحلول وقت الصلاة، عبر راية ترفع من أعلى المآذن التي كانت، ولا تزال تزين سماء المدينة، تُعَدّ هذه الملاحظة ملاحظة تاريخية مهمة تندرج في إطار التاريخ الشفاهي لمدينة الموصل، إذ اثبت لنا واقع المساجد وطريقة استقبال الناس للأذان، وكيف يفطر المؤذن[٢٧]، وبالمناسبة شهدت وأنا طفل، إفطار المؤذن في المسجد قبل إقدامه على رفع أذان المغرب في جامع جمشيد في حضيرة السادة في الموصل.

٤/١-العيد ومهرجانه في الموصل

ثم وصف ليلة العيد ويوم العيد، وفرحة الأطفال في مقدم العيد، واحتفائهم وأهلهم، والاحتفالات الشعبية بالعيد، التي لانزال نشهد لها مثيل في محلاتنًا وازقتنًا وشوارعناُ والأماكن العامة، وإن شهدت بعض التبدل، عما كانت عليه من وسائط متطورة، وأماكن وألعاب غير التي كانت في تلك الحقبة من مراجيح ودواليب الهواء وغيرها، من الألعاب البسيطة إلى ألعاب اكثر خطورة وتطور مما نشهده اليوم في مدينة الألعاب أو الكازينوهات أو المتنزهات العامة التي توزعت عبر مساحة مدينة الموصل، التي شهدت توسعًا عمرانيًا كبيرًا عما كانت عليه في منتصف القرن الماضي[٢٨].

ولم ينس الأستاذ الدكتور عماد السينمات التي كانت منتشرة في الموصل منذ وقت مبكر، والتي كانت تحظى باهتمام واضح من كافة شرائح العمرية المختلفة: أطفال وصبيان وشباب ورجال، بل وحتى من بعض النسوة اللاتي كن يترددن على بعضها مع عوائلهم، ولاسيما عند عرض الأفلام العربية التي يقوم ببطولتها كبار الممثلين العرب، وربما لحضور بعض الأفلام الأجنبية أيضًا، والتي كانت تخضع لرقابة الدولة.

وكان للسينما طعم أخر في أيام العيد، إذ يتسابق الجميع من دار سينما إلى أخرى لمشاهدة الأفلام، ومما زاد في متعتها كانت إدارات هذه الدور تحرص أيام العيد على عرض الأفلام المليئة بالحركة (الأكشن) والمغامرة، مما كان ولايزال محببًا لدى قسم كبير من جمهور السينما ومشاهدي الأفلام[٢٩]، ومع ذلك فقد حازت على جزء من مذكراته فقال: ((باحثين عن مكان لنا في هذه السينما أو تلك مما تعرضه من أفلام طرزان وجابك والي، وهونك كونك... من تلك الأفلام المليئة بالمآزق

والمفاجآت والبطولات، التي كانت تسحرنا وتدفعنا إلى إعادة مشاهدة الفلم الواحد أكثر من مرة))[٣٠].

والملفت للنظر، أنها كانت وسيلة مهمة من وسائل الترفيه والترويح عن النفس، بدأت صناعة السينما في عام ١٨٩٦م، وفي بدايات القرن العشرين بدأت مدينة الموصل بإنشاء دور العرض السينمائي، وفي العام١٩٤٠م وصل عدد دور العرض في الموصل الى خمسة، أربعة منها صالات شتوية، وواحدة صيفية، وفي العام ١٩٥٥م ارتفع العدد الى ستة صالات شتوية وستة صيفية، ثم ارتفع العدد الى ١٢ دار عرض شتوي في العام ١٩٧٥، ومن الملاحظ أن أسماء دور العرض أغلبها أسماء من التاريخ والتراث العربي، مما يدل على الوعي الثقافي والوطني لدى أصحابها[٣١]، ومن هذه الأسماء حمورابي، غرناطة، أشبيليه، بابل، الأندلس، الملك غازي، الملك فيصل، سميراميس، الخيام، الجمهورية..، واستمر عمل بعضها الى أواخر تسعينيات القرن الماضي، إذ تغير الحال مع وصول أجهزة العرض الإلكترونية (الفيديو كاسيت) (والدي في دي) وغيرها، كما حد منها في بلادنا ومدينتانا بالتحديد ما حدث من أحداث بعد الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ [٣٢].

وتحدث عن الاحتفالات التي كانت تشهدها مدينة الموصل في شهر نيسان من كل سنة حيث يقام فيها في ساحة الطيران ((..الاستعراض النهائي في ألعاب الساحة والميدان للمدارس والجيش..، كانت تلك المناسبات مهرجانًا رائعًا ينتشر في الأماكن المجاورة للساحة..))[٣٣]، وهو عرف كان سائدًا في المدينة الى الغزو الأمريكي الذي خرب البلاد والعباد، وفي أيامنا هذه العام (٢٠٢٣) جرى الاحتفال بمهرجان الربيع على مستوى رسمي في الموصل، ولأول مرة ــــحسب علميــــ منذ الغزو الأمريكي.

١/٥-الرحلات والاستجمام الجماعي

كما تحدث عن الخروج الجماعي لأبناء الموصل للاستجمام أيام الربيع، ومما ذكره: ((..ما أدراكم ما الرحلات الربيعية في الموصل..، حيث كان الربيع يغري الناس كافة بالخروج الى البراري للتمتع بجمال الطبيعة..، كانت هناك تقاليد جماعية أشبه بالطقوس..، وثمة أيام معينة..، مثل عيد ماركوركيس[٣٤]، وعيد مار ميخائيل[٣٥]، وعيد الطوافة[٣٦]..، وغيرها مما يعكس الألفة والمحبة والانسجام بين طوائف الموصل كافة..))[٣٧]، كما ذكر أيضًا السفرات أيام الربيع في منطقة قرية الجيلة (وهي الآن حيي السكر والبلديات بالقرب من مستشفى الخنساء وما حولها وهي تلال قليلة الارتفاع تطل على نهر الخوصر)[٣٨]، وكذلك تحدث عن حمام العليل[٣٩] التي افرد لها حيزا مهما في مذكراته، ومما قاله: ((..في الخريف يتحول اتجاه الرحلات جنوبًا صوب حمام العليل[٤٠]، حيث كان الموصليون يتجهون الى هناك لقضاء الأسابيع الطويلة مستأجرين دورهم وعرازيلهم قريبًا من الحمام ذات المياه المعدنية الحارة..))[٤١].

والملفت للنظر، إهمال الموصل لمثل هكذا رحلات على الأعم الأغلب، إلا القليل ممن حافظ على عاداته تلك، ولا سيما بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣ وما تبعه من اختلال في الأوضاع الأمنية والداخلية وانقطاع للطريق القديم الواصل بينها وبين مدينة الموصل، والمعروف بطريق الحية لالتوائه الكثير كالتواء الحية (الأفعى)، ولخروج سكة الحديد العراقية التي تمر عبرها عن الخدمة من جراء الظروف نفسها، فضلاً عن، تحول الأعم الأغلب من الناس في الموصل للاستجمام في مناطق سياحية أخرى في شمال العراق، مع ذلك ظهر اهتمام واضح في الأعوام ٢٠٢١-٢٠٢٣ بهذه المدينة من لدن محافظ نينوى نجم الجبوري الذي بذل جهداً لإعادة بوصلة الرحلات الاستجمامية إليها.

وكأن أستاذنا عبر ذكره هذه الأماكن بهدف تقديمه لنا أجمل أماكن السفرات التي كان يرتادها أهل الموصل، وهي تقع على جانبي نهر دجلة والى الشمال من المدينة، وتتمتع بجمال خلاب أيام الربيع في ذلك الوقت، قبل أن تتوسع المدينة وتقضم المساحات الخضراء الجميلة، ولازلت اذكر بعضًا من تلك السفرات، ولاسيما الى مار كوركيس الذي بدا لي بعيدًا آنذاك في السبعينيات ويصعب الوصول إليه، ولاسيما، وكنا نسكن في منطقة موصل الجديدة في الجنوب الغربي للمدينة، وكيف نزلنا في المروج الخضراء حوله مع عائلتي وعوائل أصدقاء

أبي رحمهم الله، إلا انه غدا سهل الوصول إليه اليوم مع تعبيد الطرق.

٦/١-الأزياء الموصلية وتطورها

وتحدث عن الأزياء لبعض فئات المجتمع[٤٢]، فذكر ما كان يلبس جده لأمه، ومما جاء فيها ((..يدخل جدي الدار عصراً.. عائداً من عمله في سوق البزازين، وهو يلتفع بعبارة سمراء تغطي ثوبه الداخلي المقلم، ويشد على رأسه عمامتين من القماش الأبيض..))[٤٣]، والأثواب المقلمة ذوي اللمعان، كانت تقليعة خاصة يتزيّا بها رجال الموصل في العهد العثماني[٤٤]. إلا أن هذه الأزياء تغيرت عند عامة الناس في العراق، والموصل تحديداً، ولاسيما عند جيل الشباب آنذاك ممَنْ أطلق عليهم في حينها بـ(الأفندية)، أثر التغير الحاصل في النظام السياسي على أثر قيام الحكم الملكي في العراق واتجاه الناس نحو تقليد الغرب في أزيائهم بارتداء البدلة المكونة من السترة (الجاكيت) والسروال (البنطلون) والحذاء مع ارتداء الرباط المناسب لها، وعادةً ما يكون معه منديلاً صغيراً يوضع في الجيب الصغير في أعلى السترة قرب الياخة أو الياقة، فضلاً عن، اعتمار القبعة المعروفة بالسدارة العراقية أو الفيصلية نسبة لما ارتداه الملك فيصل الأول وقلده فيها العراقيون[٤٥]، وكان لوالدي (رحمه الله) نوعان من هذه السدارة، كنت محتفظًا بهما، إحداها كانت مقوسة كثيراً، والأخرى أقل تقويساً، وكلتاهما صناعة إنكليزية على ما اذكر، إلا أنني فقدتهما للأسف جراء تنقلي المستمر من بيت لأخر.

ومما جاء في ذلك ما لبث والده بعد الزواج أن ((.. تحول الى الزي الفرنجي: البدلة والحذاء، لكنه لم يشأ أن يترك رأسه مكشوفا فأستبدل القبعة العثمانية بالسدارة العراقية التي كان الملك فيصل الأول قد ادخلها...، وأصبح الأفندية يلبسونها باعتزاز، تعبيراً عن ارتباطهم بوطنهم العراق..))[٤٦]، ومع ذلك كان هناك العديد ممن عاصر والده من التجار وأصحاب المهن والحرف يتزيّا بزي خاص يتمثل بالزبون والدمير(أو الدميري) الذي هو عبارة عن صدرية مزركشة بأكمام عريضة مفتوحة وهي تمثل السترة (الجاكيت) في الوقت الحالي، فضلاً عن العباءة والعمامة اللتين تعدان من أساسيات أزيائهم أو ارتداء الكوفيات والعقال العربي بأنواعهما المختلفة وأشكالهما المتنوعة[٤٧].

٧/١-الأطعمة والمشروبات

وكان للأطعمة والأكلات الموصلية[٤٨] حيز من مذكراته، إذ ذكر العديد من الأطعمة من التي تشتهر بها مدينة الموصل آنذاك، ولا تزال حتى وقتنا الراهن مما يشاع استخدامه من مأكل ومشرب، وفي مقدمة الأكلات الشعبية ذكر الباميه، وهي أكلة تتفنن بها النسوة الموصليات ــ العراقيات ــ في طريقة طبخها وتقديمها[٤٩]، كما ذكر الكباب، وهو من الأكلات الشعبية القديمة التي يتمتع أهل الموصل بأكلها سواء في المطاعم الشعبية أو الراقية، أو يقومون بصنعها بأيديهم في بيوتهم أو في سفراتهم[٥٠]، والطرشي (المخللات) وهو من المقبلات التي تشتهر بها مدينة الموصل، ولها قبول داخل العراق وخارجه[٥١]. وذكر الخبز الجاف والبصل المخلوط بالكاري والسماق، وعادة يستخدم البصل بالسماق مع الكباب كنوع من المقبلات مع الكباب، إذ يسهم السماق بطعمه الحامضي بتخفيف اللذعة المصاحبة للبصل، كما ذكر القمر الدين، وهو من الحلويات المحلية أو المستوردة من بلاد الشام وعادة تصنع من المشمش المجفف والسكر، وهي أكلة لذيذة حلوة وحامضة المذاق في آن واحد[٥٢].

وذكر كذلك الشاه بلوط ــ(الشبلوط بالعامية) أو بلّوط الملك، وهو شجر الكستناء وثمرها ــ المحمص على الفحم المشتعل، واللوزينة الحلويات المصنوعة من السكر واللوز، والجوزينة الحلويات المصنوعة من السكر والجوز، وحلاة جوز الهند وهي المصنوعة من السكر ومبروش جوز الهند والمعروف محليا وبالعامية الموصلية (بجوز النركيلة)، وقشور النارنج المسكرة، وهي نوع من الحلويات التي تصنع محليا، ومعروفة عالميا، مكوناتها الأساسية قشور النارنج (البرتقال المر) التي تمتاز بثقلها بالمقارنة مع ثمار غالبية الحمضيات والسكر، و(الجرز بالعامية، وهي المكسرات بأنواعها)، والحلاوة لها أنواع وأشكال مختلفة كحلاوة الدبس (عصير التمر المصفى والمجفف)، والطحينية (الراشي أو زيت السمسم)، وحلاوة الطحينية، وحلاة السمسم وهي أيضًا بأنواع وأشكال مختلفة، وبطيخ التعليق (وهو نوع من البطيخ

اصفر اللون ومحزز، عادةً يقطف قبل أوان نضجه، فيعلق في البيوت لكي تستكمل عملية نضجها ويسهل أكله، وهو من العادات القديمة في مدينة الموصل التي اعتقد أنها انقرضت أو كادت تنقرض، وكل هذه الحلويات لاتزال في الغالب منتشرة في مدينة الموصل، ولاتزال تحظى بقبول وإقبال، ولاسيما أيام الشاء لما فيها من مواد غذائية تمد الإنسان بالطاقة في موسم الشتاء والمتعة في ليالي الشتاء الطويلة، وعن البيض المسلوق والدجاج المشوي[٥٣].

وتحدث عن المشروبات الغازية التي قال عنها: كانت حديثة الوصول والاستخدام في الموصل وقتها، ومما جاء في مذكراته عنها: ((..قناني البيبسي والكوكا كولا وكانت حديثة عهد في دخول العراق (كان يتحدث عن عام ١٩٥٠)، ذات غاز مكثف يتكسر في الحلق ويمنح المشروب لذة بالغة..))، إلا أنه أشار إلى ما يشاع عن وجود شيء من معدة الخنزير في هذا المشروب، وشكك في صحتها على الرغم من تأكيدات مدير مدرستهم الابتدائية ذاك، وعزا خطورتهما في امتلاك اليهود الرأسماليين مصانع هذين المشروبين ((..وأن علينا اتخاذ الموقف السليم: مقاطعتهما..))[٥٤]. وتحدث عن مشروب العرقسوس، وعن الخضار كالخس والجزر، مما لاتزال المدينة تزخر بها والحمد لله، وتحدث عن الزنبيل (الزنبيل أو ما يسمى باللهجة الموصلية الزمبيل)[٥٥]، الذي انقرض الآن أو كاد، وحلت محله ما يعرف محليًا بالعلاقات المصنوعة من البلاستك اللين المعروف محليا بالنايلون.

٨/١-الأمراض الشائعة في الموصل

وذكر دكتور عماد أمراض عديدة شائعة في مذكراته، تعرض لها العديد من أبناء مدينة الموصل، ولا يزال البعض يتعرض لمثلها، منها ما أصاب والدته (مرض المخبث)[٥٦]، ومما جاء في مذكراته حولها: ((..أمي.. كان يحاصرها بين الحين والحين مرض كانوا يسمونه (المخبث)..))، وذكر كيف كان يأخذها والده الى من يقوم برقيتها (المعزم باللهجة العامية)[٥٧] فقال: ((كان أبي يستأجر عربة .. لكي يتجها الى دار السيد توحي[٥٨] كبير معزمي الموصل، الذي كان يقرأ جملة من التعازيم وينفخ بها عليها فتعود وقد زال المرض..))[٥٩]. وذكر أيضًا أمراض أصابت والده، وكان الأول مرض [الخغيون (الخريون)] باللهجة الموصلية (جدري الماء)[٦٠] أو(الشغي باللهجة الموصلية) الشري[٦١] الذي استمر يفتك به الأشهر الطوال..، وداء الحصر النفسي[٦٢].. الذي اعتصره لمدة سنتين، ولكم أن تتصوروا ملامح الكآبة الحادة عندما تحكم قبضتها عليه فتضعه في دوامة القهر والحصر، التي تتسحب على أجواء البيت كلها،..))[٦٣].

دون أن يحدد دكتور عماد وقت وتاريخ هذه الأمراض وأسبابها، كما انه خلط بين مرضين في حديثه عن أمراض والده، إذ خلط بين جدري الماء، المعروف شعبيًا في الموصل (بالخغيون أو الخريون باللهجة الموصلية)، وبين مرض الحكة واحمرار الجلد المصاحب لها، والمعروف محليًا (بالشغي أو الشري باللهجة الموصلية)، ولعل المرض الثاني من مضاعفات المرض الأول، ومن يدري لست بطبيب.. والأمراض المذكورة وغيرها من الأمراض الشائعة في مدينة الموصل، كالأمراض الزهرية[٦٤]، والسل والجدري والحصبة، فضلا عن شلل الأطفال والكوليرا والتيفوئيد، وغيرها، ممن كان يفتك بالناس فتكًا، ولاسيما الأسر الفقيرة، وتحديدًا منها ما كان يصيب أطفالها[٦٥].

٩/١-المشاكل والأمراض والعلل الاجتماعية

شخص الأستاذ الدكتور عماد خليل مجموعة من الأمراض والعلل التي أصابت مجتمع مدينة الموصل ولا تزال، ومنها مسالة تسجيل المواليد وهي من المشاكل الاجتماعية المهمة التي كان لها تبعاتها الواضحة، وعن ذلك قال: ((.. أنا من مواليد عام ١٩٤١، وليس من مواليد ١٩٣٩، كما هو مدون في شهادة ميلادي... لا أدرى لماذا؟ ففي ذلك الزمان كان بمقدور الآباء أن يحددوا تواريخ ميلاد أبنائهم دون اعتراض من لدن الدوائر الرسمية.. ودون تدقيق..))، وعلل ذلك برغبة الآباء في تكبير ((..أعمار أبنائهم لإدخالهم المدرسة..))[٦٦]. وهي مسألة كانت شائعة آنذاك في مدينة الموصل بخاصة والعراق بعامة، إذ يحل للوالد أن يسجل مواليد ولده وفق ما يريد، بل أن بعضهم سجل أبنائهم من المواليد الجدد محل أبنائهم المتوفين دون مراعاة لأثر ذلك على أبنائهم مستقبلاً، فكان الكثير من

الذين عاصرتهم مواليدهم غير صحيحة، والدي مثلاً كان من مواليد ١٩٣٤ وسجل ١٩٣٨، وأخوته كذلك سجلوا بتواريخ غير صحيحة.

كما تحدث عن تعلم الصغار تدخين السكائر، مستغلين غفلة الأهل عنهم، والثقة التي تزيد حدها بهم، وهي آفة لاتزال تنخر في جسد مجتمعانا حتى وقتنا الراهن، بل تعدى الأمر تدخين السكائر إلى تدخين الأراجيل، وغدت ظاهرتها تملأ الأماكن العامة والبيوت، ولم يقتصر تدخينها على الرجال، بل دخنتها النساء علنًا، وفي الأماكن العامة دون خجل أو حياء، عادين ذلك تطورًا حضاريًا، وما ينطبق على الناس في الوقت الحاضر هو عينه أيام زمان، إذ عد التدخين، وشرب الخمر، والتحلل الخلقي عند البعض، انفتاحًا اجتماعيًا ومفهومًا مهمًا لمعنى التحرر.

ومن الأمراض الاجتماعية التي لاتزال منتشرة في مجتمع الموصل، تعلم الأطفال الكذب، وهي ظاهرة خطيرة يمكن تلمسها عند أكثر الأسر، والمشكلة تبدأ حين يبدأ الأهل تعليم أطفالهم الكذب بصورة مباشرة عن طريق تعمد الكذب عليهم أو غير مباشرة عن طريق الإيحاءات أو الأفعال، أو الوعود التي يراد بها استدراج الأطفال عبر إيهامهم بها، لردعهم أو إقناعهم بعمل شيء ما، وهذه الظاهرة انتشرت الى المدارس والمحلات العامة بأشكال وأنماط مختلفة، كما انتقلت وبسرعة عن طريق المخالطة بين الأطفال أنفسهم، فغدت آفة يصعب استئصالها أو الحد منها، ومما قاله: ((..أنها كانت (السكائر) تساقط على ثيابنًا شرارًا من نار فتملؤها بالثقوب، وعندما اكتشفت والدتي يوما هذه الثقوب، وأرادت أن تعاقبني اعتذرت لها بأن سببه وقوفي أمام دكان بائعي الكباب للإتيان بطبق للبيت في منتصف كل أسبوع... وبذلك افلت من العقاب..))[٦٧]، وما ذكره الدكتور عماد ينطبق على الأعم الأغلب عند كل أطفال جيله، ومن تبعهم والى الوقت الراهن، إذ يعمد الأطفال وغيرهم إلى الكذب كطبع سرقوه أو نشأوا عليه للإفلات من العقاب.

ومن الظواهر الاجتماعية الخطيرة والدخيلة على المجتمع الموصلي، وجود الملاهي الليلية والمايخانات (البارات)، والتي شهدتها المدينة في أواخر العهد العثماني، وامتدت لتاريخ طويل فيها إلى أواخر ثمانينات القرن الماضي، وكانت موزعة في منطقة الدواسة، ومنطقة شارع حلب[٦٨]، والذي كني بهذا الاسم شعبيًا وليس رسميًا، واقترنت شهرته باسم مدينة حلب السورية، وذلك لوجود احد الشوارع المشابه له في منطقة باب الفرج في مدينة حلب، تكثر فيه الملاهي والحانات والسينمات، ولا وجود رسمي لهذه التسمية، وإنما سمته بلدية الموصل بشارع السعدون، تيمنا بالسياسي العراقي البارز عبد المحسن السعدون، وافتتح في عام ١٩٠٥ كممر أو معبر بين أحياء الموصل القديمة وبين الإعدادية الشرقية التي أنشأها الوالي العثماني آنذاك، وكان شارع المقاهي، والسينمات، والحانات، والملاهي، لكثرة ما أنشئت فيه من حانات، وكان قريبًا من المبغى العام قبل غلقه نهائيًا أوائل الستينيات من القرن الماضي، هذا المبغى الذي يعود إلى أواخر العهد العثماني، وكان يسمى (النوزتية) نسبة الى ضابط عثماني كان يرتاده اسمه نوزت بك، وكان موقع المبغى في محلة تقع وراء أو في ظهر شارع حلب، اسمها محلة الشيخ عمر المولى، وهي الآن ساحة لوقوف الباصات، وفي الشارع دكانين لبيع المشروبات الكحولية، وعدد من الملاهي الليلية، ومنها ملهى السفراء، كما كان هناك ملهى يقع خلف الإعدادية الشرقية، وفي فرع يؤدي الى شارع حلب من جهة، وشارع الجمهورية من جهة أخرى، وكانت ملكية ذلك الملهى تعود الى فاطمة، وهو المعروف بملهى الأندلس على ما اعتقد [٦٩]، وهو شارع لا تدخله النساء آنذاك من جراء ذلك والى يومنا هذا، فأهل الموصل لا يرغبون بتجوال النساء فيه، ولا في الأزقة المجاورة له.

وكان الأستاذ الدكتور عماد قد ذكر أحدها، في محاولة منه ـــ على ما يبدو لتبيان خطورة هذه الظاهرة اجتماعيًا، لأنها طالت شريحة مهمة من الناس، فقد أشار إلى بائعي الخمر في شارع الدواسة، ومما جاء فيه ((.. الذي كان يلقبه بـ(سموعي البنا)، قياسًا على بائع خمر في شارع الدواسة القريبة من المدرسة..))، كما أنه أشار إلى خطورتها على الصبيان الذين ينشؤون في كنف مثل تلك الأماكن[٧٠]، ومما جاء في ذلك: ((.. يطلب من التلميذ جلمان، وهو ابن عامل في ملهى ليلي في باب

السراي[٧١]، أن يغني أنشودته التي تعلمها من حضوره ليالي الملهى..، وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال، مقلداً حركات الراقصات..))[٧٢]، مثل هذه النشأة والتهاون من والده بدواعي الحاجة أو غيرها، شكلت خطراً توضحت أبعاده لاحقاً على المجتمع الموصلي، ولاسيما عند شريحة الشباب.

١/١٠-الدار وارتباطها الوجداني

وتحدث دكتور عماد عن الدار[٧٣]، لارتباطها القوي مع الإنسان منذ ولادته وحتى مماته، لذا نجده يخصص حيزاً مهماً من مذكراته عن الدور التي سكنها في مدينة الموصل، ومنها دارهم الواقع في أحد أزقة محلة أبو العلا[٧٤]، وهي من محلات الموصل المهمة، ثم انتقلت العائلة للسكن في دار أخرى مستأجرة في محلة السوق الصغير (..السوق الأزغيغ باللهجة الموصلية) في الموضع القريب من جامع التوكندي[٧٥] التي قال عنها: ((..لازلت اذكرها جيداً بفنائها الصغير وغرفتها الواسعة التي تتصدره وعلى يسارها سلم ينزل بنا الى سرداب[٧٦] عميق..))[٧٧].

وفي معرض حديثه عن بيتهم الأخر في محلة جامع خزام [٧٨]، تحدث عن الرهرة التي هي أيضاً نوعاً من السراديب، إلا أنها أقل عمقاً، وأكثر ترتيباً، وعادةً تسكن من أهل الدار، وتشغل للنوم فيها أيام الصيف القائظ نهاراً وحتى في الشتاء البارد، إذ توفر ملاذاً مناسباً لكلا الفصلين، فهي باردة الى حد كبير في الصيف، ودافئة في الشتاء مع أنها في الغالب مفروشة بالحجر الكلسي الذي تشتهر به نينوى التي صنعت تماثيلها وثيرانها المجنحة من هذا النوع من الأحجار، والمعروف محلياً بـ (الفغش أو الفرش)، أو ما يطلق عليه مجازا بالمرمر أو الرخام[٧٩]، وهو على أنواع والوان مختلفة، إلا أنه يمتاز بالجمال والروعة والعزل الحراري[٨٠].

ثم تحدث عن دار أخرى في منطقة الشفاء بالقرب من المستشفى الملكي (الجمهوري فيما بعد)، ووصف المنطقة هناك بانها منطقة في غاية الجمال والبهجة في الربيع، وأشار إلى مسألة مهمة حول طراز بناء البيت الجديد الذي سكنه وعائلته آنذاك، وهي أن البلدية اشترطت في حينها على أهل الموصل عند بناء بيوتهم أن تكون مبنية على الطراز الغربي ومحتوية على حديقة تحيط بالدار من ثلاث جهات لغرض النقاء والصحة ودخول الهواء وأشعة الشمس على العكس، مما كان معمولاً في بيوت الموصل القديمة التي تعرف بالبيوت الشرقية ذات الفسح والأحواش الداخلية، كما تحدث عن دار بناها والده في منطقة السجن أو منطقة الغزلاني، وانها كانت ملاصقة لجدار السجن القديم[٨١].

ووصف اجتماع العائلة في البيت في الموصل القديمة، حول منقل الفحم كوسيلة للتدفئة، إذ اعتادت العوائل الموصلية آنذاك استخدامه في بيوتها أيام الشتاء، فكان جمر المنقلة وسيلة وحيدة للتدفئة عند معظم العوائل الساكنة في الأحياء والمناطق الشعبية التي توقد النار في المنقلة، وقت الغروب في (باحة) الدار وتترك حتى تصبح (جمراً)، وبعدها تنقل إلى داخل البيت، حيث تجتمع العائلة حولها حيث الاحاديث والمرويات الشعبية خاصةً مع وجود (قوري) الشاي وما أطيب (جاي النار)، قبل أن تتطور وسائل التدفئة ويتوسع استخدامها، ولا سيما التدفئة بالمدافئ النفطية، أما المدفأة النفطية فكانت خاصة بعوائل معدودة ومن أشهرها مدفأة (علاء الدين الدائرية)[٨٢]، أو الغازية الكهربائية ويتطور الوضع الآن إلى استخدام مكيفات الهواء بانوها للغرض نفسه[٨٣].

كما تحدث عن غرفة الضيوف، حيث ((..وضع في شباكها جهاز الراديو، وحيث اخذ يتردد علينا يوميا عدد من الأقرباء..، لكي يقضوا مع الوالد أجمل الساعات..))، في ذلك الوقت عد الراديو (المذياع) وسيلة إعلامية سمعية إخبارية وترفيهية مهمة يجتمع حولها الأصدقاء والأقارب يستمعون إلى نشرات الأخبار المحلية والعربية أو الى البرامج العامة والأغاني العربية، وبخاصةً أغاني المطربة أم كلثوم، وعبد المطلب، وعبد الوهاب وغيرهم، ولاسيما وأن هذه الأجهزة كانت قليلة الانتشار غالية الثمن اقتناها نخبة من سكان الموصل، إلا أنها سرعان ما انتشرت وبشكل واسع بين أبناء المدينة[٨٤].

١/١١-في التربية المثلى

فيما يخص الوسطية والتربية المثلى، فقد شهدت مدينة الموصل انفتاحاً ثقافياً ممنهجاً إلى حد ما، وكان عشاق التطرف والابتعاد عن الوسطية آنذاك قليلين

بالمقارنة مع الأعم الأغلب؟ وفي اعتقادي المتواضع أن التعليم وتوسع قاعدة المعرفة بين أبناء المجتمع لعبت دورًا واضحًا في ذلك، فضلاً عن تجارب الأشخاص الفردية التي أثرت إلى حد كبير في صقل شخصية الفرد، ولا سيما في تعامله مع أسرته وتنشئة أطفاله، ومن الواضح ــــوعلى ما أعيهــــ أن ثمة إدراك جماعي الى ضرورة التغير في السلوك العام في التربية والتعليم، فلو رجعنا مثلاً الى مذكرات الأستاذ الدكتور هاشم الملاحــــ وهو معاصر للدكتور عمادــــ لنجد تشابها في السلوك الأبوي لدى كلا الوالدين في التعامل مع أبنائهم، مما يؤكد ما ذهبت إليه، من الثقافة العامة آنذاك عند جيل أباء الأستاذ الدكتور عماد والأستاذ الدكتور هاشم هي الثقافة نفسها بكل توجهاتها وقواسمها وتجلياتها، في حين أن الذين يختلفون عن هذه القاعدة في اعتقادي يمثلون أقلية بالقياس عن ما سبق ذكرهم.(٨٥)

على أي حال، بين لنا الأستاذ الدكتور عماد في مذكراته ما تمتع به من حرية كبيرة في ضوء التربية التي انتهجها والداه، فقال: ((..كان يمارس معنا الأسلوب الأكثر حداثة، ذلك الذي تؤكد عليه أحدث النظريات التربوية: بأن يفتح أمامنا المجال لحرية الحركة... دونما أي قدر من القسر أو الكبت، ولكنه يخضعنا من بعيد وبشكل غير مباشر لرقابته الدقيقة الصارمة، فما لبثنا أن اجتزنا مرحلة الطفولة وكبرنا، ونحن لا نعاني من أية عقدة أو التواء مما تسببه التربية العتيقة التي يهيمن فيها الآباء على تصرفات أبنائهم... هذه المعادلة التي ترفض الجنوح باتجاه التشدد أو الانحراف باتجاه التسيب وان نظل في النقطة الوسط..))(٨٦).

١٢/١–النخوة والتعاون والتوسط

كما أشار أيضًا، الى النخوة والتعاون بين أبناء المحلة الواحدة فيما اذا ما أحدق بأحد دور المحلة أو أهلها نائبة أو خطر، وقدم لنا صورة عن نخوة شباب محلتهم الذين هرعوا لإطفاء الحريق الذي نشب في سطح بيتهم(٨٧)، والحقيقة لاتزال هذه النخوة منتشرة لحد الآن في أحياء ومحلات مدننا والحمد لله.

ومن الأمور التي يتميز بها البعض دون غيرهم وهي كثيرة ومنتشرة، ولاتزال كذلك في المدينة، السعي لقضاء حوائج الناس، التي هي مما حث عليها نبينا محمد (ﷺ)، إذ قيض الله أناس تسعى لقضاء حوائج الناس، وكان من بينهم والده الذي اصبح محل استقطاب للعديد من مسؤولي الدولة وموظفيها مدنيين وعسكريين، واستغل علاقاته هذه للتوسط في حل مشكلة أو استحصال حق وما شاكل ذلك، ومما قال عنه: ((..يملك... القدرة المدهشة على كسب الأصدقاء... وكان من بينهم ساسة كبار وزعماء... ومدراء مدارس ومدرسون وقضاة ومحامون وضباط جيش وشرطة وموظفون...، واصبح بمرور الوقت وسيطًا للعديد من أصحاب المظالم والشكاوي الذين يتصلون به لحل مشاكلهم..))(٨٨)، وهو يذلك يعد واحدًا من الكثيرين ممن تحمل مهام قضاء حوائج الناس دون مقابل، على العكس مما يفعله البعض اليوم وللأسف الشديد.

ولم يغفل استأذنا أمرًا ــــعلى ما يبدوــــ تعمد ذكره، وهو التوسط واستغلال النفوذ والمعارف للتأثير على مدير المدرسة صديق والده بهدف تسجيل ابنه في المدرسة مع أن سنه آنذاك لا يؤهله الدخول إليها، كيف أنه أخفق في صفه الأول بسبب عدم قدرته على استيعاب المنهج لصغر عمره، وكانه يحاول القول أن مثل هكذا عمل قد ينعكس سلبًا على تعلم الأطفال، أكثر مما يفيدهم، وفي اعتقادي أن هذه المسألة تختلف من طفل لأخر (٨٩)، إلا أن التوسط في المتوسطة كان يلقى رفضًا أو مماطلة وعدم استجابة في الدراسة في المدرسة المتوسطة مع أن المدير على صلة قرابة من الأب، وممَنْ يتردد كثيرًا على محل والده، إلا أن هذا المدير وجد أن صلة القربى، والتردد على المحل والصداقة شيء، والتوسط والتأثير عليه في ما يخص أبنائه في المدرسة شيء أخر(٩٠)، إلا أن الوساطة التي مارسها والده نجحت لاحقًا في إقناع مدير الثانوية الشرقية وصديق والده الحاج محمود الجومرد بالموافقة على انتقاله إليها من الثانوية الغربية على الرغم من اكتظاظ المقاعد.(٩١)

١٣/١–جدلية القصة والخرافة وعبث الصبيان

ومن الأمور الاجتماعية التي شغلت، ولا تزال تشغل حيزًا مهمًا، القصص والحكايا التي نسمعها عما يقع للناس من أحداث في بيوتهم مع الجان أو الأفاعي المعمرة، ومما جاء في المذكرات قوله: ((...كنت أخشى الاقتراب منه [سرداب بيتهم في السوق الصغير] خوفًا

من الجن..)).[٩٢] ومسألة الحديث عن الأفاعي المعمرة فهي كثيرة، وكان يطلق عليها محليًا تسمية (عربيد)، وغالبًا يكون لونه أسود وحجمه كبير، لأنه على الأغلب من الحيوانات المعمرة، فيزداد حجمة وطوله، وقد شاهدت يومًا في محلة حضيرة السادة شبابًا يتعاونون على قتل احدها، وكان طويلاً قد يتعدى٣ أو٤ امتار، وعريضًا، ولونه اسود فاحم، وكانت جنايته انه اقدم على ابتلاع أربعة أو خمسة من فراريج الدجاج المعروف بدجاج المصلحة الأبيض والمعروفة بكبر حجمها وضخامة بنيانها، ولا استغرب أن يذكر دكتور عماد واحدة من هذه القصص التي قال عنها: ((..كنت أخشى الاقتراب منه[سرداب بيتهم في السوق الصغير] خوفًا من... الأفاعي المعمرة التي كانوا يسمونها (الالفية)...))[٩٣].

من المناسب القول إن يكون هناك نوع من المبالغة في ما ذكرته أنا، أو ما ذكره دكتور عماد حول الجن والأفاعي بالمقارنة مع الواقع، إذ غالبًا ما يميل الأهالي إلى تخويف ولدانهم الصغار، ولاسيما ممن اشتهر بفرط الحركة، وحب الاستطلاع، والتدخل بما لا يعنيهم، أو حشر انفسهم في المناطق التي يخشى الأهل على صبيانهم من أن يؤذوا انفسهم، والملاحظ على الأستاذ الدكتور عماد ــــ وعبر مذكراته ــــ أنه كان واحدًا من هؤلاء الصبيان، وكذلك كنت أنا، وغيرنا من أبناء جيلينا.. فيما أطلق عليه في مذكراته ((عبث الصبيان)).

وهو عبث محبب للأهالي إلى حد ما، وأن كان بعضه مؤذ، وله تأثيرات خطيرة، ومنها تسلق الجدران والستارات والأشجار وأعمدة الكهرباء يدفعهم الفضول والاندفاع وعدم المهابة، والشعور بالخوف، وهو ما أكده بقوله: ((كان يعجبني أن أتسلق جداره المعدني الحاد لكي أطل على المارة أسفل الطريق.. وكانت المسألة فيها قدر كبير من المجازفة)) أدت في إحداها الى ترك ندبة الجرح على باطن يده بعد مرور أكثر من سبعين عامًا على حدوثها أثر خوف والده عليه وسحبه على عجل خشية منه فكانت كما قال: ((شهادة دائمة على عبث الصبيان))، والتي أورد العديد من صورها وأشكالها في مذكراته، وقعت له ولأخوته وأقاربه فيها الشيء الكثير من الخطورة كما هو الحال مع (الصفحات: ٥٧ و ٥٨-٥٩) وغيرها كثير، مما يدل على فرط النشاط والحركة الذي كان يتمتع به الدكتور عماد، والتي ــــ دون شك ــــ كان لها تأثيراتها الجسدية عليه لاحقًا.[٩٤]

وهو أمر شائع ولايزال عند أبناء الموصل ذكور وإناث، وان كان يختلف من حيث حدته وتأثيراته وخطورته بين الجنسين، إلا أن لكل قاعدة شواذ، فلشقاوة الأطفال والصبيان طعم خاص، إذ تزيد من خبرات الإنسان المعرفية وتصقل اندفاعاته، وتحد من تهوره، وحسب ما تعرض أو كاد أن يتعرض له من أذى جراء تلك الشقاوات، واليوم مواقع التواصل تضج بالعديد من الصور والمقاطع المصورة (الفيديوية) التي تؤيد ما ذهبت إليه.

١٤/١-حفلات الختان وطقوسها

وتحدث عن حفلات الختان (الطهور)[٩٥] في اكثر من مناسبة منها: مناسبة طهوره واخيه أو مناسبة طهور ابن أحد معارفهم في حمام العليل، وقدم لنا وصفًا مهمًا عن هذه العملية التي تستند على الشرع الحنيف، كما تحدث عن حفلة ختانه واخيه وخاله في خريف عام ١٩٤٩، وقيام والده للإعلان عنها في احدى الصحف المحلية بهدف استقطاب أكبر عدد من المعازيم لحضور هكذا حفل، حيث ((..بدأ المدعوون صباح ذلك اليوم يتدفقون على الدار لتناول الفطور الدسم من القيمر والكيك والبقلاوة... عندما ازفت ساعة الحسم رأينا بأم أعيننا (المطهرجي)، وهو الرجل المكلف بعملية الختان يحمل حقيبته السوداء المقوسة... وبدأ الرجل عمله واختلطت أصوات الصراخ والبكاء... بأصوات المدعوين وهم يرددون بصوت عالي عبارة [وردة حاق ساق(صاق) ناصي.. هي..][٩٦]، وبدأنا نتلقى هدايا المعارف والأقرباء... التي كانت تنسينا متاعبنا تلك التي استمرت ثلاثة أيام كان رجل الختان يأتينا خلالها لاستبدال الضمادات..))[٩٧].

ومن منا نحن الذكور، من أبناء ذلك الزمن الجميل لا يتذكر يوم ختانه، إذ كادت تندثر هكذا حفلات، ولاسيما في تسعينيات القرن الماضي ودخول العراق تحت طائلة العقوبات الأممية فيما عرف بالحصار الاقتصادي الذي القى بثقله على شريحة واسعة من أبناء الموصل فأدى الى عزوف الأهل عن إقامة مثل هكذا حفلات مكلفة،

عدت من الترف المحض، واكتفى الأهل بأخذ صبيانهم، وهم لازالوا في الأشهر الأولى من الولادة للقيام بعملية الختان، مع أن المدينة كانت تشهد بين الفينة والأخرى حفلات ختان جماعية، ولاسيما في المناسبات الدينة كالمولد النبوي الشريف أو في المناسبات الوطنية، وهي تعكس اهتمام أهل الموصل في كل أفراحهم وأتراحهم، على التجمع والمشاركة الجماعية، وتناول الطعام، وتبادل التهاني أو التعازي، والتعاضد عند المصائب والشدائد، على العكس مما حل الآن من انحسار لمثل هكذا تجمعات، وصارت ـــ أن حدثت ـــ مفرغة من محتواها العاطفي والتراحم الجميل الذي كان طاغيا أيام زمان في مديني الموصل الحبيبة.

١٥/١-ألعاب الطفولة والصبا

وتحدث عن لعب الأطفال والصبيان في الحواري والأزقة، وفي أماكن العمل، وقدم مجموعة من الألعاب التي كنا نلعبها في طفولتنا وصبوتنا، واندثرت الآن أو كادت ومنها: الحاح والكطا، الحاح أو حاح مراح هذه أسماء لعبة شعبية معروفة بأسماء مختلفة في العراق وتسمى أحيانًا شنطرة وبلبل أو بلبل حاح، وهي عبارة عن عصاتين أو خشبتين واحدة صغيرة جدًا وأطرافها مدببة ووسطها عريض توضع على حجرين لكي ترتفع عن الأرض، والأخرى طويلة وحسب ما يتناسب مع طول اللاعبين وهي من الألعاب التي اندثرت في مدينتي وللأسف.

ولعبة هبابة الهبابة، وهي لعبة انقرضت منذ وقت ليس بالقصير، وهي لعبة محصورة بالأولاد فقط وتُلعب بين فريقين، تكون بداية اللعبة باختيار لاعبي كل فريق ثم اختيار الروس، حيث يجلس الفريق الأول على الأرض مشكلاً دائرة ثم يضعون بوسطهم (وسط الدائرة) صخرة صغيرة وبجانبها أو فوقها صخرة أخرى، ويقف خلف كل لاعب جالس لاعب من الفريق الثاني واضعًا يديه على عينيه دون أن يمكنه من التعرف عليه، يقول الروس للفريق الواقف ما يلي: هَبّابة الهَبّابة.. شدّوا عيون الخيل يا رَكّابه.. عجوز بت (بنت) عجوز.. مرّكبة عالجاموس.. ومحَمّلة بالفلوس.. حَدّر وأنزل يا خَيّال، ثم ينزلون، أي يترك كل لاعب غريمه ويسمح له بفتح عينيه، ثم يطلب الروس من أعضاء الفريق الجالس أو من (روسهم) معرفة مَن قام بدق الحجر ولمرة واحدة فقط، فإذا تمكنوا من معرفته يمتطي كل لاعب غريمه ويسير به مسافة معينة وإذا لم يتمكنوا قاموا بنفس العمل[٩٨]، والحرامية والبوليس، [الشرطة وهي التسمية الدارجة عندنا، وليس (البوليس)، لأنها غير دارجة في المعاملات الشعبية والرسمية، لا ادري لما استعملها استأذننا؟؟]

ولعبة جط ونام، والمصاريع (لعله يقصد (المزغاع أو المزراء)، وهو خشبة مخروطية الشكل فيها رأس مدبب من المعدن، ويلف حولها خيط يسمى محليا (زيك)، وترمى بقوة مع سحب الخيط على مزاريع أخرى، ويمارسها اكثر من صبي، وهي شبه مندثرة الآن، إذ لمحت بعض الصبية يمارسونها، وبشكل محدود في السنوات السابقة القليلة، والكعاب، وهي لعبة تعتمد على مجموعة من العظام الصغيرة المستخرجة من الغنم أو الماعز تكون على شكل مكعب وتلعب بشكل مشابه الى حد كبير بلعبة التبيل إذ توضع مجموعة من الكعوب في دائرة، وتسمى زطاية، وهي مكعبات عظام مكسورة من احدى جوانبها، ويضرب أحد اللاعبين الدق، ويسمى بامغصغص (المرصع)، لأنه مرصعًا بالرصاص[٩٩]، وفتح السيفون، ولعبة التبيل (الاتبيل)[١٠٠]، وهي الكرات الزجاجية وبأحجام مختلفة، وملونة بالوان زاهية وجميلة، وهي لاتزال موجودة، إلا أنها قليلة الممارسة من لدن الصبية، حالها حال لعبة البنات طمة وخريزة أو جولة، وهناك اللعاب أخرى لم تذكر منها من شخط ياكمر، وايد ليك، وعلى قسطك ما اقعد، وعلى علو، وخلصو وغيرها من الألعاب[١٠١] التي كنا الى ما قبل الغزو الأمريكي نراها منتشرة وتلعب وبكثرة وجدية.

كما خص لعبة الطائرات الورقية التي في الغالب تصنع من أوراق الصحف والجرائد أو أوراق مظاريف (الزرف بالعامية) التسوق الكبيرة، التي كان الصبيان يتبارون في المديات التي تصل إليها، وحجومها وأطوال ذيولها، وما يرسلون إليها، وكنا نلعبها بنهم، وعلمتها لأولادي، لكنها الآن شبه منقرضة، استعاضوا عنها بأنواع مصنعة في الصين، لا تشبه تلك التي كنا نلعبها أيام زمان لا من حيث الشكل ولا الورق والخيط. وغيرها من الألعاب التي ورت في مذكراته، وغدت أثرًا بعد عين وللأسف.

١٦/١-نوائب الدنيا وأثرها على الأطفال

وتحدث عن نوائب الدنيا وفقد الأعزاء والوجد عليهم وتأثيراتها على ذاكرة الأطفال في مدينة الموصل، إذ لا تكاد تخلو ذاكرة أحد فيها من ذكريات مؤلمة ومحبطة مماثلة، ولاسيما عند فقد المقربين لهم، وتحدث دكتور عماد بألم ووجد عن وفاة جده لأمه، وفاجعة أهله بوفاة أخته التي ذكرها، وذكر وفاتها بمرارة واسى شديدين، ومما جاء في ذلك: ((.. أتذكر تلك اللحظات الكئيبة عندما أيقظوني واخي الأكبر مظفر، حيث كنا ننام.. وجروني جراً، حيث فوجئت بوالدتي تجلس وقد خطف لون وجهها واصبح شاحباً بأكثر مما يجب والدموع تنساب من عينيها.. وحركة غير معتادة من الغادين والرائحين في فناء الدار..))[١٠٢].

كما تحدث عن مراسيم تشييع شاب من مدينة الموصل توفي وهو أعزب ((.. وكان تقليد الموصليين، أن حالات كهذه يمارس تشييعها وسط نقر الدفوف واطلاق الأهازيج..))[١٠٣]، وهي لاتزال موجودة لحد الآن تتبع في جنازات الأشخاص الذين يموتون شباب وهم يعدون انفسهم للزواج أو في سن الزواج، ولم يتحدث عن عادات أهل الموصل في التهيئة للدفن أو الحضور الجنازات أو مجالس العزاء، ولربما في المدة موضوع البحث كان لايزال صغيراً يافعاً لم تتح له فرصة التعرض لمثل تلك العادات في ذلك الوقت، وان كانت هي العادات والتقاليد نفسها باستثناء اللحود أو الدفن بالتوابيت أو الدفن في غرف، كما كان شائعا آنذاك عند البعض.

١٧/١-الارتباط النخبي بالتعليم والثقافة

إن الملاحظة المهمة التي أشار لها الدكتور عماد في ما يتعلق بالنخبة التي اطلق عليها تسمية الأفندية، وهي النخبة التي قيض لها أن تقود البلاد سياسياً واجتماعياً وثقافياً فيما بعد، وكان تأكيده على انتمائه لجيل مخضرم عايش أحداث عديدة بأفراحها وأتراحها، تركت تأثيراتها الواضحة في صقل شخصيته اجتماعياً وثقافياً وفكرياً، ومما جاء حول ذلك قوله: ((..أنني انتمي إلى جيل استثنائي كتب عليه أن يجتاز قرنين ميلاديين وقرنين هجريين.. وأن يعايش نمطين من الحياة يختلف أحدهما عن الآخر اختلافا يكاد يكون جذرياً ..))[١٠٤]، وفصّل الدكتور عماد هذين النمطين بالقول: ((..أولهما: فهو تلك الحياة الهادئة البطيئة بوسائلها المتواضعة وخبراتها البسيطة.. بعلاقاتها الاجتماعية الحميمة وصدق تواصلها مع الأخرين...، بأفراحها التي توغل في وجدان الناس وتتغلغل في شرايينهم...، وبكل ما يخطر على البال من حياة ذات إيقاع بطيء وتغير هادئ وتوافق ومحبة وانسجام ..))، واعقب ذلك الحديث عن النمط الثاني: الذي قال عنه: بأنه في: ((..عصر التكنولوجيا.. فقد تغير الحال.. واخذ الناس يركضون إلى أهدافهم ركض الوحوش.. ويريدون المزيد.. وأصبحت المصلحة هي الهدف الاسمى لمعظم الناس.. تلوثت العلاقات الاجتماعية.. الأفراح أصبحت قشوراً.. ازداد صخب الأجهزة.. وطغت الضوضاء.. أصبح إيقاع الحياة سريعاً، وضاع التوافق والمحبة والانسجام.. وضمور للمشاعر الإنسانية الحميمة..))[١٠٥].

وكأنه حمل التكنلوجيا وحدها وزر ما حل بهم من تغير اجتماعي ونمط العيش والانسجام والتواصل فيما بين الناس، ليس في الموصل وحدها، بل في العالم كله، في الوقت الذي شهدت الحياة فيها، وانا أكاد أكون من أواخر الجيل نفسه الذي ينتمي إليه الدكتور عماد[١٠٦]، عشت وتعايشت مع ما عاشه وتعايش معه من تغير ملحوظ في أنماط الحياة الاجتماعية والثقافية التي عاشتها مدينة الموصل، ولاسيما منذ ستينات وسبعينيات، وحتى منتصف ثمانينيات القرن العشرين، إذ تبدلت الحياة مع عنف وشدة أوصار الحرب العراقية ـــ الإيرانية، ثم حرب الكويت والحصار، وما صاحب ذلك من تغير اجتماعي ملحوظ، مع الانفتاح الواسع على أنماط اجتماعية واقتصادية جديدة، وانحسار إن لم يكن، زوال النخب المدنية عن المشهد الاجتماعي والثقافي في المدينة، ومما زاد من شدتها دخول أنماط اجتماعية وثقافية جديدة مع العمالة العرب الوافدين، فضلاً عن، تأثر المجتمع ـــ بحالات من اللاوعي ـــ بما كانت تصبه الأفلام والمسلسلات العربية والأجنبية التي أسهمت في توسيع تأثيرها السلبي الكبير، والإيجابي المحدود، الأجهزة المرئية السينما والمسرح، والتلفزيون الذي دخل في كل بيت.

لعل ما سبق، يوضح لنا مدى اهتمام أستاذنا بالحياة المدرسية[١٠٧]، التي وصفها ((..واحدة من الصفحة البيضاء المشعة..)) في حياته، إذ قدم لنا دكتور عماد وصف عام وشامل فيه تفاصيل مهمة تستحق التوقف عندها وتأملها، ليست لأنها تمثل وجهة نظر تربوي تخرج على يديه العديد من الباحثين والأساتذة، وإنما لأنها وضحت طبيعة دور النخبة المتعلمة آنذاك، وسعيها الحثيث لترسيخ الأفضل من العلوم والمعارف، فصور لنا رحلته مع ((..الحياة المدرسية...، وما اجملها وامتعها من حياة بمعلميها، بمفارقاتها، بأناشيدها وعروضها المسرحية، بما كان يقصه علينا المعلمون من قصص وروايات، بألعابها التي تخفق في جنباتها..))[١٠٨].

وتحدث عن الفعاليات المتنوعة التي كانت تشهدها المدارس صبيحة كل يوم الخميس[١٠٩]ــــ ولايزال معمول بهاــــ منها تحية العلم والأناشيد الوطنية، وتقديم بعض الفعاليات الاستعراضية والمسرحيات، إلا أن الملاحظ الآن الاهتمام أكثر بعزف النشيد الوطني وبعض الأناشيد وإلقاء بعض الكلمات من الادارة المدرسية أو من بعض الطلبة المعروفين بقدراتهم الخطابية والشجاعة الأدبية، كما اعجب بتجارب بعض المعلمين والأساتذة في سعيهم لتقريب الدرس للتلاميذ، وكان في طليعة ذلك تجربة المعلم الأستاذ رؤوف زين العابدين الذي تولى تعليمه في المراحل الأولى في مدرسة الوطن الابتدائية، والذي قال عنه:((..قدرة رؤوف زين العابدين على توظيف إمكانياته الرائعة في التعليم وذلك بالاكتفاء بنصف الدرس[إذ كان يقسم الدرس قسمين قسم للتعليم وقسم للترفيه]، فيما تذهب إليه احدث النظريات التربوية، وفيما يسمى بالاقتران الشرطي[١١٠]، حيث يلتحم الجد باللعب، فيجد الأطفال سعادتهم بهذا الاهتمام، وترسيخ المعلومات التي يتلقونها عن معلمهم..))[١١١].

ومما تقدم يتوضح لنا مدى الثقافة والتعليم التي كان يتمتع بها معلمو تلك الحقبة، كما يعكس لنا جديتهم وخبراتهم الواسعة في التعامل مع الأطفال الصغار في تحبيب المادة لهم وغرسها في ذاكرتهم، إذ لا يزال يذكر وهو ابن الثمانين، إن هذا الأستاذ كان يقص عليهم روايات جرجي زيدان[١١٢]، وهم في المرحلة الأولى من التعليم، وكيف انه كان يقدمها بطريقة مشوقة ومبسطة لكي يفهمها أولئك الأطفال اليافعين، ويغرســـ وبطريقة محببةـــ في عقولهم أهمية الأدب والتاريخ، وهو دون شك ترك تأثيره الواضح في صقل شخصيتهم وأثر في عقولهم.

وتحدث أيضًا، عن المكتبة في المدرسة الابتدائية، وأثرها في تعليم الأطفال، وهي دون شك كان لها حضورها الكبير في شخصيته، وشخصية أطفال جيله، لان هذه القص تجمع بين التعليم وبين المتعة، ومما قاله: ((..وكانت أمي...، تمسك بيدها واحدة من قصص الأطفال التي كنت أستعيرها من مكتبة المدرسة بأربعة فلوس، وتبدأ في قراءتها لنا...، وكنا أنا واخي نكاد نغيب عن الدنيا وما فيها ونحن نتابع أحداث القصة نضحك حينا ونبكي حينًا أخر، ونتنفس الصعداء حينا أخر حتى تأتي الوالدة على نهاية القصة..))[١١٣].

تجمع هذه القصص بين جزالة العبارة وسلاسة القول، وصدق المعلومة وجمال الصورة وضبط القواعد واللغة، الله ما اجمل قصص ومجلات الأطفال التي كنا نشتريها في صغرنا، ولاسيما مجلة (مجلتي)[١١٤]، ومجلة المزمار[١١٥]، كما ذكر المكتبة العامة التي كانت تكتظ بالطلاب وهم ينكبون على القراءة صباح مساء.. وكيف ((..كانت المكتبة العامة أشبه بخلية نحل تعج بالمطالعين الذين لا يكفيهم ما يقرؤونه فيها وإنما يخرجون وقد تأبطوا ما استعاروه منها لكي يواصلوا القراءة في بيوتهم..))[١١٦].

وتحدث بغبطة عارمة، عن دراسته في المدرسة المتوسطة، والتي بداها في عام ١٩٥٣م وعدها من ((..أعذب سنوات العمر واشدها سعادة وانسجاما..كان طلاب الصف الذي انتميت إليه متآلفين إلى حد كبير، رغم أنهم جاؤوا من بيئات مختلفة بعضها يملك الكثير وبعضها لا يكاد يجد شروى نقير، وكان فيها المسلم والمسيحي...، المدني والقروي، لكن هذه الفوارق لم تؤثر البتة على صفاء العلاقة بين التلاميذ..))،[١١٧] والنص السابق، يعكس التنوع الاجتماعي والطبقي والثقافي، كما عكس حقيقة مهمة وهي أن توسع التعليم في ذلك العهد كان قاعدة ارتكز عليها لتعليم في العراق، وشكل نقطة انطلاق نحو استيعاب اكبر عدد من المتعلمين بعد

أن خرجت مدارس تلك الحقبة نخبة المعلمين والمدرسين وحتى الأساتذة لاحقًا[١١٨].

وكان للدراسة في الثانوية الشرقية حصتها من مذكراته: ومثلت انتقاله مهمة في حياته، ووصف الثانوية (الإعدادية لاحقًا) الشرقية بأنها:((..ذلك البناء العثماني الأصيل المطل بساعته الحمراء الكبيرة على شارع العدالة والذي يتميز باتساعه وكثرة ساحته وحدائقه..))[١١٩]، كان الدوام فيها آنذاك سنتين قبل أن تضاف إليها لاحقًا، سنة ثالثة في أواخر الخمسينيات[١٢٠]، وكعادته قدم أسماء مجموعة من أسماء مدرسيها، ممن تتلمذ على يديهم وقال عنهم ((..استقبلنا هناك عبر هذين العامين مجموعة متميزة من المدرسين..))، الذين كان فيهم بعض المدرسين العرب والأجانب، أما المجموعة الطلابية، فكانت متجانسة إلى ((..حد كبير، تسود العلاقات فيما بينها أجواء المحبة والانسجام..))[١٢١].

واستشهد بحرص مدرسيها على غرس التعلم واستذواق الثقافة، وحث الطلاب على النهل منها بقوله: ((..كان ذنون شهاب... مدرس اللغة العربية في الثانوية الشرقية الذي لا يصلها يوميًا إلا بعد أن يجتاز شارع النجفي[١٢٢]، وقد اشترى من احد مكتباته إصدار.. لكي يرينا إياه قبل بدء الدرس..))، وكان هذا الأستاذ قد اعتاد يوميًا تشويق طلابه الى ما وقعت عليه يداه من كتب، واردف قائلاً: ((..مقلبًا [ذنون شهاب] صفحاته [الكتاب الجديد] بشغف.. يكاد لعابكم يسيل وأنتم تحدقون فيما يعرضه عليكم الأستاذ.. تتمنون لو يطير بكم طائر الى شارع النجفي لكي تقلدوا أستاذكم وتشتروا هذا الإصدار..))[١٢٣]، هكذا كانوا يحببون العلم والثقافة لطلابهم ويحثون عليها.

وفي خضم تقديم الصور الرائعة عن الدراسة في الثانوية، وحرص المدرسين فيها على تقديم افضل ما عندهم، ينقل لنا مشهدًا معاصر مما حل بالتعليم، ولاسيما التعليم الجامعي ـــ الذي أعاني منه، كما عانى منه استاذنا مع تحفظي على التعميم ـــ بقوله: ((..ثم ما لبثت اللعنة أن حلت.. وكف الطلبة الجامعيون عن القراءة، وأصبحت كليتا الآداب والتربية تخرجان أفواجًا من الأميين... أو أنصاف المتعلمين... يرتدون زيفًا شهادات البكالوريوس، والماجستير، والدكتوراه وعقولهم خواء..))، واردف قائلاً: ((..ها هي امتنا العربية كلها تدخل النفق المظلم... وأنت [يقصد نفسه] قد مارست في العديد من جامعاتها... فلم تكد تجد في طلبتها حتى في بعض أساتذتها من يقرأ كتابًا واحدًا في العام..))[١٢٤].

ولأنه من جيل القراء والاهتمامات الثقافية، توقف عند شارع النجفي، لكنه تحدث عنه بطريقة مختلفة، إذ بدأ حديثه متهكما على ما أصاب الشارع من تحول في الآونة الأخيرة من عمره ولاسيما بعد عام ٢٠٠٣م، فقال: ((..تجتاز شارع النجفي.. يهيمن عليك كالكابوس مزيج من الدهشة والمقت والاشمئزاز... وأنت تتلفت.. فلا تجد إلا أكداس الأطعمة والحلويات التي تخترق المحلات والأرصفة وتنزل إلى الشارع..))، وأضاف بلغة الراوي المسرحي أو السيناريست: ((..ثمة صرخة محتبسة أرادت أن تنطلق في الفضاء القريب..))، بماذا تريد أن تصرخ يا استاذنا: ((..أين الكتب؟ أين المكتبات؟ أين العشاق الذين يجتازون الشارع مؤملين أن يعثروا على إصدار جديد يجئ مسافرًا من القاهرة أو بيروت، لكي يشتروه عائدين به على أجنحة البهجة والفرح الى دورهم لكي يلتهموه التهاما... أين المكتبة العصرية؟ أين المكتبة الوطنية؟ أين مكتبة الكركجي؟ وأين مكتبة الوفاء؟ وأين مكتبة عبد الرحمن نصار؟..))[١٢٥].

ويستمر يذكر بحرقة وألم، أسماء المكتبات وروادها من القراء، وأنواع الكتب والمجلات والصحف، تكاد كلماته تذرف دمًا، اسى على هذا الشارع ورواده الذين جلهم ذهبوا... ومن بقى يتجرع الألم مما حل بالشارع، أن فقه ما حل به وبالمدينة من تغير ثقافي واجتماعي، اقل ما يقال عنه (خطير) لأن الذي ساد هو عصر الجهل وأنصاف المتعلمين، وعن ذلك قال: ((..فقد شارع النجفي وجهه الثقافي الأصيل، الذي كان يمد الروح والوجدان بالغذاء الشهي...، وتحول الى بسطة كبيرة، ولكنها ضيقة لبيع ما يملأ البطون..))[١٢٦].

وفي واقع الأمر، وانا الذي عاصرت المراحل الأخيرة من الحياة الثقافية لهذا الشارع، أن هذا الاحتضار الثقافي للشارع، والاحتضار لأهميته للجمهور المثقف، بدأ منذ أواخر الحرب العراقية الإيرانية، ومما سارع من

إنهائه ثقافيًا، والقضاء عليه دخول العراق في طور ما عرف بـ(الحصار الاقتصادي) الذي انهى دور النخبة المثقفة ـــالتي كان استأذنا منهاـــ التي رفعت قدر العراق وأسهمت ببنائه، وكنت شاهدًا على بيع مقتنياتهم من الكتب التي نقلت بالصناديق لتباع في أسواق مدن عربية كبيروت ودمشق والقاهرة، أو على بسطات الأرصفة، أو في دواليب دعاة الثقافة جهلة القرن العشرين والواحد والعشرين، إذ جعل قسم كبير منهم المكتبات ديكور في بيوتهم، فضلاً عن، فناء جل تلك النخبة قهرًا من جراء ما عانوه، وتحول الناس نحو العمل التجاري، فتحولت العديد من المكتبات الى بيع القرطاسية، سرعان ما غزتها محلات الحلويات والأطعمة وغيرها[١٢٧].

كما أنه ذكر لنا، حرص معلمي ومدرسي المواد العلمية على أخذهم للمختبرات، وإجراء تجارب علمية فيها، وتحدث عن وجود أدوات مختبرية، كما تحدث عن وجود مواد أو عناصر كيميائية وأدوات فزيائية لأجراء تلك التجارب، ومع عادته في ـــالترويج على القارئ، كما ذكر في مذكراتهـــ أصر استأذنا الدكتور عماد على ذكر التجارب الفاشلة فيها، ولا أدري إن كانت هي التجارب الوحيدة التي أجريت في حينها، أم أنه ركز على الفاشلة منها كتجربة معلم العلوم عبد الله افندي عبيد أغا الفاشلة مع اختبار قوة البخار[١٢٨].

وتجربة مدرس العلوم غانم مطلوب في (كرة كوتنبرغ ـــقصد الدكتور عماد بالون ماغديبورغ (بالإنجليزية: Magdeburg hemispheres)[١٢٩]، أو كرة ضغط الهواء الداخلي والخارجي[١٣٠]، ومع ذلك فقد عكس مدى اهتمام المعلمين والمدرسين على تعليم التلاميذ عبر إجراء التجارب المختبرية، فضلاً عن الاستعانة، كما أوضح وبجلاء، مدى الاهتمام الحكومي في العهد الملكي على توفير كل ما من شأنه الارتقاء بالتعليم في العراق في ذلك العهد المبكر من عمر الدولة العراقية الناشئة[١٣١].

وذكر الأنشطة اللاصفية التي كانت تشهدها مدارس الموصل الابتدائية آنذاك، وكان لها حيزها المهم في مذكراته، إذ تحدث عن أنشطة عديدة ومتنوعة، كجولة المصارعة التي كان بطلها معلم الرياضة في مدرستهم وملاكم زائر للمدينة، فضلاً عن ممارسة الرياضة، ومتابعة فرق المدرسة، وبخاصة فريق السلة الذي كان من الفرق المتميزة بتفوقها الرياضي، ومنها المباراة التي شهدتها مدرستهم مع فريق متوسطة المثنى، والتي ذاق فيها فريق مدرستهم مرارة الهزيمة الساحقة[١٣٢]، وإخراج الطلاب لمشاهدة مباراة في كرة القدم في ساحة الطيران بين فريقي المعارف(أي فريق مديرية المعارف في الموصل)، ونادي الجزيرة الرياضي[١٣٣]، إلى الزيارات الميدانية إلى مصانع النسيج والطابوق، أو للمشاركة بالاحتفالات بالمناسبات الوطنية، كالاحتفال بعيد الجيش أو جلوس الملك أو تأسيس الدولة أو عيد ميلاد الملك وغيرها، فضلاً عن السفرات المدرسية الى اطراف مدينة الموصل آنذاك.

وفي المتوسطة شهد مجموعة من الفعاليات اللاصفية، كالخروج في السفرات المدرسية في فصل الربيع الى بعشيقة أو منطقة مندان[١٣٤] ((.. وكانت تلك تمثل اقصى درجات الفرح والسعادة..، نبدأ باللعب والمسابقات والتقاط التصاوير..))[١٣٥]، ولاتزال هذه الهواية منتشرة عند أهل الموصل، ولعلها زادت عن ذي قبل باستخدام أجهزة الهواتف الذكية (الموبايل) والكاميرات الحديثة، ومما لفت انتباهي في مذكراته أقدام مديرية المعارف في الموصل بتوجيه المدارس للقيام بغرس الأشجار في ٢١ أذار من كل عام للاحتفال (بعيد الشجرة) ذلك العيد الذي اندثر في مدينتي، وفي عموم العراق، وحل محله احتفالاً شعبيًا عامًا بعيدًا عن غرس الأشجار بما يعرف بعيد نوروز.

ومع ذلك فقد أشر لنا مجموعة كبيرة من السلبيات التي رافقت هذا المسعى، منها إخفاق بعضهم، وتقولبهم في قالب التعليم الصرف الجاف الخالي من المشاعر والأحاسيس، أو فهم التطور الحاصل في المجتمع والثقافة، أو لإخفاقهم الذاتي الصرف في أن يكونوا معلمين ومدرسين ذات أثر فاعل في عقول الصبيان والشباب، وهم يتتلمذون على أيديهم، فضلاً عن، استخدامهم التوبيخ بعنف من لدن بعض المعلمين، وما يتركه من أثر سلبي على نفسية الطفل، إذ أكد أنه لا يزال يعاني من أثر ذلك التوبيخ العنيف من أستاذه آنذاك.

ومع ذلك ترك التوبيخ العنيف اثره العميق في نفسيته كطفل، على الرغم من أن الكثير من معلمينا، لجأوا لمثل هكذا فعل، بدافع الحرص على التعليم، وترسيخه في أذهان الطلاب، إلا أنه ترك ولايزال، أثره في نفسية الأطفال، ومن المؤكد، لايزال في جيلي، ومن تبعهم، وإلى اليوم، من مرّ بمثل هكذا تجربة، ومما قاله: ((..لازلت اذكر معلمنا، وهو يعلمنا رسم الحروف الأبجدية، فعندما بلغنا حرف الصاد..، وأخذ يطالب التلاميذ..، التقدم إلى السبورة لكي يخطوا الحرف، حتى إذا جاء الدور لي اضطربت، والتصقت بالسبورة دون حراك، وعبثا حاولت رسم الحرف..، فما كان منه إلا أن وبخني بعنف..، ولحد الآن وبعد مرور حوالي السبعين عاماً على الحادثة، لازلت لا أعرف كيف ارسم حرف الصاد..، ولا يزال يمثل عقدتي الأساسية ..))[١٣٦].

وذكر حادثة أخرى مشابهة لها، مع مدرس الجغرافية الذي وجه له صفعة قاسية، لعدم مقدرته على إجابة السؤال الموجه له، مع أن الصفعة لم تكن بسبب فشله، وإنما بسبب انشغاله بالكلام مع تلميذ آخر، بدلاً من الانتباه للمعلم، وعلق على هذه الصفعات التي لايزال يتذكر ــــحسب قولهـــ((..طعمها لحد اليوم..))، بالقول: ((..لقد كان بعض المعلمين دون مستوى مهمتهم التربوية بكثير، وكانوا يعتمدون أسلوب العنف، والبسط والتخويف، لإرغام الصغار على الإجابة عن الأسئلة..، ولكن دون جدى..))[١٣٧].

هذا التقييم لبعض المعلمين آنذاكـــ في اعتقادي المتواضعـــ فيه إجحاف بحق الكثير منهم، الذين كانوا يتنقلون من صف إلى أخر، كالنحل في تجولهم بين الخلايا، وهم يقضون يومهم، يعلمون ويشرحون ويدرسون، دون كلل أو ملل، بينما ينشغل بعض الطلاب بالمقالب، والمشاغبات الصبيانية أو الكلام، والدردشة، كما أن معلم القراءة، ومعلم الجغرافية، ما لطماه، ولا بسطاه لدوافع شخصية، مع اني لا أميل لمثل هكذا ممارسات، ولكنهم فعلوا ذلك بدافع شَدِّ الطلاب، ولفت انتباههم لأهمية الدرس، والانتباه لما يشرحه، ويبذله المعلم في تعليمهم، ولعل استأذنا أراد أن يقول لنا في اللاوعي: لا تلجأوا الى ما يترك الأثر النفسي الغائر في نفوس تلاميذنا وأبنائنا، فأنها تبقى تفعل فعلها المؤذي على الرغم من مرور السنوات عليها.

وأشر فيما أطلق عليه في مذكراته ((عبث الصبيان)) في داخل المدارس أيضًا، وهو أمر شائع ـــولحد الآنـــ في بعض مدارس الموصل، بل والعراق عمومًا، ولعل مرد ذلك يعود الى عدم قدرة الأستاذ على فرض نفسه، كأستاذ له وزنه، أو لفقدان توازنه الشخصي بصورة عامة، فذكر في مذكراته العديد من المواقف التي ساقها في إطارها العام كنوع من الترفيه أو الدعابة، في حين كان هكذا عمل في غاية الخطورة، والأهمية معًا، لأن الإقدام والجرأة على القيام بأعمال مماثلة كان ولايزال منافيًا لكل الآداب والأخلاق العائلية والإسلامية.

كما مثل نقلة مهمة في تاريخ التعليم نحو الانفلات والتحلل والتجاوز على المعلمين والأساتذة الذي نشهده الآن، ومما قاله في مذكراته: ((..من أجل كسر الملل..، انتهزت يومًا فرصة إدارة ظهر معلم الرياضة، وهو يمارس تخطيه داخل الدرس، فما كان مني، إلا أن ارفع عجوة من الأرض، ثم أضعها بين أصابعي، وادفع بها الى رأسه..))[١٣٨].

وعلى الرغم من أنه تلقى العقاب المناسب على فعلته، إلا أنها شكلت ظاهرة خطيرة غزت مدارسنا وللأسف الشديد، وفي اعتقادي ما ذكرها استأذنا إلا بهدف تأشير خطورة مثل هكذا تصرفات منافية للآداب والذوق الإسلامي الرفيع الذي تربى عليه، هو وقسم كبير من أبناء جيله، كما أن ما أقدم عليه يندرج فيما سماه (عبث الصبيان وتهورهم) دون معرف العواقب الأخلاقية والبدنية على مثل هكذا عبث سمج، ولعله قام بذلك، كرد فعل عفوي أو وقع تحت تأثير اللاوعي، كطفل شاهد غيره يقوم بها، فقلده دون أن يفقه عواقب مثل هكذا عمل.

ومع ذلك، فقد أشر، وهو الاكاديمي، مسألة مهمة في مذكراته، وهي أن الطلاب في الدراسة المتوسطة، قد استمرو في تعاملهم مع الكادر التدريسي الذي تولى تعليمهم وفق قدرتهم على ضبط الصف، والمادة العلمية التي كانوا يقدمونها، فنراه يثني على بعضهم، ويقدم أسمائهم مع شيء كبير من التقدير والتعريف بهم

وبمناقبهم وقدراتهم العلمية، ويذكر الآخرين مع الكثير من مثالبهم، وما تعرضوا له من مواقف محرجة، بل بعضها، كان مخزيًا لا يليق بمدرس، ولا ينبغي التساهل معهم عليها[١٣٩]، كما ذكر انه، كثيرًا ما تعرض للضرب، والعقاب من احدهم (بسبب مشاكساته؟؟؟)[١٤٠].

ثانيًا: الانفعالات وردود الأفعال السياسية في مدينة الموصل

عبر متابعاتي للعديد من المذكرات الشخصية، لفت انتباهي الى طريقة عرض الأحداث في تلك المذكرات، ومما يميز مذكرات دكتور عماد انطلاقها من قاعدة المعرفة التاريخية بحكم اختصاصه واهتماماته الشخصية، فمنذ دخوله مرحلة الوعي بالأشياء بدأت عنده ملامح الأحداث السياسية تزداد استضاحًا على حد قوله: ((..وتأثيرها يزداد ضغطًا على جملتي العصبية...، تحتفظ بشبكة من الذكريات عما شهده ذلك العصر من وقائع وأحداث، كنت أتعامل معها بحواسي كافة ..، وتركت في نفسي كهوفًا وأغوارًا.. لازلت احملها معي حتى اللحظات الراهنة..))[١٤١].

كانت بداية الأحداث السياسية في مذكراته تستند على ((..ما تناقله الناس ويدور في المجالس والبيوت والأسواق..)) عنها، والتي كانت تدور حول وقائع ثلاث تشكل نسيجها في أواخر الثلاثينيات وبداية الأربعينيات، ((.. وكلها انتهت الى ما يشبه الحزن العام الذي خيم على نفوس أبناء بلدي: الموصل التي كان لها قصب السبق في العديد من وقائعها وأحداثها: مقتل الملك غازي[١٤٢]..، وإخفاق ثورة رشيد عالي الكيلاني[١٤٣]، وبدء تراجع الانسياح الألماني في أوربا[١٤٤]..))[١٤٥]. إن لهذه الأحداث تأثيراتها على الشارع الموصلي بعامة، وعليه وعلى جيله بخاصة، وبعيدًا عن تناولي لهذه الأحداث بشيء من التفصيل، يبقى موقف الدكتور عماد منها: يتحدد في أنها كانت ذات وقع كبير على أبناء مدينة الموصل، وأثرت في العقل الجمعي المضاد ــــللإنكليز والصهيونية العالمية والشيوعيةــــ، في اتخاذ العديد من المواقف السياسية المعارضة، وقال عنها: ((..الأمر الذي شكل في نفسي كراهية متأصلة للإنكليز ولعملائهم في ديارنا.. ودفعني بعد سنوات قلائل [وأبناء جيله] إلى المساهمة في أي حدث يعبر فيه العراقيون عن كراهيتهم هذه..))[١٤٦].

وكانت أولى مشاهداته لصدى أحداث العراق السياسية في الموصل، معاينته لردود أفعال أهل الموصل المعارضة لمعاهدة بورتسموث التي تعرف بمعاهدة بيفن ــــ جبر أو معاهدة ١٩٤٨[١٤٧]، والتي تركت تأثيراتها في العقل الجمعي له، ولأبناء جيله في اتخاذ المواقف السياسية المناسبة تجاه الأحداث التي وقعت لاحقًا، ومما قاله عنها: ((..ما لبثنا وعلى حين غرة، أن سمعنا أصواتًا كقصف الرعد، تنطلق من مكان قريب من المركز الشرطة العام في بداية شارع العدالة، ومع هزيم الأصوات، زخات متعاقبة من الرصاص، وركض وصراخ، اختلط بمحاولة الأشقياء اقتحام بعض المحلات لسرقتها.. كانت تلك امتدادات للتظاهرات الحاشدة في بغداد، والتي ذهب ضحيتها عدد من الشهداء والشباب ضد معاهدة (بورتسموث)..))[١٤٨].

وكان شاهدًا على احتفالات أهل الموصل بتتويج الملك فيصل الثاني عام ١٩٥٣، وبين لنا في مذكراته، كيف انشغل أهل العراق والموصل، بالاحتفالات الرسمية والشعبية المتواصلة، ترحيبًا بتتويجه، ومما جاء في مذكراته: ((.. كان رد فعل الموصليين يتمثل بفرحتهم الغامرة بانفكاك قبضة الوصي عبد الإله[١٤٩]،عن مقدرات الحكم في العراق، وترك اتخاذ القرار لابن أخته فيصل الثاني..، وكان محبوبًا لدى معظم جماهير الموصل، ولذا ما فما أن أعلن عن بدء احتفاليات تتويجه في مايس من عام ١٩٥٣، حتى أقيمت أقواس النصر في شوارع المدينة، وعلقت الفوانيس الملونة الكبيرة على الواجهات والجدران..، واطلقت الألعاب النارية، وخرج الناس زرافات ووحدانا، يتجولون عبر الليل في شوارع المدينة، لمشاهدة هذا الذي يجري فيها، وللمشاركة في الاحتفال، كنا ..، نحمل الكثير من الود والمحبة للملك، ونحاول أن نفصل في عاطفتنا تجاهه، بينه وبين كل من الوصي، ونوري السعيد..، حتى إننا عندما سمعنا يومًا أنه تعرض لكسر بسيط في كتفه خلال استحمامه، انتابنا الحزن، ورحنا نتابع الموضوع حتى اطمأننا على سلامته ..))[١٥٠].

إن مما استوقفني في مذكراته، تحوله من حب الملك إلى كرهه، بتأثير المبادئ السياسية التي أثرت بشكل كبير في قناعات الكثير من رجالات وشباب أهل الموصل آنذاك، وشكلت مسارات جديدة في حياتهم، مع أن الإشارات في مذكراته حول الانتماءات السياسية، وتأثير التيارات السياسية فيها قليلة جدًا، بالقياس الى ما ذكره عن الإخوان المسلمين، التي فصل الحديث عنها، ولعل مرد ذلك انتماءاته غير المستقرة أو المتصلة بالتنظيم، والعمل السياسي في إطاره، مع تأثره الواضح بخطهم، واتجاهاتهم الفكرية، وهو ما يتضح من مجمل كتاباته. لذا نجده ادرج في مذكراته، بعضًا من العبارات العامة، عن أستاذه مهدي السامرائي مدرس اللغة العربية، الذي راجت شائعات عن انتمائه للحزب الشيوعي، وعن أستاذه سالم الدباغ مدرس اللغة العربية أيضًا، الذي تميز باندفاعه وراء الشيوعيين[١٥١]، ورفيقه في الإخوان لقمان الحاج داود الذي سرعان ما انجرف مع التيار الشيوعي، الذي نشط بعد عام ١٩٥٨ في الموصل، دون الخوض بأية تفاصيل عن هذا التيار اليساري الجارف، ولا عن تيار القوميين ونشاطاتهم في الموصل آنذاك.

فيما يخص الإخوان، فقد تحدث عنهم بشيء من الاهتمام الواضح دون التفصيل في الحديث عنهم ولا عن التناقضات التي مرت بها الحركة ولا عن الانشقاقات التي حدثت في مسيرتهم السياسية آنذاك، ولا عن مواقف أهل الموصل من هذه الحركة، كحركة (سلفية) سياسية في مجتمع تغلب عليه الصوفية المعتدلة في الأعم الأغلب، وترك تساؤلات كثيرة عنها، مكتفيًا بالحديث عن كيفية التعرف عليهم، والالتحاق بحلقاتهم، وحضور دروسهم على ضفة اليسرى لنهر دجلة، ووصفها بانها كانت ((تجربة مغرية حقًا))، إلا أنه لم يكن يلحظ في نفسه ((..النية الواضحة لفكرة التنظيم، ومطالبه الأساسية..))، وأضاف لاحقًا، انه قرر مغادرة ((..التنظيم الى غير رجعة..))[١٥٢].

وشهد مع أبناء الموصل آنذاك ــــ في عام ١٩٥٤م ــــ أجواء الاستعداد لانتخابات مجلس الأمة، وحضر مع أبناء عمومته كل التجمعات الجماهيرية، التي وصفها بـ(الحاشدة)، والتي أقيمت في أماكن شتى من الموصل، استعدادًا للحملة الانتخابية لمجلس النواب، ما يعكس طبيعة اهتمام أهل الموصل بـ هكذا حدث سياسي مهم، وذكر أسماء بعض المرشحين ومنهم: ((..عبد الجبار الجومرد، وغربي الحاج احمد، وصديق شنشل، ومحمد حديد، وعبد الله ليون وآخرين، الذين يمثلون مجموعة من أحزاب المعارضة لأحزاب الحكومة..))، والذين استطاعوا وغيرهم، في المدن الأخرى من الحصول على تأييد أهل العراق بعامة، واهل الموصل بخاصة، و((..يكتسحون البرلمان..))ــــ على حد قولهــــ، ما دفع نوري السعيد الى حل هذا المجلس، الذي لا يتوافق مع توجهاته السياسية[١٥٣].

وكتب في مذكراته معلومات تفصيلية عن انتخابات عام ١٩٥٨، ولا سيما تلك التي حدثت في مدينة الموصل، وكيف كانت الحملة الانتخابية لزعيم حركة الإخوان المسلمين في العراق محمد محمود الصواف[١٥٤]، والاجتماع الحاشد الذي أقيم بالمناسبة في دار احد أقربائه في محلة الأمام عون، ((..حيث حضرنا واستمعنا للتوجيهات الخاصة بالعملية الانتخابية، وكنا واثقين من فوزه..))، إلا أن الذي حدث، فشل في الحصول على أصوات تؤهله الدخول لمجلس الأمة، وقد وصفها دكتور عماد بانها ((.. واحدة من أكثر أعمال التزوير الانتخابية بشاعة ومكشوفية .. بحيث أن باصات النقل العام، أممت لنقل مؤيدي نوري السعيد، ومرشحي أحزاب الحكومة، وانتهى الأمر بسقوط معظم مرشحي المعارضة، وفي مقدمتهم الصواف))، وأضاف قائلاً: أصدر الصواف كراسًا بعنوان: (هذا بيان للناس)، كشف فيه مساحة التزوير الكبيرة لتلك العملية الانتخابية، ندد فيه ((.. بمصير الظالمين بشكل صريح، دونما أي قدر من التوجس أو الخوف، كما وقف على درج القطار، والقى خطبة نارية ضد الحكومة، لم تكن لتقل ضراوة وعنفًا عما قاله..)) في كراسه[١٥٥].

لعل النص السابق، يعكس الحرية السياسية التي كان يتمتع بها معارضو الحكومة في العهد الملكي، ما دفعه لمثل تلك الخطب النارية ضدها، ولا سيما وأنه ــــ وحسب اعتقادي ــــ كان يعلم أن لا أحد سيتعرض له من أتباع السلطة، كما حدث لاحقًا مع غيره في عهود العراق السياسية اللاحقة. وفي مذكراته، وصل الدكتور عماد الى استنتاج مهم بقوله: ((.. لعل ما شهدته هذه

الحملة الانتخابية في عموم العراق، هو مما عجل بانقلاب ١٤ تموز، الذي أطاح بالملكية، وقضى على نوري السعيد..))[١٥٦]. ولعل من الأفضل القول: أن ما حدث في تلك الانتخابات، هو ما سهل في عملية تقبل الناس للتغير، الذي جاء بنظام مغاير في التوجهات، والأهداف، أكثر مما كان سببًا في (الانقلاب–الثورة)، الذي كان يعد له بعناية فائقة خلف الأبواب المؤصدة.

وحسب ما اعلم، أن جل الانتخابات التي جرت في العهد الملكي، كان يشوبها التلاعب والتزوير، واستمرار وصول أشخاص بعينهم دون غيرهم، بل أن كلاً من ياسين الهاشمي نوري السعيد سعيا لتعديل قوانين الانتخابات حتى يسمح ليونس السبعاوي مثلاً وغيره، للدخول كنائب في مجلس الأمة، في مسعىً منهما لإرضاء العقداء الأربعة، وكتلتهم العسكرية النافذة آنذاك [١٥٧]، والأمثلة على غيرها كثير، كما لا أعلم مسوغات الموقف المعارض لنوري السعيد وسياسته في العراق وخارجه، عند شيخنا وأستاذنا دكتور عماد، وهل أنه كان أسوأ من الذين جاءوا بعده، أم انه كان الأفضل، والأنبل والأبيض يدًا منهم؟؟ [١٥٨].

وتحدث أيضًا عن ثورة ١٤ تموز التي يطلق عليها (انقلاب ١٤ تموز)، وقدم شهادة حية عن اللحظات الأولى لذلك الحدث المهم في تاريخ العراق المعاصر، والتي قال عنها: ((..كنت في صبيحة ذلك اليوم نائمًا، فإذا بي استيقظ على صرخات زوج خالتي.. وهو يقول وقع انقلاب..))، وعين صديق شنشل، وعبد الجبار الجومرد، وزيرين في الحكومة الجديدة، ((..فما كان مني، إلا أن انهض قائمًا، والفرحة الطاغية تجتاح مشاعري..، واسرع بالنزول..، والخروج..، للمشاركة في التظاهرات الحاشدة التي انفجرت في الموصل، لحظة سماع البيان الأول من راديو بغداد..))[١٥٩].

وأخذ يقدم لنا وصفًا مهمًا، عن ما دار في تلك المظاهرات، وشخص لحظة فارقة بمسار القوى المعارضة في الموصل في تلك المظاهرة الأولى، بعد إعلان الثورة وسقوط الملكية في العراق، إذ قال: ((..لازلت اذكر، وربما كان أول انشقاق مبكر بين جبهتي الشعب: الجبهة القومية الإسلامية، والجبهة الديمقراطية الشيوعية..))[١٦٠]، وذلك لان كل جبهة أخذت ((..تنادي بشعارها الخاص..، فالأولى تهتف بالوحدة الفورية مع الجمهورية العربية المتحدة، والأخرى تهتف بالاتحاد الفدرالي والصداقة السوفيتية..))[١٦١]. وهو يقصد بذلك أن رفع مثل هكذا شعارات، كان بمثابة الافتراق بين قوى الاتجاه القومي، ومعهم ذوو الاتجاه الإسلامي، وقوى اليسار التي مثلها، وبكل قوة الحزب الشيوعي العراقي، المدعوم من قيادة الاتحاد السوفيتي، وعد ما كان بمثابة المهدات الحقيقية، لما حل بالموصل لاحقًا عام ١٩٥٩، أي النتائج التي ترتبت على ما يعرف بالعراق بثورة الشواف[١٦٢].

وقدم وصفًا لخطاب عبد السلام عارف الذي زار الموصل بعد أيام قليلة من وقوع الثورة وقال عنها: ((تنامى إلى مسامع أبناء الموصل، نبأ زيارة سيقوم بها عبد السلام عارف نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية لمدينة الموصل، وانه سيلقي خطابًا جامعًا في ساحة الطيران..)) وعبر في مذكراته عن خيبة الأمل التي أصابته، وأبناء مدينة الموصل من ذلك الخطاب، الذي وصفه: ((..فوجئوا بضحالة الخطاب، وتفككه، ولهجته العامية، وانفعاليته..، بحيث انهم عادوا الى دورهم، وقد أصيبوا بخيبة أمل قاسية، وهم يجدون رمز ثورتهم ... يتحدث اليهم بهذا الأسلوب الغوغائي..))،والملفت للنظر، أن أبناء الموصل، ومنهم الدكتور عماد، شعروا ومنذ الوهلة الأولى، بحتمية الانشقاق بين قادة الثورة، منذ الوهلة الأولى لها، وذلك عندما قال:((..حتى إننا رحنا نقول في انفسنا، لعل الزعيم عبد الكريم قاسم سيرتاح لهذه الخطب التي ستضعف مركز عبد السلام عارف..))[١٦٣].

ثالثًا: جانب من أوضاع مدينة الموصل الاقتصادية

لم يحظ هذا الجانب باهتمام كبير كما هو الحال مع الجانب الاجتماعي والثقافي وحتى السياسي، من لدن الأستاذ الدكتور عماد في مذكراته، في المدة موضوع البحث، فعلى الرغم من انه ينحدر من أسرة تمتهن المهن الحرة، إلا أنه لم يمارسها، وإنما توجه مع الكثير من أبناء جيله، نحو الوظائف الحكومية، فشكل معهم، ركيزة أساسية في بناء واستقرار القوانين والأنظمة في الدولة

العراقية الفتية، ومع ندرة المعلومات عن أوضاع الموصل الاقتصادية، إلا أننا يمكن تلمس بعض تلك المعلومات من مذكراته.

ومنها وصفه لدارهم المستأجرة في محلة السوق الصغير، والي عدت من الدور الموصلية الصغيرة، التي يسكنها محدودو الدخل، لأنها لا تتعدى أن تكون من غرفة وسرداب اسفل منها، ومدخل للدار عبارة عن فناء صغير، ما يعني أن أسرته كانت من محدودي الدخل آنذاك، عجزت عن شراء دار خاص بها، والدور المستأجرة في الموصل عادة تشغل من لدن الطبقات المتوسطة والفقيرة فيها، وهي الفئات الواسعة في المدينة، والتي غالبًا ما تعجز عن اقتناء دور خاصة بها[١٦٤]. وهي حالة اجتماعية ذات مؤشرات اقتصادية لها تأثيراتها الواضحة على من ينشأ فيها، الذين يتحتم عليهم أن يقطعوا جزء ليس بالهين من دخل الأسرة، الذي هو بالأصل قليل أو شحيح، ما يترك تأثيراته على حال الأسرة، وأوضاعها المعيشية في مدينة الموصل، التي لايزال قسم كبير من أهلها، يعانون من السكن في الدور المؤجرة، وهم ممن دخولهم محدودة.

غير أن وضع أسرتهم المعاشي، شهد تغيرًا واضحًا بعد ثلاث سنوات، ما مكنهم من شراء دار، مع أن الدكتور عماد لم يحدد التاريخ لشراء الدار، إلا أنها على الأغلب، كانت في المدة التي تلت الحرب العالمية الثانية، والتي شهدت نوعًا من الاستقرار المادي على اثر انتهاء تلك الحرب، التي القت بظلالها على الأوضاع الاقتصادية للعراق بعامة، والموصل بخاصة، وهو ما أكده بقوله: ((..والحق أن أجمل سنوات حياتنا(هو وأسرته)، هي تلك التي قضيناها في هذا البيت بين سنتي ١٩٤٥-١٩٥٨..)) [١٦٥]. والملاحظ أن في هذه المدة، شهدت مدينة الموصل، استقرارًا ونشاطًا اقتصاديًا، حسن من دخول فئة واسعة من أصحاب المهن والمحلات في المدينة، ما مكنهم من العيش الرغيد، ومكن العديد منهم من شراء الدور في ظاهرة، تزامنت مع التوسع الحاصل في المدينة، وانتقال العديد من الأسر الموصلية للعيش في المحلات، والأحياء الجديدة أو العيش في دور أوسع مساحة واحدث بناءً[١٦٦].

وعلى الرغم من وجود السيارات كوسيلة للنقل، إلا أني وجدته كثيرًا ما يذكر استخدام العربات التي تجرها الخيول أو غيرها من الحيوانات، لنقل الناس والأمتعة، ومنها قوله: ((..كان أبي يستأجر عربة..))[١٦٧]، وهو ما كان سائدًا في المدينة، ولعل السبب قلة وسائل النقل العام أو لرخصها، ولسهولة تنقلها بين الأزقة الضيقة في المدينة القديمة، وهذه العربات لا تختلف عما كان شائعًا عربيًا وعالميًا آنذاك، كما هو الحال في بلاد الشام، ومصر، أو في باريس، ولندن، ونيويورك وغيرها من العواصم والدول، ولاسيما في أربعينيات، وخمسينيات القرن الماضي، ويمكن معرفة ذلك عبر ابسط فلم وثائقي عن المدن العربية أو العالمية. وفي مذكراته تعرض بشكل عام لذكر الأسواق في وسط المدينة، ومنها ما اطلق عليه تسمية ((مثلث الخدمات))، ذلك المثلث الذي حدده في مذكراته على انه يمتد من: شوارع نينوى وغازي والعدالة ونهر دجلة، ((..لهذا المثلث المترع بالأسواق، والحرف، والأبنية، الخدمية، كالقيصاريات، والخانات، والحمامات، والقناطر، والمطاعم والمقاهي الشعبية، والدكاك الممتدة ذات اليمين وذات الشمال..))[١٦٨].

وفي النص السابق، قدم لنا وصفًا مجملاً، عن أهم وأبرز مراكز الموصل التجارية، سواء لتجارة الجملة أم المفرق(المفرد)، والذي يشمل أسواق باب الطوب، وسوق الأربعاء، وسوق هرج، وسوق باب السراي، ورأس الجسر، وسوق السرجخانة، وما يتفرع عنها من أسواق ومحال تجارية، تمتد للشوارع التي تتصل بالشوارع التي ذكرها في مذكراته، وتمتد على بقعة مكانية لا تقل مساحتها عن ٧٥ ـــ١٠٠كم مربع في قلب مدينة الموصل، وعد هذه المنطقة تراثية مهمة في المدينة لأن فيها الأسواق التراثية القديمة السالف ذكر بعضها، فضلاً عن القيصاريات، كقيصرية سباهي بزار، والسبع أبواب ..أو الخانات كخان الغنم، والكمرك، وخان القلاوين..، والحمامات كحمام العطارين، وحمام الصالحية، والمقاهي كمقهى أبو صبحي في مدخل سوق العطارين، والمطاعم كمطعم سيد بكر، ومطاعم السمك..، وغيرها[١٦٩]، والتي عد عنها تقريرًا وافيًا رفعة الى المديرية العامة لأثار ومتاحف المنطقة الشمالية عام ١٩٨٠، إلا أننا كأفراد ومسؤولين، قليلاً ما نابه للتراث

والأثار، والمحافظة عليه، مع وجود محاولات متعددة للمحافظة عليها، إلا أنها في واقع الأمر خجولة، لتأتي أحداث عام ٢٠١٤ وما تلاها، لتأتي على ما تبقى من أثار في هذه المناطق وللأسف الشديد.

وخص بعض الشوارع في الموصل بالوصف دون غيرها، ومنها ما ذكره عن شارع حلب بقوله: ((..كان شارعًا مترعًا بالمتع، والمسرات، فثمة المطاعم، وبائعو الجرز والسكريات، والمقاهي الصيفية والشتوية، وعدد كبير من محلات بيع التحفيات، وخياطي ملابس الجنود وشاراتهم..))[١٧٠]، وفي النص أعلاه جمع أصناف مختلفة من المهن والمحال، كالمطاعم ـــ والتي على ما ذكره ـــ كان اشهرها مطعم الرافدين، ومحلات الحلويات، ومن اشهرها حلويات الحلبي وغيرها، فضلاً عن، عدد من المقاهي المتناثرة في هذا الشارع، والأفرع التي تصب فيه، وكذلك الخياطين، ولاسيما ممن امتهنوا تقريم الملابس، ولاسيما تلك التي تخص العسكريين، فضلاً عن بيع قراب الأسلحة والشارات العسكرية، وبعض المصورين وكان أولهم المصور كاكا ثم المصور أكوب وتبعهم مراد الداغستاني ثم تبعهم أخرون، والسينمات كسينما الحمراء، والملاهي، والبارات، وبائعي المشروبات الكحولية[١٧١]، وإن تعرض هذا الشارع في الآونة الأخيرة الى تغيرات مهمة، ولا سيما بعد أحداث ٢٠١٤ وما تلاها. وفي معرض حديثه عن أيام الطفولة والصبا، تحدث بشيء من الاقتضاب عن عمل والده، الذي كان تاجرًا للتحافيات، والذي كان له محل كبير، وان محله كان يقع في سوق باب السراي[١٧٢]، وأن عليه لافتة تحمل عنوان((محل الصباح لصاحبه خليل الحاج عمر)) وكان زميله التاجر يحيى عبدال[١٧٣].

وتحدث عن التجارة والتجار في بغداد التي كانت ولا تزال، قبلة هؤلاء للتبضع منها، بعدها مركزًا تجاريًا مهمًا جدًا في العراق، إذ كانت كل الأعمال التجارية تدار هناك، ومنها تتحول البضائع والأعمال التجارية الى المدن الرئيسة، ولاشك كانت الموصل من أهمها، ومنها كانت تتفرع الى المدن والقصبات المجاورة لها[١٧٤]، وكان كل ذلك في معرض حديثه عن الانسجام الاجتماعي الذي كان يسود العراق آنذاك بين الملل والطوائف، فذكر ذلك بقوله: كان والده يتبضع من((..كبار تجار الشيعة في الشورجة في بغداد فيتلقونه بالأحضان))، وكان يجاوره ((..تاجر مسيحي يدعى (يوسف حنا بحو) ويقابله محل تاجر يهودي يدعى (أبو يونه..))، وفي الاطار نفسه، تحدث عن وشائج وأواصر المحبة والوئام بين أهل الموصل وجيرانهم من الأكراد والاثوريين، وعن ذلك قال: كان ((..التجار الكرد والاشوريون الذين يتدفقون على محل أبي باستمرار قادمين من دهوك واربيل، فكانوا هم اكثر عددًا من بين المتبضعين من سوق والدي..))، وفي معرض حديثه هذا، ذكر أيضًا الصاغة، ولاسيما صاغة الفضة التي برع فيها اليهود والصابئة[١٧٥] في أسواق الموصل بخاصة، والعراق بعامة، وذكر الكب وهو عبارة عن سوق كبير أو علوة مفتوحة واسعة لبيع البطيخ، والشمزي (الرقي)، والخيار بأنواعه، وهو سوق موسمية تبدأ في بداية شهر حزيران وحتى أواخر شهر آب ثم تأخذ بالاضمحلال والزوال السريع في شهر أيلول، الذي يقع على ضفة نهر دجلة الشرقية في المنطقة المحصورة بين مقدمة الجسر على هذه الضفة والنهر وحديقة البلدية غربًا(مدخل مدينة الألعاب والشرطة النهرية) ونهر الخوصر شمالاً[١٧٦].

وذكر مهن عديدة كالبزاز (بيع الأقمشة) وذكر منهم جده لأمه(كان يقال له في الموصل سيده) محمد حسن البزاز، وخاله برهان البزاز، والخياط، ومنهم الحاج يعقوب الخياط، والمطهرجي (الختان)، والرواس (بائع رؤوس الغنم المطبوخة) أمثال الشيخ نذير الرواس، والعناز كآل العناز، والكبابجي (صانع الكباب)، امثال سيد بكر الكبابجي، صناعة الدوندرمة [المرطبات المثلجة (الأيس كريم)]،والباعة، كباعة المخلالات، والعرقسوس(السواس)،وباعة الخس، والجرزات[١٧٧]، والفندقة، عند ذكره لبعض الفنادق في الموصل وبغداد، والسينمات والمقاهي والمطاعم والعربجية (سواق العربات) والبستانيين وغيرهم.

فضلاً عن، أصحاب الوظائف والمكانة المرموقة من أمثال (المفتي)، ومنهم عالم الموصل الجليل حبيب افندي العبيدي[١٧٨]، والوزراء كصديق شنشل الذي كان والده تاجرًا، ولايزال من أبناء عمومته من يمتهن بها[١٧٩]، وعبد الجبار الجومرد، والاطباء كالطبيب استارجيان، والطبيب يوسف سرسم، وهو من عائلة مسيحية تشتهر

بالطب، والمحامين كفخري الخيرو، والعسكريين (ضباط جيش وشرطة) ومنهم العقيد سالم الجومرد، وابن عمه المقدم عبد الجواد الجومرد، وخط طويل من مدرسي ومعلمي الموصل، وفي مقدمتهم مدير مدرسة الوطن بشير الدليمي[١٨٠]، وغيهم من المهن التي مرّ على ذكرها في الأعم الأغلب، ذكرًا عرضيا، إلا أنها عكست مع ذلك، التنوع الاقتصادي في الموصل.

خَاتِمَةٌ

عكست النصوص الوارد ذكرها في المذكرات، طبيعة الحياة الاجتماعية، والألفة والإيثار والنخوة، كما عكست مدى اهتمام القائمين على التعليم على تحبيب التعليم والتعلم وتوسيع مداركهم الثقافية عبر استعراض الكتب والإصدارات الثقافية والعلمية، مع تأكيده على قاعدة أن يكون التعليم للتعلم وليس التعليم للنجاح ونيل الشهادة والتعيين، ما أدى إلى تخريج جيوش من الجهلة وأنصاف المتعلمين يتصارعون على المناصب والمغانم، أكثر من أن تكون منافستهم على التعلم والثقافة وتوسيع أفاق الفكر وتغذية العقول. ورصدت المذكرات الانفعالات وردود الأفعال السياسية في مدينة الموصل، وأثر ذلك على النخب، والحراك السياسي في المدينة، وتوجد في المذكرات في المدة موضوع البحث إضاءات عامة، في محاولة منه لبيان طبيعة أوضاع الموصل الاقتصادية أيضًا.

الاحالات المرجعية:

(١) لا بد من توجيه الشكر لطالب الدكتوراه تاريخ حديث محمود جاسم الذي تفضل مشكورا بإهدائي نسخة من هذه المذكرات.

(٢)عماد الدين خليل، **أشهد أن لا إله إلا أنت**، سيرة ذاتية، دار بن كثير،٢٠١٩، ص٨، وسأشير إليها لاحقا بـ(**المذكرات**..،)

(٣) هو الأستاذ والمفكر والروائي عماد الدين خليل آل طالب الطائي له العديد من المؤلفات المتنوعة والمختلفة، وهو أشهر من أن يُعرف.

(٤) **المذكرات** ..، ص ٥٩.

(٥) **المذكرات** ..، ص ٧٦-٧٧.

(٦) وهو الحي المكون من الدور المشيدة في القرية المحيطة به، وجرى التوسع العمراني حولها منذ خمسينيات القرن الماضي، واندثر اغلب هذه الدور بفعل توسيع الجامع في ثمانينيات القرن الماضي، إلا الأجزاء الشرقية والجنوبية الشرقية منها، وقد زرتها في عام ٢٠١٥، وهي أصلاً تقع على أطلال معبد أشوري، ويقال أن التل القابعة عليه القرية هو (تل التوبة لقوم النبي يونس(عليه السلام) المذكورين في القرآن)، أما الفيصلية فهي الحي المنشأ حديثا في عهد الملك فيصل الأول (١٩٢١-١٩٣٣م) ،والحي يشمل شارع خير الدين العمري وما جاورها من جامع نجيب الجادر الذي بنى عام ١٩٥٢م ، وما حوله من المنطقة التي كانت تسمى بئر البنات. للتفاصيل يُنظر: عبد الله محمد خضر، **التوسع العمراني لمدينة الموصل في القرن العشرين**، مركز دراسات الموصل، دار ابن الأثير، جامعة الموصل، الموصل، ص ٢٠١١. ص١١١-١١٧.

(٧) **كريكور استارجيان**، من مواليد مرعش سنة ١٨٨٠ ، دخل إعدادية حلب الأميركية، وأكمل دراسة الطب في إسطنبول وتخرج عام ١٩١٢ وعين طبيبًا في الموصل في احدى مستشفياتها حتى استقال من العمل الوظيفي مطلع عام ١٩١٩ ، وله مؤلفات بالعربية عن التاريخ والثقافة الأرمنية. واشتهر في الموصل بقصره المبني على الطراز الأرمني الروماني عام ١٩٣٥ على ارض مساحتها ٣٥٠٠ متر مربع، وكان الناس في الموصل يحسبون انه على الطراز الياباني أو الصيني استغرق بناؤه ١٠ أعوام، استضاف في قصره شخصيات بارزة منها شاه إيران رضا بهلوي، والسيد رشيد عالي الكيلاني، وبقي تراثًا شامخًا حتى أزيل عن الوجود قبل سنوات، وبنيت محله عمارة تعرف بالعمارة الأندلسية، توفي عام ١٩٨٠. إبراهيم خليل العلاف، **"الدكتور كريكور استراجيان وقصره في الموصل"**، منشور في موقع الحوار المتمدن-العدد: ٢٨١٧ - ٢٠٠٩ / ١١ / ١ - ٢٢:٥٩، على الرابط الاتي: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=190204

(٨) **المذكرات**..، ص ٩٥.

(٩) هو الجسر الأول على الطراز الحديث المشيد في العهد الملكي والمعروف بالجسر العتيق أو الجسر القديم ويعرف باللهجة المحلية المصلاوية (بالجسغ العتيق) هو جسر يربط بين الساحل الأيمن والأيسر لمدينة الموصل، شيد وبني في أوائل عام ١٩٣٣ في عهد الملك غازي وافتتح في عام ١٩٣٤ويربط بين منطقة النصر والميدان ويبلغ طوله نحو ٣٠٥ متر. للتفاصيل يُنظر: حسين سرمك حسن، **"زمان جديد الجسر العتيق"**، جريدة الزمان الدولية، العدد ٤٢٦٨، ٤ آب٢٠١٢.

(١٠) **المذكرات** ..، ص ٧٦-٧٧.

(١١) **المذكرات** ..، ص ٦٨ .
(١٢) **المذكرات**..، ص ٩٥-٩٦.
(١٣) **المذكرات** ..، ص ص٩٧-٩٩.
(١٤) هي حديقة عامة كبيرة تسمى (حديقة الشهداء) وأصلها ساحة كانت تتدرب فيها قطعات الجيش العثماني، تمتد لمسافات كبيرة كانت تضم القشلة المدنية والقشلة العسكرية، وهي نفسها اليوم تضم دار محافظ نينوى وبناية المتحف الحضاري وبناية المستشفى العسكري (سابقًا) وبلدية الموصل وبناية المكتبة المركزية العامة القديمة، والتي أصبحت مديرية الوسائل التعليمية. إبراهيم العلاف، "حديقة الشهداء في الموصل: تاريخ من الذكريات الجميلة"، منشور على صفحته في الفيس بوك على الرابط الاتي: https://www.facebook.com/ModernHistory.Ay/photos/a.148041661999646/663653780438429/?typ
(١٥) وهي لاتزال كذلك، إذا تزايد معدلات تساقط الأمطار في المدينة وحواليها، والسبب هو أن هذه المنطقة تحاذي وادي قديم تصب فيه أودية فرعية أخرى من داخل وخارج الموصل، ولأنها تكون اوطاء الأراضي بالقياس الى المناطق المجاورة فتجمع المياه فيها، وتحتاج الى وقت لكي تتمكن قنوات الصرف من تصريف المياه المتجمعة فيها، وكان المرحوم الفنان الموصلي حسن فاشل رحمه الله له مقاطع تلفزيونية عديدة حول غرق هذه المنطقة، وفشل كل الحلول لتداركها منذ العهد الملكي ولحد الآن.
(١٦) **المذكرات**، ص ٨٦-٨٧.
(١٧) جسر الحرية وهو الجسر المعروف بالجسر الثاني هو جسر يربط بين الساحل الأيمن والأيسر لمدينة الموصل، بوشر في إنشائه عام ١٩٥٥م وافتتحه الملك فيصل الثاني في ٢٨ نيسان ١٩٥٨م وسمي باسمه، ثم تم تغيرت تسميته إلى جسر الحرية بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ م. ويبلغ طوله ٢٧٠م، وعرضه ٩ أمتار. العبيدي، أزهر، الموصل أيام زمان، الموصل: دار ابن الأثير، ط٣، **الموصل**، ٢٠١٠، ص٣٣٤؛ سعيد الديوه جي، **بحث في تراث الموصل**، المؤسسة العامة للآثار والتراث، بغداد، ١٩٨٠. ص. ٧٢.
(١٨) **المذكرات**..، ص ٨٩؛ إبراهيم العلاف، "**شوارع الموصل ....وقصتها**"، مدونة الدكتور إبراهيم خليل المنشور في : السبت، ٢٨ أذار ٢٠١٥،على الرابط الاتي: http://wwwallafblogspotcom.blogspot.com/2015/03/blog-post_954.html
(١٩) **المذكرات** ..، ص ص٩٥-٩٨؛عبد الوهاب النعيمي، **مدينة الموصل إضاءات تراثية وثقافية**، مركز دراسات الموصل، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل ، ٢٠١٢، ص٢٧٤-٢٨٠ .
(٢٠) **المذكرات** ..، ص ٥٤؛٦٨؛٧٢-٧٣.
(٢١) **المذكرات** ..، ص ٦٧.
(٢٢) **المذكرات**..، ص ٤٦-٥٠، وصفحات أخرى.
(٢٣) هي واحد من أكبر الطرق الصوفية، والتي تنتسب إلى محمد بهاء الدين نقشبند واشتق اسمها منه، ومن ثَمَّ عرفت به، وهي الطريقة الوحيدة التي تدّعي تتبع السلسلة الروحية المباشرة مع نبي محمد (صلى الله عليه وسلم) عبر أبي بكر الصديق، وبذلك تكون تلك الطريقة مرتبطة بطريق غير مباشر بالأمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عن طريق الأمام جعفر الصادق (رضي الله عنه). للتفاصيل يُنظر: بديعة محمد عبد العال، **النقشبندية نشأتها وتطورها لدي الترك**، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٩، ص١١-٥٥.
(٢٤) **المذكرات**، ص٤٨.
(٢٥) للتفاصيل يُنظر: فرقد علي الجميل، "**صوم شهر رمضان في الموصل**"، في كتاب أزهر العبيدى (جمع وإعداد)، **موسوعة الموصل التراثية** المجلد الأول، مركز دراسات الموصل، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل، ٢٠٠٨،ص١٩٩-٢١٤؛ ازهر العبيدي، "**شهر رمضان في الموصل**"، في كتاب ازهر العبيدى (جمع وإعداد)، **موسوعة الموصل التراثية** المجلد الثاني، مركز دراسات الموصل، دار ابن الأثير للطباعة والنشر، جامعة الموصل، الموصل، ٢٠٠٨. ص٥٦٧-٥٧٠.
(٢٦) **المذكرات**، ص ٤٨.
(٢٧) **المذكرات** ...، ص ٥٧.
(٢٨) **المذكرات**..، ص ٥٧-٦٠.
(٢٩) للتفاصيل يُنظر: العبيدي، المصدر السابق، ص٣٠٤-٣٠٩؛" **سينمات الموصل بين الأمس واليوم**"، موقع المنصة نت، تاريخ النشر: ١٧اذار ٢٠١٨، على الرابط الاتي:- https://www.almenasa.net/2018/03/17/%D8%B3%D9%8A%D9%86%D9%85%D8%A7%D8%AA-/
(٣٠) **المذكرات** ..، ص ٥٨-٥٩ .
(٣١) إدارات المدارس تحجز صالات السينما لطلبتها من اجل التوعية والتعليم، ومن الأفلام التي كانت تعرض للطلبة "إلى أستاذي مع أطيب التمنيات" الذي عرض في سينما إشبيليه وتدور إحداث هذا الفلم حول معلم ينقل الى مدرسة طلابها مشاكسين جدا ويقابل المدرس مشاكل عديدة مع طلبته إلا أن صبره وحنكته تحول الطلبة المشاكسين إلى طلبة رائعين مهذبين حتى إنهم يحيون حفلة وداعية للأستاذ قبل أن يغادروا المدرسة، كما يذكر أن إحدى إدارات المدارس حجزت صالة سينما الأندلس ليشاهد طلبتها الفلم العربي الكبير (الرصاصة لاتزال في جيبي) لرفع الروح الوطنية للطلبة. سينمات الموصل..، المصدر نفسه.
(٣٢) **صحيفة المدى**، ٢٤ أب ٢٠١١/٠٠:٣٥:٠٧. النسخة الإلكترونية، على الرابط الأتي: https://almadapaper.net/view.php?cat=51723
(٣٣) **المذكرات**، ص٧٩.
(٣٤) نسبة إلى مكان دير مار كوركيس هو دير يتبع الكنيسة الكلدانية الكاثوليكية، وهو دير في ألقوش على بعد ٩ كم إلى الشمال من مركز مدينة الموصل، و ٨٠٠ م عن يمين الطريق المؤدي من الموصل إلى دهوك، في ١٦٨١ رمم الدير، وأعيد بناءه في عام ١٩٠٦. وبعد أن كان يجثم وحيدًا فوق رابية تطل على سهول خصبة وبساتين يرويها نهر دجلة، أخذت تمتد إليه في الآونة الأخيرة مكاسب العمران والازدهار، من جهتي الجنوب والغرب خاصة، بينما لا تزال التلول الأثرية والطبيعية تحميه من أخطار الضوضاء والصخب. موقع كنيسة مار كوركيس على الرابط التالي:
https://www.mesopotamiaheritage.org/ar/monuments/leglise-chaldeenne-mar-guorguis-de-mossoul-pour-memoire/
(٣٥) يقع دير مار ميخائيل بالقرب من نهر دجلة شمال غربي الموصل مسافة ٦ كم من مركز مدينة الموصل في نهاية حي ١٤ تموز الحالي

في منطقة عرفت لدى الموصليين بحاوي الكنيسة على رابية تطل على نهر دجلة في منطقة جميلة حيث تكثر البساتين والمزروعات والخضرة خاصة في فصل الربيع. يحمل الدير اسم دير مار ميخائيل (رفيق الملائكة). زهير ابراهيم رحيمو، **"من أديرة الموصل: دير مار ميخائيل رفيق الملائكة"**، مقال منشور على موقع سيريا بريس، ٢٢تشرين الثاني ٢٠٢٠ على الرابط التالي: https://syriacpress.com/ar/2020/11/22/%D9%85%D9%8-6

(٣٦) أو عيد الطواف الذي كان يقام سنويا في منطقة القوش يشارك فيه آلاف المسيحيين العراقيين وهم يحملون الشموع تكريمًا للسيدة العذراء في الاحتفال بعيد "الطواف"

(٣٧) **المذكرات**.،، ص٦٧.

(٣٨) إبراهيم خليل العلاف،" **قرى ابتلعتها مدينة الموصل**"، موقع مجلة الكاردينيا تم إنشاؤه بتاريخ ٦ كانون الثاني / يناير ٢٠١٨ ١٥:٠٣ على الرابط التالي:-https://www.algardenia.com/maqalat/33548-2018-01-06-15-03-58.html

(٣٩) بلدة يقصدها الناس من كل أنحاء العراق للاستجمام وللعلاج، وهي اليوم ناحية تابعة إداريًا إلى قضاء الموصل مركز محافظة نينوى، وتبعد نحو ٢٧ كم جنوب شرق الموصل، على ضفاف نهر دجلة، وشمال ناحية القيارة في العراق، اشتهرت بمياهها الكبريتية الحارة، مما أكسبها شهرة متميزة نظرًا لاستخداماتها العلاجية، فضلاً عن موقعها السياحي حتى إن اسمها اقترن بحماماتها الشهيرة، يقصدها الناس فيستحمون بها، من أجل العلاج من الأمراض الجلدية كالجرب والحكة والبثور والأكزيما. مها سعيد حميد، "**أثر العلاج بالمياه المعدنية في الموصل من خلال المؤلفات الجغرافية لياقوت الحموي**"، مجلة موصليات، مركز دراسات الموصل، جامعة الموصل، العدد٣٧، آذار ٢٠١٢م، ص ص.٦-٦٢.

(٤٠) للتفاصيل يُنظر: فرقد علي الجميل،" اصطياف الموصلين في حمام العليل"، في كتاب العبيدى، موسوعة الموصل التراثية، المصدر السابق، المجلد الأول، ص٥٩٩-٦١٢.

(٤١) **المذكرات** .،، ص٤٨-٤٩ .

(٤٢) للتفاصيل يُنظر: إبراهيم سليمان نادر، "**الملابس الشعبية الموصلية أيام زمان**"، العبيدي، موسوعة الموصل التراثية.،، المجلد الثاني، المصدر السابق ، ص٥٤١-٥٤٤.

(٤٣) **المذكرات** .،، ص ٤١-٤٢.

(٤٤) عروبة جميل محمود، "**من مظاهر الحياة الاجتماعية في الموصل في الجيل الماضي: الملابس والأزياء الموصلية**"، صحيفة المدى (بغداد)، ٥ شباط ٢٠١٥؛ ٥:٣٨:٣٤ PM النسخة الإلكترونية على الرابط الاتي: https://almadasupplements.com/print.php?cat=12063

(٤٥) السدارة العراقية هي قبعة يمكن طيها بشكل مسطح عند عدم ارتدائها، ارتبطت في العراق بالعسكريين والمدنيين على حد سواء. أراد الملك أن يجد لباسًا وطنيًا للرأس وأن يميز أهل العراق عن الجيران، وكان أول من يرتديها الملك فيصل الأول لتشجيع الناس على ارتدائها، ومنه سميت باسمه (الفيصلية) الذي هو الاسم الثاني للسدارة، ووزعها لأول مرة على الوزراء رستم حيدر، واستخدمت بشكل رئيس في المدن الكبرى، مثل بغداد والموصل. "ندوة نقاشية حول تاريخ السدارة البغدادية"، شبكة أخبار العراق، ٢٨ كانون الأول ٢٠١٤ - ١١:٥٤ ص، على الرابط الاتي: https://web.archive.org/web/20211220222752/http://aliraqnews.com/%D9%86%D8%AF%D9%88%D

(٤٦) **المذكرات** .،، ص٤٧.

(٤٧) محمود، المصدر نفسه؛ العبيدي، المصدر السابق، ص١٢٨-١٣٢.

(٤٨) للتفاصيل يُنظر: عبد الوهاب النعيمي، **"أكلات الموصل الشعبية"**، في العبيدي، موسوعة الموصل، **المجلد الأول**، المصدر السابق، ص١٤١-١٥٢.

(٤٩) ما إن تذكر أكلة (البامية) حتى تذكر بعدها كلمة العراقية، لتميز الشعب العراقي عن باقي الشعوب التي تطبخها، فهي أكلة حافظت على طقوسها وطرق إعدادها الفخمة بما تحويه من مواد أولية، وموسم طبخها، وطريقة تقديمها، وهي المعيار الذي يستند له الآخرون للحكم على شطارة ربة المنزل في الطبخ، فيقال إن من تعرف طبخ البامية هي (ست بيت) بامتياز. فهي تؤلف ظاهرة اجتماعية مهمة بالنسبة إلى غذائه وتشمل الدهن، اللحم، خضار البامية، الثوم، الطماطم، الحامض، كما تضم مقومات غذائية لاحقة أو اختيارية منها الملح، الماء، الفلفل، السكر، التمر هندي." البامية «العراقية».. أكلة الأغنياء والميسورين طبق يتربع على عرش المأكولات الفخمة"، صحيفة الشرق الأوسط، النسخة الإلكترونية، ١٧ تشرين الأول ٢٠١٥ م، على الرابط الاتي: https://aawsat.com/home/article/475786/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%A7%D9%85%D9%8A%D8

(٥٠) كان دكان محمد الكبابجي مثلاً الذي يقدم ماعون كباب مع طاسة من شربت الزبيب وعلى استعداد لتوصيله الى مقهى الساعة عند الطلب. سعر ماعون الكباب المكون من أربعة أسياخ (شياش) مع الخبز والبصل والكرافس هو ٤٠ فلسًا. البيت الآرامي العراقي، على الرابط الاتي:-https://iraqiaramichouse.yoo7.com/t45418-topic؛ بهنام سليم حبابه، "**حديث الذكريات عن أقدم شارع بالموصل... شارع نينوى**"، ملاحق جريدة المدى ،٢ تموز ٢٠١٧ ٠٥:٥٩:٣٩ PM ، على الرابط الاتي: https://www.almadasupplements.com/print.php?cat=18489

(٥١) الطرشي أو المخلل، هو من بين أشهر المقبّلات على موائد الطعام، حيث إن للمخلل فوائد من عدَّة نواحٍ، فهو يساعد على رفع القيمة الغذائية للخضار المخللة. أحمد يوسف ريان، "**كيفية عمل الطرشي العراقي**"، مقال منشور في موقع منظور، آخر تحديث: ٠٥:٣٨ ، ١٠ نيسان ٢٠١٦، على الرابط الاتي: https://mawdoo3.com/%D9%83%D9%8A%D9%81%D9%8A%D8%A9_%D8%B9%D9%85%D9%84_

(٥٢) القمر الدين أو عصير المشمش المحلى والمجفف، تشتهر به سوريا حيث أن أفضل أنواع القمر الدين تصنع هناك، يحصل عليه بعصر ثمرات المشمش ويضاف لها السكر وتغلى على النار ثم بعد ذلك تصب على ألواح خشبية مدهونة بزيت الزيتون وتتعرض للشمس إلى أن تجف تمامًا، ثم تقطع وتلف على شكل طبقات، يمكن تناول القمر الدين بأكله مباشرة أو بإذابة بعض القطع بالماء ليشرب كالشربات بعد تبريده. موقع المعرفة على الرابط الاتي: https://www.marefa.org/%D9%82%D9%85%D8%B1_%D

8%A7%D9%84%D8%AF%D9%8A%D9%86 ؛ **المذكرات**.،، ص ٤٠-٥٣.

(٥٣) **المذكرات** ..، ص ٥٥.

(٥٤) عرف الناmليت والسيفون في نهاية القرن التاسع عشر، ودخل العراق في بداية القرن العشرين وكان دخوله عن طريق الإنكليز، والناmليت هو عصير الليمون وقد تغير الى الناmليت بسبب عفوية اللغة، وهو مشروب بنكهات وألوان مختلفة منها الأحمر والأخضر والبرتقالي يصنع من الماء والسكر وروح الليمون والبرتقال وبعض من الألوان الصحية باستخدام ثاني أوكسيد الكربون مع بخار الماء، وبعد قيام الحكم الملكي، أقدمت شركة عبد علي الهندي في منتصف ثلاثينات القرن الماضي في موقعها في بغداد الكرخ في منطقة الفلاحات الشواكة بإنتاج الناmليت، فبدأ عصر المشروبات الغازية، وسميت بالمرطبات وكانت الدعايات لها منتشرة وهي تقول (أنها تنعش ولا ترعش) وهناك من يتغزل بها وينشد: (ناmليت بارد يخلي العجوز تطارد)، وكان في الموصل معمل فاضل وعلي وهم رواد أنتاج الناmليت، وكان يغطي إنتاجهم المنطقة الشمالية كلها. وفي منتصف أربعينيات القرن الماضي دخلت الكوكا كولا الى العراق، وفي بداية الخمسينات أقدم الصناعي عبد القادر أسماعيل وشركائه بأنشاء مصنع للكوكا في نهاية منطقة الشيخ عمر في بغداد، وبدأت الكوكا بالظهور في بغداد كصناعة بأيدي عراقية وبترخيص من الشركة الأم، وبعد مدة أنشأ معملا للبيبسي في الزعفرانية من قبل صناعين عراقيين ومن ضمنهم الصناعي أنور الجوهر. وفي الستينات ظهر المشن، وهو شراب البرتقال بالغاز، وكذلك دخلت الفانتا والسفن آب، والسبرايت والكندادراي والميراندا والسينالكو والكراش. للتفاصيل يُنظر: سرور ميرزا محمود،" رحلة ذكريات المشروبات الغازية والروحية في محطات حياتنا كما شاهدناها"، **مجلة الكاردينيا الإلكترونية**، منشور بتاريخ: ٢٩ تشرين الثاني٢٠١٢/ ١٠:٠٢، على الرابط التالي: -https://www.algardenia.com/2014-04-04-19-52-20/menouats/1833-2012-11-29-20-01-06.html ؛ **المذكرات**.،، ص ٧٣ .

(٥٥) في اللغة العربية هو الوعاء أو الجراب أو القفة الكبيرة وهناك من يرجع هذه الكلمة الى اليونانية والكلمة اليونانية الأصلية تفيد بان الزنبيل هو الشيء المضفور، ولعلها كانت مصنوعة من الحبال لتتحمل ثقل رجل، وتاريخ هذه الصناعة يُظهر أنواعًا مختلفة من السلال الصغيرة والكبيرة المصنوعة من ليف النخل أو سعفه ، وهو صفة ملازمة لصورة السوق أيام زمان واستمر الزمبيل أو الزنبيل حتى نهاية فترة السبعينات من القرن الماضي، وكنا نشاهد الناس تحمل الزنابيل، وقد ملأها بمختلف الحاجيات ولا يكاد يقدر البعض على حمله من خضراوات وفواكه ومؤن ولحوم، واعطى الزمبيل صورة جميلة في تلك الفترة من الزمن أيام الخير والبركة، وتشتهر بصناعة الزنابيل هي بعقوبة وكربلاء والبصرة وفي بغداد أيضًا وخصوصًا محلة الكريعات.

(٥٦) احتقان يصيب الوجه خاصة أو الأطراف مصحوباً بألم شديد ولمعان في موضع الإصابة، (المخبث Drossy) وهو من الأمراض الأمينية غير الخبيثة، ويعرف أيضًا بداء الحمراء الذي يظهر على شكل دمامل أو دملة واحدة تصيب جزء من الجسد فتغدو حمراء منتفخة، وتؤلم من تصيبه اشد الإيلام. جمعة كنجي، **"العلاج الديني للأمراض لدى اليزيدية"**، الحوار المتمدن-العدد: ٢٦٦٩ – ٦ حزيران٢٠٠٩ - ٣٤:٠٧، على الرابط الأتي : https://www.ahewar.org/debat/show.art.a sp?aid=174213؛ **("الطب الشعبي في الموصل منذ أواخر العهد العثماني وحتى سنة ١٩٥٨م"**، موقع مركز دراسات الموصل على الرابط الاتي: https://www.uomosul.edu.iq/news/ar/mosulStudiesCenter/1130

(٥٧) يعتمد هذا الطب على الرقية والتعاويذ والأحجبة يعني علاج المريض روحيا (مع روحه وليس جسده) فقد اتخذت الرقية الطابع الديني، وذلك باستعمال الآيات القرآنية (آيات القرآن الكريم) والأدعية المأثورة عن النبي (ﷺ) علاجًا وشفاء للمريض.

(٥٨) اعتمدت بعض البيوتات الدينية الرقية لعلاج بعض الأمراض، منهم بيت سيد توحي في محلة المشاهدة بالموصل، والذين تخصصوا بمعالجة ما يسميه أهل الموصل (المخبث)، وبرز من أل سيد توحي: السيد غانم، والآن الحاج يونس والحاج محروس وأولادهم. إبراهيم العلاف، **"أسر موصلية اشتهرت بالتطبيب"**، الأربعاء، ٢٣ أكتوبر ٢٠١٩، مدونة أ.د. إبراهيم العلاف، على الرابط الاتي: (http://wwwallafblogspotcom.blogspot.com/2019/10/)

(٥٩) **المذكرات**..، ص٤٤.

(٦٠) **جدري الماء** (الحُماق chickenpox) هو عدوى شديدة السراية بالفَيروس النُّطَاقِيّ الحُماقِيّ، يسبب طفحًا مميزًا يُسبّب الحكة، ويتألف من بقع صغيرة، بارزة، مُتنفِّطة أو متقشِّرة. موقع MSD وأدلّة MSD الإرشادية على الرابط التالي : https://www.msdmanuals.com/ar/home/%D8%AD%D8%A7%D9%84%D8%AA

(٦١) الشرى أو ما يعرف بالأرتيكاريا، هو رد فعل تحسسي للجسم اتجاه دواء معين، أو طعام أو غيره، وفي أغلب الحالات يظهر على هيئة كدمات وردية اللون أو حمراء أو حبوب حساسية تسبب الحكة. يعد الشرى مرض شائع، حيث يعاني منه نحو ١٠-٢٠% من المجتمع أثناء مدة حياتهم، ويجدر الذكر أيضًا أن النساء هم الأكثر عرضة للإصابة بالشرى. موقع مصطلحات طبية على الرابط الأتي: https://altibbi.com/%D9%85%D8%B5%D8%B7%D9%84(%D8%AD%D8%A7%D8%AA-

(٦٢) الحصر النفسي والصمت، أو اضطراب القلق العام، الحصر النفسي هو معاناة تصيب النفس والجسد على حد سواء ويكون فيه الألم جسديًا ومعنويًا ومهمًا كان شكله، ينم الحصر النفسي دائماً عن شيء لا نتكلّم عنه ولا نستطيع ونريد تجاهله وله علاقة بالزمن حتمًا، ومن الشائع أن يُصاب المرء بعدد من هذه الاضطرابات في الوقت نفسه، ومن الأمثلة الأخرى على اضطرابات القلق يمكن ذكر: القلق الاجتماعي أو متلازمة الهلع أو الرُهابات. نقلاً عن موقع مهندسي الطبي على الرابط الأتي: https://mind.se/ar/%D8%AD%D9%82%D8%A7%D8%A6%D9%82/%D8%AD%D9%82%D8%A))

(٦٣) **المذكرات**..، ص ٤٤.

(٦٤) سادت في عقد الثلاثينيات من القرن الماضي في الموصل ظاهرة اندفاع الشباب لارتياد المراقص ودور بائعات الهوى وعلى

المسكرات على نحو متزايد، ففسدت الأخلاق وكثرة الأمراض الزهرية بمرور الأيام بشكل مخيف فمثلاً في شهر تموز ١٩٣٨ عولج بمستشفى الزهري بالموصل (١٣٩٦) مصاباً، وسجل في الشهر نفسه (٥٦) مصاباً بالسيلان. انظر: **جريدة الرقيب**، العدد ٦٠، الموصل، ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٨.

(٦٥) للتفاصيل يُنظر: نادية مسعود شريف الجراح، **الخدمات الصحية في الموصل في العهد الملكي ١٩٢١-١٩٥٨**، دراسة تاريخية، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠١٠.

(٦٦) **المذكرات** ....، ص٣٩.

(٦٧) **المذكرات** ..، ص٤٥.

(٦٨) كشارع الحمرة في بيروت، وشارع محمد علي في القاهرة، وشارع المرجة في دمشق. للتفاصيل يُنظر: النعيمي، **مدينة الموصل إضاءات تراثية**، ص٢٧٤-٢٨٠.

(٦٩) مشاهدات خاصة بالباحث؛ إبراهيم خليل العلاف، **"شارع حلب في الموصل"**، مدونة الدكتور إبراهيم العلاف، منشور بتاريخ ١٧ تشرين الثاني ٢٠١٧ على الرابط الاتي: http://wwwallafblogspotcom.blogspot.com/2017/11/blog-post_44.html

(٧٠) ولحد الآن هناك شواهد عديدة عن ارتياد الصبية من كلا الجنسين واستخدامهم في مثل تلك الأماكن في العراق، وقبل أشهر شهدت مدينة أربيل ضجة إعلامية عن إقدام طفل على نثر النقود على رأس احدى الراقصات.

(٧١) لم أعثر على اسم له، وهو يقع آنذاك فوق الدكاكين بالقرب من قهوة ثامر (حانوت الشرطة)، ودكان محمد علي التتنجي، بموازاة الباب الكبير لعلوة باب الطوب التي تباع فيها الحنطة والشعير، بالقرب من دائرة البريد القديم، حيث الملهى الذي حوّل عام ١٩٤٧م إلى مقهى يديره سهيل أبو نجم، ويتكون من جمالون من الصفيح (شتوي) وساحة مكشوفة صيفية، ولم يسعفني أحد في معرفة اسم الملهى. أزهر العبيدي، **"ساحة باب السراي في القرن العشرين"**، موقع بيت الموصل منشور في ٣٠ تشرين الاول٢٠١٣ على الرابط الاتي: https://www.baytalmosul.com/157516041575158715781-5751584-1571158616071585-

(٧٢) **المذكرات**..

(٧٣) للتفاصيل عن الدور الموصلية، وأنواعها، ومساحاتها، وطرزها يُنظر: سعيد الديوه جي، **"البيت الموصلي"**، في العبيدي، موسوعة الموصل التراثية..، المجلد الثاني، ص ١٨٧-٢١٤.

(٧٤) نسبة إلى الشيخ أبو العلاء المدفون في المسجد المعروف باسمه، وهي محلة من محلات مدينة الموصل القديمة ، تقع إلى الشمال من محلة الإمام عون الدين، حاليا تشتهر بكثرة المحلات التجارية، والتي تقع بشكل خاص على جانبي شارع خالد بن الوليد الذي يمر نصفه الغربي من الحي. للتفاصيل يُنظر: هاشم خضير الجنابي، **التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة: دراسة في جغرافية المدن**، جامعة الموصل، ١٩٨٢، ص ١٠٠.

(٧٥) السوق الصغير (سوق الصغيّغ): نسبة إلى أحد أسواق المدينة غرب شارع ألنجفي، وسمي بالصغير لتمييزه عن سوق الموصل الكبير(سوق باب السراي)، وجامع خنجر خشب (التوكندي) وهو من مساجد الموصل التاريخية الأثرية، ويقع في محلة السوق الصغير، وهو جامع صغير جددت عمارته في أواخر القرن الحادي عشر للهجرة من لدن الحاج أحمد بن عبدو في عام ١٦٧٤م. للتفاصيل يُنظر: هاشم خضير الجنابي، **التركيب الداخلي لمدينة الموصل القديمة: دراسة في جغرافية المدن**، جامعة الموصل، ١٩٨٢، ص ٨٠.

(٧٦) السرداب وجمعه سراديب، كان البناء الموصلي يعتمد اعتمادًا كليًا عليه في التصميم المعد للبيت بحيث لا يؤثر على البناء في الطابق الأول إلا بالحدود التي تخدمه وهو في الوقت نفسه إجراء ناجح لمقاومة تأثير (الحوش) ويمتد الى بعض الأجنحة لكي يرفع مستواها عن مستوى الحوش ولاتساعه يقام في وسطه مجموعة من الدعائم تعلوها أقواس نصف دائرية مدببة من المرمر، ويتم تسقيف هذه الأقواس والدعائم وجعلها عقدا لتوفر بذلك الارتفاع المطلوب لهذا السرداب ويكون سطح (الحوش) أو البناء الذي فوقه. عبد الجبار محمد جرجيس، **"السرداب الموصلي القديم"**، موقع شبكة الموصل الثقافية، الأحد ٢٢ حزيران - ٨:٤٢،على الرابط الاتي: https://shiaatalmosel.yoo7.com/t2432-topic

(٧٧) **المذكرات** ..، ص ٤٥.

(٧٨) هي محلة من محلات مدينة الموصل القديمة تقع على الجانب الغربي لنهر دجلة إلى الشمال من محلة الشيخ عمر، وهي من المحلات الصغيرة نسبيًا، وهي نسبة إلى جامع خزام الذي يعود تأريخ بنائه إلى عام ٩٨٥ هـ/١٥٧٦م، وسمي الجامع بهذا الاسم نسبة إلى الشيخ محمد خزام الثاني بن نور الدين الصيادي الرفاعي، حيث إنهُ نزل في مدينة الموصل شاباً وكان ذا ثروة وجاه وتقوى، وبنى الجامع وأنفق عليهِ وبعد وفاتهِ دفن فيهِ. الجنابي، المصدر السابق، ص٩٨.

(٧٩) للتفاصيل عن هذه الصناعة وأنواع المرمر واستعمالاته، يُنظر: اسحق عيسكو، **"صناعة الرخام في الموصل"**، في كتاب العبيدى، موسوعة الموصل، المجلد الاول،٢٧٧-٣٠٠.

(٨٠) في بعض البيوت يكون داخل السرداب (رهرة) أو أكثر من رهرة، والبعض الآخر يتخذ رهرة قليل الانخفاض يسمونه (نيم سرداب) أي نصف سرداب يقيلون فيه في الصيف من شدة الحرارة، وإذا اشتد الحر في موسم الصيف فإن الأهالي يهرعون إلى السرداب المخفض. عبد الجبار محمد جرجيس، **"السرداب الموصلي القديم"**، موقع شبكة الموصل الثقافية، الأحد ٢٢حزيران - ٨:٤٢، على الرابط الاتي: https://shiaatalmosel.yoo7.com/t2432-topic

(٨١) **المذكرات**..

(٨٢) **"الشتـاء بين جمر المنقلة ونـار المدفأة"**، صحيفة المدى على الرابط الاتي:https://almadapaper.net/sub/12-557/p11.htm

(٨٣) **المذكرات** ..، ص٥٥.

(٨٤) هناك مَنْ يقول أن أول تاريخ عرف به أهل الموصل هو عام ١٩٢٧ عندما قرأوا خبرا عنه في إحدى الصحف الموصلية. يُنظر: الجميل، صوم شهر رمضان، المصدر السابق، ص٢٠٦؛ ويعد يوم ٢٢ آذار ١٩٣٢ هو أول يوم بدأ البث الإذاعي في العراق، وقد سمعت الجماهير في الساعة التاسعة الكلمات التي بثها فائق شاكر مدير البريد والبرق العام وكان الهدف من ذلك تجربة آلات البث، الذي سمع في أنحاء متفرقة من العراق، وقام الملك غازي بأنشاء إذاعة خاصة به في مطلع عام ١٩٣٦، التي تُعَدّ أول إذاعة لاسلكية، تبث من القصر الملكي (قصر الزهور)، لذا سميت إذاعة الزهور، وفي مساء يوم

الأربعاء الأول من تموز عام ١٩٣٦ ترك الكثير من سكان بغداد بيوتهم وتجمهروا في الساحات التي نصبت فيها أجهزة الراديو للاستماع والاطلاع على هذا الجهاز العجيب، وهو يتحدث أول مرة بصوت عراقي ،بعضهم لم يكن مصدقاً أن هذا الصندوق الخشبي الأنيق، الذي يحتوي على بضعة أزرار عاجية ولوحة زجاجية مستطيلة تشع بلون أخضر باهت يتحرك فيها مؤشر أحمر نحيف يمكن أن ينطق، ويغني بمجرد تحريك هذا المؤشر فيأتيك بأخبار الدنيا، يمكن أن يحدد البث الرسمي لإذاعة بغداد يعود ليوم ٧تموز١٩٣٦، وكانت عملية البث من دار الإذاعة العراقية غير منتظمة في سنواتها الأولى، وكانت تبث يومين في الأسبوع اعتبارًا من تموز ١٩٣٦ واستمرت على ذلك حتى توقف البث في ١٦ أيلول ١٩٣٦، وأُعيد البث في ٢٨ كانون الأول ١٩٣٧، وأصبح ثلاث مرات في الأسبوع وبمعدل ثلاث ساعات ونصف في كل مرة واستمر هذا النمط من البث حتى نهاية شهر تشرين الثاني ١٩٣٧ ، وازداد البث بعد ذلك اربع مرات في الأسبوع، وفي الأول من آب ١٩٣٨ بدأت الإذاعة بثها اليومي. للتفاصيل يُنظر: أحمد الدباغ، "**الإذاعة العراقية.. تاريخ ورواد وحكايات من التألق التاريخي**"، موقع نون بوست نشرت بتاريخ: ١٦تشرين الثاني٢٠١٩ على الرابط الاتي: https://www.noonpost.com/content/34908

(٨٥) هاشم الملاح، **مذكرات الدكتور هاشم الملاح، في الثمانين أروي قصة حياتي**، مطبعة كوردمان، دهوك، ٢٠٢٢، ص٢٥-٤٧.

(٨٦) **المذكرات** ..، ص ٤٩.

(٨٧) **المذكرات**..، ص ٥٢.

(٨٨) **المذكرات** ..،ص٤٨.

(٨٩) **المذكرات** ..، ص ٣٩-٤٠.

(٩٠) **المذكرات** .، ص ٨٤.

(٩١) **المذكرات**..

(٩٢) **المذكرات** ..، ص٤٥. وانا من الناس الذين شهدوا حالات لمثل هذه الحكايات، إذ كانت عمتي الكبرى تسكن دارًا في محلة حضيرة السادة، فيها سرداب عميق مظلم رائحة الرطوبة والعفونة تعج بالمكان، وكان عمتي وزوجها كثيرا ما تترك إنارة السرداب والحمام الوحيدة ليلاً، وكانوا يؤكدون أن هناك جان صالح يقوم يغتسل ويتوضأ في الليل وان محله السرداب، الذي كانت عمتي وزوجها نادرا ما تنزل إليه مع انهما قد وضعا فيه بعض المتاع القديم، وكذا الحال مع بيت جدي عبد الله الذي ولدت فيه في محلة باب المسجد، والذي كان يحوي سردابين أغلق أحدهما نهائيًا للأسباب نفسها.

(٩٣) **المذكرات**..، ص٤٥.

(٩٤) **المذكرات** ..، ص ٤٥؛٥٧-٥٨-٥٩.

(٩٥) للتفاصيل عنها واستعدادات أهل الموصل لها يُنظر: عبد الباري عبد الرزاق النجم، "**الختان في الموصل**"، في كتاب العبيدي، موسوعة الموصل، المجلد الأول، ص ٥١٣-٥٢٤.

(٩٦) هناك من يقول اصلها عربي، والبعض الأخر يقولان أصلها تركي، فهذه الاهزوجة يستعمله الموصليون في ليلة الحنة وليلة الدخلة وفي يوم ختان الأولاد الذي نسميه نحن في الموصل (الطهوغ) أو الطهور، وصيغته: هي أن يقف من يمتلك صوتاً جهوريًا ويلوح بيده، وبأعلى صوته يقول (وردحاق صاق ناصي)، ويردد الموجودون وراءه (هي)، وبصوت أعلى من صوته وبشكل جماعي. للتفاصيل يُنظر: إبراهيم خليل العلاف، "**وردحاق صاق ناصي... ورد الحق وصاغ النصيب**"، مدونة الدكتور إبراهيم خليل العلاف، منشور بتاريخ الثلاثاء، ٢٤ أيلول/ سبتمبر ٢٠١٩ على الرابط التالي: http://wwwallafblogspotcom.blogspot.com/2019/09/blog-post_24.html.

(٩٧) **المذكرات**..، ص٦٩؛٧٤-٧٥.

(٩٨) للتفاصيل يُنظر: مثري العاني: "**ألعاب التسلية عند الأطفال**"، القسم الأول، في كتاب العبيدي، موسوعة الموصل، المجلد الأول، ص١٢٩-١٤٠.

(٩٩) للتفاصيل يُنظر: مثري العاني: "**ألعاب التسلية عند الأطفال**"، القسم الثاني، في كتاب العبيدي، موسوعة الموصل، المجلد الأول، ص٣٠١-٣١٢.

(١٠٠) للتفاصيل يُنظر: **المذكرات**..، ص٧٩ وصفحات أخرى.

(١٠١) للمزيد عن هذه وغيرها يُنظر: مثري العاني: "**ألعاب التسلية عند الأطفال**"، القسم الثاني، في كتاب العبيدي، موسوعة الموصل، المجلد الأول، ص٣٠١-٣١٢.

(١٠٢) **المذكرات**..، ص٤٢-٤٣.

(١٠٣) **المذكرات**..، ص٧٨.

(١٠٤) **المذكرات**...، ص٦.

(١٠٥) **المذكرات** ...، ص٦-٧.

(١٠٦) أنا من مواليد ١٩٦٣ وعلى الرغم من الفارق الزمني بينه وبين ٢٣ سنة، إلا أنى شهدت وتأثرت بما شهد وتأثر به الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل.

(١٠٧) بموجب القانون تحددت الدراسة في المدارس الابتدائية ست سنوات، والتعليم مجاني في المدارس الابتدائية والتسجيل فها بالسنة السادسة من العمر، وتمنح شهادة الدراسة الابتدائية بعد اجتياز الامتحانات العامة لوزارة المعارف، أما المدارس الثانوية فمدتها خمس سنوات، الأعوام الثلاث الأولى منها للثقافة العامة (الدراسة المتوسطة) وخصصت السنتان الأخيرتان للتخصص في الدارسات العلمية والأدبية، سميت (الدراسة الثانوية)، وتمنح الشهادة للمتخرج من الدراسة المتوسطة والثانوية من لدن وزارة المعارف بعد اجتياز الامتحانات العامة. إبراهيم خليل أحمد، تطور التعليم الوطني في العراق (١٨٦٩ – ١٩٣٢)، البصرة، ١٩٨٢، ص٢٧٣- ٢٧٤؛ جمال أسد مزعل ، "التربية والتعليم"، موسوعة الموصل الحضارية، المجلد ٥، جامعة الموصل، ١٩٩٢، ص٤٩٢.

(١٠٨) **المذكرات**..، ص٥٩ -٦١.

(١٠٩) **المذكرات**..، ص ٦٤ .

(١١٠) ما يُعرف بالتعلم الشرطي أو (الاشتراط) وهو يتلخص في ارتباط مثير طبيعي بمثير اصطناعي جديد (أي أنه غير طبيعي) يخلع على المثير الصناعي قوة المثير الطبيعي فاذا به أصبح قادرًا على إثارة السلوك، وهي نظرية قدمها العالم الفيسيولوجي الروسي (إيفان بافلوف) في عام ١٩٢٧م في كتابه ((الأفعال المنعكسة الشرطية)) التي تقوم على القاعدة التي قدمها والتي تقول: يعتبر ((الاقتران الزمني)) هو القانون الوحيد المسؤول عن تكوين العلاقة الشرطية. وقد صاغه في القانون التالي ((يزيد اقتران المثير الشرطي مع المثير الطبيعي (المثير الأصلي) من قوة

المثير الشرطي لاستدعاء استجابة المثير الأصلي)). للمزيد يُنظر: سيد محمد غنيم، **سيكولوجية الشخصية**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨؛ جيروم برونر، **سيكولوجية المعرفة**، ترجمة بابيتسكي، دار التقدم، موسكو ١٩٧٧.

(١١١) **المذكرات**..، ص. ٤٠-٤١.

(١١٢) **جُرجي حبيب زيدان** ولد ١٤ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٦١م وتوفي في ٢١ تموز/ يوليو ١٩١٤م، وهو أديب وروائي ومؤرخ وصحفي لبناني، أجاد بالكتابة والتأليف باللغة العربية، واللغة العبرية والسريانية والفرنسية والإنجليزية، أصدر مجلة الهلال التي كان يقوم بتحريرها بنفسه في عام ١٨٩٢م، له ٣٩ كتبًا ورواية منها: كتاب تاريخ التمدن الإسلامي وتاريخ آداب اللغة العربية وتراجم مشاهير الشرق وغيرها، فضلاً عن اشتهاره برواياته التاريخية المترعة بالدس والشعوبية مثل: شجرة الدر وفتاة القيروان والمملوك الشارد، وأرمانوسة المصرية، وعذراء قريش وغيرها، وهو من أوائل المفكرين الذين ساعدوا في صياغة نظرية القومية العربية. للتفاصيل يُنظر وقفية زيدان على الرابط الأتي:
https://zaidanfoundation.com/images/Autobiograhy%20of%20Jurji%20Zaidan.pd

(١١٣) **المذكرات**..، ص ٥٥ .

(١١٤) هي مجلة أطفال عراقية تصدر عن دار ثقافة الأطفال التابعة لوزارة الثقافة العراقية شهريًا، صدرت لأول مرة عام ١٩٦٩، توجه المجلة إلى الأطفال من سن السابعة حتى السابعة عشر، تهتم المجلة بشكل ملحوظ بالقصص المصورة المؤلفة، والمرسومة من كتاب ورسامين عراقيين، كما اصطبغت باللهجة العامية العراقية المحلية، تهتم المجلة بالشعر وبالعلم، وتطبيقات التكنولوجيا، مساهمات القراء، تضم تنوعات عديدة.

(١١٥) **مجلة المزمار** هي مجلة عراقية أسبوعية تصدر عن وزارة الثقافة والإعلام، دار ثقافة الطفل. صدر العدد الأول منها عام ١٩٦٥م. توجه المجلة إلى الأطفال من سن السابعة حتى السابعة عشر دون الإشارة إلى ذلك، تحوي المجلة على مقدمة يختلف عنوانها حسب رئيس التحرير، وتُنشر تحت عنوان: (قف)، يصل عدد صفحات الكرتون في المجلة إلى ٢٤ صفحة ملونة. كما تنشر القصص الأدبية والشعر إضافةً إلى الثقافة السينمائية والتشكيلية، وتنشر صورًا للقراء.

(١١٦) **المذكرات**..، ص٩٩-١٠٠.

(١١٧) **المذكرات**، ص٨١.

(١١٨) حول هذا يُنظر: هيثم أكرم غني سليمان الملاح، **التوجهات الاجتماعية والثقافية في مناهج الوزارات العراقية (١٩٤٥-١٩٥٨)**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٢٣؛ وائل علي أحمد، النحاس، **"التعليم في الموصل ١٩٢١- ١٩٣٢ من خلال الصحافة الموصلية"**، مجلة آداب الرافدين، العدد ٣٣، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٠، ص١٦٣.

(١١٩) تأسست أول مدرسة إعدادية في الموصل عام ١٨٩٥ باسم (موصل ا عدادي مكتبي)، وقد شغلت في بداية الأمر بناية مستأجرة تقع في محلة باب لكش كانت تداوم فيها المدرسة الرشدية. وكان عدد طلاب الإعدادية عام ١٨٩٨ لا يتجاوز الـ (٣٤) طالبًا، وفي عام١٩٠٧ أصبح عددهم (٢٤٢)، وتُعَدّ الإعدادية الشرقية في الموصل أقدم مدرسة نظامية تأسست في المدينة ببناية ثابتة ما زالت قائمة حتى الآن، وسميت بهذا الاسم نسبة إلى موقعها في شرق مدينة الموصل على مقربة من نهر دجلة. تأسست باسم إعدادية الموصل للبنين ثم تحول اسمها لاحقًا إلى الإعدادية الشرقية ١٩٠٨، واستمرت في عطائها كل هذه المدة من البناية الأثرية نفسها التي بنيت وفق الطراز المعماري القديم في عهد الدولة العثمانية، وتقع المدرسة على مساحة تقارب الثلاثة آلاف متر مربع، وشهدت عمليات توسعة كثيرة، إذ أصبح عدد بناياتها تسعًا بواقع ٥٣ غرفة وصفًا، إضافة إلى المسجد والمسرح وملعب للنشاطات الرياضية. إبراهيم خليل أحمد العلاف، **"إعدادية الموصل للبنين ١٩٠٨-١٩٥٤: فصل من تاريخ التربية والعليم في العراق المعاصر"**، بحث منشور في مجلة دراسات موصلية، مركز دراسات الموصل، العدد العاشر، تشرين الأول_٢٠٠٥، ص٢١-٢٣.

(١٢٠) أحمد، تطور التعليم الوطني، ص٢٧٣ ، ٢٧٤.

(١٢١) **المذكرات**..، ص ٨٨-٨٩ .

(١٢٢) كان ولا يزال من أهم شوارع مدينة الموصل القديمة منذ إنشائه في زمن الوالي سليمان باشا نظيف ما بين عامي ١٩٠٧-١٩٠٨، وهناك من يقول عام ١٩١٣م ، فهو يربط بين سوق الشعارين وشارع نينوى في الشمال، وباب الطوب وباب السراي في الجنوب، سمّي الشارع بهذا الاسم نسبة إلى أسرة (النجفي) أو بالأحرى (النجيفي) التي سكنت منطقة الشارع قبل فتحه واستقطاع القسم الأكبر من بيتهم البالغة مساحته (١٢٠٠) متر مربّع ضمنه، أما تسمية أسرة (النجيفي) بهذا الاسم فقد أشتقّ من تسمية قرى (النجيفات) في الشام التي قدمت منها الأسرة صحبة جمع من قبيلة بني خالد المخزومية عام ١٦٣٨م مع السلطان مراد الرابع، وصحّفت لفظة (النجيفي) إلى (النجفي) لكثرة تداولها وصعوبة لفظ الأولى. أزهر العبيدي، "شارع غازي... الشارع العتيق"، مجلة التراث الشعبي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، العدد الأول، سنة ٢٠٠٢، ص١٠٨؛ النعيمي، مدينة الموصل..، ٢٦١-٢٦٦.

(١٢٣) النعيمي، مدينة الموصل..، ص٢٦١ -٢٦٦.

(١٢٤) المصدر نفسه.

(١٢٥) **المذكرات**..، ص ٩٩-١٠١.

(١٢٦) **المذكرات**..، ص ١٠٢-١٠٣.

(١٢٧) شهدت الموصل في نهاية شهر نيسان ٢٠٢٣ محولات جماهيرية ثقافية لأحياء شارع الثقافة شارع النجفي.

(١٢٨) لاحظ تفاصيل لتجربة في: **المذكرات**..، ص ٦٣.

(١٢٩) وهي عبارة عن نصفي كرة نحاسية كبيرة لها حواف وتوضع بين حوافها حلقة مطاطية لمنع التسريب، عندما يتم تفريغ الهواء من داخلها، مما يصعب فصل نصفي الكرة عن بعضهما حتى باستخدام ستة عشر حصانًا ثمانية من كل جهة، العالم أوتو فون غيريكه هو من قام بهذه التجربة في مدينة ماغديبورغ في ألمانيا في عام ١٦٥٧ ، وقد حسب أوتو القوة المطلوبة لفصل نصفي الكرة عن بعضهما وهي ٢٧٠٠ باوند ، الطريف أن أوتو وضع منفذ (بلف) صغير في احدي نصفي الكرة، وعند فتحه يتسرب الهواء داخل الكرة مرة أخرى، فتنفصل نصفي الكرة من تلقاء نفسها بسهولة شديدة، وذلك بسبب تعادل الضغط داخل وخارج الكرة.

Edwin Herbert Hall, Joseph Young Bergen, A Text-book of Physics, Largely Experimental: Including the Harvard College, 3rd Ed, Henry Holt & Co, New York,1903,p52.

(١٣٠) للاطلاع على التجربة يُنظر: **المذكرات**.،، ص٨٣.

(١٣١) الملاح، المصدر السابق، ص٣٢-٤٦.

(١٣٢) **المذكرات**، ص٨٦

(١٣٣) بادر في الأول من كانون الأول ١٩٣٥ ، عدد من الشباب بتأسيس نادي الجزيرة ،وقد اختار المتقدمون اسم نادي الجزيرة اعتزازا منهم بإقليم الجزيرة الذي تقع الموصل ضمنه، والذي قدر له أن يستمر في نشاطه قرابة أربعين عاما، وتؤكد الوثائق التاريخية أن صاحبي فكرة إنشاء النادي هما عبد الجبار الجومرد، ونجم الدين جليميران وغيرهم، وقد شعرا بالحاجة إلى إنشائه ليكون ملتقى لشباب المدينة، ومثقفيها يجدون فيه مجالهم الرحب في ممارسة نشاطاتهم الثقافية والاجتماعية والرياضية، بدلا من قضاء أوقات فراغهم في المقاهي والمجالس الخاصة، أسهم النادي في النشاطات الوطنية والقومية التي شهدتها الموصل منذ الثلاثينات وكان له دور كبير في بث الفكر القومي العربي وترصين الحالة الوطنية لدى الشباب الموصلي .للتفاصيل يُنظر: إبراهيم خليل العلاف، **"نادي الجزيرة في الموصل ..استذكار تاريخي"**، الحوار المتمدن، العدد ٢٨٢٩، ١٤ أيلول ٢٠٠٩، على الرابط التالي: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=191613

(١٣٤) **بعشيقة**: هي ناحية تابعة لقضاء الموصل، وتقع شمال شرق المدينة على بعد ١٢ كم منها في سهل نينوى، وتعد من المناطق الزراعية، وتشتهر بزراعة الزيتون، ومندان على بعد ٣٢ كم شمال شرق الموصل. في بردرش، وهي منطقة جميلة جدًا، فيها التقاء السهول مع نهر الخازر.

(١٣٥) **المذكرات**، ص٨٦

(١٣٦) **المذكرات**.،، ص ٦٠.

(١٣٧) **المذكرات**.،، ص٦٢-٦٣.

(١٣٨) **المذكرات**.،، ص٦٠-٦١.

(١٣٩) لاحظ الصفحات ٨٠-٨٦ من **المذكرات** وهي حافلة بنماذج مما ذكر.

(١٤٠) **المذكرات**.،، ص٨٥.

(١٤١) **المذكرات**.،، ص١٠٣-١٠٤.

(١٤٢) للتفاصيل عن الملك وظروف مصرعه، يُنظر على سبيل المثال: لطفي جعفر فرج، لملك غازي: **ودوره في سياسة العراق في المجالين الداخلي والخارجي، ١٩٣٣ - ١٩٣٩**، مكتبة اليقظة العربية، بغداد،١٩٨٧.

(١٤٣) للتفاصيل عن أحداثها وأحوال الموصل فيها يُنظر على سبيل المثال: عبد الرزاق الحسني، **الأسرار الخفية لحركة مايس التحررية**، مطبعة العرفان، بيروت ،١٩٧١؛ ذاكر محي الدين عبد الله، **محمد يونس السبعاوي ودوره في الحياة السياسية**، منشورات مكتبة بشار، الموصل٢٠١٣.

(١٤٤) للتفاصيل عن الحرب العالمية الثانية: يُنظر على سبيل المثال: ريمون كارتييه، **الحرب العالمية الثانية**، نقله للعربية سهيل سماحة وأنطوان مسعود بأشراف جبران مسعود، ط٢، مؤسسة نوفل، بيروت، ١٩٨٢، جزأين.

(١٤٥) **المذكرات**.،، ص ١٠٤.

(١٤٦) **المذكرات**.،، ص ١٠٦.

(١٤٧) انتفاضة ١٩٤٨، أو وثبة ١٩٤٨، هي انتفاضة شعبية قام بها الشعب العراقي في كانون الثاني ١٩٤٨ بهدف إسقاط حكومة رئيس الوزراء سيد صالح جبر ومعاهدة بورتسموث، وكانت في المدة من ١-٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨. للتفاصيل يُنظر: عبد الرزاق الحسني، **تاريخ الوزارات العراقية**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ج٧، ص٢٠٣؛ جعفر عباس حميدي، **التطورات السياسية في العراق١٩٤١-١٩٥٣**، مطبعه النعمان، النجف، ١٩٧٦، ص٤٧٥-٥٧٤.

(١٤٨) **المذكرات**.،، ص١٠٦-١٠٧.

(١٤٩) ولد في١٤ تشرين الثاني ١٩١٣ في مدينة الطائف في الحجاز، وهو ابن ملك الحجاز علي بن الحسين شقيق الملك فيصل الأول، التجأ وعاش مع عائلته في مصر بعد تولي العائلة السعودية المنافسة للعائلة الهاشمية لمقاليد الأمور في الحجاز وشبه الجزيرة العربية، تلقى عبد الإله علومه في كلية فكتوريا في الإسكندرية بمصر، وفي عام ١٩٣٩م اختير وصيًا على عرش العراق، ولغاية ١٩٥٣م، وذلك بعد مصرع الملك غازي في حادثة سيارة، وكان الأمير فيصل الثاني الوريث للعرش صغيرًا، لم يبلغ بعد سن السادسة من عمره، وكان الأمير عبد الإله خاله شقيق الملكة عالية. وبعد انتهاء الوصاية نودي به وليا للعهد في ٢ أيار ١٩٥٣، بعد تتويج الأمير فيصل الثاني ملكًا على العراق، لقي مصرعه في ١٤ تموز ١٩٥٨. للتفاصيل يُنظر: عبد الهادي الخماسي، الأمير عبد الإله (١٩٣٩-١٩٥٣) دراسة تاريخية سياسية، المؤسسة العربية للدراسات النشر، بيروت،٢٠٠١.

(١٥٠) **المذكرات**، ص١٠٦-١٠٧.

(١٥١) **لمذكرات**.،، ص ٨٤-٨٥؛١١١.

(١٥٢) **المذكرات**.،، ص ١١٠-١١٢.

(١٥٣) ارتبط بالتنظيم مرتين ثم تركه إلى غير رجعة فيما بعد، إلا انه تأثر كثيرًا من أفكارهم وتوجهاتهم ومنطلقاتهم الفكرية والسياسية **المذكرات**.،، ص١١٢.

(١٥٤) هو أحد علماء العراق والدعاة الإسلاميين، وكان من الذين جمعوا بين العمل السياسي والإسلامي، ولد في مدينة الموصل عام ١٩١٥، ودرس في الأزهر، أسس جماعة الإخوان المسلمين في العراق، وكان أول مراقب لها، وشارك في حرب فلسطين، وهاجر إلى السعودية، وعمل مستشارًا للملك فيصل آل سعود، وتوفي في تركيا عام ١٩٩٢. للتفاصيل يُنظر: كاظم أحمد المشايخي، **الشيخ محمد محمود الصّواف رائد الحركة الإسلامية بالعراق**، مطبعة أنوار دجلة، بغداد، ٢٠٠٩.

(١٥٥) **المذكرات**.،، ص١١٧.

(١٥٦) المصدر نفسه.

(١٥٧) للتفاصيل يُنظر: عبد الله، يونس السبعاوي، ص١٤٠-١٤٣.

(١٥٨) هو أشار إلى ذلك في مذكراته في الصفحات اللاحقة، ارتأينا عدم الخوض فيها تاركين الأمر لمن يكمل البحث عن تاريخ الموصل والعراق في مذكرات أستاذنا د عماد.

(١٥٩) **المذكرات**.،، ص١١٨-١١٩.

(١٦٠) ولعله قصد بـ(الجبهة القومية الإسلامية) التقارب بين الاتجاه القومي، الذي يمثله حزب الاستقلال والإخوان المسلمين أكثر من كونه تقاربًا بين البعثيين والإخوان. **المذكرات**.،، ص١١٩.

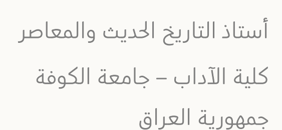
(١٦١) **المذكرات**، ص١١٩.
(١٦٢) هو محاولة انقلابية عسكرية فاشلة في العراق، انطلقت من مدينتي الموصل وكركوك في٧ آذار ١٩٥٩، بقيادة العقيد عبد الوهاب الشواف، ضد حكم الزعيم عبد الكريم قاسم الذي حظي بتأييد الحزب الشيوعي العراقي، ولخروجه عن مبادئ ثورة ١٤ تموز ولسيطرته على مقاليد الحكم، وحصر كافة الصلاحيات الهامة، بالمناصب التي كان يشغلها بيده، وهي منصب القائد العام للقوات المسلحة، ورئاسة الوزراء، ووزير الدفاع، ولمحاربته الأحزاب القومية والمعارضين لحكمه، وأرسل بعض القادة من الضباط إلى السجن. للتفاصيل يُنظر: حازم حسن العلي، **انتفاضة الموصل - ثورة الشواف ٧ آذار ١٩٥٩**، الدار العربية للموسوعات، بيروت،١٩٨٧؛ هاشم عبد الرزاق صالح، **ثورة الموصل القومية ١٩٥٩: دراسة تاريخية**، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الموصل، الموصل ١٩٩٩.
(١٦٣) ولعل هذه الملاحظة جاءت في مذكراته بحكم أنها وقعت بينهما لاحقًا. للتفاصيل يُنظر: **المذكرات**..، ص١١٩-١٢٠.
(١٦٤) للتفاصيل عن دور الموصل القديمة يُنظر: أزهر العبيدي، الموصل أيام زمان، **الموصل**،١٩٨٩، ص٨٣-٩٥.
(١٦٥) **المذكرات**..، ص٤٦.
(١٦٦) المصدر نفسه، ص٤٦-٤٧.
(١٦٧) المصدر نفسه، ص ٤٥.
(١٦٨) **المذكرات**..، ص٩٧-٩٩.
(١٦٩) للتفاصيل يُنظر: خضر، **التوسع العمراني لمدينة الموصل**، ص٧٨-٩٤؛ ١٥٢-١٥٣؛ النعيمي، المصدر السابق، ص ١٠٩؛ ١١٧؛ ٢٤٧-٢٧٤.
(١٧٠) **المذكرات**..، ص٩٥-٩٨.
(١٧١) للتفاصيل يُنظر: النعيمي، المصدر السابق، ص٢٧٤-٢٨٠.
(١٧٢) **المذكرات**..، ص٤٧.
(١٧٣) **المذكرات**..، ص٤٧؛٧١.
(١٧٤) في تسعينيات القرن الماضي عملت بمهنة البزازة، وكنت أذهب إلى بغداد (سوق الشورجة)، في بعض الأحيان بمعية صاحبي وزميلي التاجر رضوان عبد الواحد الجلبي رحمه الله للتبضع للمحل الذي كنت اعمل به كشريك معه في أسواق موصل الجديدة ، وكان وإخوته ومن معهم من تجار الجملة يتبضعون دائما من بغداد من تجار الجملة فيها ،وينقلون بضائعهم الى مدينة الموصل عبر نقليات خاصة، وفيها يقومون بتوزيعها على بعض تجار الجملة والمفرد، قبل أن تتغير بوصلة هذه التجارة لاحقًا، إلى مدن أخرى كأربيل والسليمانية وحلب ودمشق، ثم الصين وتركيا ولا سيما بعد عام ٢٠٠٣، وهناك عودة حالية إلى أسواق بغداد، قد تشهد تنامي سريع في الأعوام اللاحقة مع استمرار الاستقرار واندثار التعصب العرقي والطائفي المازوم.
(١٧٥) **المذكرات**..، ص٧٢-٧٣.
(١٧٦) **المذكرات**..، ص٧٧؛ للتفاصيل يُنظر: عبد الوهاب النعيمي، **"الكب من أماكن الموصل الشعبية"**، في كتاب العبيدي، موسوعة الموصل التراثية، المجلد الأول، المصدر السابق، ص٨٥-٩٦.
(١٧٧) **المذكرات**..، ص٧٩.
(١٧٨) **المذكرات**..، ص ٧٠.
(١٧٩) **المذكرات**..، ص٩٥. ذكر لي ذلك شخصيًا في إحدى مقابلاتي له "رحمه الله" ببغداد في عام ١٩٩٠، كما كان له أبناء عمومة يعملون في خان الشبخون تجار للأقمشة والستائر بالموصل، ولا أعلم إن يقو كذلك الآن أم لا.
(١٨٠) **المذكرات**...، ص ٥٠ وصفحات أخرى عديدة ومتفرقة.

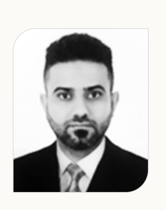
مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].



موقف أحزاب المعارضة الإيرانية من حكومة مهدي بازركان
(٥ شباط – ٥ تشرين الثاني ١٩٧٩)





أ.د. أحمد شاكر العلاق

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب – جامعة الكوفة

جمهورية العراق

مُلَخّص

شهدت إيران في أعقاب نجاح الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩م تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية جذرية، إذ عكف النظام السياسي الجديد على انتهاج أسلوب عمل مغاير تمامًا لسياسة الأسرة البهلوية في جميع النواحي، وكان أول عمل قام به النظام الإسلامي الجديد أنه سمح للأحزاب السياسية المعارضة للعمل بشكل علني، إذ كان في اعتقاد تلك الأحزاب أنها بعد التخلص من نظام بهلوي انه بمقدورها المشاركة في العملية السياسية الجديدة مكافئة لدورها المعارض ودورها في إسقاط الشاه محمد رضا بهلوي، غير أن تلك الأحزاب تفاجأت من قرارات الحكومة الإسلامية الجديدة بحظر عمل تلك الأحزاب وتهميش دورها عند تشكيل وزارة الدكتور مهدي بازركان التي تُعَدّ أول حكومة إسلامية مؤقتة تُشكل بعد الثورة، إذ أن تشكيلة تلك الحكومة كانت خالية تمامًا من تلك الأحزاب سيما الأحزاب اليسارية على رأسها منظمة مجاهدي خلق ومنظمة فدائيي خلق وبعض التجمعات السياسية التي كانت قد اتخذت طريق الكفاح المسلح منهجًا لها في إسقاط نظام الأسرة البهلوية. كرست الأحزاب السياسية الإيرانية دورها في المرحلة اللاحقة من سقوط محمد رضا بهلوي جهودها الرامية في المطالبة بأشراكها في النظام السياسي الجديد وقد اتبعت في سبيل تحقيق ذلك نفس أسلوب العمل العسكري المسلح لطالما حاول النظام الإسلامي الجديد أبعادها بشتى الوسائل عن مجرى الأحداث برمتها، لذا نجد أن من بين أحد أسباب انهيار حكومة الدكتور بازركان هو مواقف تلك الأحزاب والتجمعات السياسية المعارض منذ الأيام الأولى لتشكيل الحكومة وحتى اضطرار الدكتور بازركان إلى تقديم استقالته. جاء البحث ليسلط الضوء على مواقف تلك الأحزاب المعارضة والكيفية التي من خلالها قارعت وعارضت نظام الجمهورية الإسلامية وكل ما صدر عن ذلك النظام من تشريعات وقوانين ولم تبخل تلك الأحزاب من استخدام شتى الوسائل بما فيها العمل المسلح في سبيل تحقيق غاياتها وتنفيذ برامجها.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٣١ يوليو ٢٠٢٣

تاريخ قبول النشر: ٣٠ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

إيران؛ الجمهورية الإسلامية؛ الأحزاب الإيرانية؛ المعارضة الإيرانية؛ مهدي بازركان؛ الحكومة المؤقتة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.343772



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد شاكر العلاق. "موقف أحزاب المعارضة الإيرانية من حكومة مهدي بازركان (٥ شباط – ٥ تشرين الثاني ١٩٧٩)".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ٢٢٩ – ٢٣٩.

Corresponding author: ahmedalalaq@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

بعد اندلاع الثورة الإسلامية الإيرانية في شباط عام ١٩٧٩م وسقوط نظام الأسرة البهلوية بدأت أولى بواد الانفتاح السياسي بالنسبة لأحزاب المعارضة على أقل تقدير، الذي لطالما غاب طويلاً عن إيران إبان الحقبة البهلوية إلا في حالات نادرة ومدد تاريخية قصيرة للغاية، وعليه بدأت الأحزاب والتيارات السياسية الإيرانية التي كانت تمارس عملها سرًا خلال الحقبة الماضية في ظل الظروف السياسية الجديدة العمل بشكل علني مطالبة تعويضها على ما مضى وتثمينًا لدورها المعارض وإسهاماتها في إسقاط حكم محمد رضا بهلوي، والدعوة إلى أن تكون جزء من العملية السياسية الجديدة، غير أنه وبطبيعة حال وتركيبة الهيكلية السياسية الجديدة ذات الطابع الإسلامي المتشدد كان قد حرم جميع تلك الأحزاب سيما الأحزاب اليسارية من خوض غمار العمل السياسي، لاختلاف الفكر والطروحات بين القائمين على النظام الجديد وتلك الأحزاب.

وبناءً على ذلك أعلنت جميع تلك التيارات السياسية معارضتها لشكل النظام الديني الجديد وبدأت مرحلة جديدة من التصعيد بينها وبين الحكومة المؤقتة التي شكلها روح الله الخميني وأناط مهمة ترأسها إلى زعيم حزب نهضت ازادي الدكتور مهدي بازركان، فشكلت هذه المرحلة من تاريخ إيران نقطة تحول خطيرة أفرزت نتائج سياسية واجتماعية واقتصادية مهمة للغاية على أساسها اتضح شكل النظام الجديد الذي قاد في نهاية المطاف إلى الإعلان عن الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

اعتمد البحث على مجموعة من المصادر والمراجع الفارسية والعربية والمعربة وقد قسم إلى مبحثين، الأول جاء ليسلط الضوء على موقف الأحزاب اليسارية المعارضة، والثاني جاء ليسلط الضوء على الأحزاب الراديكالية التي حاولت أن تتأقلم مع النظام الجديد وعلى رأسها الجبهة الوطنية، ومواقف الأقليات القومية وعلى رأسها الأقلية الكردية.

أولاً: موقف الأحزاب اليسارية

تُعَدّ الثورة الإسلامية الإيرانية عام ١٩٧٩م واحدة من بين أبرز الأحداث التاريخية المهمة التي شهدتها الساحة الدولية وتركت آثارها البعيدة على مجمل العملية السياسية الدولية، بل إنها رسمت خارطة سياسية وقومية ومذهبية جديدة للمنطقة برمتها.

كانت انطلاقة الثورة الإيرانية ضد نظام الأسرة البهلوية منذ أواسط عام ١٩٦٣م عندما اعلن الشاه محمد رضا بهلوي(١) عن سياسة الإصلاح أو ما سميت وقتها بثورة الشاه والشعب أو الثورة البيضاء(٢) والتي رافق الإعلان عنها موجة من الاضطرابات والاحتجاجات الشعبية قادتها أحزاب المعارضة بكل أشكالها العلمانية والدينية تزعم أقواها رجل الدين آية الله روح الله الخميني(٣)، وقد نشط الأخير في قيادة القواعد الجماهيرية الغاضبة ضد السلطة الاستبدادية البهلوية التي حاولت مرارًا وتكرارًا السيطرة على تلك الموجات المحتجة غير أنها لم تفلح فعكفت على اعتقال القيادات السياسية والدينية ونفيها إلى خارج البلد وبعضها غيبتها السجون والمعتقلات، فكانت حصة آية الله الخميني أن نُفي إلى خارج البلاد إلى تركيا منذ عام ١٩٦٤ ومن ثم إلى العراق وأخيرًا استقر في فرنسا، مما زاد الطين بلة فاصطفت جميع القوى الدينية والسياسية لتشكل صفًا واحدًا في سبيل خلع الأسرة البهلوية وكان لها ما أرادت عندما وصل آية الله الخميني من منفاه في فرنسا على متن الطائرة في الأول من شباط عام ١٩٧٩م و وضع قدمه في إيران وكان ذلك إيذانًا بنهاية حكم محمد رضا وبداية نظام سياسي إسلامي جديد(٤).

قاد الانفتاح الذي شهدته إيران في بداية الثورة إلى تحقيق هامش من الحرية للحركات السياسية على مختلف توجهاتها، لذا نجد أن الكثير من تلك التيارات كانت قد مارست دورها بشكل كبير كما ينبغي لها وفقًا لتوجهاتها وطروحاتها.

حال وصوله أعلن آية الله الخميني شكل ومفهوم النظام السياسي الجديد وهو نظام إسلامي قائم على أساس الشريعة الإسلامية وفقًا للمذهب الجعفري قام على أساس مبدأ ولاية الفقيه أي بمعنى أن رجل الدين

هو صاحب اعلى سلطة دينية وسياسية في إيران[٥]، وقد كانت هذه الطروحات واحدة من بين أهم وأقوى الأسباب التي دعت قادة قوى المعارضة الإيرانية إلى شهر سلاحها والإعلان عن قيادة حركة معارضة نشطة ضد السلطة الدينية الجديدة، سيما وان الولي الفقيه روح الله الخميني أعلن مرارًا وتكرارًا أن ليس لجميع الأحزاب السابقة أي دور في شكل النظام السياسي الجديد سيما أحزاب اليسار والأحزاب التي وصفت بأنها علمانية.

وفي سبيل وضع ما تم الاتفاق عليه في فرنسا موضع التنفيذ، كلف روح الله الخميني بتاريخ الخامس من شباط عام ١٩٧٩م الدكتور المهندس مهدي بازركان[٦] بتشكيل حكومة مؤقته تكون بديلاً عن أخر حكومة تابعة للنظام البهلوي وهي حكومة شابور بختيار[٧] وأوضح أنه اختار بازركان استنادًا إلى مواقف الجماهير الإيرانية التي خرجت منذ الوهلة الأولى لاستقباله من منفاه ولان بازركان كان من بين الشخصيات الملتزمة والمعارضة زمن الشاه ولقرب طروحاته وأفكاره من طروحات قادة المؤسسة الدينية كما يتمتع بازركان بقاعدة جماهيرية واسعة لذا أراد آية الله الخميني الاستفادة من كل هذه الميزات والخصال في دعم وإسناد حكومته الفتية[٨].

وفي سبيل استباق أي عمل معارض لحكومته المؤقتة بدأت وسائل الإعلام المحسوبة على آية الله الخميني من إعلام مرئي ومسموع ومقروء بالدعوة إلى دعم وإسناد الحكومة الجديدة وان على الجميع السير وفق الخطط التي تضعها والسير بركبها، فقيه وأخذت تلك الوسائل الإعلامية استخدام لغة التهديد والتحذير لكل من تسول له نفسه العمل بالضد من حكومة بازركان وعدم تكرار تجربة العمل العسكري المسلح وان الكل يجب أن يخضع للقانون الجديد الذي صاغه روح الله الخميني والذي ارتكز أساسه على مفهوم ولاية الفقيه.

كانت أولى خطابات التحذير التي أطلقها آية الله روح الله الخميني ضد أحزاب المعارضة عندما اعلن عن تهيئته الأجواء السياسية للحكومة الجديدة فحذر أي فرد من العمل ضد الحكومة الجديدة وعدها مخالفة للشريعة الإسلامية المقدسة وان المخالفين سيعاقبون وفقًا للقانون، بالمقابل كان موقف المعارضة المبدئي من كل تلك التحولات أنها دعت لأكثر من مرة إلى قيادة تظاهرات والنزول إلى الشوارع تأييدًا لشكل النظام السياسي الجديد اعتقادًا منها أنها سوف تنال نصيبًا في تشكيل الحكومة المقبلة إيفاءً لجهودها السابقة للإطاحة بالشاه بهلوي[٩]. ولعل خير دليل على ذلك ما أعلنته منظمة مجاهدي خلق في بداية الثورة على لسان امينها العام مسعود رجوي[١٠] في بيان دور آية الله الخميني قائلاً "لقد جعل الموقف الإجمالي التاريخي والاجتماعي من الضروري أن يضطلع الخميني شخصيًا بمسؤولية ودور الجبهة الموحدة ومن ثم كقائد وإمام الجماهير الثورية، ويتولى مسؤولية جميع الشؤون وكذلك المسؤوليات"[١١]

بتاريخ الثالث عشر من شباط اعلن بازركان عن تشكيلة حكومته المؤقتة التي ضمت بين دفتيها اغلب قيادات الجبهة الوطنية[١٢] ومن الطبقة البيروقراطية المعروفون بمعارضتهم لحكم الشاه[١٣]، غير إنها لم تضم على أي عنصر من أحزاب اليسار (حزب توده[١٤]، منظمة مجاهدي خلق[١٥]، منظمة فدائيي خلق[١٦]) على الرغم من إعلان بازركان في مقابلة له مع التلفزيون الفرنسي بأن الثورة لن تنسى الدور الذي أداه مقاتلي مجاهدي خلق وفدائيي خلق[١٧] وبالتالي كانت نوايا النظام السياسي الإسلامي الجديد هي استبعاد أي من الأحزاب التي تمثل تيارًا علمانيًا خارج سياق التوجه الإسلامي المتطرف علاوة على رغبة النظام الجديد إبعاد الفصائل العسكرية المسلحة التي تجد فيها تهديد خطير للسلم الأهلي أو لقواعد النظام السياسي الجديد.

بعد الإعلان عن حكومة بازركان، كان واضحا أن هناك بعض القوى السياسية لم يتم إشراكها في التشكيلة الوزارية الجديدة، وقد قبل حزب توده هذا الواقع ولم يعارض بل أيد الثورة على أمل أن تتاح له الفرصة للمشاركة السياسية في السلطة مستقبلاً، إلا أن منظمتي فدائي الشعب ومجاهدي الشعب عارضتا سياسة الدولة الجديدة وكانت فدائي الشعب اكثر وضوحا في معارضتها[١٨]. ولا يخفى على أحد الدور الذي أدته هذه المنظمة في سبيل إسقاط النظام البهلوي سيما انتهاجها جانب العمل العسكري المسلح لذا كانت تمتلك الكثير من الأسلحة بمختلف أنواعها، وبعد اندلاع

الثورة استقر أعضاء المنظمة في البداية في بعض أحياء العاصمة طهران وأقاموا المخيمات فيها لتدريب الأعضاء الجدد الذين انضموا إليها، وكانت جامعة طهران مركزًا لنشاطاتهم، وبقيت المنظمة حتى بعد الإعلان عن الحكومة المؤقتة، تتصرف بشكل منفرد و مخالف لتوجيهات الحكومة الجديدة، ومنها الدعوة إلى نزع السلاح الذي تمتلكه الفصائل المسلحة الذي حصلت عليه من مخازن السلاح وثكنات الجيش في طهران عند انهيار النظام البهلوي[١٩] غير أن جميع تلك الفصائل آثرت على نفسها القتال والمواجهة مع الحكومة الجديدة على أن تسلم أسلحتها ومعداتها العسكرية وكانت تعتبر تلك النداءات بمثابة "الوصاية المفروضة"[٢٠]. ومن هنا كان رد فعل تلك التيارات عنيفًا للغاية كبدت النظام الإسلامي الجديد خسائر بشرية لعدد من القيادات والمراجع الدينية التي كان يُعتد بها[٢١]

وجه بازركان بتاريخ الثاني عشر من شباط نداء إلى قادة الفصائل المسلحة كافة بضرورة تسليم أسلحتها، والتزام الهدوء، والحفاظ على الممتلكات العامة إلا أن المنظمات المسلحة لاسيما فدائيي خلق ومجاهدي الشعب تجاهلت نداء الحكومة، إذ كانت تطوف الشوارع بأسلحتها، ولم تتورع من استخدام ذلك السلاح في سبيل تهديد السلم الأهلي وزعزعة الأمن، ففي كثير من الحالات حدثت صدامات مسلحة بينها وبين قوى الأمن راح ضحيتها الكثير من أبناء الشعب الإيراني، من جانبه، وجه آية الله الخميني نداء أخر عبر الراديو طالب فيه الفصائل المسلحة كافة ضرورة تسليم سلاحها، وحذر أي شخص من الاعتداء على الممتلكات العامة والخاصة، وان من يفعل ذلك سيواجه بتهمة الخيانة وسيحاسب وفقًا للقانون، وقد لاق ندائه تجاوبًا إذ بدأ الكثير من الأفراد تسليم أسلحتهم، باستثناء منظمتي فدائيي الشعب ومجاهدي الشعب اللتان اتهمتا من قبل الحكومة بافتعال أحداث عنف في بعض أحياء العاصمة طهران والهجوم على بعض المؤسسات الحكومية[٢٢]. ولعل من بين ما قامت به منظمتا مجاهدي خلق وفدائيي خلق بتاريخ الثالث عشر من شباط، عندها هاجمت مجموعة من عناصرهما مباني الوكالة الدولية الأمريكية للاتصالات كانت تقع على مقربة من جامعة طهران إذ كانت هذه الفصائل تعتقد أن هذا المبنى تابع لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية وهو ما شكل تهديد لها وفي اليوم نفسه هددت تلك الفصائل عبر أحد أفرادها، السفارة الأمريكية بتمزيق العلم الأمريكي حال رفعه على مبنى السفارة، وزادت على ذلك بانها ستهاجم السفارة نفسها[٢٣]

وفي الرابع عشر من شباط نفذت المنظمتان تهديدها فقامت بالهجوم على السفارة الأمريكية في الساعة التاسعة والنصف صباحا، وبالرغم من مقاومة قوات مشاة المارينز لهجوم الأعضاء المسلحين وإطلاقهم قنابل الغازات المسيلة للدموع، فقد استطاع البعض من تسلق جدران السفارة والدخول إليها بعد اطلاق نار كثيف على حرس السفارة[٢٤].

أثارت تلك التصرفات حفيظة رجال الدين وزعماء المؤسسة الدينية وعلى راسهم آية الله الخميني الذي شن هجومًا عنيفًا عليها واتهمها بأن لها "أهداف شريرة ضد الثورة" وهدد الجميع ممن يسعى لزعزعة امن البلاد باستخدام القوة ضدهم[٢٥] سيما وان منظمة فدائيي خلق دعت جميع الشباب إلى الانضواء تحت لوائها للسعي الحثيث نحو السلطة[٢٦] والدعوة إلى إضرابات عمالية في مناجم البترول في جنوب إيران وقد نجحت إلى حد ما في إثارة الشغب وتأليب عمال بعض المصانع والمعامل ضد السلطة عبر قيادتها للتظاهرات والاعتصامات والدعوة إلى تكوين جيش شعبي[٢٧]. ومن هنا جاءت خطابات آية الله الخميني المضادة لتوجهات تلك الأحزاب والمنظمات ونعتها بشتى النعوت من قبيل "المنظمات المنافقة" و"المنظمات العميلة للأسرة البهلوي" لمجرد معارضتها لحكومة الدكتور بازركان ومطالبتها بإشراكها بالنظام السياسي الجديد[٢٨].

وبتاريخ الثالث والعشرين من شباط عقدت منظمة فدائيي خلق تجمعًا جماهيريًا ضخمًا في طهران بينت فيه تصورها للنظام السياسي الجديد، إذ بينت أن أهداف الثورة الإيرانية وإعلانه قادتها ما اسمته "القضاء على السياسة الإمبريالية" والنظام المرتبط بها وإفساح المجال أمام جميع فئات الشعوب الإيرانية أن تساهم في إدارة الدولة من خلال تشكيل لجان في المعامل والدوائر والثكنات العسكرية[٢٩]

من جهتها مارست منظمة مجاهدي خلق ضغوطًا إعلامية عبر نشر البيانات ورسائل الشجب والاستنكار لجميع المؤسسات والفعاليات السياسية التي مارستها حكومة بازركان، ففي الرابع عشر من أيلول هاجمت المنظمة الحزب الجمهوري الإسلامي(٣٠) واللجان الثورية بسبب ما اسمته تصرفات غير مسئولة وعبرت عن ذلك ببيان قالت فيه "أن سلب القوة من يد الحكومة وإحالة الأمور بعهدة اللجان الثورية سيؤدي إلى حدوث الشغب وظهور شبح الحرب الأهلية"(٣١) كما طالبت المنظمة تطبيق برنامجها الذي اعتبرته الكفيل بتلبية رغبات الشعوب الإيرانية فأرسلت بتاريخ الثامن عشر من تشرين الثاني برقية إلى مجلس الخبراء اقترحت فيها عدة أمور من بينها التأكيد على سلطة الجماهير وإدارة شؤون البلاد من قبل مجالس حقيقية وغيرها من الأمور الأخرى(٣٢)، والدعوة لحل الجيش واستبداله بجيش شعبي وحرية التعبير عن الرأي واحترام أصوات المعارضة(٣٣)

وعندما طرح موضوع الاستفتاء على شكل النظام السياسي الجديد في شهر أذار أيد حزب توده الثورة الإسلامية الإيرانية وقال عبر بيان له بانها ثورة شعبية ذات طابع ديني واكد على ضرورة المحافظة على وحدة القوى الوطنية التحررية من خلال وضع دستور للبلاد واعلن الحزب عبر بيان له صدر يوم الخامس عشر من أذار أنه سيصوت لصالح إعلان الجمهورية الإسلامية والانصهار في بوتقة المؤسسة الدينية التي تقود النظام الجديد، وأعلنت اللجنة المركزية لتوده عبر بيان لها دعوة جميع أعضاء الحزب ومناصروه من جميع أنحاء العالم إلى الرجوع إلى البلاد فتقاطروا من روسيا ومن جميع أقطار أوربا الشرقية التي كانوا يقيمون فيها لكي يحققوا تجمعًا يشكل وزنًا متفوقًا في خضم تنافس الأحزاب على السلطة(٣٤) وكان أمين عام الحزب نور الدين كيانوري(٣٥) قد أشار إلى هذه النقطة بالذات بالقول "للمذهب الشيعي جذور ديمقراطية وقد كان دائمًا مرتبطًا بالحركات الشعبية والقومية والتحررية ومن أجل ذلك أيدنا الإمام الخميني عندما اخذ يطلق شعاراته المعادية للشاه، ونحن نبذل جهدنا لإقامة حوار معه ونشعر انه يقوم بدور تقدمي في تاريخ إيران"(٣٦) كما أشار كيانوري لرئيس الحكومة المؤقتة بازركان قائلاً "أن الأمام يطبق تمامًا سياسة الحزب وان الشيوعيون لن يتبعوا طريقًا أخر إلا في حالة تخلي الثورة عن استراتيجيتها المعادية للإمبريالية"(٣٧) وأضاف "إننا واقعيون يجب علينا دعم النضال الشعبي وعليه فأننا نضع ثقتنا في أولئك الذين يقودونه..."(٣٨).

في حين أعلنت بقية أحزاب اليسار أن الناس يجب أن يصوتوا على مبدأ الجمهورية وإنهاء النظام الملكي ثم يوضع دستور جديد عن طريق تشكيل هيأة تأسيسية بحيث يوضح ماهية الجمهورية الإسلامية بصورة تجعل الناس يتبينون حقيقة ما يصوتون من أجله ثم يجري الاستفتاء بعد ذلك على الجمهورية الإسلامية(٣٩) إذ طالبت منظمتا مجاهدي وفدائيي خلق يوم الثامن عشر من أذار بالسماح بأنشاء مؤسسات ديمقراطية وفسح المجال أمامهما لمخاطبة الجماهير عبر الصحافة الحرة وطالبتا بترك الحرية للجماهير بتقرير مصيرها(٤٠). وهذا يعني أن منظمة مجاهدي خلق وفدائيي خلق لم تصوتا على الجمهورية الإسلامية الإيرانية وكان رأيها أن يتم صياغة دستور تطلع على مواده الناس ومن ثم التعريف بما نعني الجمهورية الإسلامية ومن ثم يجري التصويت وتجري عملية الاستفتاء.

ثانيًا: موقف الجبهة الوطنية والأحزاب الراديكالية والقومية

أيدت الجبهة الوطنية مبدئيًا حكومة بازركان المؤقتة وأعلنت في بيان لها أن هذه الحكومة إنما تعكس إرادة أغلبية الشعب الإيراني وان من شأن رئيسها بازركان أن يقود إلى فترة انتقالية سلمية يتم فيها الاقتراع على الديمقراطية، فقادة الجبهة الوطنية اعتقدوا أن تحالفهم مع رجال الدين سوف يكون مقدمة لإرساء قواعد نظام يتم فيه التوفيق بين المبادئ الليبرالية والمبادئ التي طرحتها المؤسسة الدينية(٤١) ولا ننسى أن أغلب قيادات الجبهة كانوا جزء من النظام السياسي الجديد وقد تم تضمين اغلب قيادات الجبهة داخل التشكيلة الوزارية لحكومة بازركان. غير أن بعض قيادات الجبهة كانوا متخوفين من مسألة العمل سوية مع رجال الدين، وذلك نابع من التجربة المريرة التي عاشوها مع

المؤسسة الدينية إبان حكومة زعيم الجبهة الدكتور محمد مصدق[٤٢] ١٩٥١ – ١٩٥٣ والتخاذل كما يسموه من جانب رجال الدين لمحمد مصدق، جعلهم يرتابون قليلاً من الوثوق بهم مرة أخرى.[٤٣]

بعد الدعوة للاستفتاء على الجمهورية الإسلامية ظهرت الخلافات جلية داخل صفوف الجبهة الوطنية، إذ ذهبت بعض اطراف الجبهة الوطنية إلى تأييد رجال الدين بعد الثورة وهذا الموقف فجر خلافًا داخليًا في الجبهة لذا فقد عارض بعض أفراد الجبهة بزعامة متين الله دفتري[٤٤] تنفيذ الاستفتاء على شكل النظام السياسي الجديد واتهم قيادات الجبهة بتأييد آراء ومواقف آية الله الخميني وفي السادس من أذار أعلن متين الله دفتري عن تأسيس جبهة جديدة منشقة عن الجبهة الوطنية الأم اطلق عليها اسم (الجبهة الوطنية الديمقراطية) بهدف حشد المجموعات المناوئة للمرجعيات الدينية في جبهة واحدة بدءًا من المحافظين الإسلاميين وحتى العلمانيين الراديكاليين[٤٥] وقد انضم إليها جماعة القوة الثالثة (الاشتراكيون الإيرانيون)، وقد اعلن في برنامج الجبهة الجديدة على تكوين المجالس المنتخبة وانتخاب جمعية تأسيسية للإعداد للدستور الجديد وإلى المساواة ومنح الحكم الذاتي لكل الأقليات في إيران والدعوة لتشكيل مجالس منتخبة من قبل العمال والموظفين والنقابات والطلبة وكان تيار متين الله دفتري يدعوا إلى إجراء محاكمات علنية للمتهمين باقتراف الجرائم ضد الشعب[٤٦]

أما الجناح المعتدل بزعامة السياسي كريم سنجابي[٤٧] فقد قبل بالنهاية التصويت لصالح الجمهورية الإسلامية على اعتبار انه شريك بالحكم، فيما وجد داخل الجبهة فريق ثالث دعا إلى حل وسط يقوم على أساس التصويت لصالح ما اسماها (الجمهورية الإسلامية الديمقراطية)[٤٨] وهذه النقطة بالذات كانت محل خلاف بين رئيس الحكومة المؤقتة بازركان وبين آية الله الخميني سيما ما يتعلق باستخدام مصطلح (الديمقراطية) التي كان يرى فيها الخميني أنها مفردة دخيلة على الشريعة الإسلامية وتمثل الحضارة الغربية.

بالنسبة للجبهة الوطنية الديمقراطية فقد أعلنت عبر بيان لها بتاريخ العاشر من نيسان معارضتها لجميع الفصائل والهيئات المسلحة التي تم استحداثها بعد الثورة ومنها اللجان الثورية التي اتهمت من قبل الحزب بتدبير محاولات تصفية لقادة ورموز المعارضة الإيرانية[٤٩] وكانت على الدوام تؤكد أن الاتفاق مع آية الله الخميني كان على أساس العمل من أجل الإطاحة بالشاه وتشكيل (جمهورية إسلامية ديمقراطية) وهذا الاتفاق أكده أمين عام الجبهة كريم سنجابي أثناء الحوار الذي دار بينه وبين الخميني في باريس أواخر عام ١٩٧٨م، وتذكر المصادر أن الخلاف بين الجبهة والمؤسسة الدينية بدأ منذ آب عام ١٩٧٩م حول طريقة الإعداد للدستور الإيراني الجديد، كذلك نظرت الجبهة الوطنية الديمقراطية بزعامة دفتري إلى المؤسسات الجديدة مثل المحكمة الإسلامية والحرس الثوري على إنها خطوة أولى لإيجاد طبقة دينية متميزة وأن مساندة رجال الدين لحراس الثورة هو محاولة لخلق ظروف طبقة جديدة واعتبرت أن ذلك يتنافى مع أهداف الثورة التي جاءت من اجل القضاء على الامتيازات والاحتكارات لخلق طبقات منتفعة[٥٠].

ولعل من بين التيارات والمنظمات المعارضة التي برزت خلال عهد حكومة بازركان كانت منظمة فرقان[٥١] ذات الطابع الراديكالي المتشدد وقد نفذت المنظمة عمليات كثيرة ضد رجال الدين الثوريين المحسوبين على النظام الإسلامي الجديد على راسهم آية الله مرتضى مطهري[٥٢] في الأول من آيار ولم تكتفي بذلك بل حاولت المنظمة بتاريخ الخامس عشر من آيار بمحاولة اغتيال آية الله رضا شيرازي أحد كبار رجال الدين وبتاريخ السادس والعشرين من الشهر نفسه جرت محاولة اغتيال فاشلة نفذتها المنظمة لشخص علي اكبر هاشمي رفسنجاني[٥٣] وقد وجهت أصابع الاتهام حينها إلى العناصر الأجنبية المخربة المدعومة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وحليفاتها للتآمر على الثورة ورموزها بحسب بيانات الحكومة وقتذاك[٥٤]

وفي أواخر آب أصدرت الجبهة الوطنية بيانًا شديد اللهجة حول الأوضاع السياسية في إيران انتقدت فيه الامتيازات التي كان يتمتع بها رجال الدين وشددت على

إقصاء وإلغاء عدد من القرارات التي أصدرها مجلس الخبراء متهمة إياه بأنه يسعى إلى إقامة "حكم دكتاتوري مستبد"، كما شددت الجبهة على أن يكون الدستور الإيراني ملائم للوضع العالمي بمعنى أن تتناغم سياسة إيران الخارجية بموجب الدستور مع جميع المعطيات الدولية مجسداً لما أسمته "الحضارة الإيرانية الإسلامية"[٥٥]

استمرت حوادث التفجير ومظاهر التصفية الجسدية لرموز وقيادات الثورة بعد الهجوم العنيف الذي تبنته وسائل إعلام السلطة ضد المنظمات المعارضة سيما المنظمات الماركسية مستغلة الظرف الحرج الذي كانت تمر به الحكومة المؤقتة وعدم ترسيخ أسس قواعد مؤسساتها الأمنية[٥٦] وعليه قامت منظمة فرقان يوم الخامس والعشرين من أيار بتدبير محاولة اغتيال الشيخ علي اكبر هاشمي رفسنجاني[٥٧]

موقف الأحزاب القومية

كانت وما زالت الأقلية القومية الكردية في إيران تطالب بمنحها حكم ذاتي بعيد عن تسلط وسيطرة حكومة طهران المركزية، فتاريخ إيران الحديث والمعاصر مليء بشواهد تاريخية حية للأقلية الكردية وهي ترفع شعار الاستقلال الذاتي والتمتع بنوع من الحرية في إدارة شؤونها الذاتية الداخلية على أقل تقدير.[٥٨]

أولى الأقليات القومية التي عارضت حكومة مهدي بازركان هي الأقلية الكردية التي مثلها الحزب الديمقراطي الكردستاني[٥٩] الإيراني بزعامة عبد الرحمن قاسملو[٦٠] فبعد تشكيل الحكومة الجديدة ونتيجة لتسارع الأحداث وتغييب دور الأقلية الكردية وسواها في ترتيب شكل النظام السياسي الجديد بدأ الحزب الديمقراطي أولى فعالياته السياسية لإشعار حكومة طهران انه موجود وان له دور في إسقاط حكم الأسرة البهلوية، فعقد الحزب أول مؤتمراته العلنية بعد الثورة خلال المدة (٢٦ شباط – ٦ أذار ١٩٧٩م) في مدينة مهاباد بحضور خمسة آلاف عضو يمثلون الحزب في إيران واعلن الحزب برنامجه المتمثل بمطالبته بالحكم الذاتي وإنهاء حالة السيطرة الفكرية الفارسية على جميع مؤسسات الدولة في شمال إيران[٦١]

كانت مثل هكذا طروحات محل رفض واستهجان من قبل حكومة طهران مما دفع الأكراد إلى انتهاج العمل المسلح لانتزاع حقوقهم، إذ وقعت أولى الصدامات بين الحزب والجيش الإيراني في مدينة مهاباد فقتل واسر عدد من الجنود[٦٢] وحتى لا تخرج الأمور عن سيطرتها أرسلت حكومة بازركان بتاريخ التاسع عشر من شباط وفداً للتفاوض مع قادة الحزب الديمقراطي وكانت مطالب الأخير تنحصر بنيل الاستقلال عن جسد الحكومة المركزية وتأسيس حكومة كردية مستقلة وإنهاء سياسة التفريس في المناطق التي يقطنها الأكراد، ولما لم تستجيب الحكومة لتلك المطالب قام الحزب عبر قواعده الشعبية بالتعرض للقوات الحكومية مما اضطر الأخير للرد عليه بشكل مباشر وعنيف، بالمقابل أخذت وسائل الإعلام الرسمية بالإعلان عن أن جميع من ينتمي للحزب المذكور مناهضين للثورة ومكتسباتها ودعت جميع قوى الأمن الداخلي والقوات العسكرية إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة للرد على تلك الهجمات، علاوة على الموقف العسكري من حكومة بازركان اتبع الأكراد الجانب السياسي إذ أعلن أحد قادة المعارضة احمد مفتي زاده عن ولادة (حزب المساواة الإسلامي) وكانت أهداف الحزب الأساسية الأربعة التي أعلنها تتمحور خصوصاً بالدعوة إلى تأسيس دولة كردية مستقلة، مما زاد من قوة وإصرار الأقلية الكردية متمثلة بأحزابها وتياراتها السياسية بالدعوة إلى مناهضة حكومة طهران التي لطالما كانت رافضة لفكرة الاستقلال الذاتي للكرد، مما حدا بحكومة بازركان إلى استخدام المروحيات العسكرية في واحدة من اشد المعارك ضراوة بين الجيش الإيراني والقوى الكردية المعارضة يوم الحادي والعشرين من أذار في سبيل إخماد نار انتفاضة الأكراد وفي نهاية المطاف اضطرت حكومة بازركان إلى إرسال وفد تفاوضي برئاسة أية الله السيد محمود الطالقاني[٦٣] وبرفقة وزير الدفاع و وزير الداخلية وتم الاتفاق يوم الخامس والعشرين من أذار على تهدئة الأوضاع في كردستان إيران مقابل شروط منها السماح للأكراد بإدارة شؤونهم المحلية ومشاركتهم بكتابة مسودة الدستور ومنحهم الحرية الثقافية[٦٤].

ونتيجة لتطور الوضع في مناطق كردستان إيران أعلنت بعض الأحزاب السياسية تأييدها للدور الذي يؤديه الأكراد ومنها الجبهة الوطنية التي أعلن زعيمها الكردي كريم سنجابي انه كمواطن كردي يدعو النظام إلى منح مزيد من الحريات لتحسين أوضاع أبناء جلدته، وعندما أعلن الاستفتاء على شكل النظام السياسي وزع الحزب الديمقراطي الكردستاني منشورات تدعو الأكراد إلى عدم المشاركة بالاستفتاء ومما جاء فيه "لن نشارك في الاستفتاء إذا لم تحل مسألة الحكم الذاتي للأكراد بشكل مرضي"[٦٥].

وهكذا لم يقتصر التحرك القومي على الأقلية الكردية فحسب، بل شمل عدد من الأقليات والقوميات الإيرانية الكبيرة كالأقلية الآذرية التي لطالما سجلت مواقف تاريخية حاسمة في تاريخ إيران الحديث والمعاصر.

وفي أذربيجان كان ما يقارب نصف مليون يقودهم حزب الشعب الجمهوري المسلم بزعامة أية الله كاظم شريعتمداري وأغلب اللجان الحزبية والجمعيات السياسية برفض الاستفتاء على مسودة الدستور وشكل النظام الجديد وقد نجح هؤلاء في السيطرة على عدد من المؤسسات الحكومية في أواخر كانون الأول منها محطتا الإذاعة والتلفزيون[٦٦] وفي المناطق التركمانية قام رجال الدين والمثقفون من أعضاء الجمعية الثقافية السياسية للشعب التركماني بتشكيل لجان محلية حثوا الفلاحين على الاستيلاء على الأراضي التابعة للأسرة البهلوية، وفي بلوشستان شكل (حزب الوحدة الإسلامية) لجانًا خاصة به وفي الأحواز آلت السلطة المحلة إلى المنظمة الثقافية والسياسية للشعب العربي[٦٧].

وبالتالي فأن أحد أسباب انهيار حكومة الدكتور بازركان يوم الخامس من تشرين الثاني ١٩٧٩، كانت المعارضة القوية من قبل الأحزاب الإيرانية، تلك الأحزاب التي ما لبثت منذ الوهلة الأولى لانطلاقة الحكومة بمعارضتها وتحشيد قواعدها الجماهيرية لإسقاطها لأنها لم تكن جزء من تلك الكابينة الوزارية ولان النظام الجديد تغافل عمداً دور تلك التيارات في إسقاط الأسرة البهلوية.

خَاتِمَةٌ

لطالما كانت فكرة المشاركة في صياغة شكل النظام السياسي الجديد فكرة تراود جميع الأحزاب والتيارات السياسية التي رفعت لواء المعارضة للنظام والسلطة البهلوية، فابتداء من أواسط عام ١٩٦٣ أخذت تلك الأحزاب والتيارات والمنظمات السياسية العمل بشكل واسع وبشتى الوسائل المتاحة بما فيها الجانب العسكري على مقارعة السلطة البهلوية والتمهيد لثورة شعبية جماهيرية كبرى، وهو ما حدث في شباط عام ١٩٧٩م.

غير أن المفاجأة كانت أن القوى التي تسلمت زمام المبادرة وزمام الحكم وعلى رأسها المؤسسة الدينية متمثلة بشخص أية الله الخميني كانت قد رفضت أن يكون لهذه التيارات والقوى المعارضة أي دور في التشكيلة السياسية الجديدة، وعليه جاء هذا البحث ليسلط الضوء على ابرز مواقف ونشاط الأحزاب والتيارات السياسية من حكومة الدكتور مهدي بازركان عام ١٩٧٩م وعلى رأسها منظمة فدائيي خلق ومجاهدي خلق وحزب توده والجبهة الوطنية وحزب نهضت ازادي وأخيرًا الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني التي جميعها تقريبًا كانت معارضة لحكومة بازركان باستثناء من استفاد من النظام الجديد وهي الجناح التقليدي للجبهة الوطنية.

الاحالات المرجعية:

(١) **محمد رضا بهلوي** (١٩١٩ - ١٩٨٠) ولد في طهران بتاريخ السادس والعشرين من تشرين الأول، أكمل دراسته خارج البلاد وبالتحديد في سويسرا ثم عاد إلى إيران عام ١٩٣٦م، والتحق بالكلية العسكرية ليتخرج عام ١٩٣٩م برتبة ملازم ثانٍ، وعين مفتشاً بالجيش الإيراني. تزوج محمد رضا (ولي عهد إيران آنذاك) في العام نفسه، من الاميرة فوزية شقيقة (الملك فاروق ملك مصر) منحت الاميرة فوزية الجنسية الايرانية كي يصبح أولادها ايرانيين الأب والام توفي بالقاهرة بتاريخ التاسع والعشرين من تشرين الأول. للمزيد يُنظر:
Alalaq, Ahmed. (2020). Lexicon of Iranian characters.
العلاق. أحمد شاكر (٢٠٢٠). **معجم الشخصيات الإيرانية**. دار البداية ناشرون وموزعون.

(٢) احتوى مشروع الثورة البيضاء ست مواد:
- إلغاء نظام الإقطاع مع المصادقة على مشروع الاصلاح الزراعي على أساس اصلاح قانون الاصلاح الزراعي المصادق عليه في العاشر من كانون الثاني عام ١٩٦٢م.
- المصادقة على لائحة تأميم الغابات في كافة أنحاء البلاد.
- المصادقة على مشروع بيع أسهم المعامل الحكومية كرصيد للإصلاح الزراعي.
- المصادقة على مشروع مشاركة المال في أرباح المعامل الإنتاجية والصناعية.
- اللائحة الإصلاحية لقانون الانتخابات.
- مشروع تشكيل اللجان العلمية بهدف تنفيذ التعليمات العامة والإلزامية.

أحمد شاكر عبد العلاق. (٢٠٢١). **النشاط السياسي للحزب القومي الإيراني ١٩٤٦-١٩٧٩م: دراسة في أدبيات الحزب**. مجلة الكلية الإسلامية الجامعة ١، (٥٩)، ٧٢٧ - ٧٧٤؛ نجاتي. غلام رضا. (٢٠٠٨). **التاريخ الإيراني المعاصر**. (عبد الرحيم الحمراني. مترجم). دار الكتاب الإسلامي.
Alalaq, A. S. (2023). The position of the iranian leftist parties on the project of the white revolution in iran 1963.

(٣) **روح الله الموسوي الخميني** (١٩٠٢ - ١٩٨٩م) ولد بتاريخ الرابع والعشرين من أيلول، في مدينة خمين احدى مدن طهران في بيت عرف بالعلم والتقوى درس العلوم الإسلامية في مدينة النجف الأشرف لعدة سنوات ولما بلغ مرتبة الاجتهاد عاد إلى إيران ليقيم في مسقط رأسه، توفي آية الله الخميني أوائل أيلول عام ١٩٨٩م. للمزيد: الأنصاري، حميد (٢٠٠٣)، **آية الله الخميني من المهد إلى اللحد**. منشورات المكتبة الجعفرية. ؛
Alalaq, A. (2021). Iran's Freedom Renaissance Party and its Impact on the Contemporary History of Iran 1979-1981 A.D. An Analytical Study of the Party's Statements. Kufa Journal of Arts, 1(46), 163–210.
https://doi.org/10.36317/kaj/2021/v1.i46.647

(٤) للتفاصيل عن الموضوع، يُنظر: انتظام، عباس أمير (١٣٨١). آن سوى اتهام. بي جا.

(٥) للتفاصيل عن الموضوع، يُنظر: الراوي، عبد الستار (١٩٨٥). **الفكر السياسي الإيراني المعاصر**. مركز البحوث المعلومات.

(٦) **مهدي بازركان** (١٩٠٨ – ١٩٩٥م): ولد في تبريز وكان والده أحد الناشطين في الحركة الدستورية الإيرانية، درس على يد الشيخ أبو الحسن فروغي، ثم أكمل دراسته في الهندسة من احدى جامعات باريس، عاد إلى إيران عام ١٩٣٨م وعمل في البنك الوطني ثم تدريسياً في جامعة طهران، تولى رئاسة اللجنة التنفيذية لتأميم النفط الإيراني منذ عام ١٩٥٢م على عهد الدكتور محمد مصدق، شكل حزب نهضة حرية إيران عام ١٩٦١م توفي في سويسرا. للتفاصيل عنه يُنظر محمدي، مجيد (٢٠١٠). **اتجاهات الفكر الديني المعاصر في إيران**. (ص. حسين. مترجم). الشبكة العربية للأبحاث. أبو مغلي، محمد وصفي (١٩٨٣). **دليل الشخصيات الإيرانية المعاصرة**. مركز دراسات الخليج العربي.
Alalaq, A. (2020).
حزب نهضة حرية إيران وأثره في تاريخ إيران المعاصر ١٩٧٩–١٩٨١م دراسة تحليلية لبيانات الحزب. Kufa Journal of Arts, 1(46), 163-210.

(٧) **شابور بختيار** (١٩١٥ – ١٩٩١م) بن سردار عسكر، ولد بمنطقة بختيار، أكمل دراسته الأولية في أصفهان منذ عام ١٩٢٦، ثم توجه إلى فرنسا فدخل مدرسة الحقوق، رجع إلى إيران وحصل على دبلوم عالي في الرياضيات بعد أن طوى أربع سنوات من عمره في جامعة أصفهان، تزوج بختيار عام ١٩٣٩م، توفي بتاريخ السابع من أيلول عام ١٩٩١م. للمزيد يُنظر: دهمرده، برات (١٣٨٣). دولت بختيار وتحولات. مركز إسناد انقلاب إسلامي. ص٥٥ -٥٦. العلاق ا. (٢٠٢١). **حزب نهضة حرية إيران وأثره في تاريخ ايران المعاصر ١٩٧٩ – ١٩٨١م دراسة تحليلية لبيانات الحزب**. آداب الكوفة. 1(46), 163–210.
https://doi.org/10.36317/kaj/2021/v1.i46.647

(٨) للتفاصيل عن الموضوع يُنظر: العزاوي، محمد عبد الله (٢٠١٠). **بازركان والمخاض الصعب دراسة في الصراع على السلطة في إيران**. الدار الوطنية.

(٩) للتفاصيل عن الموضوع يُنظر: الهايس، جاسم محمد (٢٠٠٠). حكومة بازركان دراسة في التطورات السياسية الداخلية في إيران ١٩٧٩م [أطروحة دكتوراه غير منشورة]. جامعة البصرة. ص١٩ – ٢٠.

(١٠) **مسعود رجوي** (١٩٤٨ -)، ولد في طبس، ومنذ عام ١٩٦٦م التحق بكلية الحقوق والعلوم السياسية في طهران وحتى حزيران ١٩٧١م، أكمل تحصيله العلمي هناك اعتقل من قبل السافاك بتهمة العمل على الإطاحة بحكم الشاه، ثم أطلق سراحه في كانون الثاني عام ١٩٧٩م. للمزيد: جمعي ازبزوهشكران (١٣٨٦). سازمان مجاهدين خلق بيدا بي تا فرجام ١٣٨٤-١٣٤٤ش. مؤسسة مطالعات وبزوهشهاي سياسي. جلد أول. ص٤٣٩-٤٤٠.

(١١) النعيمي، أحمد نوري؛ والجميلي، حسين علي (د-ت). **النظام السياسي في تركيا وإيران**. الدار الجامعية للطباعة والنشر. ص ٥٨.
Alalaq, A. S. (2023). The position of the iranian leftist parties on the project of the white revolution in iran 1963.

(١٢) تعود بدايات تشكيل حزب الجبهة الوطنية إلى عام ١٩٤٩م، بزعامة محمد مصدق، وقد تمثلت اللبنات الأولى للحزب بالاعتصام الذي دعا إليه مصدق على أثر حالات التزوير التي شهدتها انتخابات مجلس الشورى الوطني بدورته السادسة عشر بتاريخ الثالث عشر من تشرين الأول عام ١٩٤٩م، حينما ضم المجلس النيابي أفرادًا عدوا رجالاً للبلاط الملكي وموالين للسلطة. فقد دعا مصدق عدداً من أبناء النخبة المثقفة من أنصار الحركة الوطنية الإيرانية لقيادة حركة اعتصام بتاريخ الرابع عشر من تشرين الأول من العام ذاته، أمام البلاط الملكي بالتعاون مع بعض أبناء البازار دام أربعة أيام. للتفاصيل يُنظر: العلاق، أحمد شاكر عبد (٢٠١٧). **الأحزاب والمنظمات السياسية في إيران ١٩٦٣ – ١٩٧٩م**. دار البداية. ص٢٩٨ – ٣٢٦. أحمد شاكر عبد العلاق. (٢٠٢١). النشاط السياسي للحزب القومي الإيراني ١٩٤٦-١٩٧٩م: دراسة في أدبيات الحزب. مجلة الكلية الإسلامية الجامعة.1(59), 727-774

(١٣) العزاوي (٢٠١٠). ص ١٣٩.

(١٤) بتاريخ كانون الأول عام ١٩١٧م، وضعت اللبنات الأولى لحزب العدالة الشيوعي بزعامة أسد الله غفار زادة، مع مطلع شهر كانون الثاني عام ١٩٢٧م، عقد الحزب مؤتمره الأول الذي تبنى أطروحة مقارعة الملكية الإيرانية المتمثلة بشخص رضا شاه بهلوي وبسقوط رضا شاه بهلوي في أيلول عام ١٩٤١م، حصلت بوادر انفراج سياسي وحيز من الحرية لأنشطة الأحزاب والصحافة فانطلقت أنشطة الأحزاب والصحف الإيرانية، فكان حزب توده أول حزب تشكل. للتفاصيل يُنظر: كيانوري، نور الدين (١٣٨٧). خاطرات نور الدين كيانوري. مؤسسة تحقيقاتي وانتشاراتي؛ جمعي ازبزوهشكران (١٣٨٧). حزب توده از شكل كيري تافروباشي ١٣٢٠-١٣٦٨ش. جاب سوم. مؤسسة مطالعات وبزوهشهاي سياسي. أحمد شاكر عبد العلاق. (٢٠١٥). **الاتفاقات الاقتصادية الأمريكية-الإيرانية ١٩٧٣–١٩٧٦م في تقارير ومراسلات هنري كيسنجر** Journal of the College of Education for Girls . for Humanities, (17).

(١٥) أرسى قواعد هذه المنظمة عددًا من الشخصيات السياسية – الأكاديمية في إيران إلى جانب طائفة من الشباب الإيراني من موالي حزب نهضت ازادي، والمتأثرين بأفكار وطروحات مهدي بازركان (١٥) منذ شهر آب عام ١٩٦٥م، وأغلب المؤسسين لهذه المنظمة كانت من النخب الجامعية وأعضاء من حزب نهضت ازادي المتأثرين بالأفكار الليبرالية، والتي كانت من الناحية الأيديولوجية تواصل مسيرة حركة المقاومة الوطنية التي تأسست في خمسينات القرن العشرين. للتفاصيل أكثر يُنظر: فر، محمد شفيعي (٢٠٠٧). الأسس الفكرية للثورة الإسلامية الإيرانية. محمد حسن زراقط (مترجم). مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي. ص٢٢؛ جمعي ازبزوهشكران (١٣٨٦)؛

Alalaq, A. (2021). Iran's Freedom Renaissance Party and its Impact on the Contemporary History of Iran 1979-1981 A.D. An Analytical Study of the Party's Statements. Kufa Journal of Arts, 1(46), 163–210. https://doi.org/10.36317/kaj/2021/v1.i46.647

(١٦) بادر بيزن جزني أحد أقطاب المعارضة الماركسيين بتاريخ آذار عام ١٩٦٥م، مع بعض ناشطي منظمة طلبة جامعة طهران وعقب سلسلة لقاءات واجتماعات بهدف اعتماد سياسة ونشاط منسجم وفاعل توصلوا إلى تشكيل فصيل باسم فصيل جزني – ظريفي وهو كان البداية لمنظمة فدائيي خلق إيران التي قادت الكثير من عمليات الكفاح المسلح ضد البلاط. للتفاصيل يُنظر: العلاق (٢٠٠٧). ص ١٨٣ – ٢١١.

(١٧) العزاوي (٢٠١٠). ص ١٤٥.

(١٨) الهايس (٢٠٠٠). ص ٣٩.

(١٩) الصمادي، فاطمة (٢٠١٢). **التيارات السياسية في إيران**. المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. ص٣٩ ؛ العزاوي(٢٠١٠).ص ١٤٦

(٢٠) الصمادي (٢٠١٢). ص ٤٠.

(٢١) للتفاصيل انظر، أسماء تلك الشخصيات: الشاذلي، أحمد عبد القادر (١٩٩٧). **الاغتيالات السياسية في إيران**. العربي للنشر. ص ٨٤ – ٨٥.

(٢٢) الهايس (٢٠٠٠).٣٩ – ٤٠.

(٢٣) العزاوي (٢٠١٠). ص ١٤٦.

(٢٤) الهايس (٢٠٠٠). ص ٤١؛ العزاوي (٢٠١٠). ص ١٤٧.

(٢٥) فقد تعرض الكثير من أعضاء المنظمة إلى الاعتقال والتشريد والقتل. للمزيد يُنظر: جاسم محمد الهايس، المصدر نفسه، ٤٢؛ فهرمند، مهربان (١٩٨٤). الثورة المسروقة في إيران. مركز البحوث والمعلومات. ص ٢٠٢.

(٢٦) فهرمند (١٩٨٤). ص ١٩٩

(٢٧) العزاوي (٢٠١٠). ص ١٤٧.

(٢٨) الاطرقجي، سالم (د-ت). القوى الكبرى ومشروب الأباطرة الكبار. بساتين المعرفة. ص ١٥٠.

(٢٩) للمزيد يُنظر: مصطفى، رعد عبد الجليل؛ وعلي محمد كاظم (١٩٨٨). **المؤسسة الدينية في إيران وأحزاب المعارضة**. بيت الحكمة. ص١٠٩.

(٣٠) أسس الحزب بعد أسبوع واحد من انتصار الثورة الإسلامية، ويُعَدّ أنموذجًا للحزب السياسي الديني الأصولي، استلهم فكره من طروحات آية الله الخميني، كان صاحب فكرة تأسيس الحزب محمد حسين بهشتي الذي انتخب أمينًا عامًا له. وقد أعلن الحزب عن أهدافه التي تمحورت حول استمرار الثورة والابتعاد التام عن أي نوع من أنواع التبعية لأي جهة والاستفادة من جميع الأساليب النضالية البناءة. للتفاصيل أكثر يُنظر: الصمادي (٢٠١٢). ص ٨١ – ٩٠.

(٣١) مصطفى، رعد عبد الجليل؛ وعلي محمد كاظم (١٩٨٨). ص ٩٥.

(٣٢) مصطفى، رعد عبد الجليل؛ وعلي محمد كاظم (١٩٨٨). ص ٩٥ – ٩٦.

(٣٣) الاطرقجي (د-ت). ص ١٦١؛ النعيمي، أحمد نوري؛ والجميلي، حسين علي (د-ت). ص٥٨١.

(٣٤) فهرمند (١٩٨٤). ص ١٩٩.

(٣٥) **نور الدين كيانوري** (١٩١٥ - ١٩٩٩م) بن الحاج الشيخ مهدي نوري، ولد في طهران، أكمل دراسته المتوسطة وهو في عمر التاسعة عشر في دار الفنون، ومنذ العام ١٩٣٥م، سافر إلى ألمانيا لاستكمال دراسته والتخصص في الهندسة المعمارية. وبعد إقامته فيها خمس سنوات رجع إلى إيران عام ١٩٤٠م، توفي بتاريخ الخامس من كانون الأول عام ١٩٩٩م. للمزيد يُنظر: مركز بررسي اسناد تاريخي (١٣٨٠). سازمان افسران حزب توده به روايت اسناد ساواك. وزارت اطلاعات. كتاب ششم. ص٤-٥.

(٣٦) الزين، حسن (١٩٧٩). **الثورة الإيرانية في أبعادها الفكرية والاجتماعية**. دار الفكر الحديث. ص٣١.

(٣٧) العزاوي (٢٠١٠). ص ١٤٦.

(٣٨) للتفاصيل عن موقف توده يُنظر: مصطفى، رعد عبد الجليل؛ وعلي، محمد كاظم (١٩٨٨). ص١٠٤ – ١٠٥؛ مهابة، أحمد (١٩٨٩). **إيران بين التاج والعمامة**. دار الحرية. ص ٣٩٥ – ٣٩٦.

(٣٩) مهابة (١٩٨٩). ص ٣٩٤.

(٤٠) للمزيد يُنظر: مصطفى، رعد عبد الجليل؛ وعلي، محمد كاظم (١٩٨٨).٢٥؛ الهايس (٢٠٠٠). ص ٦٢.

(٤١) العزاوي (٢٠١٠). ص ١٤٠ وما بعدها.

(٤٢) **ميرزا هدايت محمد مصدق** (١٨٨٢ – ١٩٦٧م): هدايت الله بن ميرزا حسين بن ميرزا كاظم بن اقا محسن اشتياني ولد في مدينة احمد أباد في طهران ويعد أجداد مصدق من جانب الأب من أكابر رجال دعاة التجديد وكانت عائلته ملتزمة بالأصول الأخلاقية والشرعية، لذا كانت نشأته وتربيته في كنفها سبباً في التزامه وارتباطه بالقواعد والحدود الإسلامية حتى نهاية عمره ورسوخها، قولاً وفعلاً وتفكيراً تزوج مصدق وهو في العشرين من عمره من ضياء السلطنة ابنة الشيخ زين العابدين، الذي كان إمام جمعة طهران في العهد القاجاري وفي عهد رضا بهلوي. للمزيد عنه يُنظر: الشمري، ثامر مكي علي (٢٠٠٨). **محمد مصدق، حياته ودوره السياسي في إيران** [رسالة ماجستير غير منشورة]. جامعة بغداد. أحمد شاكر عبد العلاق. (٢٠٢١). **النشاط السياسي للحزب القومي الإيراني ١٩٤٦-١٩٧٩م دراسة في أدبيات الحزب**. مجلة الكلية الإسلامية الجامعة.727-774 ,(59)1 ,

(٤٣) الاطرقجي (د-ت). ص ١٥٣.
(٤٤) هدايت الله متين دفتري ابن الدكتور احمد متين دفتري، أكمل الحقوق من جامعة لندن ببريطانيا عام ١٩٥٦م، كان من اشد المعارضين لاستراتيجية الحزب الجديدة لذا فقد مثل وبعض رفاقه تيارًا متشددًا داخل رحم الجبهة الوطنية. للمزيد عنه يُنظر: دانشجويان مسلمان بيرو خط امام (١٣٨٦). اسناد لانه جاسوسي أمريكا. مؤسسة مطالعات وبزوهشهاى سياسي. جلد سوم. ص ١٦- ١٨.
(٤٥) الاطرقجي(د-ت). ص ١٥٣.
(٤٦) الاطرقجي(د-ت). ص ١٥٣ - ١٥٤.
(٤٧) كريم سنجابي (١٩٠٥ – ١٩٩٥م) بن قاسم سنجابي (سردار ناصر) رئيس قبيلة سنجاب، ولد في منطقة سنجابي في كرمنشاه، اكمل دراسته الابتدائية في منطقة قصر- شيرين والمتوسطة في مركز مدينة كرمنشاه، ثم انتقل إلى طهران ودخل المعهد العالي للحقوق، ومنذ العام ١٩٢٨م، كان من ضمن المجموعة الأولى التي أرسلت في بعثة دراسية إلى فرنسا، حصل سنجابي على شهادة الدكتوراه في الحقوق في جامعة باريس، شغل حال رجوعه إلى ايران عدة مناصب حكومية، ابرزها، رئيس دائرة الأوقاف العامة الإيرانية، أستاذا في كلية الحقوق في جامعة طهران، وعميداً للكلية ذاتها عام ١٩٤٤م ، توفي بتاريخ تموز عام ١٩٩٥م. للمزيد يُنظر: مركز بررسي اسناد تاريخ(١٣٨٠).قيام ١٥ خرداد به روايت اسناد ساواك. وزارت اطلاعات. جلد اول. ص ٢٢٧ – ٢٢٩.
(٤٨) للمزيد يُنظر: مصطفى، رعد عبد الجليل؛ وعلي، محمد كاظم (١٩٨٨). ص٨٣؛ مهابة(١٩٨٨). ص ٣٩٤ – ٣٩٥.
(٤٩) للتفاصيل أكثر عن الحزب يُنظر: الهايس (٢٠٠٠). ص ٧٤ – ٧٥.
(٥٠) للمزيد يُنظر: مصطفى، رعد عبد الجليل؛ وعلي، محمد كاظم (١٩٨٨). ص ٨٤ – ٨٥.
(٥١) جماعة الفرقان هي إحدى الجماعات والتشكيلات التي كانت تزاول أعمالها في السبعينيات في إيران، وقد ظهرت مع انتصار الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩. اتخذت هذه الجماعة موقفا راديكاليا ومتطرفا ضد رجال الدين، وقد نفذت سلسلة من عمليات الاغتيال التي استهدفت مسؤولين مدنيين وعسكريين ورجال دين كبار من قادة الثورة والنظام.
(٥٢) **مرتضى مطهري** (١٩١٩ - ١٩٧٩م) ولد في قرية نريمان بمحافظة خراسان ونشأ وترعرع على يد والده. هاجر مطهري عام ١٩٣١م إلى مشهد طالباً للعلم ودرس هناك مقدمات العلوم الإسلامية والفلسفة والعرفان وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره غادر مشهد إلى قم. للمزيد يُنظر: مطهري، مرتضى (٢٠٠٦). الدوافع نحو المادية. محمد علي التسخيري (مترجم). المشرق للثقافة والنشر. ص٨-١١.
(٥٣) علي اكبر هاشمي رفسنجاني (١٩٣٦ - ٢٠١٧) بن الحاج ميرزا علي، ولد في رفسنجان ، نال تحصيله الابتدائي في مسقط رأسه ثم توجه إلى قم لاستكمال تحصيله العلمي. أصبح عضواً في مجلس الشورى الإسلامي بعد الثورة الإسلامية وعضواً في مجلس تشخيص النظام ورئيساً للجمهورية الإسلامية الإيرانية. للمزيد يُنظر: مركز بررسي اسناد تاريخي (١٣٧٨). شهيد محمد علي رجايي به روايت اسناد ساواك. وزارت اطلاعات. كتاب ١٤. ص١٤٧؛ رفسنجاني، علي أكبر هاشمي (٢٠٠٥). مكاشفات. دار الولاية؛ رفسنجاني، هاشمي (١٣٧٦). دوران مبارزه. دفتر نشر معارف انقلاب.
(٥٤) الهايس (٢٠٠٠). ص ٧١ – ٧٣؛ الاطرقجي(د-ت). ص ١٧٢.
(٥٥) للمزيد يُنظر: مصطفى، رعد عبد الجليل؛ وعلي، محمد كاظم (١٩٨٨). ص ٨٥.
(٥٦) اذ شن اية الله الخميني هجوماً شرساً على من اسماهم (أصحاب النفوس الشريرة) وهدد بأنه سيقابلهم بالمثل إذا استمروا في نهجهم الذي يستهدف الثورة. الهايس (٢٠٠٠). ص ٤٢.
(٥٧)رفسنجاني(١٣٧٦).
(٥٨) كسروى، احمد (١٣٤٦). تاريخ هجده ساله أذربيجان. مؤسسة اميركبير. ص٨٣٦-٨٣٧ ؛ بيسان، نجفقلى خان؛ و معتضد ,خسرو (١٣٣٧). از سوادكوه تازورها سبنورك. ص١٩٢. العلاق, أ. ش. ع & ,.أحمد شاكر عبد. (٢٠١٤). **حركة أبو الفتح ميرزا سالار الدولة (١٩١١–١٩١٣)** من حركات التمرد المسلح في إيران: دراسة وثائقية .دورية كان التاريخية: المستقبل الرقمي للدراسات التاريخية.27-17 ,(23)7 ,
(٥٩) تشكل الحزب في كردستان إذ أسس المثقفون جمعية إحياء الكرد في أيلول ١٩٤٢م، التي مثلت نواة الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي أعلن عنه رسمياً بتاريخ السادس عشر من آب ١٩٤٥م. للتفاصيل عنه يُنظر: العلاق (٢٠١٧). ص ٢٧٧ – ٢٩٧؛ مقصودي، مجتبى (١٣٨٢). قوميت هاي ونقش انان در تحولات سياسي سلطنت محمد رضا بهلوي. مركز إسناد انقلاب. ص٢٨٢؛ محمد ع & ,.العلاق ا. (٢٠١٢). **الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني ١٩٦٣ – ١٩٧٩م** ."آداب الكوفة ,1(14), 100–124. https://doi.org/10.36317/kaj/2012/v1.i14.6282
(٦٠) **عبد الرحمن قاسملو** (١٩٣٠ – ١٩٨٩م) ولد في وادي قاسملو المجاور لمدينة اورمية بتاريخ كانون الأول، بدء أول نشاط سياسي له منذ عام ١٩٤٥م، وادى دوراً في تشكيل اتحاد الشباب الديمقراطيين في كردستان ، وفي عام ١٩٤٧م ، توجه قاسملو إلى فرنسا واكمل دراسته فيها، شارك قاسملو في العديد من التظاهرات التي دعى إليها حزب الجبهة الوطنية وكان من أشد المؤيدين لأفكار وتوجهات محمد مصدق، اغتيل قاسملو عام ١٩٨٩م. للمزيد يُنظر: الصويركي، محمد علي(٢٠٠٥). **معجم أعلام الكرد**. مؤسسة حمدي للنشر. ص ٤٢٥؛ العلاق (٢٠٢٠). ص ٥٣.
(٦١) الجبوري، أحمد فليح حسين (٢٠١٨). **حكومة أبو الحسن بني صدر دراسة في السياسة الداخلية**. مؤسسة الصادق. ص ٤٧.
Muhammad, A., & Alalaq, A. (2012). The Iranian Kurdistan Democratic Party 1963-1979 AD. Kufa Journal of Arts, 1(14), 100–124. https://doi.org/10.36317/kaj/2012/v1.i14.6282
(٦٢) للتفاصيل يُنظر: الجبوري (٢٠١٨). ص ٤٧ – ٤٨.
(٦٣) **السيد محمود الطالقاني** (١٩٠٣ – ١٩٨٠م) ولد بتاريخ الرابع عشر من ربيع الأول، دخل الحوزة العلمية في مدينة قم ودرس على يد أساتذتها أمثال آية الله حجتي واية الله الخوانساري، له عدة مؤلفات في العقيدة الإسلامية، أهمها شروح على كتاب تنبيه الأمة وتنزيه الملة، الإسلام والملكية، والحرية والاستبداد. توفي محمود الطالقاني بتاريخ العشرين من تشرين الأول عام. نشر معروف. جلد دوم. ص٨٠٦-٨١٢.
(٦٤) للتفاصيل أكثر يُنظر: الهايس (٢٠٠٠). ص ٥٤ – ٥٨؛ العزاوي (٢٠١٠). ص ٢٤.
(٦٥) للتفاصيل أكثر يُنظر: العزاوي (٢٠١٠). ص ٢٤.
(٦٦) للتفاصيل أكثر يُنظر: مصطفى، رعد عبد الجليل؛ وعلي، محمد كاظم (١٩٨٨). ص ٤١.
(٦٧) العزاوي (٢٠١٠). ص ٢٣٨ - ٢٣٩.

ترجمات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

مغاربة في المدرسة العسكرية للمهندسين بمونبلييه ١٨٨٥ – ١٨٨٨م[١]



د. خالد جدي
أستاذ باحث في التاريخ المعاصر والراهن
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر – المملكة المغربية

الدِّرَاسَةُ

Jacques CAILLÉ, «Les marocains à l'école du génie de Montpellier : 1885-1888», Hespéris, T. XLI, 1954, pp. 131-145.

تقتفي هذه الدراسة البدايات الأولى لمحاولة الإصلاح العسكري المغربي في زمن السلطان العلوي المولى الحسن الأول، نتيجة تصدع أسس الدولة المغربية التي ورثها السلطان المذكور، بعد صدمتي "إيسلي ١٨٤٤ و تطوان ١٨٥٩-١٩٦٠"، التي حتمت عليه ارسال بعثات طلابية مغربية لفرنسا لدراسة الهندسة العسكرية، تتبع الباحث في هذه الدراسة النخب العسكرية المغربية التي حلت بفرنسا "مونبلييه"، إنها رحلة توثق المسار الذي قطعه الشبان المغاربة لتلقي التكوينات العسكرية، وما واجهوه من مشاكل متعددة منها ما مرتبط باللغة، الثقافة، والعادات، ودرجة ذكاءهم، وخلصت دراسة جاك كايي على الرغم من الموارد المالية الضخمة المرصودة التي كان يدفعها مخزن المولى الحسن الأول للأكاديمية العسكرية الفرنسية بمونبلييه، وإضافة للجهد المبذول من طرف المؤطرين العسكريين الفرنسيين المسؤولين عن تدريب هؤلاء النخب المغربية في الميدان العسكري، والمهام الموكلة إليهم، ودقة برنامج الدراسة الذي تم وضعه لهم منذ وصولهم لفرنسا، إلا أن إقامة النخب العسكرية المغربية في مونبلييه لم تسفر عن نتائج تذكر، وأن المخزن الشريفي لم يربح الشيء الكثير منها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام الترجمة: ٢٤ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ أغسطس ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

معركة إيسلي؛ معركة تطوان؛ الإصلاح العسكري؛ المخزن؛ السلطان الحسن الأول

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.224862

الاستشهاد المرجعي بالترجمة:

جاك كايي."مغاربة في المدرسة العسكرية للمهندسين بمونبلييه ١٨٨٥ – ١٨٨٨م"، ترجمة: خالد جدي.- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة - العدد الواحد والستون؛ سبتمبر ٢٠٢٣. ص ٢٤٠ – ٢٤٨.

Corresponding author: khalid.jeddi@outlook.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مغاربه في المدرسة العسكرية

قضى السلطان مولاي الحسن الأول، معظم فترة حكمه متجولا، عبر المغرب على رأس قواته، وكان مهتما بالفن العسكري وسعى لتحسين قيمة جنوده. منذ سنة ١٨٧٨م، تم جلب بعثة من الضباط وضباط الصف الفرنسيين إلى البلاط الشريفي، حيث قاموا بتدريب رجال المدفعية والمشاة المغاربة. وأراد السلطان، بعد ذلك، إرسال بعض المغاربة لأوربا لتعليمهم المهارات العسكرية. في شهر غشت سنة ١٨٨٤م، أبلغ السلطان برغبته هاته، رئيس البعثة الفرنسية القائد لو فالوا (Le Vallois)؛ وقال إنه سيكون من حسن حظه، أن يتم تعيين الشبان، المتوجهين إلى فرنسا، ضمن فوج المدرسة العسكرية للمهندسين، لتلقي تعليمات خاصة حول هذا السلاح. تم إرسال الطلب على الفور، إلى وزارة الحرب الفرنسية، ولكن، كان لا بد من التوصل إلى اتفاق مع وزارة الشؤون الخارجية. علاوة على ذلك، تأخرت بعض المراسلات بشكل كبير؛ وهكذا، فإن رسالة من وزير الحرب، بتاريخ ١٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤م، لم تصل إلى القائد "لو فالوا" حتى فبراير الثاني من العام التالي. ولم يتم التوصل إلى اتفاق إلا في ماي سنة ١٨٨٥م. وتقرر أن يتدرب اثنا عشر مغربيا في المدرسة العسكرية للمهندسين، في مونبلييه.

انطلق المتدربون من طنجة، في ٢٤ يونيو سنة ١٨٨٥م، على متن السفينة الحربية أريتوس (Aréthuse). تم وضعهم تحت سلطة المترجم البرتغالي ميغيل دي كاسترو (Miguel de Castro)، الذي يتحدث ويكتب اللغة الفرنسية بطلاقة. كما كانت السفينة نفسها تقل السفير المغربي عبد الملك بن علي، عامل وجدة إلى فرنسا، كان هذا الأخير، برفقة قاضي فاس، وابن الأخير، وخمسة قادة، وسكرتير، وعدد من الخدم، مهمتهم أن ينقلوا، للحكومة الفرنسية، أقوى ضمانات حسن النية، وصداقة السلطان. كما اضطر إلى تسوية بعض الخلافات المتعلقة بالحدود الجزائرية المغربية والاحتجاج على قضايا "المحميون والجنسيات الأوربية"، التي كان من السهل منحها، في هذه الفترة للكل، في انتهاك لاتفاقية مدريد لسنة ١٨٨٠م. إلى جانب السفير المغربي، أخذ الوزير المفوض الفرنسي بطنجة، لورون شارل فيرو[٢] (Laurent - Charles Féraud)، مكانه أيضا على متن السفينة، وبمعيته ملحق بالسفارة، ومترجم تابع لمفوضيته.

أرست سفينة أريطوس (Aréthuse) في ميناء طولون، في ٢٧ يونيو، بينما توجه السيد فيرو والسفير المغربي وحاشيته إلى باريس، وسلك الطلبة المغاربة الطريق إلى مونبلييه، تحت إشراف كاسترو. وصلوا وجهتهم في ٢٨ يونيو، على الساعة الرابعة وخمس عشرة دقيقة مساء؛ واستقبلهم العقيد ريونديل (Riondel)، من مدرسة الهندسة العسكرية[٣] (2e régiment du génie)، على رصيف المحطة مع عدد من ضباطه، وصاحبهم إلى ثكنة المهندسين، حيث تم اتخاذ الإجراءات اللازمة لإيوائهم.

هناك القليل من المعلومات عن أصل وعائلات هؤلاء المغاربة. لكن، كان هناك خمسة طلبة بينهم: محمد بن عبد الرحمن، ومحمد بن سعيد، والعلام، وصلاح بن محمد، وعلال بن محمد. وكان هذا الأخير، ذا بشرة سوداء داكنة، ربما، كان ينحدر من عبيد البخاري، أما الأول، فقد كان نجل المنشق الفرنسي، عبد الرحمن دسولتي، القائد الكبير السابق للمدفعية في المغرب، الذي توفي في فاس سنة ١٨٨١م. أما السبعة الآخرون وهم: العربي بن عبد السلام، محمد الزعواني، عمر، محمد حساني، أحمد الكلي، محمد بن دحمان، ومحمد الهواري. لقد قدم العربي بن عبد السلام من مازاغان (الجديدة)، والزعواني، والهواري من آسفي، وأحمد الكلي، ومحمد بن دحمان من تطوان. هذان الأخيران، كانا يعملان في السابق صانعي أحذية. فلا يبدو، أن تعيين هؤلاء الشباب قد تم بما يكفي من التبصر اللازم.

لكن، كان من غير المعقول ترك هؤلاء المغاربة، وحدهم، في بلد أجنبي، لا يتحدثون لغته، خاصة مع أولئك الذين سوف يعلمونهم، وكانوا لا يعرفون شيئا عن عاداتهم المغربية. من هنا ضرورة أن يرافقهم رجل جاد، يعرف الفرنسية جيدا، ومن الأنسب أن يكون بمثابة مرشد لهم. ميغيل دي كاسترو، القنصل البرتغالي، السابق في إحدى المدن الواقعة على الساحل الأطلسي للمغرب، اعتنق الديانة الإسلامية، من أجل امرأة مغربية، لكنها، تركته لاحقا من أجل رجل فرنسي، يعمل في المفوضية الفرنسية، لذلك ذهب هذا البرتغالي ليعيش في البلاط الشريفي وكان يعيش حياة حزينة، هناك. في سنة ١٨٧٨م قدم خدمة جليلة لأول رئيس للعمليات العسكرية الفرنسية بالمغرب، الكابتن جول إيركمان[٤] (Jules Erckmann)،

وأظهر عدم الاهتمام، الذي لم يكن المواطن الفرنسي معتادًا عليه، في البيئة التي عاش فيها بعد ذلك.

كان اختيار الحكومة الشريفة موفقا. حيث عمل "كاسترو"، بكل تفان في مهمته. تابع عن كثب، نشاط أولئك الذين كان مسؤولا عن تقديم المشورة لهم، واعتنى بهم كثيرا، وظل على إطلاع دائم بمجريات حياتهم وعملهم، سواء بحضور المخزن، أو وزير فرنسا المفوض في طنجة. ولم يتردد، إذا لزم الأمر، في بيان العيوب التي يرتكبها هؤلاء الشباب، ومطالبته بالعقوبات اللازمة تجاههم. وتشهد مراسلاته على الأمانة التي كان يؤدي بها واجباته. بعد أكثر من عامين قضاهما في مونبلييه، طلب الإذن، الذي مُنح له، بالعودة إلى المغرب، لأن المغاربة، كما قال، تعلموا الفرنسية، ويمكنهم الاستغناء عن حضوره. في الواقع، لم يكن ينسجما مع العقيد الجديد[5]، قائد المدرسة العسكرية للمهندسين، كما عانى عدم تقدير خدماته.

تم إيواء الشباب في القلعة، أي، في ثكنات المدرسة الهندسية، حيث كان لكاسترو غرفة منفصلة، ومؤثثة باعتباره مساعدا لهم. وكان عليهم أن يدفعوا من رواتبهم، مقابل الإضاءة، والتدفئة في الغرف المخصصة لهم؛ غير أن المصابيح والمواقد الضرورية، وباقي المستلزمات وُضعت تحت تصرفهم. وفقد كان عليهم تعويض الضرر، الذي يرتكبونه. في البداية، كان يتم إطعامهم في المقصف، كضباط الصف، وبمعدل فرنك واحد في اليوم. وهو المبلغ الذي يخصم من رواتبهم. لكن، سرعان ما طالبوا بإعداد وجباتهم بأنفسهم، وهو الطلب الذي منح لهم.

كان إيجاد حل لقضية ملابسهم من أكثر الصعوبات، وأدى ذلك إلى مراسلات عديدة بين المندوب الفرنسي، في المغرب، والعقيد ريونديل وكاسترو. كان الشباب المغاربة قد وصلوا فرنسا، وهم يرتدون ملابس مغربية، وكان الأمر غير مألوف، على أرض التدريب، داخل المدرسة العسكرية الفرنسية. كما قام العقيد الريونديل، على الفور بتسليم كل منهم حاجياته من متجر المدرسة وهي عبارة عن: بلوزة من الكتان بسعر ٣,١٢ فرنكات، سراويل الكتان بسعر ٣,٩٠ فرنكات، زوج من الأحذية بسعر٧,٧٧فرنكات، وبلغ مجموع المصاريف ١٧٦,٠٤ فرنك؛ وهو المبلغ، الذي تم خصمه، أولاً، من رواتب الأطراف المعنية، ليتم تعويضه، من قبل المخزن، في شهر فبراير سنة ١٨٨٦.

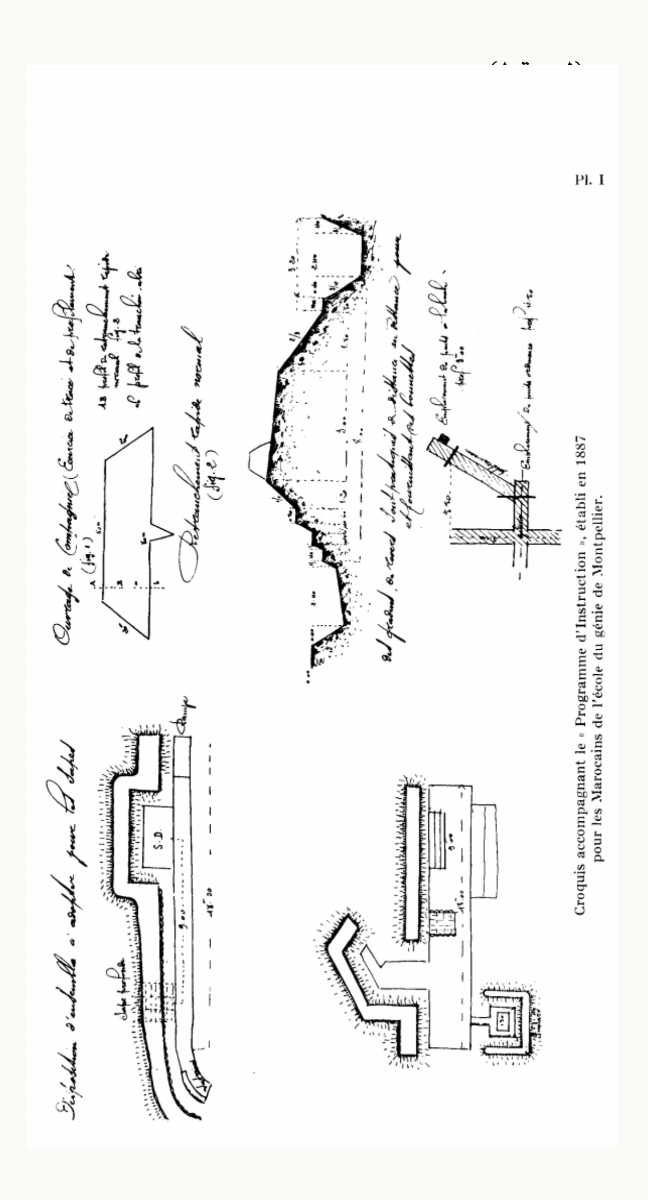
تآكلت ملابس الكتان، بسرعة، كذلك الشأن بالنسبة للملابس المغربية، لم تكن كافية لموسم الشتاء في مونبلييه. في السنة الأولى، من إقامة الطلبة، أعار الفوج للمتدربين معاطف قديمة، لكن العقيد ريونديل اهتم، في العام التالي، بتزويدهم بملابس لائقة ومريحة. اقترح العقيد ريونديل على فيرو في ٧يناير١٨٨٦م، ملابس بدت له مناسبة، وأكثر اقتصادا لأشهر الشتاء، وهي كالتالي: سراويل بأحزمة أو بدونها، بسعر ١٢ فرنك، وسترة بسعر ١٣فرنك، وزوج من الأحذية بسعر ٨٠ فرنك، وزوج من الخفاف الجلدية بسعر ٣,٤٠ فرنكات، مما جعل إجمالي ثمن الملابس العسكرية يتراوح ما بين ٣٥ و٤٠ فرنكا لكل فرد. إضافة إلى ذلك، كان من الضروري توفير معاطف بشكل لائق بسعر ٢٧ فرنكات لكل متدرب. وبعد التفكير في إحضار ملابس مغربية من طنجة، كان الشباب طوال فترة إقامتهم في فرنسا يرتدون ملابس المهندسين، باستثناء الطربوش الفرنسي، الذي تم تعويضه بطربوش مغربي. ولتسوية المصاريف، دفع المخزن رقمًا معينًا من الفواتير التي ارتفعت قيمتها بشكل خاص إلى ٢٩٠,٣٧ فرنكات سنة ١٨٨٦م، ثم ٥٣٥,١٠ فرنكات للسنة الموالية، وتتعلق هذه الفواتير بالمعاطف، والسراويل، وسترات القماش، والأحذية والخفاف، وقمصان الكتان. كما أمر السلطان بدفع مبلغ يومي قدره ٢ فرنك، لكل متدرب، وتعويض قدره ٦ فرنكات يوميا لكاسترو. وتم الاتفاق على إرسال المبالغ اللازمة مقدما كل ستة أشهر، في ٢٥ من يونيو، و٢٥ من دجنبر من كل سنة. كان من المقرر أن يقوم السفير عبد الملك، الذي تلقى أموالاً من المخزن، بتسديد الدفعة الأولى، لكنه، وجد نفسه مضطرًا إلى تغطية نفقات غير متوقعة، لدرجة أنه لم يدفع المبلغ المستحق إلا في بداية غشت سنة ١٨٨٥م، بعد عودته إلى طنجة، لم يفشل العقيد ريونديل والمترجم كاسترو في تذكير الحكومة الشريفة، قبل عدة أشهر، بتاريخ كل موعد نهائي؛ ومع ذلك، فإن هذا الاحتياط لم يمنع بعض التأخير. تم تسليم الأموال، من قبل المخزن، إلى المفوضية الفرنسية في طنجة؛ هذه الأخيرة أرسلتها إلى وزارة الحرب في باريس، والتي أحالتها إلى العقيد قائد مدرسة الهندسة العسكرية. بناء على نصيحة فيرو، تم دفع الرواتب لأولئك المعنيين، في نهاية كل أسبوع، وليس كل شهر، كما كان مقررًا.

لم يمر شهر على استقرار خبراء المتفجرات، المغاربة الشباب، في فرنسا، حتى زارهم السفير المغربي عبد الملك، الذي كان عائدا إلى الإمبراطورية الشريفة. عامل وجدة ورفقاءه في الرحلة، وبمساعدة فيرو، حلوا بمونبلييه، يوم الاثنين ٢٠ يوليو ١٨٨٥م، على الساعة ١٠ و٥٣ دقيقة صباحًا.

كانت جميع سلطات المدينة في انتظارهم داخل محطة السفر: وضمن المستقبلين، هناك السيد المحافظ، والأمين العام، ورئيس البلدية ونائبان له، والقائد العام لفيلق الجيش السادس عشر، والمفتش العام لقوات الدرك، والمراقب العسكري، العقيد ريونديل، والعديد من الضباط من رتب متفاوتة، وانضم إليهم المغاربة المتدربون الإثنا عشر، بأوامر من ملازم المهندسين روجر (Hoger). بعد تبادل التحيات المعتادة، تم نقل الضيوف إلى فندق نوفي (Nevet)، وفي مساء اليوم نفسه، تم تقديم العشاء والأغطية لخمسة وعشرين عضوا من البعثة. لقد مكث السفير المغربي يومين ونصفا في مونبلييه، وخلالهما، تحدث مطولاً مع مواطنيه الشباب. ومن ناحية أخرى، ناقش برنامج تدريبهم مع العقيد ريونديل. وتم اصطحابه إلى مبنى داخل المدرسة، حيث زار، بالتفصيل، نظام المتفجرات المضاد بأكمله. كما حضر مظاهرات وتمارين بالديناميت، بما في ذلك تدمير جسر فوق نهر ليز (Lez). أبدى السفير، عبد الملك، اهتمامًا كبيرًا بهذه العمليات، وقدم تحياته للعقيد، ومنحه مكافأة كبيرة مقابل ذلك. "لإثبات رضا الكولونيل عن رجال الفوج". تم استخدام هذا المبلغ، من ناحية، لتقديم حصة إضافية من النبيذ للفرنسيين، ولتحسين الطعام العادي للمغاربة من ناحية آخرى. واستقل السفير المغربي ومرافقوه القطار يوم ٢٢ يونيو، إلى مرسيليا، حيث أعادتهم السفينة "الأريتوس" إلى طنجة.

وبناءً على الرغبة التي عبر عنها المخزن، كان على الشباب المغربي الاكتفاء بتعلم ممارسة الأعمال الهندسية الخاصة، دون الانخراط في "مدرسة العسكرية"، لهذا السبب، ومنذ وصولهم، أُجبروا على القيام بالتدريبات نفسها على الساحة، مثل خبراء المتفجرات الفرنسيين، والقيام بالتحصينات الميدانية، وأسلوب الحصار، والعمل في الجسور، والمناجم، وإشعال النار بالبارود، واستخدام الديناميت. كما شاركوا في حرب المتفجرات، التي قام بها فوج المدرسة العسكرية. ولكن، اتضح على الفور أن تعليمًا نظريًا معينًا كان ضروريا، بالنسبة لهم، في الوقت نفسه كإرشاد عملي. كان المتدربون يوميا يزاولون مهامهم الصباحية والمسائية باستثناء يومي الجمعة والأحد، وعند سوء أحوال الطقس صباحا أو مساء يخصص الوقت لتعلم اللغة الفرنسية، ودراسة المفردات، والقراءة، والكتابة، والحساب، والنظام المتري والهندسة العملية. تم إعطاء التعليمات، من قبل رقيب، يساعده المترجم كاسترو. فمنذ شهر ماي سنة ١٨٨٦م، لم يكن هناك سوى عشرة مغاربة، لأن اثنين منهما قد أعيدا إلى المغرب. تم تقسيمهم على ثلاث مجموعات. الأولى تتألف من خمسة طلبة، والتي عمل كاسترو كمدرب لها. وشكل عمر ومحمد حساني الثانية، تحت قيادة رقيب. والثالثة، تضم كلا من محمد الهواري، وأحمد الكلي، ومحمد بن دحمان، عهد بها إلى أحد الخبراء ليرأسها.

كانت الجلسات المسائية، من حيث المبدأ، مخصصة للتداريب العملية، وخاصة تلك التي بدت أكثر فائدة للمغاربة. كان الهدف من هذه العمليات هو التدرب على المتفجرات النارية، وإطلاق نار، والتحصينات الميدانية، مثل تشييد الخنادق، والدفاعات الملحقة؛ تثبيت القوات العسكرية في الميدان: كنصب الخيام، وبناء الأكواخ...إلخ. صنع وتحضير مواد الحصار، الحواجز، الساحات. وتابع جميع المتدربين، لهذا الغرض، تكوينات بمدرسة الألعاب النارية، في لافليت (La Valette) مع الجنود الفرنسيين. بالإضافة إلى ذلك، قام الطلبة الخمسة بتدوين ملاحظاتهم، عقب كل جلسة، وكذا تدوين التفسيرات التي يقدمها الرقيب، وكتبوا مذكرات عن مختلف الأعمال المنجزة. وبناء على طلب بعض الطلبة المغاربة، سُمح لاثنين منهم مساء، يوم الجمعة، رغم أنه يوم عطلة، بمتابعة دروس التلغراف الجوي مع خبراء المتفجرات في المدرسة العسكرية.



Croquis accompagnant le « Programme d'Instruction », établi en 1887 pour les Marocains de l'école du génie de Montpellier.

هذا البرنامج، الذي تم اتباعه في سنة ١٨٨٦م، تم تعديله، أو الزيادة فيه خلال السنة الموالية. منذ ذلك الحين، وجه الملازم التعليمات، بمساعدة رقيب، وخبير، والمترجم كاسترو، بتقسيم الطلبة المغاربة إلى مجموعتين فقط. الأولى ضمت أربعة طلبة هم: محمد بن عبد الرحمن، محمد بن سعيد، صلاح، العلام، والثانية ضمت كل من علال بن محمد، محمد حساني، عمر، محمد الهواري. ولم يتابع الطالبان المتبقيان، وهما أحمد الكلي، ومحمد بن دحمان، أي دورات، وقضيا كل وقتهما في العمل اليدوي مع ربان المدرسة العسكرية.

في جلسات التدريب النظرية، استمر تعليم اللغة الفرنسية للطلبة المغاربة، ولكن، مع إضافة دروس قواعد اللغة، ودروس المنطق، بالنسبة لأعضاء المجموعة الأولى، كانت دراسات الحساب والهندسة أكثر تقدما، حيث وصلت إلى خمسين درسًا، ودورات في علم الكون، والفيزياء، والكيمياء. على الرغم من أن مناهج هذه المواد، الأخيرة، لها طابع علمي معين. تم تعليم الطلبة المغاربة بعض المفاهيم حول الأرض، والقمر، والشمس، والكواكب، والنجوم، والكسوف، والأعمدة، والخرائط، والتوازي ... إلخ. بالإضافة إلى ذلك، تعلموا قواعد الجاذبية، ومبدأ أرخميدس، وتمدد الأجسام، وقياس، وكثافة السوائل، والمواد الصلبة، إلخ. كما تلقوا بعض المبادئ حول مقياس الحرارة، والبارومتر، والآلة الهوائية، والضغط الجوي، والمغناطيس، والكهرباء. وقد كان العديد منهم لا يزال يتعلم التلغراف، والهاتف، والأجهزة البصرية. وكانت مواد كل من: الماء والنيتروجين والكربون وثاني أكسيد الكربون والكبريت والفوسفور موضوع دروس الكيمياء.

كان التدريب العملي، أيضا، أكثر تطورًا بشكل ملحوظ، منذ بداية سنة ١٨٨٧م، كدراسة التحصينات الميدانية للسرية العسكرية المتضمنة لمظهر جانبي، مع تخطيط عمل هذه السرية، تم شرح للمتدربين المبادئ التي أدت إلى اعتماد أنواع مختلفة من هذه التعزيزات للمتدربين. وتم تقديم عرض بالتفصيل، عن كيف ينبغي ترتيب الدفاعات الملحقة أمام الخندق الخارجي، وكيفية صنع أغطية العشب، وحفر الخنادق المختلفة وقطع المدفعية الميدانية المدفونة. من أجل تثبيت القوات في الميدان العسكري، وتعلم الطلبة المغاربة كيفية حفر الآبار، بأنواعها المختلفة، وتنقية المياه. وكانت المناجم، وإشعال الحرائق، والحفر، والمتفجرات النارية، وصنع معدات الحصار موضوع دروس أكثر عددا، وأكثر شمولية، من العام السابق. تم تدريب الشباب المغاربة على عمل الخندق من جميع جوانبه: البسيط، والعميق، والمزدوج، والخندق الأرضي. لقد تدربوا على بناء أنواع مختلفة من الجسور وكذلك رصد الأحوال الجوية، وصنع العقد، والجلد، والحوامل السريعة، والبطيئة بالحبال، وجذوع الأشجار. كما تم تعليمهم صفات الطرق الجيدة وكيفية صيانتها. تم إعطاؤهم العديد من الدروس، حول السكك الحديدية، على الرغم من عدم وجود أي دروس في المغرب حتى الآن في هذا الميدان، فكانت هذه فرصة لاطلاعهم على محطة مونبلييه، وتم تخصيص كذلك، ست عشرة حصة لدراسة سطح الأرض، والتضاريس، قاموا خلالها برسم الخطوط المستقيمة، واستخدام البوصلة، واللوح الخشبي، وصنع المستويات.

وقاموا بزيارة جميع الأعمال الموجودة، بالفعل، بالمدرسة العسكرية.

لقد أدى الضباط، وضباط الصف الفرنسيون، دورهم كمدربين على أكمل وجه. احتفظ الرقيب، كل يوم بمراقبة اسمية، والإشارة إلى حالة المعلومات المناسبة التي تكشف درجة التدريس، والكفاءة، والذكاء لكل مغربي. من جهته، كان الملازم أول يرسم جدولًا موجزًا شهريًا، يطلع على النتائج التي تم الحصول عليها. بالإضافة إلى ذلك، أتاح الاستجواب المتكرر، للطلبة المغاربة، معرفة ما إذا كانت الأطراف المعنية قد فهمت العمل المطلوب منها، والقيام به، وما إذا كانوا قد استفادوا منه. كانت المذكرات تُسلم بانتظام إلى الوزير المفوض الفرنسي بطنجة. في البداية كانوا، جميعا، جيدين جدا. في التقرير الأول، الذي تم إعداده في نهاية سنة ١٨٨٥م، فلم يكن هناك متدرب تقل درجته عن ١٠ من ٢٠، وخمسة من الطلبة حصلوا على ١٥، والبعض الآخر ١٧، أو ١٨، أو ١٩. لكن، يبدو أن المدربين أظهروا بعد ذلك تساهلا كبيرا. في الواقع، يُظهر التقرير المصاحب لهذه الملاحظات أن ستة فقط من المغاربة، الاثني عشر أبدوا اهتماما حقيقيا بما تعلموه، لكن الستة الآخرين، رغم حسن النية التي يتمتعون بها في تعلمهم، يفتقرون، تماما، إلى التعليم الأساس، ومن المرجح أن لا يحرزوا أي تقدم. نتيجة لذلك، ففي ٧ يناير سنة ١٨٨٦م، اقترح العقيد ريونديل على فيرو إعادتهم إلى بلادهم، واستبدالهم بشباب أكثر قدرة، لكن، طلبه ظل دون نتيجة.

الملاحظات الأخرى، التي تم تقديمها لاحقا، تتوافق بشكل أفضل مع هذا التقدير. ففي ١ يوليوز سنة ١٨٨٦م، حصل ثلاثة مغاربة على درجات "ضعيف" و "ضعيف جدا"، في مختلف مواد برنامج العمل. وفي سنة ١٨٨٧م، اعتُبر أربعة من المغاربة من فئة "المتوسطين". ذكر كاسترو، في شتنبر، سنة ١٨٨٦م أن الطالب علال كان "ذا ذكاء منغلق وذاكرة تأبى التقدم، مستواه التعليمي كان هو نفسه عندما وصل". كما نصحه كاسترو بالعودة إلى المغرب لتجنب "تكاليف غير ضرورية لحكومته بسبب عجزه التعليمي". بدلاً من ذلك، اقترح كاسترو إعطائه تدريبًا عمليًا بسيطا كجندي مشاة، يمكنه، لا شك، من استيعابه، ويسمح له بتقديم بعض الخدمات في الإمبراطورية الشريفة. شابان آخران؛ أحمد الكلي، ومحمد بن دحمان كانا بليدين وأميين. زيادة على ذلك، كانا صانعي أحذية، حسب مهنتهم في المغرب، فبعد أن التحقا بالجيش منذ فترة قصيرة جدا. لا يمكنهما الاستفادة من التعليم النظري، ولا حتى من التعليم العملي. هذا هو السبب في أنهما عينا في ورشة، داخل المدرسة العسكرية للمهندسين، "حيث وجد أنفسهما يعملان في صيانة الأحزمة الجلدية"، ولكن، ليس من أجل هذا الغرض تم إرسالهما إلى كلية الهندسة، أصر العقيد ريونديل عدة مرات، ولكن بدون جدوى، على ضرورة استدعاء هذين الشابين.

من الواضح أن الافتقار المطلق للتمييز بين النخبة قد ساد اختيار المغاربة المرسلين إلى مونبلييه. ومع ذلك، فإن نصف أولئك الذين تم الاحتفاظ بهم، فقط، كانوا قادرين على متابعة التداريب التي أعطيت لهم، ورسم ملف شخصي لهم. لقد أشار المدربون بحق الطلبة المغاربة: "أنه لا نأخذ الأميين لتحويلهم إلى ضباط هندسة في غضون بضعة أشهر". كما أكد أحمد الكلي، ومحمد بن دحمان، أنهما تم تجنيدهما بقولهما "إنهما موجهان فقط لمهنة السراج". كان كاسترو محقا، تماما، في الاحتجاج على "سوء النية، وجهل الموظف المدني المغربي، الذي عين أفرادًا غير مؤهلين".

من ناحية أخرى، كان المرض يؤثر أحيانا، في تكوينات المتدربين. قضى محمد بن سعيد، في بداية سنة ١٨٨٦م، شهرين في المشفى. ومع ذلك، فإن ذكاءه وقابليته للتعلم، مكنتاه من تعويض التأخير الذي نتج عن انقطاعه عن الدراسة. وأمضى محمد الهواري، وقتا طويلا في المشفى، أكثر مما أمضاه في الثكنة العسكرية. ففي منتصف سنة ١٨٨٦م، وبناء على نصيحة الطبيب كان من اللازم إعفاؤه من كل التكوينات، وجميع الأعمال اليدوية؛ بسبب تكوينه الضعيف، وحالته الصحية المتدهورة؛ في الواقع، كان يعاني من قرحة حول المقعدة، مما تطلب علاجه بطريقة مستمرة. منذ ذلك الوقت، طلب كاسترو والعقيد ريونديل عودته إلى المغرب، وبعد وفاة هذا الأخير، قبل خليفته، العقيد شيري نفس الطلب. وكتب المترجم كاسترو إلى فيرو في ٦ يناير سنة ١٨٨٨م، أن الهواري يمر من حالة مرضية حرجة. لكنه قال، "كانت فكرته الثابتة هي العودة إلى بلاده، في أسرع وقت ممكن"؛ كما أن الهواري كان لديه رغبة جامحة من أجل قبول قرار إرجاعه إلى المغرب، بناء على شهادة الطبيب، وكان كاسترو قد وبخ الهواري على تجوله طوال اليوم، وأحيانا، حتى منتصف الليل، في

مونبلييه. وسلم العقيد شيري للوزير الفرنسي المفوض بطنجة شهادة طبية في ٧ يناير سنة ١٨٨٨م، مشيرا إلى أن المغربي الهواري، قدمها بسبب مرض في الصدر، لا يمكنه تحمل مناخ مونبلييه. وبالتالي، تمت إعادته إلى وطنه، بعد فترة وجيزة بموافقة المخزن.

ترك سلوك بعض المتدربين، في المدرسة العسكرية، العديد من التساؤلات. فكانوا يخضعون لضبط صارم، مثل الجنود الفرنسيين. وحكم على العديد من المغاربة بالسجن المخفف بتهمة التأخر في حضور نداء أسمائهم في المساء، أو بالخروج بملابس غير لائقة، أو الشجار المستمر، هذه العقوبات الأخيرة اعتبرت أقل خطورة، لكن، هناك سلوكات أكثر خطورة من السابق، فمثلاً، عوقب العربي بن عبد السلام مرتين، بثمانية أيام في حجز الشرطة بتهمة السكر، وضرب أحد رفاقه بعنف. ووقعت العقوبة نفسها على محمد الزواني للخطأ ذاته. علاوة على ذلك، في شهر فبراير سنة ١٨٨٦م، ارتكب العربي بن عبد السلام جنحة سرقة لصائغ في المدينة، وهو السيّد فيرسير (Vercier). استغل فرصة أنه كان يشتري ساعة، ليسرق سلسلة ساعات، وصدرية فضية، فسجنه العقيد على الفور في سجن الفرقة. بحلول الأول من أبريل سنة ١٨٨٦م، كان قد تعرض العربي بالفعل لأربعة أحكام بالسجن، مرتين بسبب عصيان الرقيب المسؤول عن التدريبات، ومرة واحدة بسبب التظاهر بالمرض، حتى لا يحضر جلسات العمل، ومرة بتهمة الاعتداء غير اللائق.

تقرر عودة الشابين إلى المغرب، اعتبارا من بداية أبريل سنة ١٨٨٦م، بالاتفاق الكامل مع المخزن. كان تدبير عودتهما ضروريًا. وبالفعل، في منتصف الشهر نفسه، تم سجن محمد الزعواني مرة أخرى، بتهمة السُكر، وإهانة بعض المستخدمين، وتعاطي المشروبات الكحولية في غرفته، وإثارة الشغب، وعصيان الرقيب المسؤول عن التحقيق. في ٦ ماي، نقل كاسترو المغربيين إلى مرسيليا، وفي اليوم التالي، صعدوا على متن سفينة من "شركة باكيه" (Paquet)، والتي هبطت بهم في طنجة. وعند الصعود إلى جانب السفينة، طلبا من المترجم أن يكتب رسالة موجزة نيابة عنهما، موجهة إلى فيرو، ناشداه فيها تساهله.

تصرف المتدربون التسعة الذين بقوا في المدرسة، بعد ذلك، بشكل مثالي، ولم يتم عقابهم إلا على التفاهات. لكن، هناك قضية واحدة جديرة بالذكر هنا. فقد كان أحد المتدربين المغاربة، وأفضلهم موهبة، وهو محمد بن عبد الرحمن، ابن منشق فرنسي. لم يكن يجهل أصله، وفي بداية سنة ١٨٨٨م، كانت لديه فكرة التقدم بطلب الحصول على الجنسية الفرنسية. كتب الضابط الفرنسي الذي أبلغه بنيته إلى النقيب إيركمان، وتواصل الأخير مع فيرو. اعتبر رئيس البعثة السابق هذا الطلب "غير لائق"، قال رئيس البعثة: «سيكون السلطان بالتأكيد غير راض للغاية، إذا كان قد أرسل طالبا مغربيا إلى فرنسا للتكوين العسكري ويستغل الفرصة لطلب الجنسية الفرنسية". حتى أن رئيس البعثة نصحه، بمنع تحقيق رغبة محمد بن عبد الرحمن، وإذا لزم الأمر، إعادة جميع المتدربين من مونبلييه إلى المغرب. لكن الطالب المغربي تخلى عن طلبه من دون اللجوء إلى هذا الإجراء.

لم يتم تحديد مدة إقامة المغاربة في فرنسا مسبقًا. اتفق السلطان، مولاي حسن، وفيرو، ببساطة على أن الشباب "لن يتركوا مدرسة العسكرية للهندسيين قبل أن يحصلوا على تعليم كامل إلى حد ما". في وقت مبكر من أكتوبر سنة ١٨٨٥م، بعد ثلاثة أشهر ونصف، فقط، من وصولهم، كتب كاسترو إلى فيرو عن عودتهم إلى الإمبراطورية الشريفة. وأجابه الوزير المفوض بطنجة أنه في الوقت الحالي ليس عليه أن يهتم بهذا السؤال، وسوف يجد الحل للأمر بنفسه مع العقيد ريونديل. وقدر الأخير أنه في يناير سنة ١٨٨٦م، سيتم الانتهاء من التدريب العسكري للمتدربين، وأنه يمكن، بعد ذلك، إعادتهم إلى وطنهم، في أكتوبر من السنة ذاتها. لكن، البرنامج الذي قدم لهم، يستهدف دراسة اللغة الفرنسية، التي لم يكونوا على دراية بها عندما أتوا إلى مونبلييه. فكان من المؤكد أن الموعد المحدد، في خريف سنة ١٨٨٦م، سيكون المتدربون بعيدين عن امتلاك المعرفة الكافية بناصية اللغة الفرنسية. حيث واجه العديد منهم صعوبات عويصة، كما قال كاسترو، "للتعرف على المصطلح الفرنسي السليم ". وعلق الوزير المفوض بطنجة، كذلك، "أن البعثة المغربية كانت تهدف أيضا إلى "ضرب عقول أعضائها بفكرة عظمة دولة وحضارة فرنسا". لذلك، كان من المناسب تمديد إقامتهم في مونبلييه.

ونتيجة لهذه الملاحظة، تم وضع برنامج أكثر تفصيلا، من الذي تحدثنا عنه سنة ١٨٨٧م. حتى أن العقيد ليونديل اقترح جعل المغاربة يؤدون، (بعض الخدمات العسكرية)،

بشكل عام. لكن اقتراحه قوبل بالرفض لأنه، أثناء زيارته لمونبلييه، أصر سفير السلطان على أن التعليمات التي أعطيت له. تتمثل في أن الطلبة المغاربة مرتبطون، حصريًا، بالعمل الهندسي.

كان المتدربون، في بداية سنة ١٨٨٨م، قد تلقوا العديد من التعلمات الكافية لهم، في هذا الشأن، وخلال شهر ماي من السنة نفسها، نصح فيرو الصدر الأعظم، المغربي، فضول غرنيط، أنه يرى من المناسب إعادة الاتصال بالشبان المتعلمين، واستبدالهم بشباب آخرين. علاوة على ذلك، في الوقت نفسه، تقريبا، لاحظ الضباط الفرنسيون بين الطلبة المغاربة "أعراض الحنين للوطن والإحباط"، مما أدى بهم إلى بعض التراخي في دراستهم. يمكن فهم هذه الحالة الذهنية، كون الطلبة المغاربة قد غادروا بلدهم منذ ثلاث سنوات، وكانوا يعيشون في بيئة مختلفة، تماما، عن بيئتهم. هذا هو السبب في كتابة القائد العام للفيلق السادس عشر بالجيش إلى فيرو، في ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٨م، أنه بسبب الكفايات اللائقة التي حازها الطلبة المغاربة، "فقد حان الوقت لكي يجني السلطان ثمار نفقاته، ويملك الجنود القادرين على تقديم الخدمات له". أضاف إلى ذلك: فبتركهم لفترة أطول معناه، أن يجمعوا العادات المسيحية بالعادات الإسلامية. كما يمكنهم، بمجرد اعتيادهم على اللغة وضواحي مونبلييه، إنشاء خليط من الرذائل والعادات التحررية المرتبطة بالمجتمع الفرنسي. إذا كان الشكل الذي عبر فيه الجنرال عن نفسه مألوفًا بعض الشيء، لكن يجب أن ندرك أنه في الأساس كان على حق.

استغرق الأمر عدة أشهر، قبل التوصل إلى اتفاق مع المخزن، حول عودة الطلبة المغاربة، ففي دجنبر سنة ١٨٨٨م، غادر المغاربة التسعة الذين بقوا في مونبلييه المدينة، عرجوا على مرسيليا، وأعيدوا في السفينة البخارية باكيه (Paquet)، ووصلوا في ١٦ دجنبر إلى طنجة. رحب بهم نائب السلطان، محمد الطريس في المدينة، وفي اليوم الموالي، توجه بالشكر إلى القائم بأعمال بوتيرون (Boutiron)، لأن فيرو قد توفي في ١٩ نونبر الماضي. وأعرب ممثل مولاي حسن عن كل "الرضا الذي شعر به في مراقبة التطور الفكري والتعليمي الذي اكتسبه مواطنوه الشباب في فرنسا".

وكان الوزير الأعظم قد كتب إلى الوزير المفوض في طنجة، في نونبر سنة ١٨٨٨م، لإعطاء موافقته على مبدأ عودة المتدربين من مونبلييه إلى المغرب. لكنه، في الوقت نفسه، طلب بترك أربعة أو خمسة منهم لعدة أشهر أخرى في فرنسا، "حتى يتعلموا كيفية استخدام الضوء الكهربائي، ويتمكنوا من التحكم في الأجهزة الكهربائية، التي استوردها سلطان المغرب. كما أشار فضول غرنيط إلى أن هؤلاء الشباب الذين استقروا في فرنسا، لأكثر من ثلاث سنوات، ويتحدثون اللغة الفرنسية، يمكنهم اكتساب المعرفة اللازمة بسرعة. من ناحية أخرى، قال الوزير المغربي، بأن المهمة ستكون صعوبة بالنسبة لأولئك الذين سيحلون محلهم، والذين ليس لديهم معرفة باللغة الفرنسية. لقد جاء الطلب، متأخرا جدا، كون الطلبة المغاربة غادروا مدينة مونبلييه. لكن الحكومة المغربية استأنفت فكرتها في يناير، سنة ١٨٨٩م، وبناء على طلبها، أشار العقيد شيري إلى المتدربين الأربعة، الأكثر قدرة بين أولئك الذين كانوا في فرنسا. على الرغم من بحثنا، لم نعثر على أي وثيقة تسمح لنا بالقول إن هذا المشروع قد تم تنفيذه.

من ناحية أخرى، ففي شهر يونيو سنة ١٨٨٨م، كانت مسألة استبدال المغاربة، الذين كان تدريبهم على وشك الانتهاء، من قبل شباب آخرين، وعددهم هذه المرة خمسة عشر طالبًا، وبرفقة المترجم كاسترو مرة أخرى، كان من المخطط إرسالهم إلى فرساي بدل مونبلييه، حيث يتواجد فوج المدفعية، وفوج مهندسي الحامية؛ ليكون تعليمهم أكثر اكتمالا. إضافة إلى ذلك، فبدلا من "إقبارهم" في بلدة ريفية، كانوا سيجدون أنفسهم على أبواب باريس، ويمكنهم بالتالي التعرف على عاصمة فرنسا. كان لدى فيرو فكرة مطالبة الكابتن إيركمان بتوجيه التعليم العسكري لهؤلاء المتدربين المستقبليين. وبالفعل، فقد كتب فيرو إلى الرئيس السابق، لمهمة تكوين المهندسين المغاربة، ما يلي: " عندما علمت أن توجيه الشباب المغاربة على عمل القاذفات الحربية سيُعهد إليك، فإن السلطان سيشرع في إرسالهم". وافق إيركمان على الاقتراح، وكان وقتها في بلدة "لا فير" (La Fère)، في مقاطعة لين (Aisne)، ولكن، بناء على طلب وزارة الشؤون الخارجية، يمكن بسهولة نقلهم إلى فرساي، حيث فوج المدفعية الحادي عشر، الذي كان عقيده أيضًا أحد أصدقائه. وأشار فيرو إلى ضرورة إرسال شبان

أنيقين للغاية. ومما لا شك فيه أن السلطان لم يعين أبناء العائلات الكبيرة. ومع ذلك، سيكون من الضروري أن يتمتع أولئك الذين يختارهم بجاذبية معينة. وهذا كان شرطا أساسيا، من وجهة نظر التأثير، الذي سيتم تركه عند الجمهور أو عند الأشخاص الذين قد يتم تقديمهم لهم. وهذا الطلب الأخير لم يتحقق.

سيكون من المثير للاهتمام معرفة ما حدث فيما بعد للطلاب المغاربة، في مدرسة الهندسة في مونبلييه، في هذا الموضوع بالضبط، هناك رجل يدعى محمد بن عبد الرحمن الحاج المراكشي، ولد في مراكش في ٧ فبراير سنة ١٨٦٢م، حصل على الجنسية الفرنسية سنة ١٨٩٥م، تحت اسم دسولتي (Desaulty)، عندما تم الاعتراف به، كتاجر في لالة مغنية[٦]، هو على الأرجح واحد من المتدربين لسنة ١٨٨٥م، دخل لاحقا في خدمة المندوبية الفرنسية في طنجة[٧]. وتم إرساله إلى قنصلية مراكش حيث ظل، لبضعة أيام سنة ١٩١٢م، سجينا للهبة، بصحبة القنصل ميجريت (Maigret)، وعدد من الفرنسيين الآخرين[٨]. عن رفقائه لدينا فقط شهادة لامارتينير، السكرتير الأول للمفوضية الفرنسية في طنجة، في نهاية القرن التاسع عشر والذي كتب ما يلي: "عند عودتهم من فرنسا، سرعان ما استأنفوا السلوكات الضرورية للحفاظ على مكانتهم في الإمبراطورية الشريفة، التي ظلت متعصبة للغاية"[٩]. لذلك، يبدو أن إقامتهم في مونبلييه لم تسفر عن نتائج تذكر، وأن المخزن لم يربح الكثير منها.

لا يمكننا أن نلوم ضباط وضباط الصف المسؤولين عن تدريبهم. تدل المراسلات المتبادلة بين المندوبية الفرنسية، في المغرب، والعقداء المتعاقبين، على المدرسة العسكرية للمهندسين بمونبلييه، ورسائل كاسترو والوثائق الأخرى المحفوظة في أرشيف الحماية، على الوعي الذي كرس به هؤلاء الجنود أنفسهم لتدريب الشباب، والمهام الموكلة إليهم. وقد يذهل المرء، بشكل خاص، بدقة برنامج الدراسة الذي تم وضعه سنة ١٨٨٧م، والذي كان مصحوبًا برسومات تخطيطية للعمل الذي يتعين على المتدربين تنفيذه (لوحة ١).

لقد أوفت فرنسا بالتزاماتها.

الاحالات المرجعية:

(1) Sources: Archives du Protectorat de la France au Maroc. à Rabat: A 10 l1bis ; A 27 3tcr ; AA 36, lettres et télégrammes des 20 mai, 8 juin, 24 juin. 7 août, 3 octobre et 16 octobre 1885; AA 38, lettres des 14 avril et 5 août 1886; AA 41, lettre du août 1888 ; AA 42, lettre du 17 décembre 1888. - Journaux de France: Le Petit Méridional, l'Eclair, du 28 juin au 25 juillet 1885.

(٢) مستعرب، ومترجم ودبلوماسي فرنسي، قضى معظم حياته في شمال أفريقيا حيث تقلد عدة مناصب رفيعة في الجيش الفرنسي منها: المترجم الرئيسي للجيش الفرنسي الذي يحمل مع حاكم الجزائر، وشغل بعد حصوله على التقاعد منصب دبلوماسي رفيع كقنصل عام فرنسا في طرابلس من ١٨٧٩ إلى ١٨٨٤، ثم بعد ذلك وزير مفوض بطنجة وهو المنصب الذي بقي يشغله إلى حين وفاته بالمدينة المغربية في ١٩ دجنبر. (المترجم)

(٣) أُنشئت هذه المدرسة في ١٢ مايو ١٨١٤ بمرسوم ملكي من خبراء المتفجرات وعمال المناجم الذين شاركوا في حملات الثورة الفرنسية والإمبراطورية الفرنسية الأولى تحت حكم نابليون، شارك فوج الهندسة الثاني في جميع الحملات العسكرية في القرن التاسع عشر، تم حلها في ١٦ يونيو ٢٠١٠. (المترجم)

(٥) العقيد شيري (Le colonel Chery) الذي عين على رأس المدرسة العسكرية سنة ١٨٨٧م إلى غاية ١٨٩٠م، خلفا للعقيد ريونديل (Le colonel Riondel). (المترجم)

(6) Archives du Gouvernement général de l'Algérie, carton 22.

(7) Archives du consulat de France à Larache (conservées au consulat général de Tétouan), acte de naissance de Joseph Henry, fils de Mohammed ben Abd er-Rahman el-Hajj el-Marrakchi Desallilty, dressé le 14 mai 1896. - Henri de LA MARTINIERE, **Souvenirs du Maroc**, Paris, 1919, p. 196.

(8) Général Henri SIMON, **Un officier d'Afrique: le commandant Verlet-Hanus**, Paris, 1930, p. 243.

(9) De LA MARTINIERE, **Souvenirs**, op.cit, p. 196.

المؤلف:

جاك كايي، أكاديمي فرنسي، متخصص في التاريخ المغربي خلال فترة القرن التاسع عشر، وفترة الحماية الفرنسية على المغرب.

التراث الطبيعي والثقافي

وآفاق التنمية السياحية في إقليم الحسيمة





سعيد السلماني
باحث في مختبر التراب والبيئة والتنمية
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة ابن طفيل -المملكة المغربية

بيانات الكتاب

المؤلف: عمر أشهبار
الناشر: مركز النسخ "الشباب" تطوان.
عدد الصفحات: ٢١٥ صفحة
الطبعة: الأولى. سنة النشر: ٢٠٢٢
مكان النشر: المغرب.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.233526

كلمات مفتاحية:
التراث الثقافي؛ التراث المادي؛ التنمية المحلية؛ مدينة الحسيمة؛ التراث اللامادي؛ التنمية السياحية

مقدمة

سننهج في هذه القراءة نهجًا منفتحًا على أعمال وأبحاث ومقالات في نفس السياق، وإن كنا سنخصص حيزًا أكبر لكتاب الدكتور عمر أشهبار، وسنرجع إلى مراجع مختلفة كلما دعت الضرورة ذلك. وسنركز في هذه القراءة على القسم الثاني من الكتاب الذي تحدث فيه الكاتب عن مظاهر التراث التاريخي والثقافي بإقليم الحسيمة. لكن قبل البدء لا بد من الإشارة إلى أن الكتاب الذي بين أيدينا من الكتب الحديثة التي تلقي الضوء على تراث منطقة الريف وربطه بالتنمية المحلية. وصفحات الكتاب حوالي ٢١٥ صفحة، موزعة على قسمين بعد المقدمة والإطار النظري المفاهيمي.

في القسم الأول عرف الكاتب بإقليم الحسيمة وجوانب من تراثه الطبيعي، تناول في الفصل الأول التعريف بمدينة الحسيمة تأسيسًا وتطويرًا، مشيرًا إلى بعض المعطيات المتعلقة بموضع مدينة الحسيمة، والأسماء التي عرف بها هذا الموضع قبل الاستعمار الإسباني، وكذلك إبراز الحيثيات المرتبطة بتأسيس المدينة وتطورها المعماري، وتطرق الكاتب إلى التسميات التي أعطيت المدينة بعد تأسيسها، والبحث في دلالات تلك الأسماء[1].

وتناول في الفصل الثاني بكثير من الدقة الإطار الطبيعي والإداري والبشري والاقتصادي لإقليم الحسيمة. واهتم الفصل الثالث بـ "جوانب من التراث الطبيعي في إقليم الحسيمة"، مبرزًا أهمية هذا التراث

عرض كتـــاب

في تنمية السياحة من قبل فاعلي السياحة والمهتمين بالتنمية المحلية، معززًا صفحات الفصل بنماذج من صور شواطئ الإقليم الخلابة بدءًا من خليج الحسيمة، المسجل ضمن أروع الخلجان في العالم. إضافة إلى المنتزه الوطني لإقليم الحسيمة الممتد من منطقة "للا "يوسف" شرقًا إلى منطقة "كلايريس" غربًا وهو منتزه غني جدا بأنواع الحيوانات والطيور والأسماك. وقد أشار الكاتب إلى أن أهمية هذا المنتزه السياحية والعلمية تكمن في الحفاظ على التنوع البيولوجي والنباتي والحيواني ويشكل تأهيل هذا المنتزه إحدى أولويات الجمعيات التنموية ونشطاء التنمية الاقتصادية والاجتماعية بهذه المنطقة، مما يتطلب خلق بنية تحتية سياحية متكاملة(٢).

أما القسم الثاني الذي خصه الكاتب لمظاهر التراث الثقافي المادي واللامادي بإقليم الحسيمة، فقد تطرق فيه الباحث الى مظاهر ثقافية من الإقليم، التي تنم عن ثرائها وأهميتها، بل ضرورة توظيفها في السياحة وتنمية الإقليم، وصورًا للمواقع الأثرية للمدن التاريخية وبعض المعالم العمرانية الدينية كالمساجد والزوايا والأضرحة والمقابر التاريخية، بالإضافة إلى الصناعات التقليدية التي يتميز بها الإقليم، مثل الأواني الفخارية والمنتوجات الجلدية الذائعة الصيت، ومنتوجات الدوم كذلك. وفيما يلي قراءة وصفية في هذا القسم.

مظاهر التراث الثقافي المادي واللامادي في الشمال المغربي: إقليم الحسيمة نموذجًا

أولاً: التراث الثقافي المادي

يشمل التراث المادي كل ما شيده الأجداد من مآثر تاريخية ومواقع أثرية ومباني عامة ومساكن وأماكن العبادة ومدارس علمية وزوايا وأضرحة ورباطات. ويمكن القول بأن الكاتب بذل مجهود كبيرا في الجمع والترتيب لبعض المعالم التاريخية التي تشكل التراث الثقافي المادي لإقليم الحسيمة، سواء تعلق الأمر بالمواقع الأثرية للمدن والقلاع، أو معالم دينية كالمساجد والزوايا.

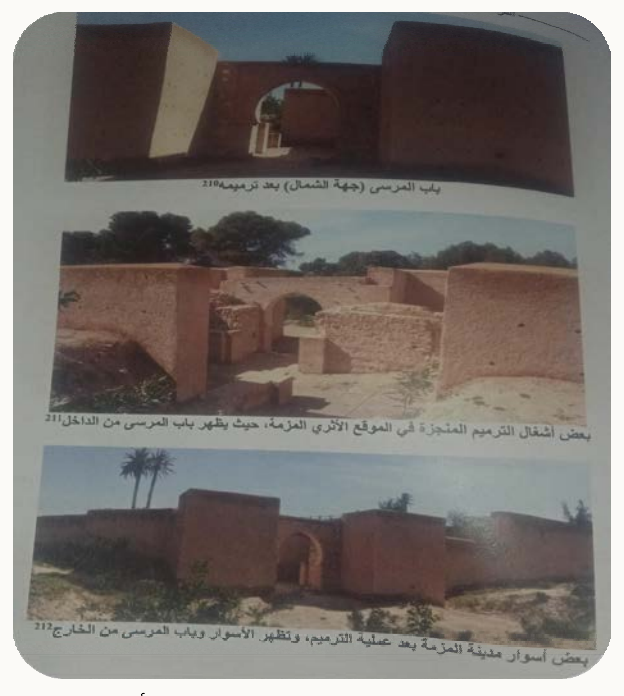
١/١-المواقع الأثرية للمدن والقلاع التاريخية بإقليم الحسيمة

أشار الكاتب الى أن منطقة الريف الأوسط ساهمت بفعالية في تشكيل تاريخ المغرب بحكم موقعها الاستراتيجي، واحتضنت حواضر كبرى، خاصةً خلال العصر الوسيط. ومن المدن التاريخية التي توجد مواقعها الأثرية ضمن تراب إقليم الحسيمة نذكر نكور والمزمة وبادس. وهذه بعض الصور التي استعرضها الكاتب على امتداد صفحات هذا الفصل.

الموقع الأثري "المزمة":



تشير هذه الصور إلى الموقع الأثري "المزمة"(٣) وتظهر أسوار المدينة القديمة قبل ترميمها(٤).



هذه الصور تشير الى مداخل المدينة وأسوارها بعد عملية الترميم مما يدل على عظمة المدينة والدور الذي كانت تلعبه في منطقة الريف(٥).

الموقع الأثري لمدينة "بادس" القديمة: تقع مدينة بادس على ساحل البحر الأبيض المتوسط، غرب مدينة الحسيمة حاليًا على بعد ٥٠ كيلومتر، وهناك اختلاف حول تاريخ تأسيسها، لكن ما هو متفق عليه حسب المصادر التي أرخت لهذه المدينة أنها عرفت إشعاعًا حضاريًا متقدمًا بعد انتشار الإسلام بمنطقة الريف، حيث اشتهرت بنشاطها العلمي والديني والاقتصادي، بالإضافة إلى انفتاحها على دول البحر الأبيض المتوسط والأندلس، لكن الاحتلال الإسباني سنة ١٥٦٤م أدى الى نهاية المدينة وتوقف حضارتها(٦). وهذه بعض الصور الشاهدة على معالم حضارة بادس المزدهرة.


بعض أطلال مدينة بادس قبل عملية الترميم217

أشغال الترميم المنجزة في الموقع الأثري لبادس، حيث يظهر الباب الرئيس لمدينة بادس218


السور نفسه بعد عملية الترميم219

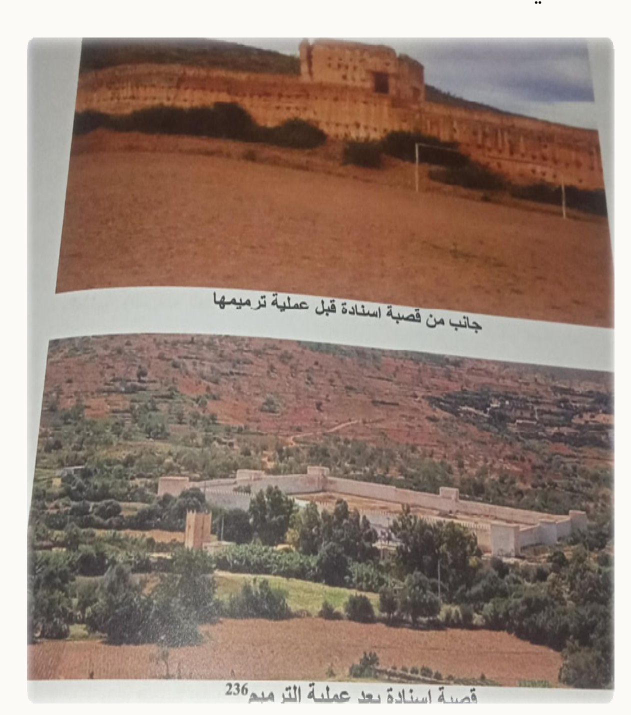
السور الذي يرجع بناؤه إلى عهد سيطرة الموحدين على بادس220

جزيرة بادس المحتلة، كما تظهر في الصورة بقايا أفران الجير الموجودة في التراب المغربي، وتعود هذه الأفران إلى فترة الاستعمار الإسباني للمنطقة خلال الفترة المعاصرة221

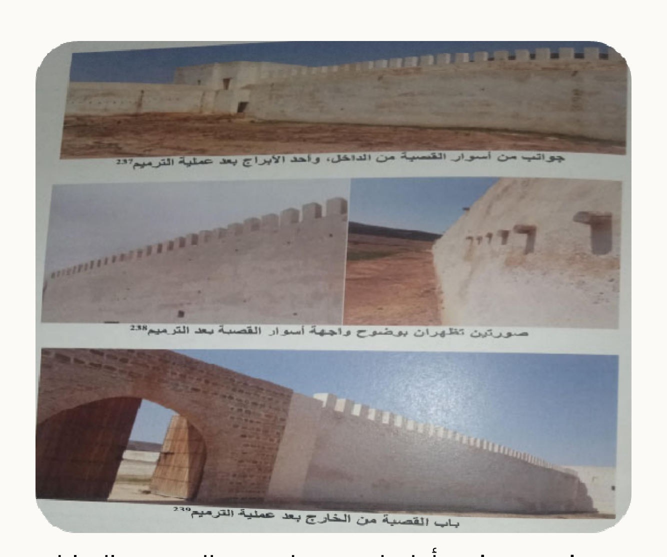
أورد الكاتب هذه الصور في الصفحة ١٠٧ و١٠٨، كأثر شاهد على موقع مدينة بادس التاريخي قبل الترميم وبعده، وقد أشار الكاتب أن عملية الترميم جارية على الموقع الأثري بادس تحت إشراف وزارة الثقافة.

القلع والقصبات الأثرية: ومن المواقع الأثرية الهامة التي تضمنها الكتاب قصبة "اسنادة" وقلعة "صنهاجة" والقصبة الحمراء، وفيما يلي بعض الصور الشاهدة على هذه المعالم التاريخية كأثر دال على وجود حضارة عريقة في التاريخ المغربي.

قصبة "اسنادة": يرجع سبب تشييد قصبة "اسنادة" - التي عرفت في المصادر التاريخية باسم قصبة "تلا بادس" - كمركز قار للمراقبة أساسًا إلى مقاومة الوجود الإسباني في جزيرة بادس وحراسة السواحل المحيطة بها وللحد من المحاولات الهجومية على الأراضي الداخلية من قبل القوى الأجنبية التي سعت إلى فرض سيطرتها على المنطقة واستغلال مواردها، وذلك طبقا لما أمر به عبد الله الغالب إثر الاحتلال الإسباني لجزيرة بادس، والتأكد من عزم الإسبان بسط نفوذهم على الحوز البادسي، وذلك منذ جمادى الثانية عام ٩٧٢هـ/ يناير١٥٦٥م، حيث وصل أول قواد السعديين على تلك الناحية، وهو منصور بن إبراهيم لوضع ترتيبات الحراسة القارة تجاه الوجود الأجنبي بالجزيرة البادسية(٧).


جانب من قصبة اسنادة قبل عملية ترميمها

قصبة اسنادة بعد عملية الترميم236



جوانب من أسوار القصبة من الداخل، وأحد الأبراج بعد عملية الترميم 237

صورتين تظهران بوضوح واجهة أسوار القصبة بعد الترميم 238

باب القصبة من الخارج بعد عملية الترميم 239

قلعة صنهاجة: أما قلعة صنهاجة فهناك بعض الروايات تقول إن قلعة صنهاجة تم تشييدها من قبل البرتغاليين للاحتماء بها، وذلك في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي خلال عهد الملك دون مانويل Don Manuel. لكن هذه الرواية حسب الكاتب تفتقد إلى الحجج التاريخية المقنعة[٨]. وبالنظر في شكل الأبراج والأسوار والتقنيات المستعملة في تشييد القلع البرتغالية يتبين تهافت هذه الرواية. فالعمارة العسكرية البرتغالية بالمغرب استعمل فيها الحجر عوض الطابية Pise، وتتميز بأسوارها وأبراجها العريضة لاستيعاب المدافع، عكس أبراج وأسوار قلعة صنهاجة، مما يثبت أن هذه القلعة بنيت في فترة سابقة عن المد الإيبيري بالمغرب، ومن المرجح أن يكون ذلك في عهد الموحدين مادام قد تم العثور على بعض المواد التي عرف الموحدون باستعمالها[٩].

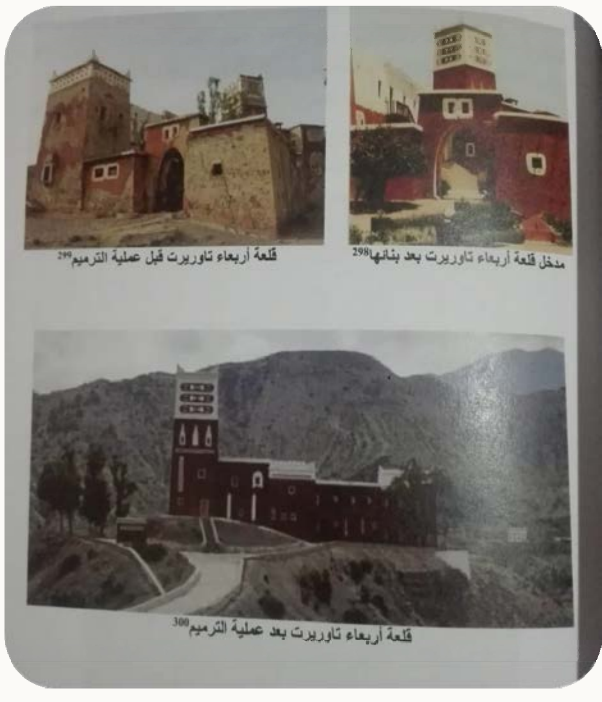


أبراج قلعة صنهاجة قبل عملية الترميم

جانب من قلعة صنهاجة بعد عملية الترميم 244

القصبة الحمراء/ قلعة أربعاء تاوريرت: يرجع تاريخ بناء هذه القلعة إلى سنة ١٩٤٠م على يد إيميليو بلانكو إيثيكا Emilio Blanco Ezaca، وهو قائد عسكري إسباني وباحث سوسيولوجي أرسلته إسبانيا إلى المغرب سنة ١٩٢٧م، وقد تقلّد العديد من المناصب أهمها توليه منصب مراقب على منطقة الريف سنة ١٩٣٦م[١٠]. وتوجد القصبة الحمراء بالمركز القروي أربعاء تاوريرت جنوب شرق مدينة الحسيمة، ويبعد عن المدينة بنحو ٢٥ كلم. وتعرف القلعة في صفوف الساكنة المحلية بـ "ثقصابت ثزوكاغت" أي القصبة الحمراء، أو "فوسينا" وهي تحريف للكلمة الإسبانية Oficina وتعني المكتب[١١].

وشكلت القلعة في عهد الاستعمار مركزا إداريا، حيث احتضنت عدة مكاتب إدارية، وإسطبلات الحيوانات ومخازن الحبوب، بالإضافة إلى محكمة وسجن ومستوصف. وتتكون من طابق أرضي كان مخصص للسجناء، وطابق علوي يتكون من ٩٩ حجرة[١٢].



قلعة أربعاء تاوريرت قبل عملية الترميم 299

مدخل قلعة أربعاء تاوريرت بعد بنائها 298

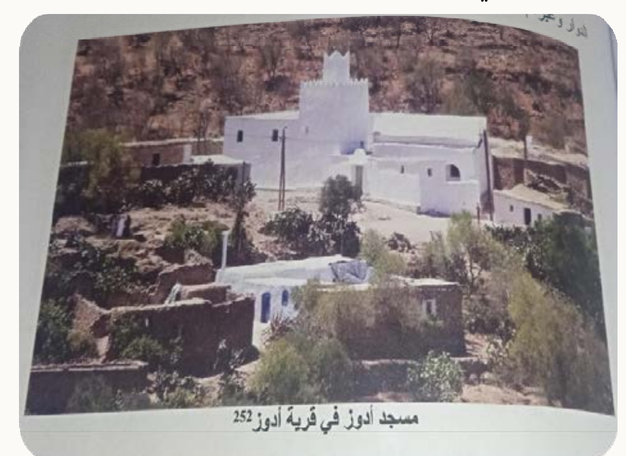
قلعة أربعاء تاوريرت بعد عملية الترميم 300

أورد الباحث على لسان السكان المحليين أن القلعة كانت جميلة ويوجد بداخلها تحف معمارية رائعة، لكنها نهبت وخربت، لكن رغم ذلك فقد حافظت على هيكلها الخارجي. وتصل المساحة الإجمالية لهذه المعلمة التاريخية نحو ٩٠٠ متر مربع. وقد أصبحت مؤهلة لاستقبال الزوار بعد الترميم الذي أشرفت عليه وزارة الثقافة، وأدرجت ضمن لائحة التراث الوطني منذ سنة ٢٠١٨م[١٣].

٢/١-المعالم العمرانية الدينية بإقليم الحسيمة

يزخر إقليم الحسيمة بالمعالم العمرانية الدينية، ويرجع سبب ذلك إلى كون الدين لعب دورًا هامًا في تأطير حياة الناس الثقافية والاجتماعية، ويظهر ذلك من خلال انتشار العديد من المعالم الدينية كالمساجد، والزوايا، والأضرحة، والمقابر.

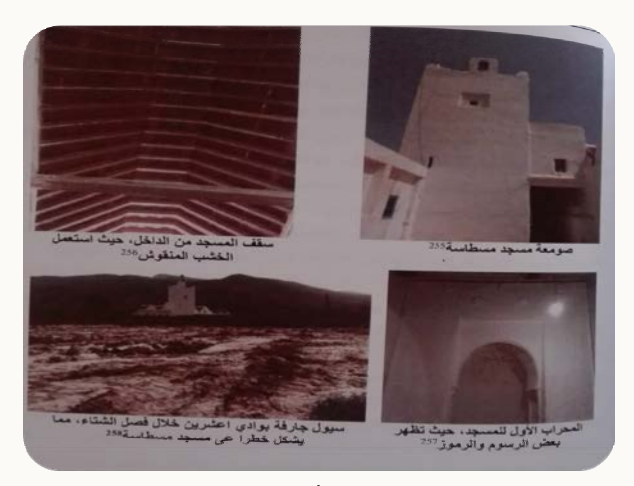
المساجد التاريخية: شكل المسجد عبر التاريخ لحظة فارقة في حياة المسلمين منذ التأسيس الأول للمسجد النبوي، فبالإضافة إلى كونه مكان للعبادة، فهو أيضًا مؤسسة اجتماعية يقوم بأدوار تربوية وتعليمية ومدنية، والمغرب كغيره من البلدان الإسلامية احتلت فيه مؤسسة المسجد مكانة مرموقة، فأينما يمّمت وجهك تجد مسجدا، ولن تجد تجمعًا سكنيًا خاليًا من المسجد، فالناس في الأحياء والدواوير ينشؤون مساجدهم ويعتنون بها، ثم يتعاقدون مع فقيه يؤمّهم في الصلاة ويعلمهم أمر دينهم وتعليم أطفالهم مقابل أجر عيني قد يكون قمحًا أو شعيرًا أو نقدًا، ويُعرف محليًا بالشرط. وقد أشار الباحث إلى أن معظم المساجد في دواوير إقليم الحسيمة، كانت عبارة عن بناء مربع الشكل، يحتوي على غرفة كبيرة للصلاة، وغرف أخرى لإقامة الفقيه والطلبة الوافدين من مناطق بعيدة. ومن أهم المساجد التاريخية التي رصدها الباحث:


مسجد أدوز في قرية أدوز 252

مسجد أدوز التاريخي: من المعالم الدينية التي يزخر بها إقليم الحسيمة مسجد قرية أدوز. ويعود تاريخ بنائه إلى عهد السلطان أبي الحسن المريني (١٣٣١-١١٥١م)، الملقب بالأكحل. فحسب الباحث يرتبط تأسيس هذا المسجد بشخصية الولي الصالح سيدي بن حسون، ولا يعرف متى بني هل عندما كان هذا الوالي على قيد الحياة أم بعد وفاته؟ وقد لعب هذا المسجد عبر التاريخ دورًا مهما في تعليم أبناء دوار أدوز والدواوير المجاورة والطلاب الذين كانوا يقصدونه من أماكن بعيدة علوم القرآن والشريعة. ولازال هذا المسجد يحتفظ بمقوماته رغم أن دوره في الوقت الراهن يقتصر على أداء الصلاة وتعليم القرآن الكريم للراغبين في ذلك من أبناء الدوار وغيرهم[١٤].


مسجد مسطاسة254

مسجد مسطاسة التاريخي: ومن المعالم الأثرية الدينية مسجد مسطاسة التاريخي وهو مسجد يوجد ضمن تراب جماعة بني جميل مسطاسة، وكان تاريخيا صرحا دينيا وعلميا مهما، ويرجح أن يكون تاريخ بنائه متزامنا مع بناء مسجد أدوز في عهد السلطان أبي الحسن المريني. وقد أشار الباحث إلى تشابه الخصائص المعمارية لهذا المسجد مع خصائص مسجد ادوز، غير أن بمسجد مسطاسة عدة أبواب رغم حجمه الصغير حيث نجد الباب الرئيس، وبابا في جهة المئذنة، وبابا للنساء، وثلاثة أبواب صغيرة. وتتميز نوافذ المسجد بصغر حجمها. أما الصومعة فيصل علوها إلى نحو عشرة أمتار، ويضم المسجد محرابين (محراب موجه نحو جهة الجنوب الشرقي، والآخر موجه نحو جهة الشمال الشرقي)، ولذلك يعرف لدى الناس بمسجد المحرابين. وشيد سقف المسجد بأعمدة خشب العرعار، ويتكون هذا السقف من خمسة قباب وأربعة أقواس وتوجد به نجمة ثمانية في جهة المحراب. كما أن اللافت للنظر في هذا المسجد هو الزخرفة الجميلة وخشبه المنقوش وبعض الرموز والكتابات التاريخية الموجودة في عناصره المعمارية، خاصة في المحراب، ومما لا شك فيه أن لهذه الرموز والكتابات دلالات معينة[١٥].



هذه بعض النماذج التي أوردها الباحث في كتابه، لكن بحكم انتمائنا إلى المنطقة، فإن إقليم الحسيمة وغيره من أقاليم الشمال المغربي يعج بالمعالم الدينية الأثرية، والكثير منها إما هدم وأقيم مكانه بناء حديث أو أهمل وبقيت أطلاله أو غيرت بعض معالمه.

الأضرحة والزوايا: حظيت الزوايا والأضرحة في منطقة الريف باحترام كبير وقامت بأدوار عديدة، تربوية ودينية، وسياسية، واقتصادية، وتعليمية. وبما أن هذه الأماكن مرتبطة بأشخاص يحملون دلالة الشرف والصلاح فإن السكان كانوا يقصدونها لأغراض متعددة، أحياناً للتبرك وأخرى للتفريغ والتنفيس من مصاعب الحياة، وأحياناً للوساطة والفصل في النزاعات. ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن الزوايا والأضرحة ساهمت في تأطير حياة الناس في المجتمع المغربي، في أوقات كان الناس في أمس الحاجة إلى من يدلهم ويرشدهم إلى الطريق الصحيح. يحتضن إقليم الحسيمة العديد من الزوايا والأضرحة التي يمكن إدراجها ضمن التراث الوطني المشكل للهوية الثقافية للمغاربة، وقد أشار الباحث عمر أشهبار في كتابه إلى بعض الزوايا[١٦] والأضرحة نذكر منها ما يلي:

الزاوية الحسونية: التي يعود تاريخ بنائها الى منتصف القرن السادس الهجري من قبل الحاج علي بن حسون بقبيلة بقوية. وقامت هذه الزاوية بأدوار مهمة في التأطير التروي والعلمي، والديني، والاجتماعي، والسياسي.

الزاوية الوزانية: توجد هذه الزاوية بمنطقة سنادة، ويرجع تاريخ تأسيسها إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، واشتهرت بدور الوساطة الذي قامت به بين السلطات الفرنسية والمقاوم محمد بن عبد الكريم الخطابي بعد قراره تسليم نفسه سنة ١٩٢٦.

زاوية سيدي عيسى: تقع على الضفة اليمنى لوادي غيس بقرية أيت ورياغر، وهناك تضارب في تاريخ تأسيسها ما بين القرن التاسع الهجري (١٥م)، وأواخر القرن الثامن الهجري (١٤م).

زاوية سيدي يوسف: وبنفس القبيلة وعلى الضفة اليمنى لوادي غيس، توجد زاوية سيدي يوسف، تأسست في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي من قبل سيدي يوسف المتوفى سنة ١٦٤١م. وحسب الباحث فقد لعبت دورا مهمًا في كل ما يتعلق بالحياة الدينية والدنيوية.

رباط للاميمونة: يقع هذا الرباط[١٧] فوق مرتفع شاهق مطل على البحر بساحل بوسكور بقبيلة بقوية. وحسب الباحث فإن هذه الولية رغم أنها لا تنحدر من منطقة الريف إلا أنها حضيت بتقدير واحترام من طرف الساكنة.

هذه بعض الزوايا التي أشار إليها الباحث ولا شك أن هناك العديد منها في إقليم الحسيمة ومنطقة الريف عامة، أما الأضرحة التي ذكرها الكاتب فهي كثيرة ومتعددة، ففي القبيلة الواحد قد تجد العديد من الأماكن المقدسة، إذ لا تكاد جماعة تخلو من ضريح خاص بها. ونشير في هذا الصدد إلى بعض أسماء الأضرحة التي ذكرها الباحث في دراسته وهي كالآتي:

ضريح الشيخ الحاج علي حسون: توفي الولي الصالح الحاج علي حسون في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي خلال عهد الدولة الموحدية، ويوجد هذا الضريح بقرية أدوز.

ضريح أبي يعقوب البادسي: يوصف أبي يعقوب البادسي بالصلاح والعلم، ولد في ١٧ ذي الحجة ٦٤٠هـ، وتوفي ببادس عام ٧٢٤هـ، ويوجد هذا الضريح مقابل جزيرة بادس المحتلة.

ضريح سيدي بوخيار: يوجد هذ الضريح بالمنطقة العليا "لبومعذن" في "ثامرزكا" في أعلى جبل قمة احمام بجماعة شقران، ويعد من أشهر الأضرحة والمزارات في منطقة الريف الأوسط، ويحج إليه المئات من الوافدين كل سنة في اليوم السابق لعيد الأضحى.

ضريح سيدي غيير: ليس هناك معلومات حول هذا الولي، ويوجد في أعلى جبل تودغين.

ضريح سيدي امحند أموسى: يوجد هذا الضريح بأيث هشام بأجدير، ولم يذكر الباحث ترجمة لهذا الولي، ما عدا إشارته إلى أنه كان يقوم بأنشطة مكثفة للدفاع عن الثغور بساحل الريف.

ضريح سيدي احمد أقنيين: يوجد في جماعة بني عبد الله، ولم يذكر الباحث ترجمة لهذا الولي.

ضريح للا ثيقت: لم يذكر الباحث شيئا عن هذه الولية ما عدا صورة الضريح أخذها من موقع التواصل الاجتماعي فايسبوك نشرت بتاريخ ١٠ يونيو ٢٠٢٠، من طرف حساب رشيد الصالحي.

وفي بسكور بقبيلة بقوية هناك العديد من الأضرحة، حتى عرفت في الأوساط المحلية بقبيلة مئة وليّ، نظرًا لعدد الأضرحة المنتشرة فيها، مثل: ضريح سيدي عبد الرحمان، وضريح سيدي مارك (مالك)...، وغيرها كثير.

ثانيًا: التراث الثقافي اللامادي

بدأ الاهتمام بالتراث والحفاظ عليه في المجتمعات الغربية من قبل بعض المثقفين، وكان الاهتمام أساسًا بالتراث الأثري، ثم انتقل الاهتمام إلى حماية التراث الثقافي والمعماري، والحفاظ على المعالم الطبيعية والتراث اللامادي. وفي المغرب برزت فكرة الحفاظ على التراث خلال فترة الحماية، حيث صدر أول ظهير للحفاظ على التراث في ١٣ فبراير ١٩١٤م، وكان الهدف منه هو المحافظة على العقارات ذات أهمية خاصة بالنسبة للفن وتاريخ المغرب والمنقوشات والتحف والمباني التاريخية والمواقع الأثرية[١٨]. وبعد هذا الظهير صدرت مجموعة من القوانين والظهائر والمراسيم كلها تدور حول حماية وصون وتثمين التراث المغربي[١٩].

ونظرًا للوعي بأهمية التراث اللامادي في وعي الشعوب، وبالنظر إلى أهميته بوصفه بوتقة للتنوع الثقافي وعاملا يضمن التنمية المستدامة، فقد لجأت منظمة اليونسكو سنة ٢٠٠٣ إلى سنّ اتفاقية دولية لصون هذا التراث. ومن أهداف هذه الاتفاقية: صون التراث الثقافي غير المادي، والتوعية على الصعيد المحلي والدولي بأهميته وتقديره[٢٠]. وفي المادة الثانية من نفس الاتفاقية تم تعريف التراث الثقافي اللامادي على أنه "الممارسات والتصورات وأشكال التعبير والمعارف والمهارات – وما يرتبط بها من آلات وقطع ومصنوعات وأماكن ثقافية – التي تعتبرها الجماعات والمجموعات وأحيانًا الأفراد، جزءًا من تراثهم الثقافي. وهذا التراث الثقافي غير المادي المتوارث جيلاً عن جيل، تبدعه الجماعات والمجموعات من جديد وتعيد إنتاجه وتحديثه بصورة مستمرة بما يتفق مع بيئتها وتفاعلاتها مع الطبيعة وتاريخها، وهو ينمي لديها الإحساس بهويتها والشعور باستمراريتها، ويعزز من ثَمَّ احترام التنوع الثقافي والقدرة الإبداعية البشرية"[٢١].

ويتمظهر التراث اللامادي في المجالات الآتية:

- في التقاليد وأشكال التعبير الشفهي، بما في ذلك اللغة كواسطة للتعبير عنه.
- في الفنون والتقاليد وأداء العروض.
- في الممارسات الاجتماعية والطقوس والاحتفالات.
- في المعارف والممارسات المتعلقة بالطبيعة والكون.
- في المهارات المرتبطة بالفنون الحرفية التقليدية.

ويتميز بأنه عابر للزمان والمكان؛ أي تراث حي شأنه في ذلك شأن الثقافة عامة، فهو في تغير مستمر، كما يتميز بالأصالة، لأنه يعتبر مظهرًا انثروبولوجيًا خاصًا بجماعات أو أفراد معينين يجب احترامه وتقديره لقيمته الثقافية وكونه إغناء لثقافات أخرى. كما يتميز أيضًا بارتباطه الوثيق بالمجتمعات المحلية، فهي الوحيدة التي تملك حق التصرف فيه[٢٢]. وإذا كان الأمر كذلك، فإن أهمية التراث اللامادي تكمن في دوره الفعال في تغذية العقل الجمعي ومده بالقيم، إلى جانب إسهامه في تشكيل الوعي العام، ولهذا كان الحفاظ عليه ونشره ونقله عبر الأجيال والحرص على ضمان استمراريته مسؤولية الجميع بلا استثناء.

ورغم أهمية هذا المبحث في الكتاب الذي بين أيدينا، إلا أن الكاتب لم يوفيه حقه من البحث ما عدا بعض الإشارات ركز فيها على جوانب من هذا التراث، إذ يقول: وتنتشر في إقليم الحسيمة مختلف مظاهر التراث غير المادي رغم الأخطار المحدقة به، ونذكر على سبيل المثال مجموعة من العادات والطقوس الاحتفالية (طلب المطر،

العمل الجماعي المعروف محليا بـ"ثويزا"، عادات وطقوس الزواج، الألعاب الشعبية..)، بالإضافة إلى الفنون والتقاليد وأداء العروض (الرقص، الأمثال، الألغاز، الحكايات، الأكلات التقليدية، اللباس...)، والخبرات المرتبطة بالصناعة التقليدية (منتجات الحرف التقليدية الخزفية والجلدية أو المصنوعة م الدوم والحلفاء...)"[٢٣].

خَاتِمَةٌ

إن الدراسة التي بين أيدينا أماطت اللثام عما كنا نترافع من أجله بأقاليم شمال المغرب - ونحن نشتغل ضمن المجتمع المدني -، بأن آفاق التنمية المحلية وافرة ولها ارتباط بالمكونات الطبيعية والثقافية للمنطقة. فأقاليم الشمال وافرة بالمعالم الأثرية والثقافية بالإضافة إلى المناظر الطبيعية الخلابة، فالشمال المغربي ليس المدن الساحلية فقط، بل هو أيضًا تلك القبائل المنتشرة في أعالي الجبال التي أطلق عليها أوجيست موليرياس "المغرب المجهول" وهي ما زالت متشبثة بعاداتها وتقاليدها وما تبقى من تراثها الطبيعي والثقافي.

وعليه، فإن كسب رهان التنمية المستدامة بأقاليم الشمال المغربي يتطلب استراتيجية متكاملة تراعي المميزات والخصائص لكل إقليم على حدة، بالإضافة الى التكامل والترابط القوي بين أبناء المنطقة ثقافيا واجتماعيا. ولتحقيق هذا الهدف، فإننا نتقاسم مع الكاتب مجموعة من الخطوات الإجرائية فيما يخص التنمية السياحية والبيئية في علاقتها مع الموروث الثقافي والتاريخي والطبيعي بأقاليم الشمال، ويمكن إجمالها في الخطوات الآتية:

- خلق البنيات التحتية وفك العزلة عن المنطقة: وذلك من خلال شق الطرقات وخلق فضاءات سياحية قروية وساحلية وفتح ممرات بحرية تربط المناطق الساحلية التاريخية مثل الجبهة، الحسيمة، وادلو، تارغا، سطيحات...، وكل هذه الأماكن لها من المآثير التاريخية ما يجعلها مناطق جذب للسياحة العالمية. بالإضافة إلى ربط المنطق بالسكك الحديدية والتجهيرات الفندقية والإقامات السياحية...الخ، كما أن دعم البنية الطرقية بالمحاور الجبلية، وتحسين أسلوب التشوير والإرشاد لتحقيق العدالة المجالية.
- التعريف بالمآثر التاريخية والموروث الثقافي والطبيعي، وجرد عناصره بغية إنجاز خرائط أثرية وأرشيفات للمواقع الثقافية، بالإضافة إلى تشييد متاحف محلية تهتم بالتراث المحلي والتعريف به.
- لا بد من رد الاعتبار لقطاع الصناعة التقليدية المحلية، وخلق نقط التوزيع والبيع حتى يتشجع أبناء المنطقة على البقاء وعدم الهجرة بحثا عن آفاق أفضل، وهذا ما لاحظناه في السنوات الأخيرة، فإن بعض الدواوير بدأت تفرغ من سكانها بسبب الهجرة الداخلية والخارجية. وهذا الأمر سيدفع سكان المنطقة مع إشراك المجتمع المدني إلى إحياء التراث الثقافي المادي واللامادي.
- ضرورة إشراك كل الوسائل المساعدة على الصون والتثمين، من مؤسسات ثقافية وجمعيات مدنية، وجامعات ومسارح وطنية وفنية...، بالإضافة إلى خلق منصات إعلامية وطنية ودولية، ونحن نعيش اليوم أمام ازدهار تقنية الذكاء الاصطناعي، لا بد من خلق متاحف ذكية أو ما يمكن تسميته بالسياحة الذكية تأسيًا بالعديد من الدول التي قطعت شوطًا متقدمًا في هذا الباب.
- هناك نقطة غاية في الأهمية، وتتمثل في فتح عروض استثمارية في مجال السياحة الثقافية والبيئية وتشجيع المستثمر الداخلي والخارجي، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن منطقة الريف خصوصًا والمناطق الشمالية عمومًا تزخر بكم هائل من المهجرين الذين يرغبون بالاستثمار في وطنهم، وهم على استعداد تام فور توفر شروط الأمان الاستثماري وتسهيل المساطر القانونية.
- ضرورة دعم البنية الطرقية بالمحاور الجبلية، وتحسين أسلوب التشوير والإرشاد لتحقيق العدالة المجالية، وتهيئة محطات للرياضات الجبلية والمائية، وإحياء نوادي للرماية الفروسية وإحداث مراكز للقنص ومخيمات تابعة للشباب والرياضة، ومراصد الذاكرة الجبلية، مع الحرص على تكوين المثقفين من أبناء الجبل كمرشدين سياحيين جبليين، بالإضافة الى إنتاج برامج وأفلام وثائقية تعريفية بالتراث الجبلي بمناطق الشمال وتقديمه في التظاهرات الوطنية والدولية بشكل يليق به كتراث مادي وغير مادي[٢٤].

ربطاً بما سبق، فإن الصناعة الإشهارية اليوم أصبحت محرك الاقتصاد السياحي، وما هو ملاحظ على المستوى الوطني فضلا عن المحلي، ضعف التنافسية في هذا المجال، إذ لا سياحة بدون صناعة إشهارية قوية وتنافسية عالية.

الاحالات المرجعية:

(١) اشهبار عمر، **التراث الطبيعي والثقافي وآفاق التنمية السياحية في إقليم الحسيمة**، مركز النسخ "الشباب" تطوان، ط١، ٢٠٢٢، ص ٣٢.

(٢) نفسه، ص ٦-٧.

(٣) كانت تقع مدينة المزمة على بعد نحو سبع كيلومترات شرق مدينة الحسيمة الحالية عند أسفل هضبة أجدير قبالة جزيرة النكور المحتلة ويصعب تحديد تاريخ تأسيس هذه المدينة بشكل دقيق، لكن الغالب على الظن أن مرسى المزمة كان نشيطا منذ قيام حاضرة، نكور، لكن إشعاع المدينة برز بشكل كبير بعد تدمير إمارة النكور، وبالتالي يمكن القول إن المزمة هي وريثة نكور. وقد استمر إشعاعها حتى أواخر القرن السابع عشر الميلادي. وقد تطرقت العديد من مصادر العصر الوسيط إلى هذه المدينة وإسهامها في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في منطقة الريف. (أشهبار، نفس المرجع، ص١٠١).

(٤) صور مأخوذة من الكتاب ص ١٠٣.

(٥) نفسه، ص ١٠٥.

(٦) نفسه، ص ١٠٢.

(٧) نفسه، ص ١١٠.

(٨) نفسه، ص ١١٤.

(٩) نفسه، ص ١١٧.

(١٠) نفسه، ص ١٣٢.

(١١) نفسه.

(١٢) نفسه.

(١٣) نفسه.

(١٤) نفسه، ص ١١٨-١١٩.

(١٥) نفسه، ص ١٢٠.

(١٦) الزوايا، جمع زاوية: مكان معد للعبادة وإيواء الواردين من المريدين وإطعامهم وعرفت بأنها مدرسة دينية أو دار مجانية للضيافة، وهي بذلك تشبه الدير في العصور الوسطى. ومن أقدم الزوايا بالمغرب التي حملت هذا الاسم زاوية الشيخ محمد صالح الماجري (ت ٧٣١ هـ) وتكاثرت الزوايا في العصر المريني ونمت حولها مدارس لطلبة العلم. انظر: العافية عبد القادر، **الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية بشفشاون وأحوازها**، مطبعة فضالة المحمدية المغرب، ١٩٨٢، ص١٩٢.

(١٧) الرباطات جمع رباط والرباط في الإسلام أصله مكان يجتمع فيه الناس من أجل الجهاد وحراسة الثغور، وتطور هذا المفهوم فيما بعد، إلا أنه لم يخرج عن معنى المرابطة والمجاهدة وكانت الربط بمثابة معاهد لتعليم العلم، ولتربية خاصة تقوم على التعليم والتثقيف والجهاد.

(١٨) نفسه، ص ١٨٨.

(١٩) جاء في مذكرة تقديم مشروع قانون يتعلق بحماية التراث الثقافي والمحافظة عليه وتثمينه ما يلي: أولى المغرب، تاريخيًا، اهتمامًا قويًا بالتراث. ويعود ذلك إلى ٢٩نونبر ١٩١٢، تاريخ نشر الظهير الشريف المتعلق بالمحافظة على المواقع والنقائش التاريخية، ومنذ هذا التاريخ عرف التشريع المغربي تطورا ملحوظا توج بإصدار مجموعة من النصوص التشريعية وهي كالتالي:

- الظهير الشريف المؤرخ ب ١٣فبراير ١٩١٤المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والنقائش والتحف الفنية والعاديات للمملكة الشريفة وحماية الأماكن المحيطة بالمآثر والمواقع والمعالم الطبيعية؛
- الظهير الشريف المؤرخ ب ٢١يوليو ١٩٤٥المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والنقائش والتحف الفنية والعاديات وحماية المدن العتيقة والمعمار الجهوي؛
- القانون رقم ٢٢,٨٠. المتعلق بالمحافظة على المباني التاريخية والمناظر والكتابات المنقوشة والتحف الفنية والعاديات. (وزارة الثقافة).

(٢٠) مرسي أحمد علي، **صون التراث الثقافي غير المادي أرشيف الحياة والمأثورات الشعبية مصر نموذجًا**، المجلس الأعلى لثقافة القاهرة، ط١، ٢٠١٣، ص ٢٤.

(٢١) نفس المرجع

(٢٢) صلاح الجبوري وآخرون، **التراث الثقافي اللامادي لبدو العراق في بادية غرب نهر الفرات**، دار الآداب للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٢٢، ص ٧.

(٢٣) أشهبار عمر، مرجع سابق، ص ١٣٦.

(٢٤) التباعي جواد، **جوانب من التراث الثقافي ببلاد زيان من العصر الوسيط إلى الزمن الراهن دراسة وتثمين**، دورية كان التاريخية، عدد ٥٣، سبتمبر ٢٠٢١، ص ٢٤٤.

عرض كتاب

آيت خباش بمنطقة تافيلالت
الاحتلال الفرنسي وآثاره الاقتصادية والاجتماعية
(١٩٠١ – ١٩٣٨)



د. عبد الرحمان ملوكي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
مكناس - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس (المغرب). نوقشت بتاريخ ١١ مايو ٢٠٢٢.

الباحث: عبد الرحمان ملوكي
إشراف: الأستاذ الدكتور سيدي محمد الكتاني
التخصص: التاريخ المعاصر
التاريخ: مايو ٢٠٢٢
لجنة المناقشة: الدكتور سيدي محمد الكتاني (مشرفا)
الدكتور لحسن أوري (رئيسا)
الدكتور مولاي عمر صوصي علوي (عضوا)
الدكتور الحاج ساسيوي (عضوا)

جاءت هذه الدراسة الموسومة بعنوان: " آيت خباش بمنطقة تافيلالت: الاحتلال الفرنسي وآثاره الاقتصادية والاجتماعية (١٩٠١ - ١٩٣٨)" لمحاولة تفسير دوافع تركيز الإدارة الاستعمارية الفرنسية على قبيلة آيت خباش بتافيلالت تحديدًا أكثر من باقي قبائل المنطقة الأخرى، سواء من حيث الضغط المجالي على حدودها الجغرافية، أو من حيث وضع خطط واستراتيجيات تروم تحويل بناها القبلية وتمظهراتها السوسيواقتصادية والسوسيومجالية، عبر الدفع بها نحو حياة الزراعة والاستقرار، بدل نمط الرعي والترحال. يهدف موضوع البحث إلى كشف النقاب عن جانب هام من جوانب علاقة آيت خباش بالاستعمار الفرنسي، عبر الدور الذي اضطلع به المستعمر في تغيير الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لآيت خباش، وما رافق ذلك التحول من تأثير على مجال هذه القبيلة وتغير في نمط عيشها، ومن ثمة استقرارها بمنطقة تافيلالت.

كلمات مفتاحية:
الاستعمار الفرنسي؛ الخزانة الحسنية؛ العلاقات القبلية؛ التاريخ الاقتصادي؛ تاريخ المغرب المعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.343929 doi

مُقَدِّمَةُ

شكل موقع تافيلالت الاستراتيجي عاملاً أساسيًا في حدوث العديد من الصراعات والتطاحنات البشرية بمجال هذه المنطقة؛ بسبب رغبة بعض الأفراد أو الجماعات السيطرة على الطرق التجارية ومراكزها الكبرى. وبحكم أن حاضرة سجلماسة مثلت أبرز هذه المراكز، فإنها أضحت في نهاية المطاف موطنًا أساسيًا لانطلاق الدول والسلالات التي حكمت المغرب، ابتداء من المرابطين، ثم الموحدين، فالمرينيين وانتهاء بالعلويين. وبتراجع الطرق التجارية خلال القرنين ١٦ و١٧م واختفائها نهاية القرن ١٩م ومطلع القرن ٢٠م، تضاءلت تافيلالت حتى على مستوى الدراسات التاريخية.

وإلى غاية مطلع القرن ٢٠م، كان المجتمع الفيلالي يغلب عليه الطابع القبلي. حيث كان السكان

يعيشون على أنماط عيش متباينة؛ فمنهم قبائل القصور المستقرة، ومنهم قبائل الرحل المتجولة، ولكل صنف عاداته وأعرافه الخاصة. كما تميز سكان المنطقة بتنوعهم الإثني / العرقي (شرفاء - بني معقل - حراطين ...) واللغوي (أمازيغ - عرب) والديني (يهود - مسلمين)، وشمل هذا التنوع أيضا الوضعية الاجتماعية (أحرار، عبيد) ....، لكن التدخل الفرنسي في منطقة تافيلالت أسهم في إحداث تحولات عميقة مست الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والقبلية، مما سيفرز لاحقًا عن ظهور بنية اجتماعية جديدة مختلفة عن الطابع القبلي الذي ساد المنطقة قبل الفترة الاستعمارية. وقد كانت قبيلة آيت خباش بتافيلالت في مقدمة القبائل التي **تأثرت بالتدخل الاستعماري** بالمنطقة؛ إذ مثل الخباشيون أهم العناصر الأمازيغية التي تضررت من تراجع مداخيل الطرق التجارية الصحراوية، على اعتبار أن تجارها كانوا يجوبون هذه المسالك لعقود طويلة، قصد التجارة ونقل السلع والبضائع.

إن حقل الدراسات في تاريخ الرحل بالمغرب ما يزال بكرًا، خاصةً في شقه المتعلق برحل تافيلات الذي يبدو أن البحث التاريخي فيه لم يخرج بعد من فترته الجنينية؛ على اعتبار أن جل الأطاريح والأبحاث التي تناولت تاريخ منطقة تافيلالت خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة، أغفلت تاريخ **كتلة قبلية كبيرة** كانت دائمة التنقل والترحال، مثل قبائل آيت خباش وذوي منيع وأولاد جرير، التي كان لها دور وازن في التحولات السوسيو اقتصادية التي عرفتها واحة تافيلالت خاصة خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

إذ تمثل قبيلة آيت خباش من هذا المنطلق، النموذج الحي الشاهد على تأثير قبائل الرحل على مجريات الأحداث لدى سكان القصور، باعتبار أن الخباشيين كان لهم باع طويل في حماية المستقرين بمنطقة تافيلالت، كما اشتهروا أيضا بهجماتهم وغاراتهم على هؤلاء السكان أنفسهم لاسيما زمن المسغبات والمجاعات، أو خلال سنوات القحط والجفاف. ولم يكن اختيار موضوع آيت خباش - باعتبارهم قبيلة مرتحلة ومستقرة في الوقت نفسه - أمرا اعتباطيا، أو محض الصدفة؛ بل تم ذلك وفق **بحث ودراسة عميقة** لمختلف القبائل المستقرة لواحة تافيلالت، فكان لهذه القبيلة أوفر حظ **وأكبر نصيب** في مجمل الأحداث والوقائع التي شهدتها المنطقة سيما خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين.

لذلك جاءت هذه الدراسة الموسومة بعنوان: " **آيت خباش بمنطقة تافيلالت: الاحتلال الفرنسي وآثاره الاقتصادية والاجتماعية** (١٩٠١ - ١٩٣٨)" لمحاولة تفسير دوافع **تركيز** الإدارة الاستعمارية الفرنسية على قبيلة آيت خباش بتافيلالت تحديدًا أكثر من باقي قبائل المنطقة الأخرى، سواء من حيث **الضغط المجالي** على حدودها الجغرافية، أو من حيث وضع **خطط واستراتيجيات** تروم تحويل بناها القبلية وتمظهراتها السوسيواقتصادية والسوسيومجالية، عبر الدفع بها نحو حياة **الزراعة والاستقرار**، بدل نمط **الرعي والترحال**.

١–أهداف البحث وإطاره الزمكاني

لقد اهتمت جل الدراسات والأبحاث التي تناولت تاريخ تافيلالت بالتاريخ الحدثي والعسكري، وبالجوانب العمرانية والسياسية وعلاقة المنطقة بالمخزن والزوايا وبالسلطة الاستعمارية لاحقًا. حيث يستشف من هذه الدراسات تركيزها على قبائل القصور أو السكان المستقرون، نظرًا لارتباطهم الكبير بالسلطة المخزنية من خلال فئة الشرفاء التي شكلت عنصرًا بشريًا فاعلاً ومؤثرًا في معظم الوقائع والأحداث التي شهدتها المنطقة منذ قدوم جدهم " الحسن الداخل" من ينبوع النخل بلاد الحجاز أواخر القرن (٥٨/ ١٤م).

في حين لم تستفد قبائل الرحل بتافيلالت من هذه العناية البحثية التي خُصَّت بها نظيراتها المستقرة، حيث ظل تاريخها مغمورًا لدى معظم الدارسين وعموم القراء، باستثناء بعض الدراسات التاريخية النادرة جدًا التي خصصت لهذه القبائل فصولا ضمن مؤلفاتها، سنشير إليها لاحقا. وباعتبار آيت خباش إحدى أبرز هذه القبائل، إن لم تكن أهمها على الإطلاق، بحكم امتداد نفوذها السياسي والاقتصادي بمنطقة تافيلالت لعشرات العقود من الزمن، والذي لم يستطع أي تكتل قبلي أو سلطة سياسية القضاء عليه أو الحد منه، إلى أن جاء الغزو الاستعماري، الذي احتل أرض القبيلة وقوض قدراتها الدفاعية وقوتها العسكرية.

١/١-الأهداف

يهدف موضوع البحث إلى كشف النقاب عن جانب هام من جوانب علاقة آيت خباش بالاستعمار الفرنسي، عبر الدور الذي اضطلع به المستعمر في تغيير الأحوال الاقتصادية والاجتماعية لآيت خباش، وما رافق ذلك التحول من تأثير على مجال هذه القبيلة وتغير في نمط عيشها، ومن ثمة استقرارها بمنطقة تافيلالت.

ويتعلق موضوع البحث بتاريخ **هامش الهامش** واستكمال بعض حلقات تاريخ تافيلالت خلال فترة الحماية. وتتوخى هذه الأطروحة دراسة الأوضاع العامة لقبائل الرحل قبل الغزو الاستعماري للتخوم الشرقية، سواء من حيث نمط عيشها أو تنظيماتها الداخلية وآليات التفاعل بينها، أو من حيث علاقاتها مع قبائل القصور المجاورة لها بما فيهم العناصر اليهودية. وإبراز مساهمة الاستعمار الفرنسي للتخوم الشرقية في تقلص مجال رحل آيت خباش، ومحاصرة ترحالهم والزج بهم نحو الاستقرار بمنطقة تافيلالت. هذا دون إغفال التطرق إلى علاقة آيت خباش بكل من المخزن والزوايا وحدود تأثيرهما في مقاومة القبيلة للغزو الفرنسي، ودور المؤهلات العسكرية والمهارات الحربية للخباشيين في تزايد شراسة مقاومتهم للغزو الاستعماري لإقليم تافيلالت. غير أن الاحتلال الفرنسي لمجال القبيلة خلف آثارا حاولت الأطروحة ملامسة تداعياتها الاقتصادية والاجتماعية على المجتمع الخباش.

٢/١-الإطار الزمكاني

ركزت الدراسة على حيز مكاني ضيق، وهو مجال آيت خباش بتافيلالت، خلال الفترة الممتدة من ١٩٠١ إلى ١٩٣٨؛ إذ تمثل سنة ١٩٠١ معركة تيميمون الشهيرة التي أغار فيها آيت خباش على المركز الفرنسي بتيميمون خلال شهر فبراير مخلفين عشرات القتلى والجرحى في صفوف الوحدات العسكرية الفرنسية، ثم أعادوا الكرة مرة ثانية في شهر مارس ومن ثمة ألحقوا خسائر بشرية جسيمة بوحدات الجيش الغازي، مما أدى إلى تذمر الفرنسيين، الذين اعتبروا نتائج هاتين المواجهتين كارثة عظمى أذلت الجبروت العسكري الفرنسي، ومنه، أعطت القيادة العليا الضوء الأخضر للقادة العسكريين بسحق ومحق كل من وجدوه في طريقهم من المقاومين الخباشيين.

بينما تعبر سنة ١٩٣٨ عن حدث جسيم هو الآخر، يتجلى في اغتيال آخر زعيم للمقاومة الخباشية بمنطقة تافيلالت وهو "أحمد أو ماما باني" الذي قتله الفرنسيون بدعم وتحريض من معاونيهم من القبيلة نفسها. الأمر الذي أدى إلى دق آخر مسمار في نعش مقاومة آيت خباش بمنطقة تافيلالت، ومن ثمة فُتِحَ المجال أمام الفرنسيين للتنقيب واستغلال الثروة المعدنية الغنية بالطاوس المركز الرئيس لرحل آيت خباش. كما أنه انطلاقاً من هذا التاريخ، أعطت فرنسا تراخيص للشركات التي لها رغبة في البحث عن المعادن بمجال قبيلة آيت خباش، فضلاً عن تكثيف الجهود من قبل سلطات الحماية قصد دفع باقي رحل القبيلة نحو الاستقرار والزراعة، بالإضافة إلى تشغيل عمالهم في المناجم والضيعات الفلاحية وتوظيف أبنائهم في الجيش.

جدير بالذكر أن التحديد الزمكاني لموضوع الدراسة لم يحل دون تجاوزنا له في بعض الأحيان؛ خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالكشف عن الأوضاع التي كانت تشهدها قبيلة آيت خباش قبل الغزو الفرنسي أي خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من أجل إبراز حجم التحول ومستوى التغير الذي شهدته القبيلة بعد مرحلة التدخل الاستعماري مطلع القرن العشرين. كما شهد المجال المدروس تمطيطاً واتساعاً، حيث وصل إلى التخوم الشرقية وواحات تيزيمي وبوذنيب ودرعة؛ وقد كان الهدف من ذلك هو مقارنة هذه المجالات بمجال الدراسة قصد استخلاص أوجه التشابه والاختلاف وبناء خلاصات تركيبية لمجموع مجالات قبائل الجنوب الشرقي بوجه عام.

٢-إشكالية البحث

شكل الغزو الفرنسي للتخوم الشرقية للمغرب عاملاً أساسيًا في التحولات التي شهدتها قبائل رحل تافيلالت خلال الثلث الأول من القرن العشرين؛ ابتداءً من مرحلة الترحال عبر واحات زوزفانة وبني عباس والعبادلة إلى مرحلة الاستقرار بواحات تافيلالت، وانخراط هذه القبائل في نمط عيش جديد لم يكن لها عهد به فيما سبق، وتعتبر قبيلة آيت خباش من أبرز هذه القبائل التي انتقلت من حياة التجوال والترحال إلى حياة العمران والاستقرار.

وتتمحور إشكالية الأطروحة في **رصد التحول العام الذي شهدته قبيلة آيت خباش جراء التدخل الاستعماري الفرنسي**. وتتفرع عن هذه الإشكالية التساؤلات التالية:

- ما المقصود بآيت خباش، وما الحدود الجغرافية لقبيلتهم؟
- كيف كانت التنظيمات الاجتماعية لآيت خباش، وعلاقتهم بالقبائل المجاورة لهم؟
- ما طبيعة العلاقة التي كانت تربط بين آيت خباش والزوايا من جهة، وبين الخباشيين والمخزن بشقيه المحلي والسلطاني من جهة أخرى؟
- ما أطوار مواجهة آيت خباش للغزو الاستعماري خلال فترة ١٩٠١ - ١٩٣٨، وما أبرز المؤهلات العسكرية والمهارات الحربية للقبيلة؟
- ما حدود آثار الاحتلال الفرنسي على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لآيت خباش بتافيلالت؟

- هل يمكن اعتبار الغزو الاستعماري المسؤول الوحيد عن تحول نمط عيش آيت خباش من الترحال إلى الاستقرار؟ أم أن هذا الأمر تتداخل فيه عوامل أخرى: كقساوة الظروف الطبيعية وحدوث تحولات على المستوى السوسيو ثقافي، أم أن كثرة الحروب والصراعات القبلية ساهمت في إضعاف هذه القبيلة وإنهاك قواها، ومن ثمة أصبحت لا تقوى على التنقل والترحال، فاستقرت اضطرارا وليس اختيارا؟

٣ - منهج البحث

اعتمدت دراسة موضوع آيت خباش على منهج علمي رصين ومنضبط، سواء في تصنيف وتبويب الوثائق التي استطعنا الحصول عليها، أو في **نقدها وتمحيصها** عن طريق استخدام رؤية شمولية تتضمن **التعريف، والتفسير** ثم **التركيب**، قصد الوصول إلى استنتاجات منطقية تستجيب للإشكالية المطروحة، والأسئلة المؤطرة لها. وفي هذا السياق حاولنا الاستفادة من الوثائق الأجنبية والكشف عن الجانب الإيديولوجي الاستعماري بين سطورها، بهدف دحضه وإبعاده، والرجوع إلى الوثائق الرسمية الوطنية قصد استخلاص ما تتضمنه من معطيات الواقع المحلي (الفيلالي والخباشي على السواء) من أجل تعميق البحث في بعض قضاياه وظواهره.

وقد استفدنا من الانفتاح على بعض العلوم المساعدة الأخرى، ولا سيما **الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا والإثنولوجيا**، فاستعنت ببعض أبحاثها في دراسة مجتمع الرحل عمومًا، واستنرت ببعض أدواتها لدراسة مكونات القبيلة وبعض الممارسات اليومية لآيت خباش، وعلاقاتهم بالقبائل المستقرة، والقبائل المرتحلة من جهة، ومع المخزن والزوايا والمستعمر من جهة ثانية. ناهيك عن انفتاح موضوع البحث عن **المنهج الوصفي** و**الإحصائي - الكمي**، خاصة في القضايا التي شهدت تطورات على المستوى الكمي - العددي، التي تضمنتها الجداول ذات البعد الإحصائي - الرقمي، مما مكن من وضع تحليل علمي لهذه المعطيات وفق الصيرورة العامة لمحاور وعناصر الدراسة. كما سعينا قدر الإمكان إلى التزام المرونة والتروي، قبل بناء الاستنتاجات وإصدار الأحكام حول الخلفيات الإيديولوجية التي كان يتحرك وفقها الأجانب في كتاباتهم عن آيت خباش، على اعتبار أن المعلومات والمعطيات التي ضمتها تقاريرهم تعتبر المصدر الجوهري والأساسي لموضوع البحث، ولكن هذا الأمر لا يمنع من جهة أخرى، من تمحيص وغربلة هذه المعطيات والتنبيه بين الفينة الأخرى إلى بعض أحكامها الجاهزة ذات الأحكام المسبقة.

٤ – دوافع اختيار الموضوع

يتجلى الحافز الأساس الذي كان وراء اختيارنا لموضوع آيت خباش في تافيلالت، هو رغبتنا الجامحة في البحث عن **تاريخ الرحل** الذين استقروا بواحات تافيلالت، سيما بعدما خلُصنا في البحث الذي أنجزناه سنة ٢٠١٠م لنيل شهادة الماستر[١] إلى أن تاريخ رحل هذه المنطقة ما يزال مجهولا، سواء لدى ساكنة القصور أو لدى الباحثين والمتخصصين في تاريخ تافيلالت، اللهم بعض الروايات الشفهية المتناثرة هنا وهناك، والتي تتناقلها أفراد هذه القبائل جيلا عن جيل.

كما أسهمت دوافع أخرى في اختيارنا لموضوع الدراسة، نحاول أن نجملها فيما يلي:

- غياب دراسة **علمية أكاديمية شاملة** عن تاريخ آيت خباش بمنطقة تافيلالت خلال الفترة المدروسة (١٩٠١ - ١٩٣٨)، تعتمد الأرشيف الفرنسي منطلقا لها، لدراسة تطورات الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لآيت خباش زمن الفترة الاستعمارية، واقتصار الأبحاث المنجزة على دراسة الجوانب العسكرية والسياسة وعلى مقاومة القبيلة للاستعمار الفرنسي، وذلك عبر التطرق إلى المعارك والمواجهات دونما الخوض بشكل مفصل في الميادين الاقتصادية والاجتماعية، وتحولاتها العامة عقب التدخل الفرنسي.
- النقص الكبير في الدراسات الأكاديمية التي تعنى **بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي** لمنطقة تافيلالت عمومًا وآيت خباش وقبائل الرحل خصوصا، لاسيما خلال الحقبة الاستعمارية. مما يستدعي ضرورة انكباب الباحثين على هذا المجال التاريخي الخصب وتكثيف الجهود لإماطة اللثام عن صفحات ما تزال مجهولة ضمن التاريخ المونوغرافي لقبائل تافيلالت، التي لم تستوف بعد حقها من الدراسة والبحث.
- محاولة الكشف عن **تاريخ العلاقات القبلية وأنواعها وأصنافها**، سواء منها علاقات رحل - رحل، أو علاقات رحل - مستقرين، أو علاقات مستقرين - مستقرين، وهي أنواع من الروابط قل ما نجدها بين ثنايا الدراسات الحديثة لمنطقة تافيلالت. إذ الغالب على هذه الأخيرة هو تطرقها للعلاقات العمودية: سواء العلاقة بين المخزن والقبائل، أو العلاقة بين هذه القبائل والمستعمر الفرنسي، في حين تظل

العلاقات الأفقية السالفة الذكر شبه مجهولة لدى عموم الدارسين والمهتمين.

- أهمية اعتماد **وثائق الأرشيف الفرنسي** في الكشف عن معطيات دقيقة حول الحياة الاقتصادية والاجتماعية والنفسية لآيت خباش بمنطقة تافيلالت خلال فترة الحماية. الشيء الذي يصعب الوصول إليه اعتمادا على الوثائق المحلية أو المصادر الوطنية المتنوعة بما فيها الرواية الشفهية، وإن كانت هذه المصادر لها أهميتها في بعض الجوانب مثل قبول أو دحض بعض المقولات الاستعمارية. لكن هذا لا ينفي أهمية تظافر الجهود لكل الباحثين والمتخصصين في تاريخ المنطقة من أجل جمع الوثائق المحلية المنتشرة في الزوايا ولدى الأسر المخزنية، إلى جانب تدوين الرواية الشفهية قبل انقراضها مع موت ما تبقى من المسنين.

٥ – دراسة المصادر والمراجع

تطلبت عملية بناء محاور دراستنا في متن متّزنٍ وتصميم متوازن، التنقيب عن المادة المصدرية والمرجعية الضرورية من مخطوطات وأطروحات جامعية ومظان ودوريات ونشرات وتقارير ومراسلات، وجرائد، ورواية شفوية ....، وقد كلفت عملية جمع كل النصوص والإشارات والروايات عن آيت خباش وقتا طويلا، وجهدا كبيرا، قبل الظفر بكم وثائقي هام، تميز بالغنى والتنوع، أسهم دون شك في تسليط الضوء على جوانب ظلت معتمة في التحولات الاقتصادية والاجتماعية لهذه القبيلة خلال فترة الاحتلال الفرنسي. بيد أن جمع المادة الخام المتنوعة، جعلنا نرتاد عدد من الخزانات بالرباط، تتجلى في المكتبة الوطنية للمملكة المغربية، وأرشيف المغرب، ومكتبة المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، وخزانة الدوريات التابعة لكلية الآداب - أكَدال، وخزانة الأسرة العلوية الشريفة التابعة لمسجد حسان. كما زرنا خزانات أخرى بالمدينة نفسها وهي:

مديرية الوثائق الملكية

حصلنا منها على ما يزيد عن ١٣٠ وثيقة، تمتد تواريخها من فترة حكم مولاي عبد الرحمان إلى فترة حكم مولاي عبد العزيز. وإذا كانت هذه الوثائق في مضامينها لا تلامس جوهر موضوع بحثنا، إلا أنها لا تخلو من إشارات مهمة عن أوضاع الرحل وضمنهم آيت خباش بالتخوم الشرقية خاصة بعد واقعة إيسلي سنة ١٨٤٤م، وما أعقب ذلك من مشاكل حدودية بعد معاهدة لالة مغنية سنة ١٨٤٥م، وتنامي الزحف الاستعماري على هذه الربوع. مما أدى إلى تزايد المراسلات بين هذه القبائل والسلطة المخزنية أواخر القرن ١٩ ومطلع القرن ٢٠م.

الخزانة الحسنية

خلال زيارتنا المتكررة للخزانة الحسنية بالرباط طالعنا العديد من المخطوطات، وتصفحنا فهارس الخزانة التي كان أغلبها يتعلق بعلوم الشريعة: من فقه وعقائد وعلوم اللغة والآداب وما يقاربها، بينما ما يصُبّ في تجاه بحثنا فهو نادر جدا، اللهم بعض المخطوطات التي تحكي تاريخ الشرفاء بسجلماسة؛ وهذا ما جعلنا نعتمد مخطوطا في هذا السياق بعنوان "ظهير حسني في شأن حرْكة سجلماسة" تحت رقم ١٢٣٠٢ ويقع في ١٩٩ صفحة، يتضمن إشارات عن حركة مولاي الحسن إلى تافيلالت لتأديب القبائل الثائرة ولصلة الرحم بين السلطان وأخيه مولاي رشيد وأبناء عمومته، ثم للإطلاع عن كثب على أحوال رحل التخوم خاصة ذوي منيع.

وقد ترددنا على خزانة كلية الآداب ظهر المهراز بفاس، وخزانة كلية الآداب سايس بالمدينة نفسها، وخزانة كلية الآداب بمكناس، وخزانة مندوبية الأوقاف والشؤون الإسلامية، وخزانة فضاء الذاكرة التاريخية للمندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير بالمدينة نفسها.

إن التنقيب الميداني المحلي الذي طال مجال الدراسة، مكننا من الحصول على وثائق متعددة ومتنوعة، خاصة وثائق مركز الدراسات والبحوث العلوية بالريصاني، الذي تمكنا من خلاله الحصول على ما يناهز ٦٠ نسخة من الوثائق المخزنية التي تتحدث عن الأوضاع السياسية والاقتصادية لقبائل تافيلالت، وضمنهم قبائل الرحل وآيت خباش، وتم هذا الأمر منذ سنة ٢٠٠٩م خلال فترة تحضيرنا لبحث نيل شهادة الماستر في موضوع **التاريخ الاجتماعي لتافيلالت خلال القرن التاسع عشر**. وتبرز أهمية هذه الوثائق في إشارتها إلى العلاقة السياسية بين قبائل المنطقة والمخزن المركزي، بالإضافة إلى تطرقها إلى تدهور الأوضاع العامة للرحل بالتخوم الشرقية للمغرب عقب الاختراق الاستعماري لمجالها الجغرافي. فضلاً عن توضيحها لمعطيات مهمة بخصوص الجوانب الاقتصادية والاجتماعية لقبائل تافيلالت والتخوم الشرقية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ونظرًا لأهمية الزيارة الميدانية لمجال الدراسة، عملنا على تكثيف زيارتنا لمجموعة من القصور والمراكز الحضرية بتافيلالت؛ بدءا بمركز بوذنيب، على

اعتبار استقرار بعض الأسر من قبيلة آيت خباش في ضواحيه، لكن للأسف لم يسعفنا الحظ في الحصول على أي وثيقة أو معطيات تهم موضوع بحثنا. وزرنا أيضا مركز أرفود الذي لم نحصل فيه سوى على قصائد شعرية تخص رحل ذوي منيع. كما زرنا العديد من قصور واحة تافيلالت أو ما يعرف بالريصاني حاليا، فكانت زيارتنا لبلدية مولاي علي شريف فرصة للاطلاع على منوغرافية قصور وقبائل البلدية، في حين زيارتنا لبعض قصور مقاطعة الغرفة لم تسفرعن أية نتائج إيجابية، بيد أن تجاهنا نحو قصور السفالات وتانيجيوت، كلل بالتوفيق والنجاح.

تكمن أهمية الرواية الشفوية في اعتبارها مصدرًا تاريخيًا، لا يقل أهمية عن باقي المصادر. لذلك، فكتابة تاريخ آيت خباش يتأسس في جزء منه على ما يتداوله الأفراد والجماعات من جيل إلى جيل من أشعار وروايات تؤرخ لملاحم وبطولات هذه القبيلة، خصوصًا فيما يتعلق بجانب المقاومة. وتحقيقا لذلك، أجرينا العديد من المقابلات أثناء زياراتنا المتكررة لمجال الدراسة، خاصة خلال زيارتنا لقصر "إيرارة" بمقاطعة السفالات وزاوية "سيدي الغازي بن العربي" بالمقاطعة نفسها، وأيضا بقصر "مزكَيدة" بمقاطعة تانيجيوت، وقصور مقطع الصفا وأوطارة والطاوس. عموما تميزت الاستجوابات التي قمنا بها بالتنوع الإثني والعرقي للمستجوبين، إذ جمعت جل هذه الروايات بين العرب المستقرين بالقصور، وبين الأمازيغ الرحل الذين استقروا حديثا، سيما مع السيطرة على واحات التخوم الشرقية للمغرب إبان مطلع القرن العشرين. مما أسهم في مقابلة هذه الرويات واستنتاج العناصر المشتركة، واستخلاص الأفكار المتضادة والمتعارضة بينها، بغرض الوصول إلى تصور عام يقربنا أكثر من مسألة "**ظروف وحيثيات استقرار رحل آيت خباش بتافيلالت**".

وإلى جانب الوثائق المادية والشفوية، المحلية والوطنية، اعتمدنا الأصول المكتوبة من مصادر ومراجع، سواء العربية منها أو الأجنبية، والتي أغنت موضوع بحثنا لاسيما في إبراز بعض الإشارات عن المعطيات البشرية والاقتصادية لآيت خباش قبل التدخل الاستعماري. أما الدراسات والأبحاث الحديثة فتظهر أهميتها في توضيح التاريخ المعاصر للقبيلة، خاصة خلال فترة ما بعد الاحتلال الفرنسي، ناهيك عن أهمية كتب الرحلات وتقارير البعثات الأجنبية وبعض المونوغرافيات، في إبراز بعض الخصوصيات الاقتصادية والثقافية والسياسية والعرفية لآيت خباش بتافيلالت، وقبائل الرحل بالمنطقة بشكل عام. في حين شكلت **وثائق الأرشيف الفرنسي** مصدرًا محوريًا في بناء هذا العمل، إذ بعد زيارتنا لمراكز الأرشيف الفرنسي بكل من "نانط" و"باريس" صيف ٢٠١٩م، استطعنا استنساخ مئات الوثائق من الأرشيف الدبلوماسي بنانط والأرشيف العسكري بفانسن " باريس". وبعد اطلاعنا عليها تبين لنا مدى أهمية وغنى وتنوع معطياتها، سواء من حيث الإحصائيات والأرقام الخاصة بالجانب الاقتصادي، أو من حيث تضمنها لمعطيات مهمة عن رحل تافيلالت وعن نمط عيشهم وعلاقتهم بالقبائل المجاورة لهم، وأيضًا علاقتهم بشيوخ الزوايا والمخزن والاستعمار.

كما تضمنت تلك الوثائق أيضا، معطيات متنوعة وغنية عن آيت خباش الذين أفرد لهم ضباط الشؤون الأهلية بمكاتب الطاوس والريصاني وأرفود عشرات التقارير الخاصة بقبيلتهم في تافيلالت، إذ أشارت هذه التقارير إلى عدد قطعانهم، ومقاتليهم، ومواردهم الاقتصادية، وأنشطتهم اليومية، فضلاً عن أعمالهم الهجومية من الغارات والكمائن التي كانوا ينصبونها للقوافل العسكرية والتجارية الفرنسية. لذلك شكلت معطيات الأرشيف الفرنسي بفرنسا عصب متن عملنا، وجوهر بحثنا؛ على اعتبار دورها الفعال في إغناء خطة البحث، وتنويع مضامينه، وتجويد أفكاره، وتذليل صعوباته وهناته، عن طريق ملئ معظم الفراغات التي اعترت مباحث وفصول هذا البحث. وما يؤكد أهمية هذا الأرشيف هو توفره على **تقارير دقيقة ومفصلة** خاصة بقبيلة آيت خباش بتافيلالت، دون غيرها من قبائل وقصور المنطقة، في الوقت الذي كانت فيه المادة المصدرية الوطنية والمحلية عاجزة تماما عن سد ثغرات هذا العمل بسبب ضآلة المعطيات السوسيواقتصادية الخاصة بالقبيلة زمن الاحتلال الفرنسي.

٦ - خطة البحث

لقد أدى تصور الموضوع ووضوح منهجه العام وغاياته الكبرى إلى وضع تصميم يستجيب لشروط بحث يتناول موضوع آيت خباش وفق منظور شمولي يراعي كل العلاقات والتداخلات التي يمكن أن تجمع هذه القبيلة بالمخزن وبالزوايا وسكان القصور، بالإضافة إلى الإدارة الاستعمارية المحرك الرئيس لمعظم الحركات الترحالية التي عرفتها قبائل التخوم ابتداءً من سنة ١٩٠٠م في اتجاه واحات تافيلالت. من هنا جاء تصميم هذا البحث على الشكل التالي: مقدمة، وستة فصول، وسبعة عشر مبحثا وخاتمة فضلاً عن الملاحق والفهارس.

تطرق المقدمة إلى أهمية ودوافع وصعوبات البحث، فضلاً عن إبراز إشكاليته وأهدافه ومنهجه. وخصص الفصل الأول للبحث في "**آيت خباش ومجالهم الجغرافي**"، من خلال دراسة دلالة الاسم، وأصول القبيلة، وبطونها، وأفخاذها. فضلاً عن توضيح الخصوصيات المجالية لآيت خباش، عبر تأثير العناصر الطبيعية مثل الموقع والطبوغرافيا والمناخ والموارد المائية في تطور الأوضاع العامة للقبيلة.

وتناول الفصل الثاني "**التنظيمات الاجتماعية لآيت خباش وعلاقتهم بالقبائل المجاورة لهم**"، هذه التنظيمات التي كان لها دور أساسي في تنامي النفوذ السياسي والاجتماعي لقبيلة آيت خباش، باعتبار أهمية التنظيم القبلي في الحفاظ على التماسك الاجتماعي، وأيضا في صلابة الشخصية الخباشية، سواء تعلق الأمر بآيت خباش الرحل المستوطنين للصحاري والحمادات، أو آيت خباش المستقرين بالقصور والدواوير. ففي كل الأحوال والظروف أسهمت "الأعراف" و"اجماعة" كمؤسسات اجتماعية بشكل فعال في تنظيم المجتمع الخباشي، عن طريق صيانة وتطوير القوانين العرفية التي مثلت مصدر قوة بالنسبة لقبائل الرحل عموما وقبيلة آيت خباش خصوصًا، لأن هذه الأخير جمعت بين نمطي عيش مختلفين؛ جزء من القبيلة يتبنى أسلوب الترحال وآخر خاضع لحياة الاستقرار وثالث يجمع بين الترحال والاستقرار.

وتطرق المبحث الثاني من هذا الفصل لعلاقة آيت خباش بالقبائل المجاورة لهم؛ حيث بين أن هذه العلاقة تميزت بالتعدد والتنوع، فمن جهة ربط آيت خباش علاقة مع الرحل تنوعت بين الصراع حينا والتعاون أحيانا، وذلك تبعا لتوافق مصالح هذه القبيلة مع مصالح الرحل، أو تعارض مصالحهما، حيث تأسست غالب العلاقات بين القبائل الرعوية على مبدأ "المصالح"، وعليها عقدت جل التحالفات والأوفاق، ومتى تم الاخلال بمصلحة قبيلة ما فإنها تنتفض وتفسخ تحالفها أو اتفاقها السلمي مع القبيلة أو مجموع القبائل الأخرى التي كانت حليفة الأمس وأصبحت عدوة اليوم.

بالإضافة إلى نسج قبيلة آيت خباش لعلاقات مع قبائل الرحل بالتخوم الشرقية، حاولت ربط علاقات مع القبائل المستقرة بقصور تافيلالت. بيد أن هؤلاء المستقرين كانوا موزعين على تحالفين قبليين كبيرين ومتضادين: حلف آيت عطا من جهة، وحلف آيت يفلمان من جهة أخرى، وبحكم انتماء آيت خباش لاتحادية آيت عطا فإن هذا الأمر كان يسبب لها متاعب جمّة في علاقتها بالقصور الخاضعة لحلف آيت يفلمان[٢]، إذ كثيرًا ما نشبت بينها وبين هذه الأخيرة حروب وصراعات أزهقت العديد من الأرواح وأهلكت الحرث والضرع. لذلك حاول الخباشيون تقدير مصالحهم والاستشارة مع شيوخ عظامهم في كل ما يتعلق بالعلاقات مع القبائل الأخرى سواء كانت من الرحل أو من المستقرين، من داخل التحالف العطاوي أو من قبائل تابعة للحلف اليفلماني.

أما الفصل الثالث فيختص بدراسة "**آيت خباش بين تحريض الزوايا لمواجهة الاحتلال الفرنسي وممانعة المخزن**"، من خلال فهم طبيعة العلاقة بين حركة المقاومة الخباشية بكل من الزوايا من جهة، والمخزن من جهة أخرى، بينما تناول الفصل الرابع "**مواجهة آيت خباش للقوات الفرنسية بتافيلالت**"، هذه المواجهة لم تكن وليدة القرن العشرين، بل تعود لعقود من الزمن قبل السيطرة الاستعمارية على واحات التخوم الشرقية للمغرب. وقد كان للمؤهلات العسكرية والمهارات الحربية لآيت خباش دورا أساسيا في عملية المقاومة والجهاد وإلحاق العديد من الهزائم بوحدات الجيش الفرنسي رغم التفاوت الكبير بينهما في الأسلحة والعتاد العسكري.

وفي هذا الإطار شارك آيت خباش رفقة قبائل المقاومة بكل من تافيلالت والتخوم الشرقية في الجهاد ضد الغزاة بالجزائر، عن طريق دعم زعماء المقاومة الجزائرية وفي مقدمتهم الأمير عبد القادر وأولاد سيدي الشيخ وبوعمامة. بيد أن المقاومة الخباشية ستستعر نيرانها بعد غزو واحات التخوم الشرقية خاصة توات والعبادلة وتيديكلت سنة ١٩٠٠م، الشيء الذي جعلها تقوم بملحمة تاريخية ضد الفرنسيين في معركة "تيميمون" سنة ١٩٠١م، حيث ستلحق هزيمة نكراء في صفوف وحدات الجيش الفرنسي المرابط في هذا المركز. كما تزايدت مقاومة القبيلة بعد ذلك من خلال مساهمتها الفعالة في معارك بوذنيب ١٩٠٨م ومعركة مسكي في ٩ يوليوز ١٩١٦م ومعركة المعاضيد في ١٦ نونبر ١٩١٦م، ثم معركة البطحاء خلال ٩ غشت ١٩١٨م. وقد استمر آيت خباش في الجهاد والمقاومة على الرغم من احتلال الطاوس سنة ١٩٣١م وتافيلالت في يناير ١٩٣٢، وذلك مع آخر زعمائهم الميدانيين "أحمد أو ماما باني" الذي اغتاله الفرنسيون في شتنبر ١٩٣٨م بقصر تنغراس جنوب غرب الواحة الفيلالية، وبمن ثمة أسدل الستار بشكل رسمي على مقاومة آيت خباش بمنطقة تافيلالت.

أما الفصل الخامس فقد عالج مسألة "**آثار الاحتلال الفرنسي على الوضعية الاقتصادية لآيت خباش**" عبر إبراز خصائص الأنشطة الفلاحية في منطقة آيت خباش بتافيلالت، من الإنتاج الزراعي وغرس الأشجار إلى تربية الماشية وزيادة عدد القطعان، بيد أن هذه الأنشطة كانت متباينة كما ونوعًا، بين كل من رحل القبيلة ومستقريها. وقد كان للتدخل الفرنسي في الفلاحة الخباشية آثارًا إيجابية على أوضاع آيت خباش المستقرين؛ عكس التدخل الفرنسي في الأنشطة الحرفية والتجارية الذي أسهم في نتائج سلبية، وتدهورت جراء ذلك معظم هذه الميادين لصالح الصناعة العصرية الأجنبية، ولصالح أيضا التجارة والتجار الأجانب الذين استفادوا من امتيازات السياسة الفرنسية الجديدة.

تطرق الفصل السادس والأخير من هذا العمل إلى البحث في "**انعكاسات الاحتلال الفرنسي على الأوضاع الاجتماعية لآيت خباش**"؛ حيث أسهم تزايد الزحف الاستعماري على الخباشيين ومحاصرة مجالهم الجغرافي في تضييق الخناق على حركتهم الترحالية ونشاطهم الرعوي. الشيء الذي أدى إلى هجرة معظمهم إلى تافيلالت والاستقرار بقصورها، خاصة بعد إطباق السيطرة الفرنسية على الواحات التخومية مطلع القرن العشرين (١٩٠٠م). لذلك نهجت فرنسا مجموعة من الوسائل والآليات قصد تشجيع رحل آيت خباش على الاستقرار والاندماج في حياة سكان القصور، تجلى ذلك في توفير فرص الشغل لهم في أوراش المناجم بالطاوس وفي الجيش، وبضيعات المعمرين بالجزائر. أما **الخاتمة** فكانت عبارة عن تلخيص مركز لأهم الخلاصات والاستنتاجات التي توصلت إليها هذه الدراسة في انسجام مع الإشكالية الموجهة لها، مع إبراز بعض القضايا والإشكالات التاريخية التي يمكن أن تشكل امتدادا لهذه الأطروحة مستقبلا.

٧- صعوبات البحث

على الرغم من المخاوف التي شعرنا بها خلال السنوات الأولى لتسجيل هذه الرسالة، بسبب الصعوبات الكبيرة والكثيرة التي واجهتنا في طريق البحث عن الوثائق، وما رافق متاعب البحث عن الوثائق من مشاكل في ضبط مسارات البحث وتوجهاته الكبرى، فإن هذا الأمر أصبح محسوما لدينا، وتم تأكيد متابعة البحث والتنقيب عن تاريخ آيت خباش، وعن العوامل المتحكمة في استقرارهم بمنطقة تافيلالت، بحكم انتمائنا لهذه المنطقة أولا، ومجاورتنا للرحل بمسقط رأسنا في مقاطعة "الغرفة" جنوب شرق هذه الواحة ثانيا. وهذا بطبيعة الحال ما قوى عزيمتنا في الصبر على تحمل أعباء ومشاق هذا البحث. وينبغي الإشارة بخصوص صعوبات البحث إلى أن أغلبية العائلات والأسر المستقرة بمنطقة تافيلالت ترفض الإفصاح عما يوجد بحوزتها من وثائق وشواهد، كما ترفض إمداد الباحثين بنسخ من الوثائق التي بين أيديها. وهذا ما يطرح في الحقيقة إشكال المقارنة بين الوثائق الفرنسية والوثائق المحلية، فيصبح الحكم على قضية ما أو توجه أو سياسة ما غير قطعي، وحمال أوجه، نظرا لافتقاد الباحث للشواهد المحلية المكتوبة والموثقة.

وارتباطاً بالعمل الميداني نسجل أن الخزانات المحلية في منطقة تافيلالت لم تسعفنا في تعميق البحث في التاريخ السياسي والسوسيواقتصادي للرحل عموما وآيت خباش خصوصا، وكذا في دراسة ظاهرتي الترحال والاستقرار في ارتباطهما بالتوغل الاستعماري بالحدود جنوب شرق البلاد منذ أواخر القرن ١٩ ومستهل القرن ٢٠م؛ على الرغم من وجود بعض الخزانات المتواضعة لبعض زوايا المنطقة، كزاوية الماطي، وزاوية سيدي الغازي بلعربي وزاوية ويغلان، فإن معطيات مخطوطات ووثاق هذه الزوايا ظلت بعيدة كل البعض عن موضوع دراستنا، باستثناء بعض الإشارات القليلة جدًا من هنا وهناك. كما أن الخزانات المحلية الخاصة بالأسر والعائلات سواء كانت من فئة الأعيان أو من ممثلي المخزن خلال الفترة الاستعمارية، لم توفر ما يشفي الغليل بخصوص موضوع الدراسة مع كل الأسف، بيد أن معظم ساكنة القصور لم يُبد ذلك التفاعل المطلوب، بحيث كان تواصلهم بخصوص موضوع الرحل فاترا. وعلى الرغم من توفر بعضهم على وثائق خاصة، قد تكون فيها إشارات مهمة لبحثنا، فإننا لم نستطع الحصول على أي من تلك الوثائق قصد الاطلاع عليها أو نسخها، "لسبب من الأسباب!"

الخلاصات والامتدادات المستقبلية

انتهت هذه الدراسة إلى مجموعة من الاستنتاجات والخلاصات تجلت في إبراز أهمية تماسك أفخاذ وبطون قبيلة آيت خباش في وحدة صفها، وفي عِظَم تأثيرها، ليس على قبائل وقصور تافيلالت فحسب، بل شمل ذلك التأثير معظم قبائل الجنوب الشرقي. كما ارتبطت قوة آيت خباش كذلك بتنظيماتهم الاجتماعية، التي كان لها دور أساسي في تنامي نفوذهم السياسي والاجتماعي، نظرًا لأهمية تنظيمهم القبلي في الحفاظ على التماسك الاجتماعي الداخلي للقبيلة، سواء تعلق الأمر بآيت خباش الرحل، أو آيت خباش

المستقرين، حيث أسهمت "الأعراف" و"اجماعة" كمؤسسات سياسية واجتماعية بشكل فعّال في تدبير الشؤون العامة للقبيلة، وفق رؤية تنسجم مع تحقيق المصلحة الفضلى لجميع أعضائها. ولتحقيق ذلك، كان من اللازم حفظ وصيانة القوانين العرفية، بل وتطويرها من أجل مسايرة مستجدات ظروف وأحوال المجتمع الخباشي. وقد كانت علاقة آيت خباش بقبائل الجوار تتجه غالبا نحو التعاون وتبادل المنافع، من خلال عقد تحالفات دفاعية تجلت فيما سمي بتحالف "تافركّانت" الذي عقدته خلال القرن التاسع عشر الميلادي مع قصور بني امحمد شمال تافيلالت، وتحالف " تاضّا" الذي كان كثير الانتشار في العلاقات البينية للقبائل عموما وقبائل تافيلالت على وجه خاص. ومن المؤكد أن آيت خباش نسجت علاقات قوية مع عدد كبير من القبائل والقصور، كذوي منيع وأولاد جرير، وعريب، وآيت حمو وحميان ...، فضلاً عن قصور تافيلالت التي تباينت العلاقة معها بحسب نوع الحلف التي تنتمي إليه، وهكذا ربط آيت خباش علاقة تعاون مع القصور الخاضعة لحلف آيت عطا بحكم انتمائهم إليه، لكنهم في الوقت ذاته ارتبطوا بعلاقة صراع مع القصور المنضوية تحت لواء حلف يفلمان.

تعتبر هيمنة هذه القبيلة على موارد اقتصادية حيوية (الماء، مجال رعوي خصب، طريق استراتيجي، ساقية، مساحات زراعية ...) ضرورة ملحة، لها ما يبررها من الظروف الطبيعية والسوسيو اقتصادية التي جعلت آيت خباش ينخرطون في العديد من الصراعات والتحالفات القبلية، ويخوضون، من ناحية أخرى، مسيرات طويلة من التنقلات والرحلات الانتجاعية، أدت بمعظمهم إلى التحول من نمط الترحال إلى حياة الزراعة والاستقرار خاصة بعد الغزو الاستعماري لمجالهم الرعوي خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. فكانت الأطماع الاستعمارية خلال هذه الفترة تتزايد سيما وأن قبيلة آيت خباش كانت تتميز بمجال جغرافي واسع، حاول المستعمر الزحف على أطرافه الشرقية بشكل تدريجي بغية تقليص مساحته، ومن ثمة تقزيم النفوذ الترابي للقبيلة وإضعاف قوتها الاقتصادية، من أجل إحكام السيطرة عليها، ثم تطويعها لخدمة المصالح الاستعمارية في مرحلة لاحقة.

استجاب آيت خباش وسكان تافيلالت عمومًا، لنداءات شيوخ الزوايا الداعية إلى جهاد النصارى؛ فكانا معا السباقين لصد التوغل الفرنسي بالتخوم الشرقية للبلاد، من خلال العديد من المعارك الدامية التي راح ضحيتها آلاف الشهداء. لكن على الرغم من تعرض حركة المقاومة المنطلقة من تافيلالت بزعامة آيت خباش لكثير من الهزائم والخسائر في الأرواح والعتاد، فإنها لم تستسلم، ولم تُلقِ السلاح، بل دافعت عن بلادها وأرضها، بكل شجاعة وإقدام، وبذلت الغالي والنفيس، في سبيل الحفاظ على حريتها واستقلالها. أضف إلى ذلك أن مقاومة آيت خباش لم تتلق الدعم اللازم من قبل المخزن السلطاني، وهذا ما شكل في واقع الأمر شرخا بين هذه القبيلة، والمخزن، الذي يبدو أنه قلب ظهر المجن لحركة المقاومة الخباشية، وكان رد فعله مخزيًا ومتخاذلاً، ولم يكن في مستوى تطلعات مجاهدي آيت خباش وكافة حركات المقاومة بمنطقة تافيلالت. وقد كان آيت خباش في مقدمة قافلة المجاهدين، بفضل خبرتهم الطويلة في مقارعة الأعداء والدخلاء سواء في الواحة أو الصحراء.

أسهمت الخبرة الطويلة لآيت خباش في خوض الحروب والمعارك، جراء ترحالهم المستمر وما واكب ذلك من مواجهات مفتوحة مع القبائل والعناصر التي كانت تعترض مسيرتهم الرعوية، فضلاً عن نفسهم الطويل في الصبر على مكابدة مشاق السفر ومخاطر الرحلات في حصول أفراد هذه القبلية على حظ وافر من الشجاعة، والإقدام وقوة الشكيمة. لذلك، شكل هؤلاء على الدوام شوكة في حلق المستعمر، الذي غالبا ما كان يضع معادلة آيت خباش ضمن حساباته، كلما ساورته أي فكرة بخصوص غزو تافيلالت. ويبدو أن هذا الأمر كان كافيا للدلالة على الهالة والمكانة الكبيرة التي تمتعت بها الشخصية الخباشية لدى الإدارة الفرنسية. وإذا كان أفراد القبيلة يمتلكون قدرا لا يستهان به من الأسلحة، فإن ما كان يمنح لهذا التسلح قيمته الحربية، هو براعة الخباشيين في استعمال بنادقهم، ومهاراتهم العالية في الغارات، وتسديد الضربات المباغتة والفجائية، الشيء الذي كان يقلق الفرنسيين ويزيد من حنقهم وضجرهم، بل ويربك حساباتهم، ويهوي في معظم الأحيان بخطط وتكتيكات قادة جيوشهم.

لقد فُرض على أهل تافيلالت وضمنهم آيت خباش أعمال السخرة أو العمل المجاني، لاسيما بعد إحكام السيطرة الاستعمارية على المنطقة والقضاء على آخر زعيم للمقاومة الخباشية بها خلال شتنبر ١٩٣٨. ولتحقيق هذه الغاية، أسندت مهمة تنفيذ هذه الأعمال لزمرة من القياد وبمساعدة الشيوخ والمقدمين؛ الذين شكلوا أداة البطش والتعذيب المسلطة على الساكنة، بما في ذلك سياسة الظلم

والجور التي نهجها هؤلاء القياد، ومن يدور في فلكهم، خاصة ضد الفقراء والمعدمين الذين لا يتمتعون بأي نفوذ أوجاه أو ثروة. ومن تجليات ذلك، ممارسة سياسة الضغط والتعسف والاستغلال على العمال، سواء من حيث طول ساعات العمل وعدم توفير المؤن، أو الإهانة لأتفه الأسباب، زيادة على إجبار الساكنة على توفير وسائل العمل والدواب، فضلاً عن بعض المواد الأساسية في أعمال البناء، كالحجر، والجير، والتراب، والأخشاب.

أدت هذه الممارسات إلى تزايد احتجاجات وتمردات آيت خباش، الشيء الذي جعل القيادة السياسية والعسكرية الفرنسية تصدر أوامرها لضباط الشؤون الأهلية بكل من "الطاوس" و"الريصاني" و"أرفود" بضرورة أخذ كل الاحتياطات اللازمة لتأمين مصالحها الاستعمارية بمنطقة آيت خباش بتافيلالت، وذلك عن طريق زيادة تشديد المراقبة، على كل أعمال وتحركات أفراد القبيلة بالواحة الفيلالية على وجه خاص. ولم تكن أعمال القمع والاستغلال السبب الوحيد لتنامي مقاومة الخباشيين، بل أسهم تقلب واضطراب نفسية ومعنويات آيت خباش في هذه المقاومة. لذا، فطنت سلطات الحماية إلى مدى دور تحسين وتطوير الظروف المعيشية لأفراد القبيلة في استقرار أوضاعهم السياسية والأمنية. مما جعلها تحرص على توفير الظروف الملائمة لممارسة الخباشيين لأنشطتهم الزراعية والرعوية، بهدف تهدئة نفوسهم وتسكين روعهم.

بيد أن هذه السياسة لم تكن فعالة بما فيه الكفاية؛ على اعتبار أن آيت خباش هم رحلا في الأصل، وحديثي العهد بالاستقرار، حيث عاش هؤلاء ظروفاً معيشية صعبة قبل فترة استقرارهم. كما كانت مسألة تحسن أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية، وتحقيق الاستقرار النفسي والأمني بمنطقتهم، رهينة بضرورة تكيفهم مع نمط حياة جديد، لم يعتادوا عليه في السابق، ولم يكن لهم على ما يبدو استعداد لخوض غماره. لذلك لم يستقر كل أفراد آيت خباش إبان فترة الاحتلال الفرنسي، ولم يكن استقرار معظمهم نهائيا؛ بل كان عبارة عن نصف استقرار، بحيث ظل الكثير منهم يمارسون الرعي والترحال إلى جانب الاستقرار بالقصور في فترات ومواسم معينة في السنة. هكذا سمي هؤلاء بأنصاف الرحل أو أنصاف المستقرين. وهذا ما يبين في الحقيقة صعوبة "المرحلة الانتقالية" التي عاشها آيت خباش بتافيلالت ورحل المنطقة عموما خلال هذه الحقبة؛ أي أن الانتقال من نمط الترحال والتجوال، إلى نمط الزراعة والاستقرار لم يكن بالأمر اليسير، على اعتبار مساهمة هذا التحول في إحداث تغيرات عميقة في حياة الرحل في مجموعة من المستويات: السوسيو اقتصادية، والذهنية، والعرفية.

شكل التدخل الفرنسي في **الأنشطة الفلاحية** لآيت خباش عاملاً رئيسًا في حدوث تحولات في هذا الميدان. فعلى الرغم من تنوع هذه الأنشطة بين الإنتاج الزراعي وغرس الأشجار وتربية الماشية، فإن ذلك لم يمنع من وجود تفاوتات كبيرة بين رحل القبيلة وبين أفرادها المستقرين خاصة على مستوى قطعان الماشية، التي سجلت ارتفاعا كبيرا لدى الفئة المرتحلة. كما أن السياسة الفلاحية الفرنسية بالمنطقة أسهمت في تطوير الميدان الفلاحي والتحسن النسبي لوضعية المزارعين الاقتصادية والاجتماعية، لاسيما المستقرين منهم. بينما أدى التدخل الفرنسي في الميدانين الحرفي والتجاري إلى نتائج عكسية، ولم يخدم سوى مصالح أرباب المصانع والتجار الكبار. والأمر نفسه حدث في الميدان المعدني، إذ كان استغلال ثروات آيت خباش بالطاوس وغيرها من مناطق إقليم تافيلالت هو الشغل الشاغل للشركات المنجمية التي كانت - في نهاية المطاف - تخدم المتروبول ومصالحه الاقتصادية بالمنطقة؛ فبعدما كان آيت خباش أسيادا للتجارة في تافيلالت والمتحكمين في تنظيم القوافل التجارية الصحراوية العابرة للحدود، تحول معظمهم إلى مجرد عمال في المناجم والضيعات الفلاحية التي استحوذ عليها المعمرون إبان فترة الحماية.

أثر الاحتلال الفرنسي لمجال آيت خباش على **أوضاعهم الاجتماعية**؛ فمنذ هزيمة إيسلي (١٨٤٤م) ومعاهدة لالة مغنية الحدودية (١٨٤٥م)، ووحدات الجيش الفرنسي تستغل كل الفرص للتحرش بهذه القبيلة وكافة قبائل الرحل بالتخوم الشرقية للبلاد، لكن الاختراق الاستعماري لمراكز هذه القبائل، أسهم في محاصرتها جغرافيا وضيق الخناق على حركتها الانتجاعية. اتضح ذلك في المخطط الاستعماري الرامي إلى خنق المواصلات التقليدية لهذه القبائل عبر بناء طرق ومسالك جديدة تُستخدم فيها القطارات عوض قوافل الجمال، مما أسفر في نهاية الأمر عن اختراق الاستعمار الفرنسي لكل واحات ومراكز تواجد القبائل المرتحلة. كما استخدم قادة الجيش الفرنسي وسائل أخرى اعتمدوها كمناورات من أجل غزو مجالات الرحل واحتلالها، وأبرزها اتخاذ ذريعة ضبط أمن الحدود ومطاردة المجاهدين لكسب مزيد من الأراضي

عرض أطروحة

المغربية والتوسع على حساب مواطن قبائل آيت خباش، وذوي منيع وأولاد جرير.

وارتباطاً بالسياسة الاستعمارية نفسها تجدر الإشارة إلى نهج فرنسا لمجموعة من الأساليب والطرق للاستحواذ على الأراضي؛ مثل **استغلال الجوانب القانونية** في إثبات ملكية الأرض، والتظاهر بإدخال إصلاحات في تقنيات السقي واستصلاح أراضي البور، فضلاً عن سياسة تقزيم مساحة المستغلات الزراعية والمراعي والغابات. وعلى الرغم من غنى الثروات الطبيعية لمناطق الرحل وضمنهم آيت خباش، وأهمية مواردهم الاقتصادية والمالية خاصة من التجارة الصحراوية، وتوفرهم على عدد ضخم من قطعان الماشية، فإن تعرض مناطقهم للغزو من قبل قوات الاستعمار الفرنسي أسهم في أزمتهم الاقتصادية وأضعف مواردهم التجارية.

فكان الفرنسيون في كل الأحوال، ومن خلال مخططاتهم الاستعمارية، يهدفون إلى غزو الأرض وترويض القبائل، فضلاً عن سياسة **البلقنة الإدارية** التي نهجتها سلطاتهم مع رحل التخوم، وذلك عبر تقسيمهم إلى شطرين اثنين تابعين لإدارتين مختلفتين - جزء تابع للإدارة الجزائرية والثاني تابع للإدارة المغربية - بهدف ردع المقاومة من جهة، وتمهيدا لعملية استقرار هؤلاء الرحل وثنيهم على الاستمرار في حياة الترحال من جهة ثانية. مما نتج عنه تقلص كبير في المجالات الرعوية للرحل ومن ثمة تفاقمت أوضاعهم المعيشية، وساءت أحوالهم الاجتماعية. الشيء الذي ساهم في تخلي مجموعات كبيرة من الرحل بواحات زوزفانة وكَير عن أراضيهم وقيامهم بهجرات جماعية إلى تافيلالت التي شكلت آخر حلقة من سلِسلة ترحالهم.

لا شك أن **تدهور الظروف الاقتصادية والاجتماعية** لآيت خباش بعد استحكام القبضة الفرنسية على الواحات الحدودية (إيكَلي، بشار، العبادلة، بني عباس ...)، واستنفاذها مع باقي قبائل التخوم الشرقية لكل إمكانيات ووسائل المقاومة بهذه المناطق، سيحتم على كل من **رفض الخضوع منها للاستعمار الفرنسي**، وأبى العيش تحت كنفه، **الهجرة** نحو الواحات والمناطق المغربية غير الخاضعة في تلك الفترة للاستعمار الفرنسي. وقد كانت منطقة تافيلالت في مقدمة الواحات التي انتقل إليها المهاجرون من المراكز الحدودية التي احتلتها القوات الفرنسية ما بين ١٩٠٠ و١٩٠٣، حيث مكنتهم واحات تافيلالت من ظروف سياسية واجتماعية جديدة، سيعملون من خلالها على إعادة ترتيب أوراقهم، وإعادة النظر في كل الخطط والتكتيكات الحربية التي كانوا يعتمدون عليها في سابق مواجهاتهم للقوات الغازية.

إن جدلية **استقرار الرحل بتافيلالت**، وضمنهم آيت خباش، تطرح تصورين اثنين؛ يتعلق الأول بمدى مساهمة **الظروف الطبيعية والبشرية** في هذا الاستقرار، والتصور الثاني يبرز **دور الاستعمار الفرنسي في هجرة واستقرار قبائل الرحل** ليس في واحة تافيلالت فحسب، بل في باقي واحات المعاضيد والرتب وبوذنيب ودرعة. غير أن النظر المتفحص في هذه المسألة يقودنا إلى القول بأن استقرار هؤلاء الرحل بمنطقة تافيلالت مبدئيا لم يكن وليد الفترة الاستعمارية خلال مطلع القرن ٢٠م، بل يعود إلى فترات مبكرة من القرنين ١٨ و١٩م، وربما قبل ذلك، لأسباب طبيعية ومناخية، تجلت في استمرار سنوات القحط والجفاف، وتفشي الأمراض والمجاعات في صفوف الرحل، الشيء الذي أجبرهم على الاستقرار ومزاولة أنشطة متنوعة توفر لهم مداخيلها الوقاية من الهلاك جوعا. كما أسهم تغلب "العصبية الرحّلية" على "العصبية القصورية" في معظم الأحيان في استحواذ الرحل على قصور المستقرين، ومن ثمة استقرارهم بها أو بناء قصور جديدة بجوارها، بيد أن هذا الاستقرار لم يكن نهائيا لدى أغلبهم، الذين ظلت عائلاتهم وأسرهم تجوب الصحاري والواحات بقطعانها وخيامها طيلة هذه الأزمنة طلبا لمنابع المياه ومصادر العشب والكلإ.

أما التصور الثاني الذي يتبنى طرح "الدور الفعال للاستعمار الفرنسي في استقرار الرحل" وهو الراجح عندنا خاصة مع مطلع القرن العشرين، فيظهر من خلال إسهام استمرار حركة الجهاد والمقاومة لدى آيت خباش على أرض تافيلالت، في جعلهم محط اهتمام سلطات الاستعمار الفرنسي، التي وضعت العديد من المخططات السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية قصد جلبهم إلى حضيرة الخاضعين، ومن ثمة إدماجهم في بوتقة الساكنة التي تستجيب للسياسة الفرنسية. وعليه، كان توفير **فرص الشغل** للخباشيين في مناجم الطاوس وفي الجيش، وأيضا بضيعات المعمرين بالجزائر كلها وسائل وآليات نهجتها السلطات الفرنسية قصد تشجيع رحل آيت خباش على **الاستقرار والاندماج في حياة سكان القصور**، على الرغم من أن هذه التدابير ستؤدي دون شك إلى تحولات عميقة لهؤلاء الرحل على المستوى الذهني، والاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، والمعيشي.

وقد بذلت سلطات الاحتلال جهودا حثيثة في تثبيت واستقرار آيت خباش في قصور واحة تافيلالت وهوامشها الشرقية والغربية. فاستخدمت لتحقيق ذلك **أسلوب الترغيب والترهيب**، عبر مساعدة القبيلة على غرس أشجار النخيل، وتوفير فرص الشغل لبعض شبابها سواء في **الجيش** أو **المناجم** من جهة، وممارسة سياسة تعسفية ضد الخباشيين، خصوصا خلال فترة عصيانهم أو تنظيمهم لمظاهرات من جهة أخرى. فكانت تقوم بتشديد القيود على التجار الذين يبيعون السكر، والشاي والزيت، والملابس الصوفية إلى الخباشيين، في إشارة إلى تطبيق نوع من الحصار الاقتصادي على القبيلة والحد من حصولها على هذه المنتجات الحيوية، كآلية من آليات الردع والقهر، لإخضاعها وإخماد جذوة تمردها ومقاومتها. ومع ذلك، استمر **تعنت الخباشيين وتمردهم ضد السياسة الفرنسية** بالمنطقة طيلة الفترة الاستعمارية، بسبب **طباعهم الفظة والغليظة والعنيفة ضد المحتلين**، مما أسهم في استمرار مهادنة الفرنسيين لهم طيلة فترة الحماية، حيث لم تتمكن الإدارة الفرنسية من تحويل كل الخباشيين بتافيلالت إلى حياة الاستقرار، رغم مجهوداتها الكبيرة الرامية إلى تحقيق هذا الهدف.

يمكن القول إذا، أن الوسط الطبيعي لآيت خباش بتافيلالت أثّر على وضعيتهم الاقتصادية والاجتماعية، حيث إن إشكالية تقلص الأراضي الزراعة دفعت المستقرين منهم إلى غرس أشجار النخيل، قصد تحقيق دخل مالي إضافي، خاصة في سنوات القحط والجفاف، حيث بالكاد يجد الناس ما يسدون به رمق عيشهم، فقلة الأمطار وعدم انتظامها يحد من تزايد الإنتاج ويفرض اقتصاد الندرة، بيد أن التغلب على العواقب الوخيمة للتقلبات المناخية، دفع سكان تافيلالت وضمنهم آيت خباش إلى تنويع مصادرهم المالية؛ عن طريق الجمع بين الزراعة والغراسة وتربية الماشية، وعوض أن يعتمد الفلاح على منتج التمور فقط، يمكنه أن يزرع القمح والشعير، أو يربي بعض رؤوس الماشية. فإذا خسر في هذا المورد ربح في الآخر.

خاتِمَةٌ

وختامًا لا يدعي الباحث الإلمام بكل التحولات الاقتصادية والاجتماعية لآيت خباش تافيلالت زمن الاحتلال الفرنسي، لأن هذا العمل لا يعتبر سوى تمهيدا لأعمال أكاديمية لاحقة بإذن الله، نظرًا للعديد من الفجوات التي لم يتمكن البحث من سدها على اعتبار أن خلاصات واستنتاجات هذه الدراسة تبقى قابلة لتعميق البحث والتحليل من قبل باحثين آخرين.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض القضايا التي أثارها هذا البحث تحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب، وحسبنا أن تكون امتدادًا لعملنا مستقبلاً، بحيث يمكن أن تشكل موضوعات لدراسات وأبحاث من مشارب فكرية ومعرفية متنوعة لتحقيق التراكم التاريخي والمعرفي الكفيل بإلقاء مزيد من الأضواء على كل ما يهم استقرار قبائل الرحل بتافيلالت عمومًا وقبيلة آيت خباش خصوصًا خلال التدخل الاستعماري الفرنسي مطلع القرن العشرين. وتتجلى بعض الموضوعات التي قد تشكل امتدادات لهذه الأطروحة فيما يلي:

- أهمية العرف واجْماعة في تنظيم المجتمع القبلي لآيت خباش.
- دور تحالفات تاضّا وتافركانت في تمتين علاقة التعاون بين آيت خباش والقبائل الأخرى.
- آثار السياسة الفرنسية على آيت خباش الرحل: ١٩٠١ – ١٩٣١
- آيت خباش من الترحال إلى الاستقرار: المظاهر والتحولات
- المرافق الصحية والتعليمية بمنطقة تافيلالت على عهد الحماية الفرنسية
- التحولات الاقتصادية والاجتماعية لآيت خباش خلال فترة ١٩٥٦ - ١٩٣٨
- استقرار رحل آيت خباش بالمركز الحضري للريصاني: الأسباب - الظروف - الانعكاسات.

الاحالات المرجعية:

(١) كان هذا البحث موسومًا بـ: " **التاريخ الاجتماعي لتافيلالت خلال القرن التاسع عشر** (١٨٤٥ - ١٩٠٠)، **من خلال وثائق مخزنية**"، تحت إشراف المرحوم أحمد البوزيدي، نوقش بكلية الآداب ظهر المهراز في يوليوز ٢٠١٠. ونال فيه الطالب عبد الرحمان ملوكي ميزة حسن جدًا.

(٢) تجدر الإشارة إلى اختلاف الباحثين في كتابة هذا المصطلح؛ فمنهم من يكتبه "آيت **يافلمان**" وآخرون يكتبونه "آيت يفلمان" (بدون الف "ا"). غير أننا سنعتمد في هذه الدراسة على الاختيار الثاني؛ أي **آيت يفلمان** لاعتبارين اثنين: ويهدف الأول إلى **توحيد رسم المصطلح** على امتداد فصول ومحاور هذا العمل، في حين يتجلى الاعتبار الثاني في **الدلالة اللغوية** لمصطلح آيت يفلمان، الذي يتشكل من كلمتين أمازيغيتن: "آيت" وتعني **أهل**، و"يفلمان" بفتح الياء وتعني **وُجِدَ الآمان** وبضمها تعني **الآمان**. والمغزى العام من **آيت يفلمان** هو تحقيق الآمان ونبذ الفوضى واللااستقرار وتفادي الصراعات القبلية، وهي الغايات الكبرى التي أسس من أجلها حلف **آيت يفلمان**.





https://kan.journals.ekb.eg

Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

https://www.facebook.com/historicalkan